91 سلسلة روايات عالمية

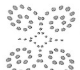
بروسبير ميريميه

كولومبا
وقصص أخرى

(القصص الكاملة: الجزء الأول)

طبعة قدمها وعلق عليها: بيير جوسران

ترجمة:
زياد العوده



منشورات وزارة الثقافة
ج.ع.س
دمشق
2002

إهـــــــداء٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

بروسبير ميريميه

كولومبا

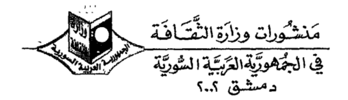
وقصص أخرى

(القصص الكاملة)

الجزء الأول

طبعةٌ قدّمها وعلّق عليها : بيير جوسّران

ترجمة
زياد العوده



العنوان الأصلي للكتاب :

P. Mérimée

COLOMBA

Et Autres Nouvelles
(Oeuvres Complétes)
Tome : 1er
Edition Présentée et annotée Par
Pierre Josseran

كولومبا وقصص أخرى : القصص الكاملة = Colomba Et Autres Nouvelles/ بروسبير ميريمية؛ ترجمة زياد العوده . – دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٢ . – ج١؛ ٢٤ سم . – (روايات عالمية؛ ٩١).

١- ٨٤٣ ف م ي ر ك ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- ميريميه ٥- العوده ٦- السلسلة مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع – ٢٠٠٢/١/٨٦

روايات عالمية
«٩١»

- مدخل -

في الخامس من فانديميير[1] للسّنة الثانية عشرة (أي ٢٨ أيلول ١٨٠٣)، وفي السّاعة العاشرة مساءً، وُلد في باريس، في أحد مباني حديقة سانت - جنفييف، رقم: ٧ والتي هُدمتْ بعد ذلك التاريخ بقليل، من أجل أن يصبحَ مبنى البانتيون مكشوفًا، وكي يجري شقُّ شارع كلوفيس، وُلد طفلٌ أطلقوا عليه اسم: بروسبير[2] الذي لم يكن حينذاك اسمًا غريبًا على الإطلاق.

وغالبًا ما كان هذا الاسمُ يغيظُ الطفلَ، مع أن حياته، في مجملها، لم تتناقض مع الفأل الحسن لذلك الاسم. ولكن هل نال المعمودية؟ كلا، كما يُظَنُّ.

بيد أنه يمكنُ للاستنتاجات التي نستخلصها أحيانًا من هذه الواقعة الفريدة أن تكون أقلَّ هشاشةً، لو لم يكن يُفترضُ بنا أن نتذكّر أن المعاهدة الدينيّة التي وقّعت مع البابوية، قبل ولادة ميريميه، لم تكن آنذاك قد أكملت عامها الثّاني، في فرنسا التي تحولت عن المسيحية تحولاً عميقًا، في ذلك العهد.

لقد كان ابنًا لليونور ميريميه، ذوّاقة الفنّ الحاذق، والمصوّرِ العاديّ، وأستاذ الرسم الذي خلّفَ بحثًا ظلَّ يُعد بحثًا كلاسيكيًّا لزمنٍ طويل، وهو: «في الرسم الزيتي أو: في الوسائل المادية المستخدمة في هذا النوع من الرّسم، منذ عصر

(١) - فانديميير: أحد أشهر التقويم الثوري الفرنسي (م: ز.ع).

(٢) - بروسبير: يعني: المزدهر. (م: ز.ع).

هوبير، وجان فان إيك، حتى أيامنا». كما كان ابنًا لآنّا مورو، المرأة المثقفة، والفنّانة، وذات العقل الرّاجح، والقليلة الميل إلى الاندفاعات العاطفية.

كان بونابرت قد باع لويزيانا للتوّ إلى الولايات المتحدة، وأعلن الحرب على إنكلترا، وألغى حرية الصحافة، وإلى أن يسقط الامبراطور، سيكون صخب الانتصارات، ثم النكبات، هو كلّ ما سيبقى. إلاّ أنّ الأحداث السياسيّة كانت تترك أصداءً ضعيفة في ذلك البيت الذي يحبُّ الفنون، ويغلبُ عليه الفكر أكثر مما تغلب عليه الحساسيّة، وقد ورث بروسبير عن والده الذي كان في السّادسة والأربعين، وعن والدته التي كانت في الثامنة والعشرين، ورث بخاصةٍ تشكّكه الجذريّ، وكراهيّته الفظيعة لكلّ ألوان التعصّب.

إنه يتابع دراساتٍ لا يلمعُ فيها بنوعٍ خاص، في ثانوية نابوليون التي ستصبح معهد هنري الرابع، حين ترجع سلالة بوربون إلى الحكم. وتكتب والدته حين يبلغ التاسعة من عمره: «إن لدى بروسبير طموحًا كبيراً، ولكنّه سيّئ، ويستحقّ الصفع». ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة، حتى ترسّخ لديه، حسب قول والده: «هوًى لخربشة الرّسوم وفقًا لنموذجٍ طبيعي». إلاّ أن العجوز ليونور، الذي غدا حصيفًا، يكتبُ بعد ذلك بقليل: «لديّ ابنٌ كبيرٌ، وأودُّ أن أصنعَ منه محاميًا». فيمتثل بروسبير لذلك، ويحصل في عام ١٨٢٣ على إجازةٍ في الحقوق.

كانت الأسرةُ قد أقامت في عام ١٨٢٠ في مدرسة الفنون الجميلة التي عُيِّنَ ليونور أمين سرّها الدائم. وكان لا بدّ لملاكات موظّفي متحف الأوابد الفرنسية أن تطبع بطابعها ذهن الروائيّ، وعالم الآثار، بدرجةٍ لا تقل عن درجة تأثير وسط الفنّانين الذي كان بروسبير يعيش فيه، منذ أول أيّام حياته. كما أن كلمتيّ: روائي، وعالم آثار هاتين لا تكشفان إلا بصورةٍ ناقصة عن المؤلّفات الشديدة التنوّع لذلك المولع بالفنون، والإنساني النزعة، والذي كان إلى حدٍّ كبير، مثقفًا أكثر مما كان من رجالات الأدب.

كان لديه ميلٌ إلى الخداع . وكان دائم الحذر كنتيجة طبيعية لذلك ، أما جملة : تذكّر أن ترتاب ، فقد كانت الشعار المنقوش على خاتمه ، وشعار الختم المطبوع على كتبه[1] أيضاً ، والذي رسمه فيوليه - لو - دوك لأجله .

أما كتابه : «مسرح كلارا غازول» الذي صدر عام ١٩٢٥ ، فليس مؤلَّفًا يدور على الممثلة الإسبانية التي تزين صورها الكتاب ، بل على فتى في الثانية والعشرين من عمره ، يستترُ خلف وشاحٍ نسائيّ ، وهناك بعضُ النّسخ الشديدة الندرة التي تكشفُ الخديعة . كما أن كتاب «لاغوزلا» وهو منتقياتٌ من أشعارٍ غير غنائية صدرت عام ١٨٢٧ ليس من تأليف الشاعر الغنائي هياسانت ماغلانوفيتش - وفي تلك المرة ، يصنع المتلاعبُ خدعةً مزدوجة ، فالرّبابة (LA Guzla) هي نوعٌ من الكمان الدّلماسي[2] فعلاً والماكرون الذين اغترّوا بأنهم قد اكتشفوا في كلمة gugla جناسًا تصحيفيًا لكلمة Gazul ، لم ينتبهوا إلى أن هذه الأخيرة كلمةٌ من نسج الخيال تمامًا ، وأنها كانت تسبق بعامين الكلمة الأولى ، الواقعيّة حقًّا . أوليستْ الأسطر الثلاثة الأخيرة من قصة : وقائع عهد الملك شارل التاسع ، تحتوي على ما يكفي من الخداع ، من فرط تطلُّقها ، ومرحها ، إذ يرد فيها : «هل وجد ميرجي السّلوى؟» وهل اتّخذت ديانا عشيقًا آخر لها ؟ إني أترك القارئ يقرّر ذلك ، فهو ، على هذا النحو ، سينُهي الرواية حسبما يشاء» .

وكذلك فإن لغزَ قصة «فينوس ديل» يتضمّن «كلمتين» أما «الغلطُ المضاعف» فتظلُّ على درجةٍ كافيةٍ من الغَموض ، برغم السطر الأخير فيها .

غالبًا ما يتداخل الخداع مع العجيب والغريب ، واللذين كان ميريميه يميلُ إليهما ميلاً شديداً . إن قصةّ «فينوس ديل» الصادرة عام ١٨٣٧ ، والتي هي المؤلَّف الذي كان ميريميه يؤثره على مؤلّفاته كافة - والتي تُعبّر ، إضافةً لكارمن ، أكبر تعبيرٍ

(١) - ختم خاص يختم على الكتب كي يتحدد اسم مالكها : و EX. Libris معناها : «من بين كتب . . .» (م : ز . ع) .

(٢) - أي : كرواتي . (م : ز . ع) .

عن نفسه، على كلّ حال - وقصص: رؤيا شارل الحادي عشر، وأرواح المطهر، وزقاق السيدة لوكريزيا، القصة الظريفة جداً، وغير المعروفة إلى حدّ كبير، والقصة الماجنة: «لوكيس»، و «الغرفة الزرقاء» المتواضعة، تشهد على أن المؤلّف، من خلال أعماله جميعًا، يجدُ متعةً في إدخال البلبلة إلى نفس القارئ، ولكنها تؤكّدُ أيضًا على النزعة العالمية لميرميه، وعلى ميله إلى التغريب، ولقد كانت المقاطعات الإلّيرية[1]، وكورسيكا، وإيطاليا، وإسبانيا، وليتوانيا تزود آلاف المولعين بالإغرابية بمصادر حديثة العهد.

إنه رحالةٌ كبير، إضافةً إلى أن بحثه الذي لا يكلّ عن الشيء المكتوب لم يجعله يستخفُّ قطّ بالأهمية العظيمة الشأن «للشيء المرئي»، فلقد ذهب أربع مرات إلى إسبانيا، وخمس عشرة مرة إلى إنكلترا، وإيقوسيا. إنه يستمتعُ بمشاهد الحملة الانتخابية في لندن، عام ١٨٣٢، ويتعلّم منها. وبما أنه معدٌّ مرموقٌ للتقارير الصحفية، فهو يسجل في مدريد الحوادث المأسوية المضحكة للتمرُّد الأسبارطي لعام ١٨٤٠. ولقد ذهب مرتين إلى سويسرا، وبروسيا، وإلى البافيير، والتيرول وإلى النّمسا، وإيطاليا. وقد تجول في روما، ونابولي، بصحبة ستندال، وزار هولندا. غير أن هنالك رحلتين قصيرتين هما بحقٍّ رحلتا استكشاف جديرتان بالذكر خصوصًا وهما: جولته الطويلة التي يقوم بها وحده في إسبانيا لعامٍ ١٨٣٠، وهو يشاهد فيها إشبيليا، وغرناطة، وقادش، ومدريد، وفالنسيا، ولا سييرادي روندا، والتي ينامُ فيها على القش مع بغّاله «الذي هو أقذر خنزير في الأندلس»، وذلك «حين لا تكون أسراب البقّ شديدة الجوع». وبعد أن يكون قد تناول في معظم الأحيان عشاءه المؤلّفَ من ديك عتيقٍ مقليّ بالزيت، مع الكثير من الفلفل والأرز، وطوافه الطويل في المشرق عامٍ ١٨٤١، حيث يزور بصحبة ثلاثة رفاقٍ يليقون به، أثينا، وديلف، وسميرن، وإيفيزيا، والقسطنطينية، ومغنزيا الواقعة على نهر مياندر، وكالسيس، وسارد، وهو يحمل كتاب «هيرودوت» معه، ويحجُّ

---

[1] - منطقة بلقانية مقسمة حالياً بين إيطاليا ويوغوسلافيا والنمسا. (م: ز.ع).

إلى معبرِ التيرموبيل الذي «التهمت فيه سرف الذباب ليونيداس» ويخرج لملاقاة مجده، في صراعاته البطولية. الهزلية ضد التتّر الرُّحل، ويستحمُّ في نهر تمولوس[1]، ولدى عودته، يُحْجَزُ في محجرِ مالطا الصّحي «للاشتباه بإصابته بالطاعون إصابةً شديدة».

هل كان ميريميه رومانسياً؟ لقد كان في عهد إعادة الملكية ليبراليًّا بالتأكيد. وقد اشترك في تحرير مجلة لوغلوب[2]، شأنه شأن معظم أصدقائه المنضمّين إلى نادي إيتيين دو ليكلوز الأدبيّ: كالمؤرخ جان - جاك أمبير، زميله في الدراسة الثانوية، والذي سيتعين عليه ذات يوم أن يتوجه إليه من غير سخرية بـ «ياسيّدي» وأن يحرص، في الوقت نفسه، على ألاّ يخاطبه بصيغة المفرد، حين يستقبله في الأكاديمية الفرنسية، وأمبير هذا هو المولّهُ الدائم بالسيدة ريكاميه التي لن يغفرَ ميريميه لها أبداً أنها حولّت أقدم صديق له إلى عبدٍ عاشقٍ لها، ولودفيك فيتيه، الذي كان يكتبُ مسرحياتٍ تاريخيةً، وقد سبق ميريميه في مفتشيةِ الأوابد التاريخية، والفيلسوف شارل دوريموزا، والعالمُ الطبيعيّ فيكتور جاكمون الذي توفيّ في بومباي عام ١٩٣٢، وبول - لوي كورييه، المدفعيُّ الخيّال، والمستغرق[3]، والهجّاءُ، والكرّام الفاشل، والذي اغتيل عام ١٨٢٥، وستندال الذي التقاه عام ١٨٢٢، وكان له من العمر تسعة عشر عاماً، بينما كان هنري بيل[4] في الأربعين. أما التحيّة المغفلة، المخالفة للمألوف، والسّريةُ فضلاً عن ذلك، والتي نشرت حال كتابتها بصورة خبيثة، والتي وجّهها الأصغر منهما إلى الأكبر، في الكرّاسة الحكائية الشهيرة والفاضحة: هـ. ب، فتكشفُ، بالإضافة إلى السّمات العميقة لنفس ستندال، عن بعض الجوانب، في نفس مريميه أيضاً. ومع ذلك، ألا يمكننا أن

---

(١) - نهر في ليذيا، وهو رافدٌ لنهر مياندر. (م: ز.ع).

(٢) - أي: الكوكب. (م: ز.ع).

(٣) - أي العالم بحضارة الإغريق. (م: ز.ع).

(٤) - أي ستندال، الروائي المعروف. (م: ز.ع).

نقول عن مسرح «كلارا غازول» وعن «الغزلا» وعن «الوقائع» نفسها، وعن «فسيفساء» وعن «الغلطة المضاعفة» إنها شحناتٌ رومانسيةٌ أكثر مما هي مؤلّفاتٌ رومانسية؟ فذلك الذي أعاد طباعة قصته الصغيرة «الغزْلا»، لم يكن أكثر من رومانسيّ فاترٍ، وقد كتب في مقدمة تهكمية «حوالي عام ١٨٢٧، عام العفو: كنتُ رومانسياً، وكنا نقول للتقليديين: إن إغريقيّيكم ليسوا إغريقًا، ورومانُكم ليسوا رومانًا، إنكم لاتحسنون إضفاءَ الطّابع المحليّ على مؤلّفاتكم. . . وكنت أرغبُ رغبةً جامحةً في الذهاب إلى المكان الذي لم يزل اللون المحلي موجوداً فيه، فهو غير متوفّرٍ في كل الأمكنة. . . ».

«إن الأدباء يفسّرون الفنون من غير أن يفهموها». هذا قولٌ ردده دوغا، ونترددُ في التذكير به فيما يخصُّ ميريميه. ولكن من المؤكّد أن ابن ليونور قد كان: «مادح الأزمنة القديمة» إلى حد مفرط، وكان لا بدّ أن تجعله هذه النزعة الماضَويّةُ، فيما بعد، غير منصف أيضًا تجاه أكبر كتّاب عصره. لقد أقام «معرضين للّوحات[1]»، معرض عام ١٨٣٩، في «مجلة العالمين» ومعرض عام ١٨٥٣، في مجلة «المونيتور». وفي عام ١٨٣٩ يسمح لنفسه أيضًا بمسرة الخداع. ومعرضه الذي يوقع عليه يبدأ على النحو التالي: «أنا إنكليزي، وأسكن في لندن» وتحت هذا القناع، يكون بلا شك، أكثر حريةً في الكلام عن فنانين، بعضهم من أصدقائه. إنه يحيّي بعبارات مناسبةٍ لوحةَ: «الملك توليه» لأري شيفر، و «اختراق قسطنطين» لهوراس فيرنيــه، و «مشهد حفـــاري القبور فـــي هملت» لأوجين دولاكروا، و«التعذيب بالكلابّات» و «يوسف الذي باعه أشقاؤه» لديكان. ولكنه لا يقول كلمةً واحدة عن اللوحتين اللتين يعرضهما كورو في تلــك السنة: «منظرٌ من إيطاليــا»، و «منظرٌ في المساء»، ولا كلمة واحدة أيضًا - وهذا ما يدعو أقل إلى الدهشة - عن «صورةِ جورج صاند» لشاربانتييه، فذكرى «إخفاق» مذلٍّ تعرَّض له ميريميه لم تكن قد امّحت بعد. وفي معرض عام ١٨٥٣، تُحدثُ لوحة «المستحمّات» لكوربيه

(١) - معارض للوّحاتِ تتبعها أبحاث وآراء نقدية. (م: ز.ع).

فضيحةً، ويستنكرها ميريميه - ككلّ الناس، ولكن هذا الموقف يُعد تقريباً «ظرفاً» يجعلُ الانتقاد أشدَّ: «فلماذا يتخذ الرسام موقفاً مسبقاً، هو موقف البحث عن القبح؟ لماذا يروق لهذا الرسام الذي يُعدُّ من رسّامي الطّراز الأول أن ينسخ عن الطبيعة امرأةً غير شريفة، مع خادمتها، وهما تأخذان في إحدى البرك، حماماً يبدو أنه ضروريّ لهما إلى حدّ كبير؟».

إن ميريميه، انطلاقاً من نزعةٍ ارتيابية وانتقائية لديه، لا يرتضي لنفسه أية مدرسة، وليس انطلاقاً من الوجل بالتأكيد، فقصّةُ «الغلطة المضاعفة» تقدّم، بدءاً من عام ١٨٣٣، تماثلاً من وجوهٍ عديدة مع قصص الخيانات الزوجية، في «المجتمعات الراقية»، والتي كتبها بول بورجيه، ولكن بصورةٍ أكثر اقتصاداً، وأكثر تهكُّماً بطبيعة الحال. وبين قصة «مانون ليسكو» و «غادة الكاميليا»، أو «الابنة إليزا»، تشغل قصة «أرسين غيّو» لميريميه مكاناً. . . مشرّفاً.

إن مؤلفات ميريميه، كمؤرخٍ وكقاصّ، في ذلك الجزء الأول من حياته، تشهد على أنه كان يُؤثِرُ، على نحوٍ متساوٍ، الطباع العنيفة، وأوقات الاندفاعات المنفلتة، كقصّة «ثورة الفلاحين» (جاكري)، والفظاعات، من مثلِ أعمال التسميم، وارتكاب المحارم، في قصة: «عائلة كارفاجال» و «في الحبّ الأفريقي»، وفي قصة «إينيس ميندو» وقصة «الفرصة»، و «الوقائع» التي تتضمن «سان بارتيلمي ومقرّه في لاروشيل، وقصة «ماتيوفالكون» و «تامانغو» و «الحرب الاجتماعية»، و «دون بيدرو». . . ولسوف نورد في الوقت المناسب مؤلفاتِ الجزء الثاني من حياته.

ولا يقل قوة عن ميوله التي ذكرنا ميله إلى النماذج غير الاعتيادية، وإلى الخارجين على القانون، والمهرّبين، والمتشردين، وكأنه يجدُ فيهم بامتيازٍ الشيء الذي كان مُبتهجاً بالعثور عليه في كورسيكا، وهو « «طبيعة الإنسان الصّافية» وخصوصاً المعرفة التي حصل عليها كعالم نفس وهاوٍ للفولكلور. ويرى ميريميه أن «بيانات التمرُّد» أقل إثارةً للضحك في باريس منها في مدريد إلى حدٍ كبير. . .

إن الميل إلى السحر والرُّقى يظهر من بداية مؤلفاته حتى نهايتها، وذلك في «رؤيا شارل الحادي عشر»، و «الوقائع»، و «السّاحرات الإسبانيات»، و «فينوس ديل» و «كارمن» و «لوكيس». . . وفي السّادسة عشرة من عمره، كان يقرأ «السّحر الطبيعي» لـج. ب. بورتا، و «العالم المسحور» لبالتازار بيكير، و «بحثٌ في التجليات» لدوم كالميت، والذي اقتبس عنه غرائب تجليات «الغزُلا».

لم ينكر ميريميه أيضًا رأيــه الذي جاهر به في عام ١٨٢٩، حين قال: «أنــا لا أحبُّ من التاريخ إلا حكاياته، وإني أعترف بذلك اعترافًا يخجلني، فأنا أقايضُ مؤلفات توسيديد، بطيبة خاطر، مقابل مذكرات أسبازيا[1] الحقيقية، أو مذكرات أحد عبيد بيركليس».

ولكونه إنسانًا مركبًا (ومن منا ليس كذلك؟)، فهو يقدّم لنا صوراً متناقضة لكي يتاح لكل واحدٍ أن يحكم عليها حسب مزاجه. ولقد أبدى تين قبل غيره «حول قصة الإناء الإترورري»، ملاحظةً «لا يعترض عليها أحدٌ»، وهي أن ميريميه يفكّر بنفسه، حين يتكلّمُ على أوغست سان - كلير الذي «ولد بقلبٍ حنونٍ ومحبّ»، ولكنه، من جراءِ استهزاء رفاقه به، «قد جهد في إخفاء كلّ المظاهر التي كان ينظر إليها على أنها ضعفٌ مخجل». وحين يجتهد المرء كثيراً كي يظهر جافّ القلب. وحين يجاهر بأن «الجنس البشري خسيس»، وأنّه يجيز لنفسه، فضلاً عن ذلك، أن يتخذ مساراً حياتيًّا لامعًا، كمفتشٍ للأوابد التاريخية، في الواحدة والثلاثين من عمره، وكعضوٍ في أكاديمية المدوّنات، في الأربعين، وفي الأكاديمية الفرنسية في الحادية والأربعين، لا يكون من المدهش أن يُحيط به الحسّادُ، وأن يظهر أن هذا القدر من الحظّ الذي واتاه لا يمكن أن يكون غير مكافأةٍ له على أنانيته ووصوليّته. ولن يُفلت ميريميه، عضو مجلس الشيوخ فيما بعد، من الاتّهام بالمداهنة.

(١) - أسبازيا: هي صديقة بيركليس ومستشارته، وكانت شهيرة بجمالها وعقلها. (القرن الخامس ق.م). (م: ز.ع).

إن ميريميه يحبّ رفاهيته، وحين يعود من أسفاره، ومن جولاته، ومن أعماله الرسمية المرهقة، تكمن متعته في أن يقيمَ في شارع لي بوتي أوغوستان، وفي شارع ماريه - سان جيرمان، وشارع الفنون الجميلة (بوزار)، على بُعد خطوتين من المجمع الأعلى، إلى جانب والدته، والقطّ ماتيفاس، وفي «مستودعٍ مسوّداته»، وبين كتبه التي جلّدها كابيّه، ولكن أيُّ أنانيّ خدوم كان ميريميه؛ كان ذا وفاءٍ ثابتٍ لايتحولّ لأصدقائه، وللوافدين من الريف من مثل إسبري ريكيين الأفينيوني، وكان عالمًا طبيعيًّا، وأحد هواةِ المخطوطات الأصلية، وحاميًا للأدباء. كما كان ميريميه وفيًّا لرفاق الأوقات المرحة، وأعشية المبنى الدائري في باليه - روايّال، والأمسيات التي تتلوها، والمنافية للتهذيب إلى حدٍّ كبير، في شارع درابّوري، أو عند ليريش: مع موسّيه، وديلاكروا، وأدولف دوماريست، العشيق غير الاستثنائي لألبرتا دو ريبامبريه، والطبيب البروسيّ كوريف، أكثر الدّجالين سحرًا، والمرهف العقل كثيرًا، والمتجسّس قليلاً، والذي لا إيمان له، ولاشرعة». وإيبوليت روابيه - كولار، الطبيب أيضًا، وابن الأخ المستهتر للعقائديّ الكبير روابيه كولار، والمحامي الإنكليزي سوتون شارب: «الرجل المرهف العقل، والشديد الفجور، والذي كان يكسبُ مئة ألف فرنكٍ في العام، من دفاعه عن الأرملة واليتيم، وكان يصرفها على راقصات الأوبرا»، والذي مات وهو لايزال شابًا، بسكتة دماغيّة، لأنه قد اشتغل أكثر من اللازم، وأفرط في ممارسة الحب»...

تؤكّد كلارا غازول أن المرأة شيطانٌ، وميريميه الذي كان ينسى في معظم الأحيان شعاره، قد جرَّب الشيطان، وعرف أكثر مما ينبغي، فاتنات «شريرات» تحقيقًا لاستقراره. ومن بينهن، كانت هناك، والحقُّ يقال، بعضُ الصداقات النسّائية الرائعة التي كان من شأنها أن تؤمّن له السلوى، لو لم تكن، في نظر حتى الارتيابيين بالقيم، خسائر مدمّرة أبدًا.

إن صوفيا دوفوسيل، زوجة ابن كوفييه، الطيّبة والرقيقة، هي التي كانت تستقبل في حديقة النباتات، داخل قاعة استقبال عالم الطبيعة الشهير كوفييه، فتيانًا كانوا يعدّونها رفيقتهم الساحرة، وكانت أسماء هؤلاء الفتيان هي: ميريميه، وستون، وجاكمون، وستابفير، وجوسيو. وكانت هناك خصوصًا والدةُ الامبراطور، الكونتيسة دو مونتيجو، من مرحلة الشباب وحتى اليوم الأخير، والتي أمّن، ربّما، «استقراره المادي» بفضلها، والتي كانت، بالنسبة إليه على الأقل، كاتمة أسرارٍ لا نظير لها وصديقة رجوليّة، وملْهمةً أيضًا، على مدى أربعين سنة. وهي التي روت له ذات يوم، في غرناطة، عام ١٨٣٠، الحادثة التي ولدت منها «كارمن». وكانت هناك أيضًا تلك الصديقة الإنكليزية لوالدته، المغمورة والمخلصة، وهي فاني لاغدن التي ستبقى على قيد الحياة، تسع سنوات بعد ميريميه، بعد أن عاشت في ظل «العزيز بروسبير» والتي ستطلب أن تقاسمه القبر، وقد لاحظ بعضهم أنها أرادت، بهذه الصورة، أن تكون الأخيرة، ربما لأنها كانت الأولى في حياته. . .

سوف نمتنع عن أن نسجل في باب العواطف التسليات التي نعدّها قطعًا متدنيةً في مستواها، والتي لم يستطع ميريميه الاستغناء عنها قط، بدءًا من الخُلاسية التي عرفها في الثلاثين من عمره، إلى ماروجا المدريدية الفينوسيّة الكفل، في مرحلة نضجه، وجورج صاند، فقد كان للحبّ نصيبٌ ضئيل في تلك التجربة القصيرة. ولسوف نضعُ في هذا الباب، بطيبة خاطر، سيلين كاتو، اللطيفة، وهي ممثلة منوّعات صغيرة، تطلق الشتائم، وتشرب بدون تخفيف، والتي تركت المفتش العام الشاب من أجل سيّدٍ إقطاعيّ روسيّ أكثر سخاءً، وذلك بعد أربعة أعوام من علاقة مثيرة (وقد تمّ ذلك وديًّا من الطرفين بعض الشيء. Invitum Invita) ولسوف يظهر ميريميه، بعد ثلاثين عامًا، مُسعفًا لتلك الفتاة الساحرة، عند شيخوختها المعوزة. بيد أن المرأة الأولى التي كان لها حسابٌ في حياته، والتي واسته سيلينا عن عدم وفائها له هي: إميليا هيمار، وهي زوجة رجلٍ اسمه فيلكس

لاكوست الذي لايتهاون في مسألة الشرف، إلاّ إذا كان العار ذا فائدة. إن ذلك السيد الحقير قد أفرغ ثلاث رصاصات في كتف وذراع ميرِيميه الذي أطلق عياراته في الهواء، كرجلٍ ظريفٍ ثانية، فقد ردّ على الأسئلة الخبيثة التي وُجِّهت إليه بصدد ذراعه المعلّقة على صدره: «لقد تقاتلتُ مع رجلٍ لم يكن يحبّ طريقتي في الكتابة».

أما العلاقة مع جيني داكان، والتي لم يكن أحدٌ يستشفُّ شيئًا منها، طالما كان ميرِيميه على قيد الحياة، فقد كانت علاقةً مؤثرةً على نحوٍ أقلّ (فقد كانت بطلتها عزباء)، وكانت علاقةً تدعو إلى الضحك إلى حدّ كافٍ في بدايتها. ولكن ما إن تُوفّي ميرِيميه، حتى نشرت الآنسة، تحت عنوان أصاب نجاحًا فائقًا: «رسائل إلى مجهولة»، بالإضافة إلى أنها قد رتّبتها ترتيبًا مُشينًا. ولكن الجمهور المندهش قد اكتشف فيها أن مؤلّف: «الإناء الإترووري[1]» و«الغلط المضاعف[1]» و«كارمن[1]» قد كان، طيلة أربعين عامًا، العاشق الأفلاطونيّ، بالرغم عنه، لامرأة تدّعي الأدب، اسمها «السيّدة بوتاس» (مع أن ذلك لم يكن غير ممكن على الإطلاق، ولكن الأمر سيكون مدعاةً للضحك أكثر، إذا لم تكن تلك الآنسة قطّ أكثر من رفيقةٍ رقيقةٍ لميرِيميه).

إنها مغامرةٌ غريبةٌ، وكانت قد بدأت (وليست المجهولة هي التي كشفت ذلك) من خلال التّضليل الأجمل، والأكثر وعداً بالأمل أيضًا. والذي يمكن أن يخدع به رجلٌ مرهف الفكر، وذو عقل شكّاك: فالمجهولة، تلك الريفية الصغيرة، الآتية من بولونيا – سور – مير، كانت قد اجتذبت ميرِيميه إلى كمينٍ حقيقي، من خلال توجيهها إلى الكاتب الشّاب رسائل إعجابٍ مشغوف، وموقعةً باسم الليدي الجيرنون سيمور، وهي سيدةٌ إنكليزيةٌ عظيمة من نسج الخيال البحت.

هنالك حجة (وهي ليست حجّة حاسمة) لصالح براءة العلاقة مع جيني داكان، وهي أن ميرِيميه كان قد ارتبط بعلاقات أخرى مع فالنتينا ديلسّير، بعد ثلاثة أعوام من كمين بولونيا، وهو يتكلم عن تلك العلاقات ببلاغة شديدة الوضوح، من

---

(١) – ميرِيميه طبعًا، كما سنرى فيما بعد. (م: ز. ع).

خلال حماسة انتصاره: «حين يكون على المرء أن يكتب تقريراً هائلاً، وأن يقرأ أنصاف طلحيّات، وأن يصحّح تجارب طبع عددٍ من الكتب التي لم تتمّ بعد، وحين تضاف إلى الكثير من المتاعب، متاعب عاطفيةٌ كبيرة. وبعد العديد من الحوادث الطارئة، الطويلة والموثّرة، يجدُ المرء نفسه ممتلكًا لسيدة لديها الصفّات الجسديّة الستّ والثلاثون والتي يوصي بها برانتوم، ولصفاتٍ أخلاقية لم يكن ذلك الخنزير يُحسنُ تقديرها، حين يكون ذلك كلّه موجوداً، يصبح المرء معذوراً فعلاً إذا ما أهمل أصدقاءه بعض الشّيء. . . إن السّيدة ديلسّير، ذات الجمال الجنوبي، وذات الطيبة والذكاء المجرّدين ربما «من السّحر والظّرف»، والتي تتمتع مع ذلك، «بميزاتٍ راسخة ومؤكّدة» كما يصورها شارل دي ريموزا الذي أحبته، أيضًا - سوف تكون، خلال خمسة عشر عاماً، سعادة ميريميه بكاملها. وإن كان صحيحًا، كما قال، أنه لم يكتب قط إلاّ كي يدخل السرور إلى نفسها، فقد كانت ملهمةً له لا نظير لها. . وانفصلت عنه بعد ذلك، وأعادت إليه رسائله، فأخذ ميريميه يتفكّر في الأمر مليًّا. ويُسرٌّ إلى السيدة مونتيجو بأنه «ما من سرٍّ خفيٍّ في هذه المسألة». كلا، بل كان هناك ذلك الأبله الفظيع الذي اسمه مكسيم دوكان. وثمة بيت من الشعر لشاعر لم يُقيَّضْ لميريميه أن يعرفه، يفسّر تفسيراً جيداً قنوط العشيق المهجور، وهو قنوط بعيد النّظر، ومريرٌ بالأحرى:

ستكون لي أوقاتٌ أخرى سعيدة، ولكن كم ستكون كئيبة! لو كان ميريميه ذلك الشخص الصّلف و «التّافه» الذي شهّر به منتقدون متشدّدون، لكان قد وجد السلوى بصورةٍ أكثر خفةً من أحزان الحبّ التي احتفظت رسائله بشكواها المكتومة. ولكنّه هو الذي قال عن نفسه إنه «تافهٌ» ولكن مع بعض التبجح. أما سنواته «سنوات التشتّت» التي كان يتوق فيها إلى المعرفة أكثر مما يستمتع بها، فقد كانت قصيرةً. وأخيراً، فقد كان ميريميه عاشقًا على نحوٍ خطير، ومخلصًا إلى درجةٍ لا يمكن معها أن نحمل عليه، لأنه قد ذكّرنا على الدّوام بحكايات ما كنّا لنعرفها، إضافةً لذلك، لو لم يَروِها لنا «بسلامة نيّة» إن بعض الرسائل المتحرّرة من القيود قد

أحدثت فضيحةً، وقد قال شارل مورا الكلمة الصحيحة فيها: «تلك ضجةٌ كبرى تُثار حول أعشيةٍ غير متكلّفة».

كان ميريميه، المولع بالفنون، والارتيابي النزعة، مواظبًا كبيرًا على العمل. وما إن كُلِّف، من غير استعدادٍ منه، ليكون مفتشًا للأوابد التاريخية، في زمنٍ كان عدمُ اكتراثٍ رسمي طويل الأمد قد شجّع فيه كافة ضروب التخريب الهمجي الفردية للآثار، وكان من الممكن أن يتوقَّع أنه لم يعد هنالك شيءٌ يحافظ عليه، في ذلك الوقت، إذا لم يجرِ البدءُ بإنقاذ ما لا يزال قائمًا على قدميه إلى حدٍّ ما. ما إن كُلِّف بذلك، حتى جابَ فرنسا، في عرباتٍ للمسافرين، وفي عربات البريد، أو في عرباتٍ رجّاجةٍ يمكن لركوبها غير المريح أن يثبطَ عزيمة السائح الأكثر إقدامًا في أيامنا. وكان ميريميه يكتبُ في المساء، وقد أرهقته مجادلاتُ النهار مع أعمدة البلدات غير المثقفين، ومع الكهنة «الطرّاشين» كان يكتب تقارير بارعةً، ومفعمةً بالدعابة السوداء، في أنزالٍ رديئة، يبيت فيها سائقو العجلات. وقد قُيِّض له فيها أن يشكو، وهو يتناول حساءه، «من أنهم لا يقدّمونِ الشَّعر في طبقٍ مستقلٍّ، كي يأكله أولئك الذين يحبونه». كما هي الحال - بلا شك، في الفنادق الإسبانية لعام ١٨٣٠. وباستخدامه لتلك الوسائل، فإن جولاته التفتيشية في الجنوب عام ١٨٣٥، وفي الغرب، عام ١٨٣٦ وفي أوفيرنيا، عام ١٨٣٨، وفي كورسيكا، عام ١٨٤٠ (وتلك هي الجولات الأكثر أهمية، والتي أصبحت الأكثر شهرةً، بفضل المجلّدات الأربعة من كتابه: «ملاحظات السفر». ولكنه سوف يحتمل المشقة، على مدى خمسة عشر عامًا، بمزاجٍ حسن، ودون تذمّر. إن جولاته هذه سوف تؤمّن إنقاذ رسومٍ جدارية في سان - سافان سير - غارتامب، وفي قصر البابوات، وفي كنيسة المادلين، في فيزليه، ورسوم مسرح دورونج، وسان تروفيم، في آرل، وسان - نازير في كاركاسون. وفي نوتردام دوبور، في كليرمون، وفي نوتردام دوشارتر وجسر سان بينيزيه، ورسوم أسوار أفينيون، وطنافس السيدة في ليكورن.. ولولا هذا المناهض للكهنة الذي لم يستطع أبدًا، برغم كلّ فكره، أن

يرى في أي كاهن أكثر من منافقٍ، أو أبله، والذي كان يستمتع في شيخوخته بتسويق كتاباتٍ تحتوي توريات رديئة، حول بيوس التاسع (بيو نونو)، وقصصاً ماجنةً تدور على الخوارنة، مثلما كان يجد تسليةً أكثر ظرفاً، في مدّة شبابه، حين كتب تلك الرائعة الصغيرة من روائع الزندقة الممتعة والتي هي «عربة القربان المقدّس» لولاه ما أكثر الكنائس الفرنسية القديمة التي كانت ستختفي من الوجود!

إنه إذن موظفٌ كبير يندمج بمهنته، ويتوحد بها، وهو أيضاً فنان، وأديب مثقف، وعلاّمة، وكاتب كبيرٌ إضافة إلى ذلك.

أما الفنان، فقد رأينا حدوده، من خلال استخفافه برسّامٍ مثل كورو أو كوربيه. وبما أنه مثقفٌ ثقافةً عالية، فهو يعترف، في مناسبة أبحاثه التي قام بها في التاريخ الرّوماني، بإحساسه في أنه قد غدا «مدّعياً أحمق» يتلذذ بذلك. وبعد أن أولى كتابه: «الحرب الاجتماعية» اهتماماتٍ غير محدودة، ها هو يسخر من نفسه، من خلال تهكّمه على سعةِ المعرفة بفكاهةٍ مرهفـــة، فيقول على النحو التـــالي: «يا سيدتي، أنت التي ستمنحينني الزهو من خلال قولك إن «الحرب الاجتماعية» كتاب لم يبد لكِ مضجراً. وإني أؤكد لك بصراحة تامةً أنني كنت أظنه كذلك، بالنسبة للجميع، باستثناء اثني عشر شخصاً يمتلكون مثلي ميلاً للأشياء الرومانية العتيقة الرثّة. فضلاً عن ذلك، فعندما كنتُ أؤلف هذا الكتاب، لم أكن أفكر إلا بأن أُرضي أذواق سادة أكاديميّات المدوّنات. وكان قد قيل لي إنه ينبغي أن يكون الكاتب مملاً كي يرضيهم. فلم يكن هذا الأمر بالغ الصعوبة. إلاّ أن هناك طرقاً عديدة كي يكون الكاتب مملاً. أما الطرق التي يفضلونها في مادة التاريخ، فهي أن يمرّ الكاتب مرور الكرام على كلّ ما يتعلق بالأخلاق والطبائع، والقلب الإنساني، وأن يعمّق، بالمقابل، الوقائع الصغيرة غير المهمة، وأن يناقش النصوص الغامضة، وغير المعروفة إلخ... إلخ... وهكذا فإذا أخذنا المثال التالي: حين يكون على الكاتب أن يتحدث عن مسيرة السّابينيين باتجاه روما، فإن شخصاً آخر غيري كان يمكن أن يقول شيئاً عن ذلك العزم الذي عقده أناسٌ يائسون، يضحّون بأنفسهم كي

يضربوا العدو في قلبه. أما أنا، فقد صنعت أفضل من ذلك. لقد بينت أية طريق قد سلكوا، فخلال تسعة عشر قرنًا، لم يكن أحدٌ قد تشكك بالأمر. وقد برهنتُ أنهم كانوا قد مروا من جهة اليمين. وكان يُظَنُّ أنهم قد مرّوا من جهة اليسار. وهذا أمرٌ يهم القليل من الناس، ومع ذلك، فإن «الحرب الاجتماعية» يحتوي كمية من هذه الأشياء الجميلة المماثلة».

إنه يمزح هنا. ولكنه يدلّل، مرات عديدة، على تجرُّدٍ ليس متصنّعًا، بصدد أعماله، وكتبه، ومقالاته، لأنه أقلُّ كتّابنا الكبار في القرن التاسع عشر، اتّصافًا بكونه رجل أدب[1] (وهذه الكلمة الموحية من ابتكار ميريميه).

ولكن هل هو كاتبٌ كبير؟ إن هنري بريمون قد أجاب بلا، من خلال صفحاتٍ يتطاير منها الشرر، صفحاتٍ شرسة، إذ يقول: «إن الذوق الرفيع لا يحتمل تمجيد ذوي التعبير الجاف». وحجته تستند إلى رأي لونجان[2] المؤثّر في ذلك. بيد أنه قد يكون من المناسب أولاً أن نُفرّقَ بين ذوي التعبير الجاف الحقيقيين والآخرين. ثم إنه إذا ما أضفنا أيضًا المقاطع العشرين الثقيلة والخرقاء، والمغلوطة والمبتذلة التي التقطها القسُّ الرهيب، فهل ندلّلُ بذلك على أن ميريميه ليس كاتبًا كبيرًا؟ وإذا رأينا أن ميريميه ليس أكثر من كاتبٍ من النّسق الثاني، فهل يفسر ذلك المتعة أو السرور اللذين يحدثهما لدينا، لأننا سنحكمُ عليه بأنّه جدير بالمرتبة الثانية وحسب، حين ننتزع منه قيمةً اغتصبها اغتصابًا؟

لا شكَّ في أن بوسعنا أن نقرأ في «الإناء الإتروري» أن «عشيقًا سعيدًا مضجرٌ تقريبًا مثل عشيقٍ منكود». إن هذا فظيع. ولسوف نتفق في ذلك، مع هنري بريمون الذي لم يخطئ أيضًا في رفضه رؤية نماذج ذات اقتضابٍ ميريميّ، في نهايات الجمل التالية من قصة «تامانغو»: «لم يكن القبطان يفكّر سوى بالفوائد الهائلة التي كانت

---

(١) - من أصحاب الأقلام، وفيها تلاعب لفظي قصد ميريميه إليه قصداً. وذلك بين كلمتي: eanj (وهي اسم علم) و gens (أي أهل، أناس). (م: ز.ع).

(٢) - هو فيلسوف، ومدّرس للبيان، يوناني الأصل (٢١٣ - ٢٧٣) كان وزيراً لزنوبيا. (م: ز.ع).

تنتظره في المستعمرات التي نحوها كان يتجه»[1]، وفي «كان هناك فريقٌ من الطاقم يراقبه، وهو مدجّجٌ بالسّلاح، مخافة العصيان[1]». غير أن بريمون كان يمكن أن يفضّل إيراد: «التقت عيونهم في المرآة، أثناء العملية التي تحدثت عنها منذ قليل[1]». (إن الأمر يتعلق بسيدة تلتفّ بخمارها الصوفي). وكانت تردّد في نفسها[1] كل ما كان دارسي قد قاله لها، وتبدي ندمها من أنها لم تقل له مئة أمر كان يمكنها أن تقولها له». وكان يبدو متأثراً بتلك الحادثة المزعجة التي حدثت له أكثر مما كانت مزعجةً بحدّ ذاتها. وفكرت: «إنه يحبّني!»، وكيف لم يشر خصوصاً إلى مايلي، وهو أمرٌ نجده في قصة «كولومبا»: «وأخيراً، فحين وضع يده على عينيه، مثل تلك العصافير التي يسكُنُ روعُها. . . » أو إلى مايلي: «والذي نجده في «كارمن»: «لقد أطلقت إحدى قهقهاتها التمساحيّة؟».

غير أننا نجد في «كارمن» أيضاً تلك الجملة الصغيرة، ذات الحركة الرائعة، والتي يوحي بها اقتطاعٌ معين، وتغييرٌ في الزمن، وفي العدد، وفي الشخص: لقد وضعت خمارها أمام أنفها. وها نحن نصبح في الشارع، دون أن أدري إلى أين أذهب. إن جان دوتور على حق، فهذه الجملة تدلُّ على فنٍّ عظيم.

وفضلاً عن ذلك، فلم يكن بلزاك وستندال كاتبين أنيقي العبارة. أما موليير ذلك الذي اغتذى به ميريميه أكثر من غيره، فما من طالب في الشّهادة الثانوية لايعرفُ أنه قد أُخذت عليه «رطانته» و «كلامُه الملتبسُ»، و «عُجمتُه» و «عباراته الغريبة». فيا لموليير، وستندال، وبلزاك من صحبة سوءٍ نشفق على ميريميه منها!

بيير جوسّران[2]

---

(١) - عباراتٌ تطرح تساؤلات في التعبير الروائي، وحتى اللغوي، باللغة الفرنسية، ولربما يصعب على المترجم أن يظهرها في ترجمته هنا. (م: ز. ع).

(٢) - يحتوي هذا المجلد، بترتيب زمني، كلّ قصص ميريميه، وصولا إلى «كولومبا» ضمنًا، ولاتعالج مقدمتنا هذه إلا تلك المرحلة. وكل قصة ستكون موضوع تعليق خاص يرد في نهاية هذا المجلد.

فسيفساء[1]

(١) - عنوان إجمالي لعدد من القصص التي سوف نعطيها أرقاماً غير موجودة في النص الأصلي. (م: ز. ع).

- ١ -
ماتيو فالكون

حين نخرجُ من بورتو - فيكشيو، ونتَّجه نحو الشمال الغربي، إلى داخل الجزيرة، نرى الأرض ترتفعُ ارتفاعاً ملحوظاً. وبعد ثلاث ساعات من السير، عبر مسالك متعرجة، تعترضُ سبيلها كتلٌ صخريةٌ ضخمة، وتقطعها أحياناً بعضُ مجاري السيول، نجد أنفسنا على تخوم دغلٍ شديد الاتّساع. إن الدغل هو موطن الرُّعاة الكورسيكيّين، وأيّ إنسان اختلف مع العدالة. ومن الضّروريّ أن نعلم أن الفلاّح الكورسيكيّ يُحرِقُ مساحةً معيّنة من الأحراش، كي يعفي نفسه من مشقّة تسميد حقله، ولا يهمُّه إذا ماانتشر اللهبُ إلى أبعد ممّا يحتاجُ إليه، فليحدث ما يحدث، فهو متأكّدٌ من جني محصول جيد، حين ينثر على تلك الأرض المخصبة رماد الأشجار التي كانت تنمو فيها. وبعد أن تُقْتَطَع السنابل، لأن القشّ يُتركُ، فحصادُه متعبٌ، تنمو الجذور التي بقيت في الأرض، دون أن تتلف في فصل الربيع التالي، فتصل الأغصان المفرّخة الشديدة الكثافة إلى ارتفاع سبعة أو ثمانية أقدام، في غضون سنوات قليلة. إن ذلك النوع من الأحراش المفرّخة المتلبّدة هي التي يسمونها دغلاً. فتتكوّن من أنواع مختلفة من الأشجار والشجيرات التي يختلط ويمتزج بعضها ببعض كما يشاء الله. ولا يشق الإنسان معبراً له فيها إلا والبلطةُ في يده، فنرى أدغالاً شديدة الكثافة، والتلبُّد بحيث أن الخراف ذاتها لايمكنها أن تتوغل فيها.

فإن قتلتَ رجلاً، اذهبْ إلى دغل بورتو - فيكشيو، ولسوف تعيشُ فيه بأمان، إذا كانت لديك بندقيةٌ جيدة، وبارودٌ، ورصاص. ولا تنسَ أن تأخذ معطفاً بُنيّ اللون، ومزوداً بغطاء للرأس يُستخدم كغطاء وكفراش. إن الرُّعاة يعطونك

الحليب، والجبن، وحبّات الكستناء، ولن يكون هناك ما تخشاه من العدالة، أو من أقارب القتيل، اللهم إلا عندما يتعين عليك أن تنزل إلى المدينة كي تجدّد فيها مؤونتك.

وحين كنتُ في كورسيكا عام ١٨٠٠، كان لماتيو فالكون منزله الذي يقع على بُعْد نصف فرسخٍ من ذلك الدّغل. ولقد كان رجلاً على درجةٍ كافية من الثراء في المنطَقة. وكان يحيا حياة النّبلاء. أي أنه لايشتغلُ شيئًا، بل يعيش من نتاجِ قُطعانه التي كان يسوقُها لترعى هنا وهناك، على الجبل، رعاةٌ هم ضربٌ من قومٍ رُحّل. وحين رأيتُه، بعد مرور سنتين على الحادثة التي سأرويها بدا لي في الخمسين من عمره على الأكثر. فلتتصور رجلاً قصير القامة، ولكنه متين البنية، وذو شعر قصيرٍ أجعد، وأسود كالسّبج[1]، وأنفٍ معقوف، وله شفتان رقيقتان، وعينان واسعتان وحادتان، ولون بشرةٍ كظاهرِ الجِزمة. وقد عُرف عنه مهارته الفائقة في الرمي بالبندقية، حتى في بلده التي كان فيها العديد من الرماة الجيدين. فماتيو، مثلاً، لم يكن يطلق النار على جديٍ بريّ برصاصاتِ صيدٍ ثقيلة، بل كان يصرعه برصاصةٍ واحدة في رأسه، أو في كتفه، حسب اختياره، من مسافة مئةٍ وعشرين خطوة. وكان يستخدمُ أسلحته في الليل بالسهولة ذاتها التي يستخدمها فيها أثناء النهار. ولقد ذكروا لي عملاً يدلل على مهارته، ولعله يبدو غير قابلٍ للتصديق، بالنسبة لمن لم يسافر إلى كورسيكا، وهو أنهم كانوا يضعون شمعةً مضاءةً، خلف حاجزٍ شفاف من الورق، وعريض مثل صحن، وكان ماتيو يصوّب، ثم كانوا يطفئون الشمعة وبعد مرور دقيقة من الوقت، وفي العتمة التامّة، كان يُطلقُ النارَ، ويثقب الحاجز الشفاف ثلاث مرات من أصل أربعة.

كان ماتيو فالكون قد اكتسب شهرةً كبيرةً، من خلال تلك الميزة الفائقة، وكان يُقال عنه أيضًا إنه صديقٌ جيدٌ، مثلما هو عدوٌ خطر. وبالإضافة إلى أنه خدوم، ويتصدّق بماله، فقد كان يعيش في وئامٍ مع كل الناس في منطقةبورتو ـ

---

(١) – مادة قيرية سوداء كالفحم. (م: ز. ع).

فيكشيو ولكن كان يُروى عنه أنه، في كورتي التي كان قد اتّخذ لنفسه زوجةً فيها، تخلّص بصورة تدلّل على شدة بأسه من منافسٍ له كان معروفًا بأنه مرهوبُ الجانب في الحرب، كما في الحب. وعلى أية حال، فقد كانت تُنسب إليه طلقةُ البندقية التي باغتت ذلك الخصم، فيما كان يحلق ذقنه أمام مرآة صغيرة معلّقة إلى نافذته. فتزوج ماتيو، ما إن انطفأت القضية. أما زوجته جيوسيبا فكانت قد أنجبت له في البداية ثلاث بنات (أثرن غيظه)، وأخيراً أنجبت له صبياً أسماه فورتوناتو، وقد كان أمل أسرته، ووريثَ اسمها. أما البناتُ فقد تزوّجن زواجًا ناجحًا، وكان والدهن يمكنه الاعتماد، عند الحاجة، على خناجر أصهاره وبنادقهم. أما الابن فلم يكن له من العمر إلا عشرة أعوام، ولكنه كان يبشّر بوجود استعدادات طيّبةٍ لديه في ذلك الحين.

وذات يوم من أيام الخريف، خرج ماتيو وزوجته مبكرين كي يقوما بزيارةٍ لإحدى قطعان ماشيته الموجودة، في إحدى فُرجات الدغل. وكان الصّغيرُ فورتوناتو يريدُ أن يرافقه. غير أن الفرجة كانت بعيدةً بالنسبة إليه، إضافة إلى أنه كان لا بد أن يبقى أحدهم في المنزل لحراسته، فرفض الوالد إذن، ولسوف نرى فيما إذا لم يكن رفضه هذا مدعاةً لندمه.

كان غائبًا لبضع ساعات، وكان الصغير فورتوناتو مستلقيًا في الشمس، وهو ينظر إلى الجبال الزرقاء، ويفكّر بأنه سيذهب لتناول العشاء في المدينة، في منزل عمّه «العريف[1]» عندما قاطعه، في تأمُّلاته فجأة صوت انفجار صادرٍ عن سلاحٍ ناري، فنهض واستدار من ناحية السّهل الذي انطلق منه ذلك الصّوت. وتتابعت عياراتٌ أخرى من بندقيةٍ، أطلقت على فواصل زمنيةٍ غير متساوية، وعلى نحوٍ

---

(١) - كان العرفاء قديمًا زعماء تتّخذهم القرى الكورسيكية لها، حين تتمرّدُ ضد السادة الإقطاعيين. ولايزال هذا الاسم اليوم يطلق أحيانًا على رجلٍ يمارس نفوذه من خلال ممتلكاته، وارتباطاته، وزبائنه، كما يمارس نوعًا من القضاء الفعلي، في منطقة معينة. إن الكورسيكيين ينقسمون إلى خمس فئات، انطلاقًا من عادة قديمة، وهم: النبلاء (ومنهم السّامون، ومنهم السّادة) والعرفاء، والمواطنون، والعامة، والغرباء (الأجانب).

متقارب أكثر فأكثر دومًا. وأخيراً، ظهر في المعبر الذي يوصلنا من السّهل إلى منزل ماتيو، رجلٌ يعتمر طاقية مقرّنة، مثل تلك التي يلبسُها الجبليّون، وهو ملتحٍ، وتكسوه الأسمالُ، ويجرُّ نفسه بمشقةٍ متكئًا على بندقيته، وكان قد أُصيب بطلقة بندقيةٍ في فخذه.

كان ذلك الرّجل قاطع طريق[1]، وكان قد مضى ليلاً ليجلب باروداً من المدينة، فوقع أثناء سيره في كمينٍ نصبه جنودُ كورسيكيون جوّالون[2]. وبعد دفاعٍ قوي، تمكّن من تأمين الانسحاب، والجنود يلاحقونه ملاحقةً نشيطة، فأخذ يجرّ نفسه من صخرةٍ إلى صخرة. غير أنه كان متقدمًا قليلاً على الجنود، وكان جرحه يجعله غير قادرٍ على الوصول إلى الدغل، قبل أن يلحقوا به.

اقترب من فورتوناتو، وقال له:

«أنت ابن ماتيو فالكون؟»

– نعم.

– أنا أُدعى جيانيتو سانبييرو. ويلاحقني أصحابُ الياقات الصفراء[3] فخبئني لأني لم أعد أتمكن من الابتعاد أكثر.

– وماذا سيقول والدي إذا خبأتك دون موافقته؟

– سيقول إنك قد أحسنت صنعًا.

– من يدري؟

– خبئني بسرعة، إنهم آتون.

– انتظر حتى يعود والدي.

– تريد أن أنتظر، يا للّعنة! سيكونون هنا بعد خمس دقائق، هيا، خبئني، أو أقتلك».

---

(١) – هذه الكلمة Bandit ترادف هنا كلمة منفي أو مُبعد.

(٢) – فرقة عسكرية جنّدتها الحكومة منذ سنوات قليلة، وتستخدم بالتعاون مع الدرك لإسناد الشرطة.

(٣) – كان الجنود الجوالون يرتدون آنذاك زيّاً بني اللون، وله ياقة صفراء.

فأجابه فورتوناتو بأكبر رباطة جأش ممكنة:

«إن بندقيتك غير محشوّة، ولم يعد لديك خرطوش في حزامك[1].

- لدي خنجري.

- ولكن هل ستكون سريعًا في الركض مثلي؟

وقفز قفزةً أصبح فيها بعيداً عن متناول الرجل.

«أنت لست ابن ماتيو فالكون، فهل ستتركهم إذن يغتقلونني أمام منزلك؟».

فبدا الصبي متأثراً، وقال وهو يقترب:

«وماذا تعطيني إذا خبأتك؟»

فتّش قاطع الطريق في جيبٍ جلدي كان معلّقًا بحزامه، وأخرج منه قطعةَ نقودٍ من ذات الخمسة فرنكات، وكان قد احتفظ بها، بلا شك، ليشتري بارودًا، فابتسم فورتوناتو لمرأى قطعة النقود الفضيّة، وأمسك بها، وقال لجيانيتو:

«لا تخشَ شيئًا».

وفي الحال، أحدث فجوةً كبيرة في كومةٍ من العلف موضوعةٍ بقرب المنزل، فتكوّر جيانيتو فيها، وغطّاها الصبيُّ بحيث ترك له قليلاً من الهواء ليتنفس، دون أن يكون بالإمكان مع ذلك أن يرتابَ أحد بأن ذلك العلف يخبئ رجلاً. وخطرت له فكرةٌ، إضافة إلى ذلك، تدلُّ على ذكاءٍ بارعٍ لإنسان متوحش، فمضى ليأتي بقطّة وصغارها، ووضعها على كومة العلف، كي يوحي بأن الكومة لم تتحرك منذ بعض الوقت، وبعد أن قام بذلك، عاد إلى الاستلقاء في الشمس باطمئنانٍ أكبر.

وبعد بضع دقائق، كان ستّة رجال بزيّهم البني، وياقتهم الصّفراء، يقودهم مساعدٌ، أمام منزل ماتيو. وكانت تربطُ ذلك المساعدَ قرابةٌ بآل فالكون بعض الشيء (ومن المعروف أنهم في كورسيكا يتبعون درجات القربى إلى أبعد بكثير مما هي في

(١) - حزام من الجلد يُستعمل كجعبةٍ وكمحفظة.

أيّ مكانٍ آخر). وكان يُدعى تيودور غامبا. وهو رجلٌ نشيط، ويهابه كثيراً قطاعُ الطرق الذين كان قد طارد عدداً منهم.

فقال لفورتوناتو وهو يقتربُ منه:

- صباح الخير، يا ابن العم الصغير، كم كبرتَ! هل رأيتَ رجلاً يمرّ قبل قليل؟

فأجاب الصبي بلهجةٍ بلهاء:

- أوه! لم أصبح بعد كبيراً مثلك، يا ابن العم.

- سيحدثُ هذا. ولكن ألم ترَ رجلاً يمرّ؟ قل لي.

- هل رأيت رجلاً يمرّ؟

- أجل، رجلٌ يعتمرُ قبعة مقرّنةً من المخمل الأسود، وسترةً مطرّزة بالأحمر والأصفر؟

- رجلٌ يعتمر قبعةً مقرّنةً من المخمل الأسود، وسترةً مطرّزة بالأحمر والأصفر.

- أجب، أجب بسرعة، ولا تكرّر أسئلتي.

- هذا الصباح، مرّ السيدُ الخوريُّ من أمام بابنا، على حصانه بييرو، وسألني عن صحة والدي، وأجبته . . .

- آه، أيها المازح الصغير! إنك تتخابثُ! قل لي بسرعة من أين مرَّ جيانيتو، لأنه هو الذي نبحثُ عنه. وأنا متأكدٌ أنه قد سلك هذا المعبر.

- من يدري؟

- من يدري؟ أنا من يدري أنك قد رأيته.

- هل نرى المارّة عندما ننام؟

- لم تكن نائمًا، أيها التافهُ، فطلقاتُ البندقية قد أيقظتك.

- أتظنّ إذن يا ابن العم، أن بنادقكم تُحدِثُ صوتًا كبيرًا؟ إن بارودةَ والدي الواسعة الفوهة تحدثُ صوتًا أكبر.

- فليخزك الشيطان، أيها المشاغبُ اللعين! أنا متأكد من أنك قد رأيت جيانيتو. وربما تكون قد خبأته. هيا، أيها الرفاق، ادخلوا إلى هذا المنزل، وانظروا إن كان رجلُنا فيه. إنه لم يعد يسير إلاّ على قائمةٍ واحدة. ولدى هذا الخبيث الكثير من العقلِ السليم بحيث لن يكون قد سعى إلى الوصولَ إلى الدغل، وهو يعرجُ، زد على ذلك أن آثار الدّم تتوقف هنا.

- وسأل فورتوناتو هازئًا:

- وماذا سيقول والدي إذا عرف أنه قد جرى الدخولُ إلى منزله فيما كان خارجًا؟

فقال المساعدُ غاضبا، وهو يمسك فورتوناتو من أذنه:

- أيها التافه، هل تعلم أن من سيجعلك تغيّر نغمتك هو أنا؟ وربما تتكلّمُ أخيرًا حين تتلقّى عشرين ضربةً بعرض السيف.

أما فورتوناتو فكان يهزأ باستمرار، وقد قال بتشدّق:

- إن أبي هو ماتيو فالكون.

- هل تعلم أيّها الصغير المضحك، أنه بوسعي اقتيادُك إلى كورتي أو إلى باستيا، ولسوف أجعلك تنام في زنزانةٍ على القش، والسلاسلُ في قدميك. سأجعلك تموت على المقصلة، إن لم تقل أين جيانيتو سانبييرو».

فانفجر الصبي ضاحكًا، عند ذلك التهديد المثير للسخرية وردّد:

- والدي هو ماتيو فالكون!

فقال أحدُ الجنود الجوالين بصوتٍ خفيضٍ جداً:

- علينا ألا نختلف مع ماتيو فالكون، أيها المساعد!».

كان غامبيتا يبدو محرجًا بصورة جلية، فأخذ يتحدثُ بصوتٍ خفيض مع جنوده الذين كانوا قد فتشوا المنزل بكامله. ولم تكن تلك عملية جدّ طويلة، فكوخُ الكورسيكيّ لايتكوّن من أكثر من غرفةٍ واحدة مربعة. ويتألف أثاثُها من منضدة، ومقاعد، وصناديق، وأدوات للصيد، ومواعين منزلية. ومع ذلك، كان الصغيرُ فورتوناتو يداعبُ قطته، ويبدو أنه يستمتعُ استمتاعًا خبيثًا بالارتباك الذي وقع فيه الجنودُ الجوّالون، وابن عمه.

واقتربَ أحدُ الجنود من كومةِ العلف، فرأى القطةَ، واخترق العلفَ بطعنةٍ من حربته بغير اكتراث، وهزّ كتفيه، وكأنه يشعرُ بأن حذره يثيرُ السخرية، فلمْ يتحرك شيء، ولم يكشف وجهُ الصبي عن أدنى انفعال.

كان المساعدُ وجماعته في غاية الاضطراب، فأخذوا ينظرون بصورةٍ جديّة باتّجاه السهل، وكأنهم مستعدون للرجوع من حيث أتوا، عندما أراد رئيسهم أنْ يقوم بجهدٍ أخيراً، وإن يجرّب فعل الملاطفات، والهدايا، بعد أن اقتنع بأن التهديدات لن تُحدث أيّ تأثير على ابن فالكون. فقال:

«يا ابن عمي الصغير، أنت تبدو لي فتى جسوراً، شديد اليقظة! ولسوف تتقدمُ أكثر. ولكنك تلعبُ معي لعبةً حقيرة. ولو لم أكن أخشى أن أسبب الغمّ لابن عمي ماتيو، فليأخذني الشيطان، لاقتدتك معي.

- عجبًا!

- ولكني عندما يعود ابن عمي، سأحكي له القصة، وكعقابٍ لك على الكذب، سوف يجلدك بالسّوط حتى يسيلَ دمُك.

- هل يعرف؟

- سترى... ولكن عجبًا!... فلتكن صبيًّا طيبًا، ولسوف أُعطيكَ شيئًا.

- أنا، يا ابن عمي، سأعطيك رأيًا وهو أنه إذا تأخرتم أكثر، يصبحُ جيانيتو في الدغل. حينئذٍ، سيلزمُ أكثر من مقدامٍ مثلك للذهاب إلى هناك للبحث عنه».

فأخرج المساعدُ من جيبه ساعةً فضية ثمنها يساوي حقًّا عشرة ريالات[1].

وحين لاحظ أن عيني الصغير فورتوناتو تلتمعان وهما تنظران إليها، قال له، وهو يمسك بالساعة معلقة من طرف سلسلتها الفولاذية:

- أيها المحتال! أنت تودّ الحصول على ساعةٍ كهذه، فتعلقها في عنقك، وتتنزه في شوارع بورتو - فيكشيو، مزهواً مثل طاووس، فيسألك الناس: «كم الساعة؟» فتقولُ لهم: «انظروا إلى ساعتي».

- عندما أصبحُ كبيراً، يعطيني عمي العريفُ ساعة.

- نعم، ولكن ابن عمك يمتلكُ الآن ساعة، وهي ليست جميلةً كهذه في الحقيقة...

مع ذلك، فهو أصغر منك سنًّا».

فتنهد الصبي.

- إذن، أتريد هذه الساعة، يا ابن العم الصغير؟.

كان فورتوناتو الذي رمق الساعة بطرف عينيه، يشبه قطًّا يُقدَّمُ له فروجُ دجاج كامل، وإذ يشعر بأنه عرضةٌ للسخرية، فهو لا يجرؤ على إعمالِ مخلبه فيه، ومن وقتٍ لآخر، يُشيحُ بعينيه عنه، لئلا يتعرّض للوقوع في الإغراء، ولكنه يلحس شفتيه، في كل لحظةٍ، ويبدو كأنه يقول لصاحبه: «ما أقسى مزاحتك!».

ومع ذلك، فقد كان المساعدُ غامبا يبدو حسن النية، وهو يعرض ساعته، ولم يقدّم فورتوناتو يده، وقال له بابتسامةٍ مريرة:

«لماذا تسخرُ مني[2]؟»

(١) - Ecu أو «ريال» عملة فرنسية قديمة، ومن المقرر أن تكون العملة الأوروبية الموحدة (م: ز.ع).

(٢) - أوردها ميريميه بالإيطالية في الملاحظات.... Perchè mec.

- قسماً بالله! إني لا أسخر منك. وقل لي فقط أين جيانيتو؟ فتكون هذه الساعة لك».

فأفلتت من فورتوناتو ابتسامة تنمُّ عن عدم التصديق. وإذ كان يحدّق بعينيه السوداوين في عيني المساعد، كان يجتهدُ كي يقرأ فيهما الثقة التي ينبغي أن تتوفر له بكلامه.

فهتف المساعدُ: «فلأفقد كتفيّتي، إذا لم أعطك الساعة بهذا الشرط! والرفاقُ شهودٌ على ذلك، ولايمكنني أن أرجعِ عن قولي».

وما إن تكلم على هذا النحو، حتى أخذ يقرّب الساعة باستمرار إلى أن لامست تقريباً وجنةَ الصبّي الشاحبةَ، فقد كان يظهرُ على وجه هذا الصبي ذلك الصراعُ الذي يدورُ في نفسه بين الطمعِ واحترام الضيافة. وكان صدرهُ العاري يرتفع بقوةٍ، وكان يبدو أنه على وشك الاختناق. ومع ذلك، فقد كانت الساعةُ تنوس، وتدورُ، وتصطدم أحياناً برأسِ أنفه. وأخيراً، ارتفعت يده اليمنى باتجاه الساعة شيئاً فشيئاً، ولمسها برأس إصبعه، فانتقلت بكل ثقلها إلى يده من دون أن يتركَ المساعدُ طرفَ سلسلتها مع ذلك. . . لقد كان ميناؤها لازوردي اللون. . وكانت العلبةُ مصقولةً حديثاً. . . وفي الشمسِ، كانت تبدو وكأنها تتلألأ. . فكان الإغراء شديدَ القوة.

وهكذا، رفع فورتوناتو يده اليسرى، وأشار بالإبهام. من فوق كتفه، إلى كومةِ العلف التي كان يستندُ إليها، ففهمه المساعدُ حالاً، فترك طرفَ السلسلة، وأحسَ فورتوناتو بأنه مالكُ الساعة وحده، فنهض بخفة أيلٍ، وابتعد عشر خطواتٍ عن كومة العلف التي شرع الجنود الجوالون بقلبها حالاً، رأساً على عقب.

ولم يطل الوقت حتى رأوا العلفَ يتحركُ، ويخرج منه رجلٌ مدمى، وخنجرهُ في يده. ولكنه حين أخذَ يحاولُ النهوض على قدميه، لم يعد جرحه المتبرّدُ يسمحُ له بأن ينتصب واقفاً، فوقع، فانقضَّ عليه المساعدُ وانتزع منه خنجره. وفي الحال، شدّوا وثاقه بقوةٍ برغم مقاومته.

ومـا إن أضـجـعـوه علـى الأرض، وأوثقوه مثلَ حزمة حطب، حتى أدار رأسه نحو فورتوناتو الذي كان يقتربُ، وقال له بلهجة فيها من الاحتقار أكثر مما فيها من الغضب:

«يا ابن الـ... !».

فألقى الصّبي إليه بقطعة النقود التي كان قد تلقاها منه، لإحساسه بأنه لم يعد يستحقها. ولكن المعتَقَل لم يُظهر انتباهًا لتلك الحركة، وقال بكثير من رباطة الجأش للمساعد:

- ياعزيزي غامبا، لـم يعدْ باستطاعتي السّير، وستكون مضطرًا لحملي إلى المدينة.

فأجاب المنتصرُ القاسي سَريعًا:

- كنت تعدو قبل قليل أسرع من يحمور، ولكن كن مطمئنًا، فأنا مسرورٌ جدًا من القبض عليك بحيث أني قد أحملك فرسخًا على ظهري، من غير أن أتعب. زد على ذلك، يا رفيقي، أننا سوف نصنع لك محفةً من الأغصان ومن معطفك، وسوف نجدُ خيولاً في مزرعة كريسبولي.

فقال السجين:

- حسنًا، ستضع أيضًا قليلاً من القش على محفتك، كي أكون مرتاحًا أكثر.

وفيما كان بعضُ الجنود الجوّالين منشغلاً بصنع نوعٍ من نقالة أعدّوها من أغصان شجر الكستناء، وبعضهم الآخر بتضميد جرح جيانيتو، ظهر ماتيو فالكون وامرأته فجأة، عند أحد منعطفات ممرّ يؤدي إلى الدّغل.

كانت المرأةُ تتقدمُ، محنيّةَ الظهر، وهي تنوءُ تحت ثقل كيسٍ ضخمٍ من الكستناء، فيما كان زوجها يسير متبخترًا، ولايحمل شيئًا غير بندقيةٍ في يده، وأخرى يتقلدُها، لأنه لايجدرُ بالرجل أن يحمل ثقلاً آخر غير أسلحته.

إن أولَ فكرةٍ خطرت لماتيـو فـالكون، عند مـرأى الجنود، هي أنهم قـد أتوا ليعـتقلوه، ولكن، لماذا هذه الفكرة؟ هل كـانت لـديه إذن خـلافـاتٌ مـا مـع العـدالة؟ كـلا، فـقـد كـان يتـمـتّع بسـمـعـة حـسنة. وكـان، كـمـا يـقـال، «أحـد الأفـراد الحـسني السّيـرة»، ولكنه كـورسيكيٌ وجـبليّ، وهناك القليلُ من الكـورسيكيين والجـبليين الذين لايجدون بعض الزلات، مثل طلقات بندقية، أو طعنات بخنجر، وسفاسف أخرى، إذا ما تفحّصوا ذاكرتهم جيداً، أما ماتيو فقد كان ضميره صافيًا أكثر من أي شخص آخر، فهو لم يوجّه بندقيته ضد أيّ رجلٍ منذ أكثر من عشرة أعوام، بيد أنه كان حذراً مع ذلك، فاتّخذ وضعيةَ دفاعٍ جيّدة، في حال احتياجه إليها.

وقال لجيوسيّبا:

«يا امرأة، ضعي كيسك على الأرض، وكوني متأهّبةً».

فأطاعته في الحال، وأعطاها البندقيةَ التي كان يتقلدها، والتي كـان يمكن أن تعـرقل حركـته، وهيأ تلك التي يحـملهـا في يده، وتقـدّم ببطءنحـو منزله، سـائراً بجانب الأشجار التي كـانت تحاذي الطريق، ومـسـتعـداً، لدى أقل تظاهر عدائي، للاندفاعِ خلف أضخم جذع شجرةٍ يمكنه أن يطلق النارَ منه وهو مـغطّى. وكـانت امرأته تسير على عقبيهـا، ممسكةً ببندقيتها البديلة وجعبتها. إن عـملَ ربة المنزل الجيدة، في حالة القتال، هو في حشو أسلحة زوجها.

من الجهة الأخرى، كـان المساعدُ شـديدَ القلق، حين رأى مـاتيـو يتقـدم على ذلك النّحو، بخطوات محسوبة، وبندقية مصوّبة إلى الأمام، وإصبعه على الزناد. وفكّر قائلاً:

– لو كان ماتيو بالصدفة قريبًا لجيانيتو، أو كان صديقه، وأراد أن يدافع عنه، فإن حشوات هاتين البندقيتين ستصيبُ اثنين منّا، وبصورة مؤكـدة، مثلما تصلُ رسالةٌ بالبريد، وإن كان يصوّبُ عليّ، فلن يأخذ شيئًا بحسبانه! . . .

وفي خضمٍّ هذه الحيرة، اتّخذ قراراً شديدَ الجرأة، وذلك أنه تقدّم وحده نحو ماتيو، ليحكي له المشكلة، فدنا منه، وكأنّه من معارفه القدامى، ولكن المدّة الزمنية القصيرة التي كانت تفصله عن ماتيو بدت له طويلةً إلى حدّ مرعب. وقد أخذ يهتفُ به:

«هولا! إيه، يا رفيقي القديم، كيف الحال يا صديقي الطيّب؟ هذا أنا، أنا غامبا، ابن عمك».

كان ماتيو قد توقّف، دون أن يردَّ بكلمة. وكلّما كان الآخر يتكلّمُ، كان ماتيو يرفعُ سبطانةَ بندقيته بتؤدة، بحيث أصبحت موجهةً نحو السّماء، في اللحظة التي وصل المساعدُ فيها إليه.

وقال له المساعدُ وهو يمدُّ يده:

- صباح الخير يا أخي[1]، لقد مرَّ زمنٌ طويلٌ حقًّا، ولم أرك.

- صباح الخير يا أخي!

- أتيت، وأنا أعبر من هنا، لألقي عليك التحيّة، على ابنة عمي بيبا، فلقد قطعنا اليوم مسافةً طويلةً، ولكن لاينبغي أن نندمَ على تعبنا، لأنّنا نفذنا اعتقالاً مهمًّا للغاية، فلقد قبضنا على جيانيتو سانبييرو.

فهتفت جيوسيبا:

- حمداً لله، فقد سرقَ لنا عنزةً حلوباً في الأسبوع الماضي.

فسرت هذه الكلمات غامبا.

وقال ماتيو:

- يا للرجل المسكين، لقد كان جائعاً.

فتابع المساعدُ، وقد اعتراه الخجل قليلاً:

---

(١) - هذه هي تحية الكورسيكين المعتادة: Buon giorno Fratello.

- لقد دافع هذا الغريب الأطوار عن نفسه كالسبع. فقتل لي واحداً من جنودي المتجولين. ولم يكتفِ بذلك، فقد كسر ذراع العريف شاردون، ولكن الأذى لم يكن كبيراً! فلم يكن ذلك العريف أكثر من فرنسيّ. وبعد ذلك، اختبأ بصورةٍ جيدةٍ بحيث أن الشيطان لم يكن ليستطيع أن يكشفَ مخبأه، ولولا ابن عمي الصغير فورتوناتو، لم يكن بوسعي أن أجده أبداً.

فهتف ماتيو:

- فورتوناتو!

ورددت جيوسيبا:

- فورتوناتو!

- نعم، لقد كان الجيانيتو قد اختبأ هناك، تحت كومة القش تلك، غير أن ابن عمي الصغير قد بيَّن لي مَكْره. وهكذا، فإني سأقولُ ذلك لعمِّه العريف، كي يرسل إليه هديةً جميلةً لقاءَ تعبه، وسوف يكونُ اسمه واسمك في التقرير الذي سأرسله إلى المحامي العام.

فقال ماتيو بصوتٍ خفيض جداً:

- يا للعنة!

كان ماتيو وغامبا قد انضما إلى المفرزة، وكان جيانيتو راقداً على المحفّة ومستعداً للرّحيل، عندما رأى ماتيو برفقة غامبا، فابتسم ابتسامةً غريبة، ثم استدار نحو باب المنزل، وبصقَ على العتبة، وهو يقول:

«منزل خائن!».

ما من رجلٍ يجرؤ على التلفظ بكلمة خائن، ويُلصقُها بفالكون، إلا إذا كان رجلاً عازماً على الموت. إن طعنةً ماهرةً من خنجر مضلّعٍ، ولا تحتاجُ لأن تكرّر، كان يمكن أن تُدفع فوراً ثمناً لتلك الإهانة. ومع ذلك، فإن ماتيو لم يقمْ بغير حركةٍ واحدة، وهي أنه رفع يده إلى جبينه، مثل رجلٍ مثقلٍ بالهموم.

كان فورتوناتو قد دخل إلى المنزل، حين رأى والده يصلُ. وعاد إلى الظهور حالاً وهو يحمل جفنةً من الحليب، وقدّمها إلى جيانيتو وعيناه مخفضتان.

فصرخ به المعتقل بصوتٍ صاعق: «ابتعد عني!».

ثم استدار نحو أحد الجنود الجوالين، وقال:

«أيها الرفيق، اسقني».

فوضع الجندي مطرته بين يديه، وشرب قاطعُ الطريق الماء الذي قدّمه إليه الرجلُ الذي كان يتبادلُ وإياه إطلاق نيرانِ البنادق، ثم طلب أن توثق يداه بحيث يُصالبهما على صدره، بدلاً من أن تربطا خلفَ ظهره.

كان يقول: «أُحبُّ أن اضطجع بحريّة».

فسارعوا إلى تلبيةِ طلبه، ثم أعطى المساعدُ إشارةَ الانطلاق، وودّعَ ماتيو الذي لم يردّ عليه، ونزل بخطا متسارعةٍ نحو السهل.

مضت حوالي عشر دقائق قبل أن يفتح ماتيو فمه، فأخذ الصبيُّ ينظرُ بعينٍ قلقةٍ إلى والدته حيناً، وحيناً آخر إلى والده الذي اتكأ على بندقيته، وأخذ يتأمله، ووجهه يعبّر عن غضبٍ كامن.

وقال ماتيو أخيراً بصوتٍ هادئ، ولكنّه مرعبٌ بالنسبةِ لمن كان يعرفُ الرجل:

- أنت تبدأُ بدايةً جيدة!

فهتف الصبيُّ، وهو يتقدم دامعَ العينين، وكأنه سيرتمي على ركبتيه ولكن ماتيو صرخ به:

«ابتعد عني!».

فتوقف الصبي وانتحب من غير حراك، وعلى بضعِ خطواتٍ من والده.

واقتربت جيوسيبا، وكانت قد لمحت قبل قليلٍ سلسلة الساعةِ التي كان أحدُ طرفيها يخرج من قميص فورتوناتو، فسألته بلهجةٍ قاسية:

«من الذي أعطاك هذه الساعة؟».

- ابن عمي المساعد.

فأمسك فالكون الساعة، وألقى بها بقوةٍ إزاء حجرٍ، فتناثرت إلى ألفِ قطعةٍ، وقال: «يا امرأة، هل هذا الصبيّ من صُلبي؟».

فغدت وجنتا جيوسيبا السمراوين حمراوين كالقرميد.

- ماذا تقول يا ماتيو، هل تعرفُ جيداً مع من تتكلم؟

- إذن فهذا الصبي هو أول من قام بخيانةٍ من أبناء سُلالته.

فازداد نحيبُ فورتوناتو وفواقُه، وكان فالكون يُبقي عينيه الثاقبتين مركّزتين دوماً عليه. وأخيراً، ضرب الأرض بأخمص بندقيته، ورماها على كتفه، وسلك مجدداً الدغل، وهو يصرخ بفورتوناتو أن يتبعه، فامتثل الصبيُّ لذلك.

وركضت جيوسيبا خلف ماتيو، وأمسكت بذراعه، وقالت له بصوتٍ مرتعش، وهي تحدّق بعينيها السوداوين في عيني زوجها، وكأنها تقرأ ما يجري في نفسه: «إنه ابنك».

فأجابها ماتيو:

«دعيني، أنا والدهُ».

فعانقت جيوسيبا ابنها، ودخلت وهي تبكي إلى كوخها، وجثت على ركبتيها أمام صورةٍ للعذراء، وصلّت إليها بحرارة. ومع ذلك، فقد سار فالكون ما يقارب مئتي مترٍ في المعبر، ولم يتوقف إلا في مسيلٍ صغيرٍ نزل إليه، فسبر الأرض بأخمص بندقيته، ووجدها رخوةً، ويسهلُ حفرها، فبدا له المكان مناسباً لما ينوي عليه.

«اذهب يا فورتوناتو إلى قربِ ذلك الحجر الكبير».

فصنع الصبي ما أمره به والده، ثم جثا على ركبتيه.

- اتلُ صلواتك.

- أبي، أبي، لا تقتلني.

فردّد ماتيو بصوتٍ مخيف:

- اتلُ صلواتك.

فتلا صلاتي «أبانا» و«أؤمن». وكان الأب يردّد بصوتٍ قويّ، في نهاية كلّ صلاة:

«هل هذه هي كلُّ الصلواتِ التي تعرفها؟»

- أبي، إني أعرف أيضًا: «السلام عليك يامريم» والدُّعاءَ الذي علمتني إياه جدّتي.

- إنها جدُّ طويلة، ولكن لايهمّ.

فأنهى الصبي الدُّعاء بصوتٍ مخنوق.

- هل انتهيت؟

- آه، ياوالدي، اعفُ عني! لن أفعل ذلك ثانيةً! وسوف أتوسّلُ كثيرًا لابن عمي العريف كي يعفو عن جيانيتو!.

كان لايزال يتكلم، وكان ماتيو قد هيأ بندقيته، وصوّبها وهو يقول له:

«فليغفر اللّه لك!»

قام الصبي بجهدٍ يائسٍ كي يقف، ويعانق ركبتي والده، ولكن لم يتسع له الوقتُ لذلك، فقد أطلق ماتيو النار، وسقط فورتوناتو ميتًا.

ودون أن يلقي ماتيو نظرةً على الجثة، سلك طريق منزله مجدداً كي يأتي بمجرفة من أجل أن يدفن ابنه. وما إن خطا بضع خطوات، حتى التقى جيوسيبا التي كانت تحثُّ الخطا، وقد ذُعرت لسماعها العيار الناري.

وهتفت:

«ماذا فعلت؟»

- العدالة.

- أين هو؟

- في الوادي. سوف أدفنه. لقد مات كمسيحي، وسأقيمُ له قدّاساً. فليبلّغ صهري تيودورو بيانشي بأن يأتي ليقيم في منزلنا.

١٨٢٦

– ٢ –

رؤيا شارل العاشر

إن في السماء، وفي الأرض أموراً كثيرة تفوق في عددها تلك التي فكرت بها فلسفتك، يا هوراشيو[١].

شكسبير، هملت

يسخر الناس من الرؤى والتجليات الخارقة للطبيعة، ومع ذلك، فبعضها مثبتٌ إلى حدٍّ كبير بحيث أننا، إذا ما رفضنا تصديقه، فسنكون مضطرين أن نرفض جملةَ الشهادات التاريخية كافّة، إذا أردنا أن نكون منطقيين.

إن محضراً أصولياً تماماً، وممهوراً بتوقيعات أربعة شهودٍ جديرين بالثّقة هو الذي يضمن صحةَ الواقعة التي سأرويها، وسأضيف أن النبوءة التي يتضمنها هذا المحضر قد كانت معروفةً، ومنقولةً، قبل أن تظهر لتحقيقها حوادثُ قد حصلت قبل أيامنا بوقتٍ طويل.

إن شارل الحادي عشر، والد شارل الثاني عشر الشهير، كان أحد الملوك المتفرّدين بالحكم والأكثر استبداداً، ولكنه كان أكثر حكّام السويد حكمةً: فقد قلّص امتيازات النبلاء الهائلة، وألغى نفوذَ مجلس الشيوخ، وسنَّ قوانينَ سلطته الخاصة. وبكلمة، غيَّر دستورَ البلاد التي كانت تحكمها أقليةٌ مُستغلةٌ قبله، وأجبر أركان

(١) – بالإنكليزية في النص الأصلي. (م: ز.ع).

الدولة على أن يُسندوا إليه السلطة المطلقة. لقد كان، زيادةً على ذلك، رجلاً مستنيراً، طيباً، ومتمسّكاً أشدّ التمسك بالدين اللّوثري، وكان ذا طبعٍ صعب، وهادئاً، وموضوعياً، ومتجرداً عن الأوهام تجرُّداً تاماً.

كان قد فقد زوجته أولريكا ليونورا. ومع أن قسوته إزاء تلك الأميرة ربما تكون قد سرّعت في نهايتها، كما يُقال، فقد كان يُقدِّرُها، وبدا متأثراً لموتها أكثر مما كان الناس يتوقعون من قلبٍ جاف الأحاسيس كقلبه. ولقد غدا منذ ذلك الحادث، أكثر اغتماماً وصمتاً من ذي قبل، وأكبّ على العملِ بمثابرةٍ تدلُّ على حاجةٍ ملحةٍ لديه لإبعاد أفكار مضنية.

وفي نهاية إحدى أمسياتِ الخريف، كان جالساً أمام نارٍ كبيرة مشتعلة في ديوانه، في قصر ستوكهولهم، وهو يرتدي مبذله وخفّه، وكان في حضرته حاجبه الكونت براهيه الذي كان يكرمه بنعمه، والطبيبُ بومغارتن الذي، ولنقل قولاً عابراً، يبتُّ بالأمورِ بعقلٍ صارم، ويريدُ أن يشكّ الناسُ بكلِّ شيء، ما عدا الطبّ. وكان الملكُ قد استدعاه في ذلك المساء ليستشيره في أمرٍ توعكٍ ألمَّ به، ولاندري ماهو.

وامتدت السهرة، فلم يشعرهم الملكُ بأنه قد حان وقتُ الانصراف، وذلك خلافاً لعادته التي كان يتمنّى لهم، جرياً عليها، ليلةً سعيدة. كان الملكُ مطرقاً، وعيناه تحدّقان في جمراتِ الموقد، ويلوذُ بصمت عميق، فقد أصابه الضجرُ من جلسائه، ولكنه كان يخشى أن يبقى وحده، من غيرِ أن يدري السَّبب في ذلك. وأخذ الكونت براهيه يلاحظُ حقاً أن حضوره ليس مُستحبّاً جداً. وكان قد عبّر عدداً من المرات عن خشيته من أن تكون جلالته بحاجة إلى الراحة. وفي كل مرةٍ، كانت حركةٌ من الملك تستبقيه في مكانه. أما الطبيبُ فقد تكلّم بدوره عن الضررِ الذي تسببه ليالي السّهر للصّحة، ولكن شارل أجابه بصوتٍ خفيضٍ وغير واضح:

«ابق، لم تأتني الرغبةُ في النوم بعد».

فجرَّبوا حينئذ موضوعات مختلفة للحديث، فأخذت جميعها تنضُب، بعد جملتين أو ثلاث. وكان يبدو جليًّا أن جلالته قد كان يمرُّ بإحدى حالات اكتئابه. وفي ظرفٍ كهذا، يكون وضعُ جليسِ الملك شديدَ الحساسية فعلاً.

أما الكونت براهيه، الذي خالجه الشكُّ بأن حزنَ الملك ناجمٌ عن تحسُّرِه على فقدانِ زوجته، فقد نَظَر بعضَ الوقت إلى صورةِ الملكةِ المعلقة في الديوان، ثم هتَفَ وهو يتنهدُ بعمق:

كم تشبهُها هذه الصورة! يا لهذا التعبير حقًّا من تعبيرٍ جليل ورقيقٍ في آن!

فأجاب الملكُ الذي كان يَحسبُ أنه يسمعُ لومًا في كل مرةٍ يُلفظُ فيها اسم الملكة أمامه، أجاب فجأة:

«إن هذه الصورة متملّقةٌ أكثر من اللازم، فقد كانت الملكةُ قبيحةً». وإذ شعر، في دخيلته، باستياء من قسوته، نهض، ودار دورةً في الغرفة ليُخفي انفعاله الذي كان يخجلُ به، وتوقّف أمام النّافذة التي كانت تطلُّ على باحة القصر. وكان الليلُ معتماً، والقمر في الربُّع الأول من الشهر.

لم يكن القصر الذي يقيمُ فيه ملوكُ السويد قد انتهى بعد، وكان شارل الحادي عشر، الذي بدأ العمل به، يقيمُ حينذاك في القصرِ القديم، الواقع في طرف ريترهولم التي تُطلُّ على بحيرة مولر. وهذا القصرُ عبارةٌ عن مبنى كبير، على شكلِ حدوةِ حصان، وكان ديوانُ الملك يقعُ في أحد أطرافه، وقبالته تقريبًا، كانت تَقَعُ القاعةُ الكبرى التي يجتمعُ فيها أركانُ الدولة حين يتعينُ عليهم أن يتلقوا بلاغًا من التاج.

كانت نوافذ تلك القاعة تبدو مضاءةً في تلك اللحظة بنورٍ ساطع، فبدا ذلك أمرًا غريبًا بالنسبة للملك، فافترض في البداية أن ذلك الضوءَ صادر عن مشعلِ أحد الخدم. ولكن ماذا كان يمكن للمرء أن يصنع في مثل تلك الساعة، في قاعةٍ لم تُفتح منذ زمنٍ طويل؟ زد على ذلك. أن الضوء قد كان شديد السطوع بحيث لا يمكن أن

يكون صادرًا عن مشعلٍ واحد، وكان من الممكن أن يُعزى مصدره إلى حريق، غير أنّه لم يكن يُرى دخانٌ، ولم يكن زجاجُ النوافذ مكسورًا، ولم يكن يصدر أيٌّ صوتٍ، وكلُّ الأمور تدلُّ على الأرجح على استضاءةٍ رؤيوية.

نظر شارل إلى تلك النوافذ لبعضِ الوقت، دون أن يتكلم، وفي تلك الأثناء، كان الكونت براهيه يهمُّ باستدعاء الخادم من أجلِ أن يرسله لاستكشاف سبب ذلك الضوء الفريد، فمدَّ يده إلى حبلِ أحد الأجراس، ولكن الملك أوقفه وقال:

«أريد أن أذهب بنفسي إلى تلك القاعة».

وما إن أنهى هذه الكلمات، حتى رأوا لونه يشحُبُ، وسحنته تُعبّر عن نوعٍ من الهولِ الإيماني، ومع ذلك، فقد خرج، ثابتَ الخطو، فتبعه الحاجبُ والطبيبُ، وكلٌّ منهما يحملُ شمعةً مضاءة.

أما البوابُ الذي كان مكلّفًا بالمفاتيح فقد كان نائمًا، فمضى بومغارتن لإيقاظه، وطلب إليه بأمرِ الملك، أن يفتح في الحال أبوابَ قاعةِ الأركان فاعترت ذلك الرجل دهشةٌ كبيرة، لدى سماعه لذلك الأمر غير المتوقع، وارتدى ثيابه على عجلٍ، ولحق بالملك، حاملاً حزمة مفاتيحه. لقد فتح أولاً باب ممرٍ يُستخدم كغرفةِ انتظارٍ أو كرواقٍ لقاعة الأركان، فدخل الملك، وكم كانت دهشته كبيرةً حين رأى الجدران بكاملها مغلّفةً بالأسود، فسأل بلهجةٍ غاضبة:

«من الذي أعطى الأمر بتغليفِ القاعة على هذا الشكل؟»

فأجاب البواب وقد اعتراه الاضطراب:

- لا أحد، يا مولاي، وآخر مرّةٍ جعلتُ فيها الخدمَ يكنسون الرُّواق، كانت القاعة مكسوّةً بخشبِ السنديان، كما كانت دائمًا... ومن المؤكد أن هذه الستائر ليس مصدرها مستودعَ أثاثِ جلالتكم.

أما الملكُ الذي كان يسيرُ بخطًى سريعة، فكان قد وصل إلى أكثر من ثلثيّ الرُّواق وكان الكونت والبوابُ يتبعانه عن قرب. أما الطبيبُ بومغارتن فكان وراءهم قليلاً، يتجاذبه الخوفُ من أن يبقى وحده، والخوفُ من أن يتعرّضَ لعواقبِ مغامرةٍ بدأت مقدماتُها على نحوٍ لايخلو من الغرابة.

وهتف البواب:

«لا تمضوا إلى أبعد من ذلك، يا مولاي! أقسم بروحي أن هناك سحراً. ففي مثل هذه السّاعة... ومنذ وفاة الملكة، زوجتكم الممتلئةُ بالنعمة... يقولون إنها تتجولُ في هذا الرواق... فليحمنا الربُّ!

كان الكونت، من جهته، يهتف:

- توقّف، يا مولاي، ألا تسمعون هذا الصوت الذي ينطلق من قاعة الأركان؟ من يدري لأيةِ مخاطر تتعرضُ جلالتكم.

وكان بومغارتن الذي أطفأت هبةُ ريحٍ شمعته منذ قليل يقول:

«يا مولاي، اسمحوا لي، على الأقل، أن أذهبَ لإحضارِ عشرين من رمّاحيكم».

فقال الملكُ بصوتٍ صارم، وهو يتوقف أمام باب القاعة الكبرى:

«لندخل، وأنت، أيها البواب، افتح هذا الباب بسرعة».

ودفع البابَ بقدمه، فدوّى الصوتُ في الرُّواق مثل طلقةِ مدفع، لأن صدى القباب قد جعله يتردّد:

كان البواب يرتجف إلى حدٍّ كبير بحيث كان مفتاحُه يضربُ القفل دون أن يتمكن هذا البّواب من فتحه.

فقال شارل وهو يهزّ كتفيه:

«أجنديٌّ قديمٌ ويرتجفُ! هيا، أيها الكونت، افتح لنا هذا الباب.

فأجاب الكونت وهو يتراجع خطوةً:

- يا مولاي إن جلالتك تأمرني بأن أهجم على فوهة مدفع دانماركي أو ألماني، فأطيعُ دون تردّدٍ، أما هنا، فإن الجحيم هو الذي تريدُ جلالتُك أن أتحداه.

فانتزعَ الملك المفتاحَ من بين يديّ البواب، وقال بلهجةٍ تنمُّ عن الاحتقار:

«ألاحظُ تماماً أن هذا الأمرَ يعنيني وحدي». وقبل أن تتمكن حاشيته من أن تمنعه، كان قد فتح الباب السميك المصنوع من خشب السنديان، ودخل إلى القاعة الكبرى، وهو يلفظ هاتين الكلمتين: «بعون الله!»، فدخل تابعوه الثلاثة معه، يدفعهم إلى ذلك الفضولُ الذي غدا أقوى من الخوف، ولربّما بسبب خجلهم من أن يتخلّوا عن ملكهم.

كانت القاعةُ الكبيرةُ مضاءةً بعددٍ لامتناه من المشاعل. وكان بساطٌ أسود يحلُّ محلَّ السجادة القديمة التي رسمت عليها رسومُ أشخاص. وعلى طول الجدران، كانت تظهرُ أعلامٌ ألمانيةٌ، ودانماركية، وموسكوفية، مرتّبة بنظام، وهي تذكاراتُ انتصاراتِ جنود غوستاف - أدولف. وكان يمكن تمييزُ حرابٍ سويدية في الوسط، وهي مغطّاة بمنسوجات حدادٍ مأتمية.

كان هناك محفلٌ هائلٌ تكتظُّ به المقاعدُ. وكلّ فئةٍ من فئات الدّولة الأربع[1] تجلسُ في الصف المخصّصِ لها. وكان الجميعُ يرتدون السَّواد. وكان ذلك الحشدُ، حشدُ الوجوه البشَرية التي تبدو مشرقةً على خلفيةٍ معتمة، يبُهر العيونَ إلى درجةٍ كبيرة، بحيث لا يستطيعُ أيُّ شاهدٍ من شهود ذلك المشهد الخارق أن يعثر على وجهٍ واحدٍ معروف في تلك الجمهرة. وهكذا، فإنّ ممثلاً يواجهُ جمهوراً كبيرَ العدد، لا يرى سوى كتلةٍ مشوَّشة، لا تستطيعُ عيناه أن تميّز فيها فرداً واحداً.

ورأوا على ذلك العرش المرتفع الذي اعتاد الملكُ أن يخطبَ منه أمام المحفل، رأوا جثةً داميةً مغطاةً بشعاراتِ الملكية. وعلى يمينه، كان يقفُ صبيٌّ يضعُ التاجَ

---

(١) - النبلاء، ورجال الدين، والبورجوازيون، والفلاحون.

على رأسه، ويمسك بيده صولجانًا، وعلى يساره، كان ثمة رجل مسنّ، وهو أقربُ ما يكون إلى شبحٍ آخر، يتكئ على العرش. لقد كان يرتدي معطفَ الاحتفال الذي كان يرتديه مديرو السويد القدماء، قبل أن يحوّل فازا السويد إلى مملكة. وقبالة العرش، كانت هناك بضعُ شخصياتٍ جديةِ المظهر، وصارمة، وتلبس أرديةً طويلة سوداء، وتبدو كأنها قضاة، وكانت تجلس أمام منضدة، تُرى عليها طليحاتٌ كبيرةٌ من الورق، والرقوق. وبين العرش ومقاعد المحفل، كانت هناك قرمةٌ خشبيةٌ مغطاة بقماشٍ أسود، وإلى جانبها، كانت توضعُ بلطة.

لم يظهر أن أحدًا من ذلك المحفل الفائق على البشر، قد لاحظ وجودَ شارل والأشخاص الثلاثة الذين كانوا يرافقونه. وعند دخولهم، لم يسمعوا أولاً غير همسٍ مشوّش لا تتمكّن الأذن في وسطه من أن تلتقط كلماتٍ ملفوظةً، ثم نهض أكبرُ القضاة اللابسين رداءً أسود سنًّا، وهو الذي يبدو أنه يشغلُ وظائفَ الرئيس، نهض وضرب ثلاث مرات بيده على إحدى الطلحيّات الورقية المفتوحة أمامه. فخيّم في الحال صمتٌ عميق، ودخل بعض الشبّان الموفوري الصحة، والذين يرتدون ملابس فخمةً إلى القاعة، من الباب المقابل لذلك الباب الذي فتحه شارل منذ قليل. دخلوا وهم موثقو الأيدي خلف ظهورهم كانوا يسيرون ورؤوسهم مرفوعةٌ، ونظرتهم جريئة. وخلفهم، كان هناك رجلٌ متينُ البنية، يرتدي لباسًا مخصرًّا من الجلد، بنيّ اللون. ويمسك بطرف الحبال التي كانت توثقُ أيديهم. أما ذلك الذي كان يسيرُ في المقدمة، ويبدو وكأنه أكثر السُّجناء أهميةً، فقد توقف في وسط القاعة، أمام قرمةِ الشجرة التي نظر إليها باحتقارٍ متعال. وفي الوقت نفسه، بدت الجثةُ وكأنها ترتجفُ بحركةٍ اختلاجية، وسال دمٌ غض وقرمزي من جرحها. فجثا الفتى، ومدّ رأسه، فالتمعت البلطةُ في الهواء، وهوت في الحال، محدثةً صوتًا، فانبجست ساقيةٌ من الدم على المنصّة، وامتزجت بدم الجثة، أما الرأسُ، الذي قفز عدة مراتٍ على الأرضية المُلطّخة بالأحمر، فقد تدحرج حتى قدمي شارل اللتين صبغهما بالدم.

كانت الدهشة، حتى ذلك الوقت، قد أخرست شارل، ولكن عقدةَ لسانه قد انحلت عند ذلك المشهد الفظيع، فخطا بضعَ خطوات نحو المنصة، وتوجه إلى ذلك الوجه الذي يرتدي معطف الحاكم، وتلفظ بالعبارة التي يعرفُها الناسُ جيداً:

«إن كنت من عندِ الله، فتكلم، وإن كنت من عند «الآخر»، فدعنا وشأننا».

فأجابه الشبحُ ببطء، وبلهجةٍ احتفالية:

«أيها الملك شارل! هذا الدم لن يسيل في عهد ملكك... (وهنا أصبح الصوتُ أقلّ وضوحاً) ولكن بعد خمسةِ عهودٍ ملكية، الويل، الويل، الويل لدماء فازا!».

حينذاك، بدأت أشكال الشخصيات العديدة لذلك المحفل المثير للدهشة، بدأت تصبحُ أقلّ وضوحاً، ولم تعد تبدو أكثرَ من ظلالٍ ملونة. وبعد قليلٍ، اختفت اختفاءً تاماً. وانطفأت المشاعلُ الخارقةُ. أما مشاعلُ شارل وأتباعُه فلم تضئ غير البُسط القديمة التي كانت الريح تُهزّها هزّاً خفيفاً. وسُمع أيضاً، لبعض الوقت، صوتٌ منغّمٌ إلى درجة كافية بحيث شبّهه أحدُ الشهود بهفيفِ الريح بين الأوراق، وشبّهُهُ آخر بالنغم الذي تؤديه أوتارُ القيثار وهو يتكسّر، في اللحظة التي تُضبط فيها الآلة. وكان الجميع متفقين على الزمن الذي استغرقه التجلي، والذي رأوا أنه قد دام مايقربُ من عشر دقائق. أما ستائرُ الجوخ السوداء، والرأسُ المقطوع، ودفقاتُ الدم التي صبغت الأرضية، فقد اختفت كلُّها مع اختفاء الأشباح، واحتفظ خفُّ شارل وحده ببقعةٍ حمراء كان يمكن لها بمفردها أن تكون كافيةً بالنسبة إليه لتذكره بمشاهد تلك الليلة، لو لم تكن قد حُفرت في ذاكرته على نحوٍ أعمق مما ينبغي.

وما إن رجع الملك إلى ديوانه، حتى أمر بكتابة قصة ما رآه، وجعل مرافقيه يوقّعونها، وقعها هو شخصياً. وبرغم الاحتياطات التي اتُّخذَت لإخفاء محتوى تلك القطعة المكتوبة عن الجمهور، لم يلبث أن عرفه الناس سريعاً، وحتى أثناء

حياة شارل الحادي عشر. وهي لا تزال موجودةً. ولم يتجرأ أحدٌ، حتى الآن، على إبداء الشكوك حول صحتها، ونهايتُها لافتة للنظر:

«يقول الملك: وإذا كان ما فرغت الآن من روايته ليس الحقيقة التامةَ، فأنا أتخلى عن كلِّ أملٍ بالحياة الأفضل التي يمكن أن أكون قد استحققتها، لقاء بعض الأعمال الطيبة، وخصوصًا، لقاء حماستي للعمل من أجل سعادةِ شعبي، ومن أجل الدّفاع عن دينِ أسلافي».

والآن، إذا ماتذكرنا موت غوستاف الثالث، ومحاكمة أنكارستروم، قاتله، وجدنا أكثر من علاقةٍ بين هذه الحوادث، وظروف تلك النبوءة الفريدة. إن الفتى الذي قُطع رأسه بحضور أركان الدولة يمكن أن يكون قد دلَّ على أنكارستروم. وتكون الجثة المتوّجة هي غوستاف الثالث. ويكون الطفلُ ابنه وخلفهُ، هو غوستاف - أدولف الرابع.

وأخيرًا، يكون الشبح هو الدوق دو سوديرماني، عمّ غوستاف الرابع، والذي كان وصيّ العرش في المملكة، وأصبح أخيرًا ملكًا بعد عزلِ أخيه.

١٨٢٩

- ٣ -

احتلال المعقل

روى لي ذات يوم أحدُ أصدقائي العسكريين، والذي توفّي بالحمى، في اليونان منذ بضع سنوات، روى لي المعركة الأولى التي حضرها. فأثّرت بي قصته كثيراً بحيث كتبتها من الذاكرة، حالما توفّر لي وقتٌ لذلك، وهذه هي:

«التحقت بالفوج، في الرابع من أيلول، مساءً، فوجدتُ العقيد في المعسكر، فاستقبلني في بداية الأمر استقبالاً لا يخلو من الفظاظة. ولكنه غيّر تصرفه إزائي، بعد أن قرأ رسالة التوصية الموجّهة إليه من العميد ب. . . فوجّه لي بعضَ الكلمات اللطيفة.

لقد قدّمني إلى رئيسي النقيب الذي كان عائداً، في اللحظة نفسها، من استطلاع قام به. إن هذا النقيب الذي لم يتوفّر لي إلا القليل من الوقت لمعرفته، قد كان رجلاً طويلَ القامة، أسمرَ البشرة، وذا سحنة قاسية، ومُنفّرة. كان جندياً بسيطاً، وفاز بكتفيّتيه ووسامَ صليب الحرب، في ساحات القتال. أما صوته، فقد كان أبحّ وضعيفاً ويتعارض بصورةٍ غير مألوفة مع بُنيته العملاقة إلى حدٍّ ما. وقد قيل لي إن السبب في صوته الغريب يرجعُ إلى رصاصةٍ قد اخترقت صاحبه من جهةٍ لأخرى في معركة يينا.

وحين علم أنني قد تخرجتُ من مدرسة فونتينبلو، قطّب وجهه، وقال:

«لقد ماتَ ملازمي الأول بالأمس. . .»

وفهمت أنه كان يريد أن يقول: «أنت الذي ينبغي أن تحلَّ مكانه، ولست أهلاً لذلك».

فأتت كلمةٌ جارحة على شفتي، ولكني تمالكت نفسي.

ارتفع القمر خلف معقل شيفيرينو الواقع على بعدٍ يعادلُ مرتين مرمى المدفع من معسكرنا، وكان القمرُ واسعًا وأحمر اللون كالمعتاد، عند صعوده. غير أنه بدا لي في ذلك المساء بحجمٍ يفوق المألوف. وخلال لحظة من الزمن، برز المعقلُ أسود اللون، على قرص القمر الساطع، وكان يشبهُ مخروطًا بركانيًا في لحظة الثوران.

ولاحظ جنديٌّ عجوز كنتُ موجودًا إلى جانبه لون القمر، فقال:

«إنه شديدُ الاحمرار، وهذه علامة على أن هذا المعقل الذائع الصيت سوف يكلّفُ احتلاله ثمنًا غاليًا».

طالما كنتُ متطيّرًا، فأثرَّ بي ذلك التنبؤ، في تلك اللحظة بصورةٍ خاصة، فأويتُ إلى الفراش، غير أني لم أستطع النوم، فنهضتُ، ومشيتُ بعض الوقت، وأنا أنظرُ إلى خطِّ النيران الشاسع الذي كان يغطي المرتفعات التي تقعُ فيما وراء شيفيرينو.

وحين ظننت أن الهواء النديّ واللاسع، هواءَ الليل، قد بردّ دمي، رجعتُ إلى جانب النار، والتففتُ داخل معطفي بعناية، وأغلقت عينيّ آملاً ألاّ أفتحهما قبل الفجر. ولكن النّوم جافاني. وكانت أفكاري تأخذُ صبغةً محزنةً من غير أن أشعر. كنت أقولُ في نفسي إنه لم يكن لدي صديقٌ واحد، من بين مئات ألوفِ الرجال الذين يزخر بهم ذلك السهلُ، وإذا ما جُرِحتُ، فلسوف يضعونني في أحد المشافي، ويعالجني أطباءٌ جاهلون دون مراعاة. واسترجعت ذاكرتي ما كنتُ قد سمعته من أقوالٍ عن العمليات الجراحية. فأخذ قلبي يدقُّ بعنف. وأعددتُ بصورةٍ آليةٍ منديلي وحافظةَ أوراقي اللذين كنتُ أحملهما في عبي، وكأنهما نوعٌ من الدروع الواقية، وبدأ التعب يرهقني، وكنت أغفو في كلّ لحظة. وفي كلّ لحظةٍ تتوالدُ فكرةٌ مشؤومةٌ بقوةٍ أكبر، وتوقظني منتفضًا.

ومع ذلك، فقد تغلبَ التعبُ، وعندما قرعوا نوبةَ الصباح، كنتُ نائمًا تمامًا. لقد دخلنا المعركة، فأجري التفقد، ثم أعيد وضعُ الأسلحةِ على شكلِ هرم، وكان كلُّ شيء يبشّرُ بأننا سنمضي نهاراً هادئًا.

حوالي الساعة الثالثة، وصل مرافقٌ عسكري حاملاً أمراً، فجعلونا نحملُ السلاح مجدداً وانتشر قنّاصونا في السّهل، وتبعناهم ببطء. وبعد عشرين دقيقةً، رأينا كلَّ المراكز الرّوسية الأمامية تنسحبُ، وتدخل إلى المعقل.

وأتت سريةُ مدفعية لتتمركز على يميننا، وأخرى، على يسارنا، بيد أن كلتيهما كانت أمامنا. فبدأتا إطلاق نارٍ حاميةٍ جداً على العدو الذي ردّ عليها بقوة، فاختفى معقل شيفرينو سريعًا تحت غيومِ الدُّخان الكثيفة.

كان فيلقنا تقريبًا في مأمنٍ من نار الروس، بفضل ثنيةٍ أرضية، وكانت قذائفهم التي يندرُ أن يطلقوها علينا، من ناحية أخرى (فقد كانوا يفضلون إطلاقها على مدفعيتنا)، كانت تمرّ فوق رؤوسنا، أو تبعثُ إلينا بالتُّراب، والحجارة الصغيرة، على الأكثر.

ما إن تلقّينا أمر السير إلى الأمام، حتى نظر رئيسي النقيبُ إليّ بانتباهٍ أجبرني على أن أمسّدَ شاربي الجديد مرتين بأكثر طلاقة محيا استطعتها. ومع أني لم أكن خائفًا، فالأمرُ الوحيدُ الذي كنتُ أخشاه هو أن يتصورَ الآخرون أنني خائفٌ وقد ساهمت تلك القذائفُ غير المؤذية في إبقائي هادئًا هدوءاً بطوليًا. وكان كبريائي يقولُ لي إنني أتعرّضُ لخطرٍ فعلي، إذ أنني كنتُ في النهاية، تحت نيران سريةِ مدفعية، وكنت مبتهجًا لأني كنت مرتاحًا إلى ذلك الحدّ، وفكرتُ بمتعةٍ أن أرويَ قصة احتلال معقلِ شيفيرينو، في صالون السيّدة ب. . . في شارع بروفانس.

ومرّ العقيد من أمام سريتنا، وتوجّه إليّ بالكلام قائلاً: «حسنًا، سترى أهوالَ الحرب، بالنسبة لمبتدئ مثلك».

ابتسمتُ بهيئةٍ عسكرية تماماً، وأنا أنفضُ كمي الذي بَعثت إليه بقليلٍ من الغبار قذيفةٌ سقطت على بعد ثلاثين خطوةٍ مني.

يبدو أن الروس قد لاحظوا النجاح الرديء الذي تحرزُه قذائفهم، لأنهم استبدلوا بها قذائف تستطيعُ أن تصيبنا بسهولةٍ في المنخفض الأرضي الذي كنّا متمركزين فيه، فانتزع انفجارٌ ضخمٌ قلنسوتي، وقتل رجلاً بقربي.

فقال النقيبُ لي فيما كنتُ أهمّ بالتقاط قلنسوتي:

«أهنّئك، لقد دفعتَ ما يتوجب عليك دفعه لهذا النهار».

لقد كنتُ أعرفُ ذلك التطيُّرَ العسكري الذي يعتقدُ أن القاعدةَ التي تقول: لا يحاسبُ المرءُ مرتين على الفعلِ نفسه[1]، تجدُ تطبيقاً لها في ساحة القتال، كما تجده في قاعةِ محكمةٍ قضائية، فاعتمرتُ من جديدٍ قلنسوتي بفخر. وقلتُ بأكثر ما يمكنني من مرح:

«بهذا الشكل نجعلُ الناسَ يؤدّون التحية بلا تكلُّف. فبدت تلك المزاحة الرديئةُ ممتازة، نظراً للمناسبة. واستأنف النقيبُ قائلاً:

«أهنئك، ولن تحصل على شيءٍ آخر أكثر من ذلك، ولسوف تقودُ سريةَ هذا المساء. فأنا أشعر أن الإخفاقَ قادمٌ بالنسبة لي، ففي كل مرةٍ كنت أصاب فيها بجرح، كان الضابطُ الموجودُ بجانبي يصابُ برصاصةٍ مميتة»، ثم أضاف بصوتٍ أخفض، ومشوبٍ بالخجل تقريباً: «وأسماؤهم كانت تبدأ دوماً بالحرف: «ب»[2].

تمالكتُ نفسي، فالكثير من الناس كان يمكن أن يفعلوا مثلي، كما كان يمكن للعديد من الناس أن يتأثروا بتلك الكلمات التنبؤية مثلي تماماً. وبما أنني كنت مجنّداً، فقد شعرتُ بأنه ليس بإمكاني البوحُ بمشاعري لأحد، وأنه يتعيّن علي دوماً أن أظهر مقداماً بلا انفعال.

---

(١) - باللاتينية في الأصل الفرنسي. (م: ز.ع).

(٢) - «p» بالفرنسية (م: ز.ع).

وبعد مرور نصف ساعة، تناقصت نيرانُ الرّوس بصورةٍ ملموسة. حينذاك، خرجنا من مأمننا كي نزحف على المعقل.

كان فيلقنا مؤلفاً من ثلاث كتائب. وكانت الكتيبةُ الثانية مكلفةً بالانعطاف حول المعقل، من ناحية المضيق. أما الكتيبتان الأخريان، فكان يتعين عليهما شنُّ الهجوم وكنتُ في الكتيبة الثالثة.

حين خرجنا من خلف نوعٍ من جدارٍ استناديّ، كان يحمينا، استقبلتنا عدّةُ رشقاتٍ أطلقتها علينا البنادقُ، فلم تحدث إلاّ أضرارٌ قليلةٌ في صفوفنا، لقد فاجأني أزيزُ الرّصاص. فغالبًا ما كنتُ أُدير رأسي، فأستدعي بتصرفّي هذا بعضَ التعليقات الساخرة من رفاقي الذين تآلفوا مع ذلك الصوت.

قلتُ في نفسي: «بعد كلّ اعتبار، ليست المعركة أمراً مخيفًا إلى الحدّ الذي نظنهُ».

كنا نتقدم جريًا، يسبقنا القناصةُ، فأطلق الروس فجأةً ثلاث صرخاتِ «هورّا»[1]، ثلاث صرخاتٍ واضحةٍ، ثم مكثوا صامتين، ودون إطلاق نار.

فقال رئيسي النقيبُ: لا أُحب هذا الصمت، فهو لاينبئ بأمرٍ حسن».

وجدتُ أن جنودنا كانوا يُحدثون ضجةً أكثر مما ينبغي بعض الشيء، ولم أستطع الامتناع عن أن أجري في نفسي مقارنةً بين ضجيجنا الصاخب، وصمتِ العدوّ المهيب.

وصلنا إلى أسفل المعقل بسرعة، وكانت الأسيجةُ قد تحطمت، والأرضُ مقلوبةً بسبب قذائفنا، فاندفع الجنودُ على تلك المهدَّمات الجديدة وهم يصيحون: عاش الامبراطور! وكانت صرخاتهم أقوى مما كان يُنتظرُ من أناسٍ أكثروا من الصراخ من قبل.

---

(١) - هورّا: هتافٌ للتعبير عن الفرح، أو الاندفاع إلى المعركة، لدى القوقازيين، والروس عموماً. (م: ز.ع).

رفعتُ عيني، ولن أنسى أبدًا المشهد الذي رأيت. كان القسمْ الأكبر من الدُّخان قد ارتفع مثل قبة على علوٍ عشرين قدمًا، فوق المعقل. ومن خلال بخارٍ مائلٍ إلى الزُّرقة، كنا نلمحُ رماةَ القنابل الروس، خلف متراسهم الذي دُمِّر نصفه، وهم يرفعون سلاحهم، ويقفون بلا حراك مثل التماثيل، ويُخيّل إلي أني لاأزال أرى كلَّ جنديّ، وعينه اليسرى مركّزةٌ علينا، واليمنى تغطيها بندقيته المرفوعة. وكان هناك رجلٌ بقرب أحد المدافع، يمسك بملهابٍ، في إحدى فرجات الجدار، وعلى بُعد بضعة أقدامٍ منا.

ارتعشتُ، وظننتُ أن ساعتي الأخيرة قد أتت، وهتف رئيسي النقيب:

«ها هي اللحظة التي يبدأ فيها الرقصُ، فمساء الخير!».

وكانت تلك هي آخر الكلمات التي سمعته يلفظها.

ودوى قرعُ الطبول في المعقل، ورأيت البنادقَ كلها تنخفض، فأغلقت عينيّ وسمعت قرقعةً مرعبة، تلتها صرخاتٌ وتأوّهات. وفتحت عيني، مدهوشًا من أن أجد أني لا أزال في هذا العالم. وكان المعقلُ قد لفّهُ الدخانُ من جديد، وكنتُ محاطًا بالجرحى والموتى وكان رئيسي النقيب ممدَّدًا عند قدمي، فقد سحقت قذيفةٌ رأسه، وأصبحتُ مغطّىً بدماغه ودمه. ولم يبق واقفًا على قدميه من سريته كلها، سوى ستة رجالٍ وأنا.

أعقبت تلك الملحمة لحظةٌ من الذّهول. أما العقيدُ الذي وضع قبّعته على رأس سيفه، فقد تسلّق المتراس مثل الجميع وهو يصرخ: «عاش الامبراطور!» وفي الحالِ لحق به كل النّاجين. أما ما حدث بعد ذلك، فإني لم أعد تقريبًا أتذكره بوضوح. فقد دخلنا إلى المعقل، ولا أدري كيف. وجرى القتالُ مجابهةً في وسط دخانٍ كثيف إلى درجة لا يمكن معها أن يرى المرءُ نفسه. وأظنّ أنني قاتلت لأني وجدتُ سيفي يقطر دمًا. وأخيرًا سمعت صيحةً تهتف: «النصر!» ولمحت من خلال الدّخان المتناقص، دمًا وموتى كانت أرضُ المعقلِ تختفي معالمُها تحتها،

وكانت المدافعُ خصوصاً مدفونةً تحت أكوامِ الجثث. كان مئتا رجلٍ واقفين على أقدامهم يرتدون الزيَّ الفرنسيّ، ويتجمّعون بلا نظام، بعضُهم يحشو بنادقه، وآخرون يمسحون حرباتهم. وكان معهم أحد عشر أسيراً روسيّاً.

كان العقيدُ منقلبًا على ظهره، ومضرّجًا بدمه، على صندوق ذخيرةٍ محطّم، بقرب المضيق. فأخذ بعضُ الجنود يتجمعون حوله بسرعة، واقتربت، فكان العقيد يسأل رقيبًا:

«أين النقيبُ الأقدم هنا؟»

فهز الرقيب كتفيه بصورة جدّ معبّرة:

«وأقدم ملازم أول؟»

فقال الرقيب بلهجةٍ هادئة جداً:

«إنه هذا السيد الذي وصل بالأمس»

فابتسم العقيد بمرارةٍ وقال لي:

«هيا، أيها السيد، أنت القائدُ الأعلى، فلتأمر بتحصين المضيق فوراً بواسطة هذه العربات، فالعدو قوي، ولكن العميد س... سوف يعملُ على مساندتك.

فقلتُ له:

- سيدي العقيد، إنك مصابٌ بجرحٍ خطير؟

- «ف[1]... ياعزيزي، ولكن المعقل قد احتلّ!»

---

(١) - F أو Fi : تدل على الازدراء وعدم الاهتمام إلخ... (م: ز.ع).

- ٤ -

تامانغو

كان القبطانُ لودو بحّاراً جيداً، فقد بدأ حياته كبحّارٍ بسيط، ثم أصبح مساعداً لمدير دفّة. وفي معركة الطرف الأغر، حطّمت شظيةٌ خشبيةٌ يده اليسرى، فبتُرت. وسُرّح من عمله بعد ذلك، حاملاً شهادات جيدة. كانت الراحةُ قلّما تناسبه، وحين أتته الفرصةُ كي يعاود الإبحار، خدمَ بصفة ملازم ثان على متنٍ سفينة قرصنة. وأتاح له المال الذي جناه من بعض المغانم أن يشتري كتُباً، وأن يدرسَ نظريةَ الملاحة التي كان يعرفُ ممارستها من قبل معرفةً تامة. ومع الزمن، أصبح قبطاناً لمركب قرصنةٍ شراعيّ، مزودٍ بمدافع ثلاثة، وبطاقمٍ من ستين رجلاً. ولايزال بحّارةُ سواحلِ جيرسي يحتفظون بذكرى مآثره. ولكن وقتَ السِّلم أوقعه في الضيق. وكان قد جمع، أثناء الحرب ثروةً صغيرة كان يأملُ في زيادتها على حساب الإنكليز، واضطر إلى تقديم خدماته إلى تجارٍ مسالمين. وبما أنه كان معروفاً كرجلٍ عزمٍ وخبرةٍ، فقد كان من السَّهل أن يُعهد إليه بباخرة. وعندما كانت تجارةُ الزنوج ممنوعة، وكان يتحتم على من يتعاملُ بها أن يخدعَ ليس فقط يقظةَ الجمركيين الفرنسيين، وهذا أمرٌ لم يكن صعباً جداً، بل الإفلات من الطرادات الحربية الإنكليزية أيضاً، وهذا أمرٌ ينطوي على أكبر مخاطرة، غدا القبطان لودو رجلاً لاغنى عنه بالنسبة لتجار خشب الأبنوس[1].

وبما أنه كان مختلفاً جداً عن معظم البحّارة الذين فترت عزيمتهم زمناً طويلاً، وهم يقومون مثله بأعمالٍ ثانوية، فلم يكن يضمر تلك الكراهية العميقة

---

(١) - تسمية يطلقها الناس الذين يقومون بتجارة الزنوج على أنفسهم.

للتجديدات، ولم تكن لديه تلك الذهنية النمطية التي يحملونها على نحوٍ مفرط إلى المراتب العليا. فلقد كان القبطان لودو، على العكس من ذلك، أولَ من كلّفَ مُجهّزَ سفينته باستخدام الصناديق المعدنية المخصصة لاحتواء الماء وحفظه. وعلى متن سفينته، كانت الأصفادُ والسلاسلُ التي تتجهزُ بها بواخرُ الزنوج مصنوعة وفقاً لنموذجٍ جديد، ومدهونةً بعناية، من أجل حمايتها من الصدأ، غير أن الأمر الذي جعله يحظى بأكبر تقدير، بين تجار العبيد هو بناءُ سفينةٍ شراعية مخصصة لتجارة الرقيق، والتي قادها بنفسه. وهي عبارةٌ عن سفينة شراعية رشيقة، وضيقة، وطويلة، مثل سفينةٍ بحرية، وهي مع ذلك، قادرةٌ على الاتساع لعددٍ كبيرٍ جداً من السود، وقد سماها «الرّجاء». وأراد ألا ترتفع المسافات بين سطحي السفينة، وهي مسافات ضيقة ومتداخلة، أكثر من ثلاثة أقدام وأربع بوصات، زاعماً أن هذا البعد يُتيحُ للعبيد من ذوي القامات المعقولة أن يجلسوا بارتياح، فما حاجتهم إلى الوقوف؟

وكان لودو يقول: «حين يصلُ العبيدُ إلى المستعمرات، يُتاح لهم أن يبقوا واقفين أكثر من اللازم!».

أما السود، الذين كانوا يسندون ظهورهم إلى حواف السفينة الداخلية، ويصطفون على خطين متوازيين، فقد كانوا يدعون مسافةً فارغةً بين أقدامهم، وهي مسافةٌ لم تكن تُستخدمُ في سفن الزنوج الأخرى، إلا للتجول. فخطر في ذهن لودو أن يضع في تلك الفُسحة زنوجاً آخرين، يتمدّدون عمودياً بالنسبة للأوائل منهم. وعلى هذا النحو، كانت باخرته تحتوي عشرة زنوج أكثر من أيةِ باخرةٍ أخرى من الزنّة نفسها. وعند الاقتضاء، كان يمكن أن يوضع عددٌ أكبر منهم، إنما ينبغي أن يكون لدى المرء شعورٌ إنسانيّ، وأن تُترك للزنجي على الأقل مساحةٌ طولها خمسة أقدام، وعرضها قدمان كي يرتع فيها، خلال مدّة الرحلة البحرية التي تدوم ستة أسابيع وأكثر: «لأن الزنوج، كما كان لودو يقول لمجهز سفينته: بشرٌ مثل البيض على كل حال، وذلك كي يسوغ ذلك التدبير الكريم».

أبحرت «الرجاء» من مدينة نانت، في يوم جمعة، كما لاحظ ذلك منذ بعض الوقت، أناسٌ متطيرون، أما المفتشون الذين عاينوا السفينة الشراعية معاينةً دقيقة، فلم يكتشفوا ستةَ صناديق كبيرة ملأى بالسلاسل والأصفاد، وبتلك القطع الحديدية التي يسمونها «عوارض حرم العدالة»، ولا أدري لماذا. لم يُدهشوا أيضًا من حمولة الماء الهائلة التي يُفترضُ أن تكون «الرجاء» قد تزوّدت بها ولم تكن تذهب إلى السنغال إلاّ لتتاجر هناك بالخشب والعاج، حسبما ورد في أوراقها. أما الرحلة البحرية فلم تكن طويلةً، هذا صحيح، إلا أن الاحتياطاتِ الزائدة لا يمكن أن تكون ضارّةً، في نهاية الأمر. فلو فوجئت الباخرة بهدوءٍ بحري، ماذا كان يمكن أن يحدث لبحّارتها من دون ماء؟

انطلقت «الرّجاء» إذن، في يوم جمعة، جيدة التجهيز، ومزودة بكلّ شيء. ولربما كان لودو يرغب في صواري أكثر متانة قليلاً. ومع ذلك، فطالما كان هو الذي قاد السفينة، فلا يحقُّ له أن يشكو منها. لقد كانت رحلته البحريةُ موفقةً وسريعةً وصولاً إلى ساحل أفريقيا. فألقى المرساة في نهر جوال (كما أظن) في اللحظة التي لم تكن فيها الطراداتُ الإنكليزيةُ تراقبُ ذلك الجزءَ من الساحل. فأتى إلى ظهر السفينة حالاً سماسرةٌ من المنطقة. ولم يكن بالإمكان أن تأتي لحظةٌ أكثر ملاءمة من تلك اللحظة، فقد كان تامانغو، وهو محاربٌ ذائعُ الصيت، وبائعُ بشر، قد ساقَ منذ قليلٍ كميةً كبيرة من العبيد إلى الساحل، وكان يتخلصُ منهم بسعرٍ رخيص، لأنه يحسُّ أنه رجلٌ يمتلك من القوة والوسائل ما يمكنه من إمدادِ السوق المحلية، ما إن تصبح سلعُ تجارته نادرةً فيها.

تمّ إنزالُ القبطان لودو إلى الضفة، فقام بزيارةٍ لتامانغو، فوجده في كوخٍ من القش، كانوا قد أقاموه له على عجلٍ، وترافقه زوجتاه، وبعضُ الباعة الثانويين، وسائقو العبيد. وكان تامانغو قد تزين كي يستقبلَ القبطان الأبيض. فارتدى لباسًا قديمًا هو زيٌّ أزرق لايزالُ يحملُ شرائط العريف. ولكن كتفيّتين ذهبيتين مثبتتين بالزرّ نفسه، وتهتزان، إحداهما من الأمام، والأخرى من الخلف، كانتا معلقتين

على كلٍ من كتفيه. وبما أنه لم يكن يرتدي قميصًا، وبما أن رداءه كان قصيراً بعض الشيء، بالنسبة لرجلٍ له قامته، فقد كان المرءُ يلاحظُ، بين القفا الأبيض للرداء، وسرواله القصير المصنوع من نسيجٍ غينيّ، شريطًا ضخمًا من الجلد الأسود والذي يشبهُ حزامًا عريضًا. وكان حسامٌ كبيرٌ يحملهُ الخيالة معلقًا على جنبه بواسطة حبل. وكان يحملُ بيده بندقيةً جميلةً ذات طلقتين، وهي إنكليزية الصنع. وهكذا فإن المحارب الأفريقي، الذي جهز نفسه بهذا الشكل، كان يظن أنه يفوقُ في أناقته غندورَ باريس أو لندن الأكثر كمالاً.

تأمله القبطان لودو لبعضِ الوقت بصمت، فيما كان تامانغو يتمتعُ بالتأثير الذي يعتقد أنه قد أحدثه لدى الرجل الأبيض، فينتصبُ بخيلاء على طريقة رامي الرمانات الذي يقدّم استعراضًا أمام عميدٍ أجنبيّ. فاستدار لودو نحو مساعده، بعد أن تفحص تامانغو تفحصَ العارف وقال له:

«هذا فتى قوي قد أبيعهُ بمئة ريال على الأقل، إذا أوصلناه معافى، ودون تلف إلى المارتينيك».

وجلس الجميع، وأخذ بحارٌ كان يعرفُ اللغة الوولوفيّة قليلاً يقوم بالترجمة. وبعد تبادل المجاملات الأدبية الأولى، جلب صبيٌّ بحار سلّة زجاجات من ماء الحياة[1]، فشربوا، وكي يحسن القبطانُ مزاج تامانغو، فقد قدّم له هديةً هي وعاءُ بارودٍ من النحاس، ومزين بصورة نابوليون النافرة عليه. وبعد أن قبل تامانغو الهديةَ بعرفان الجميلِ المناسب، خرجوا من الكوخ، وجلسوا في الظل، قبالة زجاجات ماء الحياة، وأعطى تامانغو الإشارة لإحضار العبيد الذين ينوي بيعهم.

ظهروا على صف طويل، وظهورهم محنيةٌ، بسبب التعب والرعب، فكلٌّ واحدٍ منهم كانت عنقه محصورةً بمشعبٍ طولهُ يزيدُ عن ستة أقدام، ورأساه مضمومان باتجاه قفا الرأس. بواسطة عارضةٍ خشبية. وعندما ينبغي أن يسيروا، يضع أحد السائقين على كتفه ذراعَ مشعب العبدِ الأول، وهذا يتكفل بمشعبِ الرجلِ

(١) - مشروب روحي مسكر. (م: ز.ع).

الذي يليه مباشرةً، والثاني يحمل مشعبَ الرجلِ الثالث، وهكذا بالنسبة للآخرين. وإذا كان التوقفُ مطلوبًا، فإن رئيس الرتل يغرز في الأرض الطرف الحادّ لذراعِ مشعبه، فيتوقف الطابورُ كله. والزنجي يرى بسهولة أنه لاينبغي التفكيرُ بالهرب ركضًا، حين يحملُ عصا ثخينةً مربوطةً إلى عنقه، وطولها ستة أقدام.

كان القبطان يهز كتفيه، حين يمرُّ أمامه كلُّ عبدٍ ذكرًا كان أم أنثى، فقد كان يجدُ الرجالَ هزيلين، والنساءَ مُسنات، أو صغيراتٍ في السن أكثر من اللازم، وأخذ يشكو من انحطاط العرق الأسود. وكان يقول:

«كلُّ شيء يتدنى، فقديمًا كان الأمرُ مختلفًا. كان طولُ النساء يصلُ إلى خمسة أقدام وست بوصات. وكان بوسعِ أربعة رجال أن يديروا بمفردهم رحويةَ الفرقاطة كي يرفعوا المرساة الرئيسة».

ومع ذلك، فقد قام بأول انتقاء للسود الأقوى، والأكثر وسامةً، وفي نفس الوقت الذي يبدي فيه انتقاداته. وكان يَظْهَرُ مستعدًّا ليدفع ثمنَ هؤلاء بالسعر العادي أما بالنسبة للبقية، فقد كان يطلبُ تخفيضًا كبيرًا. أما تامانغو، فقد كان يدافعُ، من جهته، عن مصالحه، ويُفاخر ببضاعته، ويتحدثُ عن ندرةِ الرجال، وعن مخاطرِ تجارة العبيد. وختمَ حديثه بطلبِ سعرٍ لا أعرف ما هو، بالنسبة للعبيد الذين كان القبطانُ الأبيضُ يريدُ تحميلهم على متن سفينته.

وما إن نقلَ المترجمُ إلى الفرنسية عرضَ تامانغو، حتى كاد لودو يقع على قفاه من المفاجأة، والغضب. ثم نهض، بعد أن همسَ ببضع شتائم فظيعة، وكأنه يقطعُ كلَّ مساومةٍ مع رجلٍ على تلك الدرجة من عدمِ التعقل. حينذاك، أمسك به تامانغو وتمكّن بصعوبة من أن يجعله يجلسُ مجددًا. وفتحت زجاجةٌ جديدة، وبدأ النقاش ثانية. فأتى دورُ الرجل الأسود في أن يجد عروضَ الرجل الأبيض جنونيةً ومُبالغًا فيها. فتعالى الصراخ. وثار الجدلُ مطولًا. وعبّا ماء الحياة بإفراط. ولكن ماء الحياة كان يُحدثُ تأثيرًا مختلفًا تمامًا على الطرفين المتعاقدين. وكلما كان الفرنسيّ يشربُ أكثر، كان يخفض عروضه أكثر، وكلّما كان الأفريقي يشربُ

أكثر، كان يتنازلُ أكثرعن مطالبه. فوصلا بهذه الصورة، إلى اتّفاق جرى بشكلٍ سيّئ عندما انتهت سلّةُ المشروبات. فأُعطيت ملابس ُقطنيةٌ رديئةٌ، وبارودٌ، وحجارةٌ لإشعال النار، وثلاثةُ براميل كبيرة من ماء الحياة، وخمسون بندقية، مقابلَ مئة وستين عبداً. وكي يصدّق على الاتّفاق، صفق القبطان كفّه بكفّ الزنجي الذي كان أكثر من نصف مخمور. وجرى تسليمُ العبيد في الحال إلى البحّارة الفرنسيين الذين سارعوا إلى نزع مشاعبهم الخشبية منهم ليعطوهم أغلالاً في الرقبة، وأصفاداً حديديّة، وهذا ما يبينُ جيداً تفوقَ الحضارة الأوروبية.

وبقي أيضاً ثلاثون عبداً، وكانوا يتألفون من أطفالٍ وشيوخ، ونساء ذوات عاهات ولكن الباخرة كانت ملأى.

أما تامانغو، الذي لم يكن يدري ماذا يفعل بتلك الحثالة المتبقية، فقد عرض على القبطان أن يبيعه إياها مقابل زجاجةٍ واحدة من ماء الحياة لكلّ قطعة. وكان العرضُ مغْرياً. وتذكرّلودو أنه كان قد رأى، أثناء عرضٍ مسرحية «صلوات العصر الصقلية» في نانت، عدداً جيداً من الناس الضخمي الأجسام، والسمينين، يدخل إلى ردهة المسرح الممتلئة مسبقًا، ويفلحون مع ذلك في أن يجلسوا فيها، بفضل قابليةِ الأجسام البشرية للانضغاط، فأخذ من بين الثلاثين عبداً العشرين الأكثر رشاقةً.

حينذاك لم يطلب تامانغو أكثر من قدح واحد من ماء الحياة مقابل كلٍّ واحد من العشرة الباقين. وفكرّلودو بأن الأطفال لا يدفعون أجرة، ولا يشغلون إلا نصفَ مقعدٍ في العربات العامة، فأخذ ثلاثةَ أطفالٍ بالنتيجة، ولكنه أعلن أنه لم يعد يرغب في أنْ يتكفَّل بأيّ إنسانٍ أسود، فأمسك تامانغو، الذي رأى أنه قد بقي عليه أن يتحمل مسؤولية سبعة عبيدٍ أيضاً، أمسك بندقيته، وصوبّها إلى امرأة كانت تتقدم الجميع: لقد كانت أمّاً لأطفالٍ ثلاثة.

وقال للرجل الأبيض: اشترِ، أو أقتلها، قدحٌ صغير من ماء الحياة، أو أطلق النار.

فأجاب لودو:

- يا للشيطان، وماذا تريد أن أصنع بها؟

فأطلق تامانغو النار، وسقطت العبدة ميتة على الأرض.

وصرخ تامانغو وهو يصوب إلى شيخ واهن: قدحٌ من ماء الحياة أو...».

فأزاحت إحدى امرأتيه ذراعه، فانطلقت الرصاصة على غير هدى، فقد تعرّفت لتوها في العجوز الذي كان زوجُها يهمُّ بقتله غيريوت[1]، أو ساحراً كان قد تنبأ لها بأنها ستصير ُملكة.

أما تامانغو الذي جعله ماءُ الحياة غضوبًا، فلم يعد يتمالك نفسه، حين رأى أن هناك من يعترض على رغباته، فضرب امرأته بقسوة، بأخمصِ بندقيته، ثم استدار نحو لودو وقال:

«خذ، إني أعطيك هذه المرأة».

كانت جميلةً، فنظر إليها لودو وهو يبتسم، ثم أمسك بها من يدها وقال:

«سأجد حتمًا مكانًا أضعها فيه».

وكان المترجمُ رجلاً رقيق القلب، فأعطى تامانغو علبة سعوط كرتونية، وطلب منه العبيدَ الستة الباقين، فحررهم من مشاعبهم، وسمحَ لهم أن يذهبوا إلى المكان الذي يروقُ لهم. فهربوا حالاً، واحدٌ من هنا، وآخر من هناك، وهم حائرون أشدَّ الحيرة في أمر العودة إلى بلادهم التي تبعدُ مئتي فرسخٍ عن الساحل.

ومع ذلك، ودّعَ القبطان تامانغو، وعملَ على شحنِ حمولته بأسرعِ ما يمكن، فلم يكن من الحصافة أن يبقى طويلاً في النهر، لأن الطرادات يمكن أن تعود إلى الظهور. وكان يريد أن يتهيأ للإبحار في اليوم التالي. أما تامانغو، فقد رقد على العشب، في الظلّ، ونام بعد ماء الحياة الذي شربه.

---

(١) - Guiriot: هكذا وردت في الأصل الفرنسي. (م: ز،ع).

وعندما استيقظ، كان المركب قد نشر قلوعه، وأخذ ينزل إلى النهر. أما تامانغو، الذي كان رأسه لايزالُ مشوشاً، بسبب إفراطه في الشراب، أثناء الليلة السابقة، فقد طلب امرأته إيشيه، فأجابوه بأن حظها التعس قد جعلها تسبب له الغيظ، وأنه قد أعطاها هديةً للقبطان الأبيض الذي اقتادها إلى ظهر مركبه.

عند ذلك النبأ، ضرب تامانغو رأسه من الذهول، ثم أخذ بندقيته. وبما أن النهر كان ينعطف عدةَ مرات، قبل أن يصبَّ في البحر، فقد ركض عبر الطريق الأكثر مباشرة، إلى جونٍ صغير، بعيدٍ عن المصب بنصفِ فرسخ. وهناك، كان يأمل أن يجد فليكةً يتمكن بواسطتها أن يلحق بالسفينة الشراعية التي لا بدّ أن تكون تعرجاتُ النهر قد أخرت سيرها، ولم يكن مخطئًا في ذلك، وتوفر له فعلاً الوقتُ للاندفاع في فليكةٍ، وأن يلحق بسفينةِ الزنوج.

فوجئ لودو برؤيته، وفوجئ أكثر أيضًا، حين سمعه يطلبُ امرأته مرة ثانية، فأجاب:

«الشيء الذي يُعطى لا يُستعاد».

وأدار له ظهره.

فألحّ الرجلُ الأسود، وعرضَ إعادةَ قسمٍ من الأشياء التي كان قد حصل عليها مقابل العبيد. فأخذ القبطانُ يضحك ويقول إن إيشيه امرأةٌ طيبةٌ جداً، وإنه يريدُ الاحتفاظ بها. حينذاك، سكب تامانغو المسكين سيلاً من الدموع، وأطلق صرخات ألمٍ حادة مثل صرخاتِ رجلٍ تعسٍ يخضعُ لعمليةٍ جراحية، فكان تارةً يتدحرجُ على الجسرِ منادياً عزيزته إيشيه، وتارةً يضربُ رأسه بألواح الخشب كأنه يريدُ أن يقتل نفسه. أما القبطانُ، الذي لم يتأثر أبدًا، فقد كان يشيرُ لتامانغو بأنه قد حان الوقت، بالنسبة إليه، كي يرحل، وهو يدلُّه على الضفة. غير أن تامانغو كان مصراً على موقفه، وعرض حتى كتفيّاته الذهبية، وبندقيته وحسامه، بيد أن كل ذلك كان بلا فائدة.

أثناء هذه المشادّة، قال ملازمُ «الرجاء» للقبطان:

«لقد مات لنا ثلاثةُ عبيدٍ هذه الليلة، ولدينا أمكنة. فلماذا لانأخذ هذا القويَّ النذل الذي يساوي وحده أكثرَ من الموتى الثلاثة؟». ففكرّ لودو أن تامانغو يمكن أن يُباع بثلاثمئة ريال حتماً، وأن هذه الرحلة التي كانت مربحةً جداً في مستهلها، بالنسبة إليه، ربما تكون هي الأخيرة، وأنه إذا تحققت له الثروةُ أخيراً، وتخلى عن تجارة العبيد، فقلما يهمه أن يترك سمعةً جيدةً أو سيئة، على ساحل غينيا. زد على ذلك، أن الضفة قد كانت خاليةً، وكان المحاربُ الأفريقي تحت رحمته تقريباً. ولم يعد الأمرُ يتطلبُ أكثر من تجريده من أسلحته فقد كان من الخطرِ القبضُ عليه وهي لاتزال بحوزته. فطلب لودو، والحالة هذه، بندقيته وكأنه يريدُ فحصها، والتأكد من أنها تساوي في قيمتها إيشيه الجميلة. وعُني، وهو يشغّل النوابض، بأن يترك البارود يسقط من الطُّعم. وكان الملازمُ، من جانبه، يقلّبُ الحسام وهكذا وجدَ تامانغو نفسه مجرداً من السلاح، فانقضَ عليه بحاران قويان، وقلباه على ظهره، واستعدا لشدِّ وثاقه. لقد كانت مقاومةُ الرجلِ الأسود بطولية، فما إن صحا من مفاجأته الأولى، وبرغم الوضع الذي كان في غيرِ صالحه، حتى أخذ يقاوم البحارين لمدّة طويلة. وبفضل قوته الهائلة، نجح في النهوض مجدداً، وطرح أرضاً الرجلَ الذي كان يمسك به من قبته بضربةٍ قويةٍ من قبضته. وترك قطعةً من ردائه بين يديّ البحار الآخر وانقض كالهائج على الملازم كي ينتزع منه حسامه، فضربه هذا الملازم به على رأسه، فجرحه جرحاً واسعاً، إنما ليس عميقاً. وسقط تامانغو ثانية. وفي الحال، أوثقوا قدميه ويديه بقوة. وفيما كان يدافعُ عن نفسه، كان يطلقُ صرخاتٍ غاضبةً، ويهتز مثل خنزيرٍ بريّ وقع في الشباك، غير أنه عندما رأى أن كلّ مقاومةٍ غير مفيدة، أغلق عينيه، ولم يقم بأيةِ حركة. وكان تنفُّسه القويُّ والمتسارعُ يثبت وحده أنه لم يزل حياً. وهتفَ القبطان لودو قائلا: «تباً إن السود الذين باعهم سوف يضحكون من كلّ قلوبهم حين يرونه عبداً بدوره، وهذه الحادثة ستجعلهم يرون فعلاً أن العناية الإلهية موجودة».

ومع ذلك، فقد كان المسكين تامانغو يفقد دمه بكامله. فاقترب منه المترجم الرحيمُ الذي كان قد أنقذ حياة ستةَ عبيد في اليوم السابق، وضمّد جراحه، ووجه إليه بضع كلمات مواسية. أما ما أمكنه أن يكون قد قاله له، فإني أجهله. لقد مكث الرجلُ الأسود بلا حراك، مثل جثة. وكان لابدَّ من بحارين اثنين ليحملاه مثل رزمةٍ إلى ما بين سطحيِّ السفينة إلى المكان الذي خُصِّص له. وطيلةَ يومين، لم يرغب في الطعام أو في الشراب. وكان لا يكاد يُرى مفتوح العينين. أما رفاقُه في الأسر، الذين كانوا سجناءه فيما مضى، فقد رأوه يظهر بينهم بدهشةٍ غبيةٍ. وكان الخوفُ الذي لايزال يسبّبه لهم كبيراً بحيث لم يتجرأ أحدٌ على تحقير بؤس ذلك الذي كان قد سبّب بؤسهم.

أخذ المركبُ يبتعد بسرعةٍ على ساحل أفريقيا، لأن ريحًا طيبةً قد واتته من اليابسة. ولم يعد القبطان يفكّر إلا بالأرباح الضخمة التي كانت تنتظره في المستعمرات التي يتوجه نحوها، فلم يساوره القلق بسبب الطراد الإنكليزي. وكان خشبُ الأبنوس[1] الذي يحمله مُصانًا من غير تلف. ولم تكن هناك أمراضٌ مُعدية. ولم يمت سوى اثني عشر زنجيًّا فقط من الحرارة، وقد كانوا من بين أضعف الزنوج، وهذه خسارةٌ زهيدة. وكي تعاني شحنةُ القبطان البشرية أقلّ قدرٍ من مشقات الرحلة البحرية، فقد كان يهتم بجعلِ عبيده يصعدون كلّ يوم إلى سطح السفينة. فكان ثلثُ هؤلاء التُّعساء يُمنحون دوريًّا ساعةً كي يتمونّوا بالهواء لنهارٍ كامل. وكان يراقبهم قسمٌ من الطاقم. مدججٌ بالسلاح، خوفًا من التمرد. زد على ذلك، أنهم كانوا يُعنون بعدمِ نزع أغلال العبيد بالكامل. وفي بعض الأحيان، كان بحارٌ يُحسن العزف على الكمان يجعلهم يستمتعون بحفلةٍ موسيقية. وكان أمراً يثير العجب حينذاك أن ترى كلّ تلك الوجوه السوداء تستديرُ نحو الموسيقى، وتفقدُ تدريجيًّا تعبيرها عن يأسٍ غبي، وتضحكُ مقهقهةً، وتصفق بأيديها حين تتيحُ لها سلاسلها ذلك. إن التمرين ضروريٌّ للصحة، وهكذا، فإن إحدى ممارسات

(١) - أي حمولة العبيد، كما سبق توضيحُ ذلك (م: ز.ع).

القبطان لودو الصحية هي أنه كان يجعلُ العبيد يرقصون غالبًا كالخيول التي يجعلونها تكدف[1]، حين تُشحنُ في رحلةٍ بحريةٍ طويلة.

وكان القبطان يقولُ بصوتٍ راعد، وهو يطقطق بسوطٍ هائل من أسواط البريد:

«هيا يا أولادي، ارقصوا تسلّوا».

وفي الحال، كان السودُ المساكين يقفزون ويرقصون.

خلال بعض الوقت، استبقى الجرحُ تامانغو تحت نوافذ الباخرة، وأخيراً ظهر على السطح وفي بادئ الأمر، ألقى نظرةً حزينةً، ولكنها هادئة، على الامتداد المائي الشاسع الذي كان يحيط بالباخرة، وهو يرفع رأسه باعتداد، في وسطِ جمهرة العبيد الخائفة. ثم رقد، أو على الأصح، ترك نفسه يسقط على أخشاب سطح السفينة، دون أن يهتم حتى بترتيب سلاسله بحيث تصبحُ أقل إزعاجًا له. أما لودو، الذي كان جالسًا على طرف المؤخرة، فقد كان يدخن غليونه بهدوء. وإلى جانبه، كانت تقف إيشيه مستعدةً لتقدمّ إليه الشراب، متحررةً من الأصفاد، ومرتديةً فستانًا أنيقًا من القطن الأزرق، وتنتعل خفًا جميلاً من السُّخيتان، وتحملُ في يدها صينية ملأى بالمشروبات الروحية الحلوة. وكان من الواضح أنها تشغلُ وظائف عالية لدى القبطان. وأشار أحدُ الرجال السود، وكان يمقتُ تامانغو، أشار له كي ينظر من تلك الناحية، فأدار تامانغو رأسه، ولمحها، فأطلق صرخةً، ونهض بتهوّر، وهرع إلى طرف المؤخرة، قبل أن يتمكن بحّارةُ الحراسة من أن يتصدوا لمخالفةٍ على تلك الدرجةِ من الشناعة لكلّ انضباطٍ ملاحيّ.

«وصرخ بصوت صاعق: إيشيه! فأطلقت إيشيه صرخةَ ذعر - هل تظنين أنه ليس هناك ماما - جومبو في بلاد البيض؟»

[1] - أكدف: ضرب الأرض بقائمتيه الأماميتين، عند الحديث عن الحصان. (م: ز. ع).

كان بعضُ البحارة قد هرعوا، وهم يرفعون عصيَّهم. ولكن تامانغو عاد إلى مكانه بهدوء، مكتوفَ اليدين، وكأنه غير متأثر، فيما كانت إيشيه التي انفجرت بالبكاء، تبدو وكأن تلك الكلمات الغامضة قد جمّدتها من الدهشة.

أوضح المترجمُ ماذا كان يعني ذلك الـ «ماما - جومبو» الذي يُحدثُ اسمه وحده هذا القدر الكبير من الذعر.

قال: إنه غولُ الزنوج. وحين يخشى زوجٌ أن تصنعَ زوجته ما تفعله العديدُ من النساء، في فرنسا، كما في أفريقيا، فهو يهددها بـ «ماما - جومبو». وأنا من أكلّمكم، رأيت ماما - جومبو، وفهمتُ الحيلةَ. أما السود. . . فبما أنهم بسطاء، فهم لا يفهمون شيئًا - فتخيلوا أنه ذات مساء، وفيما كانت النساء يتلهين بالرقص، ويقمن بـ «فولغار»[1]، كما يقولون في أُرغتهم الخاصة[2]، وإذا بهنّ يسمعن موسيقى غريبة صادرة عن حرش صغير، شديد الكثافة، ومعتم جداً، ومن غير أن يرين أحداً يعزفها. فقد كان كلُّ الموسيقيين مختبئين في الحرش. وكانت هناك زمّاراتٌ من القصب. وطبولٌ صغيرة من الخشب، ويسمونها بالافوس، وقيثاراتٌ مصنوعةٌ من أصناف ثمار الكرنيب[3]. وكانت كلُّ تلك الآلات تعزف لحنًا يأتي بالشيطان إلى الأرض. ولم تكن النسوة قد سمعن ذلك اللحن من قبل، فأخذن يرتجفن، ووددن الهرب غير أن الأزواج استبقوهن. فقد كنّ يعرفن جيداً ماذا يهدّدهن. وفجأة، يخرجُ من الغابة شكلٌ كبيرٌ أبيض، وطويل مثل صارينا الأعلى، وله رأسٌ ضخمٌ كالصّاع[4]، وعينان واسعتان كفتحات المرساة، وشدقٌ مثل شدق الشيطان، والنار في داخله. وكان ذلك الشيء يسيرُ بطيئًا بطيئًا، وهو لا يبتعد أكثر

---

(١) - أي رقصة حماسية، أغلب الظن ومشتقة من Fougue. (م: ز.ع).

(٢) - الأرغة هي لغة مشوهة ومحرّفة عن لغة أخرى أصيلة (م: ز.ع).

(٣) - شجرة ثمارها تشبه القرع، وتصنع منها أوان وأوعية منزلية، وأصلها إسباني، ومشتق من العربية (م: ز.ع).

(٤) - مكيالٌ فرنسي يتسع لعشر ليترات. (م: ز.ع).

من نصف قلس[1] عن الحرش . وكانت النساء يصرخن «ها هو ماما - جومبو!» وكن يزعقن مثل بائعات المحار . حينذاك، أخذ الأزواج يقولون لهن :

«هيّا، أيتها الخبيثات، قلن لنا، إن كنتنّ عاقلات، أو إن كنتن تكذبن . إن ماما - جومبو موجودة هنا كي تأكلكن نيئات» . وكان بين النسوة من كان على درجة كافية من البساطة بحيث اعترفن، فأخذ الأزواجُ يضربونهن حينئذٍ ضربًا مبرّحًا .

وسأل القبطان :

- وماذا كان إذن ذلك الشكلُ الأبيض، أي ذلك الماما - جومبو؟

- حسنًا . لقد كان مهرّجًا يرتدي زيًّا غريبًا من جوخٍ أبيض، ويحمل بدلاً من الرأس يقطينةً مجوّفة . ومجهّزة بشمعة مضاءة على طرف عصا كبيرة . وليس هذا بالأمر الأصعب . ولا يلزم الكثير من العناء الذهني لخداع السّود . زد على ذلك كلّه أن ماما - جومبو ابتكارٌ جيد، وبودي لو أن امرأتي تصدّقه .

فقال لودو : أما بالنسبة لامرأتي، فإذا لم تخف من ماما - جومبو، فستخاف من مارتان - باتون . وتعلم زيادة على ذلك كيف أصلح أمورها، إذا لعبت معي حيلةً ما . فنحن لسنا صبورين في عائلة لودو . ومع أنه ليس لي إلا معصم واحد، فهو لايزال يستعملُ الحبلَ المفتول بصورةٍ جيدةٍ إلى حدٍّ كاف . أما عن مهرجك المضحك هناك، والذي يتكلم عن ماما - جومبو، فقل له أن يجلس جيداً، وألا يخيفَ هذه الأمَّ الصغيرة . أو أجعلهم يمشطون له فقرات ظهره، فيتحول جلدهُ الأسود إلى أحمر، مثل الشواء البقريّ النيىء» .

ما إن قال القبطان هذه الكلمات، حتى نزل إلى غرفته، وأحضر إيشيه، وحاول أن يواسيها، غير أنه لم تفلح الملاطفاتُ، ولا حتى الضربات، والمرء يفقد صبره في النهاية، في أن تجعل الزنجية الجميلة سهلةَ القياد . وكانت الدموعُ

---

(١) - القلس يعادل مئتي متر . (م: ز.ع) .

الغزيرة تسيل من عيّنيها. وصعد القبطان إلى سطح السفينة ثانية، وهو في مزاجٍ سيّئ، وتشاجر مع الضابط المناوب حول حركة السفينة التي كان يديرها، في تلك اللحظة.

وفي الليل، لما كان الطاقم كله تقريبًا نائمًا نومًا عميقًا. سمع رجالُ الحراسة أولاً غناءً رصينًا واحتفاليًا وحداديًّا ينطلق من مابين سطحي المركب، ثم صراخ امرأة حادًّا بصورةٍ مخيفة. ودوّى بعد ذلك فوراً، وفي السفينة بأكملها، صوتُ لودو الجهوري الذي يشتم ويهدد، وفرقعة سوطه المخيف. وبعد لحظةٍ، غرق كلُّ شيء في الصمت. وفي اليوم التالي، ظهر تامانغو على سطح السفينة، مجرَّح الوجه، وهيئته تدلُّ على الاعتداد بالنفس، وعلى الثقة كما كان من قبل.

وما كادت إيشيه تراه، حتى غادرت طَرَف المؤخرة الذي كانت جالسةً فيه، بجانب القبطان، وهرعت بسرعة إلى تامانغو، وجثت أمامه، وقالت له بلهجةِ يأسٍ مكظوم:

- «سامحني، يا تامانغو، سامحني!»

فحدّق تامانغو بها لدقيقةٍ من الزّمن، ثم قال، إذ لاحظ أن المترجم كان بعيداً:

«أريدُ مبرداً».

وتمدّد على سطح السفينة، وهو يديرُ ظهره لإيشيه. وقد وبّخها القبطان بعنف، وحتى أنه صفعها بضع صفعات، ومنعها من التكلُّم مع زوجها السابق، ولكنه كان أبعد من أن يرتاب بمعنى الكلمات القصيرة التي كانا قد تبادلاها، ولم يطرح أي سؤال حول ذلك الموضوع.

ومع ذلك، فإن تامانغو الذي أُعيدَ إلى السجن مع العبيد الآخرين، كان يحرّضُهم ليلاً ونهاراً على القيام بحركةٍ شجاعة كي يستعيدوا حريتهم. كان يحدثهم عن عدد الرجال البيض الصغير، ويلفتُ انتباههم إلى الإهمال المتزايد

باستمرار لحرّاسهم. ثم ومن غير أن يُفصح لهم بوضوح، كان يقول إنه سيعرفُ كيف يعيدُهم إلى بلدهم، ويتباهى بمعرفته لعلوم السحر والتنجيم التي يتعلق بها السود تعلُّقًا كبيراً، ويهدّد بانتقام الشيطان من أولئك الذين يأبون مساعدته في مشروعه، ولم يكن يستخدم، في خطبه، إلاّ لهجةً محليةً، هي لهجةُ الغولبيين[1] التي كان يفهمها معظمُ العبيد. إنما لم يكن المترجمُ يفهمها. إن صيته كخطيب، واعتيادَ العبيد على الخوف منه، وعلى طاعته، أسعفتاه بصورةٍ رائعةٍ في بيانه، فحثّه السود على تحديد يوم الخلاص، قبل أن يظنَّ نفسه قادراً على تنفيذ ذلك. وكان يردُّ بصورةٍ غامضةٍ على المتآمرين قائلاً إن الوقت لم يحنْ بعد، وإن الشيطان الذي كان يظهر له في الحلم، لم يُخطره بعد بشيء، وإن عليهم أن يكونوا متأهّبين لدى أول إشارة. ومع ذلك، فلم يكن يُغفل أيةَ فرصة لاختبار يقظة حرّاسه. وذات مرةٍ، كان أحد البحّارة يتسلّى برؤية جماعة من الأسماك الطّائرة التي كانت تتبعُ المركب، وقد ترك بندقيته مسندةً إلى كفة السفينة، فأمسك تامانغو البندقية، وأخذ يقلبها بين يديه. وهو يقلد بإيماءاتٍ تدعو للهزء الحركات التي كان البحارةُ يؤمرون بتأديتها حينما يتمرّنون. ونُزِعت منه البندقيةُ، بعد لحَظة من الزمن، ولكنه كان قد تعلم أن بوسعه أن يمسَّ سلاحًا ما دون أن يُثير الريبةَ فوراً. وعندما يحينُ الوقتُ المناسبُ لاستخدامه، يكونُ ذلك الذي سيأتي لانتزاعه من بين يديه مفرطًا في الجسارة.

وذات يوم، رمت إليه إيشيه بقطعة بسكويت، وأشارت إليه إشارةً فهمها وحده. كانت قطعةُ البسكويت تحتوي مبرداً صغيراً، فقد كان نجاحُ المؤامرة مرتبطًا بتلك الأداة. وقد احترس تامانغو في البداية جيداً من إظهار المبرد لرفاقه. ولكنه عندما حلّ الليلُ، بدأ يهمس بكلماتٍ غير مفهومة، ويرفقُها بإيماءاتٍ غريبةٍ وأخذ حماسهُ يتزايدُ تدريجياً، حتى وصل إلى إطلاق الصرخات. وإذا ما سمع المرءُ نغميّات صوته المتنوّعة، ظن أنه يجري حديثًا مفعمًا بالحرارة مع شخصٍ غير مرئي.

---

(١) - الغولبيون: شعب أفريقي ذو أصل بربري أو إثيوبي. (م: ز.ع).

كان كلُّ العبيد يرتجفون، فلم يكن لديهم شكٌّ في أن الشيطانَ موجودٌ هناك بينهم، في تلك اللحظة بالذات، فأنهى تامانغو ذلك المشهد، وهو يطلقُ صرخة فرح. وهتف: «أيها الرفاق - إن الروح الذي رجوته بالتعزيم قد منحني أخيراً ما كان قد وعدني به، وإني أمسك بيدي أداةَ خلاصنا. أما الآن، فأنتم لا تحتاجون إلا إلى القليل من الشجاعة كي تحرّروا أنفسكم».

وجعل الذين يجلسون إلى جانبه يلمسون المبرد، فحازت الخديعةُ - برغم فظاظتها، على رضى رجالٍ أكثر منها فظاظة.

وبعد انتظارٍ طويل، أتى اليومُ الكبيرُ، يومُ الثأر والحرية. وكان المتآمرون، الذين ارتبطوا فيما بينهم بقسمٍ مهيب، قد وضعوا خطتهم، بعد تشاورٍ ناضج. أما أكثر الرجال عزمًا، والذين يتقدّمهم تامانغو، فقد كان يتعيّنُ عليهم أن يستولوا على أسلحةِ حراسهم، حين يصعدون بدورهم إلى سطح الباخرة، ويذهب عددٌ آخر إلى غرفة القبطان ليأخذوا منها البنادقَ التي يجدونها فيها. إن أولئك الذين يكونون قد أفلحوا في بردِ قيودهم يتعينُ عليهم أن يبدأوا الهجوم. ولكن العددَ الأكبر من العبيد كانوا لايزالون غير قادرين على الاشتراك في العملية بعزم، برغم العمل المثابر لبضع ليال. وهكذا فقد كان ثلاثةُ رجالٍ سود أشداء مكلفين بقتلِ الرجل الذي كان يحمل في جيبه مفتاحَ الأغلال، وأنّ يذهبوا في الحال لتحرير رفاقهم المكبلين.

وفي ذلك اليوم، كان مزاجُ القبطان لودو رائعًا، وخلافًا لعادته، فقد عفا عن صبيٍّ بحار كان يستحقُّ الجلد. وهنأ الضابطَ المناوبَ على قيادة حركة السفينة، وأعلن للطاقم أنه مسرورٌ وبشرهم بأن كلَّ رجلٍ يستحقُّ مكافأة في المارتينيك، حين يصلون بعد قليل. وكان جميعُ البحارة يتصورون سلفًا أسلوب استخدام تلك المكافأة، ويقلبون في أذهانهم أفكاراً تبعث لديهم على الكثير من الرضى. لقد كانوا يفكرون بماء الحياة، وبالنساء اللواتي لهن بشرةُ المارتينيك، في الوقت الذي جُعل فيه تامانغو والمتآمرون الآخرون يصعدون إلى سطح السفينة.

كانوا قد حرصوا على برد أغلالهم بحيث لاتبدو أنها انقطعت، وبحيث يكفي أقلُّ جهد لقطعها مع ذلك. إضافةً إلى أنهم كانوا يجعلونها ترنُّ رنينًا شديدًا بحيث يظنُّ من يسمعها أنهم يحملون ثقلاً مضاعفًا من تلك الأغلال. وبعد أن تنشقوا الهواءَ لبعضِ الوقت، تماسكوا بالأيدي جميعًا، وأخذوا يرقصون، فيما كان تامانغو يردّد لحن نشيد عائلته[1] الحربي الذي كان ينشده قديمًا، قبل أن يذهب إلى المعركة. ولمّا دام الرقص بعض الوقت، اضطجع وكأنّه مرهق، على طول قامته، عند قدمي أحد البحارة والذي كان يتكئ إلى حافة السفينة بفتور، وصنع كلُّ المتآمرين مثله. وبهذا الشكل، غدا كلُّ بحارٍ محاطًا ببضعة رجالٍ سود.

وفجأة يُطلق تامانغو الذي فرغ بهدوء من قطع أغلاله، يطلقُ صرخةً عظيمةً من المفترض أن تكون بمثابة إشارة، ويسحبُ بعنفٍ رجلي البحار الذي كان موجودًا بقربه، فيقلبه، ويضع قدمه في بطنه، وينتزعُ منه بندقيته، ويستخدمها لقتلِ الضابط المناوب. وفي الوقت نفسه يتعرض كلُّ بحارٍ حراسةٍ للهجوم، ويُجرّدُ من سلاحه، ويُذبح. وترتفع صرخةُ الحرب من كل جهة. أما رئيسُ العمال الذي كان يحمل مفاتيحَ الأغلال، فيسقطُ مع أولى القتلى. حينذاك، يجتاحُ سطحَ السفينة حشدٌ من السود، وأولئك الذين لا يمكنهم العثور على أسلحة، يمسكون بعوارض الرّحويّة، وبمجاذيف زورق الإنقاذ. لقد هلك الطاقمُ الأوروبيّ، بدءًا من تلك اللحظة، ومع ذلك، فقد قاوم بعضُ البحارة، على طرف المؤخرة. ولكنهم كانوا يفتقرون إلى الأسلحة والتصميم. وكان لودو لايزال حيًّا، ولم يفقد شيئًا من شجاعته. وحين لاحظ أن تامانغو هو محرّك المؤامرة، راوده الأمل بأنه إذا ما قُيّض له أن يقتله، فلسوف يتخلّصُ من شركائه بسهولة، فاندفع بناءً على ذلك إلى لقائه، وحسامُهُ بيده. وهو يناديه بصرخاتٍ عالية... وفي الحال. انقضّ تامانغو عليه، وكان يحمل بندقيةً، من طرف سبطانتها، وكأنها هراوة. والتحم الزعيمان، على أحد ممرات الباخرة. وكان ذلك الممرُّ ضيقًا، ويصلُ من طرف السفينة الأمامي إلى طرفها

---

(١) - لكل قبطان زنجي نشيدُهُ.

الخلفي. وكان تامانغو هو أولّ من وجّه ضربةً تجنّبها الرجلُ الأبيض بحركةٍ خفيفة من جسمه. أما الأخمص الذي سقط بقوة على الأرض الخشبية فقد تحطمّ. وكانت الضربةُ المعاكسةُ عنيفةً جداً بحيث أفلتت البندقية من بين يدي تامانغو، فأصبح من غيرِ دفاعٍ. وكان لودو يرفعُ ذراعه، ويهمٌّ بطعنه به، وهو يبتسم ابتسامةً شيطانية مفعمةً بالسرور. ولكن تامانغو كان رشيقًا مثل فهود بلاده، فاندفع بين يدي خصمه، وأمسك بيده التي كانت تحملُ الحسام. كان الأول منهما يبذل قصارى جهده للاحتفاظ بسلاحه، والآخر لينتزعه منه. ويسقطُ كلاهما في ذلك الصراع الحامي. غير أن الأفريقي كان مغلوبًا على أمره. حينذاك، ودون أن يفقد شجاعته أمسك تامانغو خصمه بكلّ قوته، وعضه في حنجرته بمزيدٍ من العنف، بحيث تدفقّ الدم كما يتدفق من تحت أسنان السبع، فأفلت الحسام من يد القبطان الخائرة القوة، فأمسك به تامانغو، ثم نهض، وفمه يقطر دمًا، وأطلق صرخةً ظافرة، وطعن عدوه الذي أصبح نصفَ ميتٍ بطعناتٍ متتابعة.

لم يعد النصرُ موضعَ شك. فأخذ العدد القليلُ من البحارة الذين بقوا أحياء يلتمسون رحمةَ المتمردين. ولكنهم ذُبحوا جميعًا بلا رحمة، بمن فيهم المترجم الذي لم يكن قد أساء إليهم قط. أما الملازمُ فقد مات ميتةً مجيدة، فكان قد تراجع إلى الوراء قريبًا من أحد تلك المدافع الصغيرة التي تدورُ على محورٍ متحرك، والتي يجري تلقيمُها بالشظايا الحديدية. فأدار السلاح باليد اليسرى، ودافع عن نفسه دفاعًا جيداً، مستخدمًا حسامه باليد اليمنى، بحيث اجتذب حشداً من الرجال السود حوله. حينذاك، ضغط على زناد المدفع، فأحدث في وسط تلك الكتلة المتراصة شارعًا مبلطًا بالموتى والمحتضرين. وبعد ذلك بلحظةٍ، مزقوه شرّ ممزّق.

بعد أن مزّقت جثة آخر البيض، وقُطعت إلى قطع، وأُلقيت في البحر، رفع الرجالُ السود، الذين ارتووا من الانتقام، رفعوا عيونهم نحو أشرعةِ السفينة التي تنفخُها الريحُ الرطبة باستمرار، والتي تبدو كأنها لا تزالُ تمتثلُ لمضطهديهم، وتقودُ المنتصرين، برغم ظفرهم، إلى أرض العبودية.

«وفكروا بحزن: لم نصنع شيئًا في النتيجة. وهذا الصنمُ الكبير، صنمُ البيض هل يريدُ أن يعيدنا إلى بلادنا، نحن الذين أهرقنا دماءَ أصحابه؟».

قال البعض: إن تامانغو سيعرف كيف يجعلهُ يطيع. فنودي على تامانغو بصرخات عالية.

لم يكن متعجلاً على الظهور. وقد وجدوه في غرفة مؤخر السفينة، واقفًا، يتكئ بإحدى يديه على حُسام القبطان المضرّج بالدماء. أما اليدُ الأخرى فقد كان يمدّها بهيئة شاردة إلى امرأته إيشيه التي كانت تقبّلها جاثية أمامه. إن فرحة الانتصار لم تكن تقلل من قلقٍ قاتمٍ يفضحُ نفسه في هيئته كلها. وبما أنه كان أقلّ فظاظة من الآخرين، فقد كان يشعر أفضل مما يشعرون بصعوبة موقفه.

ظهر أخيراً على سطح السفينة، وهو يتصنعُ هدوءاً لا يحسّ به. وإذا كانت مئةُ صوت مختلط تحثّه على توجيه سير المركب، فقد اقترب من الدفة، بخطوات بطيئة، وكأنّه يؤخّر قليلاً اللحظة التي ستقرر، بالنسبة إليه، وإلى الآخرين، مدى سلطته.

لم يكن في المركب كلّه أسودٌ واحد، مهما كان غبيًّا، لم يلاحظ التأثير الذي يمارسهُ دولابٌ معين، والعلبة الموضوعة قبالته على حركة السفينة. إنما كان هناك دومًا سرٌّ كبير، في تلك الآلية، بالنسبة إليهم. لقد عاين تامانغو، البوصلةَ لزمنٍ طويل، وهو يحرّك شفتيه، وكأنه يقرأ الحروفَ التي يراها مرسومةً عليها. ثم أخذ يرفعُ يده إلى جبينه، ويتخذ موقفًا متفكراً، موقف إنسان يجري حسابًا ذهنيًا. وكان جميعُ السود يحيطون به، فاغري الأفواه وعيونُهم مفرطةُ الاتساع، ويتابعون بقلق أدنى حركاته. وأخيراً، أدار بحركة عنيفة دولابَ دفة السفينة، مدفوعًا بمزيجٍ من الخوف والثقة سببُه الجهل، فقفزت السفينةُ الشراعية الجميلة «إسبيرانس» (الرجاء) على الموج، على إثر تلك الحركة الغريبة، مثل فرس سباقٍ باسلة تُقنطرُ تحت مهمازِ خيّالٍ متهور. ويُخيّل للمرء أنها كانت تريد، بسبب غضبها، أن يبتلعها البحرُ مع ملاحها الجاهل. وبما أن العلاقةَ الضروريةَ بين توجيه الأشرعة وتوجيه دفّة القيادة

قد قُطعت فجأة، فقد مال المركبُ بعنف شديد يجعل المرء يحسبُ أنه سيغرق، فغطست عوارضُ صواريه في البحر، وانقلبَ عددٌ من الرجال، سقط بعضهم فوق ظهر المركب. وفي الحال، نهض المركب باعتدادٍ ضد الموج، وكأنهُ يقاتلُ التدمير مرةً أخرى أيضًا. وضاعفت الريح قواها، وسقطَ الصّاريان دفعةً واحدة، فأحدثا ضجةً رهيبة، وتحطما على بُعد بضعة أقدام من ظهر السفينة، فغطت السطحَ بالحطام، وبما يشبه شبكةً ثقيلةً من الحبال.

كان الزنوجُ المروَّعون يهربون تحت كوى المركب، وهم يطلقون صرخاتٍ مذعورة، ولكن المركب اعتدل، عندما زال تأثيرُ الريح، وانساق برفقٍ تتقاذفهُ الأمواج. حينذاك، صعد السود الأكثر جسارة على سطحِ السفينة، وخلّصوها من الرُكام الذي كان يسدّها. أما تامانغو فقد بقي بلا حراك، متكئًا بمرفقه على علبةِ البوصلة، ومخفيًا وجهه على ذراعه المثنية وكانت إيشيه بقربه، ولكنها لا تجرؤ على توجيهِ الكلام إليه، واقترب السود قليلاً قليلاً، وارتفعت همهمةٌ، تحولت سريعًا إلى عاصفة من اللّوم والشتّائم.

كانوا يصرخون قائلين: غادر! دجّال! أنت الذي سببت لنا كلّ آلامنا، أنت الذي بعتنا إلى البيض، وأنت الذي أجبرتنا على التمرد عليهم، وكنت تمتدحُ أمامنا معرفتك، ووعدتنا بأن تعيدنا إلى بلادنا. وقد صدّقناك. فكم كنا حمقى! وها نحن قد أوشكنا على الهلاك جميعًا، لأنك أسأت إلى صنم البيض.

رفع تامانغو رأسه بفخر، فأخذ السود الذين يحيطون به يتراجعون خائفين، فالتقط بندقيتين. وأشار لامرأته أن تتبعه، واخترق الحشد الذي انفتح أمامه، وتوجه إلى مقدمة المركب. وهناك، صنع لنفسه ما يشبه المتراس، بواسطة براميل فارغة، وألواح خشبية. ثم جلس في وسط ذلك الضرب من التخندق، والذي كانت تخرج منه حربتا بندقيةٍ مهدِّدتين. وكان بعضُ المتمردين يبكون، وآخرون يرفعون أيديهم إلى السماء، ويتضرعون إلى معبوديهم ومعبودي البيض، فهؤلاء كانوا جاثين على ركبهم أمام البوصلة التي يبدون إعجابهم بحركتها الدائمة، ويتوسّلون إليها أن تعيدهم إلى بلادهم، وأولئك كانوا يتمدّدون على سطح السفينة

في حالةٍ من الوهن الكئيب، فلنتصورّ بين هؤلاء القانطين عدداً من النساء والأطفال الذين يُعوِلون من الذّعر، وعشرين جريحاً يلتمسون النجدةَ التي لم يكن يفكّر أحدٌ بتقديمها لهم.

بغتة، ظهر زنجيٌّ على سطح الباخرة: إنه متألقُ الوجه، ويعلنُ أنه قد اكتشف المكانَ الذي يحتفظ فيه البيض بمشروب ماء الحياة. ويدلُّ فرحه ووقفته دلالةً كافية على أنه قد جرّب ذلك المشروب. فيوقف هذا النبأُ للحظةٍ من الزمن صرخات هؤلاء المنكودين. إنهم يهرعون إلى مشرب السفينة، ويعبّون المشروبات. وبعد ساعةٍ من الزمن، صار من الممكن أن نراهم وهم يقفزون، ويضحكون على سطح المركبٍ، ويستسلمون لكلٍّ ضروبِ الشطط، شطط السُّكر الأكثر فظاظة. وكانت رقصاتهم وأغانيهم تترافقُ بتأوّهاتِ الجرحى ونحيبهم، وانقضت بقيةُ النهار، والليل بطوله على تلك الصورة.

وفي الصبّاح، عند الاستيقاظ، هيمن غمٌّ جديد، فأثناء الليل، كان عددٌ كبير من الجرحى قد مات. وكان المركب يطفو محاطاً بالجثث. وكان البحرُ هائجاً، والسماء معتمةً، فجرى اجتماع للتشاور. وعرضَ بعض المتمرنين على الفن السحري، والذين لم يكونوا يجرؤون على الحديث عن مهارتهم أمام تامانغو، عرضوا خدماتهم، كلٌّ بدوره، وجربوا تعزيماتٍ قوية. وكان القنوطُ يتزايد، لدى كلّ محاولةٍ عديمة الجدوى. وأخيراً، دار الحديثُ مجدّداً على تامانغو الذي لم يكن قد خرج منٌ متراسه بعد. وعلى أيةِ حال، فقد كان هو الأكثر علماً فيما بينهم، وهو الوحيدُ القادر على أن ينتشلهم منَ الوضعِ المخيف الذي كان قد وضعهم فيه. فاقترب شيخٌ منه، حاملاً مقترحات للمصالحة. ورجاه أن يأتي ليدلي برأيه. ولكن تامانغو الذي لاينثني مثل كوريولان[1] أصمّ أذنيه عن سماع ترجّياته. وفي الليل، وسط الفوضى، كان قد أعدَّ مؤونتهَ من البسكويت واللحم المملح. وكان يبدو أنه عازمٌ على أن يحيا وحيداً في عزلته.

(١) - كوريولان: قائدٌ روماني شهير بمآثره الحربية، ولكنه نُفي، فانقلب ضد وطنه. (م: ز.ع).

ظلَّ مشروبُ ماء الحياة متوفّرًا، إنه يجلبُ على الأقل نسيان البحر، والعبوديةَ والموتَ القريب. فالقوم ينامون، ويحلمون بأفريقيا، ويرون غاباتٍ من أشجار المطاط، وأكواخًا مسقوفةً بالقش، وأشجار باوباب[1] يغطي ظلُّها قريةً بكاملها. لقد انقضت عدّة أيام على هذا المنوال: صراخٌ وبكاء، وانتزاعُ لشعرِ الرأس، ثم سُكرٌ ونوم، تلك كانت حياتهم. وقد مات العديدُ منهم من جراء الإفراط في الشرب. وألقى بعضهم نفسه في البحر، أوطعنوا أنفسهم بالخناجر.

وذات صباح، خرج تامانغو من حصنه، وتقدّم حتى وصل قريبًا من جذع الصاري الكبير، وقال:

أيها العبيد، لقد ظهر لي الرّوحُ في الحلم، وكشف لي عن وسائلِ إخراجكم من هنا لإعادتكم إلى بلدكم. إن عقوقكم يستحقُّ أن أترككم. ولكني أشفقُ على هؤلاء النسوة، وعلى هؤلاء الأطفال. وأسامحكم، فأصغوا لي:

فأحنى جميعُ السود رؤوسهم باحترام، واحتشدوا حوله.

فتابع تامانغو: إن البيضَ يعرفون وحدهم الكلماتِ المقتدرة التي يمكنُها تحريك هذه البيوت الخشبية الكبيرة، ولكن بوسعنا أن نوجه، حسب مشيئتنا، هذه القواربَ الخفيفة التي تشبه قواربَ بلادنا.

وكان يشير إلى قارب النجاة، وإلى زوارق السفينة الشراعية العالية.

«فنملأها بالمؤن، ولنصعد إليها، ونجذف باتجاه الريح، فإن مولاي ومولاكم سيجعلها تهبُّ نحو بلادنا».

صدّقوه. ولم يكن هناك مشروعٌ أكثر مجانبةً للصواب من مشروعه. وبما أنه جاهل باستخدام البوصلة، ويبحر تحت سماء لايعرفها، فقد كان كلُّ ما يستطيع أن يفعله هو أن يهيم على غير هدى. فبناءً على أفكاره، كان يتصوّر أنه إذا ما جذفَ على خطٍّ مستقيم، إلى الأمام، فلسوف يجدُ في النهاية أرضًا يقطنها السود.

---

(١) – شجرة استوائية عملاقة، يصل ارتفاعها أربعين مترًا، ومحيط جذعها عشرين. (م: ز.ع).

فالسـود يمتلكـون الأرض، والبيـض يعيشـون علـى مـراكبهـم. هذا مـاكـان قد سمعه يُقال لأمه.

كان كلُّ شيء معداً للإبحار سريعًا: ولكن زورق النجاة، ومركبًا آخر فقط كانا صالحين للاستخدام. وهما أقل بكثير من أن يتسعا لحوالي ثمانين زنجيًا لايزالون أحياء. وكان لا بدَّ من ترك جميع الجرحى والمرضى، فطلب معظمهم أن يُقتلوا قبل أن يفترقوا عنهم.

غـادر القـاربان اللذان أُنزلا إلى الماء بمشـقـة لاحـدود لهـا، وحـمّلا فـوق طاقتهما، غادرا السفينةَ والبحرُ متلاطمُ الأمواج، ويهدّد في كل لحظة بابتلاعهما وابتعـدت الفليكةُ أولاً. أما تامـانغو وإيشيه فـقـد ركبا في زورق النجاة الذي ظلّ متأخراً عن غيره تأخُّرًا كبيراً، لأنه كان أثقل من الفليكة، ومحمّلاً أكثر. وكانت لاتزال تُسمع صرخات نواحٍ بعض التعساء الذين تُركوا على متن السفينة الشراعية، عندما ضربت زورق النجاة موجةٌ قويةٌ بصورةٍ عرضانية، بحيث ملأته بالماء، فغرق في أقلّ من دقيقة. ورأت الفليكة كارثتهم، فضاعف مجذفوها جهودهم خوفًا من أن يُضطرّوا لانتشال بعض الغرقى. وكلُّ أولئك الذين كـانوا يركـبـون في زورق النجاة قد غرقوا تقريبًا. ولم يتمكن من الرجوع إلى السفينة إلاّ اثنا عشر منهم فقط. وكان تامانغو وإيشيه في عدادهم، وعندما غابت الشمسُ رأوا الفليكة تختفي خلف الأفق. أما ما حصل لها، فهم يجهلونه.

لماذا أُتعب القارئ بالوصف المكروه، ووصف عذابات الجوع؟ إن مايقرب من عشرين شخصًا، يعيشون على مساحة ضيّقة، ويتقاذفهم بحرٌ عاصفٌ حينًا، وتحرقهم الشمسُ اللاهبة حينًا، يتنازعون كلّ يوم بقايا مؤونتهم الهزيلة، فكلُّ قطعة بسكويت تكلّفُ معركةً، والضعيفُ يموت فيها، ليس لأن القويّ يقتله، بل لأنه يتركه يموت، وبعد بضعة أيام لم يبقَ على قيد الحياة غير تامانغو وإيشيه، على متن سفينة «الرّجاء».

. . . .

وذات ليلة، كان البحرُ مضطربًا، وكانت الريحُ تهبُّ بعنف، والظلمةُ حالكة جداً بحيث لم يكن بوسع المرء أن يرى مقدّم السفينة، إذا نظر من مؤخّرها، وكانت إيشيه راقدةً على فراش، في غرفة القبطان. وكان تامانغو جالسًا عند قدميها، وكلاهما يلتزمُ الصمتَ منذ زمنٍ طويل.

وهتفت إيشيه أخيراً: «إن كلّ ما تعانيه يا تامانغو، إنما تعانيه بسببي» . . .

فأجاب تامانغو فجأة: «أنا لا أتألّم».

ورمى على الفراش نصفَ قطعة البسكويت التي بقيت له.

فقالت وهي تدفعُ القطعةَ برفق: احتفظ بها لنفسك، فأنا لم أعد جائعةً. ومن جهةٍ، أخرى، فلمَ الطعام؟ ألم تحن ساعتي؟.

نهض تامانغو دون أن يجيب، وصعد وهو يترنحً على سطحِ الباخرة، وجلس في أسفلِ صارٍ مكسور، ورأسه مائلٌ على صدره، وأخذ يصفرُ لحنَ عائلته. فجأة، سُمعت صرخةٌ عظيمة تعلو جلبةَ الريحِ والبحر، وظهر ضوءٌ، وسُمعت صرخاتٌ أخرى، وانزلق مركبٌ ضخمٌ أسود بسرعةٍ من جانب مركبه، وكان قريبًا جداً بحيث أن عوارض الصاري مرّت من فوق رأسه. ولم يرَ سوى وجهين يضيئُهما مصباحٌ معلقٌ إلى أحد الصواري، فأطلق هؤلاء القوم صرخةً أخرى، واختفت باخرتهم حالاً في الظلام، محمولةً بقوة الريح. ولا شكّ أن رجالَ الحراسةِ قد لمحوا المركبَ الغارق، غير أن الطقس السيئ كان يمنعهم من تغييرِ اتجاههم. وبعدَ لحظةٍ من الزمن، رأى تامانغو لهبَ مدفعٍ، وسُمعَ صوتُ انفجاره. ثم رأى شعلة مدفعٍ آخر، ولكنه لم يسمع أيَّ صوت. وبعد ذلك، لم يعد يرى شيئًا. وفي اليوم التالي، لم يكن يبدو في الأفق أيُّ شراع. وعاد تامانغو ليرقد على فراشه، فأغلق عينيه. أما امرأته إيشيه، فقد ماتت في تلك الليلة.

. . . .

لا أعرف الزمن الذي انقضى بعد ذلك حين لمحت ُفرقاطة إنكليزية اسمها «لابيلّون»، بلا صوارٍ، وقد هجرها طاقمها على ما يبدو. وعندما دنا منها قاربُ نجاة، وجد فيها زنجية ميتة، وزنجيًا مجردًا من اللحم، وهزيلاً جداً إلى درجة تجعلهُ شبيهًا بمومياء. كان فاقداً للوعي، ولكنه كان لا يزال على قيد الحياة. فأخذه الطبيبُ الجرّاحُ واعتنى به. وعندما رست «لابيلّون» في كينغستون، كان تامانغو في صحة تامة. فسألوه عن قصته. وقال مايعرفهُ منها. وكان مزارعو الجزيرة يريدون أن يشنقَ كونه زنجيًا متمردًا. غير أن الحاكمَ الذي كان رجلاً رحيمًا، اهتم به، ورأى أن حالته مبرّرة، إذ أنه، على أية حالٍ، لم يفعل شيئًا غير استخدام حقّ الدّفاع عن النفس. ثم أن الذين قتلهم لم يكونوا سوى فرنسيين. فعاملوه كما يُعامل الزنوج الذين يُضبطون على متنِ مركبٍ لتجارة العبيد، وتجري مصادرته. لقد مُنح الحريةَ، أي أنهم جعلوه يعمل ُلصالح الحكومة. ولكنه كان يقبضُ أجراً قدره ستة فلوس في اليوم، بالإضافة إلى الطعام. لقد كان رجلاً على درجةٍ كبيرةٍ من الوسامة. فرآه العقيد قائد القطعة ٧٥ وأخذه ليجعله صنّاجًا في فرقةِ فوجه الموسيقية، فتعلم قليلاً من الإنكليزية، ولكنه قلما كان يتكلّم، وبالمقابل، كان يشربُ الرّوم والتافيا بإفراط - ومات في المشفى بالتهاب صدري.

- ٥ -

لؤلؤة طليطلة

- جرياً على الطّريقة الإسبانيّة -

من يقول لي إن كانت الشّمس أجمل عند شروقها منها عند غروبها؟ من يقول لي عن أجمل الأشجار؟ أهي شجرة الزيتون، أم شجرة اللوز؟ من يقول لي أيهما أشجع: الفالنسي أم الأندلسي؟ من يقول لي أية امرأة هي الأجمل بين النساء: إنها أورورا دو فارغاس، لؤلؤة طليطلة.

طلب الزنجي توزاني رمحه، وطلب ترسه: أما رمحه، فيمسكه بيده اليمنى، ويعلق ترسه في عنقه. إنه ينزلُ إلى إسطبله، ويتأمل أفراسه الأربعين، واحدةً تلو الأخرى ويقول: «إن برجا هي الأشد بأساً، وعلى ردفها العريض، سوف أحمل لؤلؤة طليطلة، وإلا، فإن طليطلة لن تراني أبداً مرةً ثانية، قسماً بالله!

إنه ينطلقُ، ويمتطي جواده، ويصل إلى طليطلة، فيصادفُ شيخاً بقرب الزكاتين، فيقول له: أيها الشيخ، ذو اللحية البيضاء، احمل هذه الرسالة إلى السيد غوتيير، إلى السّيد غوتيير دو سالدانيا، فإن كان رجلاً، فليأت إلى قتالي، بقرب منهل ألمامي. ولؤلؤة طليطلة يجب أن تخص واحداً منا.

وأخذ الشيخُ الرسالةَ، أخذها وحملها إلى الكونت دوسالدانيا، فيما كان يلعب بالشطرنج مع لؤلؤة طليطلة. فقرأ الكونت الرسالةَ، وقرأ التحدي، وضرب بيده المنضدةَ ضربةً قوية بحيث سقطت عنها كلُّ قطعِ الشطرنج. إنه ينهضُ، ويطلب رمحه، وحصانه الجيد. أما اللؤلؤةُ فقد نهضت أيضاً وهي ترتجف، إذ أدركت أنه ذاهبٌ إلى المبارزة.

«أيها السيد غوتيير، ياسيد غوتيير دو سالدانيا، ابقَ، أرجوك، والعب معي أيضًا - فلن ألعبَ بالشطرنج بعد الآن، أريد أن ألعب لعبة الرّماح، في منهل ألمامي». ولم تفلح دموعُ أورورا في إيقافه، فلا شيءَ يوقف خيالاً يتجه إلى مبارزة. حينذاك، أخذت لؤلؤةُ طليطلة معطفها، وامتطت بغلتها، وذهبت إلى منهل ألمامي.

النّجيلُ أحمر حول المنهل، وماءُ المنهل أحمر أيضًا، ولكن ليس دمُ مسيحي هو الذي يصبغ النّجيل بالأحمر. إن الزنجي توزاني مستلقٍ على ظهره، ورمحُ غوتيير قد انكسر في صدره، ودمه كله يضيع شيئًا فشيئًا. وفرسه برجا تنظر إليه وهي تبكي، فهي لا تقدرُ على شفاء جراح صاحبها.

تنزل اللؤلؤةُ عن بغلتها: «أيها الخيّال، تشجعْ، سوف تعيشُ أيضًا كي تتزوّج صحراويةً جميلة. إن يدها تحسنُ شفاءَ الجراح التي يسببها فارسي - آه، أيتها اللؤلؤة الشديدة البياض، أيتها اللؤلؤة الجميلة جداً، انزعي من صدري قطعةَ الرمح التي تمزقه هذه: إن برودة الفولاذ تجمّدني وتجعلني أرتعد.

فاقتربت من غير ارتياب، ولكنه استعاد قواه، وبحدِّ حسامه، شجّ ذلك الوجه الرائع الجمال.

- ٦ -

الإناء الإترووري[1]

لم يكن أوغست سان - كلير محبوبًا في أوساط ما نسمّيه بالمجتمع الراقي، والسبب الرئيسُ في ذلك هو أنه لم يكن يسعى إلا إلى أن يروقَ للناس الذين يروقون له شخصيًا، فقد كان يبحثُ عن البعض، ويهربُ من البعض الآخر. زد على ذلك أنه كان شاردَ الذهن وخاملاً. وذات مساء، وفيما كان خارجًا من المسرح الطلياني، سألته المركيزةُ ### عن رأيه في الغناء الذي أدته الآنسة سونتاغ، فأجاب سان -كلير، وهو يبتسمُ ابتسامةً تدلُّ على الارتياح، ويفكرُ بشيء آخر تمامًا: «أجل، يا سيدتي». ولم يكن ممكنًا أن يُعزى ذلك الردُّ المضحك إلى حيائه، فقد كان يوجه الكلام إلى سيدٍ عظيم، وإلى رجلٍ عظيم، وحتى إلى سيدةٍ عصرية بثقةٍ تعادل الثقة التي يمكن أن يتكلم بها مع أحد أنداده - فقررت المركيزة بأنّ سان - كليرَ معجزةٌ من معجزات الوقاحة والغرور.

أما السيدة ب ### فقد دعته إلى العشاء، في أحد أيام الاثنين، وغالبًا ماوجهت إليه الحديث. وقد أعلن، لدى خروجه من منزلها، أنه لم يلتقِ امرأة أكثر لطفًا منها قط. وقد كانت السيدة ب ### تجمعُ الخواطرَ الذهنية من عند الآخرين، طيلة شهر، وتبذرها في منزلها خلال أمسية واحدة. وقد رآها سان - كلير ثانية، يوم الخميس من الأسبوع نفسه. وفي تلك المرة، شعر بالضجر بعض الشيء. وجعلته زيارةٌ أخرى يقرر ألا يظهر مجددًا في صالونها. فنشرت السيدة ب ### أن سان - كلير فتى لايعرفُ اللياقة، ولا التصرفَ الحسن.

---

(١) - نسبة إلى إتروريا، وهي مقاطعة إيطالية تتوافقُ تقريبًا مع توسكانيا الحاليّة، وكانت هناك مملكة بهذا الاسم بين الأعوام ١٨٠١ - ١٨٠٨. (م: ز.ع).

كان قد وُلد بقلبٍ رقيقٍ ومحبٍّ، غير أن حساسيته الشديدة الانفتاح قد جلبت له سخريةَ رفاقه، وذلك في تلك السن التي يكتسب المرءُ فيها بسهولة فائقة انطباعاتٍ تدوم طيلةَ الحياة. لقد كان معتداً بنفسه، وطموحاً، وهو يتمسكُ بالرأي مثلما يتمسك به الأطفالُ. ومنذ تلك المدّة من حياته، وهو يجتهدُ في إخفاء كلّ ظواهر الأشياء التي كان يعدّها ضعفاً معيباً. ولقد أفلح في ذلك، ولكن نصره قد كلفه غالياً، فتمكن من أن يكتم عن الآخرين انفعالات نفسه المفرطة في رقتها، إلا أنه قد كبتها في داخله، وجعلها أشدَّ قسوةً عليه بمئة مرة. وفي إطار المجتمع الراقي، اكتسب صيتاً يبعثُ على الغمّ كإنسانٍ باردِ الإحساس، وغير مبال. وكان خياله القلقُ، أثناء عزلته، يخلقُ له عذاباتٍ مرعبةً إلى درجةٍ كبيرة، بحيث لم يكن يرغبُ في أن يبوحَ بسرّها لأحد.

إنه من الصعب، حقّاً، أن يجد المرءُ صديقاً.

أنقول هذا صعب: ولكن هل هو ممكن؟ وهل أتى إنسانان إلى هذا الوجود ولم يكتم أحدهما سراً عن الآخر؟ قلّما كان سان - كلير يؤمن بالصداقة، وكان ذلك أمراً ملحوظاً وقد كانوا يجدونه بارداً ومتحفظاً مع فتيانِ المجتمع، فهو لم يكن يطرحُ عليهم قطّ أسئلةً حول أسرارهم. غير أن كلَّ أفكاره، ومعظم أعماله كانت خافيةً عليهم.

إن الفرنسيين يحبّون أن يتحدثوا عن أنفسهم. وكذلك فإن سان - كلير قد كان، بالرغم منه، مؤتمناً على الكثير من المسارّات. أما أصدقاؤه، وكلمةُ صديق تدلُّ على الشخص الذي نراه مرتين أسبوعياً، فقد كانوا يشكون من ارتيابه بهم، وفي الواقع، فإن ذلك الذي يشركنا في سره، من غير أن نسأله، يغتاظُ عادة من عدم معرفته لسرنا، فهناك تصورٌ مؤداه أن المعاملةَ بالمثل فيما يخصُّ إفشاء الأسرار أمرٌ متوجبٌ.

كان الفونس دو تيمين، قائد الأسطول الوسيم يقول عن سان - كلير ذات يوم: إنه متكتمٌ غاية التكتم. ولن أتمكنَ بحالٍ من الأحوال أن أضع ثقتي في حدّها الأدنى بهذا الشيطان المسمى سان - كلير.

واستأنف جول لامبير قائلاً: «أظن أنه يسوعي بعض الشيء، ولقد أقسم لي أحدهم بشرفه أنه قد صادفه خارجًا من كنيسة سان - سولبيس، فلا أحد يعرفُ حقيقة أفكاره، أما أنا، فلا يمكنني أبدًا أن أكون مرتاحًا معه».

افترقا، والتقى ألفونس سان - كلير في جادة الطليان. وكان يسيرُ مطأطئ الرأس، ولا يرى أحدًا، فاستوقفه ألفونس، وتأبط ذراعه. وقبل أن يصلا إلى شارع السلام «La Paix»، كان قد روى له قصة غرامياته كلها مع السيدة ### والتي يغار عليها زوجها كثيراً، ويعاملها بفظاظةٍ شديدة.

وفي المساء ذاته، خسر جول لامبير نقوده في لعبة التبعيدة[1]، فأخذ يرقص، وأثناء الرقص، لمس بكوعه رجلاً ذا مزاجٍ سيّئ، لأنه كان قد خسر هو أيضًا كلَّ نقوده، وهنا، تبادلا بعض الكلمات المغيظة، فحددا موعداً للقتال. فرجا جول سان - كلير أن يكون مساعداً له. وفي المناسبة نفسها، اقترض منه نقوداً، وقد نسي باستمرار أن يعيدها إليه.

وعلى كلّ حال، كان سان - كلير رجلاً ليّن الجانب، ولم تكن معايبه تضرُّ أحدًا غيره. كان رجلاً مفضالاً، ولطيفًا في معظم الأحيان، وهو نادراً مايكونُ مضجراً. كان قد سافر كثيراً وقرأ كثيراً، ولا يتحدثُ عن أسفاره وقراءاته إلا عندما يُطلب منه ذلك بإلحاح. زد على هذا أنه كان طويلَ القامة، جيدَ البنيان، وكانت سيماؤه تدلُّ على الشهامة، ورهافة العقل ويغلبُ عليه المظهر الجدّيُّ دومًا، على وجه التقريب. أما ابتسامتهُ فكانت مفعمة باللطف. . .

لقد نسيتُ ناحيةً هامةً، وهي أن سان - كلير كان مجاملاً لكلِّ النساء، ويسعى إلى أن يتحدثَ معهن أكثر من أن يتحدثَ مع الرجال. هل كان عاشقًا؟ هذا ما كان يصعبُ البتُّ فيه، إلاّ أنه، إذا كان هذا الكائن الشديدُ البرود يحسُّ بالحب، فقد كان الناس يعرفون أن الكونتيسة الجميلة ماتيلدا دوكورسي ينبغي أن تكونَ المرأةَ الأثيرة لديه، فقد كانت أرملةً شابة، والناسُ يلاحظون أنه يتردد إليها بصورةٍ

(١) - لعبة ورق يمكن للاعب فيها أن يُبعد الأورق التي لا تناسبه. (م: ز. ع).

مثابرة. ومن أجل الإقناع بعلاقتهما الحميمة، كان الناسُ يوردون القرائن التالية: أولاً، هناك التأدُّبُ الذي كان يبديه سان - كلير بصورة احتفالية تقريبًا نحو الكونتيسة، والعكس بالعكس، ثم تكلُّفه عدم التلفظ باسمها أبدًا، في المجتمع الراقي، أو عدم امتداحها على الإطلاق، إذا لم يكن مضطرًا للحديث عنها، ثم أن سان - كلير كان يحبُّ الموسيقا بشغف قبل أن يُقدَّم إليها، وكانت الكونتيسة تميل بالقدر نفسه إلى الرسم. وما إن التقيا، حتى تغيرت ميولهما. وأخيرًا، فما إن ذهبت الكونتيسة للاصطياف في منطقة المياه المعدنية، حتى سافر سان - كلير بعدها بستة أيام.

. . . .

. . . .

إن واجبي كمؤرخ يفرض علي أن أعلن أنه، في إحدى ليالي شهر تموز، وقبل شروق الشمس بلحظات قليلة، انفتح بابُ البستان، في أحد المنازل الريفية، وخرج منه رجلٌ متخذًا كافةَ الاحتياطات التي يتخذُها سارقٌ يخشى المباغتة. كان هذا المنزلُ الريفي ملكًا للسيدة كورسي، وذلك الرجلُ كان سان - كلير. وقد رافقتهُ إلى الباب سيدةٌ تتلفعُ بعباءة فراء، وأطلت برأسها إلى الخارج كي تراه مدّة أطول أيضًا، فيما كان يبتعد، وهو ينزلُ الدرب الضيقة التي تمتدُّ على طول سورِ البستان. توقف سان - كلير، وألقى حواليه نظرةً حذرةً، وأشار بيده لتلك المرأة كي تدخل. كان صفاء تلك الليلةِ الصيفية يتُيحُ له أن يُميِّز وجهها الشاحب، وهي واقفةٌ بلا حراك، في المكان نفسه. فرجع أدراجه، واقتربَ منها، وضمها بحنانٍ بين ذراعيه. كان يريدُ أن يدفعها إلى الدخول، غير أنه كانت لا تزالُ لديه أشياءُ كثيرة يقولها لها. وكان حديثهما قد استمر لعشرِ دقائق، عندما سُمع صوتُ فلاحٍ يخرج من منزله كي يعملَ في الحقول، فتُعطى قبلةٌ من أحدهما، ويردّها الآخر، ويُغلق البابُ، ويصبحُ سان - كلير، بقفزةٍ واحدة، في آخرِ المعبر. كان يسلك طريقًا تبدو

له معروفةً تمامًا، فتارةً ينطنط من الفرح، ويعدو وهو يضربُ الجنبيات[1] بعصاه، وتارةً، كان يتوقفُ، أو يسير ببطء ناظراً إلى السماء التي تتلون بالأرجوان. من جهة الشرق. وباختصار، يخالُ المرء، إذ رآه، أنه مجنونٌ مبتهج لأنه قد حطم قفصه. وبعد نصف ساعة من المسير، وصل إلى باب منزلٍ قديم منعزل، كان قد استأجره ليمضي فيه فصل الصيف. كان لديه مفتاح، فدخل، ثم ارتمى على كنبةٍ كبيرة. وهناك، أخذ يفكر، وعيناه محدقتان، وابتسامةٌ رقيقةٌ تلوي فمه. وكان يحلمُ وهو مستيقظٌ تمامًا. ولم يكن خياله يأتيه حينذاك بغيرِ أفكار السعادة، و «كان يقول في نفسه، في كل لحظة: كم أنا سعيد، وأخيراً، فقد وجدتُ ذلك القلبَ الذي يفهمُ قلبي! . . . - أجل، إن مثلي الأعلى هو الذي وجدته . . . فلدي في الوقت نفسه «صديق» و «عشيقةٌ». . . أية طباع! وأية روحٍ عاطفية! . . . كلا، إنها لم تحبَ قط أحداً قبلي . . ». وفي الحال، وبما أن الغرور يتسلل دومًا إلى أمور هذا العالم، فقد أخذ يفكر قائلاً: «إنها أجملُ امرأةٍ في باريس»، وكان خياله يرسمُ له مجدداً كل مفاتنها في آنٍ واحد. «لقد اختارتني من بين الجميع. وكان معجبوها من بين نخبة المجتمع. ذلك العقيد الوسيم جداً والشجاع جداً، عقيد الخيالة - والذي ليس شديد الغرور - وذلك المؤلفُ الشاب الذي يرسمُ لوحات مائية جميلة، ويتلاعبُ بالأمثال بمهارة - وذلك الروسي لوفلاس الذي رأى البلقان والذي خدم تحت إمرة ديبيتش - وبصورةٍ خاصة كاميل ت . . . النبيه بالتأكيد، وذو التصرفات اللائقة، ويحمل على جبينه أثراً من ضربة سيفٍ جميلة . . . كل هؤلاء قد صرفتهم. أما أنا ! . . . وهنا كانت تأتي اللازمة التي يرددها: «كم أنا سعيدٌ! كم أنا سعيد!»».

وكان ينهضُ، ويفتح النافذة، فهو يجدُ صعوبةً في التنفس، ثم يتنزه، وبعد ذلك يتقلبُ على كنبته.

إن عشيقًا سعيداً مضجرٌ تقريبًا مثل عشيقٍ تعس. إن واحداً من أصدقائي - وغالبًا ما كان يلفى نفسه في أحد هذين الوضعين أو في الوضع الآخر، لم يكن يجدُ

(١) - الجنبيّات: هي أشجارٌ دغلية صغيرةٌ وكثيفة. (م: ز. ع).

وسيلة أخرى كي أصغي إليه غير أن يقدم لي وجبة طعام ممتازة يتمتع خلالها بحرية الكلام عن غرامياته. وبعد أن نتناول القهوةَ، يصبح من الضروري حتماً أن نُغيِّر الحديثَ.

وبما أنه ليس بوسعي أن أقدم الطعام لجميع قرائي، فلسوف أُعفيهم من أفكار الحب عند سان - كلير. ومن ناحيةٍ أخرى، ، فلا يمكن للمرء أن يبقى دوماً شاردَ الفكر. وكان سان - كلير متعباً، وقد تثاءبَ، ومدَّ ذراعيه، ولاحظ أن الضحى قد حل، وكان لابد أخيراً من التفكير بالنوم. وعندما استيقظ، رأى بناءً على ساعته، أن ما تبقى من الوقت لا يكاد يكفيه كي يرتدي ثيابه، ويسرع إلى باريس التي كان مدعواً فيها إلى وجبةٍ بين الغداء والعشاء، مع عددٍ من الشبان الذين يعرفهم.

. . . .

كانوا قد فرغوا من فتح زجاجةٍ أخرى من نبيذ الشامبانيا، وإني أتركُ للقارئ أن يحدّد رقمها. ويكفيه أن يعرفَ أنهم قد وصلوا إلى تلك اللحظة التي تأتي سريعاً في وجبةِ غداءٍ بين الصّبيان، والتي يريد كلُّ الشبان فيها أن يتكلموا في آنٍ واحد، والتي يبدأ فيها ذوو الطباع الجيدة في التخطيط لإثارة القلق لدى ذوي الطباع السيئة.

«فقال ألفونس دو تيمين، الذي لم يكن يفوِّتُ أبداً فرصةً للحديث عن انكلترا: أودّ أن تصبحَ درجةً في باريس، كما في لندن، أن يَرفَعَ كلُّ واحد نخباً على صحّةِ عشيقته. وبهذه الطريقة، نعرف بالضبط إلى من يتوقُ صديقُنا سان - كلير». وعندما تكلم على هذا النحو، ملأ قدحه وأقداح جيرانه.

كان سان - كلير الذي شعر بقليلٍ من الحرج، يتهيأ للردِّ، غير أن جول لامبير استبقه وقال:

«أوافقُ على هذا العرف، وأتبناه».

ثم قال وهو يرفع كأسه: «في صحة كل مصممات الأزياء، في باريس! وأستثني منهن أولئك اللواتي يبلغن الثلاثين من عمرهن، والعور والعرج... إلخ..».

«هتف الفتيان المقلدين للإنكليز: هوراً! هوراً!

فنهض سان - كلير، وكأسه في يده، وقال:

«أيها السادة، ليس لي قلبٌ واسعٌ مثل قلب صديقنا جول، ولكنه أكثرُ ثباتًا، فثباتي تزدادُ أهليته للتقدير خصوصاً لأنني افترقت منذ زمنٍ طويل عن سيدة أفكاري. وأنا متأكدٌ مع ذلك من أنكم ستوافقون على اختياري، هذا إذا لم تكونوا سلفًا منافسيّ في صحة جوديت باستا، أيها السادة! ونتمنى أن يكونَ بوسعنا أن نرى بعد قليل مجدداً أول ممثلة مسرحيةٍ في أوروبا!».

كان تيمين يريدُ أن ينتقد النخب، ولكن الهتافات قاطعته. أما سان - كلير الذي تفادى تلك الضربة، فقد ظنّ نفسه خارجَ اللعبة بالنسبة لذلك النهار.

انصبّ الحديثُ أولاً على المسارح، وأفادهم الكلامُ على الرقابةِ المسرحية كي ينتقلوا منه إلى الكلام في السياسة، فمن اللورد ولّنغتون انتقلوا إلى الخيول الإنكليزية، ومن الخيول الإنكليزية إلى النساء عن طريق ربطٍ للأفكار يسهلُ فهمه. فبالنسبة للشبان يُعدّ الحصانُ الجميل أولاً، والعشيقةُ الجميلةُ بعد ذلك هما الشيئين المشتهيين أكثر من غيرهما.

وهكذا، فقد تناقشوا في وسائلِ الحصول على هذه الأشياء المشتهاة كثيراً. فالخيول يمكن شراؤها، والنساء تُشترى أيضًا. أما عن النساء، فعلينا ألا نتحدث. فسان - كلير يستنتج أن أول شرطٍ كي يروقَ الرجلُ لامرأة هو في أن يتفرّد، وفي أن يكون مختلفًا عن الآخرين. ولكن هل هناك صيغةٌ عامةٌ للتفرّد؟ إنه لم يكن يظنٌّ ذلك.

وقال جول: «بحيث أن الأعرج أو الأحدبَ، حسب وجهة نظرك، هما في وضعٍ يجعلهما يروقان للمرأة أكثر من رجلٍ منتصبِ القامة، وبنيته مثل سائر الناس؟.

فأجاب سان - كلير:

- أنت تبالغ في الأمور كثيراً، ولكني أقبل، إذا لزمَ الأمرُ، كلَّ النتائج المترتبة على ما عرضته. فلو كنت أحدبَ، مثلاً، لما قتلتُ نفسي بالرصاص، ولوددت أن أظفر بالنساء. ولما توجهت في البداية، إلاّ إلى نوعين. إما لأولئك اللواتي يمتلكن حساسيةً حقيقيةً، وإما إلى النساء الكثيرات العدد واللواتي يدّعين أن لهن طباعاً فريدةً Eccentric[1]، كما يُقال في إنكلترا، ولصوّرتُ لأولاهنّ فظاعة وضعي، وقسوةَ الطبيعة تجاهي، ولحاولت إثارة شفقتهن على مصيري، ولعرفتُ كيف أجعلهنّ يخمنّ بأنني أهلٌ لحبٍّ متقد، ولقتلتُ أحد منافسيَّ في مبارزةٍ، ولسممتُ نفسي بجرعةٍ صغيرة من عقار أفيوني. وما إن تمرّ بضعة أشهر حتى لايعودُ أحدٌ يرى حدبتي، فتأتي حينئذٍ مهمتي في رصد أولِ عارضٍ من عوارض الحساسية. أما النساءُ اللواتي يطمحن إلى التفرد، فالظفرُ بهن سهلٌ، فأقنعهن بأنّ القاعدةَ المثبتةَ حقًّا وشرعًا هي أن الأحدبَ لا يمكن أن يكون حسنَ الحظّ، ولسوف يرغبن حالاً في أن يقدمن تكذيبًا للقاعدة العامة.

فهتف جول: - يا لك من دون جوان!

فقال العقيد: - لنكسر أرجلنا، أيها السادة، طالما أصابنا سوءُ الحظّ لكوننا لسنا أحدابًا. فقال هيكتور روكانتان الذي لم يكن طولهُ يزيدُ على ثلاثة أقدام ونصف:

- أنا موافقٌ موافقة تامة على رأي سان - كلير، فنحن نرى، كلّ يوم، أجملَ النساء، وأكثرهن عصريةً يستسلمن لأناس لا ترتابون بهم أبدًا، أنتم الفتيان الوسيمين.

---

(١) - بالانكليزية في النص، وهي: الخارج على المألوف، مثل مرادفتها بالفرنسية: Excentrique (م: ز. ع).

فقال تيمين بالنبرة الأكثر طبيعية في العالم:

- انهض يا هكتور، أرجوك، واقرع الجرس، كي يجلبوا لنا النّبيذ.

فنهض القزم، وتذكّر كلُّ واحد، وهو يبتسمُ حكايةَ الثعلب المقطوع الذيل.

فقال تيمين مستأنفًا الحديث: في رأيي، كلما عشتُ أكثر كلما رأيتُ أن وجهًا مقبولاً - وَكان تيمين في الوقت نفسه يلقي نظرةً تنمُّ عن رضى عن النفس في المرآة المقابلة- أن وجهًا مقبولاً، يضاف إليه ذوقٌ في التزيُّن هما التفردُ الكبيرُ الذي يغوي أكثر النساء تحجراً. وجعل قطعةً صغيرةً من فتاتِ الخبز كانت قد التصقت بثنية ردائه، جعلها تقفز بنقرةٍ من إصبعه.

فهتف القزم: «عجبًا! يحصلُ المرء على نساءٍ يحتفظ بهن ثمانية أيام، وفي الموعد الثاني، يُشعرنه بالسأم، إذا كان له وجهٌ جميل، ولديه رداء من السّاتو[1]. ولابد من شيء آخر كي يحصل المرءُ على الحبّ، أي ما نسميه الحب... ينبغي... فقاطعه يتمين:

- هاكم، هل تريدون مثلاً مقنعًا؟ لقد عرفتم جميعًا ماسينيي، وتعلمون أيَّ رجلٍ كان، إن تصرفاته مثل تصرفات سائسِ خيلٍ إنكليزي، وهو في الحديث مثل حصانه... إلاّ أنه كان جميلاً مثل أدونيس، ويرتدي عقدةَ عنقه مثلما يرتديها بروميل. لقد كان، إجمالاً، أكثر إنسانٍ عرفته إثارةً للضجر.

فقال العقيد بوجو:

- لقد كاد يقتلني من الضجر، فتصوروا أني كنت مجبراً على السفر برفقته مسافةَ مئتي فرسخ.

فسأل سان - كلير:

- هل تعلمون أنه قد سبب موتَ ذلك المسكين ريشار ثورنتون والذي عرفتموه جميعًا؟

(١) - نوع من الأقمشة. (م: ز. ع).

فأجاب جول:

- ولكن، ألا تعرفون إذن أنه قد اغتيل على أيدي اللصوص، بقرب فوندي؟

- أنا أوافقك الرأي، ولكن سترى أن ماسينيي قد كان على الأقل ضالعًا في الجريمة. إن عدداً من المسافرين، وكان ثورنتون في عدادهم، قد رتبوا أمر الذهاب إلى نابولي مجتمعين، خوفًا من قطاع الطرق. وأراد ماسينيي أن يلتحق بالقافلة. وما إن عرف ثورنتون ذلك حتى سبقه، كما أظن، خوفًا من أن يُضطر إلى قضاء بضعةِ أيام معه. فمضى وحده، وأنتم تعرفون البقية.

فقال يتمين:

- كان ثورنتون على حقّ. وقد اختار الميتةَ الألطفَ بين ميتتين. وأيّ إنسان في مكانه كان سيفعل مثلما فعل.

ثم، وبعد مدّة صمت، استأنف قائلاً:

«أنتم توافقونني الرأي إذن أن ماسينيي قد كان الرجلَ الأكثرَ إثارةً للإزعاج على وجه الأرض؟

فصاحوا وهم يهتفون:

- موافقون!

فقال جول: - علينا ألا نثبّط همةَ أحد، ولنوافق على استثناءٍ لصالح ### خصوصًا عندما يعرضُ بتفصيلٍ مخططاته السياسية.

فتابع يتمين قائلاً: - سوف توافقونني الرأي حاليًا على أن السيدةَ دوكورسي هي امرأةٌ مرهفةُ العقل. إن كان بينهن من هي كذلك.

ومرت لحظةٌ من الصمت، وكان سان - كلير يخفضُ رأسه، ويتصوّر أن كلَّ العيون كانت تحدّقُ به.

وقال أخيراً، وهو عاكفٌ على صحنه، ويبدو أنه يلاحظُ بكثيرٍ من الفضول الزهور المرسومة على الخزف: ومن يشكُّ بذلك؟

فقال جول وهو يرفع صوته:

- أصرّ على أنها إحدى ألطفِ ثلاث نساء في باريس.

فقال العقيد:

- لقد عرفتُ زوجها، وغالبًا ما أراني رسائلَ ساحرةً من زوجته.

فقاطعه هيكتور روكانتان قائلاً:

- فلتقدّمني إلى الكونتيسة، إذن يا أوغست، يُقالُ إنك ذو حظوةٍ ونفوذٍ لديها.

فهمس سان - كلير:

- في نهاية الخريف، عندما تكون قد رجعت إلى باريس... فأنا... أنا أظن أنها لا تستقبلُ أحداً في الريف.

فهتف تيمين:

«هل تريدُ أن تصغي إليّ».

هيمن الصمت ثانية، وأخذ سان - كلير يتحركُ على كرسيه، باضطرابٍ مثل متهمٍ في محكمةالجنايات.

فتابع ألفونس تيمين بدمٍ باردٍ مزعج:

«أنت لم ترَ الكونتيسة منذ ثلاثة أعوام، وكنت حينذاك في ألمانيا، يا سان - كلير، ولا يمكنك أن تكوّن تصوراً عما كانت عليه حينذاك. لقد كانت جميلةً ونضرةً مثلَ وردة، ومفعمةً بالحيوية خصوصاً، ومرحةً مثل فراشة. وإذن، فهل تعرف من الذي شرّفته بأفضالها من بين العديدين الذين يعبدونها؟ إنه

ماسينيي! إن أغبى الرجال وأكثرهم حمقًا قد فتن أكثر النساء عقلاً مرهفًا. فهل تظنُّ أن رجلاً أحدبَ كان بوسعه أن يصنع ذلك؟ هيا، صدقني، إن المطلوب هو أن تكونَ جميلَ الطلعة، وأن يكون لديك خياط جيدٌ، وأن تكون جسوراً».

كان سان - كلير في وضعٍ فظيع. وكان يهتمُّ بتكذيب محدِّثه تكذيبًا قاطعًا. إلا أن خوفه من أن يعرّضَ سمعة الكونتيسة للخطر منعه من ذلك. كان يودّ أن يتمكن من قول شيء في صالحها، ولكن لسانه قد تجمَّد. وكانت شفتاه ترتعشان من الغضب، وأخذ يبحثُ في ذهنه عن وسيلةٍ ملتوية لإثارةِ شجارٍ ما.

فهتف جول بلهجةٍ تنمُّ عن الدهشة:

«ماذا! السيدة دوكورسي قد منحت نفسها لماسينيي: Frailty, The name is woman[1] فقال سان - كلير بلهجةٍ جافة تنمُّ عن الاحتقار: - إن سمعةَ امرأة ما شيء قليلُ الأهمية! ومن المسموح به أن نمزقها تمزيقًا كي نظهر بعض البراعة في الكلام و...».

وفيما كان يتكلم، تذكر برعب إناءً اترورياً كان قد رآه مئةَ مرةٍ على موقدِ الكونتيسة في باريس. وكان يعلم أنه هديةٌ من ماسينيي، عندما عاد من إيطاليا. فيا له من دليلٍ مفحم! إن ذلك الإناء كان قد نُقل من باريس إلى الريف، وفي كلّ مساء، كانت ماتيلدا تضع باقتها، حين تنزعُها، في الإناء الإتروري!

ربَّ ناقدٍ يقول: يا له من دليلٍ جميل! أن يشكّ المرءُ بعشيقته بسببِ شيءٍ قليل الأهمية!

فهل كنتَ عاشقًا يا سيدي الناقد؟

كان مزاجُ تيمين حسنًا إلى درجةٍ لا يمكن معها أن يغتاظ من اللهجةِ التي استخدمها وهو يكلمه، فأجاب بنبرةٍ تنمّ عن الرقة والطيبة:

---

(١) - الضعف! له اسم المرأة. (م: ز.ع).

«إن كل ما قلته لايتعدى أن يكون ترديداً لما قيلَ في المجتمع الراقي، فقد كان الأمرُ يبدو مؤكداً عندما كنتُ في ألمانيا. زد على ذلك أني أعرف السيدة دوكورسي معرفةً قليلةً، فمنذ ثمانية عشر شهراً، لم أذهب إلى منزلها، ومن الممكن أن أكون قد خدعت، وأن ماسينيي قد حكى لي أكذوبةً. وعندما نعدُّ أن المثال الذي أوردتهُ منذ قليل قد يكونُ خاطئاً، فإن الرجوعَ منه إلى الموضوع الذي يشغلنا لايَعني أني أسيطر عليه سيطرةً أقل بسبب ذلك المثال. أنتم تعلمون أن المرأة الأكثرَ رهافةً عقليةً في فرنسا، والتي تُعدُّ مؤلفاتها. . .».

وانفتح البابُ، فدخل تيودور نيفيل، وكان عائداً من مصر.

تيودور! أرجعتَ بهذه السرعة! لقد أرهقوه بالأسئلة.

وسأله تيمين: هل جلبت بدلة تركية؟ هل لديك حصانٌ عربي؟ وسائس خيلٍ مصري؟

وقال جول: - أيَّ رجلٍ هو الباشا؟ ومتى يصبحُ مستقلاً؟ هل رأيت رأساً يُقطعُ بضربةِ سيف واحدة؟

وقال روكانتان:

- والعالمات؟ وهل النساء جميلات في القاهرة؟

وسأل العقيد بوجو:

- هل رأيت الجنرال ### كيف نظم جيش الباشا؟

- هل أعطاك العقيد ### حساماً لي؟

- والأهرامات؟ وشلالات النّيل؟ وتمثال ممنون؟ وإبراهيم باشا؟ إلخ. . . كان الجميع يتحدثون في آن واحد. أما سان - كلير، فلم يكن يفكر إلا بالإناء الإترووري.

بعد أن جلس تيودور متربعًا، فتلك عادةٌ كان قد اكتسبها في مصر، ولم يقدر على التخلص منها في فرنسا، انتظر حتى يتعب طارحو الأسئلة، وتكلّم كما سيأتي، وبما يكفي من السرعة حتى لايتمكن أحدٌ من مقاطعته بسهولة.

«الأهرامات! وشرفي، هي Regular Humbug[1]. وهي أقلّ ارتفاعًا مما يظنُ. إن المونستر في ستراسبورغ أقل ارتفاعًا منها بأربعة أمتار فقط، أما آثار القدماء، فلا تحدّثوني عنها، لأني قد سئمتها. إن مجردَ النظرِ إلى كتابةٍ هيروغليفية يصيبني بالإغماء، فهناك العديدُ من المسافرين الذين يهتمون بتلك الأشياء. أما أنا، فقد كان هدفي هو دراسة هيئة وأخلاق هؤلاء السكان الغريبين الذين يحثّون الخطى، في شوارع الإسكندرية، والقاهرة، من مثل الأتراك، والبدو، والأقباط، والفلاحين، والمغاربة. وقد سجلتُ بعضَ الملاحظات على عجل، أثناءَ وجودي في المحجر الصحّي. فأيّ خزيٍ كان ذلك المحجرُ الصحي؟ آمل ألا تكونوا ممن يؤمنُ بالعدوى. أنتم أيضًا! أما أنا، فقد دخنتُ غليوني بهدوء، في وسط ثلاثمئة مصابٍ بالطاعون آه! أيها العقيد. يمكنك أن ترى هناك سلاحَ فرسانٍ جميلاً. ولسوف أريك أسلحةً رائعة جلبتها معي، فلدي جريد[2] كان يمتلكه مراد بك الشهير. ولدي، أيها العقيد، سيفٌ محدّبٌ لأجلك، وخنجرٌ لأجل أوغست، ولسوف ترى مشلحي[3]، وبرنسي[3]، وحيكي[3]. وهل تعلم أن الأمر كان منوطًا بي، كي أُحضر بعض النساء معي، فإبراهيم باشا قد أرسل الكثيرات منهن إلى اليونان، وهل تعلمون أنهن لايكلفن شيئًا يذكر... ولكن... بسببِ أمي... ولقد تحدثت كثيراً مع الباشا، فهو رجلٌ مرهفُ العقل، فتبًا لما نظنه! وهو لايحملُ أحكامًا مسبقة. وربما لايمكنك أن تصدق كيف يدركَ أمورنا جيداً. وشرفي. إنه مطلعٌ على أصغر خفايا دولتنا. ولقد استقيتُ من حديثه معلوماتٍ ثمينةً جداً عن

(١) - أي: مهزلةٌ منتظمة (م: ز.ع).
(٢) - جريد: مالجرّده على الأرجح، ولعله السيف(م: ز.ع).
(٣) - أسماء لملابس مشرقية ذات أصول عربية (م: ز.ع).

حال الأحزاب في فرنسا. إنه يهتم كثيراً بالإحصاء في هذا الوقت. وهو مشتركٌ في كلّ صحفنا. وهل تعلمون أنه نصيرٌ متحمس لبُونابرت! وهو لايتكلم إلا عن نابوليون. وكان يقول لي: يا له من رجلٍ عظيم، هذا الرجل: بونابااردو! فهكذا كانوا يدعون بونابرت: بونابااردو.

فهمس تيمين بصوتٍ خفيضٍ جداً:

- جيوردينا معناه: جوردان.

وتابع تيودور قائلاً: لقد كان محمد علي متحفّظًا جداً معي. وأنتم تعلمون أن الأتراك جميعًا شديدو الارتياب. وقد كان يظنّ أني جاسوس، وأن الشيطان هو الذي يأتي بي، أو يظنّني يسوعيًا - فهو يكرهُ اليسوعيين. ولكنه أقرّ، بعدَ عددٍ من الزيارات، أني سائح لايحملُ أحكامًا مسبقةً، وأني شغوف بالتعرف العميق على عاداتٍ وأخلاق، وسياسة الشرق. حينذاك، خرج من تكتّمه، وتحدث معي بقلبٍ مفتوحٍ. وفي مقابلتي الأخيرة، وهي المقابلة الثالثة التي منحني إياها، سمحت لنفسي أن أقول له: «لا أدرك لماذا لا يستقلُّ سموُّك عن الباب[1]» - فقال لي: ياإلهي، إنني أودُّ ذلك حقًا، ولكنّي أخشى ألا تدعمني الصحفُ الليبراليةُ التي تحكم كلّ الأمور في بلادكم، عندما أُعلن استقلال مصر، ذات مرّة. إنه شيخٌ وسيمٌ، ذو لحيةٍ جميلة بيضاء، ولايضحك أبدًا. وقد قدّم لي مربّيات ممتازة ولكن الشيءَ الذي أدخل السّرور على قلبه أكثر من غيره، من بين الأشياء التي قدّمتها إليه كلها، هو مجموعة بزّاتِ الحرس الإمبراطوري للرّسام شارليه.

فسأل تيمين: - هل الباشا رومانسيُّ النزعة؟

- قلّما يهتم بالأدب، ولكنكم لا تجهلون أن الأدبَ العربي رومانسيٌّ النزعة تمامًا، فلدى العرب شاعرٌ اسمه مالك آية النفوس بن اسراف، وقد نشر مؤخّرًا تأمُّلات (ـه) التي تبدو تأملاتُ لامارتين إلى جانبها نثرًا تقليديًا. ولدى وصولي إلى القاهرة، اتخذتُ لنفسي معلمًا للعربية، وشرعت أقرأ القرآن على يديه. ومع

---

(١) - الباب العالي العثماني (أي عن الدولة العثمانية) (م: ز.ع).

أني لم أتلق إلا دروسًا قليلةً، فقد كانت كافيةً لأدركَ ألوانَ الجمال السامية في أسلوبه، ولأعرفَ كم هي رديئة ترجماتُنا له كافةً. خذوا، هل تريدون أن تروا كتابةً عربيةً؟ هذه الكلمة المكتوبة بحروف من ذهب هي ALLAH أي «الله».

كان تيودور، وهو يتحدثُ على هذا النحو، يعرضُ رسالةً جدّ متسخة، وكان قد سحبها من صرةٍ من الحرير المعطر.

وسأله تيمين: - كم من الوقت بقيتَ في مصر؟

- ستة أسابيع.

واستمر المسافرُ يصفُ كلَّ شيء. من الأكبر إلى الأصغر. فخرج سان - كلير حال وصوله تقريبًا. وتابع سيره في طريقِ منزله الريفي. وكان عدوُ حصانه المندفع يمنعه من أن يتابعَ أفكاره بصفاء. غير أنه كان يشعرُ بصورةٍ غامضة أن سعادته في هذا العالم قد هُدِمت إلى الأبد، وأنه لا يسعه إلاّ أن يلقي بمسؤولية ذلك على إنسانٍ ميت، وعلى إناءٍ إترووري.

ما إن وصل إلى منزله، حتى ارتمى على الكنبة التي كان في اليوم السابق قد استعرض عليها تفاصيل سعادته مطولاً، وبتلذذ. إن الفكرةَ التي كان يتعللُ بها بأكثر ما يمكن من الحب هي أن عشيقته لم تكن امرأةً مثل غيرها من النساء، وأنها لم تكن قد أحبّت، ولا يمكنها أبدًا أن تحبَّ أحدًا سواه. أما الآن، فقد أخذ هذا الحلمُ الجميلُ يضمحلُّ على أرض الواقع الكئيب والقاسي، «إني أمتلك امرأةً جميلة، هذا كلُّ شيء. وهي نبيهةٌ، فلذلك يغدو ذنبها أكبر، فقد كانت قادرةً على أن تحبَّ ماسينيي!... صحيحٌ أنها الآن تحبُّني... بكلّ جوارحها... وبقدر ما تستطيعُ أن تحب. ولكن أن أكون محبوبًا مثلما كان ماسينيي!... لقد استسلمت لرعايتي، وللاطفاتي، ولمضايقاتي. غير أني أخطأتُ، فلم يكن هناك تعاطفٌ بين قلبينا. وسواء كان ماسينيي أو أنا، فالأمر بالنسبة إليها متماثل تمامًا. إنه وسيمٌ، وهي تحبُّه لوسامته. وأنا أسلّي السيدةَ أحيانًا «فقالت في نفسها، حسنًا، فلنحبّ سان - كلير، بما أن الآخر قد مات. وإذا ما ماتَ سان - كلير أو أضجرني فلسوف نرى».

اعتقد اعتقاداً راسخًا بأن الشيطان يسترق السمع. وهو غير مرئي إلى جانب تعس يُعذّبُ نفسه بنفسه على ذلك النّحو. إن المشهدُ مسلٍّ بالنسبة لعدو البشر، وحين تحسُّ الضحية بأن جراحها تلتئم، يكون الشيطان موجوداً كي يفتحها من جديد.

ظن سان - كلير أنه يسمعُ صوتًا يهمسُ في أذنيه:

الشرفُ الفريد

في أن تكون الخَلَف...

فنهض على مؤخرته، وألقى حواليه نظرةً شرسة. فما أكبر سعادته لو أنه وجد أحداً في غرفته لكان مزّقه بلا شك.

دقت ساعةُ الجدار ثماني دقات، فالكونتيسة تنتظره في الساعة الثامنة. وقد تمنى أن يفوته الموعدُ! «فلماذا يرى مجدداً عشيقةَ ماسينيي، في حقيقة الأمر؟» وعاد إلى الاضطجاع ثانية على كنبته، وأغلق عينيه، وقال: «أريدُ أن أنام»، وبقي بلا حراك نصف ساعة، ثم قفز واقفاً على قدميه، وهرع إلى ساعةِ الجدار ليرى كم مضى من الوقت. وفكر: كم أودُّ لو أن الساعة هي الثامنة والنصف، فيكون قد تأخر الوقتُ كي أنطلق». ولم يكن يشعرُ في دخيلته أن لديه الشجاعةَ كي يبقى في منزله. وكان يريد أن يجد لنفسه عذراً ما، فيودّ لو كان مريضاً فعلاً. وتجول في الغرفة، ثم جلس. وأخذ كتاباً. ولم يستطع أن يقرأ مقطعاً واحداً، فجلس أمام آلة البيانو، ولم يقو على فتحه. فصفرّ، ونظر إلى الغيوم، وأراد أن يعدَّ أشجار الجوز أمام النافذة. وأخيراً، رجع لينظر إلى ساعة الجدار، فرأى أنه لم يُفلح إلا في تمضية ثلاث دقائق. فهتف، وهو يصرّ بأسنانه، ويخبط بقدمه: ليس باستطاعتي الكفُّ عن حبّها. إنها تسيطرُ علي. وأنا عبدٌ لها، كما كان ماسينيي قبلي! وإذن، فلتخضع أيها التعس، بما أنك لا تملكُ الحزمَ الكافي لتحطيم الأغلال التي تكرهها!». وأخذ قبعته وخرج مسرعاً.

عندما تجرفنا عاطفةٌ معينة، نشعر بمواساة نابعة من حبّ الذات لدينا، وهي تتمثل في تأمُّلنا لضعفنا من أعالي كبريائنا. فيقولُ المرءُ: صحيح أني ضعيفٌ، بيد أني لو كنت أريد!».

كان يصعد بخطًى بطيئة الممرَّ الذي يقودُ إلى باب البستان، وكان يرى من بعيد شكلاً أبيض يبرز على ذلك اللون العاتم الذي تصطبغُ به الأشجار. لقد كانت تحرك منديلها بيدها، وكأنها تؤشر له. وكان قلبه يخفق بعنف، وركبتاه ترتجفان. لم يكن يقوى على الكلام، وغدا شديد الخجل بحيث كان يخشى أن تلاحظ الكونتيسة مزاجه السيّئ على وجهه.

أمسك باليد التي كانت تمدّها إليه، وقبّل جبينها، لأنها ارتمت على صدره، وتبعها حتى شقتها، صامتًا، وكاتمًا بصعوبةٍ تنهداته التي يبدو كأنها لا بدّ أن تُفجرّ صدره.

كانت شمعة واحدة تنير صالونَ الكونتيسة الصغير. فجلس كلاهما. ولاحظ سان - كلير تسريحةَ صديقته، فقد كانت تضعُ وردةً واحدة في شعرها. وفي اليوم السابق، كان قد جلب لها رسمًا إنكليزيًا جميلاً، هو صورةُ الدوقة دوبورتلاند، كما رسمها ليسلي (وهي ترتب شعرها على طريقتها). ولم يكن سان كلير قد قال غير هذه الكلمات: «أفضّل هذه الوردة البسيطة جداً على تسريحاتك المعقدة». لم يكن يحبُّ المجوهرات. وكان يفكر مثل ذلك اللورد الذي كان يقولُ بفظاظة: «قد لايعرف الشيطان شيئًا عن النساء المتبرجات، والخيول المجللة». وفي الليلة الأخيرة، كان يقول، وهو يلعب بعقدٍ من لآلئ الكونتيسة، (فقد كان لابدّ له وهو يتحدثُ عن شيءٍ يضعه بين يديه) كان يقول: «إن المجوهرات لاتصلحُ إلا لإخفاء العيوب. وأنتِ، يا ماتيلدا، أجمل من أن تحتاجي للتزين ببعضها». وفي ذلك المساء، كانت الكونتيسة التي تحفظ حتى كلماته الأكثر إيحاءً بعدم الاهتمام، كانت قد نزعت خواتمها، وعقودها، وحلقاتِ أذنيها، وأساورها - ففي غرفة زينة أيةِ امرأة، كان يلاحظ، قبل كل شيء، حذاءها، وشأنه شأن العديد

من الرجال الآخرين، كانت لديه وساوسه في ذلك الموضوع. وكانت زخةٌ شديدةٌ من المطر قد هطلت قبل غياب الشمس. وكان العشبُ لا يزال مبللاً تماماً. ومع ذلك، فإن الكونتيسة كانت قد سارت على العشب الرطب، وهي ترتدي جوارب حريرية، وحذاءً من الساتان الأسود... فماذا لو أنها مرضت؟

وقال سان - كلير في نفسه: «إنها تحبني».

وتحسر على نفسه، وعلى جنونه، وكان ينظر إلى ماتيلدا وهو يبتسمُ، رغماً عنه، يتجاذبهُ سوءُ مزاجه وسروره لرؤية امرأة جميلة تسعى كي تروق له، من خلال تلك الأشياء التافهة التي يجدُها العاشقون ثمينةً جداً.

أما الكونتيسة، فقد كان محيّاها المتألقُ يعبّر عن مزيجٍ من الحبِ والمكر المرح الذي كان يجعلها محبوبةً أكثر، وأخذت شيئاً من صندوق ياباني مورنق، ومدّت يدها الصغيرة المغلقة، وهي تخفي الشيءَ الذي كانت تمسكهُ فيها. وقالت:

«في ذلك المساء، كسرتُ ساعتك، وها هي الآن وقد أصلحتُها».

وأعادت إليه الساعة، وأخذت تنظرُ إليه، بهيئةٍ رقيقة ومتشيطنة في آن، وهي تعض شفتها السفلى، وكأنها تمنعُ نفسها من الضحك. ياالله! كم كانت أسنانها جميلة! وما أشدَّ التماع بياضها فوق لون شفتيها الوردي كالجمر! (يبدو الرجلُ أحمق تماماً، حين يستقبلُ ببرودٍ مداعبات امرأةٍ جميلة).

شكرها سان - كلير، وأخذ الساعةَ، وهمَّ بأن يضعها في جيبه، فتابعت قائلة:

«فلتنظر إليها إذن، افتحها، ولترَ إن كانت قد أُصلحت بشكلٍ جيد. فأنت تمتلك الكثيرَ من المعرفة، وقد كنتَ في مدرسة البوليتكنيك، فلا بدّ أن تلاحظ ذلك.

فقال سان - كلير (أوه! إني قليل الخبرة في هذا).

ما أكبر ما كانت دهشته، عندما فتح علبةَ الساعة بلا انتباه! كانت صورةُ السيدة دوكورسي المصغرة مرسومة على قعر العلبة. فهل بقيت لديه ذريعةٌ يحردُ

بسببها؟ لقد انبسط جبينه، ولم يعد يفكر بماسينيي، وتذكر فقط أنه كان بقربِ امرأة فاتنةٍ، وأن تلك المرأة تعبُده.

. . . .

«القبَّرة، تلك المبشرة بالفجر» كانت قد بدأت تغني، وكانت حزمٌ من النور الباهت تشقّ الغيوم من الشرق. وفي ذلك الوقت، ودّع روميو جولييت، إنها الساعةُ التقليدية التي ينبغي لكل العشاق أن يفترقوا فيها.

كان سان - كلير واقفًا أمام موقد، ومفتاح البستان في يده، وعيناه تحدّقان باهتمام بالإناء الإتروري الذي تحدّثنا عنه، ففي دخيلته، كان لا يزال يحملُ لها الضغينة. ومع ذلك، فقد كان مزاجه جيدًا، والفكرةُ البسيطة، فكرةُ أن تيمين يمكن أن يكون قد كذب بدأت تحضرُ في ذهنه وفيما كانت الكونتيسة، التي أرادت أن ترافقه حتى باب البستان، تلفُّ رأسها بشال، كان يطرقُ بمفتاحه طرقًا خفيفًا على الإناء البغيض، وأخذ يزيدُ تدريجيًا من قوةِ ضرباته إلى حدٍّ يوحي بأنه سيجعله يتطايرُ قطعًا بعد قليل.

هتفت ماتيلدا: أه! يا إلهي! احترس! سوف تكسرُ إنائي الإتروري الجميل».

وانتزعت المفتاح من يديه.

كان سان - كلير مستاءً جدًا، ولكنه امتثلَ للأمر، فأدار ظهره للموقد كي لايقع في الامتحان. وفتح ساعته، وأخذ يتأمل الصورةَ التي تلقاها منذ قليل.

وسأل: من هو رسامُ هذه الصورة؟

- إنه م. ر. . . وماسينيي هو الذي عرفني به (فماسينيي كان قد اكتشف أن لديه ميلاً مرهفًا إلى الفنون الجميلة، منذ رحلته إلى روما، وجعل من نفسه راعيًا لكل الفنانين الشبان). إني أجدُ فعلاً أن هذه الصورة تشبهني، مع أنها محسنةٌ قليلاً.

كان سان - كلير يرغبُ في أن يلقي بالساعة إلى الجدار، وهذا ما كان يمكن أن يجعلَ إصلاحها صعبًا جداً. و مع ذلك، فقد تماسك، وأعادها إلى جيبه، ثم خرج من المنزل. إذ لاحظ أن النهار قد طلع، ورجا ماتيلدا ألا ترافقه، واجتاز البستان بخطًى واسعة، . وما هي إلا لحظة حتى كان وحده في الريف.

وهتف بغضب كامن: ماسينيي! ماسينيي! هل سألتقيك إذن باستمرار! . . . لاشكّ أن الرسام الذي صنع هذه الصورة قد صنع واحدةً أخرى لماسينيي. . . كم كنت أبله! لقد أمكنني الظنُّ للحظة من الزمن بأني محبوبٌ بحبٍّ يعادلُ حبي. . . وهذا لأنها تتزين بوردة، ولا تلبس الحليَ مع أن لديها ما يملأ مكتبًا بالمجوهرات. . . أجل، إن لها طباعًا حسنةً، ولا بدّ من الموافقة على ذلك، وهي تعرفُ كيف تنسجم مع ميول عشاقها. تبًّا لكلّ هذا! أفضلُ لو أنها كانت عاهرةً، وتهبُ نفسها مقابلَ المال. فيمكنني، على الأقل، أن أصدقَ حبها لي، بما أنها عشيقتي ولا أدفع لها نقوداً.

وأتت سريعًا فكرةٌ أكثر تكديراً أيضًا لتخطر في ذهنه. فبعد بضعة أسابيع، ينتهي حدادُ الكونتيسة. وكانَ من المفروض أن يتزوجها سان - كلير، حالما تنتهي سنةُ ترمُّلها.

كان قد وعد بذلك، وعد؟ إنه لم يتحدث عن هذا الأمر قط. ولكن تلك كانت نيته، وقد فهمته الكونتيسة. وبالنسبة إليه، كان ذلك يعادلُ قسمًا. وفي اليوم السابق، كان يمكنه أن يعطي عرشًا مقابلَ تسريع اللحظة التي يقدر فيها أن يُصرِّح علنًا بحبه، والآن، أصبح يرتعش لمجرد فكرةِ ربطِ مصيره بعشيقة ماسينيي السابقة.

كان يقول في نفسه: ومع ذلك «يجب علي أن أفعل ذلك». وهذا ماسيكون، فلقد ظنَّت، بلا شك، ويا لها من امرأة مسكينة، أني كنت أعرفُ مغامرتها الغرامية الماضية. وهم يقولون إن الأمر كان مُعلنًا. ثم أنها لا تعرفني، من ناحية أخرى . . . لايمكنها أن تفهمني. وهي تظنُّ أني أحبها مثلما كان ماسينيي يحبها.

حينذاك، قال في نفسه من غير كبرياء:

«لقد جعلتني، خلال ثلاثة أشهر، أسعدَ الرجال، وهذه السعادةُ تعادلُ التضحية بحياتي كلها».

لم يأوِ إلى فراشه، وتجوّل على جواده في الغابة، أثناء مدّة الصباح بكاملها. وفي أحد ممرات غابة فيريير، رأى رجلاً يمتطي حصانًا جميلاً إنكليزيًا، ناداه من مسافةٍ بعيدة جداً باسمه، ودنا منه في الحال. لقد كان هذا الرجل هو ألفونس دوتيمين. إن الوحدةَ مريحةٌ خصوصاً في الحالة الذهنية التي كان سان - كلير يجدُ نفسه فيها. وكذلك، فإن لقاءه بتيمين قد بدّل مزاجه السيّئ إلى غضبٍ مكتوم. ولم يكن تيمين يلاحظُ ذلك. أو أنه كان يتلذذ تلذّذًا خبيثًا بمضايقته. كان يتكلم، ويضحكُ، ويمزحُ، دون أن يلحظ أن سان - كلير لم يكن يردّ عليه. وحين رأى سان - كلير ممراً ضيقًا، أدخل إليه حصانه في الحال، آملاً ألا يتبعه فيه المتطفلُ. غير أنه كان مخطئًا، فالمتطفلُ لا يترك طريدته بسهولة. فرجع تيمين على أعقابه، وأوسع خطاه كي يحاذي سان - كلير، ويتابعَ الحديث بصورةٍ أسهل.

قلت إن الممرّ كان ضيقًا، وكان باستطاعة الجوادين أن يسيرا معًا متجاورين بكل صعوبة. وكذلك، فليس من المستغرب أن يمسَّ تيمين قدمَ سان - كلير، حين يمرُّ بجانبه، مع أنه خيّالٌ ماهرٌ جداً. أما سان - كلير، الذي كان غضبه قد وصل إلى مرحلته الأخيرة، فلم يستطع أن يضبطَ نفسه أكثر، فنهض على ركابه، وضرب بخيزرانته أنفَ حصان تيمين بقوة.

فصرخ تيمين: ماذا أصابك يا أوغست، بحق الشيطان، لماذا تضربُ حصاني؟

فأجاب سان - كلير بصوتٍ مخيف: ولماذا تتبعني؟

- هل فقدتَ رشدك، ياسان كلير، وهل نسيتَ أنك تكلمني؟

- أعلمُ جيداً أني أتكلم مع مغرور.

- سان كلير... أنت مجنون، كما أظنّ... اصغ: غداً تقدم لي اعتذاراتك، أو تبرر لي وقاحتك.

- إلى الغد، إذن، أيها السيد.

أوقف تيمين حصانه، أما سان - كلير فقد حثَّ حصانه، وسرعان ماتوارى في الغابة.

في تلك اللحظة، شعر بأنه قد هدأ أكثر. كانت لديه نقطةُ ضعفٍ هي الإيمان بالإحساسات المسبقة. وكان يعتقدُ أنه سيقتل في اليوم التالي. وإذن، فقد كان ذلك الإحساس خاتمةً جاهزةً لوضعه، فلم يزل لديه يومٌ يمضيه. وفي اليوم التالي، لن يبقى عنده قلق، ولاعذاب. فرجع إلى منزله، وأرسل خادمه، وحمّله بطاقةً إلى العقيد بوجو، وكتب بضع رسائل، ثم تناول العشاءَ بشهيةٍ جيدة. وكان في الساعة الثامنة والنصف بالضبط موجوداً أمام البستان الصغير.

. . . .

قالت الكونتيسة: «ماذا بك اليوم يا أوغست؟ إنك مرحٌ مرحًا غريبًا، ومع ذلك، لاتستطيع أن تضحكني برغم مزاحاتك كلها. وبالأمس، كنت عابسًا قليلاً، وكنت أنا مرحة جداً! أما اليوم، فقد غيرنا أدوارنا - فأنا أحسُّ بدوارٍ فظيع.

- يا صديقتي الجميلة! إني أقرّ بذلك، أجل، فقد كنتُ بالأمس مثيرًا للضجر حقًّا. أما اليوم، فقد تنزهت، وقمت بتمرينات، وصحتي رائعة.

- أما أنا، فقد نهضتُ متأخرة، ونمت طويلاً هذا الصباح، وحلمتُ أحلامًا مزعجة.

- أه! أحلام؟ هل تؤمنين بالأحلام؟

- أي جنون!

- أما أنا، فأؤمن بها، وأراهن أنك قد حلمت حلمًا يعلن عن حادثٍ مأسوي.

- يا إلهي، أبدًا، أنا لا أتذكر أحلامي، ومع ذلك، فأنا أتذكر . . . ففي حلمي، رأيتُ ماسينيي. وهكذا ترى أنه لم يكن هناك شيءٌ مسلٍ.

- ماسينيي؟ كنت أظن، على العكس، أنه كان يمكن أن تُسرّي كثيراً برؤيته ثانية!

- يا للمسكين ماسينيي!

- يا للمسكين ماسينيي؟

- قل لي، يا أوغست، أرجوك، ماذا حدث لك هذا المساء، ففي ابتسامتك شيءٌ شيطاني، يبدو كأنك تسخرُ من نفسك.

- آه! ها أنت تعاملينني معاملةً سيئة مثلما تعاملني صديقاتُك، وارثاتُ الصّداق العجائز[1].

- أجل، يا أوغست، إن وجهك اليوم يشبهُ الوجهَ الذي تقابلُ به الناس الذين لاتحبهم.

- أيتها الشريرة، هيا، أعطني يدك.

وقبّل يدها بملاطفةٍ ساخرة، وحدّق كلٌّ بالآخر لدقيقةٍ من الزمن. فخفض سان - كلير عينيه أولاً، وهتف:

- كم يصعبُ على المرء أن يعيشَ في هذا العالم، دون أن يبدو شريراً، ومن المفروض ألا يتكلم المرءُ قط عن أيّ شيء باستثناء الطقس والصيد. أو أن يناقش مع صديقاتك العجائز موازنة لجانهم الخيرية.

وأخذ ورقةً من على الطاولة:

- خذي، هذا هو بيانُ حسابِ مبيِّضةِ مجوهراتك. فلنتحدث عن هذا، ياملاكي! وبهذا الشكل، لن تقولي إني شرير.

- في الحقيقة، يا أوغست، إنك تدهشني . . .

(١) - النساء العجائز اللواتي ورثن أزواجهن الأثرياء (م: ز.ع).

- هذه الكتابة تجعلني أفكر برسالةٍ وجدتها هذا الصباح. ويجب أن أقول لك إني رتبت أوراقي، فأنا أنظّم أموري من حينٍ لآخر. وهكذا إذن فقد عثرتُ على رسالة حبٍّ كتبتها لي خياطةٌ كنت مغرمًا بها، عندما كنت في السادسة عشرة من عمري. إن لديها طريقةً خاصة لكتابة كلِّ كلمة. وهي أكثرُ الطرق تعقيدًا دومًا. أما أسلوبها فيليقُ بكتابتها. وهكذا، فبما أني كنتُ مغرورًا بعض الشيء، وجدتُ أنه لايجدرُ بي ألا تكون لي عشيقةٌ تكتبُ مثل سيفينييه[1] فتركتها فورًا. واليوم، وحين أعدتُ قراءةَ تلك الرسالة، أقررتُ بأن هذه الخياطة كانت تحملُ لي حبًّا حقيقيًّا.

- حسنًا! إنها امرأةٌ كنتَ تُعيلها؟...

- بصورة رائعة جداً: بخمسين فرنكًا في الشهر، فالذي كان وصيًّا علي لم يكن يقدّمَ لي نفقة جيدة، لقد كان يقولُ إن الفتى الذي يمتلك النقود يضِلُّ، ويُضِلُّ الآخرين.

- وتلك المرأة، ماذا حدث لها؟

- ماذا يُدريني؟... ربما تكون قد ماتت في أحد المشافي.

- أوغست... لو كان الأمرُ صحيحًا، لما كان لديك هذا المظهرُ غير المكترث.

- إن كان لابدّ من قول الحقيقة، فقد تزوجت برجلٍ شريف، وعندما تحررتُ من الوصاية، أعطيتها مهرًا صغيرًا.

- كم أنت طيب!... ولكن لماذا تريد أن تبدو شريرًا؟

- أوه! أنا طيب جداً... وكلما فكرت بذلك أكثر، كلما اقتنعت أكثر بأن تلك المرأة كانت تحبني فعلاً... ولكني حينذاك، لم أكن أعرف كيف أميز شعورًا حقيقيًّا تحت شكلٍ مثير للضحك.

---

(١) - مدام دوسيفينييه: أديبة وكاتبة رسائل فرنسية شهيرة (١٦٢٦ - ١٦٩٦). (م: ز.ع).

- كان من المفروض بك أن تجلب لي رسالتك. فلا أكون غيورةً. . . نحن النساء نمتلك رهافة في الذوق أكثر منكم. ونلاحظ فوراً، بناءً على أسلوب رسالةٍ ما، إن كان كاتبها صادقَ النية، أو كان يتظاهر بعاطفةٍ لا يحسُّ بها.

- ومع ذلك، فكم مرة تدعن أنفسكن عرضةً لخداع الحمقى أو المغرورين!

وكان ينظر إلى الإناء الإترووري وهو يتكلم، وكان في عينيه، وفي صوته، تعبيرٌ كئيبٌ لم تلاحظه ماتيلدا.

«هيا إذن! أنتم الرجال تريدون جميعًا أن تظهروا فاتني نساء. وأنتم تتصورون أنكم تصنعون نساء مخدوعات، فيما لا تجدون غالبًا سوى فاتنات للرجال أكثر مكرًا منكم أيضًا.

- أتصوّر أنكن، أيتها السيدات تشعرن بما لديكن من فكرٍ متفوقٍ بوجود رجلٍ أحمق، من مسافة فرسخ. وهكذا، فأنا لا أشكّ بأن صديقك ماسينيي، الذي كان أحمق ومغروراً، لم يمت طاهراً وشهيداً. . .

- ماسينيي؟ ولكنه لم يكن مفرط الحمق. ثم أن هناك نساءً حمقاوات. وينبغي أن أروي لك قصةً عن ماسينيي. . . ولكن، ألم أروها لك من قبل، قل لي؟

«فأجاب سان - كلير بصوتٍ مرتجف - أبدًا».

- عندما رجع ماسينيي من إيطاليا، أصبحَ مغرمًا بي، وكان زوجي يعرفه، فقدمه إليّ كرجلٍ مرهف الفكر والذوق. وقد كان كلٌّ منهما مناسبًا للآخر. وكان ماسينيي في البداية مثابراً جداً على زيارتنا. وكان يعطيني لوحاتٍ مائيةً يشتريها من عند شروت، على أنها لوحات من إبداعه، ويحدثني عن الموسيقا، والرسم بلهجةٍ متفوقة تجلبُ التسلية حقًّا. وذات يوم أرسل لي رسالة لا تُصدَّق. وكان يقول لي، من بين أشياء أخرى، إنني أكثر نساء باريس عفةً، ولهذا، فقد كان يريدُ أن يكون

عشيقي. فأطلعت ابنة عمي جوليا على الرسالة، وكنا آنذاك طائشتين، وعزمنا أن نلعب عليه لعبةً خبيثةً. وذات مساء، كان عندنا بعضُ الزائرين، وكان ماسينيي من بينهم. فقالت لي ابنة عمي: «سأقرأ لك بوحًا بالحب استلمته هذا الصباح». وها هي تأخذ الرسالة، وتقرؤها في وسط القهقهات... ويا لماسينيي المسكين. سقط سان - كلير على ركبتيه، وهو يُطلقُ صرخةَ فرح، وأمسك يد الكونتيسة وغمرها بالقبلات والدموع. وكانت ماتيلدا مدهوشةً إلى أبعدِ حدّ، وظنت أولاً أنه قد أُغمي عليه. ولم يكن سان - كلير يستطيع أن يقول إلا هذه الكلمات: «سامحيني! سامحيني!» وأخيراً، نهض، وكان وجههُ مشرقًا. وفي تلك اللحظة، كان أكثر سعادةً من ذلك اليوم الذي قالت له فيه ماتيلدا: «أحبك».

«وهتف: أنا أكثرُ الرجال جنونًا، وأعظمهُم ذنبًا، فمنذ يومين، كنت أشك بكِ... ولم أبحث عن إيضاحٍ منك.

- كنت تشكُّ بي!... وبأيّ شيء؟

- أوه! إني تعس!... قيل لي إنك كنتِ تحبين ماسينيي، و...

- ماسينيي؟ وأخذت تضحك، ثم استعادت جديتها حالاً، وقالت:

هل يمكنك أن تكون مجنونًا إلى الدرجة التي تجعلك تحمل شكوكًا كهذه، ويصلُ بك النفاقُ إلى الدرجة التي تجعلك تخفيها عني؟

وكانت دمعةٌ تتدحرجُ في عينيه، وهو يقول:

«أتوسل إليكِ أن تسامحيني».

- وكيف لا أسامحك، ياصديقي العزيز؟... ولكن دعني أقسمُ لك أولاً...

- أوه! إني أصدقكِ، إني أصدقك، لا تقولي شيئًا.

- ولكن، بحق السماء، أيُّ دافعٍ كان من شأنه أن يجعلك تشكُّ بأمرٍ غير ممكن كذلك الأمر؟

- لا شيء، لا شيء إطلاقًا سوى طبعي السيّئ. . . و. . . هل ترين، هذا الإناء الإتروري، كنتُ أعلمُ أن ماسينيي هو الذي أهداك إياه. . .

وضمت الكونتيسة يديها بهيئةٍ تنم عن الدهشة، ثم هتفت، وهي تقهقهُ:

«إنائي الإتروري! إنائي الإتروري!».

ولم يستطع سان - كلير ذاته أن يمتنع عن الضحك. ومع ذلك، فقد كانت دمعتان كبيرتان تسيلان على طول وجنتيه، وأخذ ماتيلدا بين ذراعيه، وقال لها:

«لن أفلتك إلا إذا سامحتني».

فقالت وهي تعانقه بحنان - أجل، إني أسامحك، فما أنت سوى مجنون، إنك تجعلني سعيدةً حقًّا هذا اليوم، فهذه هي المرةُ الأولى التي أراك فيها تبكي، وكنت أظن أنك لا تبكي.

ثم أمسكت بالإناء الإتروري، وهي تتملص من بين ذراعيه، وحطمته إلى ألف قطعة على الأرضية الخشبية. (وكان قطعةً نادرة وأصلية، وكانت تُرى معركةُ لابيتَ ضد السانتور مرسومةً عليه بثلاثة ألوان).

وكان سان - كلير لبضع ساعات، أكثرَ الرجال إحساسًا بالخجل، وأكثرهم سعادةً.

. . . .

قال روكانتان للعقيد بوجو الذي التقاه ذات مساء في منزل تورتوني:

- حسنًا، فالخبرُ إذن صحيح؟

فأجاب العقيد بلهجةٍ حزينة:

- صحيح أكثر من اللازم.

- اروِ لي كيف حدث ذلك إذن.

- أوه! حسنًا جداً. لقد بدأ سان - كلير يقول لي إنه أخطأ، إنما كان يريد أن يتعرض لنار تيمين، قبل أن يقدم إليه اعتذاراته. ولم يكن بإمكاني إلا الموافقة على رأيه. وكان تيمين يريد أن تُقرر القرعة من سيطلقُ النار أولاً، وطلب سان - كلير بإصرار أن يكون تيمين هو الأول، فأطلق تيمين النار، ورأيتُ سان - كلير، وهو يدور دورةً على نفسه، ويسقط جثةً هامدة. وكنتُ قد لاحظتُ، لدى العديد من الجنود الذين يصابون بطلقات نارية، ذلك الدورانَ الغريب الذي يسبقُ الموت.

قال روكانتان: - هذا أمرٌ غير اعتيادي، على الإطلاق. وتيمين ماذا فعل؟

- أوه! ما ينبغي فعله في مناسبةٍ مماثلة. رمى مسدسه على الأرض بهيئة تنمّ عن الأسف. لقد رماه بشدةٍ بحيث كسر ديكه، فهو مسدس إنكليزي من مانتون. ولا أدري إن كان سيجد في باريس صانع أسلحة يقدر على أن يصنع له مجدّداً مسدسًا آخر.

. . . .

ظلت الكونتيسة ثلاثة أعوام كاملة منعزلةً، لا ترى أحدًا، في الصيف، كما في الشتاء. لقد أقامت في منزلها الريفي، لا تكاد تخرج من غرفتها، وتقوم على خدمتها خلاسيةٌ كانت تعرفُ علاقتها بسان - كلير. ولم تكن الكونتيسة تقول لها كلمتين في اليوم. وبعد مضي ثلاثة أعوام، رجعت ابنةُ عمها جوليا من رحلة طويلة، فكسرت الباب، ووجدت ماتيلدا المسكينة نحيلةً جداً، وشديدةً الشحوب، بحيث ظنت أنها ترى جثةَ تلك المرأة التي تركتها جميلة، ومفعمة بالحياة. وتوصلت بمشقة إلى إخراجها من عزلتها، ومن اصطحابها إلى هيّير. فعاشت هناك حياةً ذاويةً، ثلاثة أو أربعة أشهر أيضًا، ثم ماتت من مرضٍ صدري سببته ألوانٌ من الاكتئاب المنزلي، كما يقول الدكتور م. . . الذي عُني بها.

١٨٣٠

- ٧ -

مباراة النّرد

كانت الأشرعةُ التي لا تتحركُ تتدلّى ملتصقةً بالصواري، وكان البحرُ صقيلاً مثل قطعةٍ من الجليد وكانت الحرارةُ خانقةً، والسكينةُ مزعجةً.

إن وسائلَ التسلية التي يمكن أن يُقدّمها، في رحلة بحرية، مضيفو أحدِ المراكب سرعان ما تنفد. إن الناسَ يصبحون متعارفين إلى حدٍّ مفرط، للأسف! حين يكونون قد أمضوا معًا أربعةَ أشهر، في بيتٍ خشبي، طولهُ مئة وثلاثون قدمًا. وحين تلاحظُ قدومَ النقيب البحري تعلمُ منذ البداية أنه سيحدثك عن ريو دوجانيرو التي وُلد فيها، ثم عن جسرِ إيسلنغ الشهير والذي شهد إنشاءه على يدِ بحارةِ الحرس الذين كان في عدادهم. وبعد مرورِ خمسة عشر يومًا، سوف تعرف حتى العبارات التي يؤثرها، وحتى لحظاتِ الوقفِ في جمله، من خلال نغمياتِ صوته المختلفة. وإذا ما فاته يومًا أن يتوقف بأسى، بعد أن يتلفظ للمرة الأولى في قصته عند هذه الكلمة: «الامبراطور». . . فهو يضيف بلا تغيير «لو كنتَ قد رأيته حينذاك!!!» وكذلك حادثة نافخ البوق، والقذيفة التي تنبو، وتحملُ معها جُعبةً فيها ما يعادلُ سبعةَ آلاف وخمسمئة فرنكٍ من الذهب، ومن المجوهرات إلخ. إلخ!

- إن النقيب البحريّ سياسيٌ كبير، فهو يحلل كلّ يوم آخر عددٍ من أعداد «الدستوري» التي جلبها معه من برست، وإذا ما ترك منازلَ السياسة السامية لينزلَ إلى الأدب، فلسوف يمتّعك بتحليل آخر مسرحية هزلية خفيفة (فودفيل) حضرها. أيها الربّ العظيم!. . . كان لدى مفوض البحرية قصةٌ مثيرةٌ حقًّا للاهتمام وكم كان وقع قصة هروبه من زورق تجسير قادش ساحرًا، حين رواها لنا للمرّة الأولى! ولكنّا، لم نعد نستطيع احتمالها، في الواقع، بعد أن كرّرها للمرّة العشرين. . .

وملازمو البحرية، والمرشحون! . . . إن ذكرى أحاديثهم تجعلني أقشعر. أما القبطان، فهو عموماً أقلّ مسافري المركب إثارةً للضجر، وبصفته قائداً مطلق التصرف، فهو يلفى نفسه في حالة عداء خفيٍّ مع كلّ أركانه. إنه يغيظُ، ويضطهدُ أحيانًا، إلا أن هناك بعضَ المتعة في أن يرغي المرءُ ويزبد ضده. ولئن كان لديه هوسٌ معين لجعل مرؤوسيه يستاؤون منه، فهم يستمتعون برؤيةِ رئيسهم مثيراً للسخرية، وهذا ما يخففُ عنهم قليلاً.

كان الضباطُ على ظهر المركب الذي أبحرتُ فيه هم أكثرُ الناس طيبةً. إنهم جميعًا عفاريت مازحون، وهم متحابونّ كأخوة، ولكنهم يتسابقون على إزعاجِ بعضهم بعضًا.

أما القبطانُ، فقد كان ألطفَ إنسان، ولا يزعج أحداً (وهذا أمرٌ نادر). وكان يُشعِرُ الآخرين بسلطته الاستبدادية مكرهًا دومًا. ومع ذلك، فكم كانت تلك الرحلةُ تبدو لي طويلة! وخصوصًا ذلك السكون الذي لفّنا قبل أن نرى الأرضَ ببضعةِ أيام فقط.

وذات يوم، بعد العشاء الذي جعلنا التعطل عن العمل نستمر فيه أطولَ وقتٍ ممكنٍ إنسانيًّا. كنا مجتمعين كلنا على ظهر المركب، وننتظرُ المشهدَ الرتيبَ، ولكنْ الجليلَ دائماً، مشهدَ غياب الشمس في البحر. كان البعضُ يدخّنون، والبعضُ الآخر يعيدون قراءة المجلّدات الثلاثين، مجلدات مكتبتنا المسكينة للمرة العشرين. كان الجميعُ يتثاءبون حتى الدموع، وكان ضابطٌ بحريٌّ جالسٌ بجانبي يتسلّى، وبكل الرزانة التي يستحقها اهتمامٌ جدّي، بإسقاط خنجرٍ يحمله ضباطُ البحرية عادةً على زيهم اليومي، بإسقاطه ورأسه إلى الأسفل، على أرضية ظهر السفينة. وهذه تسليةٌ مثل أية تسليةٍ أخرى، وتتطلب مهارةً معينة كي ينغرز رأسُ الخنجر بصورةٍ عمودية تمامًا في الخشب. وإذ رغبتُ في أن أفعل كالضابط البحري، ولم يكن لديّ خنجر، فقد أردت أن أستعيرَ خنجر القبطان، ولكنه رفض، فقد كان يتمسّك بذلك السلاح خصوصًا. وحتى أنه كان مستاءً ربما، حين رآه يُستخدم في

تسليةً على تلك الدرجة من التفاهة. وفيما مضى، كان ذلك الخنجر ملكًا لضابطٍ جسورٍ كان قد مات لسوء الحظ في الحرب الأخيرة... وقد توقّعتُ أن قصةً سوف تروى بعد ذلك، ولم أخطئ التقدير، فقد بدأ القبطانُ قصته دون أن يتمنّع، أما الضباط الذين كانوا يحيطون بنا، فبما أن كلاً منهم يعرفُ عن ظهرِ قلب صروفَ الدهر التي أصابت الملازم البحري روجيه. فقد انسحبوا انسحابًا حذرًا في الحال. وإليكم تقريبًا القصةَ التي رواها القبطان: عندما عرفت روجيه، كان أكبر مني بثلاثة أعوام، فقد كان ملازمًا أولاً، وكنتُ ملازمًا. وأؤكد لكم أنه كان من أفضلِ ضباط قطعتنا، إضافة إلى أن له قلبًا ساميًا، ورهافةَ فكرٍ، وكان متعلّمًا، ولديه مواهب. لقد كان، بكلمةٍ واحدة، فتى ساحرًا. ولسوء الحظ، فقد كان معتدًا بنفسه قليلاً، وسريع التأثُّر. وهذا ما يرجعُ، حسب اعتقادي، إلى أنه كان ابنًا غير شرعيّ، ويخشى أن يُفقده مولده مكانته بين الناس. إلاّ أن أكبرَ نقيصةٍ من بين كلّ نقائصه كانت، والحقُّ يقال، تلك الرغبة العنيفة والمستمرة عنده كي يتصدر، في كل مكان يجد نفسه فيه. وكان والده، الذي لم يره قط، يقدم له نفقةً كان يمكن أن تكون كافيةً أكثر بكثير لاحتياجاته، لو لم يكن روجيه هو الأريحيّة ذاتها، فكلُّ ما كان يمتلكه كان لأصدقائه. وعندما يقبضُ مخصّصاته ثلث السنوية، كان الفائز بين هؤلاء الأصدقاء هو من يذهب لمقابلته بوجهٍ حزين ومغتمّ. وكان روجيه يسأله: «حسنًا، يارفيق، يبدو لي أنك لا تستطيع أن تُحدثَ صوتًا كبيرًا، عندما تضرب على جيوبك. هيا، هذا هو كيس نقودي، فخذ منه ما يلزمك، وتعال لنتناول العشاء معًا.

وأتت إلى بريست ممثلةٌ شابة على حظٍّ وافرٍ من الجمال، اسمهُا غابرييلا، ولم تلبث أن استمالت قلوبَ البحارة، وضباط الموقع العسكري. إنها لم تكن ذات جمال متناسق، ولكنها كانت رشيقةَ القوام، وذات عينين جميلتين، وقدمين صغيرتين، ومظهرٍ سفيه إلى حدٍّ ما. وهذه أمورٌ جدُّ مستحبة، حين يكونُ المرء في عمرٍ يتراوحُ بين العشرين والخمس والعشرين سنة. وكان يقال عنها، فضلاً عن ذلك، إنها أكثر مخلوقةٍ تقلبًا في أطوارها بين بنات جنسها. وكانت طريقتها في

التمثيل لا تتناقضُ مع ما اشتهر عنها من تقلب، فقد كانت تمثلُ بصورةٍ رائعة أحيانًا حتى ليقال إنها ممثلةٌ من الطراز الأول. وفي اليوم التالي، وفي المسرحية نفسها، تبدو باردةً، وجامدة العاطفة، وتلقي دورها مثلما يستظهرُ طفلُ تعاليمه الدينية. أما الذي كان يسترعي اهتمام فتياننا خصوصًا، فهو تلك القصة التي كانت تروى عنها، وهي التالية: فيبدو أنها كانت تعيش حياةً مرفهةً جداً في باريس، على نفقة أحد الشيوخ، وكان مفرطًا في تبذيرِ أمواله من أجلها، كما يقال. وذات يوم، وإذ كان ذلك الرجل في منزلها، ظل معتمراً قبعته، فرجته أن ينزعها، وتذمّرت حتى من عدمِ احترامه لها. فقد أخذ الشيخ يضحك، ورفع كتفيه، وقال وهو يستريح في جلسته، داخل كنبة: «إن أقل شيء ممكنٍ حقًّا هو أن أكون مرتاحًا في منزل فتاة أُنفقُ عليها» وقد جعلته صفعةٌ قويةٌ جديرةٌ بحمّال، وصادرةٌ عن يد غابرييلا البيضاء، جعلته يدفع ثمن إجابته، وألقت بقبعته إلى الطرف الآخر من الغرفة. وهنا حدثت القطيعة التامة، وكان مصرفيون، وعمداء، قد قدّموا عروضًا ضخمة إلى السيدة، ولكنها رفضتها جميعًا، وأصبحت ممثلةً كي تعيش حياةً مستقلة، كما كانت تقول.

وعندما رآها روجيه، وعلم بالقصة، رأى أنها امرأةٌ تناسبه، وإليكم كيف تصرَّفَ حيالها ليظهر لها كم هو متأثرٌ بمفاتنها. وذلك بالصراحة الفظة بعض الشيء والتي يأخذونها علينا نحن البحّارة، فلقد اشترى أجملَ الزهور التي استطاع أن يجدها في برست، وأكثرها ندرةً، وصنع منها باقةً ربطها بشريطٍ ورديٍّ جميل، ورتّب في العقدة، وبصورةٍ مناسبة جداً، لفيفةً من خمس وعشرين نابوليونيّة[1]. وكان ذلك كلّ ما يمتلكه في تلك اللحظة، وأتذكر أني رافقته إلى مؤخرِ المسرح، في الاستراحة ما بين فصلين. فامتدح امتداحًا مقتضبًا الأناقةَ التي كانت غابرييلا ترتدي بها طقمها، وقدم لها الباقةَ، واستأذنها بالذهاب لرؤيتها في منزلها. وقد قيل كل هذا بثلاث كلمات.

طالمَا أن غابرييلا لم ترَ إلا الزهور، والفتى الوسيم الذي كان يقدّمها لها، فقد كانت تبتسمُ له وترفقُ ابتسامتها بانحناءٍ هو من أكثر الانحناءاتِ لطافةً، ولكنها حين

(١) - عملة فرنسية ذهبية من عشرين فرنكًا، عليها رسم نابوليون الأول أو الثالث. (م: ز. ع).

وضعت الباقة بين يديها، وأحست بوزن الذهب، تغيرت ملامحها على نحوٍ أسرع مما يتغير به سطحُ البحر الذي يهيّجه إعصارٌ مداري. ولاشك أنها نادراً ما كانت أقلّ فظاظةً، فقد ألقت بكل قوتها الباقةَ والنابوليونيات على رأس صديقي المسكين الذي حمل آثار ذلك على وجهه، خلال أكثر من ثمانية أيام، وسمع جرس قُيّم المسرح، فدخلت غابرييلا إلى المسرح، ومثّلت بصورةٍ رديئة.

أما روجيه، فبعد أن التقط باقته، ولفيفته الذهبية بارتباكٍ كبير، فقد مضى إلى المقهى ليقدم الباقةَ (من غير النقود) إلى الآنسة التي تعملُ خلف المبسط، وحاول، وهو يشرب كأس البونش، أن ينسى المرأةَ القاسيةَ، ولكنه لم يفلح في ذلك. وبرغم السُّخط الذي كان يشعر به لأنه لايستطيع أن يظهر أمام الناس وعينه متورمةٌ، فقد غدا مُغرمًا بغابرييلا السريعة الغضب وكان يكتبُ إليها عشرينَ رسالةً في اليوم، وأية رسائل! إنها رسائلُ مستسلمةٌ، ورقيقةٌ، وتنمُّ عن الاحترام. وقد أُعيدت إليه الأولى منها دون أن تفضّ. أما الأخرى، فلم تحصل على ردٍّ. ومع ذلك، فقد كان روجيه يحتفظُ ببعضِ الأمل. وعندما اكتشفنا أن بائعةَ البرتقال في المسرح تلفُّ برتقالاتها برسائل روجيه الغرامية التي كانت غابرييلا تعطيها إياها تفنناً في الفظاظة، كان ذلك ضربةً مخيفةً موجهةً إلى اعتداد صديقنا بنفسه. ومع ذلك، لم تتناقص عاطفته نحوها، فقد كان يتحدثُ عن أنه يطلبُ الممثلة للزواج، وعندما كانوا يقولون له إن وزير الحربية لن يعطي أبداً موافقته على ذلك، كان يصرخُ بأنه سيطلقُ الرصاص على نفسه.

وفي تلك الأثناء، اتفق أن رغب ضباط أحدِ فيالق السفنِ في حاميةِ برست في أن يطلبَ من غابرييلا تمثيلَ مقطعٍ من ملهاةٍ خفيفة، فرفضت ذلك انطلاقاً من مجرّد الهوى.

وأصرَّ كلٌّ من الضباط والممثلة على موقفهم بحيث أن الضباط جعلوا ستارة المسرح تنسدل بسبب صفيرهم المستنكر، وأُغمي على الممثلة. وأنتم تعرفون ماذا تكون ردهةُ المسرح في مدينةٍ هي موقعٌ لحاميةٍ عسكرية. وتمَّ الاتفاقُ فيما بين

الضباط على أن المذنبةَ سوف تقابلُ بالصفير من غير توقف. وفي اليوم التالي، والأيام اللاحقة، وألا يُتاح لها أن تمثل دوراً واحداً قبل أن تعتذر علناً وبتواضعٍ لابدَّ منه كي تكفّر عن جريمتها. ولم يكن روجيه قد حضر ذلك العرض. ولكنه علم، في المساء نفسه، بالفضيحة التي أربكت المسرحَ بكامله، وكذلك الأمر بمشاريع الانتقام التي كانت تُحاك لليوم التالي، وفي الحال، اتخذ قراره.

وفي اليوم التالي، وعندما ظهرت غابرييلا، انطلقت من مقعد الضباط صرخاتُ استهزاء وصفرات استنكار تثقب الآذان. أما روجيه، الذي اتخذ له مكاناً، عن قصدٍ منه، على مقربةٍ من مثيري الضجيج، فقد نهض، وتوجه إلى الأكثر إثارةً للضجّة فيما بينهم بعبارات مهينة جداً بحيث تحول كلُّ السخط عليه في الحال. حينذاك، وببرودة أعصاب كبيرة، أخرج دفتره من جيبه، وسجل الأسماء التي كان الضباط يعطونه إياها، صارخين من كلّ ناحية. وكان يمكن أن يحدد مواعيدَ للقتال مع الفوج بكامله، لو أن عدداً كبيراً من ضباط البحرية لم يصل مصادفةً، انطلاقاً من حسّ تضامني، ويتحدّى معظمَ خصومه. لقد كانت المشاجرة مرعبةً.

وُضعَ الفيلقُ كلُّه في الحجز لعدة أيام، ولكن كان هناك حسابٌ مخيف ينبغي تصفيته، عندما أُخلي سبيلنا. كان عددنا ستين على أرضِ المبارزة. أما روجيه وحده، فقد تقاتل بالتتالي مع ثلاثة ضباط، فقتل واحداً منهم، وجرح الاثنين الآخرين جراحاً بليغةً، دون أن يُصابَ بخدش. أما أنا، فكنت أقلَّ منه حظاً، وقد أصابني ملازمٌ أول لعين، وكان معلّماً في استخدام الأسلحة، أصابني بضربةِ سيفٍ كبيرة كدت أموتُ بسببها. وإني أؤكد لكم بأن المبارزة، أو على الأصح، تلك المعركة، كانت مشهداً جميلاً، وقد انتصرت فيها البحريةُ انتصاراً تاماً، واضطر الفوج إلى مغادرة بريست.

إن ظنكم في محلّه، فضباطُنا القادة لم ينسوا مسبِّب تلك المشاجرة، فبقي خمسة عشر يوماً موقوفاً والحارسُ على بابه.

ولما رفع عنه التوقيفُ، خرجتُ من المشفى، وذهبتُ لرؤيته. وكم كانت دهشتي كبيرةً حين دخلتُ إلى غرفته، ورأيته جالساً يتناولُ الغداء، وجهاً لوجه مع غابرييلا! وكان يبدو عليهما أنهما متفاهمان تفاهماً تاماً. منذ مدةٍ طويلة. وكانا يتخاطبان بصيغة المفرد، ويشربان من الكأسِ نفسها، وقدّمني روجيه إلى عشيقته على أني أفضل صديقٍ له، وقال لها إنني قد أصبتُ بجرحٍ في ذلك النوع من المناوشة التي كانت غابرييلا أولُ مسبّبٍ لها. وجعلني ذلك التقديمُ مستحقاً لقبلةٍ من تلك المرأة الجميلة. لقد كان لتلك الفتاة ميولٌ حربية.

لقد أمضيا ثلاثةَ أشهر معاً، وهما في غاية السعادة، ولا يتركُ أحدهما الآخر لحظةً واحدة. وكانت غابرييلا تبدو كأنها تحبه حتى الجنون، وكان روجيه يعترفُ بأنه لم يعرف الحبَّ قط، قبل أن يعرف غابرييلا.

دخلت فرقاطةٌ هولنديةٌ إلى المرفأ، فقدم لنا ضبّاطُها طعامَ العشاء، وشربنا كلَّ أنواع الخمور بكثرة، وبعد أن رفعت المائدةُ، لم نعد نعرفُ ماذا نفعلُ، فهؤلاء السّادةُ كانوا يتكلمون الفرنسية بصورةٍ رديئة جداً، وبدأنا نلعب. وكان يبدو أن الهولنديين يمتلكون الكثيرَ من المال. وكانَ ملازمهم الأولُ خصوصاً يريد أن يجازفَ في اللعب كثيراً، بحيث لم يكن أحدٌ منا يهتمّ بأن يشاركه اللعب. أما روجيه، الذي لم يكن يلعبُ عادة، فظنّ أن الأمر يتعلقُ، في تلك المناسبة بمساندةِ شرف بلده. فلعب إذن، والتزمَ بكلّ ما أراده الملازم الأول الهولندي فربح في البداية، ثم خسر. وبعد تناوبات عدة للربح والخسارة، افترقا دون أن يفعلا شيئاً وقدمنا للهولنديين عشاءً مماثلاً لعشائهم، وجرت معاودةُ اللعب، ورجع روجيه والملازم الأول إلى الصراع. بالاختصار، وخلال بضعة أيام، تواعدا. إما في المقهى، أو على ظهر السفينة، وجربّا كل ضروبِ اللعب، وخصوصاً النرد. وأخذا يزيدان دوماً من رهاناتهما إلى أن وصلا إلى اللعب على خمسة وعشرين نابوليونية للمباراة الواحدة. وفي نهايةِ الأسبوع، كان روجيه قد خسر كلّ النقود التي كان يمتلكها، إضافةً إلى أكثر من ثلاثة أو أربعة آلاف فرنكٍ اقترضها من اليمين ومن الشمال.

يحدثكم قلبكم أن روجيه وغابرييلا قد انتهى بهما الأمر إلى العيشِ في أسرةٍ واحدة وإلى الاشتراك في صندوقٍ مالي واحد: أي أن روجيه الذي كان قد قبض نصيبًا كبيراً من الغنائم، كان قد أضاف إلى الكتلة النقدية عشرةَ أضعاف أو عشرين ضعفًا أكثر مما أضافته الممثلة، ومع ذلك، فقد كانَ يعدُّ دائمًا أن تلك الكتلة تخصُّ عشيقته بصورةٍ رئيسة، ولم يكن قد احتفظ لمصروفاته الخاصة إلاّ بخمسين نابوليونية. ومع ذلك، فقد كان مضطراً إلى الاستعانة بهذا الاحتياطي لكي يستمرّ في اللعب. ولم تقدم له غابرييلا أقلّ ملاحظةٍ بهذا الصدد.

أخذت نقودُ المنزل الطريقَ نفسها التي أخذتها نقودُ الجيب، وسرعان ما آلت الأمور بروجيه ليلعبَ بآخر خمسة وعشرين نابوليونية لديه. وكان روجيه مواظبًا على نحوٍ مرعب. كما أن المباراة كانت طويلةً ويسودها التنافسُ، وأتت لحظةٌ لم يعد فيها لروجيه إلا فرصةٌ واحدة للربح، وهو يمسكُ بجام النرد[1]. وأظنّ أنه كان يلزمه ستةٌ أو أربعة. وكان الوقت قد تأخر ليلاً. أما الضابط الذي كان يشاهدهما يلعبان فقد انتهى به الأمر إلى النوم على كنبة. وكان الهولنديُّ متعبًا ويغالبُ النعاس، زد على ذلك، أنه كان قد شرب الكثير من البونش وكان روجيه وحده مستيقظًا تمامًا. وهو فريسةٌ لليأس الأكثر شدةً، فرمى زهر النرد، وهو يرتعش. لقد رماه بشدة على رقعة الضامة، بحيث وقعت شمعةٌ على أرضيةِ المركب من جراء الاهتزاز، فأدار الهولندي رأسه أولاً باتجاه الشمعة التي كانت قد غطت بشمعها سرواله الجديد، ثم نظر إلى زهر النرد - لقد كانا يُظهران رقمي ستة وأربعة. أما روجيه، الذي كان شاحبًا مثل ميت، فقد كسب الخمس وعشرين نابوليونية، وتابع اللعب، فغدا الحظ مواتيًا لصديقي التعس الذي كان مع ذلك ينضّدُ الأحجارَ بعضها فوق بعض، والذي كان يحبسهُا في خانة واحدة، وكأنه يريدُ أن يخسر. وأخذ الملازمُ الأول الهولندي يكابرُ، ويضاعفُ الرهان بل يزيده عشرةَ أضعاف: وقد خسر دائمًا. وأتخيل أني لا أزال أراه، فلقد كان رجلاً أشقر طويل القامة، بارد

(١) - علبة تحتوي أحجار النرد التي تخضُّ ثم تُلقى. (م: ز. ع).

الطبع، ويبدو وجهه وكأنه مصنوعٌ من الشمع. فنهض أخيراً بعد أن خسر أربعين ألف فرنكًا، دفعها دون أن يكشف محياه عن أقل انفعال.

وقال له روجيه:

«إن ما فعلناه هذا المساء لايعني شيئًا، فقد كنتُ نصفَ نائم، وأنا لا أرغبُ في نقودك».

فأجاب الهولنديُّ الباردُ الطبع: لقد لعبت بصورة جيدة جداًّ، ولكن زهرَ النرد كان ضدي، وأنا واثق دائماً من الفوزِ عليك وذلك بأن أُعيدَ إليك ديونك أربع مرات، عم مساءً! وتركه.

وفي اليوم التالي، عرفنا أن الهولندي، الذي وقع في اليأس بسبب خسارته، قد أطلق الرصاص على رأسه في غرفته، وبعد أن شرب إبريقًا من البونش.

كانت الأربعون ألف فرنكًا التي كسبها روجيه مبسوطة على المنضدة، وكانت غابرييلا تتأملها بابتسامةٍ تنمُّ عن الرضى.

وقالت: ها نحن أغنياء حقًّا، فماذا سنصنع بكلٍّ هذه النقود؟

ولم يجب روجيه بشيء، فقد كان يبدو وكأنه مخبولٌ، منذ أن مات الهولندي.

وتابعت غابرييلا: يجب أن نقومَ بألف حماقة، فالنقودُ التي يجري كسبها بمثل هذه السهولة يجب أن تصرف بالطريقة نفسها، فلنشترِ عربة خيل، ولنزرِ قائدَ شرطة البحرية، وزوجته، أريدُ أن أحصلَ على الماس، وعلى الكشمير، فأطلب إجازةً ولنذهب إلى باريس، أما هنا، فلن نستطيع أن نأتي على آخر نقودٍ كثيرةٍ كهذه!

توقفت كي تلاحظ روجيه الذي لم يكن قد سمعها، فقد كانت عيناه تحدقان في الأرضية الخشبية، ورأسه تستندُ إلى يده، ويبدو أنه يقلبُ في رأسه أكثرَ الأفكار كآبةً. وهتفت وهي تضع يدها على كتفه:

- وماذا أصابك، يا روجيه، بحق الشيطان؟ إنك تشمئز مني، كما أظن، ولا أستطيع أن أنتزعَ منك كلمة.

فقال أخيراً وهو يتنهد بصورةٍ مخنوقة: إني شديدُ التعاسة.

- تعس! فليسامحني الربّ. هل يعذبك ضميرك لأنك جردت ذلك المينهير[1] السمين من ماله؟

فرفع رأسه ونظر إليها نظرةً زائغة.

فتابعت قائلة: «ماالمهمّ! ماالمهمّ في أن يكون قد أخذ الأمرَ على محملِ المأساة، وأن يكون قد ألهب ما لديه من مخ! أنا لا أشفقُ على المقامرين الذين يخسرون، ومن المؤكد أنه من المفضل أن تكون نقوده بين أيدينا من أن تكون بين يديه! وإلا لكان أنفقها في الشراب والتدخين، بدلاً من أن نصنع منها، نحن، ألفَ شيءٍ مخالفٍ للمألوف، فجميعُ هذه الأشياء يضاهي بعضها البعض الآخر ظرفًا».

كان روجيه يتجوّل في الغرفة، وقد أحنى رأسَه على صدره، وأغمضَ عينيه المغرورقتين بالدموع، نصف إغماضة. لو رأيتموه، لأثار الشفقةَ في قلوبكم.

وقالت له غابرييلا: أتعلمُ أن الناس الذين لايعرفون الحساسيةَ الحالمة يمكن أن يظنوا أنك قد غششت في اللّعب فعلاً؟

فهتف بصوتٍ مكتوم، وهو يتوقف أمامها: - وإذا كان هذا الأمرُ صحيحًا؟

فأجابت وهي تبتسم: باه! ليس لديك ما يكفي من النباهة كي تغشّ في اللعب.

- بلى! لقد غششت يا غابرييلا، لقد غششتُ مثلَ إنسانٍ حقير، هذا ماصرتُ إليه.

---

(١) - الهولندي (م: ز.ع).

أدركت من انفعاله أنه لايقولُ إلا الحقيقة، فجلست على كنبةٍ، ولبثت بعض الوقت، دون أن تتكلمّ.

قالت أخيراً بصوت شديدَ التأثير: «أفضّل لو أنك قد قتلت عشرةَ رجال على أن تكون قد غششتَ في اللعب».

هيمن صمتٌ قاتلٌ لمدة نصف ساعة، وكانا يجلسان كلاهما على الأريكة نفسها، ولاينظر أحدهما إلى الآخر، ولو مرة واحدة. ونهض روجيه أولاً، وقال لها بصوتٍ هادىء: عمت مساءً.

فردّت عليه بلهجةٍ جافةٍ وباردة: عمتَ مساءً!

قال لي روجيه، فيما بعد، إنه كان يمكن أن ينتحر في ذلك اليوم بالذات، لو لم يكن يخشى أن يخمن رفاقُنا سببَ انتحاره. لم يشأ أن تكون ذكراهُ شائنةً.

وفي اليوم التالي، كانت غابرييلا مرحة، مثلما هي عادة، حتى ليخيل للمرء أنها قد نسيت مسارات اليوم السابق. أما روجيه، فقد أصبح مكتئباً، غريب الأطوار، وشكساً، ولا يكادُ يخرجُ من غرفته، ويتجنب أصدقاءه، وغالباً ما كان يُمضي أياماً كاملةً دون أن يوجه كلمةً لعشيقته، وكنت أعزو حزنه لحساسيةٍ جديرةٍ بالتقدير، ولكنها مفرطةٌ، وقد حاولت عدة مراتٍ أن أواسيه، غير أنه كان يحيلُني إلى موضوعٍ بعيدٍ جداً، متظاهراً بعدم اكتراثٍ كبير تجاه شريكه المنكود الحظ في اللعب، وحتى أنه شنَّ، ذات يوم، هجوماً مفاجئاً عنيفاً ضد الأمة الهولندية، وأراد أن يُثبتَ لي أنه لا يمكن أن يكون هناك رجلٌ واحد شريفٌ في هولندا، ومع ذلك، فقد كان يستعلمُ سراً عن أسرة الملازم الأول الهولندي، غير أنه لم يكن أحدٌ قادراً على تزويده بأخبارٍ عنها.

بعد ستة أسابيع من مباراة النرد تلك، وجد روجيه في منزل غابرييلا بطاقةً كتبها مرشحٌ يبدو أنه يشكرها على ما تكرمت به نحوه. وكانت غابرييلا هي الفوضى المشخّصة فقد تركت البطاقةَ المعنيةَ على موقدها، ولا أعلم إن كانت غير وفية، ولكن روجيه ظنَّ ذلك، وكان غضبه مرعباً: فحبُّه وما تبقى له من كبرياء

كانتا الشعورين الوحيدين اللذين يمكنهما أيضًا أن يربطاه بالحياة، وهكذا فقد كان أقوى ما لديه من مشاعر على وشك أن يتحطم فجأة، فانهالَ بالشتائم على الممثلة المتعجرفةِ، وبما أنه كان عنيفًا، فلا أدري كيف اتفق أنه لم يضربها.

قال لها: لا شكّ في أن هذا الحقير قد أعطاك الكثير من المال؟ فهذا هو الشيء الوحيد الذي كنتِ تحبينه، وهكذا فأنت تمنحين دلالاتِ حبك أقذرَ بحارتنا، إذا كان لديه ما يدفعه لك.

فأجابت الممثلة ببرود - ولم لا؟ أجل، إني أقبل بأن يدفع لي بحارٌ أجراً، ولكني . . . لا أسرقه.

أطلق روجيه صرخةَ غضب، وسحب خنجراً، وهو يرتجفُ، ونظر إلى غابرييلا لحظةً من الزمن وعيناهُ زائغتان. ثم جمع كل قواه، ورمى السلاح عند قدميها، وهرب من الشقة كيلا يستسلمَ للإغراء الذي كان يستحوذُ عليه.

في ذلك المساء بالذات، مررتُ من أمام مسكنه في وقت جدّ متأخر، إذ رأيتُ النور مضاءً عنده، دخلت لأستعير منه كتابًا، فوجدته منشغلاً جداً بالكتابة، فلم ينزعج وبدا أنه لايكادُ يلاحظُ حضوري في غرفته، وجلستُ قريبًا من مكتبه، وتأملتُ قسماته التي كانت قد تغيرت كثيراً بحيث أن إنسانًا آخر غيري كان سيجدُ مشقةً في تعرُّفهِ. وفجأة، لمحتُ على المكتب رسالةً قد سبق فضها. وكانت موجهةً إلي، ففتحتها حالاً. وكان روجيه يصرّحُ لي بأنه سيضع نهايةً لحياته، ويكلفني بمهماتٍ مختلفة. وفيما كنتُ أقرأ، كان روجيه يكتب باستمرار، دون أن ينتبه إليّ: لقد كانٍ يودعُ غابرييلا . . . وأنتم تتخيلون كم كانت دهشتي كبيرة، وماذا كان يتعين علي أن أقول له، في حالة الارتباك التي وضعني فيها قراره.

كيف، أتريد أن تنتحر، وأنت الرجلُ السعيدُ جداً؟.

فقال لي، وهو يغلق رسالته: - يا صديقي، أنت لاتعرفُ شيئًا. أنت لاتعرفني، فأنا محتالٌ، وأنا استحقُّ الاحتقار إلى حد كبير يجعلُ إحدى بنات الهوى تشتمني. وأحسّ بخسّتي إحساسًا يجعلني لا أملكُ القوة لمحاربتها.

حينئذٍ روى لي قصة مباراة النرد، وكلَّ ماعرفتموه حتى الآن، وكنت، وأنا أصغي إليه، متأثراً بقدر تأثره على الأقل. ولم أكن أعرفُ ماذا أقول له، فشددت على يديه وكنتُ دامعَ العينين، غير أني لم أكن أقوى على الكلام. وأخيراً، جاءتني فكرةٌ تتمثل في أن أبيّن له أنه لايتعين عليه لوم نفسه، لأنه قد سبب إفلاسَ الهولندي، عن قصدٍ منه، وأنه، إضافة إلى ذلك، لم يجعله يخسرُ بسببٍ. . . غشه له. . . إلا خمسٍ وعشرين نابوليونية فهتف بسخريةٍ مريرة:

«إذن، أنا لصٌّ صغير، ولستُ لصّاً كبيراً، فأنا الرجلُ الذي كان لديه الكثير من الطموح! لست أكثر من لصٍّ صغير!».

فانفجرت بالبكاء.

وفجأة، فُتح البابُ، ودخلت امرأة، وارتمت بين ذراعيه. لقد كانت غابرييلا وصرخت وهي تضمه بشدة:

سامحني. إني أحسّ بذلك جيداً، فأنا لا أحبُّ أحداً غيرك. وأحبك الآن أكثر مما لو أنك لم تفعل الشيءَ الذي تلوم نفسك عليه، فإذا شئتَ، أسرقُ، وقد سبق لي أن سرقت. . . أجل سرقت ساعةً ذهبيةً. . . ماذا يمكن للإنسان أن يفعل أسوأ من ذلك؟.

هزّ روجيه رأسه بحركةٍ تنم عن عدم التصديق، ولكن أساريره بدت منبسطةً، وقال وهو يدفعها برفقٍ: كلا، يا طفلتي المسكينة، لا بدّ أن أقتلَ نفسي بكل تأكيد، فأنا أعاني أكثر مما ينبغي، ولا يمكنني مقاومةُ الألم الذي أشعرُ به هنا.

- حسناً، إذا كنت تريد أن تموت، يا روجيه، فسأموت معك! ومن دونك، ماذا يهمني من الحياة! إني شجاعةٌ. وقد استخدمتُ البنادق لإطلاق النار، ولسوف أقتلُ نفسي مثل أي إنسانٍ آخر. وقبل كلِّ شيء، فأنا معتادةٌ على المأساة، لأنني مثّلتُها على المسرح.

كانت الدموعُ تملأ عينيها حين بدأت الكلام، ولكن تلك الفكرةَ الأخيرةَ جعلتها تضحكُ، وأفلتت من روجيه نفسه ابتسامة.

فهتفت وهي تصفق بيديها، وتعانق روجيه: أنت تضحكُ يا ضابطي، ولن تقتلَ نفسك! وكانت تقبّله باستمرار، باكيةً حينًا، وضاحكةً حينًا، ومطلقةً الشتائم حينًا آخر مثل بحّار، فهي لم تكن من تلك النساء اللواتي ترعبهن كلمةٌ فظّة.

كنتُ، مع ذلك، قد استوليتُ على مسدسات روجيه وخنجره وقلتُ له:

«يا عزيزي روجيه، إن لديك عشيقةً وصديقًا يحبانك، فصدقني. لايزال بوسعك أن تحصلَ على بعضِ السعادة في هذا العالم». وخرجت، بعد أن قبلته، وتركته وحده مع غابرييلا.

أظن أنه لم يكن بإمكاننا أن نصل إلا إلى تأخير الأمر المشؤوم الذي عزم عليه روجيه وحسب، لو لم يتلقّ من الوزير أمرًا بالانطلاق كملازمٍ أول على متنِ فرقاطةٍ كان مطلوبًا منها أن تجوبَ بحارَ الهند، بعد أن تكون قد عبرت بجانب أسطولٍ إنكليزي كان يحاصرُ الميناء. وكانت العمليةُ محفوفةً بالمخاطر. وقد جعلته يدرك أنه من الأفضل أن يموت الإنسانُ بشرفٍ، من جراء قذيفةٍ إنكليزية من أن يُنهي حياته بنفسه، دون مجدٍ، ودون فائدة لوطنه. فوعدَ أن يعيش. ووزّع من أصلِ الأربعين ألف فرنك نصفها على البحارة المقعدين، أو على أراملِ البحارة وأولادهم. وأعطى الباقي لغابرييلا التي أقسمت في البداية على أنها لن تستخدمَ تلك النقود إلا لأعمال الخير. وكانت تلك الفتاةُ المسكينةُ تنوي أن تفي بوعدها، غير أن الحماسةَ كانت قصيرةَ الأجل لديها، فعلمتُ فيما بعد أنها قد أعطت المساكين بضعةَ آلاف من الفرنكات. واشترت بالباقي ملابسَ نسائية وصعدنا، روجيه وأنا، على متنِ فرقاطةٍ جميلة اسمها «لاغالاتيه»، وكان رجالنا شجعانًا، وجيدي التمرين، وحسني الانضباط. غير أن قائدنا كان جاهلاً. وكان يظنُّ أنه جان بار[1] لأنه كان يُكثرُ من القسم أفضل من نقيب في الجيش. ولأنه كان يشوّهُ اللغةَ الفرنسيةَ، ولأنه لم يدرس نظرية مهنته التي كان يعرفُ ممارستها، بما يكفي من الرداءة، ومع ذلك، فقد أعانه

---

(١) - بحار فرنسي شهير، أحرز نجاحاتٍ كبيرةً في البحرية الملكية الفرنسية (١٦٥٠ - ١٧٠٢) (م: ز.ع).

الحظُّ في البداية، وخرجنا بنجاحٍ من المرسى، بفضل هبة ريحٍ أجبرت أسطولَ الحصار الصغير على الذهاب إلى عرض البحر، وبدأنا مطاردتنا البحريةَ بإحراق حرّاقة إنكليزيةٍ، ومركبًا من سفن الشركة على سواحل البرتغال.

كنا نُبحر ببطءٍ نحو بحار الهند، وكانت تعاكسنا الرياحُ والتحركاتُ الخاطئة لقبطاننا الذي كان انعدامُ مهارته يزيدُ من خطورة مطاردتنا، فحينًا كانت تسوقُنا القوى المتفوقة علينا، وحينًا نلاحقُ المراكبَ التجاريةَ، فلا يمضي علينا يومٌ واحد من دون مغامرةٍ جديدة. إلا أنه لم يكن بمقدورِ حياةِ المخاطرة التي نعيشها، ولا المشقاتُ التي كانت تسببها لروجيه إدارةُ الفرقاطة التي يحملُ مسؤوليتها، لم يكن بمقدورها أن تصرفَ ذهنه عن الأفكار الكئيبة التي كانت تلاحقهُ دونَ انقطاعٍ. إن ذلك الذي كان يُعرف فيما سبق بأنه الضابطَ الأكثر نشاطًا وتألقًا في مرفئنا، أصبح الآن يكتفي بالقيام بواجبه وحسب، وحالما كانت تنتهي خدمته، كان يحبس نفسه في غرفته، من غير كتبٍ، ولا ورق. وكان يُمضي ساعاتٍ طويلةً مستلقيًا على مرقده القماشي، ولم يكن التعسُ يستطيعُ أن ينام.

وإذ لاحظت ذات يوم أنه خائرُ القوى، رأيتُ أن أقولَ له:

«تبًا لهذا! إنك يا عزيزي، تغتمّ لأقل شيء. لقد خطفت خمسًا وعشرين نابوليونية من هولندي سمين، حسنًا! - ويعذبك ضميرك لما يعادلُ أكثر من مليون، فقل لي، عندما كنت عشيقَ زوجةِ قائد الشرطة... ألم يعذبك ضميرك؟ ومع ذلك، فقد كانت تساوي أكثر من خمس وعشرين نابوليونية».

استدار على فراشه دون أن يجيبني.

وتابعت:

«فضلاً عن ذلك، فجريمتكُ، بما أنك تقول إنها جريمةٌ، كان لها دافعٌ مشرف، وكانت صادرة عن روحٍ عالية».

فأدار رأسه، ونظر إلي بوجه غاضب.

«أجل، لأنك لو خسرت، في نهاية الأمر، فماذا كان سيصيب غابرييلا؟

يا للفتاة المسكينة! كان يمكن أن تبيع آخر قميص لها من أجلك. . . ولو أنك خسرت، لآلت إلى البؤس. . . فمن أجلها، وحبًّا بها، إنما غششتَ. هناك أناسٌ يقتلون بسبب الحب. . أو ينتحرون. . وأنت، يا عزيزي روجيه، فعلت أكثر من ذلك. فبالنسبة لرجل مثلنا، ثمة شجاعة أكبر في. . . أن يسرقَ الإنسان من أن يقتل نفسه، إذا ما تكلّمنا بوضوح.

وقال لي القبطانُ قاطعًا قصته: ربّما أبدو لك الآن مضحكًا، وأؤكد لك أن صداقتي نحو روجيه كانت تمنحني، في هذه اللحظة، بلاغة لم أعد استرجعها اليوم. وحين كنت أتحدثُ إليه بتلك الطريقة، فليأخذني الشيطان، كنت حسنَ النية، وكنتُ أصدّق كلّ ما كنت أقوله. آه! كنت شابًّا حينذاك.

مكثَ روجيه صامتًا لا يردّ، لبعض الوقت، ومدّ لي يده وقال، وكأنه يبذلُ جهدًا كبيرًا بتحامله على نفسه: يا صديقي! أنت تظنّ أنني أفضل مما كنت عليه فعلاً. فأنا نذلٌ جبان. وعندما غششتُ ذلك الهولندي، لم أكن أفكر إلا بأن أربح خمسًا وثلاثين نابوليونية. . . يا لها من خسّة! أجل! كان يمكن أن أكون سعيدًا، لو استطعت أن أقول لنفسي: «لقد سرقت كي أنتشل غابرييلا من البؤس. . .»

كلا! . . . كلا! لم أكن أفكر بها. . . ولم أكن مغرمًا بها في تلك اللحظة. . . كنت مقامرًا. . . كنت سارقًا. . . لقد سرقت المال كي آخذه لنفسي. . . وهذا العملُ قد جعلني وحشًا وأذلّني إلى درجة كبيرة بحيث لم يعد لدي الآن أيةُ شجاعةٍ، أو أي حبّ. . . إني أحيا، ولم أعد أفكر بغابرييلا. . . إني إنسان قد انتهى أمره.

كان يبدو على درجة من التعاسة كبيرة بحيث أنه لو طلب مني مسدساتي كي ينتحر، لأعطيته إياها، كما أظنّ.

وفي أحد أيام الجمع، وكان يوماً ذا فأل سيّئ، اكتشفنا فرقاطةً إنكليزيةً ضخمةً اسمها «ألسيست»، وقد أخذت تتعقبنا. وكانت تحمل ثمانيةً وخمسين مدفعًا، ولم يكن لدينا سوى ثمانية وثلاثين، فبذلنا كلَّ جهدنا كي نستطيع الإفلاتَ منها. ولكن سرعتها كانت أعلى من سرعتنا. وكانت تقتربُ منا، في كل لحظة، وبدا من الواضح أننا سنكون مجبرين على خوضِ معركةٍ غير متكافئة، قبل الليل، فاستدعى القبطانَ روجيه إلى قمرته حيث مكثا يتشاوران معًا، ما يزيدُ عن ربعِ ساعة. وصعد روجيه مجدداً إلى ظهر الباخرة، وأمسكني من يدي، وانتحى بي جانبًا.

وقال لي: من هذه اللحظة، وحتى ساعتين من الزمن، سوف يبدأُ الاشتباك، وذلك الرجل الشجاع الذي يتعثَّرُ على طرفِ المؤخرة قد فقد رشده، فقد كان هناك خياران ينبغي اتخاذ أحدهما. أولهما، وهو الخيارُ المشرِّف أكثر من غيره، كان يتمثل في تركِ العدو يصلُ إلينا، ثم في الدنُّو منه بقوة، وفي إلقاء مئة بحارٍ جسورٍ وشديد العزم، على ظهر مركبه. والخيارُ الثاني، وهو ليس سيئًا، ولكنه لا يخلو من الجبن، ويتمثلُ في أن نتخففَ من حمولتنا بإلقاء قسمٍ من مدافعنا في البحر. وهكذا نتمكن من أن نتقدم قريبًا جداً من ساحل أفريقيا الذي نكشفه هناك، على يسار السفينة أما الباخرةُ الإنكليزيةُ فستكون مجبرةً فعلاً على تركنا نهرب، خوفًا من أن تغرقَ، غير أن قبطاننا ليس جبانًا ولا بطلاً: بل سيدعُ سفينته عرضةً لتدميرِ طلقات المدافع من بعيد، وبعد بضع ساعات من القتال، سوف يستسلمُ استسلامًا مشرِّفًا، وليحدث ما يحدثُ لكم، فزوارقُ بورتسموث الطافية تنتظركم. أما أنا، فلا أريدُ رؤيتها.

فقلت له: – إن أولى طلقات مدفعيتنا ستحدثُ عند العدو أضراراً على درجة كافيةٍ من الشدّة بحيث تجبرهُ على الكفِّ عن مطاردتنا.

– اسمع، لا أريد أن أصبح أسيراً، بل أريد أن أُقتل، فقد حان الوقتُ لأنتهي من هذا الأمر. فإذا ما حدث، لسوء الحظ، أن أُصبتُ بجرحٍ، فلتعدني بأن تُلقي بي في البحر. إنه السريرُ الذي ينبغي للبحار الجيد مثلي أن يموت فيه.

فصرخت: أي جنونٍ هذا! وأيةُ مهمةٍ تكلفني بها!

- سوف تؤدي واجبك كصديقٍ جيد، فأنت تعلمُ أنه يجبُ أن أموت. وأنا لم أوافق على ألا أقتل نفسي إلا بأملِ أن أُقتل، وعليك أن تتذكر ذلك. هيا، فلتعدني بذلك، وإذا ما رفضتَ أن تفعل هذا لي، فسوف أطلبُ هذه الخدمة من رئيس العمال الذي لن يرفضها لي.

بعد أن فكرتُ لبعضِ الوقت، قلتُ له:

إني أعدك بأن أفعل ما ترغبُ فيه، بشرط أن يكون جرحك مميتًا، ودون أي أملٍ بالشفاء، في تلك الحالة، أوافق على إعفائك من الآلام.

- سوف أصابُ بجرحٍ مميتٍ أو أُقتل.

ومدّ لي يده، فشددتُ عليها بقوة، ومنذ ذلك الحين، أصبحَ أكثر هدوءًا، وحتى أن نوعًا من مرحٍ حماسيّ قد التمع في وجهه.

أخذت مدفعيةُ العدو المتعقبة تصيبُ عتادَ سفينتنا، حوالي الساعة الثالثة، من بعد الظهر، فطوينا حينئذ قسمًا من قلوعنا. وعرضنا جانبنا «للألسيست»، وقمنا بقصفٍ متواترٍ، ردَّ عليه الإنكليزُ بعنف. وبعدما يقربُ من ساعةٍ من القتال، أراد قبطانُنا الذي لم يكن يفعلُ شيئًا، في الوقت المناسب، أراد أن يجربَ التصادم، غير أنه كان لدينا الكثيرُ من الموتى والجرحى. وكانت بقيةُ طاقمنا قد فقدت حماستها. وكنا في نهاية الأمر قد خسرنا الكثيرَ من عتادنا، وكانت صوارينا قد أُصيبت بأضرارٍ فادحةٍ. وفي اللحظة التي نشرنا فيها قلوعنا، كي نقتربَ من السفينة الإنكليزية. سقط صارينا الكبير الذي لم يعد يستندُ إلى شيء، محدثًا فرقعةً مخيفةً، فأفادت السفينة «ألسيست» من الارتباك الذي أوقعنا فيه ذلك الحادثُ، وأتت لتمر من مؤخرِ سفينتنا، وأطلقت علينا صَلْيةَ مدافعها الجانبية كلها من مسافةٍ تعادلُ نصفَ مرمى المسدس، فاخترقت فرقاطتنا المذكورة من مقدمها إلى مؤخرها. ولم تستطع أن تقابلَ ذلك القصف إلاّ بمدفعين صغيرين في ذلك الموضع. وكنت في تلك

اللحظة، قريبًا من روجيه الذي كان منهمكًا في العمل على قطع حبال الأعمدة التي كانت لا تزال تمسكُ بالصاري المهدّم. وكنت أشعرُ بروجيه وهو يشد على ذراعي بقوة. فها أنا أستدير، وأراه منقلبًا على ظهر السفينة، ومضرجًا بدمائه، فقد أصيبَ بطلقةِ رشاشٍ في بطنه.

وهرع القبطان إليه.

وصاح: ماذا تفعل أيها الملازم الأول؟

- يجب أن نسمرٌ علمنا بهذه القطعة من الصاري، ونُغرقَ سفينتنا.

فتركه القبطان في الحال. فقلما استحسن تلك النصيحة.

وقال لي روجيه:

هيا تذكرّ وعدك.

فقلت له: - هذه إصابةٌ طفيفةٌ، ويمكنك أن تشفى منها.

فصرخ وهو يشتم بشكل عنيف، ويمسك بي من ذيل قميصي.

ألقِ بي من فوق ظهر السفينة، فأنت ترى تمامًا أنه لايمكنني أن أنجو: ألق بي إلى البحر. لا أريد أن أرى استسلامَ سفينتنا.

اقترب بحّاران منه كي يحملاه إلى داخل قعر السفينة.

فصرخ بهما بقوة:

- إلى مدافعكم، أيها الأنذال، أطلقوا رشاش الشظايا، وصوبوا إلى سطح السفينة. وأنت، إذا أخلفت وعدك، فإني ألعنك، وأعدّك أكثر الرجال جُبْنًا وأكثرهم خسةّ.

كانت جراحه مميتةً بالتأكيد، ورأيت القبطان ينادي مرشحه، ويعطيه الأمر بإحضار راية الاستسلام.

قلت لروجيه: «أعطني قبضةَ يدك».

وفي اللحظة ذاتها التي رُفعت فيها رايةُ الاستسلام...

وقاطعه أحد الملازمين، وهو يهرعُ نحونا، ويقول:

أيها القبطان، هناك حوتٌ على يسار السفينة.

هتف القبطان، وقد استخفه الفرح، وأوقف قصته في ذلك الموضع:

- حوت؟ بسرعة، أنزلوا زورق الإنقاذ إلى البحر!

- الخطافات، الحبال!...

ولم أستطع أن أعرف كيف مات الملازمُ الأول المسكين روجيه.

- ٨ -

الغلطة المضاعفة

«أيتها الفتاةُ، الأكثر بياضًا من الزهور، أيتها الشقراء، ذات العينين الخضراوين، إذا خطر لكِ أن تستسلمي للغرام، تحت خطر أن تضلي الطريق، فلتضلّي حسنًا».

(كالديرون)(١)

الفصل الأول

كانت جوليا دوشافيرني متزوجةً منذ ستةِ أعوام تقريبًا، وقد توصلت إلى الإقرار، بعد ما يقرب من خمسة أعوام وستة أشهر إلى أنه لايستحيلُ عليها فقط أن تحبَّ زوجها، بل بصعوبةٍ أن تحملَ له بعضَ التقدير أيضًا.

لم يكن ذلك الزوج رجلاً غير شريف، ولم يكن غبيًّا أو أحمق. ومع ذلك، فلربما كان فيه شيءٌ من كلّ هذه الأمور. ولو رجعت جوليا إلى ذكرياتها، لأمكنها أن تتذكر بأنها كانت تجده محببًا إلى نفسها سابقًا، أما الآن، فهو يُشعرُها بالضجر. لقد كانت تجدُ كلَّ شيء فيه منفرًا، إن طريقته في الطعام، وفي تناولِ قهوته، وفي الكلام، تسبب لها تشنجات عصبيةً. وقلما كان يرى كلٌّ منهما الآخر، أو يكلمه إلا على المائدة. ولكنهما كانا يتناولان العشاء معًا عدةَ مرات، في الأسبوع. وكان ذلك كافيًا للإبقاء على نفور جوليا تجاه زوجها.

---

(١) - بالإسبانية في النص، وقد ترجمها المؤلف إلى الفرنسية في أسفل الصفحة. (م: ز.ع).

أما السيد شافيرني، فقد كان رجلاً على حظٍّ كافٍ من الوسامة. كان سميناً أكثر من اللازم قليلاً قياساً إلى سنّه، نضرَ اللون، أحمر الوجه، ولم يكن، بطبعه، من أولئك الذين يصنعون لأنفسهم ألواناً من القلق الغامض الذي غالباً مايعذبُ أصحابَ الخيال من الناس. كان يؤمنُ إيماناً قوياً بأنَ زوجته تكنُّ له صداقةً رقيقةً (وكان على درجةٍ كبيرةٍ من الحكمة بحيث لا يمكنه أن يظنّ أن زوجته تحبه كما في اليوم الأول لزواجه). ولم تكن هذه القناعة تسببُ له سروراً، ولا غمّاً، فقد كان يمكنه أن يتلاءمَ مع نقيضِ هذه القناعة أيضاً. كان قد خدم عدةَ سنوات في فوجٍ للخيالة، ولكنه نفرَ من حياة المواقع العسكرية، بعد أن ورث ثروةً ضخمةً، وقدّم استقالته، وتزوج. إن تفسيرَ زواجِ شخصين لا تجمعهما فكرةٌ مشتركة يمكن أن يبدو أمراً على درجة كافية من الصعوبة، فمن جهةٍ، هناك الأجدادُ، وبعضُ أهلِ الخير الذين، شأنهم شأن فروزين، يزوجون جمهوريةَ البندقية ومولانا السلطان التركي، قد قاموا بالكثير من التحركاتِ لترتيبِ صفقاتٍ مفيدة. ومن الجهة الأخرى، فقد كان شافيرني ينتمي إلى عائلةٍ ميسورةِ الحال، إنه لم يكن واسعَ الثراء حينذاك، بل كان مرحَ الطبع، وكان، بكلِّ معنى الكلمة، ما نسميه «فتىً طيب الخلق». وكانت جوليا تشعرُ بالسرور عندما تراه يأتي إلى منزل والدتها، فقد كان يُضحكُها، حين يروي لها قصصاً عن فوجه العسكري، وبطريقة فكاهية لم تكن تندرجُ دوماً في إطار الذوق المرهف. كانت تجده محبباً إلى النفس، لأنه كانَ يرقصُ معها، في كل حفلاتِ الرقص، ولا يعدم قط المبرراتِ الجيدة التي كان يُقنع بها والدةَ جوليا بالبقاء في تلك الحفلات حتى ساعة متأخرة، وبالذهاب إلى الاستعراض، وإلى غابة بولونيا. وأخيراً، فإن جوليا كانت تظنُّ أنه بطلٌ، لأنه كان قد اشترك في مبارزتين أو ثلاث، وقاتل قتالاً مشرّفاً فيها. غير أن الأمر الذي حسمَ انتصار شافيرني، كان الوصف الذي قدّمه لعربةٍ كان من المفروض أن يعمل على تنفيذها بناءً على مخططٍ من تصميمه، ويصطحبَ جوليا بنفسه فيها، حين توافقَ على الزّواج به.

بعد بضعةِ أشهر من الزواج، فقدت صفاتُ شافيري الجيدة كلها الكثيرَ من قيمتها. فهو لم يعد يرقص مع زوجته - وهذا أمرٌ مفروغٌ منه. أما قصصه المرحة،

فقد رواها كلها ثلاث أو أربع مرات. وأخذ يقولُ حينذاك إن الحفلات الراقصة تمتدّ إلى وقتٍ متأخر جداً. إنه يتثاءب أثناء العرض الذي يحضرانه، ويَجدُ أن عادةَ ارتداء الملابس مساءً قد غدت عملاً قسريًا لا يمكن احتماله. لقد كانت نقيصته الأساسيةُ هي الكسل. ولو كان يسعى لإدخال السرور على نفس زوجته، فلربما أمكنه أن ينجحَ في ذلك، ولكن الإزعاج كان يبدو له أمراً معذِّبًا. وكان يشتركُ في هذا تقريبًا مع البدينين من الناس كافة. وكان المجتمعُ الغني يُضجره لأن المرءَ لا يُستقبَل فيه استقبالاً جيدًا إلا قياسًا إلى الجهود التي يبذلها لإرضاء الناس فيه. إن المرحَ الخشن كان يبدو له أفضل بكثير من كافة التسليات الأكثر نعومةً، لأنه لم يكن عليه، من أجل أن يتميز بين الأشخاص الذين يميلُ إليهم، إلا أن يحمّل نفسه مشقة الصراخ بشكلٍ أعلى من الآخرين. وهذا ما لم يكن صعبًا على رجلٍ مثله، يمتلكُ رئتين قويتين. وفضلاً عن ذلك، فقد كان يفاخرُ بأنه يشربُ من نبيذ الشامبانيا أكثر من رجلٍ عادي، ويجعل حصانه يقفزُ من غيرِ خطأ حاجزًا ارتفاعه أربعة أقدام. وكان يحظى، نتيجةً لذلك، بتقدير مشروعٍ في أوساط هؤلاء الأشخاص الذين يصعب تعريفهم والذين نسميهم الفتيان وتزخر بهم جاداتنا عند الساعة الخامسة مساءً. أما نزهاتُ الصيد، ورحلاتُ الريف، والسباقاتُ، وأعشيةُ العزاب، ووجباتهم الليلية، فقد كان يسعى إليها بكلّ همةٍ. وكان يقول عشرين مرةً في اليوم إنه أسعدُ الناس. وفي كل مرةٍ، كانت جوليا تسمعه فيها، كانت ترفع عينيها إلى السماء، ويأخذ فمها الصغير تعبيراً ينم عن الاحتقار يصعبُ وصفه.

وبما أنها جميلةٌ، وشابّة، ومتزوجة من رجلٍ لا يروقُ لها، فإن المرءَ يتصوّرُ أنها لابدّ أن تكون محاطةً بألوانٍ من التكريم المغرض. ولكن كبرياءها، وهذا هو عيبُها، كان قد حماها، حتى ذلك الحين من فاتني النساء في المجتمع الراقي، فضلاً عن حمايةِ والدتها لها، وهي امرأةٌ حصيفةٌ. زد على ذلك أن الخيبةَ التي أعقبت زواجها قد جعلت اندفاعها العاطفيّ أصعبَ، لأنها قد أعطتها نوعًا من التجربة. وكانت تفخرُ بأنها ترى نفسها محطَّ رثاء في المجتمع، وبأن تذكر فيه كنموذجٍ على

الرضى والتسليم. وعلى كل حال، فقد كانت تجدُ أنها سعيدةٌ تقريباً، فهي لم تكن تحبّ أحداً، وكان زوجها يترك لها الحريةَ التامة لتفعل ما تريد. أما تدللّها (ولابد من الإقرار أنها كانت تحبّ قليلاً أن تُثبتَ أن زوجها لايعرف الكنزَ الذي يمتلكه)، أما تدللها، الفطري تماماً مثل تدلُّل طفل، فقد كان يمتزجُ جيداً بشيءٍ من التحفظ الذي ينم عن ازدراءٍ ليس من التحشم في شيء. وأخيراً، فقد كانت تعرفُ كيف تكون لطيفةً مع كلّ الناس، وعلى الدرجة نفسها من اللطف. أما المغتابون فلم يكن باستطاعتهم أن يجدوا مأخذاً واحداً يعيبونه عليها.

الفصل الثاني

كان الزوجان قد تناولا طعام العشاء في منزل السيدة لوسان، والدة جوليا التي كانت ستسافر إلى نيس، أما شافيرني الذي كان يموتُ من الضجر في منزل حماته، فقد كان مضطراً لقضاء السهرة في منزلها، برغم رغبةٍ شديدة لديه كي يذهبَ ويلتقي أصدقاءه على الجادة. وبعد أن تناول العشاء، جلس على كنبةٍ مريحة، وأمضى ساعتين من غير أن يقولَ أيةَ كلمة. وكان السببُ في ذلك بسيطًا. لقد كان ينامُ وهو جالسٌ، على نحو محتشم، إضافةً إلى ذلك، ورأسه مائلٌ جانبيًا، وكأنه يصغي إلى الحديثِ باهتمام. وكان يستيقظ حتى من وقتٍ لآخر، ليلقي كلمته.

بعد ذلك، كان لابدّ من الجلوس إلى طاولةٍ للعبة الويست[1]، وهي لعبةٌ كان يمقتها لأنها تتطلبُ بعضَ المثابرة. وجعله كلُّ ذلك يتأخرُ، فقد أعلنت دقاتُ الساعة الحادية عشرة والنصف، ولم يكن شافيرني مرتبطًا في تلك السهرة، ولم يكن يعرف إطلاقًا ماذا يفعل. وفيما كان واقعاً في تلك الحيرة، أعلنوا عن وصول عربته، فلو كان عائداً إلى منزله، لتوجب عليه أن يصطحبَ امرأته. وقد كانت إمكانيةُ أن يبقى عشرين دقيقة في مواجهةٍ ثنائيةٍ مع زوجته أمرًا يرعبهُ. ولكنه لم يكن يحملُ لفافاتِ تبغٍ في جيبه، ولديه رغبةٌ شديدة في أن يأخذ لفافةً من علبةٍ كانت قد وصلته من الهافر، في اللحظة التي كان فيها خارجًا لتناول العشاء، فرضي بالأمر الواقع.

---

(١) - لعبة ورق يلعبها أربعة أشخاص: اثنان ضد اثنين. (م: ز.ع).

وفيما كان يلفّ امرأته بشالها، لم يستطع أن يمتنعَ عن الابتسام وهو يرى نفسه في مرآة مؤدّيًا وظائفه كزوجٍ خيرَ أداء. وتأمّل أيضًا امرأته التي قليلاً ما كان ينظرُ إليها، ففي ذلك المساء، بدت له أجملَ من المعتاد، وهكذا فقد استغرقَ بعضَ الوقت في ترتيب شالها على كتفيها. وكانت جوليا متضايقةً مثله من تلك المواجهةِ الزوجية الثّنائية التي تتهيأُ. كان فمها يستدير استدارةَ استياءٍ صغيرة، وحاجباها المقوّسان يتقاربان عن غير إرادة منها. وكان كلُّ ذلك يُعطي محيّاها تعبيراً محبّباً بحيث أن زوجها نفسه لايمكنه أنْ يبقى باردَ القلب إزاءه. وتلاقت عيونهما في المرآة خلال العملية التي تحدثت عنها منذ قليل، وكي يتخلص شافيرني من المأزق، فقد قبل وهو يبتسم يد امرأته التي كانت ترفعها كي تسوي شالها.

وقالت السيدةُ لوسان، التي لم تكن تلاحظ الازدراءَ الباردَ الذي تبديه الزوجةُ، ولاهيئة الزوج التي تنمّ عن عدم الاكتراث، قالت بصوتٍ خفيضٍ جداً:

«كم هما متحابّان!»

كان كلاهما جالسين في عربتهما ومتلامسين تقريبًا، فمكثا في البداية بعضَ الوقت من غير أن يكلمّ أحدهما الآخر. وقد أخذ شافيرني يحسُّ حقًّا أنه من المناسب أن يقول شيئًا، غير أنه لم يخطر في ذهنه شيء. أما جوليا، فكانت، من ناحيتها تلتزمُ صمتًا مزعجًا، فتثاءب الزوجُ ثلاث أو أربع مرات بحيث شعرَ هو نفسه بالخجل من ذلك. وظن في المرة الأخيرة أنه مجبرٌ على الاعتذار من زوجته عن الأمر، فأضافَ بهدف الاعتذار:

«كانت السهرةُ طويلةً»

فلم ترَ جوليا في هذه الجملة إلا نيّة لانتقاد سهرة والدتها، ولقول شيء يزعجُها. وكانت منذ زمن طويل قد اتخذت عادةً تتحاشى بحسبها كلَّ إيضاحٍ للأمور مع زوجها، فاستمرت، والحالة هذه، في التزام الصمت.

أما شافيرني الذي كان يحس رغمًا عنه بأن لديه مزاجًا للكلام في ذلك المساء، فقد استأنف حديثه بعد دقيقتين وقال:

«لقد تناولت عشاءً جيداً اليوم، ولكني أقول لك بارتياح إن شامبانيا والدتك حلوةٌ أكثر من اللازم».

فسألت جوليا، وهي تدير رأسها إلى ناحيته، وبكثيرٍ من عدم الاكتراث، ومتظاهرةً بأنها لم تسمع شيئاً.

- كنت أقول إن شامبانيا والدتك شديدةُ الحلاوة. وقد نسيت أن أقول لها ذلك، فهذا يثير الدهشة. إلا أن الناس يتصورون أنه من السهل اختيار الشامبانيا. وحقيقةُ الأمر، أنه لا شيء أكثر صعوبةً من ذلك. فهناك عشرون نوعاً من الشامبانيا الرديئة، وليس هناك إلا نوعٌ واحدٌ جيد.

- آه!...

بعد أن خصت جوليا بهذا التعجب مجاملةَ زوجها، أدارت رأسها، وأخذت تنظرُ من خلال باب العربة الذي ينفتح من جهتها. فانقلب شافيرني إلى الوراء، ووضع قدميه على الوسادة الأمامية للعربة، وقد أحسَّ بقليلٍ من الإذلال، لأن زوجته بدت كذلك غيرَ متأثرةٍ بالجهود التي كان يبذلها كلها كي يفتح الحديث معها.

ومع ذلك، فقد استمر يقتربُ من جوليا، بعد أن تثاءبَ مرتين أوثلاث، وقال: «هذا الفستانُ الذي تلبسينه يليقُ بك بصورةٍ رائعة، ياجوليا، فمن أين اشتريته؟

ففكرت جوليا:

«إنه يريدُ بلا شك أن يشتري فستاناً مماثلاً لعشيقته». وأجابت وهي تبتسمُ ابتسامة خفيفة:

«من عند بورتي».

فسأل شافيرني، وهو يرفع قدميه عن الوسادة، ويقترب منها أكثر:

«لماذا تضحكين؟».

وأمسك في الوقت نفسه أحد أكمام فستانها، وأخذ يتلمسه قليلاً على طريقة تارتوف[1].

فقالت جوليا:

«أضحكُ لأنك تلاحظُ زينتي. احذر، إنك تدعك أكمامي».

وسحبت كمها من يد شافيرني:

«أؤكد لك أني اهتمٌ اهتماماً كبيراً بزينتك، وأني معجبٌ إعجاباً خاصاً بذوقك.

كلا، وشرفي، كنت أتحدثُ في ذلك اليوم مع... امرأةٍ تُسيء اختيارَ ماتلبسُ دائماً... مع أنها تنفقُ نفقاتٍ رهيبةً على زينتها... ولربما تصيبُ بالإفلاس... وكنتُ أقولُ لها... وكنتُ أوردك مثالاً...

كانت جوليا تستمتعُ بارتباكه، ولم تكن تسعى لوقفه عند حدٍّ معين، عن طريق مقاطعته.

فقال شافيرني وقد تشوش تماماً:

«إن جيادكِ رديئة حقًا، فهي لاتسيرُ جيداً، ويجب أن أبدِّلها لك».

ولم يصبح الحديثُ أكثرَ حيويةً أثناء ما تبقى من الطريق. ولم يكن أحدٌ من هذا الجانب أوذاك يذهبُ إلى أبعد من الجواب.

وصل الزوجان أخيراً إلى شارع ### وافترقا، وكلٌّ منهما يتمنى للآخر ليلةً طيبة. وأخذت جوليا تخلعُ ثيابها، وكانت مدبرةُ منزلها قد خرجت منذ قليل ولا أدري لأيِّ غرض، عندما انفتحَ بابُ غرفةِ النوم بصورةٍ مفاجئة، فدخل شافيرني، وغطت جوليا كتفيها على عجل. فقال: عفواً أريدُ المجلّد الأخير من كتابِ «سكوت» كي أنام... إنه كينتان ديروار، أليس كذلك؟ فأجابت جوليا:

---

(١) - تارتوف: هو شخصية المنافق، والمؤمن الزائف في مسرحية موليير الشهيرة (م: ز. ع)

- يجب أن يكون في غرفتك، فما من كتبٍ هنا.

كان شافيرني يتأمل امرأته، في تلك الفوضى الجزئية الملائمة جداً للجمال، وكان يجدُها «مثيرةً» إذا ما استخدمت ُأحدَ تلك التعابير التي أمقتها. وكان يفكر قائلاً: «حقًّا، إنها امرأةٌ على حظٍّ كبيرٍ من الجمال!. ومكثَ واقفًا، أمامها، لايبدي حراكًا، ودون أن يقولَ كلمة، وشمعدانهُ في يده، أما جوليا، فكانت قبالته، تدعكُ قبعتها، ويبدو كأنها تنتظر بفراغ صبرٍ أن يتركها وحدها.

هتف شافيرني أخيراً، وهو يتقدمُ خطوة، ويضعُ شمعدانه: «إنك ساحرةٌ هذا المساء، فليأخذني الشيطانُ! لكم أحبُّ النساء المشعثات الشعر!. وأثناء كلامه، أمسك ضفائر الشعر الطويلة التي كانت تغطي كتفي جوليا، ومرر برقةٍ تقريبًا إحدى ذراعيه حول قامتها. فصرخت جوليا، وهي تشيحُ بوجهها: «آه! يا إلهي! إن رائحةَ التبغ الفظيعة تفوحُ منك. اترك شعري، فلسوف تجعله يتشرب تلك الرائحة، ولن أستطيع التخلصَ منها فيما بعد.

- باه! إنك تقولين هذا مهما حدث، لأنك تعلمين أني أدخن أحياناً؛ فلا تتمنّعي عليّ كثيراً إذن يا زوجتي الصغيرة.

لم تستطع أن تتخلصَ من ذراعيه بما يكفي من السرعة لكي تتفادى قبلةً طبعها على كتفها.

ولحسن حظ جوليا، فقد دخلت مدبرةُ منزلها، فلا شيء أبغضُ إلى نفس المرأة من تلك المداعبات التي يثيرُ السخريةَ رفضها مثلما يثيرها قبولها.

وقالت السيدة دوشافيرني: «يا ماري، إن صدار فستاني طويلٌ أكثر من اللازم، وقد رأيتُ اليوم السيدة بيجي التي تتمتعُ دومًا بذوقٍ لا عيبَ فيه. وكان صدارُها أقصر بإصبعين من صداري بالتأكيد. خذي اصنعي غبنةً بالدبابيس حالاً لنرى التأثير الذي تُحدثه».

وهنا جرى بين مديرة المنزل وربّته حوارٌ هو من أكثر الحوارات إثارةً للاهتمام حول المقاسات الدقيقة التي ينبغي أن تكون للصدار. وكانت جوليا تعرفُ جيداً أن شافيرني لايكره شيئًا كما يكره سماعَ الحديث عن الدُّرْجات، وأنه سوف يجعله يهرب. وهكذا، فبعد خمسِ دقائق من الروحاتِ والجيئات، رأى شافيرني أن جوليا منهمكةٌ جداً بصدارها، فتثاءب، على نحوٍ مرعب، واستعاد شمعدانه، وخرج تلك المرّة كي لايعود ثانية.

الفصل الثالث

كان المقدم بيران جالساً أمام منضدة صغيرة، ويقرأ باهتمام. وكان معطفه المنظف بالفرشاة تنظيفاً متقناً، وقبعة الشرطي التي يعتمرها، وصلابة صدره الحديدية خصوصاً، تدلل على عسكريٍ عجوز. كل شيء كان نظيفاً في غرفته، ولكنه على أكبر صورة من البساطة. وكان على المنضدة محبرةٌ، وريشتان للكتابة مبريّتان وجاهزتان، إلى جانب دفترٍ لأوراق الرسائل لم تُستخدم منه ورقةٌ واحدة، منذ عام على الأقل. ولئن كان المقدمُ بيران لايكتب فقد كان بالمقابل يقرأ كثيراً. وكان حينذاك يقرأ «الرسائلَ الفارسية[1]»، وهو يدخّن غليونه المصنوع من «زبد البحر[2]». وكان هذان العملان يستحوذان على اهتمامه بحيث لم يلحظ منذ البداية دخولَ المقدّم شاتوفور إلى غرفته. وكان هذا المقدّم ضابطاً شاباً من فوجه، ساحر الطلعة، محبباً كثيراً إلى النفس، ولكنه مغرورٌ قليلاً، ومحميٌّ إلى حدّ كبير من وزير الحربية. وبكلمةٍ واحدة، إنه نقيضُ المقدّم بيران من كلّ النواحي تقريباً. ومع ذلك، فقد كانا صديقين، ولا أدري لماذا، وكانا يلتقيان كلّ يوم.

ضرب شاتوفور على كتف المقدّم بيران، فأدار هذا الأخير رأسه دون أن يترك غليونه، وكان أولُ تعبيرٍ له ينمُّ عن السّرور برؤية صديقه، والثاني عن الأسف على ترك الكتاب الذي يقرأه، فيا له من رجلٍ وقور! أما التعبيرُ الثالث فكان يدلُّ على أنه قد قرّر أن يقوم على أحسن وجه باستقبالِ ضيفه في شقته، حسب الأصول، فأخذ يفتشُ في جيبه بحثاً عن مفتاحٍ ليفتح به خزانةً كانت علبةُ لفافاتِ تبغٍ ثمينة قد خبئت

---

(١) - كتاب لمونتيسيكو، على شكل رسائل. (م: ز. ع).

(٢) - هو سيليكات المغنزيوم، وتصنعُ منه غلايين (م: ز. ع).

فيه، ولم يكن المقدّم ذاته يدخنها، وكان يعطيها واحدةً فواحدة إلى صديقه، غير أن شاتوفور الذي رآه مئةَ مرةٍ يقوم بالحركة نفسها، هتفَ قائلاً: «ابقَ في مكانك إذن يابابا بيران، واحتفظ بلفافاتك، فلديّ منها!». ثم أخرجَ من علبةٍ مكسيكيةٍ مصنوعةٍ من القشّ، لفافةً بلون القرفة، ومذلّقة الطرفين جيداً، وأشعلها. وتمدّد على كنبةٍ صغيرة لم يكن المقدّم بيران يستخدمها قط، واستند برأسه إلى وسادة، وبقدميه إلى المسند المقابل. وبدأ شاتوفور بأن لفّ نفسه بسحابةٍ من الدخان، فيما كان يبدو، وعيناه مغمضتان. إنه يتفكّر بعمق بما كان يتعيّن عليه قوله. كان وجهه مشرقًا بالفرح، ويبدو كأنه يخبىء في صدره بعناء سرّ سعادةٍ كان يتحرق شوقًا إلى الكشف عنها. أما المقدّم بيران، فبعد أن وضع كرسيه قبالة الكنبة، فقد دخّن بعضَ الوقت، دون أن يقول كلمة. وبما أن شاتوفور لم يكن متعجلاً ليتكلم، فقد قال له:

«كيف حال أوريكا؟»

وكان المقصود بسؤاله فرسًا سوداء كان شاتوفور قد أرهقها قليلاً، وكانت مهدّدةً بأن تصاب بانتفاخ الرئة.

فقال شاتوفور الذي لم يكن قد أصغى إلى السؤال: في حالٍ جيدة.

وهتف وهو يمدّ نحو بيران الساقَ التي كانت تستريح على مسند الكنبة:

يا بيران! أتعلم أنك رجلٌ محظوظ لأنيّ صديقك؟

وأخذ المقدمُ العجوزُ يبحث في ذهنه عن الامتيازات التي كانت معرفته بشاتوفور قد جعلته يحصل عليها، ولم يجد أكثر من إهداء بعضِ كتب كاناستير، وعدداً من أيام التوقيف الإجباري التي أُنزلت به، لأنه قد تدخّل في مبارزة لعبَ فيها شاتوفور الدورَ الأول. كان صديقه، في الحقيقة، يقدّم له علامات كثيرةً تدلُّ على الثقة، فشاتوفور إنما كان يتوجهُ إليه دومًا ليحلّ محله، عندما يكوّن مناوبًا، أو حين يكونُ بحاجةٍ إلى بديل.

ولم يتركه شاتوفور يبحث طويلاً، بل مدّ إليه رسالةً صغيرة مكتوبة على ورقٍ إنكليزي صقيلٍ ولامع، وبخطٍّ جميل منمنم. فقطب المقدمُ بيران وجهه، وهذا ما يعادلُ الابتسامة لديه، فغالبًا ما كان يرى رسائل من مثلِ تلك الرسالة الصقّيلة، والمغطاة بكتابةٍ منمنمة، والموجهة إلى صديقه، فقال له هذا الأخير:

«خذ، اقرأ، إنك تدين لي بهذا».

فقرأ بيران مايلي:

«تلطف، أيها السيد العزيز، بالمجيء إلى منزلنا لتناول العشاء، وكان يمكن للسيد دوشافيرني أن يذهب ليرجوك أن تأتي، غير أنه اضطر إلى الاشتراك في رحلة صيد، وأنا لا أعرفُ عنوان السيد المقدّم بيران، ولا يمكنني أن أكتب إليه لأطلبَ منه أن يرافقك. وقد شوّقتني كثيراً لمعرفته. ولسوف أكون مدينة لك على نحوٍ مضاعف، إذا اصطحبته إلى منزلنا».

«جوليا دوشافيرني»

«حاشية: أشكرك جزيل الشكر على الكتابة الموسيقية التي تحمّلتَ مشقةَ نسخها من أجلي. إنها رائعةٌ. ولا بد دومًا من الإعجاب بذوقك. إنك لم تعد تأتي أيام الخميس، ومع ذلك، فأنت تعرف السرورَ الذي تدخله علينا حين نراك».

فقال بيران وهو ينهي قراءته: «إنه خطٌّ جميلٌ، إلا أنــه ناعمٌ جداً. ولكن، يا للشيطان! إن عشاءها يضجرني، فلسوف يتعينُ عليّ أن ألبس جوارب حريرية، وليس هناك تدخينٌ بعد العشاء!

– يا له من سوء حظ جميل حقًّا! أن تؤثر أجمل نساء باريس على غليون!... إن الذي يعجبني فيك هو عدم اعترافك بالجميل. فلا تشكرني على السعادة التي تدينُ لي بها.

– أشكرك! ولكني لا أدين بهذا العشاء لك... إن كان هناك اعترافٌ بالجميل.

- ولمن إذن؟

- لشافيرني الذي كان نقيباً عندنا. لابد أنه قد قال لزوجته: «ادعي بيران. إنه صبيٌّ لطيفٌ» فكيف تريد أن تفكر امرأةٌ جميلةٌ لم أرها أبداً سوى مرةٍ واحدة، في دعوة جنديّ قديم عجوز مثلي؟».

ابتسم شاتوفور وهو ينظرُ إلى نفسه في المرآة الضيقة جداً، والتي كانت تزين غرفة المقدم:

«ليس لديك نفاذُ بصيرةٍ اليوم. يابابا بيران، أعد لي قراءةَ هذه البطاقة. ولربما تجدُ فيها شيئًا لم تره فيها».

فأدار المقدم البطاقة وقلبها، ولم ير شيئًا.

فهتف شاتوفور: كيف، أيها التنين العجوز! ألا ترى أنها تدعوك لترضيني، وكي تثبت لي أنها تقيمُ وزنًا لأصدقائي وحسب... وأنها تريد أن تبرهن لي... على...؟

فقاطعه بيران: - على ماذا؟

- على... أنت تعرفُ جيداً على ماذا.

فسأله المقدّم بلهجةٍ متشككة:

- على أنها تحبك؟

فصفر شاتوفور دون أن يردّ:

« إنها مغرمةٌ بك إذن؟»

فظلّ شاتوفور يصفرُ باستمرار.

هل قالت لك ذلك؟

- ولكن... هذا واضحٌ، كما يبدو لي.

- كيف . . . ؟ في هذه الرسالة؟

- بلا شك .

فأتى دور بيران كي يصفّر، وأصبحت صَفْرتُه ذاتَ دلالة مثل ليليبوليرو عمي توبي الشهير .

فصرخ شاتوفور وهو ينتزعُ الرسالة من بين يدي بيران : كيف! أنت لاترى كلّ ما فيها من . . . رقيق . . . أجل، رقيق، هنا في الداخل؟ فماذا لديك لتقوله عن هذا :

سيدي العزيز؟ لاحظ جيداً أنها في بطاقة أخرى، كانت تكتبُ لي : سيدي، وحسب . ثم : سأكون مدينةً لك بدينٍ مضاعف : إن هذا إيجابي . ثم ألا ترى، ثمة كلمة ممسوحة بعد ذلك : إنها : ألف . وكانت تريدُ أن تضع : ألف تحية ودية . ولكنها لم تجرؤ على ذلك . ولم يكن ذلك كافياً . . . ولم تُنه بطاقتها . . . أو! ياصديقي القديم! هل تريدُ بالمناسبة أن تذهب امرأةٌ من عائلة محترمة كالسيدة شافيرني لترمي بنفسها في أحضان خادمك، مثلما تفعل عاملةٌ صغيرةٌ مرحة؟ . . . أنا أقول لك إن رسالتها ساحرة، ولا بدّ للمرء أن يكون أعمى كي لايرى فيها شغفاً . . . والعتابات في آخر البطاقة، لأني قد أخلفتُ الموعد، في أحد أيام الخميس فقط، ماذا تقول فيها؟

فهتف بيران : أيتها المرأة المسكينة، لاتشغفي بهذا الشخص، فلسوف تندمين على ذلك سريعاً!

ولم ينتبه شاتوفور إلى التشخيص[1] الذي قدمه صديقه، ولكنه قال وهو يتخذ درجةً صوتية خفيفة ولماحةً :

«هل تعلم، يا عزيزي، أن باستطاعتك تقديم خدمةٍ كبيرة لي؟

---

(١) - التشخيص : هو إضفاء صفات بشرية على الحيوانات أو النباتات أو الأشياء وجعلها تنطق بلغة الإنسان . (م : ز . ع) .

- كيف؟

- يجب أن تساعدني في هذه المسألة، فأنا أعلم أن زوجها يتصرف تجاهها على نحوٍ سيىء جداً، إنه حيوانٌ، ويجعلها تعسةً. ولقد عرفته، أنت يا بيران، فقل لزوجته إنه فظّ، وإنه رجلٌ سيىء السمعة إلى أقصى الحدود. . .

- أوه!

- إنه متهتك. . . وأنت تعلم ذلك، فقد كانت له عشيقاتٌ، حين كان في الفوج، وأية عشيقات! قل كلّ ذلك لزوجته.

- أوه! كيف أقول ذلك؟ فبين الشجرة وقشرتها. . .

- يا إلهي! هناك طريقةٌ لقول كلّ شيء! . . . وامتدحني بصورةٍ خاصة.

- بالنسبة لامتداحك، هذا أمرٌ سهل، ومع ذلك. . .

- انتبه، ليس هذا بالأمر السهل كما نعتقد، فإذا تركتك تقولُ ما تريدُ، فقد تمتدحُني بصورةٍ لا ترتبُ الأمور! . . . قل لها إنك «منذ بعض الوقت» تلاحظُ أني حزين، وأني لم أعد أتكلمُ، ولم أعد آكلُ. . .

فهتف بيران وهو يقهقه قهقهةً جعلت غليونه يهتزُّ بحركاتٍ مثيرةٍ للضحك إلى أبعد حدّ.

- بسبب هذا الحبّ! لن أستطيع قطّ أن أقول ذلك في وجه السيدة دوشافيرني، فبالأمس، مساءً أيضًا، كان لا بدّ تقريبًا من أن تُحمَلَ حملاً بعد العشاء الذي قدّمه لنا رفاقنا.

- فليكن. ولكن من غير المفيد أن نحكي لها ذلك. ومن الحسن أن تعرف أنني مغرمٌ بها، فهؤلاء الذين يصنعون الرّوايات قد أقنعوا النساء بأن رجلاً يشرب ويأكل لا يمكن أن يكون مغرمًا.

- بالنسبة لي، أنا لا أعرفُ شيئًا يجعلني أخسر الشرابَ والطعام.

فقال شاتوفور، وهو يعتمر قبعته، ويرتب خصلات شعره:

- حسنًا، يا عزيزي بيران. هذا ما نتفقُ عليه، فأنا آتي لآخذك نهار الخميس المقبل، فتلبس حذاءً، وجواربَ حريريةً، وزيًّا رسميًّا! ولا تنسَ خصوصًا أن تقول أشياءَ فظيعةً عن الزوج، والكثير من الأشياء الجيدة عني.

وخرج، وهو يهزّ خيزرانته بكثيرٍ من الأناقة، تاركًا المقدّم بيران مشغولَ البال إلى حدٍّ كبير بالدعوةِ التي تلقاها منذ قليل، ومضطربَ الذهن أكثر أيضًا، من جراء التفكير بالجوارب الحريرية والزي الرسمي.

الفصل الرابع

ما إن اعتذر عدةُ أشخاصٍ مدعوين إلى منزلِ السيدة دوشافيرني، حتى غدا العشاءُ كئيبًا بعضَ الشيء. وكان شاتوفور يبدو إلى جانب جوليا رقيقَ الحاشية، ومحببًا إلى النفس كعادته، وهو يظهرُ مبادرةً نشطةً لخدمتها. أما شافيرني، الذي كان قد قام بنزهةٍ طويلة على الجواد في الصباح، فكانت شهيته هائلةً. وكان يأكلُ إذن ويشربُ بطريقة تجعلُ أكثر الناسَ مرضًا يشتهون الطعام والشراب. وكان المقدّمُ بيران يرافقه، فيصبُّ له الشرابَ غالبًا، ويضحكُ ضحكًا يكادُ يحطّم الأقداحَ، في كلِّ مرة يتيحُ له فيها الفرصةَ مرحُ مضيفه المتطلّق. وما إن وجد شافيرني نفسه مجددًا مع عسكريين، حتى استعاد سريعًا مزاجه الحسن، وعاداته في الفوج، زد على ذلك أنه لم يكن من أكثر الناس رهافةً في اختيار مُزاحاته. وكانت زوجته تتخذُ هيئةً تنمُّ عن احتقار بارد، عند كلّ عبارةٍ نافرةٍ، غير لائقة وكانت، عند ذاك، تستديرُ إلى ناحيةِ شاتوفور، وتبدأ محادثةً على انفرادٍ معه، كي تُظهر أنها لا تسمعُ حديثًا يزعجها غايةَ الإزعاج.

وإليكم عينةً من كياسة هذا النموذج من الأزواج، فعند نهايةِ العشاء تقريبًا، وبعد أن دارَ الحديثُ على الأوبرا، أخذوا يناقشون الجدارةَ النسبيةَ لعددٍ من الراقصات، ويمتدحون كثيرًا، فيما يمتدحون، الآنسة ### والتي كان شاتوفور، يمتدحها أكثر من الأخريات، فيثني خصوصًا على رشاقتها، وشكلها، وهيئتها المحتشمة.

أما بيرانُ الذي كان شاتوفور قد اصطحبه إلى الأوبرا، لبضعة أيامٍ خلت، والذي لم يكن قد ذهب إليها إلا تلك المرة الوحيدة، فقد كان يتذكر جيدًا الآنسة

فقال: هل هي تلك الفتاةُ القصيرة القامة التي ترتدي الوردي، والتي تقفز مرحًا؟ . . . وذات الساقين اللتين كنت تتحدثُ عنهما كثيراً يا شاتوفور؟

فهتف شافيرني:

- آه! كنت تتحدث عن ساقيها! فهل تعلم أنك إذا تحدثتَ عنهما أكثر من اللازم، فلسوف تختلفُ مع عميدك الدوق دو ###، فاحترس، يا رفيقي!

- ولكني لا أفترض أنه غيور إلى حدّ كبير بحيث يمنع مشاهدتهما من خلال منظار صغير.

- على العكس، فهو فخورٌ بهما وكأنه قد اكتشفهما. فماذا تقولُ، أيها المقدّم بيران؟

فأجاب الجنديُّ القديمُ بتواضع:

- إن خبرتي قليلةٌ باستثناء سيقان الخيول.

فاستأنف شافيرني:

- إنهما، في الحقيقة، رائعتان، وليس هناك أجمل منهما في باريس ماعدا ساقي . . .

وتوقف عن الكلام، وأخذ يفتلُ شاربه باستهزاء، وهو ينظر إلى زوجته التي سرعان ما احمرت خجلاً حتى كتفيها.

فقاطعه شاتوفور، وهو يشيرُ إلى راقصةٍ أخرى: باستثناء الآنسة د. ###

فردّ شافيرني بلهجة هملت المأسوية - كلا، ولكنْ انظر إلى زوجتي.

غدت جوليا قرمزيةَ اللون من الغضب. ورمت زوجها بنظرةٍ سريعة كالبرق، ولكن الازدراء والغضبَ الشديد كانا يرتسمان فيها. ثم بذلت جهدها لتضبط نفسها، واستدارت فجأة نحو شاتوفور. وقالت بصوتٍ مرتعش قليلاً:

ينبغي أن ندرس ثنائية «ماوميتّو»، ولابدّ أن تكونَ مناسبةً لصوتك تمامًا. ولم يكن شافيرني رجلاً يسهل التغلب عليه، فتابع قائلاً:

«هل تعلم يا شاتوفور، أني أردت فيما سبق أن أوصي بصنع قالبٍ للساقين اللتين أتكلم عنهما؟ ولكن لم تكن هناك موافقةٌ على السماح بذلك قط».

أما شاتوفور الذي كان يشعر بفرحٍ شديد جداً، بسبب تلك المكاشفة الوقحة، فلم يظهر عليه أنه قد سمع، فتحدث عن الـ «ماوميتّو» مع السيد شافيرني. وتابع الزوجُ الذي لا يرحمُ قائلاً: «إن الشخص الذي أعنيه هو امرأةٌ كانت تحنقُ عادةً حين يعترفون لها بحقها في هذا الموضوع. ولكنها، في دخيلتها، لم تكن مستاءة، فهل تعلمون أن هـذه المرأة تسمحُ لبائـع الجـوارب أن يـأخذ قياسها؟ - لا تغضبي، يا زوجتي... فأنا أقصد بائعة الجوارب، وعندما كنتُ في بروكسيل، حملت معي ثلاث صفحات بخطّها تحتوي المعلومات التفصيلية لمشترياتها من الجوارب».

ولكنه كان يتكلمّ بلا طائل، فقد كانت جوليا مصممةً على ألا تسمع شيئًا. وكانت تتحدثُ مع شاتوفور، وتتكلمُ معه وهي تتصنعُ المرحَ. وكانت ابتسامتها الرقيقة تسعى لإقناعه بأنها لا تصغي إلا إليه. أما شاتوفور، من جهته، فقد كان يبدو غارقًا كلياً في ثنائية «ماوميتو» الموسيقية، غير أنه لم يكن يضيعُ شيئًا من سفاهات شافيرني.

بعد العشاء، قُدّم شيءٌ موسيقي، وغنّت السيدة شافيرني على البيانو، يرافقها شاتوفور، فاختفى شافيرني في اللحظة التي انفتح فيها البيانو. ووصل عددٌ من الزائرين، ولكن وصولهم لم يمنع شاتوفور من التحدث، في معظم الأحيان، بصوتٍ خفيضٍ مع جوليا. ولدى خروجه، أعلن لبيران أنه لم يخسر سهرته، وأن أعماله تتقدم.

كان بيران يجدُ أمراً بسيطًا أن يتحدثَ زوجٌ ما عن سيقان زوجته. وهكذا، فعندما أصبح وحده في الشارع مع شاتوفور، قال له بلهجةٍ واثقة:

«ماهو شعورك الداخلي إذ تعكّر صفوَ أسرةٍ طيبةٍ كهذه، إنه يحبُّ زوجته الصغيرة حبًا جمًا».

الفصل الخامس

كان شافيرني منذ شهر مشغولَ الذهن بأن يصبح من نبلاء المجلس.

قد يُدهشنا أن يتأثر رجلٌ سمينٌ وكسول، ويحب رفاهيته، بفكرةٍ فيها طموحٌ، إلا أنه لم يكن يفتقر إلى المبرراتِ المقنعة التي تسوغ فكرته. وقد كان يقول لأصدقائه: أولاً، أنا أُنفق الكثير من المال على شرفات المسرح التي أعطيها للنساء. وعندما يصبح لي عملٌ في البلاط، أحصلُ على العدد الذي أريده من الشرفات دون أن يكلّفني ذلك فلساً واحداً. ونحن نعلم على ماذا يمكن للمرء أن يحصل، عن طريق هذه الشرفات. فضلاً عن أني أحبُّ الصيد كثيراً. فتصبح رحلاتُ الصيد الملكية لي. وأخيراً، فبما أني الآن لا أمتلكُ زيًّا رسميًّا، فأنا لا أعرف كيف أرتدي ملابسي كي أذهب إلى حفلات رقصِ سموّ السيدة[1]. فأنا لا أحبُّ ملابسَ المركيز، ولباسُ نبيلٍ من نبلاء المجلس يناسبني بصورةٍ جيدةٍ جداً. وبناءً على ذلك، فقد أخذ يلتمسُ ذلكَ المنصب. وكان يريد أن تلتمسه زوجته له أيضًا. ولكنها أبت بعناد أن تفعل ذلك، مع أن عندها صديقاتٍ مقتدرات جداً. وبما أن شافيرني كان قد أدّى بعض الخدمات الصغيرة للدوق دو هـ ### والذي كان ذا نفوذ جيد حينذاك في البلاط، فقد كان ينتظرُ الكثير من نفوذه. أما صديقه شاتوفور الذي كانت لديه أيضاً معارفَ جيدة جداً، فقد كان يخدمه بحماسٍ وإخلاصٍ، من مثل ذلك الحماسِ والإخلاص اللذين ربما تلاقيهما إذا كنت زوجًا لامرأةٍ جميلة.

وجعلت إحدى المناسبات أعمال دو شافيرني تتقدم كثيراً، مع أنه من الممكن أن تكون لها نتائج مشؤومةٌ عليه، فقد حصلت السيدة دو شافيرني، في أحد أيام

(١) - السيدة: هنا هي إحدى سيدات القصر (م: ز.ع).

العرض الأول، ولم يكن ذلك من غير مشقّة. وكانت تلك الشُّرفةُ تحتوي ستةَ مقاعد. أما زوجُها فقد وافق على مرافقتها، خلافًا لعادته. وبعد تأنيبات شديدة. فجوليا كانت تريدُ أن تقدّم مقعدًا لشاتوفور، وقد شعرت بأنها لاتستطيعُ أنْ تذهب معه وحدها إلى الأوبرا، فأجبرت زوجها على حضور العرض.

وما إن انتهى الفصل الأولُ، حتى خرج شافيرني تاركًا زوجته وحدها مع صديقه، فالتزمَ كلاهما الصمت في البداية، والضيقُ بادٍ عليهما بعضَ الشيء، على جوليا أولاً، لأنها كانت تشعرُ شخصيًا بالإحراج، منذ بعض الوقت، حين تجد نفسها بمفردها مع شاتوفور، وعلى هذا الأخير، لأنه كان قد رسم مشاريعَ معينةً، ووجد من اللائق أن يبدو منفعلاً. وحين ألقى نظرةً مختلسةً على القاعة، رأى بسرور عددًا من المناظير الصغيرة لأناسٍ من معارفه تتوجهُ إلى شرفته، فأحسّ برضىً طاغٍ عندما فكّر بأن عددًا من أصدقائه يحسدونه على سعادته، فقد كانوا، على الأرجح، يفترضون أنها أكبر بكثير مما هي عليه في الواقع.

بعد أن تحسست جوليا مجمرة عطورها وباقتها عددًا من المرات، تحدثت عن الحرارة، وعن العرض، وعن ألوان التزيين. وكان شاتوفور يُصغي وهو شاردٌ، ويتنهدُ، ويتحركُ على مقعده، وينظر إلى جوليا، فيتنهَّد أيضًا. وبدا أن جوليا تشعرُ بالقلق، وفجأة هتف: كم أتحسّر على عصر الفروسية!

فسألت جوليا:

– عصر الفروسية! ولماذا إذن! لأن لباسًا من ألبسة العصر الوسيط قد يناسبك جيدًا بلا شك؟

فقال بلهجةٍ تنمُّ عن المرارة والأسى:

– أنت تظنين أني مغرورٌ حقًا – كلا، أنا أتحسّر على ذلك العصر... لأن الرجلَ الذي كان يقعَ في الغرام... كان يمكنه أن يطمح إلى... أشياء كثيرة... وفي نهاية الأمر، فقد كان المطلوبُ منه هو مهاجمةُ عملاقٍ كي يروق لسيدة

قلبه . . . هيا، هل ترين ذلك الرجلَ الجبّار الطويل، على الشرفة؟ أود أن تأمريني بأن أذهبَ وأطلبَ منه شاربه لأعطي نفسي الإذن بعد ذلك كي أقول لك ثلاثَ كلماتٍ صغيرة دون أن أزعجك.

فصرخت جوليا، وقد احمرت خجلاً إلى أقصى حدّ، فقد كانت تتكهنُ مسبقًا بتلك الكلمات الثلاث الصغيرة.

- أي جنونٍ هذا! بل انظر إلى السيدة سانت - إيرمين التي تكشف عن صدرها وظهرها، وهي في هذا العمر، وترتدي لباسَ الرقص.

- لا أرى إلا شيئًا واحداً، وهو أنكِ لا تُريدين سماعي، وأنا ألاحظُ ذلك منذ زمنٍ طويل . . . وإذا شئتِ، فأنا أسكت، ولكن . . . وأضاف بصوتٍ خفيضٍ جداً وهو يتنهد: لقد فهمتني . . .

فقالت جوليا بجفاف:

- كلا، في الحقيقة، ولكن أين ذهب زوجي إذن؟

وأتت فجأة زيارةُ أحدِ الأشخاص، في الوقت المناسب كي تخلّصها من الموقف المحرج. ولم يفتح شاتوفور فمه، بل كان شاحبًا، ويبدو عليه التأثُّر العميقُ. وحين خرج الزائرُ، أبدى بعضَ الملاحظاتِ غير المهمة حول العرض، وصارت تتخللُ حديثهما أوقات صمتٍ طويلة.

كان الفصلُ الثاني على وشك أن يبدأ، عندما انفتح بابُ الشرفة، وظهر شافيرني وهو يصحبُ امرأةً جميلةً جداً، وكثيرة التبرج، وتغطي رأسها بريشٍ وردي رائع. وكان يتبعُ شافيرني الدوق دو هـ ###.

فقال لزوجته: «يا عزيزتي، لقد وجدت الدوق والسيّدة في شرفةٍ جانبية مريعة، ولا يمكن أن ترى منها زخارفُ الصالة، وقد وافقا على قبولِ مقعدٍ في شرفتنا.

انحنت جوليا ببرود، فقد كان الدوق دو هـ ### لا يروقُ لها. وأخذ الدوق والسيدة ذات الريش الوردي يغاليان في الاعتذار، فقد كانا يخشيان إزعاج جوليا. فحدث تحركٌ وصراعٌ على الكرم من أجل أمكنة الجلوس. وأثناء الفوضى التي تلت ذلك، انحنى شاتوفور على أذن جوليا، وقال لها بصوتٍ خفيضٍ جداً، وبسرعةٍ كبيرة:

«حبًّا بالله، لاتجلسي في مقدم الشرفة».

دهشت جوليا كثيراً، وبقيت في مكانها، فأصبح الجميعُ جالسين، واستدارت نحو شاتوفور، وسألته بنظرةٍ قاسيةٍ بعض الشيء عن تفسيرٍ لذلك اللغز. لقد كان جالسًا، وعنقهُ متصلبةً، وشفتاه مضمومتين، وموقفه بأكمله يدلُّ على أنه في غايةِ الضيق. وحين فكرت جوليا بالأمر، فسّرت على نحوٍ سيىء توصيةَ شاتوفورَ لها. ففكرت أنه يريد أن يتحدث معها بصوتٍ خفيض أثناء العرض، وأن يتابعَ أحاديثه الغريبة، وهذا ما كان غير ممكن بالنسبةٍ إليه إذا بقيت جالسةً في المقدمة. وحين عادت بنظرها إلى القاعة، لاحظت أن عدة نساء يوجهن مناظيرهن الصغيرة نحو شرفتها، ولكن الأمرَ يكون كذلك دائمًا حين يظهرُ وجهٌ جديد. كانوا يهمسون، ويبتسمون. ولكن ما هو الأمر غير العادي في المسألة؟ إن الأوبرا أشبهُ ماتكون بمدينةٍ صغيرة جداً!

انحنت المرأة الغريبة على باقة جوليا، وقالت بابتسامة ساحرة:

«لديك باقةٌ رائعة. هنا، يا سيدتي. وأنا متأكدةٌ من أنها لابدّ قد كلفت غاليًا، في مثل هذا الفصل: عشر فرنكات على الأقل. ولكنها أُعطيت لـــكِ! إنها هديةٌ بلا شك؟ فالنساء لايشترين باقاتهن قطّ».

كانت جوليا تفتحُ عينيها على اتساعهما من الدهشة، ولا تدري مع أيةِ امرأةٍ ريفيةٍ قد وجدت نفسها.

قالت السيدة بلهجةٍ فاترة: أيها الدوق، أنت لم تعطني باقةَ ورد.

سارع شافيرني إلى الباب، وأراد الدوق إيقافه، وكذلك السيدة، فهي لم تعد ترغبُ في الباقة. وتبادلت جوليا نظرةً مع شاتوفور. وكانت هذه النظرةُ تريدُ أن تقول:

«أشكرك، ولكن الأوان قد فات». ومع ذلك، فلم تكن قد خمنت الأمر تخمينًا صحيحًا بعد.

أثناء العرض بكامله، كانت السيدةُ ذات الريش تنقرُ بأصابعها، بإيقاعٍ ناشز، وتتكلم في الموسيقى بصورة عشوائية. وكانت تسألُ جوليا عن ثمنِ فستانها، وحليتها، وخيولها. ولم ترَ جوليا قطّ أساليبَ مماثلةً في التصرف، واستنتجت أنّ الغريبةَ لابدّ أنها إحدى قريبات الدوق، وقد وصلت مؤخراً من بروتانيا السفلى. وحين عاد شافيرني حاملاً باقةً ضخمة، أجملَ بكثير من باقة زوجته. كان ذلك مجالاً لإبداء الإعجابِ، وإظهار الشكر وتقديمِ الاعتذارات بصورةٍ لم تعد تنتهي.

وقالت المرأةُ الريفية المزعومةُ، بعد متتابعة كلامية طويلة: أيها السيد دوشافيرني. أنا لستُ ناكرةً للجميل. وكي أبرهن لكَ على ذلك. «اجعلني أفكر بأن أعدك بشيء ما» كما يقول بوتييه، حقًّا سوف أطرزّ لك كيسَ نقود، ما إن أنتهي من ذلك الذي وعدتُ به الدوق.

انتهت الأوبرا أخيراً، فشعرت جوليا بارتياحٍ كبير، فقد كانت تحسُّ بالضيق إلى جانب جارتها الغريبة في تصرّفها. وقدّم لها الدوقُ ذراعه. ولكن شافيرني أخذَ ذراع السيدة الأخرى. أما شاتوفور، الذي كان مغتماً ومُستاءً، فقد كان يسير خلف جوليا ويحيّي مرغمًا الأشخاصَ الذين يعرفهم، ويلتقيهم على الدرج.

ومرت بضعُ نساء قريباً منهم، وكانت جوليا تعرفهن بالنظر، وتكلم معهن شابٌّ بصوتٍ خفيض، وهو يسخرُ، فنظرن في الحال، وبفضولٍ شديد جداً إلى شافيرني وزوجته، وصرخت إحداهن:

«هل هذا ممكنٌ!»

وظهرت عربة الدّوق، فحيّا السيدة شافيرني، وهو يجدّد لها كلّ آيات شكره على كياستها ومع ذلك، فقد كان شافيرني يريدُ أن يرافقَ السيدةَ الغريبة حتى عربة الدوق، فبقيت جوليا وشاتوفور وحدهما للحظة من الوقت.

سألت جوليا: - ومن تكون إذن هذه المرأة؟

- لاينبغي أن أقول لك ذلك... لأن هذا أمرٌ عادي حقًّا!

- وكيف؟

- فضلاً عن ذلك، فإن كل الأشخاص الذين يعرفونكم سوف يكونون على بيّنةٍ من أمرهم جيداً... أما شافيرني!... فلم يكن بوسعي أن أصدقَ ذلك قط.

- وأخيراً، فما الأمرُ إذن؟ تكلم، بحق السماء. من هي هذه المرأة؟

كان شافيرني راجعاً، فأجاب شاتوفور بصوتٍ خفيض:

«إنها عشيقةُ الدوق دو هـ ### السيدة ميلاني ر ### فهتفت جوليا وهي تنظر إلى شاتوفور بذهول:

«أيها الإلهُ الصّالح! هذا مستحيل!»

فهزّ شاتوفور كتفيه، وأضاف وهو يرافقها إلى عربتها:

«هذا ما تقوله تلك السيدات اللواتي التقيناهن على الدرج. أما السيدةُ الأخرى، فترى فيها شخصيةً لائقةً ضمن نوعيتها من النساء، وتلزمها اهتمامات خاصة، ومراعاةٌ... وحتى أن لها زوجاً».

وقال شافيرني بنبرةٍ مرحة:

«يا صديقتي العزيزة، لستِ بحاجة إليّ كي أُعيدك إلى المنزل، فليلةً طيبةً، لسوف أتناولُ العشاء في منزل الدوق».

ولم تردّ جوليا بشيء.

وتابع شافيرني قائلاً: أتريد يا شاتوفور أن تأتي معي إلى منزل الدوق؟ أنت مدعو، وقد قالوا لي ذلك للتوّ. فقد لاحظوك، ورقُتَ لهم. أنت إنسانٌ صالح!

شكر شاتوفور شافيرني ببرود، وحيا السيدة شافيرني التي كانت تعضُّ منديلها من الغضب. حين انطلقت عربتها.

فقال شافيرني: «والآن يا عزيزي، سوف تنقلني، على الأقلّ، حتى باب ابنة الملك الثانية تلك، في عربتك».

فأجاب شاتوفور بمرح: - بكل سرور، ولكن هل تعلم، بالمناسبة، أن امرأتك قد أدركت في النهاية من هي المرأة التي كانت جالسةً بجانبها.

- غير ممكن.

- تيقن من هذا، ولم يكن ذلك صادراً عنك حقًّا.

- باه! إنها ظريفة جداً، ثم إننا لا نعرف الكثير عنها بعد، فالدوق يصحبها إلى كلّ مكان.

الفصل السادس

أمضت السيدة دوشافيرني ليلةً شديدةَ الاضطراب، فقد وصل سلوكُ زوجها في الأوبرا إلى الأوج في إساءاته. وبدا لها أن هذا السلوك يتطلبُ انفصالاً فوريًا. وكان من الممكن أن تطلب منه الحسابَ عليه في اليوم التالي، وأن تُبلغه نيتها بأنها لم تعد ترغبُ في العيش تحت سقفٍ واحدٍ مع رجلٍ قد عرّض سمعتها للخطر بصورةٍ شديدة القسوة. ومع ذلك، فقد كان ذلك الحسابُ يخيفُها، فهي لم تكن قد أجرت من قبل أيَّ حديث جدّي مع زوجها. وحتى ذلك الحين، لم تكن قد عبّرت عن انزعاجها إلا من خلال مواقف حَرَدٍ لم يكن شافيرني يعيرُها أيَّ اهتمام. وبما أنه كان يتركُ لزوجته حريةً تامةً في التصرف، فما كان له أن يجرؤ على الظنّ بأنها يمكن أن ترفُضَ التسامح الذي كان مستعداً أن يبديه نحوها، عند الحاجة. وقد كانت تخشى خصوصًا أن تبكي أثناء ذلك الحساب، وأن يعزو شافيرني تلك الدموع إلى حبِّها المجروح، ففي ذلك الوقت، إنما أخذت تتحسر كثيراً على فقدانِ والدتها، والتي كان يمكن أن تسدي إليها نصيحةً جيدة، وأن تتكفلَ بالنطق بقرارِ الانفصال. لقد ألقت بها كلُّ تأملاتها في تشكُّكٍ كبير. وحين نامت، كانت قد عقدت العزمَ على استشارة امرأةٍ من صديقاتها كانت قد تعرّفتها وهي شابة، وأن تعتمد على حصافتها فيما يخصُّ السلوكَ الذي يجب أن تتبعه إزاء شافيرني. لم يكن باستطاعتها، وهي مستسلمةٌ تمامًا لغضبها أن تمتنع عن إجراء مقارنةٍ لا إرادية بين زوجها وشاتوفور، فقد كان عدمُ لياقة الأول الهائل يُبرزُ لطفَ الثاني. وكانت تُقرُّ بنوعٍ من السرور، ولكنها تلوم نفسها مع ذلك عليه، بأن العشيقَ أكثرُ اهتمامًا بسمعتها من الزوج. إن تلك المقارنة الأخلاقية كانت تجرُّها رغمًا عنها إلى أن تتبيّن لباقةَ تصرفات شاتوفور، وهيئة شافيرني المميزة بوضاعتها، فكانت ترى زوجها، ببطنه البارز قليلاً، وهو يمثل بتثاقلٍ دورَ المتلطف حول عشيقة الدوق دو هـ ###،

فيما كان شاتوفور الذي يبدي احتراماً أكثر من المعتاد نحوها، يظهرُ كأنه يسعى إلى أن يحافظ، في محيطها على التقدير الذي كان يمكن لزوجها أن يجعلها تفقده. وأخيراً، وبما أن أفكارنا تأخذُنا بعيداً بالرغم منا، فقد تخيّلت أكثرَ من مرّة أنه من الممكن أن تُصبحَ أرملةً. حينذاك، وبما أنها شابةٌ وغنية، لن يكون ثمة ما يقفُ حائلاً دون أن تُتوجَ تتويجاً مشروعاً الحبَّ الثابت، حبَّ قائد السرية الشاب، أما محاولته غير الناجحة فلا تُثبت شيئاً ضد الزواج. وإذا ما كان تعلُّق شاتوفور بها حقيقياً. . . غير أنها أخذت تطردُ من ذهنها تلك الأفكارَ التي كانت تخجل منها، ووعدت نفسها بأن تضع تحفظًا أكبرَ من أيِّ وقتٍ مضى في علاقاتها معه.

استيقظت جوليا وصداعٌ شديد يلازمها. وقد غدت أكثر ابتعاداً أيضاً عن مُساءلةٍ حاسمة مع زوجها منها في اليوم السابق. ولم ترغب في أن تنزل لتناولِ الغداء خوفاً من أن تلتقي زوجها. وأمرت بإحضار الشاي إلى غرفتها، وطلبتَ عربتها لتذهب إلى منزل السيدة لامبير، وهي تلك الصديقة التي كانت تريدُ استشارتها. وكانت تلك السيدة حينذاك في الريف في ب. . .

أثناء تناولِ الغداء، فتحت صحيفة، وكان المقالُ الأول الذي وقع تحت عينيها مصاغاً على النحوِ التالي: «وصل السّيد دارسي، السّكرتيرُ الأول لسفارةِ فرنسا في القسطنطينية، إلى باريس، أولّ أمس، حاملاً معه عدداً من الرسائل الرسَمية. وفور وصوله، أجرى هذا الديبلوماسي الشابُ لقاءً مطوّلاً مع معالي وزير الشؤون الخارجية».

فهتفت: دارسي في باريس! سوف يسرُّني أن ألتقيه ثانية. فهل غدا حازماً حقاً – هذا الديبلوماسي الشاب! دارسي، ديبلوماسي شاب! ولم تستطع الامتناع عن الضحك وحدها من هذه العبارة: «ديبلوماسي شاب».

كان دارسي هذا يأتي فيما مضى، وبصورةٍ مثابرةٍ، إلى سهرات السيدة لوسان، وكان حينذاك ملحقاً بوزارة الشؤون الخارجية. وقدْ غادر باريس قبل زواج جوليا ببعض الوقت، ومنذ ذلك الحين، لم يرها ثانية، وكلّ ما هنالك. أنها كانت تعرفُ أنه قد سافر كثيراً، وحصل على ترقيةٍ سريعة.

كانت جوليا لا تزال تمسك بالصحيفة، عندما دخل زوجها. وكان يبدو ذا مزاجٍ رائع. ونهضت عند مرآه، كي تخرج. وبما أنه كان يتعينُ عليها أن تمرّ بقربه لتدخل إلى غرفة زينتها، فقد ظلت واقفة في المكان نفسه. ولكنها كانت شديدةَ الانفعال بحيث جعلت يدُها التي تستند إلى منضدة الشاي، جعلت أواني الشراب الخزفية تهتزُّ اهتزازاً واضحاً.

قال شافيرني: ياصديقتي العزيزة، أنا آتٍ لأودعك لبضعة أيام. فأنا ذاهب للصيد عند الدوق دو هـ ### وأقول لك إنه مسرورٌ من كرمِ ضيافتك مساء أمس. وأموري تسير على ما يرام، فقد وعدني أن يوصي بي الملك بأسرع ما يمكن.

كانت جوليا تبهت، وتحمرّ خجلاً بالتناوب، وهي تصغي إليه.

وقالتَ بصوتٍ مرتعش: إن السيد الدوق مدين لك بذلك. وهو لا يستطيعُ أن يفعل أقل من هذا لرجلٍ يُعرِّضُ سمعةَ زوجته للخطر بالصورةِ الأكثر خزياً، ومع عشيقاتِ الرجل الذي يحميه.

وبعد أن قامت بجهدٍ يائس، اجتازت الغرفةَ بخطوةٍ مهيبة، ودخلت إلى غرفة زينتها التي أغلقت بابها بقوة.

وبقي شافيرني لحظةً من الزمن، مطأطئ الرأس، ومرتبكاً.

وفكر قائلاً: يا للشيطان! من أين لها أن تعرف ذلك؟ وعلى أيةِ حال، فما أهميةُ ذلك، ماحدث قد حدث!

وبما أنه لم يكن من عادته أن يتوقف طويلاً عند فكرةٍ مزعجة، فقد استدار على قدمٍ واحدة، وأخذ قطعة من السكر من آنية السكر، وصرخ بمدبرة المنزل التي كان تهمّ بالدخول، وفمه ملآن:

قولي لامرأتي أنني سأبقى من أربعة إلى خمسة أيام في منزل الدوق هـ ### وإني سأرسل إليها بعضَ الطرائد.

وخرج، وهو لم يعد يفكر إلا بطيورِ التُّدْرجِ، وبأيائل اليحمور التي سوف يقتلها.

الفصل السابع

سافرت جوليا إلى ب. . . وهي تتميّزُ غضباً على زوجها. ولكن غَضَبَها، تلك المرّة، كان لسببٍ بسيطٍ إلى حدٍّ كافٍ، فلكي يذهب زوجها إلى قصر الدوق دو هـ ### كان قد أخذ العربة الجديدة، وترك لامرأته عربةً أخرى تحتاجُ إلى إصلاحاتٍ، حسب قول الحوذي.

أثناء الطريق، كانت السيدة شافيرني تتهيأُ لرواية مغامرتها إلى السيدة لامبير. وبرغم غمها، فهي لم تكن ممن لايشعرون بالرضى الذي تجلبه لكلّ راوٍ قصةٌ تُحسَنُ روايتها فكانت تهيئ نفسها لرواية قصتها من خلال البحث عن بداياتٍ تستهلها بها، فتبدأُ حيناً بطريقةٍ معينة، وحيناً بطريقةٍ أخرى. وقد نجم عن ذلك أنها قد رأت أعمالَ زوجها الفاحشة بكافة وجوهها، وأن ضغينتها قد ازدادت حجماً بسببها.

ثمة ما يزيد على أربعة فراسخ بين باريس و ب. . . كما يعلم كلّ إنسان. ومهما كانت مرافعةُ السيدة دو شافيرني طويلة. فنحن ندركُ أنه من غير الممكن بالنسبة إليها أن تقلّب الفكرةَ نفسها، على مدى أربعة فراسخ متتالية، حتى في حالة الحقد الأشدّ سميّة؛ فقد أتت لتنضافَ إلى المشاعر العنيفة التي كانت توحي بها إليها إساءاتُ زوجها، ذكرياتٌ رقيقة ومثيرة للاكتئاب، من خلال تلك المملكة الغريبة، ملكة التفكير البشري الذي غالباً ما يؤلّف بين صورةٍ ضاحكةٍ وإحساسٍ مكدّرٍ.

إن الهواءَ الصافي والنشيط، والشمس الجميلةَ، ووجوه المارّة اللامبالية كلّها كانت تُسهِمُ أيضاً في إخراجها من أفكارها الحاقدة، فتذكرت مشاهدَ من طفولتها،

والأيام التي كانت تذهب فيها للتنزه في الريف، مع فتيانٍ في مثل سنّها. وأخذت تستعيدُ رؤيةَ رفيقاتها في الدير وتشهد ألعابهن، ووجباتِ طعامهن، كانت تجد تفسيراً للمساراّت الغامضة التي كانت تُباغتُ «الكبيرات» وهن يتبادلنها، ولاتستطيعُ الامتناعَ عن الابتسام، حين تخطرُ ببالها العلاماتُ الصغيرةُ التي تشي مبكراً جداً بغريزةِ الغنج عند النساء.

ثم أخذت تتخيلُ دخولها إلى المجتمع، فقد بدأت ترقصُ مجدّداً في حفلات الرقص الأكثر تألّقاً، التي كانت قد حضرتها في السّنةِ التي تلت خروجها من الدير. أما الحفلاتُ الراقصة الأخرى فكانت قد نسيتها، فهي سرعانُما تصابُ بالسأم، بيد أن تلك الحفلات ذكرتها بزوجها، «فقالت في نفسها: كنتُ مجنونة. فكيف لم ألاحظ، من النظرة الأولى، أني سأكون تعيسةً معه؟». إن كلّ نقاطِ التنافر، وكلّ ألوانِ السطحية، سطحيةِ الخطيبِ والتي كان المسكينُ شافيرني يعرضها أمامها بكثيرٍ من الثقة بالنفس، قبل شهرٍ من زواجها، كلٌّ ذلك قد تمّ تدوينه، وتسجيله في ذاكرتها. وفي الوقت نفسه، فهي لم تكن تستطيع أن تمتنعَ عن التفكير بالمعجبين العديدين الذين أسلمهم زواجها إلى اليأس، والذين تزوّجوا مع ذلك. أو وجدوا السلوى على نحوٍ آخر، بعد أشهر قليلة. «وتساءلت: هل كان يمكنني أن أكون سعيدةً مع شخصٍ آخر غيره؟ إن أ. . . بالتأكيد رجل أحمق، ولكنه ليس هجومياً، وإيميليا تقودهُ على هواها. وثمة طريقةٌ دوماً للعيشِ مع زوجٍ مطيع - أمّا ب. . . فلديه عشيقات، وزوجته، لطيبةِ قلبها، تغتمّ لذلك. زدْ على هذا أنه يراعيها كلّ المراعاة و. . . أنا لا أطلبُ أكثر من ذلك - أما الكونت الشاب س. . . الذي يقرأ الأهاجي دائماً والذي يكلّفُ نفسه أشدّ العناء كي يصبح نائباً صالحاً، ولعله يكون زوجاً جيداً. أجل، ولكن كلّ هؤلاء الناس مضجرون وقبيحون، وحمقى. . . وفيما كانت تستعرضُ كلّ الفتيان الذين عرفتهم وهي فتاة، خطر اسمُ دارسي في ذهنها للمرّة الثانية.

كان دارسي فيما مضى إنسانًا بلا أهمية في مجتمع السّيدة لوسّان. أي أنه كان من المعروف... الأمهات كنّ يعلمن - أن ثروته لاتسمح له أن يفكّر ببناتهن. ففي نظرهن، لم يكن لديه شيءٌ في شخصه يمكن أن يفتنَ رؤوسهن الشابة. إضافةً إلى أنه كان معروفًا برقّة حاشيته. وبما أنه مبغضٌ للبشر، وهجّاءٌ بعض الشيء، فقد كان يروق له كثيراً أن يسخر من المضحكين، ومن ادعاءات الشبان الآخرين، حين يكون رجلاً وحيداً في حلقةٍ من الآنسات. وحين كان يتكلّم مع آنسة ما بصوتٍ خفيض، لم تكن الأمهات يقلقن، فقد كانت بناتهن يضحكن عاليًا. وأمهاتُ البنات اللواتي لهن أسنان جميلة يقلن إن السّيد دارسي محبّبٌ جداً إلى النفس.

إن تطابقًا في الأذواق، وخشيةً متبادلةً من موهبتهما في الاغتياب، قد قرّبا بين جوليا ودارسي. وبعد بعضِ المناوشات، صنعا اتفاقيةَ سلام، وتحالفًا هجوميًا ودفاعيًا، فكل منهما كان يراعي جانبَ الآخر بصورةٍ متبادلة، وكانا على الدّوام متّحدين في استقبال معارفهما.

وذات مساء، كان دارسي قد طلبَ من جوليا أن تغني مقطوعةً لاأدري ما هي. وكان صوتُها جميلاً، وهي تعلم ذلك. وحين اقتربت من البيانو، نظرت إلى النساء بقليلٍ من الزهو قبل أن تغني، وكأنها تريدُ أن تتحدّاهن. وهكذا، ففي ذلك المساء، حرمها من كل إمكاناتها تقريبًا بعضُ الانحراف في صحتها، أو عارضٌ حتميٌّ تعس، فالنغمةُ الأولى التي خرجت من تلك الحنجرة التي تطربُ عادةً كانت نغمةً خاطئةً بالتأكيد، فاضطربت جوليا، وغنّت غناءً ناشزًا تمامًا، وأخفقت في كلِّ المقاطعِ الموسيقية. بالاختصار، كان الفشلُ صارخًا. فذُعرت، وأصبحت على وشك الانفجار بالبكاء، فتركت جوليا المسكينة البيانو. وأثناء عودتها إلى مكانها، لم تستطع الامتناع عن النظر إلى الفرح الخبيث الذي كانت رفيقاتُها لايُحسنّ إخفاءه، وهن يرين كبرياءَها المذلَّ. حتى الرجال، كان يبدو عليهم أنهم يكبحون بصعوبةٍ ابتسامة ساخرة. فخفضت عينيها خجلاً وغضبًا. ولم تجرؤ لبعض الوقت على رفعهما. وحين رفعت رأسها، كان أولّ وجه صديق

لمحته هو وجهُ دارسي، فقد كان شاحبًا، وعيناه مغرورقتان بالدموع. وكان يبدو متأثراً من حادثتها المزعجة أكثر مما كانت هي نفسُها متأثرة منها. «ففكرت: إنه يحبُّني، إنه يحبني حقًّا». وفي تلك الليلة، قلّما نامت. وكان وجهُ دارسي الحزين دومًا أمام عينيها. وطوال يومين، لم تفكر إلا به، وبالعاطفة الخفية التي لابدّ أنه يحملها لها في نفسه. وكانت الروايةُ تتقدم، عندما وجدت السيدة لوسّان في منزلها بطاقة من السيد دارسي، وعليها الحروف الثلاثة P.P.C. وسألت جوليا شابًّا كان يعرفها: - وإلى أين يذهب السيد دارسي؟

- إلى أين يذهب؟ ألا تعلمين؟ إلى القسطنطينية. إنه مسافر هذه الليلة مع البريد. ففكرت جوليا: إنه لايحبني إذن!

وبعد ثمانية أيام، كان دارسي قد نُسي. أما دارسي الذي كان، من جهته، عاطفيًّا إلى حدٍّ كاف حينذاك، فهو لم ينسَ جوليا لمدة ثمانية أشهر. وكي نجد العذرَ لجوليا ونفسّر الفارقَ الهائلَ في الثّبات على الحبّ، لا بدّ أن نفكر بأن دارسي كان يعيش بين الأعاجم، فيما جوليا كانت في باريس محاطةً بألوان التكريم والمسرات.

ومهما يكن من أمر، فإن جوليا قد أخذت تتذكّر، في عربتها، على طريق ب... وبعد ستٍّ أوسبع سنوات من فراقهما، أخذت تتذكّر التعبير المفعمَ بالكآبة والذي كان مرتسمًا على وجه دارسي في اليوم الذي غنّت فيه، على نحوٍ رديء. وإذا كان لا بدّ من الاعتراف، فقد فكرت بالحبّ المحتمل الذي كان يحملهُ لها آنذاك. ولربما أيضًا فكّرت حتى بالمشاعر التي من الممكن أنه لا يزالُ يحتفظُ بها.

لقد شغلَ ذهنها كلٌّ ذلك بما يكفي من العمق، على طولِ نصفِ فرسخ، ثم نُسي السيد دارسي للمرة الثالثة.

الفصل الثامن

لم يكـن انزعـاجُ جـوليـا قليـلاً حين رأت، أثناء دخـولهـا إلى باحـةِ منزل السيدة لامبير عربةً كان يجري حلُّ أربطة خيولها، وهذا ما ينبئ بوجودِ زيارةٍ لا بدَّ لها أن تطول. فمن غير الممكن، نتيجة لذلك، أن تشرع جوليا في بحث تظلُّماتها من السيد دو شافيرني. عندما دخلت جوليا غرفةَ الاستقبال، كانت السيدةُ لامبير مع امرأةٍ كانت جوليا قد التقتها في المجتمع، ولكنها لا تكاد تعرف اسمها. وقد تعيّنَ عليها أن تضغط على نفسها كي تخفي دلائلَ الاستياء الذي كانت تحسُّ به، لأنها قد قامت برحلتها إلى بِ ... من غير فائدة.

هتفت السيدة لامبير وهي تعانقها: «إيه! مرحبًا ياعزيزتي الجميلة! كم يسرني أن أرى أنك لم تنسني! لا يمكن لكِ أن تأتي في وقتٍ أكثر مناسبة من هذا الوقت، فأنا انتظر اليوم أناسًا كثيرين يحبونكِ حتى الجنون.

فأجابت جوليا مكرهةً إلى حدٍّ ما بأنها ظنت بأنها ستجد السيدة لامبير وحدها. فاستأنفت السيدة لامبير قائلة: سيكونون مفتونين برؤيتك، فمنذ زواج ابنتي، ومنزلي كئيبٌ إلى حدٍّ كبير بحيث أشعرُ بسعادةٍ بالغة، حين يقبل أصدقائي بأن يتواعدوا على اللقاء فيه. ولكن، يا ابنتي العزيزة، ماذا فعلتِ بألوانك الجميلة؟ فأنا أجدك اليوم شديدةَ الشحوب.

اخترعت جوليا كذبةً صغيرة وهي: طول الطريق... والغبار... والشمس...

لقد دعوت اليوم تحديداً على العشاء أحد المفتونين بك، وهو الذي سأقدم له مفاجأة مفرحة. إنه السيد دو شاتوفور، وربما يكون معه صديقه الوفيّ أشات، وهو المقدم بيرّان.

قالت جوليا وهي تحمرّ خجلاً بعض الشيء، فقد كانت تفكرّ بشاتوفور.

- لقد سرني أن أستقبل مؤخراً المقدّم بيرآن.

- ولدي أيضًا على العشاء السيد دوسان - ليجيه، وينبغي حتمًا أن ينظّم هنا سهرةَ أمثال تقدَّمُ الشهر المقبل، ولسوف تلعبين فيها دوراً، يا ملاكي، لقد كنتِ أولَ موضوعٍ من موضوعات الأمثال التي أعددناها منذ عامين.

- يا إلهي، إني لم ألعب، يا سيدتي، منذ زمنٍ طويل لعبة الأمثال، وربما أني لم أعد قادرةَ على استعادة ثقتي السابقة بنفسي. وقد أكون مضطرةً للاستعانة بطريقة:

«أسمعُ أحدهم».

- آه! ياجوليا، يا ابنتي، احزري من ننتظر أيضًا. ولكن هذا يتطلّبُ، ياعزيزتي، ذاكرةً قويةً لتتذكر اسمه...

فخطر اسمُ دارسي فوراً في ذهن جوليا. وفكرت قائلة: «إنه يستحوذُ علي في الحقيقة».

أما عن الذاكرة يا سيدتي؟... فلديّ منها الكثير.

- ولكني أقول ذاكرة ترجع إلى ستة أو سبعة أعوام. فهل تتذكرين أحدَ الذين كانوا يهتمون بك، عندما كنتِ فتاةً صغيرة، وتضفرين شعرك على الجبين؟

- في الحقيقة، إني لا أحزر.

- يا عزيزتي، يا للفظاعة!... أن تنسي هكذا رجلاً رائعًا كان، إن لم أكن مخطئةً جداً، يعجبك كثيراً فيما سبق. وكانت والدتك تتخوّف منه تقريبًا. هيا، ياحلوتي، وبما أنك تنسين هكذا المفتونين بك، فلا بدّ فعلاً أن تتذكري أسماءهم. إن من سترينه هو السيد دارسي.

- السيد دارسي؟

- نعم، فقد رجع أخيراً من القسطنطينية، منذ بضعة أيام فقط. وقد أتى ليراني، أول أمس، فدعوته، فهل تعلمين، أيتها الناكرة للجميل، أنه قد سألني عن أخبارك بتعجلٍ له دلالةٌ تامة.

فقالت جوليا بترددٍ وبشرود مصطنع:

- السيد دارسي؟ ... أليس هو ذلك الشاب الأشقر، الطويل القامة... والذي يعملُ سكرتيراً في السفارة؟

- أوه! يا عزيزتي، لن تتعرفيه، فقد تغيّر حقّاً. إنه شاحبٌ، أو على الأصح، له لونٌ أسمر زيتوني. وعيناه غائرتان. وقد فقد الكثيرَ من شعره، بسبب الحرارة، حسب قوله. وبعد عامين أو ثلاثة، إذا استمر الأمرُ على هذا المنوال، فسوف يغدو أصلع من مقدمة الرأس، ومع ذلك، فهو لم يبلغ الثلاثين بعد.

وهنا، فإن السيدة التي كانت تصغي إلى تلك القصة، قصة أحداثِ حياة دارسي غير المؤاتية، نصحت بحماسةٍ باستخدام الكاليدور الذي كانت قد حصلت فعلاً على شيء منه بعد مرضٍ جعلها تفقد الكثيرَ من شعرها. وأخذت تمرر أصابعها، وهي تتكلم، في خصلات شعرها العديدة ذات اللون الكستنائيّ المرمد الجميل.

وسألت السيدة دو شافيرني، هل بقي السيد دارسي كلّ ذلك الزمن في القسطنطينية؟

- ليس تماماً، فقد سافر كثيراً، فكان في روسيا، ثم طاف في اليونان بكاملها. إنك لستِ على علم بالحظ الذي أصابه؟ فقد مات عمه، وترك له ثروةً كبيرة، كما أنه كان في آسيا الصغرى في الـ... ماذا يقول؟ ... كارامانيا. إنه جذابٌ، يا عزيزتي، وعنده قصصٌ ممتعة تسحرك. وقد روى لي البارحةَ قصصاً

جميلة منها، بحيث قلت له: «ولكن، احتفظ بها إلى الغد، فتقولها لتلك السيدات، بدلاً من أن تضيعها مع أمٍّ عجوزٍ مثلي.

وسألت السيدة دومانوار نصيرةُ الكاليدور:

- هل روى لك قصةَ المرأة التركية التي أنقذها؟

- المرأة التركية التي أنقذها؟ هل أنقذ امرأةً تركية؟ لم يقل لي شيئًا عن ذلك.

- كيف، ولكنه عملٌ يدعو إلى الإعجاب. وهو روايةٌ حقيقية.

- أوه! أرويها لنا، أرجوكِ.

- لا، لا، اطلبنها منه شخصياً، فأنا لا أعرفُ القصة إلا عن طريق أختي التي كان زوجها، كما تعلمن، قنصلاً في سميرنا. بيد أنها أخذتها عن إنكليزيٍّ كان شاهداً على المغامرة بكاملها، إنها رائعة.

- احكي لنا هذه القصة يا سيدتي، فكيف تريدين أن نتمكّن من الانتظار حتى العشاء؟ فما من شيء يدعو إلى الإزعاج أكثر من أن نسمع حديثًا عن قصةٍ لانعرفها.

- حسنًا، سوف أرويها لكنّ بصورةٍ مشوهة، وإليكن القصةَ أخيراً مثلما حُكيت لي:

كان السيد دارسي في تركيا يعاين خُرائبَ أثريةً لا أدري ما هي، على ساحلِ البحر، حين رأى موكبًا كئيبًا جداً يتجه إليه: أناسٌ صامتون كانوا يحملون كيسًا، وكان ذلك الكيس يُتحرك وكأن في داخله شيءٌ حيٌّ...

هتفت السيدة لامبير التي كانت قد قرأت الجياوور[1] - آه! يا إلهي! كان ذلك امرأةً يهمون بإلقائها في البحر.

---

(١) - قصيدة لبايرون (م: ز.ع).

واستأنفت السيدة دومانوار، وقد قُرصت قليلاً، حين رأت أن التفصيل الأكثر إثارة في قصتها قد انتُزع منها: بالضبط. إن السيد دارسي ينظر إلى الكيس، ويسمع أنيناً مكتوماً، فيخمّن في الحال حقيقةَ الأمر الرهيبة، ويسألُ الحرسَ عما سيفعلونه، فيسحبُ الصامتون خناجرهم كردٍّ وحيد. ولحسن الحظ، فقد كان السيد دارسي مسلّحاً تسليحاً جيداً، فهزمَ العبيد، وأخرج من الكيس أخيراً امرأة ذاتَ جمالٍ أخّاذ، وقد أغمي عليها جزئياً، وأتى بها إلى المدينة حيث رافقها إلى منزل مأمون.

فقالت جوليا التي بدأت تهتمّ بالقصة:

- ياللمرأة المسكينة!

- أتظننّ أنها قد أنقذت؟ إطلاقاً. إن زوجها الغيور، فقد كان لها زوج، قد حرض كلَّ الرعاع الذين اتجهوا إلى منزل السيّد دارسي، وهم يحملون المشاعل، ويريدون أن يحرقوه حيّاً. إني لا أعلم علم اليقين نهايةَ المشكلة، وكلّ ما أعرفه هو أن دارسي قد صمد للحصار، وانتهى به الأمرُ إلى وضع المرأة في أمان.

وأضافت السيدة دومانوار، وهي تبدّل فجأة من طريقتها في التعبير، فتتخذُ نبرةَ صوت يخرجُ من أنفها وينم عن تديُّن كبير. ويبدو حتى أن السيد دارسي قد اهتم بهدايتها وبأن تتعمّد.

وسألت جوليا وهي تبتسم:

- والسيد دارسي هل تزوجها؟

- لا يمكنني إفادتك في هذا الأمر. غير أن المرأة التركية... وكان لها اسمٌ فريدٌ من نوعه، كانت تناديه دوماً بكلمة سوتير، سوتير... وهذا معناه: منقذي بالتركية أو اليونانية كما قالت لي أولاليا إن التركية كانت إحدى أجمل النساء التي يمكن أن تقع عليها عين.

فهتفت السيدة لامبير: - سوف نشن عليه الحرب بشأن تركيته! أليس كذلك يا سيداتي؟ فيجب أن نعذبه قليلاً . . . وعلى أية حال، فهذه السمة من سمات دارسي لا تفاجئني إطلاقًا، فهو من أكثر الرجال الذين أعرفهم أريحية. وأعرف أفعالاً قام بها تجعلني في كل مرة أرويها فيها أتأثر حتى البكاء - لقد مات عمه، وترك ابنة غير شرعية لم يكن قد اعترف بها قط. وبما أنه لم يكتب وصية، فلم يكن لها أي حق في تركته. أما دارسي الذي كان الوريث الوحيد، فقد شاء أن تكون لها حصة فيها. وقد تكون هذه الحصة أكبر بكثير مما لو كان عمه هو الذي خصصها بنفسه.

وسألت السيدة دو شافيرني بلهجة لاتخلو من الخبث، لأنها بدأت تشعر بالحاجة إلى اغتياب السيد دارسي الذي لم تكن تستطيع أن تطرده من أفكارها:

- وهل هي جميلة، تلك الابنة غير الشرعية؟

- آه! يا عزيزتي، كيف يمكنك أن تخمني؟ . . . ولكن السيد دارسي كان لايزال في القسطنطينية على أية حال، حين مات عمه. ومن المحتمل ألا يكون قد رأى تلك المخلوقة.

ومع وصول شاتوفور والمقدم بيرّان وعدد من الأشخاص الآخرين، وضعن نهاية لذلك الحديث. فجلس شاتوفور بقرب السيدة دوشافيرني. وإذ استغل لحظة كان يجري فيها الكلام بصوت عالٍ جداً، فقد قال لها:

«تبدين حزينة، يا سيدتي، وإذا كان ما قلته لك بالأمس هو السبب في ذلك، فهذا أمر يحزنني حقًا».

ولم تسمعه السيدة دوشافيرني، أو لم ترد، على الأصح، أن تسمعه. فأحس شاتوفور، والحالة هذه، بالإذلال لأنه يكرر جملته، وبإذلال أكبر أيضًا من جراء الرد الجاف الذي اختلطت جوليا بعده حالاً بالحديث العام، وبدلت مكانها، وابتعدت عن معجبها المنكود.

أخذ شاتوفور يُبدي الكثيرَ من رهافة العقل بلا فائدة. ومن غير أن تتثبط همتُه. أما السيدة دوشافيرني التي كان يريدُ أن ينالَ إعجابها وحدها، فقد كانت تُصغي إليه وهي شاردةُ الذهن، فقد كانت تفكر بالوصول الوشيك للسيد دارسي، في الوقت الذي تتساءلُ فيه عن السبب الذي يجعلها تهتم كثيراً برجلٍ من المفروض أن تكون قد نسيته. ولربما يكون قد نسيها منذ زمنٍ طويل.

وأخيراً، سُمع صوت عربة، فانفتح بابُ غرفة الاستقبال.

وهتفت السيدة لامبير: إيه! هذا هو!

لم تجرؤ جوليا على إدارة رأسها، ولكنها شحبت إلى أقصى حدّ، وأحست بإحساسٍ حادٍّ ومفاجئ بالبرد، واحتاجت إلى أن تجمع كلّ قواها كي تتماسك، وتحول دون أن يلاحظ شاتوفور تغيّر قسماتها.

قبَّل دارسي يد السيدة لامبير، وتحدّث معها وهو واقفٌ لبعض الوقت، ثم جلس بقربها. حينذاك، هيمن صمتٌ عميق، فقد كانت السيدة لامبير تبدو وكأنها تنتظرُ تعارفًا، وترتّب له. أما شاتوفور والرّجال، باستثناء المقدّم الطيب بيرّان، فقد كانوا يراقبون دارسي بفضولٍ غيور. وبما أنه وصل من القسطنطينية، فهو يتفوقُ بامتيازاتٍ كبيرةٍ عليهم. وكانٍ ذلك مبرراً كافيًا كي يتبادلوا موقفَ التصلب المتكلّف الذي يتخذه المرءُ عادةً مع الغرباء. أما دارسي الذي لم يكن قد أعار انتباهه لأحد، فقد قطعَ الصمتَ قبل الجميع، وتحدث عن الطقس، أو عن الطريق، بلا اكتراث، وكان صوته عذبًا وموسيقياً. وخاطرت السيدة دو شافيرني بالنظر إليه، فرأته جانبيًا، وبدا لها أنه قد نحف، وأن تعابيرَ وجهه قد تبدلت... وإجمالاً، فقد استحسنت هيئته.

قالت السيدة لامبير: يا عزيزي دارسي، انظر جيداً حواليك. ولاحظ إن كنت تجد هنا أحداً من معارفك القديمة.

أدار دارسي رأسه، ولمح جوليا التي كانت حتى ذلك الوقت تختبئ تحت قبعتها. فنهض على عجلٍ، وأطلق هتافًا ينمُّ عن المفاجأة. وتقدّم نحو جوليا وهو

يمدّ يده، ثم توقف فجأة، وكأنه نادمٌ على إفراطه في إظهار الإلفة. وحيّا جوليا بانحناء شديد، وعبرّ لها بكلمات «مناسبةٍ» عن السرور التام الذي غمره برؤيتها مجدداً. فتمتمت جوليا ببضع كلماتٍ للمجاملة، واحمرّ وجهها كثيراً من الخجل حين رأت أن السيد دارسي كان لايزال واقفاً أمامها وهو يحدّق بها.

استعادت حضور ذهنها سريعاً، فنظرت إليه بدورها، بتلك النظرة الشاردة والملاحظة في آن واحد، والتي يستخدمها أناسُ المجتمعِ الراقي حين يشاؤون. لقد كان شاباً، طويلَ القامة، شاحباً، وتعبّر قسماتُ وجهه عن الهدوء، ولكنه هدوءٌ يبدو كأنه ناجمٌ عن حالةٍ نفسيةٍ طبيعيةٍ أقلّ مما هو ناجمٌ عن السلطة التي توصلت نفسه إلى فرضها على تعبير وجهه. كانت هناك تجاعيدُ واضحةٌ قد حفرت أخاديدَ على جبينه. وكانت عيناه غائرتين، وزوايا فمه متهدلّةً. أما صدغاه، فقد بدأا يتعريّان من الشعر. ومع ذلك، فلم يكن قد تجاوزَ الثلاثين من عمره بعد. كان دارسي يرتدي ملابسَ بسيطة، ولكن بتلك الأناقة التي تدلُّ على عادات صحبته الراقية، وعلى عدم الاكتراث بموضوع يشغلَ تأملات العديد من الشبان. لقد رصدت جوليا كلّ هذه الملاحظات بسرور، ولاحظت أيضاً أن دارسي يحمل ندبةً في جبينه، طويلة إلى حدّ ما، وكان يخفيها إخفاءً سيئاً بخصلةٍ من شعره، ويبدو كأن سببها هو ضربة سيف.

كانت جوليا جالسة إلى جانب السيدة لامبير، وكان هناك كرسيٌّ بينها وبين شاتوفور ولكن ما إن نهض دارسي، حتى كان شاتوفور قد وضع يده على مسند الكرسي، ووضعها على قائمةٍ واحدة، وأبقاها في حالة توازن. وكان من الواضح أنه كان يطمحُ إلى حراستها كما يحرس كلبُ الحدائقيّ صندوقَ الشوفان. فأشفقت السيدة لامبير على دارسي الذي كان لايزال واقفاً أمام السيدة دوشافيرني، فوسعت مكاناً إلى جانبها على الكنبة التي كانت جالسةً عليها، وقدمته إلى دارسي الذي ألفى نفسه بهذا الشكل إلى جانب جوليا، فسارع للإفادةِ من هذا الموقع المميز وبدأ مع جوليا حديثاً متواضلاً.

ومع ذلك، فقد كان عليه أن يخضع لاستجواب أصوليّ من السيدة لامبير وبعض الشّخصيات الأخرى، حول أسفاره، غير أنه تخلّص منه باقتضاب كافٍ. وكان ينتهزُ الفرصَ ليستأنفَ ذلك النوع من الحديث الجانبي مع السيدة دوشافيرني.

قالت السيدة لامبير لدارسي في اللحظة التي أعلن فيها جرسُ القصرِ العشاء.

«تأبَّط ذراعَ السيدة دوشافيرني».

فعضّ شاتوفور شفتيه، ولكنه وجدَ وسيلةً ليجلس إلى المائدة قريبًا من جوليا كي يراقبها جيداً.

الفصل التاسع

بعد العشاء، كانت السّهرةُ جميلةً، والطقسُ حاراً، فتجمّع الصحبُ في الحديقة حول منضدةٍ فلاحيةٍ لتناول القهوة.

كان شاتوفور قد لاحظ بحنقٍ متزايدٍ اهتماماتِ دارسي بالسيدة دوشافيرني. وبقدر ما كان يلاحظُ الاهتمامَ الذي كان يظهرُ عليها أنها توليه حديثَ القادمِ الجديد، بقدر ما كان شخصيًّا يصبحُ أقلَّ تلطفاً. ولم يكن للغيرة التي يحسُّها من تأثيرٍ آخر غير أنها كانت تنتزعُ منه إمكاناته في أن يروقَ للآخرين. كان يتجولُ على الشرفة التي كان الحاضرون يجلسون فيها، فلا يتمكّنُ من البقاء في مكانه، كما هي حالُ الناس القلقين عادة. وغالبًا ما ينظرُ إلى الغيوم الكبيرة السوداء التي كانت تتشكلُ في الأفق، وتنذرُ بالعاصفة، وفي معظم الأحيان، ينظر أيضاً إلى منافسه الذي كان يتحدثُ بصوتٍ خفيض مع جوليا، كان يراها تارةً تبتسمُ، وتصبح جدّيةً تارة، وتخفض عينيها خجلاً تارةً أخرى، وأخيراً، فقد كان يرى أنه لم يكن بإمكان دارسي أن يقول لها كلمةً لا تحدثُ لديها أثراً ملحوظًا، وما كان يجعله يغتمّ خصوصاً هو أن التعابيرَ المتنوعةَ التي ترتسمُ على قسماتِ وجه جوليا، كانت تبدو كأنها ليست سوى صورةٍ، أو انعكاسٍ لوجه دارسي المتحرك. وأخيراً، وإذ لم يكن باستطاعته أن يصمد لذلك النوع من التعذيب، فقد اقترب منها، وانحنى على ظهر كرسيها في اللحظة التي كان يعطي فيها معلوماتٍ عن لحية السلطان محمود، وقال بلهجةٍ مريرة:

«يبدو أن السيد دارسي رجلٌ محببٌ حقًّا!».

فردت السيدة دو شافيرني بتعبيرٍ حماسيّ لم تستطع كبحه :

- أوه! أجل .

فتابع شاتوفور :

- يبدو أنه كذلك ، فهو ينسيك أصدقاءك القدامى .

فقالت جوليا بلهجةٍ قاسية قليلاً :

- أصدقائي القدامى! لا أعرفُ ما تعنيه .

وأدارت لـه ظهرهـا ، ثـم أخـذت طـرف منديـلٍ كـانت السيـدة لامبير تمسكه ، وقالت :

«كم ينسجم تطريزُ هذا المنديل مع الذوق السليم! إنه عملٌ رائع .

- هل تجدينه كذلك ، يا عزيزتي؟ إنه هديةٌ من السيد دارسي الذي جلب لي عدداً كبيراً لا أعرفه من المناديل المطرزة في القسطنطينية - وبالمناسبة ، يا دارسي ، فهل تركيتك هي التي طرزتها لك؟

- تركيتي! أية تركية؟

- نعم ، تلك السلطانة الجميلة التي أنقـذتَ حيـاتهـا ، والتي كـانت تدعوك . . . أو! إننا نعرف كلَّ شيء . . . التي كانت تدعوك . . . مُنقذها . ولابدّ أنك تعرف كيف تقالُ هذه الكلمة بالتركية .

فضرب دارسي جبينه ، وهو يضحكُ ، وهتف قائلاً :

«هل هذا ممكن . أن تكون شهرةُ حادثتي المزعجة قد وصلت إلى باريس!» .

- ولكن ليس هناك حادثة مزعجـة في القصة . وربما لا تكون هناك حادثة مزعجة إلا بالنسبة للماما موشي الذي خسر محظيتّه .

فأجاب دارسي :

- للأسف! أرى فعلاً أنكم لاتعرفون إلا نصفَ القصة، فهي مغامرةٌ تعسةٌ بالنسبة لي، مثلما كانت مغامرةُ طواحينِ الهواء بالنسبة لدون كيشوت. وهل يجب بعد أن أكون قد أضحكت الفرنجة كثيراً، أن يتهكم علي الناس في باريس أيضاً لسببٍ وحيد هو أنني فارسٌ متجوّل، ولم يكن ذلك ذنبي قط!

فصرخت النساء جميعًا في آن واحد:

- كيف! ولكننا لا نعرف شيئًا، فاروِ لنا ذلك!

فقال دارسي:

- من المفروض بي أن أترككن عند القصة التي تعرفنها حتى الآن، وأن أعفي نفسي من تتمتها التي لاتحمل ذكرياتها، بالنسبة لي، شيئًا مُستحبًا. غير أن أحد أصدقائي... وإني أطلب منكن السّماح لي بتقديمه إليكن، أيتها السّيدة لامبير - إن السير جون تيريل... أحد أصدقائي، والذي اشتركَ أيضًا في تمثيلِ ذلك المشهد المأسوي - الهزلي، سوف يأتي إلى باريس قريبًا، ولعله يستطيعُ فعلاً أن يمنح نفسه المتعةَ الماكرة، متعة إسناد دورٍ في قصته إليّ أكثر إضحاكًا من الدور الذي لعبته. وإليكن الواقعة: فتلك المرأة التعسة، بعد أن استقرت في قنصليّة فرنسا...

فهتفت السّيدة لامبير:

- أوه! فلتبدأ من البداية!

- ولكنكن تعرفنها من قبل.

- نحن لانعرف شيئًا، ونريد أن تروي لنا القصة كلّها، من أولها إلى أخرها.

- حسنًا، أنتن تعلمن، يا سيداتي، أنني كنت في لارناكا في عام ١٨٠٠، وذات يوم، خرجت من المدينة كي أرسم، وكان معي شابٌ إنكليزي محببٌ جداً. إنه فتى طيب ومرح واسمه: السير جون تيريل. وهو أحد أولئك الناس الذين لايُستغنى عنهم في الأسفار. لأنهم يفكرون بالعشاء، ولاينسون المؤن، فهم

يتمتعون بمزاجٍ جيد دائماً. زد على ذلك، أنه كان يسافر من غير هدف، ولايعرفُ الجيولوجيا، ولاعلم النبات، وهما علمان مزعجان جداً، إذا ما توفّرا في رفيقِ السفر.

«كنت قد جلست في ظل كوخ، على بعد مئتي خطوة تقريبًا من البحر الذي تطلّ عليه، من ذلك الموضع، صخورٌ عمودية. وكنت جدّ منشغل في رسمِ ماتبقى من تابوتٍ حجريّ قديم. فيما كان السّير جون، المتمدّد على العشب، يسخرُ من شغفي التعس بالفنون الجميلة وهو يدخن تبغًا لذيذاً من تبوغ اللاذقية، وكان إلى جانبنا دليلٌ سياحي تركيّ وضعناه في خدمتنا. فأخذ يعدُّ لنا القهوةَ. لقد كان أفضلَ صانعي القهوة، وأكثر الأتراك الذين عرفتهم جُبنًا.

وفجأة هتف السير جون بفرح:

- انظروا! هناك أناسٌ ينزلون الجبل حاملين معهم ثلجًا، سوف نشتري بعضًا منه ونصنع شرابًا بالبرتقال.

«فرفعتُ عيني، ورأيتُ حماراً آتيًا نحونا، وكان محمّلاً عرضًا بحزمةٍ ضخمة، يسندها عبدان من كل جهة. وفي المقدمة، كان حمّارٌ يقودُ الحمارَ، ووراءه، كان هناك تركيٌّ جليل، ذو لحيةٍ بيضاء، يسيرُ في المؤخرة، ممتطيًا جواداً حسنًا، وكان كلُّ هذا الموكب يتقدّمُ ببطء، وبكثيرٍ من الوقار.

أما تركيُّنا، فقد ألقى نظرةً جانبية على حملِ الحمار، وهو يطفئ ناره، وقال لنا بابتسامة غريبة: «ليس هذا ثلجًا»، ثم اهتمّ بقهوتنا ببرودةِ أعصابه المعتادة.

فسأل تيريل: - وما هذا إذن؟ هل هو شيءٌ يؤكلُ؟

فأجاب التركي: - بالنسبة للأسماك.

في تلك اللحظة، انطلق الرجلُ الذي يمتطي الحصان عدواً، وإذ كان البحرُ وجهته، فقد مرّ بقربنا، وليس من غير أن يرمينا بنظرةِ ازدراء... ودفع بحصانه

حتى الصخور العمودية التي حدثتكم عنها، وأوقفه فجأة في المكان الأكثر وعورةً، وكان ينظر إلى البحر، ويبدو كأنه يبحثُ عن أفضل مكانٍ يُلقي بنفسه منه.

فعاينا حينذاك باهتمام أكبر، الحزمة التي كان الحمار يحملها، ودُهشنا لشكل الكيس الغريب وتواردت سريعًا إلى ذاكرتنا كلُّ قصصِ النساء اللواتي أغرقهن أزواجهن الغيورون، وتبادلنا أفكارنا في هذا الموضوع.

فقال السّير جون لتركيّنا: - اسأل هؤلاء الأوغاد، إن كانت امرأة تلك التي يحملونها بهذا الشكل؟

فتح التركي عينين واسعتين مذعورتين، ولكنه لم يفتح فمه، فقد كان واضحًا أنه يجد سؤالنا غيرَ ملائمٍ إلى درجةٍ مفرطة.

في تلك اللحظة، كان الكيسُ قريبًا منا، فرأيناه يتحركُ بصورةٍ مميزة، وحتى أننا سمعنا نوعًا من الأنين ومن الدمدمة التي كانت تخرجُ منه.

ومع أن تيريل ذواقةٌ في الطعام، فقد كان أبيًّا إلى حد كبير، فنهض مُغْضبًا وهرع إلى الحمّار، وسأله بالإنكليزية لشدة ما كان مضطربًا بسبب الغضب، عما يقوده بتلك الصورة، وعما ينوي فعله بكيسه. فلم يقو الحمّار على الردّ، ولكن الكيسَ تحرّك بعنفٍ، وسمعتُ صرخاتِ امرأة، فأخذ العبدان حينذاك يضربان الكيس ضرباتٍ قوية بالأحزمة التي كانوا يستخدمونها لدفع الحمار إلى السير. وكان تيريل حانقًا أشدّ الحنق، فألقى بالحمّار أرضًا بلكمةٍ من قبضته شديدة ومدروسة، وأمسك بأحد العبدين من تلابيبه، فسقط الكيسُ في تلك الأثناء بصورةٍ ثقيلة على العشب، من جراء الدفع العنيفِ الذي تعرّض له من خلال الصراع.

هرعت للمساعدة، وكان العبدُ الآخر يهمُّ بالتقاط الحجارة، والحمّار بالنهوض. وبرغم نفوري من التدخلِ في شؤون الآخرين، فقد كان من المستحيل بالنسبة لي ألا آتي لنجدة رفيقي. وإذ أمسكتُ بوتدٍ كنت أستخدمه في إسناد شمسيّتي حين أرسم، فقد أخذت ألوّح به مهدئًا العبيدَ والحمّار بأكثر ما أمكنني من

إظهار للروح القتالية. وأخذ كلُّ شيء يسير على ما يرام، عندما انطلق ذلك الشيطان التركي الذي يمتطي جواداً كالسهم، بعد أن انتهى من تأمّل البحر، وقفل راجعًا لدى سماعه الضجة التي كنا نحدثها، وانقضّ علينا قبل أن نفكر بذلك، وكان يحمل بيده نوعًا من سكينٍ كبيرةٍ وشنيعة. . .

فقال شاتوفور الذي كان يحبّ اللون المحلي:

- سيف محدَّب[1].

لقد مرّ بقربي ووجه لي ضربةً من سيفه المحدّب جعلتني أرى ستًّا وثلاثين. . . شمعة[2]، كما كان يقول بلباقةٍ كبيرة صديقي السيد المركيز دوزفيل. ومع ذلك، فقد جاوبته بأن وجّهت إليه ضربةً بالوتدِ على صلبه. ثم أدرت الوتد حول رأسي بأفضل ما أمكنني، ضاربًا الحمّار، والعبيد، والحصان، والتركيّ. وقد أصبحتُ شخصيًا أكثر هياجًا بعشرِ مرات من صديقي السير جون تيريل. كان يمكنُ للمعركةِ أن تنقلبَ ضدّنا بلا شك. وكان دليلنا السياحي يحافظُ على الحياد. ولم يكن باستطاعتنا أن ندافعَ عن أنفسنا طويلاً باستخدامِ عصا ضد ثلاثة رجال مشاة، ورجل من الخيّالة، وسيف محدّب. ولحسن الحظ، فقد تذكر السير جون زوجًا من المسدَسات كنا قد جلبناه معنا، فأمسك به، ورمىٰ لي أحدَ المسدسين، وأخذ المسدَّس الآخر، وصوبه في الحال على جنديّ الخيالة الذي أشغلنا كثيراً، فأحدث مرأى هذه الأسلحة، والطقطقةُ الخفيفةُ لديكِ المسدس تأثيراً سحريًّا على أعدائنا، فهربوا بصورةٍ مخجلة، وتركونا نسيطرُ على ساحة المعركة، وعلى الكيس وحتى على الحمار. وبرغم غضبنا كلِّه، فلم نطلق النار، وكان ذلك لحسن حظنا، لأنه لا يمكن أن يقتل المرءُ هناك رجلاً من غير أن يُعاقب، وحتى أن ضربهُ بالعصا يكلفُ المرءَ غاليًا.

---

(١) - هو الـ: Atagan أو الـ yatagan، وهو سيفٌ تركي محدّب(م: ز.ع).

(٢) - رأى ستًّا وثلاثين شمعة تراءت له أضواء عديدة بسبب الضربة التي تلقاها (م: ز.ع).

عندما نشفّت نفسي قليلاً، كان أولُ اهتمام لنا، كما تفكرن تمامًا، هو أن نذهب إلى الكيس، وأن نفتحه، فوجدنا فيه امرأةً على حظٍّ كافٍ من الجمال، سمينة قليلاً. ولها شعر أسود طويل، ولا ترتدي أكثر من قميص صوفي أزرق أقل شفافية بقليل من وشاحِ السيدة دوشافيرني.

خرجت من الكيس بخفة، دون أن يظهر عليها إحراجٌ كبير، ووجهت إلينا خطابًا مؤثرًا جداً ولا شكّ. إلا أننا لم نفهم منه كلمةً واحدة. وفي نهايته، قبّلت يدي، وتلك هي المرةُ الأولى، يا سيداتي، التي تشرفني فيها سيدةٌ بأمرٍ كهذا.

ومع ذلك، فقد استعدنا برودةَ دمنا. وكنا نرى دليلنا السياحي ينتفُ لحيته وكأنه يقول:

- وماذا نفعل بهذه المرأة، بحقّ الشيطان؟ فإذا بقينا هنا، عاد الزوجُ مع قوةٍ أخرى وحطّمنا تحطيمًا، وإذا رجعنا إلى لارنكا مع المرأة، ونحن نرتدي ملابس الصيد الجميلة هذه، رجمنا السّوقةُ بصورةٍ مؤكدة.

وهتف تيريل، وقد ضايقته كلُّ هذه الأفكار، وبعد أن استعاد برودةَ دمه البريطانية:

«أية فكرةٍ شيطانية خطرت لك كي تذهبَ وترسمُ اليوم!».

فأضحكني تساؤله المتعجبّ، وأخذت المرأة التي لم تكن تفهمُ من الأمر شيئًا تضحكُ أيضًا. ومع ذلك، فكان ينبغي اتخاذُ قرار. وكنت أعتقد أن أفضلَ شيء علينا أن نعمله هو أن نضع أنفسنا جميعًا تحت حمايةِ قنصل فرنسا. ولكن الأمرَ الأصعبَ كان العودة إلى لارنكا. كان النهار يميلُ، فكان ذلك ظرفًا مؤاتيًا لنا، فقد جعلنا التركيُّ نقومُ بانعطافٍ كبير، ووصلنا بفضلِ الليل وهذا الاحتياط، إلى منزل القنصل الذي كان خارج المدينة، من دون عوائق. ونسيت أن أقول إننا صنعنا للمرأة بدلةً محتشمةً تقريبًا، بواسطة الكيس، وعمامة مترجمنا.

استقبلنا القنصل استقبالاً سيئًا، وقال لنا إننا مجانين، وإنه ينبغي احترامُ عاداتِ وأعراف البلدان التي نسافر على أرضها، وأنه لا يجبُ أن نضع إصبعنا بين الشجرةِ وقشرتها . . . وأخيراً، فقد وبخنا بقوة، وكان على حقّ، فقد فعلنا ما يكفي لإحداثِ تمردٍ عنيف، ولجعلِ كلّ الفرنجة في جزيرة قبرص يذبحون.

أما زوجته فكانت أكثر إنسانيةً، وكانت قد قرأت العديد من الروايات، ووجدت سلوكنا مفعمًا بالمروءة. وفي واقعِ الأمر، فقد تصرفنا على غرار أبطالِ الروايات، وكانت تلك السيدة الممتازة شديدةَ التديُّن، ففكرت بالقيام بهداية المرأةَ غير المؤمنة التي أتينا بها إليها بسهولة، وفكرت بأن هذه الهداية سوف تُذكر في صحيفة «المونيتور» وأن زوجها سوف يعينُ قنصلاً عامًا. لقد ارتسم هذا المخطط في ذهنها، خلال لحظة من الزمن، فعانقت المرأة التركية، وأعطتها فستانًا، وأنّبت القنصل على قسوته، وأرسلته إلى منزل الباشا لتسوية المسألة.

كان الباشا شديدَ الغضب، فقد كان الزوجُ الغيورُ شخصيةً مهمةً، وهو يُرغي ويُزبد، وكان يقول: لقد كان أمراً فظيعًا أن يمنع هؤلاء المسيحيون السيئون رجلاً مثله من أن يُلقي بعبدته إلى البحر. وكان القنصلُ شديدَ القلق، فتحدث كثيراً عن سيده الملك وتحدثَ أيضًا عن فرقاطة تحملُ ستين مدفعًا قد بدأت تظهر في مياه لارنكا. ولكن الحجة التي أحدثت أكبرَ أثرٍ كانت العرضَ الذي قدمه باسمنا لدفع مبلغٍ مناسب.

لو كنتن تعلمن، للأسف، ما هو السعرُ الحقيقي لتركي! كان لابدّ أن ندفع للزوج وللباشا، وللحمّار الذي كسر له تيريل سنيّن، وأن ندفع ثمنَ الفضيحة، وأن ندفع لكل شيء، فكم من المراتِ، هتف تيريل بألم:

- ولماذا، بحقّ الشيطان، نذهبُ للرسم على شاطىء البحر!

فهتفت السيدة لامبير:

- يا لها من مغامرة، أيها المسكين دارسي! فهناك إذن أُصبت بهذه الندبة الرهيبة؟ من فضلك، ارفع شعرك قليلاً. إنها لمعجزةٌ حقًا ألا يكون قد فلق رأسك!

ولم تكن جوليا، خلال القصة بكاملها، تزيحُ عينيها عن جبين الراوي، وسألت أيضاً بصوتٍ خجول:

«وماذا حدث للمرأة؟»

- هذا بالضبط هو القسم الذي لا أحبّ كثيراً أن أرويه من القصة. إن التتمةَ محزنةٌ بالنسبة لي إلى درجة أن الناس، في الساعة التي أحدثكم فيها، لايزالون يسخرون من مغامرتنا الخطرة والفروسية.

وسألت السيدة دوشافيرني وهي تحمرّ قليلاً من الخجل:

- هل كانت تلك المرأةُ جميلة؟

وسألت السيدة لامبير:

- وماذا كان اسمها؟

- كان اسمها أمينة.

- جميلة؟ . . .

- نعم، لقد كانت على حظٍّ كافٍ من الجمال، غير أنها سمينة أكثر من اللازم، وبشرتها مغطاة كلياً بالمساحيق، حسبَ عادة بلدها، ولابدّ أن يتوفر للمرء الكثيرُ من الاعتياد كي يثمّن مفاتنَ الجمال التركي. فأقامت أمينة إذن في منزل القنصل، وكانت منغرية[1] الأصل، وقد قالت للسيدة س ### زوجة القنصل إنها ابنة أمير، ففي تلك البلاد، كلُّ نذلٍ يقود عشرةَ أنذالٍ هو أمير. فعاملوها إذن كأميرة. وكانت تتناولُ العشاءَ على المائدة، وتأكلُ بقدرِ أربعةِ أشخاص. وحين يحدثونها عن الدين، كانت تنامُ بانتظام. ودام ذلك بعضَ الوقتَ، وأخيراً، حدّدوا يوماً لمعموديتها، وسمّت السيدة س ### نفسها إشبينةً لها. وأرادت أن أكون إشبيناً لها معها، فجلبت السكاكر، والهدايا، وكلّ ما يتبعُ ذلك! . . . فقد كان مكتوباً أن توصلني تلك التعسة أمينة إلى الإفلاس. وكانت السيدة تيريل تقول إن

---

(١) - من سلالة منغ الملكية ربما. (م: ز.ع).

أمينة تحبني أكثر مما كان يحبني تيريل، لأنها كانت، حين تقدّم لي القهوة، تدعُ بعضها يسقطُ على ملابسي. وكنت أتهيأ لتلك المعمودية بترصّنٍ إنجيليّ حقًّا، حين اختفت الجميلة أمينة، عشيه الحفلة. أينبغي أن أقول لكنَّ كلّ شيء؟ لقد كان عند القنصل طباخٌ مينغريّ، وهو نذلٌ كبير بالتأكيد، ولكنه رائعٌ في إعداد البيلاف[1]، وكان هذا المنغريّ قد أَعجب أمينةَ التي كانت بلا شك تتمتع بروحٍ وطنيةٍ على طريقتها. فاختطفها، وسرق، في الوقت نفسه، مبلغًا كبيراً إلى حدٍّ كافٍ من السيد س ### الذي لم يستطع أن يعثر عليه أبداً. وهكذا فلم يحصل القنصل على شيء مقابل ماله، ولا زوجته على شيء مقابل جهاز العروس الذي كان قد منحت أمينة إياه، ولا أنا على شيء مقابل قفازاتي، وسكاكري، فضلاً عن الضربات التي تلقيتها. والأسوأ من ذلك، هم أنهم جعلوني مسؤولاً عن تلك المغامرة تقريباً، وزعموا أني أنا من حرّر تلك المرأة الخسيسة التي أتمنى أن يكون مصيرها في قاع البحر، وأني أنا من سببت الكثير من المصائب لأصدقائي، وقد عرف تيريل كيف ينسحب من المسألة، فأظهر نفسه ضحية فيما كان وحده سبب المشاجرة بكاملها. أما أنا فقد بقيت لي سمعةُ دون كيشوت والندبة التي ترينها والتي تضر كثيراً بنجاحاتي.

ما إن رويت القصة، حتى عاد الصَّحبُ إلى قاعة الاستقبال، وتحدث دارسي لبعض الوقت أيضًا مع السيدة دوشافيرني، ثم اضطر إلى تركها، ليجد نفسه أمام فتى قدموه إليه، واسع العلم بالاقتصاد السياسي وقد كان يدرسُ ليصبح نائبًا، وكان يرغب في الحصول على معلوماتٍ إحصائيةٍ عن الإمبراطورية العثمانية.

---

(١) - البيلاف: طبق شرقي مؤلف من لحم وأرز، وتوابل. (م: ز.ع).

الفصل العاشر

غالبًا ما كانت جوليا تنظر إلى ساعة الجدار، منذ أن تركها دارسي، وكانت تصغي إلى شاتوفور بشرود، وعيناها تفتشان بلا تعمدٍ عن دارسي الذي يتحدثُ في الطرف الآخر من قاعة الاستقبال. وأحيانًا كان ينظرُ إليها، وهو يتكلّم مع محدثه، هاوي الإحصاءات. ولم تكن تقوى على تحمُّل نظرته النافذة، برغم هدوئها. كانت تحسُّ بأنه قد أصبح يمتلكُ سلطةً عليها غير عادية. ولم تعد تفكر في الإفلات منها.

أخيراً، طلبت عربتها، إما قصداً، وإما لانشغال ذهنها، طلبتها وهي تنظر إلى دارسي نظرةً تعني: «لقد أضعت نصفَ ساعة كان يمكننا أن نمضيها معًا». وكانت العربةُ جاهزةً ولايزال دارسي يتكلم، غير أنه كان يبدو متعبًا ومتضايقًا من طارحِ الأسئلة الذي لم يكن يتركه. ونهضت جوليا ببطء، وصافحت السيدةَ لامبير، ثم توجهت إلى باب قاعة الاستقبال، وقد دُهشت، وصُدمت تقريبًا لأنها رأت أن دارسي لايزالُ في المكانِ نفسه دائمًا. وكان شاتوفور إلى جانبها، فقدّم لها ذراعه التي تأبطتها بصورةٍ آلية من غير أن تصغي إليه، ومن غير أن تلاحظ وجوده تقريبًا.

اجتازت المر، تصحبها السيدة لامبير، وبعضُ الأشخاص الذين رافقوها حتى عربتها وكان دارسي قد بقي في قاعة الاستقبال. وعندما جلست في عربتها، سألها وهو يبتسم إن كانت تشعرُ بالخوف، وهي تسير في الطرقِ وحدها في الليل، وأضاف أنه سوف يتبعها عن كثب في عربته الخفيفة. ما إن ينتهي المقدم بيرّان من لعبة البلياردو. أما جوليا، التي كانت غارقةً تمامًا في أفكارها، فقد جعلتها رنّة

صوته تصحو من شرودها، ولكنها لم تفهم شيئًا، ففعلت ما يمكن أن تفعله أيةُ امرأة أخرى في ظرفٍ مشابه: لقد ابتسمت، ثم ودّعت بإيماءة من رأسها، الأشخاصَ المتجمّعين على درج المدخل، وانطلقت بها جيادها سريعًا، ولكنها، في اللحظة التي كانت العربة تهتز فيها بالضبط، رأت دارسي وهو يخرج من قاعة الاستقبال، شاحبًا، كئيبَ المنظر، وعيناه تحدّقان بها، وكأنه يطلبُ منها وداعًا مميزًا. لقد انطلقت، حاملةً الأسف لأنها لم تستطع أن تومىء إليه وحده برأسها، وفكرت حتى أنه سوف يجرحُ لذلك. وكانت قد نسيت حينها أنه قد ترك لشخصٍ آخر الاهتمامَ بمرافقتها إلى عربتها. لقد أصبحت الأخطاءُ تأتي الآن من جهتها، فقد كانت تلومُ نفسها عليها، وكأنها جريمةٌ كبيرة. إن المشاعر التي أحسّت بها نحو دارسي، قبل ذلك ببضع سنوات، حين تركته بعد السهرة، التي غنّت فيها غناءً ناشزًا، هذه المشاعر كانت أقلّ حرارةً حقًّا من تلك التي تحملها هذه المرة. وليس هذا فقط لأن السنوات قد منحت انطباعها قوة، ولكن لأنها قد تزايدت أيضًا بسببِ كلّ الغضب المتراكم من زوجها. ولربّما أن ذلك النوع من الانجذاب الذي شعرت به نحو شاتوفور، والذي نسيته تمامًا، من جهةٍ أخرى، ربما قد هيأها للانسياق إلى الشعور الأشدّ حرارةً والذي كانت تحسّ به نحو دارسي، من غير ندمٍ مفرط.

أما هو، فقد كانت أفكارهُ من نوع هادئ. وكان قد التقى بسرورٍ امرأة جميلةً تُعيدُ إلى ذهنه ذكرياتٍ سعيدة، ولربما تكون معرفته بها مستحبةً أثناء الشتاء، الذي سيقضيه في باريس. ولكنها ما إن غابت عن عينيه، حتى لم يتبقّ له إلا ذكرى بعض الساعات التي انقضت بفرح. وهي الذكرى التي أفسدها أيضًا توقعُ النوم المتأخر، وقطعُ مسافة أربعة فراسخ كي يصل إلى فراشه. فلندعه، وهو مستغرقٌ تمامًا في أفكاره المبتذلة. لندعه يلتفُّ في معطفه بعناية، ويجلس مرتاحًا، بصورة منحرفة، في عربته الصغيرة المستأجرة، وينقل أفكاره من قاعة استقبال السيدة لامبير إلى القسطنطينية، ومن القسطنطينية إلى كورفو، ومن كورفو إلى التهويم.

أيها القارئ العزيز، سوف نتبعُ السيدة دو شافيرني. إن كان هذا يسرُّك...

الفصل الحادي عشر

حين غادرت السيدة دو شافيرني قصر السيدة لامبير، كان الليلُ رهيبًا وحالكًا وكان الجوّ ثقيلاً وخانقًا، فمن وقتٍ لآخر، كانت البروق التي تضيءُ منظرَ الطبيعة، ترسمُ الأخيلةَ السوداء، أخيلة الأشجار على خلفيةٍ برتقاليةٍ داكنة. وكانت الظُّلمة تبدو أكثر سواداً، بعد كلّ لمعة برق. ولم يكن الحوذيّ يرى رأسَ جياده. وانفجرت عاصفةٌ في الحال. أما المطرُ، الذي كان يهطلُ في البداية، قطراتٍ كبيرة ونادرة، فسرعان ما تحول إلى طوفان حقيقيّ. كانت السماءُ مشتعلةً من كافة الجهات، وقد بدأت المدفعيةُ السماويةُ تصبحُ مصمّةً للآذان. أما الجيادُ المذعورةُ، فقد كانت تتنفس بقوة، وتشبُّ بدلاً من أن تتقدم. إلا أن الحوذي كان قد تناول عشاءً كاملاً: فمعطفه السميكُ، والنبيذُ الذي شربه خصوصًا كانا يمنعانه من أن يخشى الماء والطرقَ الرديئةَ. لقد كان يسوطُ بعنفٍ حيواناته المسكينة. ولا يقلّ إقدامًا عن قيصر في العاصفة، حين كان يقول لربانه: «إنك تحمل قيصر وثروته!».

أما السيدة دوشافيرني التي لم تكن تخشى الرّعد، فقلما اهتمت بالعاصفة. وكانت تردد كلّ ما كان دارسي قد قاله لها، وتندمُ لأنها لم تقل له ألفَ شيء كان بإمكانها أن تقولها له، عندما قاطعتها فجأة في تأملاتها صدمةٌ عنيفةٌ تلقتها عربتها: وفي الوقت نفسه، تناثر زجاجُ النوافذ شظايا، وسُمعت طقطقةٌ هي نذيرُ شؤم، فقد تدهورت العربةُ في حفرة، ولم تعانِ جوليا إلا من الخوف، إلا أن المطر لم يتوقف، فتحطمت إحدى العجلات، وانطفأت المصابيحُ، ولم يكن يُرى في المنطقة المجاورة منزلٌ واحد يحتمي المرءُ فيه. كان الحوذيّ يطلقُ الشتائم، وخادمُ المقصورة يلعن الحوذيّ، ويرغي ويزبدُ على خرقه. أما جوليا، فقد ظلّت في العربة وهي تسأل عن

الطريقة التي يمكن الرجوعُ بها إلى ب ### أو عما ينبغي عمله، غير أنها كانت تتلقى على كل سؤال تطرحه الردَّ التالي الذي يدعو إلى اليأس: «هذا غير ممكن!».

ومع ذلك، فقد سُمع في البعيد الصوتُ المكتوم لعربةٍ كانت تقتربُ، فتعرّف حوذيّ السيدة دوشافيرني حالاً، وبارتياحٍ كبير، أحدَ زملائه والذي كان قد وضع أُسُسَ صداقةٍ رقيقةٍ معه، في غرفةِ خدمةِ السيدة لامبير، فصاح به ليتوقف.

توقفت العربة، وما كاد اسمُ السيدة دوشافيرني يُلفظ حتى فتح شابٌّ كان موجوداً في العربة الخفيفة بنفسه الباب، وهو يصيحُ: «هل هي جريحة؟»، ووثب قفزاً إلى جانب عربة جوليا، فتعرّفت دارسي، وكانت تنتظره.

التقت أيديهم في الظلمة، وظن دارسي أن السيدة دوشافيرني تضغطُ على يده، إلا أن ذلك كان ربما بتأثيرِ الخوف، وبعد الأسئلة الأولى، قدّم دارسي، بطبيعة الحال، عربته. ولم تردّ جوليا في البداية، فقد كانت متردّدةً إلى حدٍّ كبير حول القرار الذي كان ينبغي لها أن تتخذه. فمن جهةٍ، كانت تفكرّ بالثلاثة أو أربعة فراسخ التي سيكون عليها قطعها وجها لوجهٍ مع شاب، فيما إذا كانت تريدُ الذهاب إلى باريس. ومن جهة أخرى، فقد كانت ترتعشُ حين تخطرُ لها فكرةُ روايةِ الحادث المثير للخيال، حادثِ العربة التي انقلبت، والنجدة التي لا بدّ أنها تلقتها على يد دارسي، إذا ما رجعت إلى القصر لتطلبَ ضيافةَ السيدة لامبير. أما أن تظهر جوليا مجدداً، في قاعة الاستقبال، في منتصف مباراة الويست، وقد أنقذها دارسي كالمرأة التركية... فهذا أمرٌ لم يكن يمكنها التفكير فيه، ولكن أيضاً ثلاثةُ فراسخ بطولها حتى باريس!... وفيما كانت تتقاذفُها أمواجُ التردد على ذلك النحو، وتتمتمُ بخرقٍ ببعضِ الجمل المبتذلة حولَ الارتباك الذي يمكن أن تسببه، كان دارسي، الذي يبدو أنه يقرأُ في أعماقِ قلبها، يقول لها ببرود:

«خذي عربتي، يا سيدتي، وأنا أبقى في عربتك إلى أن يمرّ إنسانٌ وجهته باريس». أما جوليا التي خشيت أن تظهر تحشُّماً مفرطاً، فقد سارعت إلى القبول

بأول عرض، وإنما ليس العرض الثاني. وبما أن قرارها كان مفاجئًا تمامًا، فلم يتوفّر لها الوقت لحل ّالسؤال المهم، سؤال معرفة وجهة الذهاب: إلى ب. . . أم إلى باريس. لقد كانت قد جلست في عربة دارسي الخفيفة، وهي تلتف ّبمعطفه الذي سارع إلى إعطائها إياه. وكانت الخيول ُتخب ّبخفة باتجاه باريس، قبل أن تفكر بأن تقول َإلى أين تريد ُالذهاب. فكان خادمها قد اختار لها، وذلك بأن أعطى الحوذي اسم َوشارع َسيدته.

بدأ الحديث ُمحرجًا من هذه الجهة وتلك. وكانت نغمة ُصوت دارسي مقتضبةً. ويبدو وكأنها تُنبئ بقليلٍ من التكدُّر. وتصوّرتْ جوليا أن حيرتها قد صدمته، وأنه ينظر إليها على أنها محتشمةٌ مضحكةٌ. لقد كانت سلفًا تحت تأثيرِ ذلك الرجل إلى حدٍّ كبير بحيث أخذت توجه لنفسها في دخيلتها لومًا شديداً. ولم تعد تفكر ّإلا بتبديدِ حركة الانزعاج تلك والتي تتهم نفسها بها. كان رداءُ دارسي مبللاً، فلاحظت ذلك. وإذ تخلّصت في الحال من المعطف، بعد أن حُسم الخلاف بالمناصفة، وكان ذلك تهوراً هائلاً ما كان لها أن ترتكبه في لحظة التردّد تلك، والتي كانت تريد أن تُنسى!

لقد كان كلٌّ منهما قريبًا من الآخر بحيث كان بإمكان خدّ جوليا أن يحسّ حرارة نَفَس دارسي. وكانت اهتزازات العربة تقربُهما أكثر في بعض الأحيان. فقال دارسي.

«إن هذا المعطف الذي يلفّنا كلينا يذكرني بالألغاز التي كنا نلعبها قديمًا. فهل تتذكرين أنك كنت تلعبين دور فتاتي فرجينيا، حين كنا كلانا نرتدي زيًّا غريبًا هو دثار ُجدّتك؟

- نعم. والتعنيف الذي كانت توجهه إلي في تلك المناسبة.

فهتف دارسي:

- أه! أي زمنٍ سعيد كان ذلك! وكم من المرّات فكرت بحزنٍ وسعادة بأمسياتنا الرائعة، أمسيات شارع بيل - شاس! هل تتذكرين أجنحة النسرِ الجميلة

التي ربطوها بكتفيك بشرائط وردية، والمنقار الورقيّ المذهب الذي صنعتهُ لك بكثير من الفن؟

فأجابت جوليا:

- أجل، كنت أنت بروميثيوس، وأنا النسر، ولكن أية ذاكرة لديك؟ كيف أمكنك أن تتذكر كلّ هذه الألعاب الجنونية؟ فنحن لم يرَ أحدنا الآخر منذ زمنٍ طويلٍ جداً!

فقال دارسي وهو يبتسمُ، ويتقدّم بحيث ينظر إليها مواجهة:

- هل سؤالك الذي تطرحينه عليّ مجاملة؟

ثم تابع بلهجةٍ أكثر جدّية:

- في الحقيقة، ليس أمراً فائقًا للعادة أن أكون قد احتفظتُ بذكرى أكثرِ لحظاتِ حياتي سعادةً.

فقالت جوليا التي كانت تخشى أن يأخذ الحديث منحًى مفرطًا في عاطفيته.

- أية موهبة كانت لديك لابتكار الألغاز!

فقال دارسي:

- هل تريدين أن أعطيك برهانًا آخر على ذاكرتي؟ هل تتذكّرين اتفاقيةَ التحالف التي عقدناها في منزل السيدة لامبير؟ لقد تواعدنا على أن نغتاب العالم أجمع. وبالمقابل، أن يساندَ كلٌّ منا الآخر إزاء الجميع وضدّ الجميع. . . بيد أن اتفاقنا قد لاقى مصيرَ معظمِ الاتفاقات. فبقي من غير تنفيذ.

- وما الذي يدريك؟

- للأسف! أتصوّر أنه لم تتوفّر لك الفرصةُ لتدافعي عني. ومن ذلك المتعطل الذي اهتمّ بي، بعد أن ابتعدتُ عن باريس؟

- للدفاع عنك . . . لا . . . ولكن للحديث عنك إلى أصدقائك . . .

فهتف دارسي بابتسامةٍ ممزوجةٍبالحزن :

- أوه! أصدقائي ! قلما كان عندي أصدقاء في ذلك الزمن ، ممن كنت تعرفينهم ، على أية حال . أما الشبان الذين كانت تراهم السيدة والدتك ، فقد كانوا يكرهونني ، ولا أدري لماذا . أما النساء ، فقد كنّ يفكرن قليلاً بالسيد الملحق في وزارة الشؤون الخارجية .

- ذلك لأنك لم تكن تهتمّ بهن .

- هذا صحيح ، فلم أعرف قط كيف أكون محببًا لدى الأشخاص الذين لم أكن أحبهم .

لو كانت الظلمة تُسمح بتمييزِ وجه جوليا ، لتمكّن دارسي من رؤية الحُمرةِ الشديدة التي انتشرت على قسمات وجهها . وحين سمعت تلك الجملةَ الأخيرةَ التي أعطتها هي معنى ربما لم يكن دارسي قد فكر فيه .

ومهما يكن من أمر ، فإن جوليا التي قطعت هنا ذكرياتٍ كان كل منهما قد حرص على الاحتفاظ بها جيداً وأكثر مما ينبغي ، أرادت أن تردّه قليلاً إلى أسفاره ، آملةً أنها ، بتلك الوسيلة ، تعفي نفسها من الكلام . وهذه الوسيلة تنجح على الدوام تقريبًا مع المسافرين ، وخصوصًا أولئك الذين زاروا إحدى البلدان البعيدة .

فقالت : يا لسفرتك من سفرةٍ جميلة! وكم أتحسّر على أنني لن أتمكن أبدًا من القيام بسفرةٍ مماثلة!

ولكن دارسي لم يعد لديه مزاجٌ للرواية .

وسأل فجأة : من هو هذا الشاب ذو الشاربين ، والذي كان يكلّمك منذ قليل؟

فاحمرّ وجه جوليا هذه المرّة أكثر أيضًا .

وأجابت: إنه صديقُ زوجي، وهو ضابطٌ من قطعته العسكرية... ثم تابعت، من غير أن تحدوها رغبةٌ في التخلي عن موضوع الشرق:

إن الأشخاص الذي رأوا تلك السماء الزرقاء، شمس الشرق، لايمكنهم بعد ذلك أن يعيشوا في أماكن أخرى.

– لقد أزعجني إزعاجًا فظيعًا، ولا أدري لماذا... أنا أتكلّم عن صديق زوجك. وليس على السّماء الزرقاء... أما عن تلك السماء الزرقاء، ياسيدتي، فالربّ يقيك منها! إن المرءَ ينتهي إلى الشعور بأنها إلى حدٍّ كبير جالبةٌ للنحس لكثرة مايراها على حالها كلّ يوم بحيث يمكنه أن يتأمّل بإعجاب ضبابًا كدرًا في باريس وكأنه أكثر المشاهد جمالاً. وصدقيني أنه لاشيء يثيرُ الأعصابَ أكثر من تلك السماء الزرقاء الجميلة والتي كانت بالأمس زرقاء، وستبقى غدًا زرقاء. فلو كنت تعلمين بأية لهفةٍ وبأية خيبة أملٍ متجدّدة دائمًا ينتظرون سحابةً واحدة ويأملون بها!

– ومع ذلك، فقد بقيت زمنًا طويلاً فعلاً تحت تلك السماء الزرقاء!

– ولكن، يا سيدتي، كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لي أن أفعل غير ذلك. ولو كنت استطيعُ ألاّ أتبع شيئًا غير هواي، لرجعت بسرعة حقًّا عند وصولي على مقربةٍ من شارع بيل – شاس، بعد أن أرضيتُ اندفاعة الفضول الصغيرة التي لابدّ أن تثيرها بالضرورة غرائبُ الشرق.

– أظن أن العديد من المسافرين سيقول كما تقول، إذا ما كانوا صريحين مثلك... فكيف يقضي المرء وقته في القسطنطينية، وفي مدن الشرق الأخرى؟

– هناك، كما في كلّ مكان، عدة طرق لقتل الوقت، فالإنكليز يشربون، والفرنسيون يلعبون، والألمان يدخنون. وبعض مرهفي العقل، كي ينوعوا مسرّاتهم، يتسببون في أن تطلق عليهم نيرانُ البنادق، حين يتسلقون سطوح المنازل، ويختلسون النظر إلى نساء البلاد.

– ربما يكون هذا الاهتمام الأخير هو الذي كنت تؤثره.

- على الإطلاق. أنا كنت أدرس التركية واليونانية، وهذا ما كان يعرّضني تماماً للسخرية. وحين كنت أنتهي من رسائل السفارة، كنت أرسم، وأعدو على جوادي نحو منطقة أودوس[1] ثم كنت أذهب إلى شاطئ البحر لأرى إن كان قد وصل وجهٌ بشريٌّ ما من فرنسا أو من مكانٍ آخر.

- لا بدّ أن رؤيةَ فرنسيّ على ذلك البعد الكبير عن فرنسا قد كانت بهجةً كبيرة بالنسبة إليك.

- أجل، ولكن، مقابل رجلٍ ذكي واحد، كم كان يأتينا من تُجار الخرداوات أو أنواع الكشمير، أو يأتينا، وهذا أسوأ ما في الأمر حقًّا، شعراءٌ شبان يصيحون من بعيد حين كانوا يرون شخصاً من السفارة، يصيحون به: «خذني لرؤية الآثار، أوصلني إلى القديسة صوفيا[2]. وقدني إلى الجبال، وإلى بحر اللازورد. أريد أن أرى الأماكن التي «كان هيرو يتحسّر فيها!» ثم أنهم، بعد أن يصابوا بضربة شمسٍ قوية، يغلقون البابَ على أنفسهم في غرفهم، ولا يرغبون بعد ذلك بأيّ شيء سوى الأعداد الأخيرة من الـ« كونستيتو سيونيل[3]».

- أنت ترى كلّ شيء من جانبه المظلم، حسب عادتك القديمة، فهل تدري أنك لم تصحح عيوبك، فأنت ساخرٌ دائماً.

- قولي لي، ياسيدتي، إن لم يكن مسموحًا حقًّا للمحكوم عليه الذي يُقلى في مقلاته أن يمرح قليلاً على حساب رفاقه في القلي؟ حقًّا! إنكم لاتعرفون كم هي بائسةٌ الحياةُ التي نحياها. فنحن، أمناء سر السفارة، نحن أيضًا نشبه تلك السنونو التي لا تحط أبداً. وليس لنا أيٌّ نصيبٍ من تلك العلاقات الحميمة التي تصنع سعادةَ الحياة... هذا مايبدو لي.

---

(١) - المياه الحلوة (م: ز.ع).

(٢) - القديسة صوفيا: كنيسة بيزنطية في القسطنطينية. (م: ز.ع).

(٣) - أي: الدستوري: وهي صحيفة ليبرالية تأسست عام ١٨١٥، وهي الناطقة الرئيسة باسم المعارضة في زمن إعادة الملكية - صدرت حتى عام ١٩١٤. (م: ز.ع).

(وتلفظ بهذه الكلمات الأخيرة بنبرةٍ فريدةٍ، وهو يقترب من جوليا) ومنذ ست سنوات لم أجد أحداً أستطيعُ أن أتبادلَ أفكاري معه.

– لم يكن هناك إذن أصدقاء؟

– لقد قلت لك منذ قليل إنه من المستحيل أن يكون للمرء أصدقاء في بلدٍ أجنبي. وقد تركت صديقين في فرنسا. مات أحدهما، وثانيهما موجودٌ الآن في أمريكا، ولن يعود منها إلا بعد بضع سنوات، هذا إذا لم تبقه فيها الحمى الصفراء.

– وهكذا، فأنت وحيد؟

– وحيد.

– ومجتمع النساء. كيف هو في الشرق؟ ألا يقدّم إليك بعض الإمكانات التي تلجأ إليها؟

– أوه! أما هذا الأمر، فهو أسوأ الأمور جميعاً. فلا ينبغي التفكير بالنساء التركيات. أما عن اليونانيات والأرمنيات، فأفضل ما يمكن أن نقوله في مدحهنّ هو أنهنّ على حظّ من الجمال. أما نساءُ القناصل والسفراء، فاعفيني من أن أحدّثك عنهن، فهذه مسألة ديبلوماسية. وإذا ما قلت رأيي فيها، فيمكن أن أسيء إلى الشؤون الخارجية[1].

– لايبدو أنك تحبّ كثيراً السلك الخارجي. كنتَ فيما سبق ترغبُ بكثيرٍ من الحماسة أن تدخل الميدانَ الديبلوماسي.

– لم أكن أعرف المهنةَ بعد. أما الآن، فأودّ أن أكون مفتشاً لوحول باريس!

– أه! يا إلهي! كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ باريس! إنها مكانُ الإقامة الأكثر كآبة على وجه الأرض.

– لا تجدّفي. وأودّ أن أسمع تراجعك عن رأيك في نابولي. بعد عامين من الإقامة في إيطاليا.

---

(١) – أي وزارة الخارجية. (م: ز.ع).

فردّدت وهي تتنهّد:

- رؤية نابولي، هذا هو أكثر الأشياء التي أرغب فيها في العالم... بشرط أن يكون أصدقائي معي.

- أوه! بهذا الشرط أقوم بجولةٍ حول العالم، فأن يسافر المرء مع أصدقائه هو أشبه ما يكون بأن يبقى المرء في قاعة استقباله، ويمرّ الناس من أمام نوافذك، مثل منظرٍ شامل يتجلّى أمام العيون.

- حسنًا، إذا كان هذا طلبًا مبالغًا فيه، فإني أودّ أن أسافر مع صديق... أو مع صديقين فقط.

- أما أنا، فلست طمّاعًا إلى هذه الدرجة، ولا أريد إلا صديقًا واحدًا.

وأضاف وهو يتنهد:

- أو صديقة واحدة. ولكن هذه سعادة لم تحدث لي قط...

واستأنف وهو يتحسّر:

- ولن تحدث.

ثم قال بصوتٍ أكثر مرحًا:

- كان نصيبي هو الإخفاق دومًا، في الحقيقة، ولم أرغب قط إلا في شيئين اثنين رغبةً شديدة، ولم أستطع الحصول عليهما.

- وماذا كانا إذن؟

- أوه! ليس فيهما أيّ شطط حقًا. فمثلاً، رغبت بشغف أن أرقص الفالس مع شخصٍ ما... وقد عملت دراساتٍ متعمقةً في رقص الفالس، وتمرّنت طيلة أشهر كاملة، وحدي، مع كرسي، كي أتغلب على الذهول المدوّخ الذي لابدّ أن يحدث دائمًا، وعندما توصلت إلى التخلّص من حالات الدوار...

- ومع من كنت ترغبُ في أن ترقص الفالس؟

- لو قلت لك إني كنت أرغب في ذلك معك؟ . . . وعندما أصبحت راقصًا للفالس بارعًا، لكثرة ما بذلت من الجهد، منعت جدّتك الفالس بأمرٍ علنيّ لايزالُ يُثقلُ على قلبي، بعد أن اتخذت كاهن اعترافٍ جانسيني النزعة.

وسألت جوليا باضطرابٍ شديد:

- وأمنيتك الثانية؟

- أما أمنيتي الثانية، فأتخلى عنها لك، فلطالما تمنيّت، وكان ذلك طموحًا مفرطًا مني، طالما تمنيت أن أكون محبوبًا. . . أَجل محبوبًا. . . وكان ذلك التمني قبل الفالس. . . وأنا لا أراعي التسلسل الزمني. أقول إني كنت أرغب في أن تحبّني امرأةٌ وبوسعي أن آتي لرؤيتها وأنا أنتعل جزمةً ملوّثة بالطين، في اللحظة التي تستعدّ فيها لتركب عربةً تذهب بها إلى حفلةٍ راقصة. كان يمكن أن تكون في آخر درجات زينتها، وتقول لي: «فلنبقَ» ولكن ذلك كان ضربًا من الجنون. ولاينبغي أن نطلب إلا أشياء ممكنة.

- كم أنت خبيث! لديك دومًا ملاحظات ساخرة! ولاشيء يجد الرحمة لديك.

إنك عديم الشفقة مع النساء.

- أنا، ليحمني الله من ذلك. فأنا، بالأحرى إنما أطعن على نفسي. فهل يُعدُّ تأكيدي بأن النساء يؤثرن سهرةً ممتعة. . . على جلسةٍ ثنائية معي، هل يعدّ هذا كلامَ سوءٍ على النساء؟

- حفلة راقصة! . . . وتزيّن! آه! يا إلهي! من يحب الحفلات الراقصة الآن! . . .

قلّما كانت تفكر في تبرئة جنسها بكامله والذي كان موضع اتهام، فقد كانت تظن أنها تسمع أفكار دارسي، ولكن هذه المرأة المسكينة لم تكن تسمعُ إلا قلبها.

بصدد ملابس الحفلة الراقصة، يا لها من خسارة أننا لم نعد نذهبُ إلى حفلات المساخر! فقد جلبت طقماً نسائياً يونانياً، وهو رائع، وقد يناسبك بشكل مذهل.

- سوف ترسمه لي كي أضعه في مجموعة رسوماتي.

- بكلّ طيبةِ خاطر. ولسوف ترين أيّ تقدّم قد أحرزت منذ ذلك الوقت الذي كنتُ فيه أرسمَ سحنات بشرية على مائدة الشاي، مائدة السيدة والدتك. وبالمناسبة، يا سيدتي، فلديّ تهنئة أقدّمها لك، فلقد قيل لي هذا الصباح في الوزارة إن السيد دو شافيرني سوف يعين نبيلاً من نبلاء المجلس النيابي، وهذا ما سرّني كثيراً.

فارتجفت جوليا بصورة لا إرادية.

وتابع دارسي كلامه من غير أن يلاحظ تلك الحركة.

اسمحي لي أن أطلب حمايتك منذ الآن. . . ولكني، في أعماقي، لست مسروراً جداً من منصبك الجديد. وأخشى أن تكوني مضطرّة لأن تذهبي للإقامة في سان - كلود أثناء الصيف، حينذاك، سأتشرّفُ برؤيتك مراتٍ أقل.

فقالت جوليا بصوتٍ شديد الانفعال:

- لن أذهب إلى سان - كلود أبداً.

- أوه! هذا أفضل، فباريس، كما ترين، هي الجنة التي لاينبغي أبداً أن يخرجَ منها المرءُ إلا ليذهب، من حين لآخر، ليتناول العشاء في الريف، في منزل السيدة لامبير، وبشرط أن يعود في المساء. فكم أنت محظوظةٌ، يا سيدتي، بأن تعيشي في باريس! أمّا أنا، فلا أمكث فيها إلا وقتاً قصيراً. وليس لديك فكرة كم أجد نفسي سعيداً في الشقة الصغيرة التي أعطتني عمتي إياها. وأنت تقيمين، كما قيل لي، في ضاحية سانت - أونوريه. وقد دلوّني على منزلك. ولابدّ أن لديك حديقةً مبهجة. هذا إذا لم يكن هوسُ البناء قد غيّر روحاتك إلى الدكاكين.

- كلا، إن حديقتي لاتزال على حالها، شكراً للرب.

- في أي يوم تستقبلين الزيارات، يا سيدتي؟

- أكون في منزلي في كلّ مساء على وجه التقريب، وسأكون مسرورةً إذا قبلت أن تأتي لزيارتي بعض الأحيان.

- أنت ترين، يا سيدتي، أنني أتصرّف وكأن «تحالفنا» القديم لايزال باقياً. وأدعو نفسي من غير احتفال، ومن غير تقديمٍ رسميّ. وأنت تغفرين لي هذا، أليس كذلك؟ . . . فأنا لا أعرف أحداً في باريس سواك، وسوى السيدة لامبير، فقد نسيني الجميع. إلا أن منزليكما هما الوحيدان اللذان تحسرتُ عليهما في منفاي، إن قاعةَ استقبالك خصوصاً لا بدّ أن تكون رائعة. أنتِ التي كنت تختارين أصدقاءك اختياراً جيداً جداً. . .

فهل تتذكرين المشاريعَ التي كنت تعدّينها قديماً من أجل ذلك الوقت الذي ستكونين فيه سيدة منزل؟ قاعةُ استقبال لايصلُ إليها المضجرون، تُسمع فيها الموسيقى أحياناً، وتجري الأحاديثُ فيها بصورةٍ دائمة، ولوقتٍ متأخر، ولايكون فيها أناسٌ مدّعون، بل عددٌ صغير من الأشخاصِ الذين يعرف بعضهم بعضاً معرفة تامة. ونتيجةً لذلك، فهم لايسعون إلى الكذب، ولا إلى إحداث تأثيرٍ على غيرهم. . . امرأتان أو ثلاث نساء ذات عقول مرهفة يضفن إلى الحضور (ومن غير الممكن ألا تكون صديقاتك كذلك)، ومنزلك هو المنزل الأكثر امتاعاً في باريس. أجل، إنك أكثر النساء سعادة، وتسعدين كلّ أولئك الذين يقتربون منك.

فيما كان دارسي يتكلم، كانت جوليا تفكرُ بأن تلك السعادةَ التي يصفها بكثير من الحيوية كان يمكن لها أن تحصل عليها، لو أنها كانت متزوجة من رجلٍ آخر. . . من دارسي مثلاً. وبدلاً من قاعةِ الاستقبالِ الخيالية تلك، والأنيقةِ جداً، والممتعة جداً، فقد كانت تفكر بالمضجرينَ الذين كانَ شافيرني يجتذبهم إليها. . . وبدلاً من تلك الأحاديث المفرحة جداً، كانت تتذكر المشاحناتِ الزوجيةَ. من مثل تلك المشاحنة التي أتت بها إلى بِ. . . كانت ترى نفسها منكودةَ الحظ إلى الأبد،

ومرتبطةً طيلةَ حياتها بمصير إنسانٍ كانت تكرهه وتحتقره، فيما كان يتعيَّنُ على ذلك الذي تجده الإنسان الأكثر لطفًا في العالم، والذي كانت تودّ أن توكلَ إليه الاهتمام بتأمين سعادته، يتعين عليه أن يبقى على الدّوام غريبًا عنها. وكان من واجبه أن يتجنّبها، وأن يفترق عنها . . . وقد كان قريبًا منها بحيث أن أكمام فستانها قد دعكها ظاهرُ ردائه!

استمرّ دارسي لبعضِ الوقت يصور مسرات حياة باريس بكلّ البلاغة التي كان الحرمانُ الطويل يُعطيه إياها. ومع ذلك، فقد كانت جوليا تحسُّ بدموعها وهي تنزل على طول خدّيها. وكانت ترتعدُ من أن يلاحظ دارسي ذلك. وكان الضبطُ الذي تفرضه على نفسها يزيدُ أيضًا من قوة انفعالها. لقد كانت تختنق، ولا تجرؤ على القيام بأيةِ حركةٍ، وأخيرًا، فقد أفلتت منها شهقةُ بكاء، فضاع كلُّ شيء، وسقطت ورأسها بين يديها، وقد اختنقت جزئيًّا من الدموع والخجل.

أما دارسي الذي لم يكن ما حدثَ يمكن أن يخطر له ببال، فقد كان مندهشًا فعلاً، وجعلته المفاجأةُ صامتًا للحظةٍ من الزمن. ولكن ما إن تزايدت شهقاتُ بكاءِ جوليا، حتى ظنّ أنه مجبرٌ على الكلام، وعلى أن يسألها عن سببِ تلك الدموعِ المفاجئة على ذلك النحو.

«ماذا بكِ، يا سيدتي؟ من أجل اسم الربِ، يا سيدتي . . . أجيبيني، ماالذي يحدثُ لكِ؟».

وبما أن جوليا المسكينة كانت تضغطُ منديلها بقوةٍ أكبر على عينيها، عند تلك الأسئلة كلها، فقد أمسك دارسي بيديها، وأبعد المنديل برقة. وقال بصوتٍ تشوشت نبرته، وتغلغل إلى أعماق قلبِ جوليا:

«أتوسل إليك أن تقولي لي ماذا بك؟ هل يمكن أن أكون قد أهنتك عن غير قصد؟ . . . إنك تحزنينني بصمتك.

فهتفت جوليا التي لم تعد قادرة على ضبط نفسها:

«آه! إني تعيسة جداً» وانتحبت بصوتٍ أعلى.

«تعيسة! كيف؟ . . . ولماذا؟ . . . ومن الذي يمكنه أن يجعلك تعيسة؟ أجيبيني». كان يشدّ يديها، وهو يتكلّم على ذلك النحو، وكان رأسه يلامس تقريباً رأس جوليا التي كانت تبكي بدلاً من أن تجيب، ولم يكن دارسي يعرف بماذا يفكر. ولكنه كان متأثراً بدموعها. فألفى نفسه وقد أصبح أكثر شباباً بستة أعوام، وبدأ يستشفّ، من خلال مستقبلٍ لم يتضح بعد في خياله، أن بإمكانه فعلاً أن ينتقل من دورِ الصديق الحميم إلى دورٍ أعلى.

وبما أنها كانت مصرّة على عدم الإجابة، فقد خشي دارسي أن تكون على وشك الإغماء، فخفض إحدى نوافذ العربةِ الزجاجية، وفكّ شرائطَ قبعةِ جوليا، وأبعدَ معطفها ووشاحها. إن الرجالَ يرتبكون حين يقومون بأعمالٍ كهذه. وكان يريدُ أن يوقفَ العربةَ بقربِ إحدى القرى، وأخذ ينادي الحوذي، عندما أمسكت جوليا بذراعه، وتوسلت إليه ألا يوقفها، وطمأنته بأنها قد تحسنت كثيراً. ولم يكن الحوذي قد سمع شيئاً، واستمر في توجيه جياده باتجاه باريس.

وقال دارسي، وهو يمسكُ من جديد اليد التي كان قد تركها منذ هنيهة:

ولكني أرجوكِ يا سيدتي دو شافيرني العزيزة، وأتوسلُ إليك. قولي لي ماذا بك؟ أخشى . . . ولا يمكنني أن أفهم كيف كنتُ تعساً إلى الدّرجة التي سببت فيها لك الأسى.

فهتفت جوليا:

- آه! ليس أنت.

وضغطت قليلاً على يده.

- حسناً، قولي لي من الذي يجعلك تبكين على هذا النحو؟ تكلمي معي بثقة.

وأضاف وهو يبتسمُ ويضغط بدوره على يدِ جوليا:

- ألسنا صديقين قديمين؟

- أنت تحدثني عن السعادة التي تظنُّ أني محاطةٌ بها . . . وهٰذه السعادةُ بعيدةٌ جداً عني!

- كيف! أليس عندك كلّ عناصر السعادة؟ . . . إنك شابة، وغنية، وجميلة . . . ويشغل زوجك مرتبةً مميزة في المجتمع . . .

فهتفت جوليا وقد استشاطت غضباً:

«إني أمقته، إني أحتقره!»

وخبأت رأسها في منديلها، وهي تنتحبُ بقوةٍ أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

ففكر دارسي:

«أوه! أوه! إن الأمر يصبحُ شديدَ الخطورة».

وأفاد بمهارةٍ من كلّ هزات العربة كي يقتربَ أكثر من المنكودة جوليا.

وأخذ يقولُ لها بأعذبِ وأرقّ صوتٍ في العالم:

«لماذا تغتمّين هكذا؟ أينبغي لكائنٍ تحتقرينه أن يكون له هذا القدر من التأثير على حياتك؟ لماذا تسمحين له أن يسمّم وحده حياتك؟ ولكن هل يتعيّن عليك أن تطلبي هذه السعادةَ منه؟ . . .»

وقبّل رأسَ أصابعها، وبما أنها سحبت يدها في الحال بذعر. فقد خشي أن يكون قد تمادى إلى أبعد من اللازم . . . ولكنه كان عازماً على رؤيةِ نهاية المغامرة، فقال وهو يتنهد بصورةٍ واضحةٍ في نفاقها:

كم خُدعت! وعندما علمتُ بزواجك، ظننت أن السيد دو شافيرني يعجبك فعلاً.

- آه! ياسيد دارسي، أنت لم تعرفني قط!.

كانت نغمةُ صوتها تقولُ بوضوح: «لقد أحببتك دائمًا، وأنت لم تشأ أن تلاحظَ ذلك». فقد كانت المرأةُ المسكينةُ تظنُّ، في تلك اللحظة، انطلاقًا من نيتها الحسنة إلى أبعد الحدود، بأنها قد أحبّت دارسي دائمًا، خلال السّنوات الست التي انقضت بالقدر نفسه من الحبّ الذي كانت تشعرُ به نحوه الآن.

وهتف دارسي، وقد أخذته الحماسة: «وأنتِ، يا سيدتي، هل عرفتني يومًا؟ هل عرفتِ قط ما كانت عليه مشاعري؟ آه! لو عرفتني بصورةٍ أفضل، لكنا كلانا سعيدين من غير شك.

فردّدت جوليا وهي تزدادُ بكاءً، وتشدُّ على يده بقوة:

«كم أنا تعسة!».

فتابع دارسي بتعبير الكآبة الساحرة التي كانت معهودةً فيه:

- ولكن لو كان يمكنك أن تفهميني يا سيدتي آنذاك، فماذا كان يمكن أن ينتج عن ذلك؟ لقد كنتُ بلا ثروة، وكانت ثروتك هائلةً، وكان يمكن لوالدتك أن ترفضني باحتقار. لقد كنت مُداناً مسبقًا - وأنت بنفسك، أجل، أنتِ يا جوليا، وقبل أن تبيّن لك ذلك تجربةٌ مشؤومةٌ أين هي السعادة الحقيقة، كان يمكن لك أن تضحكي من غروري. وكان يمكن لعربةٍ مدهونةٍ جيداً، وإكليل الكونت على إطاراتها أن تكون أضمن الوسائل كي تروق لك.

- أيتها السماء! وأنت أيضًا! ألن يرأفَ بي أحدٌ إذن!

فصرخ دارسي بانفعالٍ شديد هو الآخر:

سامحيني، أتوسل إليك، وانسي ذلك اللّوم، كلا ليس لي الحق في لومك، إني مذنبٌ أكثر منك... فأنا لم أعرف كيف أقدّرك، وقد ظننت أنك ضعيفةٌ مثل نساء المجتمع الراقي الذي كنت تعيشين فيه. ولقد شككتُ بشجاعتك، يا عزيزتي جوليا، فعوقبتُ على ذلك عقابًا قاسيًا!...

كان يقبّل بحرارةٍ يديها اللتين لم تعد تسحبهما. وكان يهمّ بضمها إلى صدره... غير أن جوليا دفعته، وقد ظهر على وجهها تعبيرٌ حادٌّ عن الذعر، وابتعدت عنه بقدر ما كان يسمحُ لها بذلك عرض العربة.

حينذاك قال دارسي بصوتٍ جعلت رقته ذاتها تعبيره أكثر تأثيراً:

اعذريني يا سيدتي، فلقد نسيت باريس، وأتذكر الآن أن الناس يتزوجون فيها، ولكنهم لايحبّون.

فهمست وهي تنتحبُ، وتركت رأسها يسقط على كتف دارسي:

«أوه! أجل، إني أحبّك»

فضمّها دارسي بين ذراعيه باندفاع، وسعى لإيقاف دموعها بالقبلات، وحاولت مرةً أخرى أيضاً أن تتخلص من عناقه، ولكن هذا الجهدَ كان آخر شيءٍ حاولت أن تعمله.

الفصل الثاني عشر

لا بدّ فعلاً أن نقول إن دارسي قد أخطأ في تحديد طبيعة إحساسه، فهو لم يكن عاشقًا. بل أفاد من فرصة مؤاتية هبطت عليه، كما يبدو، وتستحق حقًّا ألا تُفلت منه. زد على ذلك أنه كان، شأن جميع الرجال، أكثر فصاحةً حين يطلبُ منه حين يَشكرُ. ومع ذلك، فقد كان مؤدبًا، والأدبُ يقوم غالبًا مقام أكثر المشاعر جدارةً بالاحترام، فما إن مرّت أولُ حركةِ نشوة، حتى أخذ يتلفظُ أمام جوليا بجملٍ رقيقة كان يؤلّفها دون عناءٍ زائد. ويرفقها بلثمِ يدها مراتٍ عديدة تعفيه من كلمات بقدرها. وكان يرى دون أن يأسف لذلك أن العربة قد أصبحت عند أبواب المدينة، وأنه سوف يفترق عن المرأة التي ظفر بها بعد دقائق قليلة. إن صمتَ السيدة دوشافيرني في قلب استنكارها، والإرهاقَ الذي كانت تبدو غارقةً فيه، كانا يجعلان موقفَ عشيقها الجديد صعبًا، بل ومزعجًا، إذا سمحتُ لنفسي أن أقول ذلك.

لقد كانت لا تبدي حراكًا، في إحدى زوايا عربتها، وتضمُّ بصورة آليةٍ وشاحها إلى صدرها. ولم تعد تبكي. وكانت عيناها ثابتتي النظرة. وعندما كان دارسي يمسكُ بيدها كي يقبّلها، كانت تلك اليدّ تعودُ إلى السقوط على ركبتيها وكأنها ميتة، ما إن يتركها دارسي. إنها لم تكن تتكلّمُ، ولا تكاد تسمع ما يقال، غير أن جملةً من الأفكار الممزقة كانت تحتشدُ في ذهنها، في الوقت نفسه. وإذا ما رغبت في أن تعبّر عن واحدةٍ منها، تأتي فكرةٌ أخرى في اللحظة ذاتها لتغلق فمها.

فكيف تعبّر عن اضطراب تلك الأفكار؟ أو على الأصح، تلك الصور التي كانت تتتالى بالسرعة نفسها التي تتعاقبُ فيها دقاتُ قلبها؟ كان يخيل إليها أنها

تسمعُ بأذنيها كلمات لارابط بينها ولا تتمة لها، ولكنها جميعًا تحملُ معنى مرعبًا. ففي الصباح، كانت تتهمُ زوجها، وكان في نظرها خسيسًا، أما الآن، فقد شعرت أنها جديرة بالاحتقار أكثر بمئة مرّة. كان يبدو لها أن عارها قد أصبح علنيًّا- فقد تنبذُها عشيقةُ الدوق دو هـ ### بدورها - ولن ترغبَ السيدة لامبير وأصدقاؤها كافة في رؤيتها بعد ذلك - ودارسي؟ - هل كان يحبها؟ - إنه لايكادُ يعرفها - وكان قد نسيها - ولم يتعرّفها مجدداً بسرعة - ولربما وجدَ أنها قد تغيرّت كثيراً - فقد كان بارداً حيالها: وتلك هي الضربةُ القاضية... أي انجذابها إلى رجلٍ كان لا يكادُ يعرفها. ولم يظهر لها حبّاً... وإنما لطفًا وحسب - فقد كان من المستحيل أن يحبّها - وهي بالذات، هل كانت تحبه؟ - كلا، بما أنها كانت قد تزوجت بعد أن رحل بقليل.

عندما دخلت العربة إلى باريس، كانت ساعاتُ الجدران تُعلن الساعة الواحدة. وكانت الساعةُ الرابعة عندما رأت دارسي للمرّة الأولى - أجل، «رأته» - ولم تستطع أن تقول إنه قد «رأته مجدّداً»... فقد نسيت ملامحه، وصوته، وكان غريبًا بالنسبة إليها... وبعد تسعِ ساعات، أصبحت عشيقته. إن تسعَ ساعاتٍ قد كانت كافيةً لذلك الإغراء الفريد!... قد كانت كافيةً كي يتلوّث شرفها في نظرها، وفي نظر دارسي نفسه، فأيُّ رأيٍ كان يمكنه أن يكوّنه عن امرأةٍ ضعيفةٍ إلى تلك الدرجة التي وصلت إليها جوليا؟ وكيف لا يحتقرها؟

كانت عذوبةُ صوتِ دارسي أحيانًا، والكلمات الرقيقة التي يوجهها إليها، تبعثُ فيها الحياة قليلاً، فتجهد حينذاك لتقنع نفسها بأنه كان يشعرُ نحوها بالحبّ الذي كان يتكلم عنه. إنها لم تكن قد استسلمت بسهولة - وكان حبُّهما قد استمرّ طويلاً - بعد أن تركها دارسي - وكان ينبغي لدارسي أن يعلم أنها لم تتزوج إلا على أثر السخط الذي جعلها رحيله تشعرُ به - فلقد أتت الإساءاتُ من جهة دارسي - ومع ذلك، فقد كان يحبها أثناء مدّة غيابه الطويلة - ولدى عودته، كان سعيداً بأن

يجدها ثابتةً على العهد مثله - إن صراحةَ اعترافها - وضعفها ذاته، كان لا بدّ لهما أن يروقا لدارسي الذي كان يمقتُ التظاهرَ - غير أن لا معقوليةَ هذه المحاكمات كانت سرعان ما تظهرُ لها - وكانت الأفكار المعزية تتلاشى، فتبقى جوليا فريسةً لشعورها بالعار واليأس أرادت، للحظة من الزمن، أن تعبر عما تحسُّ به، فتصورّت أن العالم قد نفاها، وأن أسرتها قد تخلت عنها، فبعد أن أهانت زوجها إهانةً خطيرةً، لم يعد كبرياؤها يسمحُ لها بأن تراه أبداً، وقالت في نفسها: لقد أحبّني دارسي، ولا يمكنني أن أُحبَّ سواه. ومن غيره، لا يمكنني أن أكون سعيدة - سأكون سعيدةً معه في أيّ مكان. فلنمضِ معًا إلى مكانٍ لا يمكن لي فيه أن أرى أيّ وجهٍ يجعلني أشعرُ بالخجل.

فليأخذني معه إلى القسطنطينية. . .

كان دارسي على بعدِ مئة فرسخ من أن يخمّن ما يدور في صدر جوليا. وكان قد لاحظ منذ قليل أنهما يدخلان إلى الشارع الذي تسكنه السيدة دوشافيرني، فأخذ يلبس مجدداً قفازيه المتثلجين من برودة الدم.

«وقال: بالمناسبة، يجب أن أُقدَّم رسمياًّ إلى السيد دوشافيرني. . . فأنا أقدّر أننا سنصبحُ سريعًا صديقين جيدين. فإذا ما قدّمتني السيدة لامبير، يصبحُ حضوري طبيعياًّ في منزلكم. ولكن، بانتظار أن يتحققَ ذلك، هل يمكنني أن أراك، طالما أن السيد دوشافيرني في الريف».

مات الكلامُ على شفتي جوليا، فقد كانت كلُّ كلمةٍ من كلماتِ دارسي طعنةَ خنجر. فكيف الكلامُ على الهروبِ، والخطف، مع هذا الرجل الشديد الهدوء والشديد البرود، والذي لم يكن يفكر إلا بترتيب أمور علاقته أثناء الصيف، بالطريقة الأكثر مناسبة؟ وكسرت جوليا بحنقٍ السلسلةَ الذهبيةَ التي كانت تضعها حول عنقها، ولوت حلقاتها بين أصابعها.

وتوقفت العربةُ عند باب المنزل الذي كانت تشغله. وكان دارسي متعجلاً جداً كي يسوي لها وشاحها على كتفيها، ويركّز لها قبعتها على نحوٍ مناسب.

وعندما انفتح الباب، قدّم لها يده بأكبر احترامٍ ممكن، غير أن جوليا اندفعت إلى الأرض دون أن ترضى الاستناد عليه.

فقال وهو ينحني انحناءة كبيرة: سوف استأذنك، يا سيدتي في أن آتي لأعرف أخبارك.

فقالت جوليا بصوتٍ مخنوق: - «وداعًا!»

فصعد دارسي إلى عربته، وأمر الحوذي بأن يوصله إلى منزله، وهو يصفر مثل رجلٍ شديد الرضى عن نهاره.

الفصل الثالث عشر

ما إن ألفى دارسي نفسه في شقّته، شقة العازب، حتى ارتدى مبذلَه التركي، وانتعل خفَّه بعد أن ملأ من تبغِ اللاذقيةِ غليونًا طويلاً، قصبتُه كانت من الكرز البرّي البوسنيّ، وفمه من الكهرمان الأبيض، وتهيأ كي يتذوّقه، وهو ينقلبُ داخل كرسيٍّ واسعة، مبطّنة بالسُّخيتان، ومحشوة كما ينبغي. أما أولئك الأشخاص الذين قد يُدهشون لرؤيته منهمكًا بعملٍ مبتذل، في اللحظة التي ربما كان من المفروض أن يحلم فيها أحلامَ يقظةٍ أكثر شاعرية، فأنا أجيبهم بأن غليونًا جيداً مفيدٌ، إن لم يكن ضرورياً للتفكُّر الحالم، وأن الوسيلةَ الحقيقية للتمتّع الجيّد بسعادةٍ معينةٍ هي أن نُرفقها بسعادةٍ أخرى.

لم يكن أحدُ أصدقائي، وهو رجلٌ يحبّ الملذات كثيراً، يفتح رسالة قط تلقّاها من عشيقته، قبل أن ينزع عقدة عنقه، ويُضرم النّار، إذا كان الفصلُ شتاء، وقبل أن ينام على كنبةٍ مريحة.

وقال دارسي في نفسه: «لو أنني اتّبعت نصيحة تيريل، واشتريتُ عبدةً يونانيةً كي آتي بها إلى باريس، لكنت أحمق كبيراً. تبّاً لهذا! لكان ذلك، كما كان يقول صديقي هالب أفندي، لكان ذلك كأنك تجلبُ معك تينًا إلى دمشق. شكراً لله! إن الحضارةَ قد تقدّمت بسرعة أثناء غيابي، ولايبدو أن التشدُّد قد دفع إلى الإفراط... هذا المسكينُ شافيرني!... أه! أه!، ومع ذلك، فلو كنتُ غنياً بما فيه الكفاية لبضع سنوات خلت، لتزوّجتُ جوليا، ولربما كان شافيرني هو الذي رافقها في ذلك المساء، ولو تزوّجت يومًا، لأجريتُ تفتيشًا على عربةِ زوجتي غالبًا، كي

لا تكون بحاجة إلى فرسان متجولين يسحبونها من الحفر . . . عجبًا، فلنعد إلى موضوعنا . إذا أخذنا باعتبارنا كلّ شيء، فهي امرأة على حظّ كبير من الجمال، وهي نبيهةٌ. ولو لم أكن قد وصلت إلى العمرِ الذي أنا فيه، لكنت أول من ظنّ أنه يرجع لجدارتي الاستثنائية . . . آه! جدارتي الاستثنائية! . . . وا أسفي! وا أسفي! فربما بعد شهر من الآن، ستكون جدارتي على مستوى جدارةِ ذلك السيد ذي الشاربين . . . تبًّا! كم كنت أتمنى أن تلك الصغيرة ناستازيا، التي أحببتها كثيراً تُحسن القراءةَ والكتابةَ وتتكلم مع الناس الشرفاء على أمورٍ معينة . فأنا أظنُّ أنها المرأةُ الوحيدةُ التي أحببت . . . يا للطفلة المسكينةِ! . . . وانطفأ غليونه فنام .

الفصل الرابع عشر

حين دخلت السّيدةُ دوشافيرني إلى شقّتها، جمعت كلَّ قواها لتقول بصورةٍ طبيعيةٍ لمدبرة منزلها إنها ليست بحاجةٍ إليها، وأن تتركها وحدها. وما إن خرجت تلك الفتاة، حتى ارتمت جوليا على سريرها، وأخذت تبكي بكاءً أشدَّ مرارة من بكائها الذي كان وجودُ دارسي أثناءه يجبرها على ضبطِ نفسها، لأنها أصبحت آنذاك بمفردها.

إن لليّلِ بالتأكيد تأثيرًا كبيرًا جدًّا على العذاباتِ الرّوحية مثلما له تأثيرٌ على الآلام الجسدية. إنه يضفي على كلِّ شيء صبغةً كئيبةً، والصورُ التي يمكن أن تكون، في النهار، غير مثيرةٍ للاهتمام، وحتى ضاحكةً، تُقلقُنا، وتعذبنا في الليل، مثل أشباحٍ ليس لها من قدرةٍ إلا في الظلمات. ويبدو أن الفكرَ يضاعفُ من نشاطه خلال الليل وأن العقلَ يفقدُ سلطته. إن نوعًا من الاستشباحِ الداخلي يجعلنا نضطربُ، ويرعبنا من غير أن تتوفرَ لنا القوةُ لإبعاد سبب مخاوفنا، أو معاينة حقيقتها.

فلنتصور المسكينة جوليا، متمددةً في سريرها، ومرتديةً جزءًا من ملابسها، ومتحركةً باضطرابٍ مستمر. تنهشُها حرارةٌ محرقةٌ حينًا، وتجمّدها ارتعاشةٌ مؤثرةٌ حينًا، فتختلجُ لدى أصغرِ طقطقةٍ صادرةٍ عن أخشاب البيت، وتسمعُ بوضوحٍ دقاتِ قلبها. فكلُّما كانت تحتفظُ به من وضعها هو قلقٌ مبهمٌ كانت تبحثُ عن سببه من غيرِ جدوى. وفجأة، أخذت تمرّ ذكرى تلك الأمسية المشؤومة في خاطرها، سريعة مثل التماعةِ برق، ومعها، كان يستيقظُ ألمٌ شديدٌ وحاد، مثل ذلك الذي يحدثُه الحديدُ المحمى في جرحٍ ملتئمٍ.

كانت تنظرُ حينًا إلى مصباحها، فتلاحظُ بانتباه غبي ذبذبات شعلته كلها إلى أن تمنعها الدموعُ التي كانت تتجمّعُ في عينيها من رؤية الضوء، ولم تكن تدري لماذا.

وكانت تقولُ في نفسها: لماذا هذه الدُّموعُ. أه! لقد تلوثَ شرفي!

وأحيانًا، كانت تعدُّ شرّابات ستائرِ سريرها، ولكنها لم تكن تستطيعُ أن تحفظَ عددها. وفكرت قائلةً: ما هذا الجنونُ إذن؟ جنون؟ أجل، فمنذ ساعةٍ من الزّمن، استسلمتُ مثل عاهرةٍ بائسة لرجلٍ لا أعرفه.

ثم أخذت تتابعُ بعينٍ مخبّلة عقربَ ساعة الجدار بالقلق الذي يشعرُ به إنسانٌ محكومٌ عندما يرى اقترابَ ساعة تنفيذ الحكم فيه. وفجأةً، أخذت ساعةُ الجدار تدقُّ، فقالت في نفسها وهي ترتعشُ منتفضةً: منذ ثلاث ساعات، كنتُ معه، وقد تلوّث شرفي!

أمضت الليل بطوله في ذلك الاضطراب المحموم، وعندما طلعَ النهار، فتحت النافذةَ فجلب لها الهواءُ المنعشُ واللاذعُ هواءُ الصباح بعضَ التخفيف. وأخذت تتنفسُ الهواء الباردَ بنوعٍ من اللّذة، وهي منحنيةٌ على حاجز نافذتها الذي كان يطلُّ على الحديقة. وتبددَ اضطرابُ أفكارها شيئًا فشيئًا. فأعقب العذاباتِ المبهمةَ، والهذيانَ الذي كان يهزها، يأسٌ كامنٌ يُعدُّ راحةً بالمقارنة مع ما سبقه.

كان لابدّ لها من اتخاذ قرارٍ ما. فاهتمت بأن تبحثَ عما عليها أن تفعله حينذاك. ولم تتوقف لحظةً واحدةً عند فكرة رؤية دارسي مجدداً. فكان ذلك يبدو لها مستحيلاً. فإذا لمحته ماتت خجلاً. كان يتعيّنُ عليها أن تغادر باريس التي سيدلُّ كلُّ الناس فيها عليها بالإصبع بعد يومين. وكانت والدتها في نيس، فتذهبُ للقائها، وتعترفُ لها بكلّ شيء، ثم، وبعد أنْ تبوح على صدرها بمكنونات نفسها، لا يعودُ عليها أن تفعلَ سوى شيءٍ واحد. وهو أن تبحثَ عن مكانٍ معزولٍ في إيطاليا، لايعرفهُ المسافرون، حيث تمضي لتعيش وحدها وتموتَ سريعًا.

بعد أن اتخذت هذا القرارَ. ألفت نفسها أكثر هدوءاً. وجلست أمام منضدةٍ صغيرةٍ قبالة النافذة. وبكت، ورأسها بين يديها. ولكن بُكاءَها تلك المرة كان من غير مرارة. وتغلب التعبُ والوهنُ عليها أخيراً، فنامت أو كفّت بالأحرى عن التفكير خلال ما يقرب من ساعة.

استيقظت وهي ترتعش ارتعاشة الحمى. وكان الطقسُ قد تبدل، والسماء رمادية وكان مطرٌ ناعمٌ ومتبردٌ ينذرُ بالبرد والرطوبة لمدّة ما تبقى من النهار، فقرعت جوليا جرس النداء لمدبرة منزلها.

وقالت لها: إن والدتي مريضة، ويجب أن أذهب في الحال إلى نيس، فجهزي صندوقًا، لأني أريدُ الانطلاقَ بعد ساعة.

صرخت مدبرةُ المنزل، وقد فاجأها التغيّر الذي لاحظته على قسماتِ وجه سيدتها، فأقلقها.

وقالت جوليا بلهجةٍ تنمُّ عن فراغ الصبر: يجب أن أذهب. يجب أن أذهب حتمًا. فجهزي لي صندوقًا.

في حضارتنا الحديثة، لا يكفي أن يكون هناك فعلٌ إراديٌّ بسيطٌ كي يذهب المرء من مكانٍ إلى آخر. بل يجب أن يعد رزمًا، وأن يحمل علبًا، وأن يهتم بمئةِ تحضيرٍ مزعج يكفي ليزيل الرغبةَ في السفر. غير أن فراغ صبر جوليا قد اختصر الكثير من هذه الإبطاءات الضرورية كلها. كانت تذهب وتأتي من غرفةٍ إلى غرفة، وتساعدُ بذاتها في إعداد الحقائب، وتراكم من غير ترتيبٍ القبعات والفساتين التي اعتادت أن تعاملها بمراعاة أكبر. ومع ذلك، فإن الحركاتِ التي كانت تتكفلُ بها كانت تُسهم في تأخيرِ خدمها أكثر مما تُسهم في تعجيل عملهم.

وسألت مدبرةُ المنزل بحياء:

«لقد أعلمت سيدتي سيدي بلا شك؟»

أمسكت جوليا بورقة، دون أن تجيبها، وكتبت: «والدتي مريضةٌ في نيس، وأنا ذاهبةٌ إلى عندها». وطوت الورقة مرتين، ولكنها لم تستطع أن تقرر وضع عنوانٍ عليها.

وفي وسط تحضيرات السفر هذه دخل أحدُ الخدم، وقال:

«إن السيد دوشاتوفور يسأل إن كان يمكن رؤيةُ السيدة، وهناك أيضًا، سيدٌ آخر قد أتى في الوقت نفسه، ولستُ أعرفه. ولكن، هذه هي بطاقته».

فقرأت: «ا. دارسي، أمين سر سفارة».

فتمكنت بصعوبة أن تكتم صرخة.

وهتفت: لست موجودةً بالنسبة لأي شخص. قل إني مريضة، ولا تقل إني سأسافر. ولم يكن بمقدورها أن تفسر كيف أن شاتوفور ودارسي قد أتيا لرؤيتها في الوقت نفسه. وفي غمرةِ اضطرابها. لم تشك بأن دارسي قد اختار شاتوفور كمؤتمنٍ على أسراره. ومع ذلك، فلا شيء أكثرُ بساطة من حضورهما المتزامن، فقد أتى بهما الدافعُ نفسه. وكانا قد التقيا عند الباب، وبعد أن تبادلا تحيةً شديدةَ البرود، أخذ كلٌّ منهما يطلقُ الشتائم ضدّ الآخر بصوت خفيض ومن أعماقِ قلبه. وعندما سمعا إجابةَ الخادم، نزلا الدرجَ معًا، وألقى كلٌّ منهما التحيةَ على الآخر من جديد وبصورةٍ أكثر برودًا. وابتعدا كلٌّ منهما عن الآخر في اتجاه معاكس.

كان شاتوفور قد لاحظ الاهتمام الخاص الذي كانت السيدة دو شافيرني تُبديه نحو دارسي، ومنذ تلك اللحظة، حمل له الحقدَ في نفسه. ومن جهته، فإن دارسي الذي كان يفاخر بأنه عارفٌ بالفراسة، لم يستطع أن يلاحظ علائم الإحراج والضيق التي تبدو على شاتوفور، دون أن يستنتج من ذلك أنّه يحبّ جوليا. وبما أنه كان ميالاً، كديبلوماسي، أن يفترض السوء مسبقًا، فقد استنتج بخفة كبيرة أن جوليا لم تكن متحجرة العاطفة تجاه شاتوفور.

كان يقول في نفسه وهو يخرج إن هذه المرأة المغناج الغريبة لم يكن لها أن ترغب في استقبالنا معًا، خوفًا من مشهد تعليلي مثل مشهد مسرحية مُبغض البشر[١]. . . ولكني كنتُ أحمق حقًا لأني لم أجد حجةً ما كي أبقى، وأترك ذلك الفتى المغرور يذهب.

من المؤكّد أنني لو انتظرتُ فقط حتى يديرَ ظهره، لسُمِح لي بالدخول، فأنا أمتازُ عليه بميزةٍ لا جدالَ عليها، وهي الجِدّة.

كان دارسي قد توقف، وهو يقلب تلك الأفكار، ثم استدار ودخل إلى قصر السيدة دوشافيرني، أما شاتوفور الذي كان أيضًا قد رجع عدةَ مراتٍ كي يلاحظه، فقد رجع على أعقابه، واتخذ موقفًا اعتراضيًا على مسافةٍ معينةٍ كي يراقبه.

قال دارسي للخادم الذي دُهش لرؤيته مجددًا إنه قد نسي أن يعطيه رسالة صغيرة لسيدته. وأنها تتعلقُ بمسألةٍ عاجلة، ومبهمة كلفته بها إحدى السيدات لدى السيدة دوشافيرني. وإذ تذكر أن جوليا كانت تفهمُ الإنكليزية فقد كتب على بطاقته بقلم الرصاص:

Begs Leave to ask when he can show to madame de chaverny his turkish album.[2]

وسلم البطاقةَ إلى الخادم، وقال إنه سينتظرُ الردّ.

فتأخر الردُّ طويلاً، وأخيراً رجع الخادم وهو شديدُ الاضطراب، وقال: إن السيدة قد أُغمي عليها منذ قليل، وهي مريضةٌ جداً بحيث لا يمكنها أن تردّ عليك.

كان كلُّ ذلك قد دام ربعَ ساعة. أما دارسي فقلما كان يصدقُ الإغماءَ. غير أنه كان من الواضح تمامًا أنها لا تريدُ رؤيته، فاتخذ موقفًا فلسفيًا من الأمر، وتذكّر

---

(١) - مسرحية لموليير. (م: ز.ع).

(٢) - يسأل إن كان باستطاعته أن يُري السّيدة دوشافيرني ألبومه التركي. (م: ز.ع).

أنه قد كان يتوجبُ عليه أن يقوم بزياراتٍ في الحي، وخرج دون أن يغتمّ لذلك الظرف المعاكس أكثر مما ينبغي، كان شاتوفور ينتظره بقلقٍ غاضب، وحين رآه يمر، لم يراوده شكٌّ بأن دارسي هو منافسه السعيد الحظ. ووعد نفسه بأن يتمسك بأول فرصةٍ ليثأر من الخائنة وشريكها. أما المقدّم بيرّان الذي صادفه في الوقت المناسب تمامًا، فقد تلقى مسارتّه، وخفف عنه ما استطاع، ولكن ليس بدون أن يؤنبه على شكوكه التي تفتقر إلى الجلاء.

الفصل الخامس عشر

كانت جوليا قد أُصيبت بالإغماء فعلاً حين استلمت بطاقة دارسي الثانية. وأعقب إغماءها بصقٌ للدم أوهنها كثيراً. كانت مدبرةُ منزلها قد أرسلت في طلب طبيبها، غير أن جوليا رفضت بعناد أن تراه. وحوالي الساعة الرابعة، وصلت جيادُ البريد، وكانت الصناديقُ مربوطةً فيها. وكان كلُّ شيء معداً للسفر، فصعدت جوليا إلى العربة، وهي تسعلُ سعالاً مخيفًا، وحاله تثيرُ الرأفة. وأثناء المساء والليل بطوله، لم تتكلم إلا مع خادم الغرفة الذي كان جالسًا على مقعد العربة، وذلك فقط كي تقول للحوذيين أن يسرعوا. كانت تسعلُ باستمرار، ويبدو كأنها تتألم كثيراً ألمًا صدريًا، بيد أنها لم تجعل أحداً يسمعُ شكواها، وصارت صباحًا على درجة كبيرةٍ من الضعف بحيث أُغمي عليها، عندما فُتح بابُ العربة، فأنزلوها في نزلٍ رديء حيث أضجعوها، فاستدعي طبيبُ القرية، ووجد أن حرارتها قد ارتفعت بشدة ومنعها من متابعة رحلتها، ومع ذلك، فقد كانت تريدُ الاستمرار في السفر. وفي المساء، أصابها الهذيانُ، وازدادت الأعراض خطورةً. لقد كانت تتكلمُ باستمرار، وبذلاقة لسان كبيرة إلى الدرجة التي كان من الصّعب جداً معها أن تفهم أقوالها. وغالبًا ما كان اسما دارسي وشاتوفور يترددان من خلال جملها غير المتماسكة. فكتبت مدبرةُ المنزل إلى السيد دوشافيرني كي تخبره بمرض زوجته. ولكن زوجته كانت على بعد ثلاثين فرسخًا عن باريس تقريبًا. وكان شافيرني يصطادُ في منزلِ الدوق دو هـ ###، وكان المرضُ يتقدمُ كثيراً بحيث أصبح من المشكوك فيه أن يتمكن شافيرني من الوصول في الوقت المناسب.

كان خادمُ الغرف مع ذلك يمتطي جواده باتجاه المدينة المجاورة، فأتى بطبيبٍ منها، فوجه هذا الطبيب اللومَ على الوصفات التي أعدّها زميلهُ، وأعلن أن استدعاءَه يأتي متأخراً فعلاً، وأن المرضَ خطيرٌ.

توقف الهذيان عند طلوعِ الفجر، فنامت جوليا نومًا عميقًا حينذاك، وعندما استيقظت بعد يومين أوثلاثة، بدا أنها تجدُ عناءً في أن تتذكر أيةَ حوادث متتابعة جعلتها تجدُ نفسها راقدةً في غرفة قذرة في نزل. ومع ذلك، عادت لها ذاكرتها سريعًا. وقالت إنها تجدُ نفسها في حالٍ أفضل، وحتى أنها تحدّثت عن معاودة السفر في اليوم التالي، ثم، وبعد أن بدا أنها قد تفكّرت طويلاً، واضعةً يدها على جبينها، طلبت حبرًا وورقًا، وأرادت أن تكتب فرأتها مدبّرةُ غرفتها تبدأ برسائل تمزقها دائمًا بعد كتابة الكلمات الأولى. وفي الوقت نفسه، كانت توصي بإحراقِ القصاصات الورقية، وقد لاحظت مدبّرة المنزل على بعض القطع هذه الكلمة: أيها السيد، وهذا ما بدا لها، كما قالت، غير معتاد، فقد كانت تظن أن السيدة كانت تكتب إلى والدتها، أو إلى زوجها. وعلى قصاصةٍ أخرى، قرأت مايلي: «من المفروض بك فعلاً أن تحتقرني!...».

لقد حاولت لما يقربُ من نصف ساعة أن تكتبَ من غيرِ طائل تلك الرسالةَ التي كان يبدو أنها تشغل بالها كثيرًا، وأخيرًا، لم يسمح لها إنهاكُ قواها أن تتابع الكتابةَ، فدفعت القمطر الذي كانوا قد وضعوه على سريرها، وقالت لمدبرة منزلها بنظرةٍ تائهة:

«اكتبي بنفسك إلى السيد دارسي»

فسألت مدبرة المنزل، وفي ظنها أن الهذيانَ سيرجع:

– ماذا يجب أن أكتب ياسيدتي؟

– اكتبي إليه أنه لايعرفني... وأني لا أعرفه...

وهوت مرهقةً على وسادتها:

وكانت تلك هي الكلمات الأخيرة المتصلة التي تلفظت بها، فسيطرَ عليها الهذيانُ مجددًا. ولم يتركها بعد ذلك. فماتت في اليوم التالي دون آلامٍ كبيرة ظاهرة.

الفصل السادس عشر

وصل شافيرني بعد ثلاثة أيام من دفن جوليا. وبدا ألمه حقيقياً، فبكى كلُّ أهالي القرية حين رأوه واقفاً في المقبرة، وهو يتأمّلُ الأرضَ التي قلبت حديثاً، والتي كانت تغطي تابوت زوجته. كان يريدُ في البداية أن يُخرجها من القبر وينقلها إلى باريس، ولكن العمدة اعترضَ على ذلك، وتكلّم معه كاتبُ العدلِ بصدد «إجراءات» لا تنتهي. فاكتفى بأن يوصي على حجرٍ من الجير، وأن يعطي الأوامر ببناء قبرٍ بسيطٍ، ولكنه مناسب.

كان شاتوفور متأثراً جداً بذلك الموت المفاجىء، فرفضَ بضعَ دعواتٍ إلى حفلاتٍ راقصة. ولمدّة من الوقت، لم يكن يُرى إلا بالملابس السوداء.

الفصل السابع عشر

كانت تُروى عدهُ قصص عن موت السيدة دوشافيرني في مجتمع النُّخبة. فحسبَ قصة بعضهم، كانت قد رأت حُلْمًا، أو إن شئنا، كان لديها إحساسٌ مسبق أبلغها بأن والدتها مريضةٌ. فتأثرت لذلك تأثراً شديداً بحيث انطلقت على طريق نيس في الحال، برغم إصابتها برشحٍ شديد التقطته أثناء عودتها من منزل السّيدة لامبير، وتحوّل هذا الرشحُ إلى نزلةٍ صدرية.

أمّا آخرون، أبعد نظراً، فقد كانوا يؤكدون بطريقةٍ ملغزةٍ أن السَّيدة دوشافيرني التي لم تستطع أن تتكلم على الحبِّ الذي كانت تشعر به نحو السيد دوشاتوفور، أرادت أن تبحث لدى والدتها عن القوّة لمقاومة ذلك الحب، وكان الزُّكامُ والنّزلةُ الصدرية نتيجة لإسراعها في السّفر. وكان الجميع متفقين حول هذه النقطة.

لم يكن دارسي يتكلم عنها قط. وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر من موتها، حقق زواجًا مجزيًا. وعندما أعلن زواجه للسيدة لامبير، قالت له وهي تهنّئه:

«إن زوجتك ساحرةٌ في الحقيقة. ولم يكن بإمكان أية امرأة، سوى عزيزتي المسكينة جوليا أن تناسبك بالقدرِ نفسه، ومن المؤسف أنكَ كنتَ فقيراً أكثر من اللازم عندما تزوَّجَتْ جوليا.

ابتسم دارسي بابتسامته السّاحرة المعهودة لديه، لكنّه لم يردّ بشيء. وربما كان هذا القلبان، اللذان لم يعرف أحدهما الآخر، قد خلُق كلٌّ منهما للآخر.

- ٩ -

أرواح المطهر

يقول شيشرون، في أحدِ المواضع، وهو، على ما أظنّ، بحثه: «في طبيعة الآلهة»، إن هناك عدةَ جوبيترات - جوبيتر في كريت - وآخر في أولمبيا - وآخر في مكان آخر - بحيث لا نجد مدينةً من مدن اليونان قليلةَ الشّهرة إلا وكان لها جوبيتر (ها) الخاصّ بها. ومن كل هؤلاء الجوبيترات، صُنع جوبيترٌ واحدٌ نُسبت إليه كافةُ مغامراتِ كلّ واحدٍ من نظرائه وهذا ما يفسِّر الكميةَ الهائلةَ من الحظوظ الحسنة التي تُعزى إلى هذا الإله.

لقد حدث هذا الاختلاطُ نفسه فيما يخصُّ دون جوان، وهو شخصيةٌ تقتربُ إلى حدٍّ كبيرٍ من شهرةِ جوبيتر. إن إشبيليا وحدها قد كان لها عدةُ دون جوان (ات)، وثمة مدن أخرى كثيرة تذكر دون جوان (ها). وكان لكلّ دون جوان قديمًا أسطورتهُ المستقلةُ. ومع الزمن، كلُّ هذه الأساطير امتزجت في أسطورة واحدة. ومع ذلك فإذا نظرنا في الأمر عن كثب، يصبحُ من السّهل أن نحدِّدَ لكلٍّ دون جوان حصّته. أو أن نميِّز، على الأقل، بطلين من هؤلاء الأبطال. أي: دون جوان تينوريو الذي قضى عليه تمثالٌ حجريٌّ، كما يعلم أي إنسان. ودون جوان دومارانيا الذي كانت نهايته مختلفةً تمامًا.

إن روايةَ حياةِ هذا الدون جوان أو ذاك تُحكى بالطريقةِ ذاتها، ولكن الخاتمةَ وحدها تميِّزهما، فهناك ما يناسبُ كلَّ الأذواق، كما في مسرحيات دوسي التي تنتهي نهايةً حسنةً أو سيئة، تبعًا لحساسية القراء.

أما عن صحّة هذه القصة، أو هاتين القصّتين، فهي محقّقةٌ، وتعدُّ إهانةً كبيرةً للروح الوطنيةَ الريفية للإشبيليين، إذا كان هناك ارتيابٌ بوجود هؤلاء الفتيان الفاسدين الذين جعلوا سلسلة نَسَب عائلاتهم الأكثر نبالة أمراً مشكوكًا فيه. فالإشبيليون يعرضون على الأجانب منزل دون جوان تينوريو. وما كان بوسع أي إنسان محبٍّ للفنون أن يمرَّ بإشبيليا من غير أن يزور كنيسة لاشاريتيه[١]. وفيها يرى قبرَ الفارس دومارانيا وعليه نُقِشت كتابةٌ أملاها تواضعه، أو إذا شئنا كبرياؤه:

A qui yace el peor hombre que fue en el Mundo.[2]

فهل هناك مجالٌ للشك بعد ذلك؟ والحقيقةَ أن كتابَ شيشرون، بعد أن يقودك إلى هاتين الآبدتين، سوف يروي لك أيضًا كيف أن دون جوان (ولانعلم أيّهما) قد قدَّم عروضًا غريبة إلى الجيرالدا، وهي تلك الصورة البرونزية التي تعلو البرج المغاربي، برج الكاتدرائية، وكيف قبلتها لاجيرالدا، وكيف أن دون جوان، وهو يتنزهُ مخموراً، على الضفة اليسرى من غواد الكيفير[٣]، طلب ناراً من رجلٍ كان يمرّ على الضفة اليمنى، ويدخن سيكاراً، وكيف أن ذراعَ المدخن (الذي لم يكن سوى الشيطان نفسه) قد استطالت أكثر فأكثر بحيث اجتازت النهر، وأتت لتقدّم السيكار الذي تحملهُ إلى دون جوان الذي أشعل سيكاره بلا قلقٍ، ومن غير أن يفيدَ من التحذير، لشدة ما كان قاسيَ القلب...

لقد حاولت أن أعطي كلّ دون جوانٍ الحصةَ التي تُنسَبُ إليه في ذلك الأساس المشترك فيما بينهم، أساسِ الشرور والجرائم. ولعدم توفرِ طريقةٍ أفضل، فقد اجتهدتُ ألاّ أروي عن دون جوان دومارانيا، بطلي، سوى المغامرات التي لاتخصُّ بموجبِ حقٍّ التقادم دون جوان دوتينوريو المعروف جيداً بين ظهرانينا عن طريق رائعتي موليير وموزار.

(١) - أي: المحبة أو البرّ أو الإحسان. (م: ز.ع).
(٢) - هنا يرقد أسوأ إنسان في العالم.
(٣) - اسم نهر إسباني، وهو غالبًا: الوادي الكبير (ز.ع).

كان الكونت دو كارلوس دومارانيا أحدَ السادة الأكثر غنى، والأكثر مكانةً في إشبيليا. فقد وُلد في أسرةٍ شهيرة، وأثناء الحرب ضد الموريسكيين المتمردين، أثبت أنه لم ينحطّ فيفقد شجاعة أسلافه. ورجع إلى اشبيليا، بعد إخضاع منطقة البوجار[1]، يحمل ندبةً على جبينه، ويسوق عدداً كبيراً من الأطفال الذين أسرهم، من بين صفوف غير المؤمنين، فعمّدهم، وباعهم بصفقاتٍ مربحة إلى البيوت المسيحية. أما جراحه التي لم تكن تشوِّهُ وجهه، فلم تحل دونَ أن يروق لآنسةٍ من بيت كريم. وقد فضّلته على عددٍ من طالبي يدها: فولد من هذا الزواج في البداية بضعُ فتيات، بعضهن قد تزوج فيما بعد، والبعضُ الآخر اعتنق الرهبنةَ. وكان دون كارلوس دومارانيا قد أخذ يقنطُ لأنه لم يرزق بوريثٍ يحمل اسمه عندما أتت ولادةُ وريثٍ يحمل اسمه لتغمره بالفرح، وتجعله يأملُ في أن إقطاعية البكر القديمة لن تنتقلُ إلى وارثٍ من عمود الحواشي.

إن دون جوان، ذلك الابن الذي طال التشوُّقُ إليه، وبطل هذه القصة الحقيقية قد عرف الدلال على يد والده ووالدته. كما كان لابد أن يحدث للوارث الوحيد لاسمٍ كبير، ولثروة عظيمة. وحين كان صبياً، كان سيد أفعاله المطلق تقريباً. وفي قصر والده، لم يكن بمقدور أحد أن يمتلك الجرأة على معاكسته. إلا أن والدته كان تريد أن يكونَ متديّناً مثلها. وكان والدهُ يريد أن يكون ابنه مقداماً مثله. وقد كانت تلك الوالدةُ تجبر الصبي على حفظ صلوات الطلبة، وصلوات المسبحة. وأخيراً، كافة الصلوات الإلزامية وغير الإلزامية، متوسلة إلى ذلك بالمداعبات الكثيرة، وألوان الحلوى، وكانت تنومه وهي تقرأُ له سير القديسين.

ومن جهةٍ أخرى، فقد كان الوالدُ يعلّم ابنه القصائد الإسبانية، قصيدة لوسيد، وبرنار ديل كاربيو، ويروي له انتفاضةَ الموريسكيين، ويشجعه على أن

---

(١) - البوكسار أو البوجاراس: وديان عالية تقع في جنوبي سييرا نيفادا، حصلت فيها معارك بين الإسبان والمغاربيين (م: ز.ع)

يتمرَّن طيلةَ النهار على رمي الرمح، وإطلاقِ قذافةِ السهام، أو حتى القربينة[1] على نموذجٍ يرتدي لباساً مغربياً، وهو نموذج كان قد أمر بصنعه ووضعه في آخر حديقته.

وكان في مصلى الكونتيسة دومارانيا لوحةٌ مرسومةٌ بأسلوب موراليس القاسي، والجاف. وكانت تمثل عذابات المطهر. إن كلَّ ضروبِ العذابات التي أمكن للرسام أن يرتئيها كانت موجودةً في اللَوحة، وممثلة بدقةٍ كبيرة إلى درجة أن جلاد التعذيب في محاكم التفتيش ما كان يمكن له أن يجد فيها شيئاً يعدلّه. كانت الأرواحُ في المطهر موجودةً في نوعٍ من مغارةٍ كبيرة، يُرى في أعلاها منفذٌ. وكان هناك ملاكٌ جالسٌ على حافة تلك الفتحة، ويمد يده لروحٍ كانت خارجةً من مقرّ الآلام، فيما كان هناك رجلٌ مسنٌّ إلى جانبه، يمسك بسبحةٍ في يديه المضمومتين، ويبدو كأنه يصلي بكثيرٍ من الحمية. وكان هذا الرجلُ هو واهبُ اللوحة، والذي كان قد أوصى عليها لصالح كنيسة هويسكا، فالموريسكيون، أثناء انتفاضتهم، كانوا قد أحرقوا المدينة، ودمَّرت الكنيسة، ولكن اللوحة ظلت محفوظةً بمعجزة، فجلبها الكونت دومارانيا، وزيّن بها مُصلّى زوجته. أما الصغيرُ دون جوان، فقد كان عادةً يظلُّ واقفاً بلا حراك لمدّةٍ طويلة، في كلّ مرةٍ يدخلُ فيها إلى غرفة والدته، ويغرقُ في التأمل أمام تلك اللَوحة التي كانت ترعبه وتأسره في الوقت نفسه. ولم يكن خصوصاً، يقوى على إزاحة عينيه عن رجلٍ يبدو أن حيةً كانت تنهشُ أحشاءه، بينما كان معلقاً فوق مجمرٍ مُستَعِر، وذلك بواسطة صنارات من الحديد تمسك به من أضلاعه، وكان المعذَّبُ، وهو يديرُ عينيه بقلق نحو المنفذ، يبدو كأنه يطلبُ إلى مانحِ الصورة صلوات تنتزعه من تلك الآلام الكثيرة. أما الكونتيسة فلم يكن يفوتها قط أن توضح لابنها أن هذا التعس كان يخضعُ لذلك التعذيب لأنه لم يحفظ جيداً تعاليمه الدينية. ولأنه سخر من أحد الكهنة، أو لأنه كان شاردَ الذهن في الكنيسة. أما الروح التي كانت تطيرُ نحو الجنة، فقد كانت روحَ أحدِ أقارب عائلة مارانيا والذي كان عنده بلا شك بعضُ الزلات التي تؤخذ عليه. بيد أن الكونت دومارانيا قد صلى لأجله، وأعطى رجالَ الدين الكثير كي يفتديه من النار ومن

(١) - بندقية قديمة الطراز. (م: ز.ع).

العذاب. فحصل الكونت على الرضى، لأنه أرسل إلى الجنة بروح قريب له، من غير أن يترك له الوقتَ كي يضجر كثيراً في المطهر. وكانت الكونتيسة تضيف قائلة:

«ومع ذلك، يا جوانيتو، فقد أتألمُ يومًا ما ألمًا كبيراً، ولسوف أبقى ملايين السنين في المطهر. إذا لم تفكر في إقامة قداديس لإخراجي منه! وكم سيكون سيئًا أن يترك المرء والدته التي أطعمته في العذاب!».

حينذاك، كان الطفلُ يبكي، وإذا كانت لديه بعضُ الريالات في جيبه، كان يسرعُ إلى إعطائها إلى أول جامعٍ للصدقات يصادفه، ويحملُ حصّالةً من أجل أرواح المطهر.

وحين كان يدخلُ إلى غرفةِ والده، كان يرى دروعًا قد شوّهتها رصاصاتٌ أُطلقت من قربينة قاذفة، أو خوذةً كان يعتمرها الكونتُ دومارانيا عند اقتحام الميريا، وهي تحتفظُ بعلامة شفرةٍ بلطة...»، وكانت هناك حرابٌ وسيوفٌ مغاربية، وبيارقُ استولي عليها، تزيّن تلك الشقة.

كان الكونتُ يقول: «لقد استوليتُ على هذا السيف المعقوف من القاضي فيجير الذي ضربني ثلاثَ مرات قبل أن أنتزعَ حياته - وهذا البيرق كان يحملهُ متمردو جبل إلفيرا، فكانوا قد دمروا إحدى القرى المسيحية، فهرعت إليها مع عشرين خيالاً. وحاولت أربعَ مراتٍ أن أتوغل إلى داخل كتيبتهم كي اختطفَ الرّاية. وقد ردّوني أربعَ مرات. وفي المرةِ الخامسة، رسمت إشارة الصليب، وصرخت: «أيها القديس جاك!» واخترقتُ الصفوف - وهل ترى هذه الكأس الذهبيةَ التي أحملها بين أسلحتي؟ وكان عالمٌ موريسكي قد سرقها من إحدى الكنائس التي كانت قد ارتكبت فيها فظائع لا تحصى. وكانت جياده تأكلُ الشعير على الهيكل، وجنوده قد بعثروا عظام القديسين. أما العالمُ فكان يستخدمُ تلك الكأسَ ليتناول شراباً بالثلج. وباغتُّه وهو في خيمته، وهو يحملُ الإناءَ المقدس إلى شفتيه، وقبل أن يقول «شيئًا»، فيما كان الشرابُ لايزالُ في حلقه، ضربتُ رأسَ الكلب الحليقة بهذا السيف الجيد، فدخل النصلُ حتى الأسنان. وقد سمح لي الملك

أن أحمل كأساً ذهبية بين أسلحتي، تذكيراً بذلك الانتقام المقدّس. وإني أقول لك ذلك، يا جوانيتو، كي تروي ذلك لأبنائك وليعلموا لماذا ليست أسلحتك بالضبط هي أسلحةَ جدك، دون دييغو، والتي تراها مرسومةً تحت صورته».

كان الصبي الذي توزّع اهتمامه بين الحرب والتديُّن، يمضي أيامه في صنع صلبان صغيرة من شرائح خشبية. أو يتسلّح بسيف خشبي، ويسايفُ في بستان الفاكهة يقطينات روتا التي كان شكلها يشبه كثيراً، حسب اعتقاده، رؤوسَ الصحراويين التي تغطيها عماماتهم. وعندما بلغ دون جوان الثامنةَ عشرة من عمره، أخذ يترجمُ اللاتينيةَ ترجمةً على درجة كافية من الرّداءة. ويخدم القداسَ بصورةً حسنة، ويحسنُ استخدام السّيف الحاد، أو السيف بكلتي يديه، وعلى نحوٍ أفضل مما كان يفعله السيِّد[1]. أما والدهُ الذي كان يرى أن الرجلَ النّبيلَ من أسرة دومارانيا ينبغي له أن يحصل على مواهبَ أخرى، فقد عزمَ على إرساله إلى سالامانكا، وأُعدّت العدّةُ للسفرِ سريعاً. وقد أعطته والدتُه عدداً كبيراً من السُّبحات، والكتفيّات الرهبانية، والميداليّات المقدسة، وعلّمته أيضاً بضعة تضرُّعات تنجدهُ كثيراً في طائفة كبيرة من مناسبات الحياة. وأعطاه دون كارلوس سيفاً مقبضُهُ المدمشق بالفضة، كان مزيناً بأسلحة عائلته وقال له:

«حتى الآن، لم تعش إلا مع صبيان، ولسوف تعيش الآن مع رجال، فتذكّر أن أثمنَ ثروةٍ لدى رجلٍ نبيل هي شرفُهُ، وشرفُك هو شرفُ آل مارانيا، فمن الأفضل أن يموتَ آخر سليلٍ لبيتنا من أن يتلوثَ شرفُه! خذْ هذا السيف، فهو سيدافعُ عنك عندما تُهاجمَ ولا تكن أولَ من يسحبه. ولكن تذكَّر أن أسلافك لم يعيدوا السيف قطّ إلى غمده، إلا حين يكونون منتصرين، محقِّقين لثأرهم.

وهكذا، فبعد أن تسلّح بأسلحةٍ روحيةٍ وزمنية، صعد سليلُ آل مارانيا على جواده، وغادرَ منزل آبائه.

---

(١) - السيِّد: قائد إسباني له مآثر شبه أسطورية في الحرب. (م: ز.ع).

آنذاك، كانت جامعةُ سالامانكا في أوجِ مجدها. ولم يكن طلابها قطّ أكثر عدداً مما كانوا عليه في ذلك الوقت، ولا مدرّسوها أكثر علماً. ولكن سكانَ المدن لم يكونوا يُعانون من قبل أكثر مما عانوا من سفاهات الشبيبة التي لايمكنُ ضبطُها والتي كانت تقطن في مدينتهم بل تهيمن عليها، فالموسيقى، والغناءُ الليلي، والضوضاءُ، وكلٌّ أنواعِ الضّجيج الليلي، ذلك كان هو سياق حياتهم المعتاد، والذي كان يجري تنويعه من وقتٍ لآخر، باختطاف لبعضِ النساء أو الفتيات، أو بأعمال سرقةٍ أو ضربٍ بالعصيّ. وحين وصل دونٍ جوان إلى سالامانكا، أمضى بضعةَ أيام في تسليم رسائل توصيةٍ إلى أصدقاء أبيه، وفي زيارة أساتذته، وفي الطّواف على الكنائس، وفي السّعي لرؤية الرّفات المقدّسة التي كانت تضمّها. وحسب رغبة والدته، فقد سلّم أحدَ الأساتذة مبلغاً من المال كبيراً إلى حد كاف كي يُوزَّعَ على الطلاب الفقراء، وكان لهذه الأريحية نجاحٌ كبيرٌ أدى إلى اكتسابه سريعاً لأصدقاء عديدين.

كانت لدى دون جوان رغبةٌ كبيرة في التعلم. وقد قرر في دخيلته فعلاً أن يصغي إلى كلّ ما يخرجُ من فم مدرِّسيه، وكأنه كلامُ الإنجيل. وكي لايُضيعَ منه شيئًا، فقد أراد أن يجلس بقدر الإمكان قريبًا من المنبر. وقد رأى أن هناك مكانًا شاغراً قريبًا من الأستاذ بالقدر الذي تمناه، فجلس فيه. وقد أزاح طالبٌ قذرٌ، لم يسرح شعره جيداً، ويرتدي الأسمالَ، مثل أولئك الطلاب الكثيرين الموجودين في الجامعات، أزاح عينيه للحظةٍ من الزمن عن كتابه كي يركزهما على دون جوان بنوعٍ من الدهشة الغبية. وقال له بلهجةٍ تنمّ عن الذعر إلى حدّ ما: أنت تجلس في هذا المكان، فهل تجهل أن دون غارسيا نافارّو إنما يجلس فيه عادةً؟

فأجاب دون جوان بأنه كان يسمع دائمًا أن الأماكن تخصّ من يشغلها أولاً، وأنه كان يظن أن بإمكانه أخذ ذلك المكان، حين وجده شاغراً. خصوصاً إذا كان السيد دون غارسيا لم يكن قد كلّف جاره بأن يحجزه له. فقال الطالب:

«أنت غريبٌ عن هذا المكان، كما أرى، وقد وصلت إليه منذ قليل، طالما أنك لا تعرف دون غارسيا. فلتعلم إذن أنه أحدُ الرجال الأكثر...».

وهنا خفضَ الطالبُ صوته، وبدا كأنه يحسّ بالخوف من أن يسمعه الطلاب الآخرون.

«إن دون غارسيا رجلٌ مخيفٌ، والويل لمن يهينه! فصبره قصيرٌ، وسيفه طويل، وتأكد أنه إذا ما جلس أحدهم على مقعد كان دون غارسيا قد جلس عليه قبلاً مرتين، فسيكون ذلك كافيًا كي تحدثَ مشاجرةٌ على إثره. فهو سريعُ الغضب، وشديدُ التأثّر. وعندما يتشاجرُ فهو يضرب، وعندما يضرب، يقتل. وهكذا، فقد أنذرتك. فافعل ما بدا لك حسنًا.

كان دون جوان يعدُّ أن رغبة دون غارسيا في الاحتفاظ لنفسه بأفضل المقاعد، من غير أن يتجشم عناءَ استحقاقها، باستقامة أفعاله، هو أمرٌ جدُّ مستغرب. وفي الوقت نفسه، كان يرى أن عدداً من الطلاب كان يحدّقُ به. وكان يحسّ إلى أيّ حدّ سيكون أمرًا مذلاً أن يتخلّى عن ذلك المقعد، بعد أن جلس عليه. ومن جهةٍ أخرى، فهو لم يكن يخطر بباله إطلاقًا أنه سيدخل في مشاجرة عند وصوله، لقد كان دون جوان غارقًا في تلك الحيرة بحيث لا يدري أين يستقر رأيه، فبقي بصورةٍ آلية في المقعد نفسه، عندما دخل أحدُ الطلاب وتقدم نحوه مباشرة.

فقال له جاره: «هذا هو دون غارسيا».

كان دون غارسيا هذا شابًا، عريضَ المنكبين، ممشوقَ القامة جيداً، أسمرَ البشرة، ذا نظرةٍ تنمُّ عن الزهو، وفم يعبّر عن الازدراء. كان يرتدي صديريًا رثًا. ومن الممكن أنه قد كان أسود اللون، ومعطفًا مثقبًا. وفوق كل ذلك، كان يعلّق سلسلةً طويلةً ذهبية. فمن المعروف، في كلٍ وقت، أن طلابَ سالامانكا، وجامعات إسبانيا الأخرى، كانوا يعدُّون أن نوعًا من علامات الشرف هو في أن يظهروا بثيابٍ رثة، وهم يريدون من ذلك ربما أن يدلّوا على أن القيمةَ الحقيقيةَ للإنسان يمكنها أن تستغني عن الزخارف المستمدة من الثروة.

اقترب دون غارسيا من المقعد الذي كان دون جوان لايزال جالسًا عليه، وحيّاه بكثير من اللطف، وقال له:

«أيها السيّد الطالب، ولقد أتيت إلينا حديثًا، ومع ذلك، فإن اسمك معروفٌ لديّ جيداً فقد كان والدانا صديقين حميمين. وإذا أردتَ أن تسمح بذلك، فإن ابنيهما لن يكونا صديقين بدرجةٍ أقل».

حين كان دون غارسيا يتحدث على هذا النحو، كان يمدّ يده إلى دون جوان بالصورة الأكثر ودية. أما دون جوان، الذي كان يتوقعُ بدايةً مختلفة تمامًا، فقد استقبل بتلطف كبير مجاملاتِ دون غارسيا، وأجابه بأنه يتشرف كثيراً بصداقةِ فارسٍ مثله.

تابع دون غارسيا قائلاً: أنت لاتعرف سالامانكا حتى الآن: فإذا شئت أن تقبل بي كدليلٍ لك، فإني سأكون مسروراً بأن أريك كلّ شيء، بدءاً من شجر الأرز حتى شجر الزوفا، في البلد التي ستعيش فيها. ثم توجه إلى الطالب الذي يجلس بجانب دون جوان، وقال له: «هيا، يا بيريكو، انسحب من هنا، هل تظنُّ أن أحمق مثلك يمكنه أن يرافق السيد دون جوان دومارانيا؟».

ودفعه بقسوة، وهو يتكلّم على هذا النحو، وجلس مكانه الذي أسرع الطالبُ إلى إخلائه وحين انتهى الدرس، أعطى دون غارسيا عنوانه إلى صديقه الجديد، وأخذ منه وعداً بأن يأتي لزيارته. ثم خرج، بعد أن حيّاه بيده بصورةٍ ظريفةٍ، ومن غير تكلُّفٍ، وهو يتدثّر برشاقةٍ بمعطفه المثقب مثل مرغاة[1].

كان دون جوان الذي حمل كتبه تحت ذراعه، قد توقّف في أحدِ أروقة المعهد كي يعاين الكتاباتِ القديمة المنقوشة التي كانت تغطي الجدران، حين لاحظ أن الطالب الذي كلمه في البداية، كان يقتربُ منه، وكأنه يريدُ أن يعاين الأشياء نفسها. أما دون جوان فقد كان يستعد للخروج، بعد أن أومأ له بانحناءةٍ من رأسه ليظهر له أنه يتعرفه، ولكن الطالبَ أوقفه من معطفه. وقال له: يا سيدي دون جوان، إذا لم يكن هناك ما يستعجلُك هل تتفضلُ بأن تمنحني لحظةً للحديث معك؟

(١) - المرغاة: ملعقة كبيرة مثقبة تُزال الرغوة أو القشدةُ بواسطتها. (م: ز.ع).

فأجاب دون جوان، وهو يتكئ على أحد الأعمدة: بكلّ طيبة خاطر. إني أصغي إليك.

فنظر بيريكو إلى كافة الجهات بقلق، وكأنه يخشى أن يلاحظه أحدٌ، واقترب من دون جوان كي يكلّمه في أذنه. وهذا ما بدا احتياطًا لا فائدةَ منه، فلم يكن هناك أحدٌ غيرهما في الرّواق القوطيّ الواسع الذي كانا موجودين فيه. وبعد لحظة من الصمت، سأل الطالبُ بصوتٍ خفيض، ومرتجفٍ تقريبًا:

«هل يمكنك أن تقول لي، يا سيدي دون جوان إن كان والدك قد عرفَ فعلاً والد دون غارسيا نافارو؟»

فصدرت عن دون جوان حركةٌ تنمّ عن الدهشة:

«لقد سمعتَ دون غارسيا يقول ذلك منذ لحظة»

فأجاب الطالبُ وهو يخفض صوته أكثر أيضًا:

«أجل، ولكن هل سمعت والدك يومًا يقول إنه يعرفُ السيد نافارّو؟»

- أجل، بلا شك، فقد كان وإياه في الحرب ضد الموريسكيين.

- حسنًا، ولكن هل سمعت أحدًا يقول إن هذا النبيل كان له... ابن؟

- في الحقيقة، لم أعر يومًا انتباهًا كبيراً لما كان يمكن لوالدي أن يقوله في هذه المسألة... ولكن ما فائدة هذه الأسئلة؟ أليس دون غارسيا هو ابن السيد نافارّو؟... وهل هو ابن غير شرعي؟

فصاح الطالب مذعوراً وهو ينظرُ خلف العمود الذي كان يستندُ إليه دون جوان.

- أشهد السماء بأني كنت أريد فقط أن أسألك إن كنت لست على درايةٍ بقصةٍ غريبةٍ يرويها بعض الناس عن دون غارسيا هذا؟

- لا أعرف عنها أي شيء.

- يقال . . . ولاحظ جيداً أن كلّ ما أفعله هو أن أردّد ما سمعته من أقوال . . . يقال إنه كان لدون دييغو دونافارو ابنٌ قد أُصيب وهو في السادسة أو السابعة من عمره بمرضٍ خطيرٍ وغريب بحيث أن الأطباء لم يعرفوا أيَّ دواءٍ يصفونه له . . . ونتيجةً لذلك، فإن الوالد الذي لم يكن عنده ولدٌ آخر، قد أرسل تبرعات عديدة لكنائس عدة، وجعل المريضَ يلمسُ ذخائر الصالحين. فكان كلُّ ذلك بلا طائل. وحين قَنِطَ الآبُ، قال ذات يوم، كما أكّدوا لي، وهو ينظرُ إلى صورة القديس ميخائيل: «بما أنك لا تستطيعُ أن تُنقِذَ ابني، فإني أريدُ أن أعرف إن كان لذلك الذي تحت قدميك سلطةٌ أكبر لإنقاذه.

فصرخ دون جوان مستنكراً هذا الكلام إلى أبعدِ حدّ:

- لقد كان ذلك تجديفاً منكراً!

- وبعد قليل شفي الصبي . . . وهذا الطفل . . . هو دون غارسيا!

فقال دون غارسيا الذي ظهر في اللحظة نفسها والذي يبدو أنه قد سمع ذلك الحديث، وهو مختبئ خلف عمود مجاور، قال مقهقهاً:

- بحيث أن دون غارسيا قد أصبح مسكوناً بالشيطان منذ ذلك الحين.

ثم قال بلهجةٍ باردة، وتنمُّ عن الازدراء للطالب الذي اعتراه الذهول:

- في الحقيقة، يا بيريكو، لو لم تكن جباناً، لجعلتك تندمُ على تجاسُرك على الحديث عني - وتابع كلامه متوجهاً إلى دومارانيا:

ياسيدي دون جوان، عندما تعرفني بصورة أفضل، لن تضيعَ وقتك في الإصغاء لهذا الثرثار. هيا بنا، كي أُثبتَ لك أنني لست شيطاناً شريراً، فلتشرفني بمرافقتي من هذه اللحظة إلى كنيسةِ سان - بيير. وعندما ننتهي من الاعتراف والتناول فيها، أطلبُ منك أن تسمحَ لي بأن أوصي بتقديمِ عشاءٍ رديء لك مع بعضِ الرفاق.

كان دون غارسيا، وهو يتحدثُ على هذا النحو، يمسكُ بذراع دون جوان الذي اعتراه الخجل لأنه بوغتَ وهو يُصغي إلى قصةِ بيريكو الغريبة، فأسرع

بقبول عرضِ صديقه الجديد كـي يُثْبتَ له استخفافه بأقوال الاغتياب التي سمعها منذ قليل.

حين دخل دون جوان ودون غارسيا إلى كنيسةِ سان - بيير، جثيا أمام مُصلًّى صغير كان عددٌ كبير من المؤمنين يتزاحمُ حوله. فتلا دون جوان صلواته بصوت خفيض. ومع أنه قد مكث وقتًا مناسبًا منهمكًا في صلاته الورعة تلك، فقد وجد، عندما رفع رأسه أن رفيقه ما يزال يبدو غارقًا في وجد متعبِّد. وكان يحركُ شفتيه تحريكًا خفيفًا، حتى ليخيّلُ إلى المرء أنه لم يصل بعد إلى منتصف تأملاته، فأحسَّ ببعض الخجل لأنه قد أنهى صلواته في وقتٍ أبكر مما ينبغي، فأخذ يتلو بصوت خفيض جداً صلوات الطلبة التي تذكّرها. ولم يتحرك دون غارسيا، بعد أن قال صلوات الطلبة سريعًا، وأرسل دون جوان بعض الدُّعاءات الصغيرة بغير اهتمام. وحين رأى أن رفيقه لايزال جامداً، ظن أن بإمكانه أن ينظر قليلاً حوله لتمضية الوقت، وانتظار نهاية ذلك التضرع الذي لانهايةَ له، فاجتذبت انتباهه قبل كل شيء ثلاثُ نساء جاثياتٌ على سجاجيد تركية. أما الأولى منهن، فلم يكن ممكنًا أن تكون إلا مربيةً نظراً لسنها، ونظاراتها، وضخامة أغطية رأسها التي تدعو إلى التوقير. أما الاثنتان الأخريان فقد كانتا شابتين وجميلتين، ولا تدعان عيونهما مخفضتين كثيراً على سُبحتيهما بحيث لا يمكننا أن نرى أنها عيونٌ كبيرة، وحادةُ النظر، ونجلاء حقًا. فأحسّ دون جوان بسرورٍ كبير حين نظر إلى إحداهما، وكان سروره كبيراً بحيث لم يكن يجدر به أن يشعر بذلك في مكان مقدس. فنسي صلاةَ رفيقه، وسحبه من كمه، وسأله همسًا عن تلك الآنسةً التي كانت تُمسك سبحةً من الكهرمان الأصفر. فأجابه غارسيا من غيرِ أن يظهر أنه قد صُدم من مقاطعة دون جوان له. إنها دونيا تيريزادي أوجيدا. وتلك هي دونيا فوستا، شقيقتها البكر وكلتاهما ابنتا مراقب حسابات في مجلس كاستيليا. وأنا مغرمٌ بالكبرى منهما. فحاول أن تصبح مغرمًا بالثانية منهما. وأضاف قائلاً: انظر، إنهما تنهضان وسوف تخرجان من الكنيسة، فلنسرع كي نراهما تصعدان إلى العربة، فلربما رفعت الريح تنانيرهما الباسكية، ولمحنا ساقًا جميلة أو ساقين.

كان دون جوان متأثراً إلى حدّ كبير بجمال دونيا تيريزا بحيث تبع دون غارسيا حتى باب الكنيسة، دون أن يعير بذاءة كلامه اهتماماً، فرأى الآنستين الراقيتين تصعدان إلى عربتهما، وتغادران ساحة الكنيسة، لتدخلا في أحد الشوارع الأكثر ارتياداً. وعندما مضتا، هتف دون غارسيا بمرح، وهو يدخل قبعته المائلة في رأسه:

هاتان فتاتان ساحرتان! أريد أن يأخذني الشيطان إذا لم تصبح كبراهما لي قبل مرور عشرة أيام! وأنتَ، هل تقدّمت أمورك مع الثانية؟

فأجاب دون جوان بلهجةٍ ساذجة:

- كيف! تقدّمت أموري؟ فهذه هي المرة الأولى التي أراها فيها!

وهتف دون غارسيا:

- يا له من مبرّر جيد فعلاً! هل تظنّ أني أعرف فوستا منذ زمنٍ أبعد بكثير؟ ومع ذلك، فقد سلّمتها اليوم بطاقةً أخذتها بكل حماسة.

- بطاقة؟ ولكني لم أرك تكتب!

- لدي دوماً بطاقات مكتوبة سلفاً، وبشرط ألا أضع فيها اسماً معيناً، فيمكن أن تُستخدم لكل النساء. فانتبه فقط من أن تستعمل نعوتاً فيها مخاطرة، وتتعلق بلون العيون أو الشعر. أما التنهدات والدموعُ والهمومُ، فسواء كانت النساءُ سمراوات أم شقراوات، بنات أم متزوجات، فلسوف ينظرن إليها من جانبها الحسن بالدرجة نفسها.

ألفى دون غارسيا ودون جوان نفسيهما على باب المنزل الذي ينتظرهما فيه العشاء، وهما يتحدثان على ذلك المنوال. وكان العشاء طعاماً يعده الطلابُ، شديدَ الوفرة، أكثر مما هو أنيقٌ ومتنوعٌ، ففيه: يخناتٌ عديدةٌ كثيرةُ التوابل، ولحومٌ مملحة، وكلُّ الأشياء التي تثير الظمأ. زد على ذلك، أنه كانت هناك وفرةٌ من الخمور، خمور المانش والأندلس. وكان بعضُ الطلاب، من أصدقاء دون غارسيا، ينتظرون وصوله. فجلس الجميع فوراً إلى المائدة، ولم يعد يُسمع، لبَعض

الوقت، أي صوتٍ غير صوت الأفكاك والأقداح التي تصدمُ زجاجات النبيذ. وما إن جعل النبيذُ المدعوين سريعًا في مزاجٍ حسن، حتى بدأ الحديثُ، وأصبح من أكثر الأحاديث صخبًا، ولم يعد الكلام يدورُ إلا على المبارزات، وحكايات الحب العابرة، وحيل التلاميذ. فكان أحدهم يروي كيف خدع مضيفته بأن رحل من منزلها عشيةَ اليوم الذي كان يتوجب عليه أن يدفع الإيجار. وأرسل آخر ليطلبَ إلى بائع نبيذٍ بعضَ جرارٍ من نبيذ الفالدلديناس لحساب أحد أكثر أساتذة اللاهوت رصانةً، ثم يستخدمُ براعته، فيحوِّلُ الجرار إليه، تاركًا الأستاذَ يدفعُ بيان الحساب، إذا ما رغب في ذلك. فكان هذا يقوم بالمراقبة، وذاك يدخلُ إلى منزل عشيقته، بواسطة سلّمٍ من الحبال، برغم احتياطات غيورٍ عليها. وفي البداية، كان دون جوان يصغي بنوعٍ من الذهول إلى قصة تلك التصرفات الفاسدة كلها: فأخذت الخمرةُ التي كان يشربُها، ومرحُ المدعوين يجردانه شيئًا فشيئًا من تحشمه، فقد أضحكته القصصُ التي كانت تُروى، ووصل به الأمرُ إلى أن يغبطَ البعضَ على الشهرةِ التي أكسبتهم إياها الحيلُ الماهرة أو أعمالُ النصبِ التي كانوا يقومون بها. وبدأ ينسى المبادىء الحكيمةَ التي أتى بها إلى الجامعة، فيتبنى قاعدةَ سلوك الطلبة، وهي قاعدةٌ بسيطةٌ ويسهلُ اتباعها، وتتمثلُ في أن يُبيحَ المرءُ لنفسه كلَّ شيء تجاه «الأوغاد[1]» أي كلّ ذلك القسم من الجنسِ البشري الذين لم يتسجلوا في قيود الجامعة، فالطالبُ، في وسط الـ«الأوغاد» يُعدُّ موجوداً في بلدٍ، وله الحقُّ في أن يتصرف تجاههم كما تصرف العبرانيون تجاه الكنعانيين. ولكن، بما أن السيد قاضي المدينة لايحترمُ إلا قليلاً أنظمةَ الجامعة المقدسة للأسف ولا يفتشُ إلا عن الفرصة للإساءة إلى المتدرّبين، فيتعيّنُ عليهم أن يكونوا متحدين كالإخوة، وأن يتعاونوا وخصوصًا أن يحافظوا على سرٍّ مصون.

دام ذلك الحديث التنويري المدّة التي اقتضاها شربُ الزجاجات، وحين غدت فارغةً، تشوّشت كافةُ المبارزات بصورةٍ غريبة. وأخذ كلٌّ واحد يُحس برغبةٍ

---

(١) - ترجمة لكلمة Pillos الإسبانية التي تعني: الأوغاد (أو النصّابين أو الخسيسين)(م: ز.ع).

شديدة في النوم. وبما أن الشمس كانت لاتزال في كامل حدّتها، فقد افترقوا كي يستريحوا في وقت القيلولة. ولكن دون جوان قبل سريراً في منزل دون غارسيا. وما إن تمدّد على فراشٍ جلدي، قبل وصوله إلى السرير، حتى جعله التعب وأبخرةُ النّبيذ يغرق في نومٍ عميق. وكانت أحلامُه لمدّة طويلة من الغرابة والتشوش بحيث لم يكن يحسّ بأي شعور آخر غير شعور عدم الارتياح المبهم، دون أن يميز صورةً، أو فكرةً معينة يمكن أن تكون السببَ في ذلك. وأخذ رويداً رويداً يرى بوضوحٍ أكثر في أحلامه، إذا أمكننا أن نعبّر على هذا النحو، وأخذ يحلم بصورة متتابعة، فقد كان يبدو له أنه في قارب يمخرُ نهراً كبيراً أكثر عرضاً وأشد تعكيراً من أي وقتٍ رأى فيه الوادي الكبير في الشتاء. ولم تكن في ذلك المركب أشرعة، ولا مجاذيف، ولادفة للقيادة. وكانت ضفة النهر خاليةً. وكان القاربُ يهتزُّ اهتزازاً شديداً بتأثير التيار، بحيث ظنّ نفسه، بسبب الانزعاج الذي كان يحسّ به، أنه عند مصبٍّ الوادي الكبير، في اللحظة التي يبدأ فيها متسكعو إشبيليا الذاهبون إلى قادش، يحسّون بأولى أعراض دوار البحر. وألفى نفسه في الحال في قسمٍ من النهر أكثر ضيقاً، بحيث كان بوسعه أن يرى بسهولة، وأن يسمعه الآخرون على الضفتين. حينذاك، ظهر، في الوقت نفسه، وجهان مضيئان اقتربا، كلٌّ من ناحيته، وكأنهما يأتيان لنجدته. فأدار رأسه إلى اليمين، ورأى شيخاً وقورَ الهيئة، وعبوساً، حافي القدمين، ولايرتدي إلا عباءةً خشنة. كان يبدو وكأنه يمدُّ يده إلى دون جوان. وعلى اليسار، حيث نظر بعد ذلك، رأى امرأةً، ذات قامة شامخة، ووجه من أكثر الوجوه نُبلاً وجاذبية وتمسك بيدها إكليلاً من الزهور التي كانت تقدّمها إليه. وفي الوقت نفسه، لاحظ أن قاربه يتوجهُ حسب رغبته، من غير مجاذيف، ولكن بفعل إرادته وحدها. وكان يهم بالرسو من ناحية المرأة، عندما جعلته صرخةٌ منطلقةٌ من الضفة اليمنى يُديرُ رأسه، ويقترب من تلك الناحية. وكان العجوزُ يبدو أكثر عبوساً من ذي قبل. وكلّ ما كان يُرى من جسمه كان مغطىً بالجراح. وكان داكناً ومصطبغاً بالدّم المتخثر. كان يمسك إكليلاً من الأشواك بإحدى يديه، وباليد الأخرى سوطاً مجهزاً برؤوس حديدية فتملّك الذعرُ دون جوان، عند رؤيته لذلك

المشهد، فرجع سريعًا إلى الضفة اليسرى، وكان التجلي الذي سحره كثيرًا لايزالُ موجودًا عليها، كان شعرُ المرأةِ يتطايرُ في الهواء، وكانت عيناها تومضان بنارٍ خارقةٍ للطبيعة، وبدلاً من الإكليل، كانت تحملُ بيدها سيفًا. توقف دون جوان للحظةٍ من الزمن قبل أن ينزل إلى الأرض. حينذاك، لاحظ، وهو ينظر بانتباه أكبر، أن نصل السيف كان أحمر قانيًا، وأن يدَ الحورية كانت حمراءَ أيضًا. فاستيقظ منتفضًا من الذعر. وحين فتح عينيه، لم يستطع أن يكبتَ صرخةً لمرأى سيفٍ مجردٍ كان يلتمعُ على بعد قدمين من السرير. بيد أنها لم تكن حوريةً جميلةً تلك التي تمسك بالسيف. وكان دون غارسيا يهمُّ بإيقاظ صديقه، فرأى بجانب سريره سيفًا مصنوعًا بطريقةٍ غريبة، فأخذ يتفحصه تفحصَ الخبيرَ. فعلى نصله كانت هناك كتابةٌ منقوشةٌ تقول: «حرسُ الولاء» أما القبضةُ، فكما قلنا آنفًا، كانت تحمل شاراتِ آل مارانيا واسمهم وشعارهم.

فقال دون غارسيا: لديك سيف جميل يارفيقي، ولابدّ لك الآن أن تستريح، فقد حلّ الليلُ، ولنتنزه قليلاً، وعندما يرجع شرفاءُ هذه المدينة إلى منازلهم، نذهبُ، إذا شئت، لنقدم لآلهتنا غناءً ليليًّا.

تجوّل دون جوان ودون غارسيا لبعض الوقت على ضفة نهر تورم، وهما يلاحظان عبور النساء اللواتي يأتين لاستنشاق الهواء الرطب، أو للنظر إلى العشاق بنواظيرهن. وشيئًا فشيئًا، غدا المتنزهون أكثرَ ندرةً، ثم اختفوا تمامًا، «فقال دون غارسيا: هذه هي اللحظة التي تصبحُ فيها المدينةُ ملكًا للطلاب أما الأوغادُ فلن يجرؤوا على إزعاجنا في تسلياتنا البريئة. أما العَسَسُ، فإذا ما تشاجرنا معه بالمصادفة، فلستُ بحاجة إلى أن أقول لك إنه نذلٌ لاينبغي مراعاته. غير أنه إذا كان الظرفاء كثيري العدد، وكان ينبغي إطلاق الساقين للريح، فلا تقلق أبدًا، فأنا أعرف كلَّ الحيل، ولاتهتم إلا بأن تتبعني، وكن على ثقة من أن كلّ شيء سيسيرُ على مايرام.

وما إن تكلم غارسيا على هذا النحو، حتى ألقى معطفه على كتفه الأيسر بحيث غطى القسمَ الأكبر من وجهه، ولكنه ترك ذراعه اليمنى حرّة، وصنع دون جوان مثله، وتوجَّه كلاهما إلى الشارع الذي كانت تسكنه دونيا فوستا وشقيقتها.

وعندما مرّ دون غارسيا من أمام رواق إحدى الكنائس، صفر، وظهر غلامه وهو يمسك قيثاراً بيده، فأخذه منه دون غارسيا، وصرفه.

قال دون جوان وهو يدخلُ إلى شارع فالادوليد: أرى أنك تريدُ استخدامي لحماية استعراضك المسائي، فتأكد أنني سأتصرفُ بحيث استحق رضاك، وإذا لم أحسن حراسةَ شارعٍ من المزعجين، فلسوف يُنكرني موطني إشبيليا.

فأجاب دون غارسيا: أنا لاأسعى إلى وضعك حارساً، فلديّ غرامياتي هنا. ولكن أنت أيضًا لك غرامياتك. فلكلٍّ منا طريدته. صه! هذا هو المنزلُ. أنت تقفُ عند هذه المشربية، وأنا عند تلك، ولنتيقظ.

بعد أن ضبَط دون غارسيا القيثارَ، أخذ يُغني بصوتٍ مليحٍ قصيدةً إسبانيةً يدورُ فيها الحديث عادة على الدُّموعِ، والآهاتِ، وكلّ ما يتبع ذلك. ولا أدري إن كان هو مؤلفها.

عند اللحنِ الراقص الثالث أو الرابع، ارتفعت مشربياتُ النوافذ قليلاً، وسُمع سعالٌ خفيفٌ. وكان ذلك يعني أن هناك من يُصغي، فالموسيقيون، كما يُقالُ، لايعزفون قطّ إلا حين يُطلب ذلك منهم، أو حين يُصغى إليهم، فوضع دون غارسيا القيثارةَ على أحدِ التخوم. وباشرَ الحديثَ بصوتٍ خفيضٍ مع إحدى النساء اللواتي كنّ يُصغين إليه.

وحين رفع دون جوان عينيه، رأى على النافذة التي تقع فوقه امرأة كان يبدو أنها تتأمله بانتباه. فلم يخامرهُ في أن تكون شقيقةَ دونيا فوستا التي منحه إياها ميلُهُ إليها واختيارُ صديقه كسيدة لأحلامه. ولكنه لايزالُ خجولاً، وبلا تجربة. ولم يكن يعلمُ من أين يبدأ، وفجأة، سقطَ منديلٌ من النافذة، وهتفَ صوتٌ صغيرٌ رقيق:

«آه! يا يسوع! لقد سقط منديلي!»

فالتقطه دون جوان حالاً، ووضعه على رأس سيفه، وحمله إلى مستوى ارتفاع النافذة فكانت تلك وسيلةً للدخول في الموضوع. وبدأ الصوتُ بتقديم الشكر، ثم سأل إن كان السيدُ الفارسُ الذي يتمتعُ بهذا القدر من اللطف قد أتى إلى كنيسةسان - بيير في وقت الصباح. فأجاب دون جوان إنه قد ذهب إليها، وفقد الطمأنينةَ فيها.

«وكيف؟»

- عندما رأيتك.

لقد تكسّر الجليد. وكان دون جوان يعرفُ عن ظهر قلب كلّ القصائد الموريسكية الشديدة الغنى بلغة الحبّ، فلم يكن معقولاً أن يفتقرَ إلى الفصاحة، ودام الحديثُ تقريبًا ساعةً من الزمن، وأخيراً، هتفت تيريزا بأنها تَسمعُ والدها، وأن عليه أن ينسحب. ولم يغادر المغازلان الشارع إلا بعد أن رأيا يدين صغيرتين بيضاوين تخرجان من المشربية، وترميان لكل منهما غصنًا من الياسمين، فمضى دون جوان لينام، ورأسه ممتلئةٌ بالصور اللذيذة. أما دون غارسيا، فقد دخل إلى مشرب، وأمضى فيه أكبر قسمٍ من الليل.

وفي اليوم التالي، بدأت مجدداً التنهدات والأغاني المسائية. وكذلك الأمر بالنسبة لليالي التالية. وبعد صدودٍ مناسبٍ، وافقت السيدتان على إعطاء وتلقي خصل الشعر وهي عمليةٌ قد تمت بواسطة خيط جرى إنزاله، فجلبَ العرابين المتبادلة. أما دون غارسيا الذي لم يكن رجلاً يكتفي بالسفاسف، فقد تحدّث عن سلمٍ من الحبال، أو عن مفاتيح زائفة، غير أن ذلك بدا مُفرطًا في جرأته، فرفض اقتراحه، أو أُجِّل على الأقل إلى وقتٍ غير محدَّد.

كان دون جوان ودون غارسيا يبثان لواعجهما، منذ شهرٍ تقريبًا، بلا فائدة، تحت نوافذ عشيقتيهما، وفي إحدى الليالي الحالكة السواد، كانا يقفان في

حراستهما المعتادة، وكان الحديثُ قد استمرّ منذ بعض الوقت، في جوٍّ من الارتياح الذي يغمرُ كافة المتحدثين، عندما ظهر في نهاية الشارع سبعةُ رجالٍ أو ثمانية يرتدون المعاطفَ، وكان نصفهم يحملُ أدواتٍ موسيقية «فهتفت تيريزا: أيتها السماء العادلة! ها هو دون كريستوفال الذي يأتي ليقدم إلينا غناءً مسائيًا، فابتعدوا، حبًا بالله، أو تحدث مصيبة ما.

وصرخ دون غارسيا - لن نُخلي لأحدٍ مكانًا جميلاً كهذا، ثم رفع صوته وقال للأول الذي كان يتقدم: إن المكان محجوزٌ، وقلما تهتمّ هذه السيدات بموسيقاك! فإذن، ابحث عن الحظ في مكانٍ آخر، من فضلك.

فصرخ دون كريستوفال: - هذا أحد أولئك الطلبة التافهين وهو ينوي أن يمنعنا من المرور! سوف أعلّمه ماذا يكلّفهُ توجهه إلى غرامياتي!

عند هذه الكلمات، وضع سيفه في يده، وفي الوقت نفسه، التمع سيفا اثنين من رفاقه خارج غمديهما. أما دون غارسيا، فقد أشرعَ حسامه المجرد بخفة تدعو إلى الإعجاب، ولفّ معطفه حول ذراعه، وصرخ:

«إليّ أيها الطلبة!»

ولكن لم يعد هناك طالبٌ واحدٌ في المنطقة المحيطة. أما الموسيقيون الذين تخوفوا من أن تتحطم آلاتهم في خضمِ المشاجرة، فقد هربوا، وهم يستغيثون برجالِ الأمن، فيما كانت النساء في نوافذهن، يطلبن العون من كلّ قديسي الجنة.

أما دون جوان الذي كان يقبعُ تحت أقربِ نافذة من دون كريستوفال، فقد توجب عليه أولاً أن يدافعَ عن نفسه ضدّه. وكان خصمه ماهراً، ويمسكُ فضلاً عن ذلك ترسًا حديديًا كان يستخدمه ليتّقي به الضربات، فيما لم يكن لدى دون جوان سوى سيفه ومطرقته. وعندما حاصره دون كريستوفال حصاراً شديداً، تذكّر، في الوقت المناسب تمامًا ضربةَ سيفٍ تعلّمها من السيد أوبرتي، معلّمه في استخدامِ الأسلحة. فترك جسمه يسقط على يده اليسرى، وأدخل سيفه باليد اليمنى تحت

ترس دون كريستوفال، وغرزه عميقًا، في المنطقةِ الخاليةِ من الأضلاع، وبقوةٍ كبيرة بحيث انكسر حديده، بعد أن توغل بطول شبر، فأطلقَ دون كريستوفال صرخة، وسقط غارقًا بدمه، وأثناء تلك العملية التي استمر إنجازها أقل من وقت روايتها، كان دون غارسيا يدافعُ عن نفسه بنجاح ضد خصميه اللذين، ما إن رأيا زعيمهما صريعًا، حتى أطلقا ساقيهما للريح.

وقال دون غارسيا: والآن، فلنهرب، وليس هذا وقت التسلية، فوداعًا أيتها الجميلات!

وسحب معه دون جوان الذي استولى عليه الرعبُ بسبب مأثرته. وتوقف دون غارسيا على بعد عشرين خطوةٍ من المنزل ليسأل رفيقه عما فعل بسيفه.

فقال دون جوان: سيفي؟ ولاحظ حينذاك فقط أنه لم يعد يمسكه... لاأعلم... ربما أكون قد تركته يسقط مني.

فصرخ دون غارسيا: اللعنة! واسمك المحفورُ على مقبضه!

وكان يُرى في تلك اللحظة رجالٌ يخرجون من المنازل المجاورة، وهم يحملون المشاعل، ويتزاحمون حول المحتضر. وفي الطرف الآخر من الشارع، كانت تتقدّمُ جماعةٌ مسلّحة من الرجال بسرعة. لقد كانت بصورةٍ واضحة دوريةً اجتذبتها إلى ذلك المكان صرخاتُ الموسيقيين، وضجيجُ المعركة.

أما دون غارسيا الذي خفض قبعته على عينيه، وغطى أسفلَ وجهه بمعطفه كي لايتعرفه أحد، فقد اندفع، برغم الخطر، إلى وسط كل هؤلاء الرجال المجتمعين، آملاً أن يعثر على ذلك السيف الذي سيكشف من غير شك عن هويةَ الفاعل، ورآه دون جوان، وهو يضرب على اليمين وعلى الشمال، ويطفئ الأضواء، ويقلبُ كلّ ما كان يقع في طريقه. وعاد ثانية إلى الظهور سريعًا، وهو يعدو بكلّ قواه ويمسك سيفًا بكلِّ يدٍ، فأخذت الدورية تلاحقه.

هتف دون جوان وهو يمسك السيف الذي كان غارسيا يمده إليه.

آه! يا دون غارسيا، كم أنا مدينٌ لك بالشكر!

فصرخ دون غارسيا: - لنهرب! لنهرب! اتبعني، وإذا ماحاصرك أحد هؤلاء الأنذال في موضع قريب، فاطعنه كما فعلت منذ قليل مع النذل الآخر.

وأخذ كلاهما يعدوان حينذاك بكلّ السرعة التي كان يمكن أن يعطيهما إياها عزمهما الطبيعي الذي جعله الخوف من السيد قاضي المدينة يزدادُ شدّة.

أما دون غارسيا الذي كان يعرفُ سالامانكا مثلما يعرف صلاته، فقد كان ماهراً جداً في الانعطاف سريعاً في زوايا الشوارع، وفي الاندفاع إلى الممرات الضيقة، فيما كان رفيقه، المبتدئ أكثر منه، يجدُ صعوبةً كبيرة في اللحاق به. وأخذ نفسهما ينقطع - حين صادفا في نهاية أحد الشوارع مجموعةً من الطلاب الذين كانوا يتجولون، وهم يغنون، ويعزفون على القيثار. وما إن لاحظ هؤلاء الطلبة أن اثنين من رفاقهما كانا يتعرضان للملاحقة، حتى أمسكوا بالحجارة والعصي، وبكل صنوف الأسلحة الممكنة. ولم يرَ رماة السهام، الذين بُهرت أنفاسهم، أنه من المناسب أن يشرعوا بالمناوشة، فانسحبوا بحذرٍ، ومضى المذنبان للاختباء في إحدى الكنائس المجاورة، والاستراحة فيها قليلاً.

أراد دون جوان، تحت بوابة الكنيسة، أن يعيدَ سيفه إلى غمده، إذ وجد أن الدخولَ إلى بيت الله وسلاحه بيده، أمرٌ غيرُ لائق، ويتنافى مع المسيحية، بيد أن الغمد قاومَ السيف، ولم يدخل النصلُ فيه إلا بصعوبة، فعرف، باختصار، أن السيف الذي كان يمسكه لم يكن سيفه، فكان دون غارسيا، من جراء تسرعه، قد أمسك أولَ سيفٍ وجده على الأرض، فكان ذلك هو سيفَ الميت، أو سيفَ أحد أتباعه. لقد كانت الحالة خطيرةً، فأخبر دون جوان بها صديقه الذي تعلم أن ينظر إليه كونه مرشداً جيداً له.

قطّب دون غارسيا حاجبه، وعضّ شفتيه، ولوى حواف قبعته، وتجوّل بضع خطوات فيما كان دون جوان فريسةً للقلق بقدر ما كان فريسةً للندم. وقد أذهله الاكتشافُ المزعج الذي قام به. وبعد تفكرٌ دام ربع ساعة لم يقل دون غارسيا خلالها

مرةً واحدة: «لماذا تركت سيفك يقع منك»، بسبب ذوقه السليم، بل أخذ دون جوان من ذراعه، وقال له: «تعال معي، فأنا أتكفل بمشكلتك».

وكان كاهنٌ يخرج في تلك اللحظة من غرفة خدمة الكنيسة، ويتهيأ للتوجه إلى الشارع، فأوقفه دون غارسيا، وقال له وهو ينحني انحناءً كبيراً:

«أليس لي الشرف أن أتحدث مع المُجاز العالم غوميز؟»

فأجاب الكاهنُ، وقد تأثر بصورةٍ جلية بالإطراء الذي جعل منه مجازاً: لم أصبح مُجازاً بعد، وأنا أدعى مانويل توردويا، وإني في خدمتك تماماً.

فقال دون غارسيا: ياأبت، أنت بالضبط الشخصُ الذي كنت أرغبُ في التحدث إليه، والأمر يتعلّقُ بحالةٍ ضميرية، فإذا لم تجعلْني الشهرةُ أخطئ، فأنت مؤلف تلك الدراسة الذائعة الصيت: « في الحالات الضميرية»[1]، والذي أحدث الكثير من الضجة في مدريد؟

أما الكاهنُ الذي انساق مع خطيئة الادّعاء، فقد أجاب متلعثماً أنه ليس مؤلفَ ذلك الكتاب (وهو كتابٌ غيرُ موجودٍ في حقيقة الأمر)، ولكنه كان شديدَ الاهتمام بمواد مماثلة. أما دون غارسيا، الذي كانت لديه مبرراته كي لايصغي إليه، فقد تابع حديثه على النحو التالي:

هذه يا أبتِ، بثلاث كلمات، المشكلةُ التي رغبتُ أن أستشيرك بشأنها. إن أحد أصدقائي، في هذا اليوم بالذات، ومنذ أقلّ من ساعة، دنا منه في الشارع رجلٌ قال له: «أيها الخيالُ، سوف أخوضُ معركةً على بعد خطوتين من هذا المكان، ولدى خصمي سيفٌ أطولُ من سيفي، فتكرّم بإعارتي سيفك كي تصبحَ الأسلحةُ «متكافئةً»، وأبدلَ صديقي سيفه معه. وها هو ينتظر لبعض الوقت كي تنتهي المسألة، وإذ لم يعد يسمعُ قعقعةَ السيوف، يقترب، فماذا يرى؟ رجلاً ميتاً، وقد اخترقه السيفُ نفسه الذي أعاره الرجلَ قبل قليل. ومنذ تلك اللحظة، وهو يائسٌ، ويلومُ نفسه على ليونةِ جانبه، ويخشى أن يكون قد ارتكب خطيئةً مميتةً. أما أنا،

(١) - باللاتينية. في النصّ: "De Casibus Conscientiae" (م: ز.ع).

فأحاولُ طمأنته، وأظن أن خطيئته غير مميتة، لأنه لو لم يُعْر سيفه، لكان قد تسبب في أن يتقاتلَ رجلان بأسلحةٍ غير متعادلة. فما رأيك يا أبتِ؟ ألستَ في هذا الأمر مثلي؟

أما الكاهن، الذي كان متمرنًا في القضايا الضميرية، فقد أصاخ سمعه، لدى إصغائه لتلك القصة، وفرك جبينه لبعض الوقت، وكأنه رجلٌ يبحث عن استشهادٍ ما، ولم يكن دون جوان يعرفُ إلى أين يريدُ دون غارسيا أن يصل. ولكنه لم يضفْ شيئًا خوفًا من أن يقوم بعملٍ أخرق.

وتابع دون غارسيا قائلاً: إن المسألة شائكةٌ جداً، يا أبتِ، طالما أن عالمًا كبيراً في منزلتك يترددُ في حلها. فإذا سمحتَ لنا، فإننا سنعود لنعرف وجهة نظرك غداً، وفي هذه الأثناء، تفضلوا بإقامة بعضِ الصلوات من أجل روح الرجل الميت، أو أوكلوا أحداً بها.

وضع، وهو يقول هذه الكلمات، ثلاثة أو أربعة دوقات[1] في يدِ الكاهن، وهذا ما أنهى موقفه بصورةٍ إيجابية لصالح الشابين التقيين، وصاحبي الذمة الصافية، والبالغي الأريحية بخاصة. فأكد لهما أنه سيعطيهما رأيه كتابيًّا، في اليوم التالي. وغمره دون غارسيا بآيات الشكر، ثم أضاف بلهجةٍ متطلقة، وكأنه يقدّم ملاحظةً قليلةَ الأهمية: «شريطة ألا تجعلنا العدالةُ مسؤولينَ عن تلكَ الميتة! وإننا نضع رجاءَنا فيك كي تحصل لنا على غفرانِ الرب.

فقال الكاهن:

– أما العدالةُ فلا تخشوا شيئًا من جانبها، لأن صديقكما الذي لم يفعل سوى إعارة سيفه، ليس ضالعًا في الجريمة قانونًا.

– أجل، يا أبتِ، ولكن القاتل قد هرب، ولسوف يعاينون الجرح، ويجدون السيف مضمخًا بالدماء ربما... فماذا يدريني؟ إن رجال القانون رهيبون، كما يقال.

(١) – الدوقة: هي نقدٌ ذهبي قديماً، في البندقية. (م: ز.ع).

فقال الكاهن:

- ولكنك كنتَ شاهداً على أن السيف قد استعير؟

فقال دون غارسيا: بالتأكيد، ولسوف أؤكد ذلك أمام كلّ محاكم المملكة.

وتابع بلهجة لماحة إلى أبعد حدّ: زد على ذلك أنك أنت، يا أبت، ستكون هناك كي تشهدَ بالحقيقة، فقد قدّمنا نفسنا إليك، قبل أن تُعرفَ المسألةُ بوقت طويل، كي نسألك النصائح الروحية، وربما يمكنك أن تتثبّتَ من التبادل الذي جرى... وهذا هو الإثبات. حينذاك أمسك سيفَ دون جوان.

فقال: انظر بالأحرى إلى هذا السيف، وكيف يبدو في هذا الغمد!

فحنى الكاهنُ رأسه وكأنه رجلٌ مقتنعٌ بحقيقة القصة التي كانت تروى له، وأخذ يروز الدوقات التي كانت في يده من غير أن يتكلم، فيجد فيها دوماً حجةً لاتردُّ لصالح هذين الشابين وقال دون غارسيا بلهجةٍ شديدة التقى:

فضلاً عن ذلك، فماذا يهمنا يا أبتِ من العدالة؟ فإنما نبتغي الحصولَ على غفران السماء.

فقال الكاهن وهو ينسحبُ: إلى الغد.

فأجاب دون غارسيا:

- إلى الغد، إننا نقبّلُ يديك، ونعتمدُ عليك.

وما إن مضى الكاهن حتى قفز دون غارسيا فرحاً، وهتف:

«عاش التلاعبُ بالرُّتب الكهنوتية! ها نحن، كما آمل، في وضعٍ أفضل، فإذا كانت العدالةُ مهتمةً بنا، فإن هذا الأب الطيب، مقابل الدوقات التي تلقاها منا، وتلك التي يأملُ بالحصولِ عليها، مستعدٌّ ليشهد بأنه ما من صلَة بيننا وبين الخيّال الذي قضيتُ عليه منذ قليل، مثلما ليس هناك من صلةٍ بين طفلٍ وليد وبينه، فلترجع إلى منزلك الآن، وكن متيقظاً على الدوام، ولا تفتح بابك إلا بعد أن تتحققَ من الأمر، أما أنا، فلسوف أطوفُ في المدينة وأتقصى الأخبار قليلاً».

وما إن رجع دون جوان إلى غرفته، حتى ارتمى وهو يرتدي كامل ملابسه على سريره. وأمضى الليل من غيرِ نوم. وهو لايفكر بشيء غير جريمة القتل التي ارتكبها، وبنتائجها خصوصاً. وفي كلّ مرة، كان يسمع فيها خطوات رجلٍ في الشارع، كان يتصورّ أن العدالة قد أتت لاعتقاله ومع ذلك، أحسّ أنه كان متعباً، وكانت رأسه لا تزالُ ثقيلة على إثر عشاء الطلبة الذي حضره، فقد نام في اللحظة التي أخذت الشمسُ تشرق فيها.

كان يستريحُ منذ بضع ساعات، عندما أيقظه خادمه وهو يقول له: إن سيدةً ترتدي خماراً كانت تطلبُ أن تتحدث معه، وفي اللحظة ذاتها، دخلت سيدةٌ إلى غرفته، وكانت مغطاةً من رأسها إلى قدميها بمعطفٍ كبير أسود لايدعُ إلا عينيها مكشوفتين، فأدارت عينيها نحو الخادم، ثم نحو دونٍ جوان، وكأنها تطلب أن تكلمه من غير شهود، فخرج الخادمُ حالاً، وجلست المرأةُ، ونظرت إلى دون جوان مواجهةً بكل انتباه، وبعد لحظةٍ من الصمت بدأت تتكلم على هذا النحو:

«أيها السيدُ الفارس، إن في مسلكي ما يثير الدهشة، ولابد أنك قد كونت رأياً سيئاً عني بلا شك. ولكنك إذا عرفت الدوافعَ التي أتت بي إلى هنا، لما لمتني بالتأكيد. أما أنت فقد تقاتلت مع خيالٍ من هذه المدينة...

فهتف دون جوان وقد شحب لونهُ: - أنا، يا سيدتي! أنا لم أخرج من غرفتي...

- لافائدة من مخادعتي، وعلي أن أعطيك المثل على الصراحة.

وأبعدت معطفها، وهي تتكلم بتلك الطريقة، فتعرف دون جوان فيها على دونيا تيريزا.

وتابعت تقول وقد احمرت خجلاً: - أيها السيد دون جوان، لابدّلي من أن اعترف لك بأن إقدامك قد أثار اهتمامي نحوك إلى أبعد حدّ. وقد لاحظتُ، برغم الاضطراب الذي كان ينتابني أن سيفك كان مكسوراً، أو أنك قد رميته على الأرض

قريبًا من بابنا . وفي اللحظة التي كان الناس يُهرعون إلى الجريح ، نزلتُ والتقطتُ قبضة ذلك السيف . وحين تأملتها ، قرأت اسمك ، وأدركت كم كنتَ معرضًا للخطر ، لو سقطت تلك القبضة في أيدي أعدائك . وهذه هي ، وإني سعيدةٌ جداً لتمكني من إعادتها إليك .

جثا دون جوان على ركبتيه ، كما هو صحيح ، وقال لها إنه مدينٌ بحياته لها ، وإن هديتها لافائدةَ منها ، كما إنها كادت تقتله حبًا . وكانت دونيا تيريزا متعجلة ، وتريدُ أن تنسحبَ حالاً ، ومع ذلك ، فقد كانت تُصغي إلى دون جوان بكثيرٍ من السرور بحيث لم يكن بمقدورها أن تعقد العزمَ على الرجوع . ومضت ساعة تقريباً على هذا المنوال ، ساعة ملأى بعهود الحبّ الأبدي ، وقبلات الأيدي ، وضروبِ التوسلات من ناحية ، وألوان التمنع الضعيف من ناحيةٍ أخرى . أما دون غارسيا الذي دخل فجأة ، فقد قطع المقابلة ، ولم يكن من أولئك الرجال الذين يصدمون . فكان أولُ أمرٍ اهتم به هو أن يطمئن تيريزا . وقد أثنى على شجاعتها كثيراً ، وعلى حضور ذهنها ، وانتهى به الأمر إلى أن يرجوها للتوسط له لدى شقيقتها كي تهيىء له استقبالاً أكثر إنسانية ، ووعدته دونيا تيريزا بكل ما أراده . وتلفعت بمعطفها بصورةٍ تامة ، ومضت بعد أن وعدت بأن تحضرُ مع شقيقتها في المساء ذاته إلى أحد أقسامِ المنتزه الذي حددته .

وما إن أصبح الشابان وحدهما حتى قال دون غارسيا : إن أمورنا تسيرُ على مايرام . ولا أحد يرتابُ بك . وقاضي المدينة الذي لايريدُ لي أيَّ خير ، كان قد شرفني في البداية بأن يفكر بي . وقد كان يقول إنه مقتنعٌ بأن من قتل دون كريستوفال هو أنا ، فهل تعلمُ ما الذي جعله يغيرُ رأيه؟ لقد قالوا له إني أمضيت السهرة معك ، فلك ، ياعزيزي سمعةُ قديسٍ كبيرة بحيث يمكنك أن تفيض منها على الآخرين . وعلى أية حال ، فهم لايفكرون بنا . ودهاءُ تلك الصغيرة الجسورة تيريزا يطمئننا على مستقبلنا ، وهكذا ، فعلينا ألا نشغل بالنا بالأمر بعد الآن ، ولانفكر إلا بتسلية نفوسنا .

فهتف دون جوان بحزن: - آه! يا غارسيا، إنه لأمرٌ محزن حقًا أن يقتل الإنسان أحد أقرانه!

فأجاب دون غارسيا: - ثمةَ شيء أكثر إثارة للحزن، وهو أن يقتلنا أحدُ أقراننا، وهناك أمرٌ ثالثٌ يتجاوزُ الأمرين الآخرين في إثارة الأسى، وهو أن يمرَّ يومٌ دون تناول العشاء. ولذلك، فأنا أدعوك اليوم للعشاء مع بعضِ الرجال المرحين والذين سيسرهم أن يروك.

وما إن قال هذه الكلمات حتى خرج.

وكان الحبّ قد أخذ يُحدثُ تأثيراً قويًا يصرفُ اهتمامَ بطلنا عن شعوره بتبكيت الضمير، وقد انتهى الأمرُ بغروره إلى خنق هذا الشعور. وكان الطلبة الذين تناول العشاء معهم في منزل غارسيا قد عرفوا عن طريقه من هو القاتلُ الحقيقيُّ لدون كريسترفال. وكان كريستوفال هذا مشهوراً بشجاعته. ومهارته، ويهابه الطلبة، فما كان من موته إلا أن أثار مرحهم، وانهال المديحُ على خصمه السعيد الحظ، فقد كان المرءُ يسمعهم يقولون إنه شرفُ وزهرةُ وذراع جامعتهم. ولقد شربوا نخب صحته بحماسة، وارتجل أحدُ طلبةِ مورسيا[1] قصيدة مدحٍ يشبّه فيها دون جوان بالسِّيْد، وببرنار ديل كاربيو. وحين قام دون جوان من وراء المائدة، كان لايزال يشعر ببعض الإحساس الذي يثقلُ قلبه. ولكن لو كانت لديه القدرة على إعادة دون كريستوفال إلى الحياة، لكان من المشكوك فيه أن يستخدم هذه القدرة، خوفًا من أن يفقدَ المكانةَ والشهرةَ اللذين اكتسبهما من قتل كريستوفال في جامعة سالامانكا بأكملها.

حين حلّ المساء، وصل كلا الجانبين في الوقت المحدّد إلى مكان اللقاء الذي تمّ على ضفاف نهر تورم. وأمسكت دونيا تيريزا يد دون جوان، (فلم يكن الرجال يقدّمون آنذاك أذرعهم لتتأبّطها النساء)، وأخذت دونيا فوستا يدَ دون غارسيا، وبعد بضع دورات في المنتزه افترق الثنائيان، وهما جدّ مسرورين، وقد تواعدا على ألاّ يتركا فرصةً واحدة ليلتقيا مجدداً.

---

(١) - مورسيا: مدينة في جنوب إسبانيا (م: ز.ع).

عندما ترك دون جوان وغارسيا الشقيقتين، التقيا بعضَ الغجريات اللواتي كنّ يرقصن على وقع طبولٍ باسكيّة، وسط جماعةٍ من الطلاب، فاختلطا بهم، وقد راقت الراقصات لدون غارسيا الذي عزم على اصطحابهما إلى العشاء. فقدِّم الاقتراحُ في الحال، وقُبل. أما دون جوان، فقد كان مدعواً بصفته أفضل صديق لغارسيا[1]. وبما أن إحدى الغجريات قد أثارته بقولها إنه يشبه راهبًا مبتدئًا، فقد اجتهد ليقوم بكل ما يلزم لإثبات أن ذلك اللقب لاينطبقُ عليه. وقد جدّف، ورقص، ولعب، وشرب بمفرده بقدر ما يمكنُ لطالبينِ اثنين من السنة الثانية أن يفعلاه. وقد تجشّموا عناءً كبيراً لإعادته إلى منزله، بعد منتصف الليل، وهو أكثر من مخمور بقليل، وفي حالةٍ من الهياج شديدة بحيث أراد أن يحرق سالامانكا وأن يشرب نهر التورم بأكمله كي يحول دون إطفاء هذا الحريق.

وعلى هذا النحو، أخذ دون جوان يفقدُ كافةَ الصفات الطيبة التي كانت قد منحته إياها الطبيعةُ والتربيةُ التي نشأ عليها، واحدةً إثر واحدة. وبعد مضي ثلاثة أشهر على إقامته في سالامانكا تحت إدارةِ دون غارسيا كان قد أغوى تيريزا المسكينةَ بصورة تامة. أما رفيقه، فكان من جهته قد نجح في ذلك قبل ثمانية أيام. وفي البداية، أحبّ دون جوان عشيقته بكلّ الحب الذي يحمله صبي في مثل عمره لأول امرأة تمنحه نفسها. ولكن دون غارسيا قد أثبت له من غير مشقةٍ أن الثبات فضيلةٌ وهمية، إضافة إلى أنه، إذا ما تصرّف دون جوان بصورة مختلفة عن رفاقه في حفلات العربدة الجامعية، فسيكون السبب في أن تصابَ سمعة تيريزا بالسوء، فكما كان يقول: ليس هناك إلا الحبُّ العنيف جداً، والمشبع بالرغبات الذي يكتفي بامرأةٍ واحدة. فضلاً عن أن صحبة السوء التي غرق دون جوان فيها لم تكن تتركُ له لحظةً واحدةً من الراحة. فكان لا يكاد يظهر في الصفوف، أو يتناعسُ في الدروسِ المثقلة بالمعرفة لأشهرِ الأساتذة، بسبب الوهن الذي يصيبه في سهرات المجون. وبالمقابل، فقد كان دومًا الأول في الخروج إلى النزهة والأخير في العودة منها. أما

(١) - حرفيًا: المخلص أشات، وهو صديق إينياس (في الميثولوجيا اليونانية).

في لياليه، فقد كان يمضي إلى الحانة بانتظام، أو إلى أماكن أكثر سوءاً، في الليالي التي لم تكن دونيا تيريزا تتمكن من تكريسها له.

وذات صباح، تلقى بطاقة من تلك السيدة التي كانت تعبر له عن اعتذارها عن الوفاء بموعد وعدته به في تلك الليلة. فقد كانت لها قريبةٌ وصلت للتوّ إلى سالامانكا، وقد أعطوها غرفةَ تيريزا التي أصبح يتعينُ عليها أن تنام في غرفةِ والدتها. وقد أثرَّ هذا الإخفاقُ تأثيراً ضعيفاً على دون جوان الذي وجد وسيلةَ لاستغلال سهرته. وفي اللحظة التي كان يخرج فيها إلى الشارع، وهو مشغول الذهن بمشاريعه، سلّمته امرأةٌ ترتدي خماراً بطاقةً كانت مرسلةُ من دونيا تيريزا. وكانت قد وجدت وسيلةً للحصول على غرفةٍ أخرى، ورتبت كل الأمور مع شقيقتها من أجل الموعد. وعرض دون جوان الرسالةَ على دون غارسيا، فترددا بعض الوقت، وأخيراً، وبصورة آليةٍ وكأنما بحكمِ العادة، تسلقا شرفةَ عشيقتيهما.

كانت دونيا تيريزا تحمل على عنقها علامةً ظاهرة تماماً، وقد كانت وحمةً هائلةً رآها دون جوان للمرة الأولى حين سُمح له أن ينظر إليها. وخلال بعض الوقت، استمر في النظر إليها، وكأنها أكثر الأشياء سحراً في العالم، فحيناً، كان يشبهها بزهرةِ بنفسج، وحيناً بشقائقِ النعمان، وحيناً بزهرة الحلفا. غير أن هذه العلامة، التي كانت حقاً حسنةَ الجمال، سرعان ما كفت عن أن تظهر له كذلك، بسبب شعوره بالارتواء: «وأخذ يقول في نفسه وهو يتحسَّرُ: إنها بقعةٌ كبيرة سوداء، هذا كل شيء. ومن المؤسف أن تكون موجودة. تبًّا لهذا! إنها تشبهُ وحمةً من شحمِ الخنزير، فليأخذ الشيطان هذه العلامة! وحتى أنه سأل تيريزا ذات يوم إنْ كانت قد استشارت طبيباً عن وسائل إزالتها، فأجابت الفتاةُ المسكينةُ على سؤاله وهي تحمر خجلاً إلى أقصى حدّ، بأنه لم يكن هناك أيُّ رجلٍ، ماعداه، قد رأى تلك البقعة، إضافة إلى أن مرضعتها قد اعتادت أن تقول لها إن علامات كتلك العلامة تجلبُ الحظ.

وفي المساء الذي تحدثتُ عنه، فإن دون جوان الذي أتى إلى الموعد معتكرَ المزاج إلى درجةٍ معينة، رأى العلامةَ المعينّة التي بدت له أيضًا أكبر حجمًا مما كانت عليه في المرات السابقة، فقال في نفسه وهو يتأملها: تبًّا! إنها تمثلُ فأرةً ضخمة، إنها، في حقيقة الأمر، فائقةُ البشاعة! وهي علامة نبذ كالعلامة التي انطبعت على قابيل. ولابدّ للمرء أن يكون مهتاجًا كي يتخذ من امرأةٍ كهذه عشيقة له. وكان شديدَ العبوس إلى أقصى حدّ، فتشاجر مع المسكينة تيريزا من غير سبب، وأبكاها، وتركها عند الفجر من غير أن يبدي رغبةً في معانقتها، أما دون غارسيا الذي كان يخرجُ معه، فقد سار بعض الوقت، وهو لايتكلّم، ثم توقف فجأةً، وقال: «لنتفق يا دون جوان على أننا قد ضجرنا فعلاً هذه الليلة. أما أنا، فقد أُرهقت، ولديّ فعلاً رغبةٌ في إغضاب الأميرة كثيرًا!

فقال دون جوان: إنك مخطئ، فلا فوستا امرأة جذابةٌ، بيضاء مثل بجعة، وهي صافية المزاج دائمًا، ثم إنها تحبك كثيراً، إنك لسعيد فعلاً، في واقع الأمر.

– أما عن كونها بيضاء، فأنا متفق معك أنها بيضاء، والحمد لله. ولكنها تفتقرُ إلى النضارة، وتبدو مثل بومةٍ إلى جانب يمامة قياسًا إلى شقيقتها، بل أنت السعيد فعلاً. فأجاب دون جوان: وكيف ذلك، فالصغيرة على درجةٍ كافية من اللطف، ولكنها طفلة فليس هناك مجالٌ لحديث العقل معها، ورأسها محشوةٌ بروايات الفروسية، وقد كونت عن الحب أكثر الآراء مبالغةً، وليست لديك فكرةٌ عن تطلُّبَها.

– ذلك لأنك لا تزالُ حديثَ السن أكثر من اللازم، يا دون جوان، ولاتعرفُ كيف تروّضُ عشيقاتك. فلتدرك أن المرأة تشبه الجواد، فإذا تركتها تتخذُ عاداتٍ سيئة، وإذا لم تقنعها بأنك لن تغفر لها أيةَ نزوة، فلن تتمكن من أن تحصل منها على شيء.

– قل لي، يا دون غارسيا، هل تعاملُ عشيقاتك مثلما تعامل خيولك؟ وهل تستخدمُ العصا الطويلة لتجعلهن يتخلّين عن نزواتهن؟

- نادراً، فأنا مفرطُ الطيبة. وإذن، يا دون جوان، فهل توافق على أن تتخلى لي عن عشيقتك تيريزا؟ وإني أعِدك بأنها ستكون، بعد خمسة عشر يوماً، طيّعةً مثل قفاز. وإني أقدم لك فوستا مقابلها. فهل يلزمك مقابل لها؟

فقال دون جوان وهو يبتسم: إن هذه الصفقة تناسبُ ذوقي كفايةً، إذا وافقت هاتان السيدتان من جهتهما عليها. غير أن دونيا فوستا لا تريد أبداً أن تتخلى عنك، فهي تخسرُ في هذه المبادلة أكثر مما ينبغي.

- إنك كثير التواضع، ولكن اطمئن، فقد أغضبتها بالأمس كثيراً بحيث أن أولَ قادمٍ سيبدو لها شبيهاً بملاكٍ نوراني يأتيها بدلاً من هالكٍ، بالقياس إلي.

وتابع دون غارسيا كلامه قائلاً: هل تعلم، يا دون غارسيا أني أتكلم بمنتهى الجدية؟ وضحك دون جوان أكثر أيضاً من اللهجة الجدية التي كان صديقه يعرض بها مبالغاته تلك. وقوطع ذلك الحديث التوجيهي بوصول عددٍ من الطلبة الذين أعطوا اتجاهاً آخر لأفكارهما ولكن، ما إن حلّ المساء، وكان الصديقان جالسين أمام زجاجةٍ من نبيذ مونتيا الذي أرفقت به سلةٌ من بلوط فالنسيا، حتى عاد دون غارسيا إلى الشكوى من عشيقته. وكان قد تلقى رسالةً من فوستا، مفعمةً بالعبارات العذبة، والعتابات الرقيقة، والتي يلاحظ المرءُ من خلالها ذهنها المرح، وعادتها في أخذ كلّ شيء من جانبه المثير للضحك.

فقال دون غارسيا لدون جوان، وهو يمدّ الرسالة إليه، ويتثاءب بإفراط: خذ، اقرأ هذه القطعة الجميلة. إنها موعدٌ لهذا المساء أيضاً! ولكن، فليأخذني الشيطان، إذا ما ذهبت إليه.

فقرأ دون جوان الرسالةَ التي بدت له رائعةً.

فقال: لو كان لي في الحقيقة عشيقةٌ مثل عشيقتك، فسيكون دأبي كلهُ موجهاً إلى إسعادها، فهتف دون غارسيا: فلتأخذها، إذن، يا عزيزي، خذها، واقضِ وطرك منها. فأنا أتخلى لك عن حقوقي، وأضاف وهو يقف، وكأن خاطراً مفاجئاً قد أنار ذهنه:

فلنفعل أفضل من ذلك، ولنلعب على عشيقتينا. هذه هي أوراقُ اللعب، فلنلعب جولةً من الهومبره[1]. إن دونيا فوستا هي رهاني، وأنت تضع على الطاولة دونيا تيريزا.

أما دون جوان الذي كان يضحكُ من رفيقه حتى دمعت عيناه، فقد أخذ ورق اللعب، وخلطه، ومع أنه لم يعر اللعبة أي انتباه تقريباً، فقد ربح. أما دون غارسيا، فمن غير أن يبدو آسفًا على خسارة الجولة، فقد طلب ما يلزمُ للكتابة. وأعدَّ نوعًا من أمرِ دفعٍ مكتوبٍ على حساب دونيا فوستا. وقد أمرها بموجبه أن تضع نفسها تحت تصرّفِ حامله، وكأنه يكتب لأمين صندوقه بالضبط أن يدفع مئةَ دوقية لأحد دائنيه.

أما دون جوان، الذي كان يضحكُ باستمرار، فقد عرض على دون غارسيا أن يأخذ بثأره، ولكنه رفض ذلك.

وقال: خذ معطفي، إن كان لديك القليلُ من الشجاعة، واذهب إلى الباب الصغير الذي تعرفه جيداً. ولن تجد فيه إلا فاوستا، لأن تيريزا لا تنتظرك، واتبعها دون أن تقول كلمةً واحدة. وحين تصبحُ في غرفتها، فمن الممكن تماماً أن تُبدي للحظةٍ من الزمن شعوراً بالدهشة، وأن تسكبَ دمعةً أو اثنتين، ولكن لا يوقفنك ذلك، وكن متأكداً من أنها لن تجرؤ على الصراخ. حينذاك، اجعلها ترى رسالتي، وقل لها إني نذلٌ فظيعٌ، ووحشٌ، وكلّ ما تريدُ قوله، وإن انتقامها مني سيكون سهلاً وعاجلاً، ولسوف تجد هذا الانتقام حلواً حقًا، فكن على ثقةٍ من ذلك.

كان الشيطانُ يدخلُ بصورةٍ أعمق إلى قلب دون جوان، عند كلّ كلمةٍ من كلمات غارسيا، وكان يقول لدون جوان إن الأمر الذي لم يكن ينظر إليه إلا على أنه مزاحة لا هدفَ لها يمكن أن ينتهي بالنسبة إليه بالصورة الأكثر إثارةً للسرور. وتوقف عن الضحك، وأخذت خمرةُ اللذة تصعدُ إلى جبينه، وقال:

«لو كنت عن ثقة من أن فاوستا ستوافق على هذا التبادل. . . »

---

(١) - الهومبرة: لعبة ورق إسبانية. (م: ز.ع).

فهتف الفاسق: إذا وافقت! أي غرّ أنت يارفيقي، بحيث تظنّ أن المرأةَ يمكن أن تتردّد بين عشيقٍ لستة أشهر وعشيقٍ ليوم واحد! هيا، سوف تشكراني كلاكما غداً، لا شكّ عندي بذلك، والمكافأةُ الوحيدةُ التي أطلبها منكما هي أن تسمحا لي أن أغازل تيريزيتا كتعويضٍ لي.

ثم قال لدون جوان، بعد أن لاحظ أنه قد اقتنع أكثر من نصف اقتناع: قرِّرْ، فأنا من ناحيتي، لاأريد أن أرى فاوستا هذا المساء، فإذا كنت لا ترغب في هذا، فإني أُعطي هذه البطاقة إلى فادريك السّمين وهو الذي سينعمُ بذلك.

فهتف دون جوان وهو يمسك البطاقة: فليحدث مايمكن أن يحدث، في الواقع، وكي يشجع نفسه، فقد ابتلع دفعةً واحدة قدحًا كبيراً من المونتيلا.

كانت ساعةُ اللقاء تقترب، وكان دون جوان الذي لازالت تردعه بقيةٌ من ضمير، يشربُ دون توقّفَ كي يسكرْ. ثم دقت الساعةُ، فألقى دون غارسيا معطفه على كتفي دون جوان، واقتاده حتى غرفة عشيقته، ثم تمنى له ليلةً طيبةً، بعد أن أشار إليه بالإشارة المتفق عليها. وابتعد دون أدنى تبكيتِ ضمير على العمل السيىء الذي ارتكبه منذ قليل.

انفتح البابُ حالاً، وكانت دونيا فوستا تنتظرُ منذ بعض الوقت.

وسألت لصوتٍ خفيض: هل هذا أنت، يا دون غارسيا؟

فأجاب دون جوان بصوتٍ أخفض أيضًا: أجل، وخبأ وجهه في ثنياتِ معطف عريض، ودخل. وبعد أن انغلق الباب، بدأ دون جوان بصعودِ درجٍ معتم مع دليله، فقالت له: امسك بطرف وشاحي، واتبعني بأكبر هدوء ممكن.

وما هي إلا لحظاتٌ قليلة حتى كان في غرفة فوستا، وكان مصباح وحيد يلقي فيه ضوءاً خافتًا. كان دون جوان في البداية واقفًا، من غير أن ينزع معطفه وقبعته، وظهر بقرب الباب، ولايجرؤ بعد على الكشف عن نفسه، فتأمّلتهُ دونيا فوستا لبعضِ الوقت دون أن تقول شيئًا، ثم تقدَّمت نحوه فجأةً وهي تمدُّ ذراعيها، حينذاك، قلّد دون جوان حركتها، وترك معطفه يسقط.

فهتفت: ماذا! هذا أنت يا سيد دون جوان؟ هل دون غارسيا مريضٌ؟

فقال دون جوان:

- مريض؟ لا... ولكنه لايستطيعُ أن يأتي، وقد أرسلني إليك.

- أوه! كم أنا مستاءة من هذا! ولكن قل لي، أليست امرأة هي التي تمنعه من المجيء؟

- أنتِ تعرفين أنه فاسقٌ إذن؟...

كم ستكون شقيقتي مسرورة برؤيتك، الصبية المسكينة!... دعني أمر، سوف أعلمها بمجيئك.

- لا فائدةَ من ذلك.

- إن هيئتك غريبةٌ، يادون جوان... ولديك خبرٌ سيىء تريدُ إعلامي به... فتكلم، هل حدث مكروهٌ لدون غارسيا؟

وكي يعفي دون جوان نفسه من جواب محرجٍ، مدّ إلى الفتاة المسكينة البطاقة السافلة، بطاقة دون غارسيا. فقرأتها بتعجل، ولم تفهمها في البداية، وأعادت قراءتها، ولم تستطع أن تصدّقَ عينيها. كان دون جوان يراقبُ بانتباه، وكان يراها بالتناوب تمسح جبينها، وتفركُ عينيها، وكانت شفتاها ترتجفان، وشحوبٌ مميتٌ يغطي وجهها، وكانت مضطرةً لتمسك بيديها الاثنتين الورقةَ لئلا تسقط على الأرض، ثم نهضت بجهدٍ يائس، وصرخت قائلة:

«كل هذا كذبٌ! إنه بهتانٌ رهيب، فدون غارسيا لم يكتب هذا قط!».

فأجاب دون جوان:

«أنت تعرفين هذا الخط. إنه لم يكن يعرفُ قيمةَ الكنز الذي يملكه... وأنا قد قبلت لأني أعبدك».

فرشقته بنظرةٍ مفعمةٍ بأكبر ازدراءٍ ممكن، وأخذت تُعيدُ قراءةَ الرسالة بانتباه كأنها محام يرتابُ بتزويرٍ ما في عقد. وكانت عيناها مفتوحتين إلى أقصى حدّ، وتفلتُ منهما دمعةٌ كبيرة من وقتٍ لآخر، من غير أن يرمش لها جفن، وتسقط على خديها. وفجأة، ابتسمت ابتسامةً جنونية، وصرخت:

«إنها مزاحة، أليس كذلك؟ إنها مزاحة. فدون غارسيا هنا، ولسوف يأتي».

- ليست هذه مُزاحة يا دونيا فوستا، فما من شيءٍ حقيقي أكثر من الحب الذي أحمله لك، ولسوف أكون سيىء الحظ إذا لم تصدقيني.

فصرخت دونيا فوستا: أيها الحقير. إن كان ما تقوله صحيحًا، فأنت أكثر نذالةً أيضًا من دون غارسيا.

- إن الحبّ يغفرُ كلّ شيء، أيتها الجميلة فوستيتا، إن غارسيا يهجرك. فاقبلي بي كي تسرّي عن نفسك. إني أرى باخوس وأريان مرسومين على هذا اللوح، فدعيني أصبح باخوسك.

ومن غير أن تردّ بكلمة، أمسكت سكينًا من على المنضدة - وتقدّمت نحو دون جوان، وهي ترفعه إلى أعلى من رأسها. ولكنه رأى الحركة، وأمسك بذراعها، وجرّدها من السكين بصعوبة، وظنّ أنه قد أصبح مسموحًا له أن يعاقبها على بداية أعمالها العدائية. فقبلها ثلاث أوأربع مرات، وأراد أن يجرّها نحو سرير للجلوس. لقد كانت دونيا فوستا امرأة ضعيفة وحساسة، غير أن الغَضَبَ كان يمنحها القوة، فأخذت تقاوم دون جوان، فتتشبث حينًا بالأثاث، وتدافعُ عن نفسها بيديها وقدميها وأسنانها حينًا آخر، وفي البداية، تلقى دون جوان عددًا من الضربات وهو يبتسم، ولكنه سرعان ما أصبح الغضبُ لديه شديدًا كالحب، فضمّ فاوستا بقوة من غير أن يخشى أن يدعك جلدها الناعم. لقد كان مصارعًا مهتاجًا

يريد بأي ثمن أن ينتصر على خصمه، وهو مستعدٌ، كي يتغلبَ عليه، أن يخنقه، إذا لزمَ الأمرُ. فلجأت فاوستا حينذاك إلى آخر وسيلةٍ تبقت لها. فحتى ذلك الوقت، كان يمنعها شعورٌ بالاحتشام الأنثوي أن تصرخ طالبة العون، ولكنها حين رأت، أنها على وشك أن تُقهر، جعلت المنزلَ يضجُّ بصرخاتها وأحسّ دون جوان بأن المسألة لم تعد بالنسبة إليه في أن يمتلك ضحيته، وأن عليه أن يفكر قبل كلّ شيء بسلامته، فأراد أن يدفعَ فاوستا، ويصل إلى الباب، ولكنها كانت تتمسكُ بثيابه ولم يكن بمقدوره أن يتخلّص من تلك الثياب. وفي الوقت نفسه، أخذت تسمع جلبةُ الأبواب التي تنفتحُ، وخطواتُ وأصواتُ الرجال التي تقترب. فلم يعد لديه لحظةٌ واحدة يضيعها. فبذل جهداً كي يلقي دونيا فوستا بعيداً عنه، غير أنها كانتْ تمسكه من صديريته بقوة كبيرة، بحيث دار حول نفسه معها. دون أن يحرز شيئًا آخر غير تغيير وضعيته. وكانت فوستا حينذاك من ناحية الباب الذي ينفتح من الداخل.

واستمرت في الصراخ. فانفتح البابُ في الوقت نفسه، وظهر في مدخله رجلٌ يُمسك بندقيةً قديمةً، فأفلت منه هتافٌ يدلُّ على المفاجأة، وتبعه في الحال صوتُ انفجار، فتحطم المصباحُ، وأحس دون جوان بأن يدي دونيا فوستا ترتخيان، وبأن شيئًا ساخنًا وسائلاً يسيلُ على يديه. فسقطت دونيا فوستا أو انزلقت بالأحرى على أرض الغرفة، فقد حطمت الرصاصةُ عمودها الفقري، فقتلها والدُها بدلاً من أن يقتل غاصبها. وحين أحسّ دون جوان بأنه طليقٌ، اندفع نحو الدرج، وسط دخان البندقية، فتلقى أولاً ضربةً من عقب بندقية الأب، وطعنةَ سيف من خادمٍ كان يلحق به، غير أن الضربة الأولى والثانية لم تكونا تؤلمانه كثيراً، فوضع سيفه في يده، وأخذ يشقُّ ممراً له، ويسعى لإطفاء المشعل الذي كان الخادم يحمله. فتراجع هذا الأخير، وقد أرعبه التصميمُ الذي كان يظهرُ على هيئة دون جوان. أما دون ألونسو دو أوجيدا، ذلك الرجلُ صاحب الحمية، والذي لايهابُ، فقد انقضَّ على دون جوان دون تردّد، فتلافى هذا الأخيرُ عدداً من ضرباتِ السيف، ولاشك أن

كل ما كان ينوي فعله في البداية هو الدفاعُ عن نفسه. غير أن الاعتياد على المسايفة يجعل الردّ بعد استعراض معين، لايتعدى أن يكون حركةً آلية وغير إرادية تقريبًا. وبعد لحظة من الزمن، أطلق والد فوستا نفسًا طويلاً، وسقط مُصابًا بجرحٍ مميت. وإذ وجد دون جوان الممرّ خاليًا، اندفع كالسهم على الدرج، ومنه إلى الباب. وبرمشةِ عين، أصبح في الشارع، من غير أن يلاحقهُ الخدم الذين أخذوا يتجمّعون حول سيدّهم المحتضر. أما دونيا تيريزا التي هرعت، عند سماعها لطلقةِ البندقية، فقد رأت ذلك المشهدَ الرهيب. وسقطت مغشيًّا عليها، إلى جانب والدها، فهي لم تكن تعرفُ، حتى ذلك الوقت، سوى نصف مصيبتها.

كان دون غارسيا ينهي آخر زجاجة من نبيذ المونتيلا، حين دخل دون جوان بسرعةٍ إلى غرفته، شاحبَ الوجه، مغطى بالدماء، زائغَ العينين، ممزق الصديري، وياقته تخرجُ من حدودها الاعتيادية نصف قدم، وارتمى وهو يلهثُ بشدة على كنبةٍ، وغير قادرٍ على الكلام. ففهم الآخرُ حالاً أن حادثًا خطيراً ما قد وقع للتو. وترك دون جوان يتنفس بصعوبةٍ مرتين أوثلاث، ثم سأله عن التفاصيل، وبكلمتين، أصبح في صورةِ الأمر. إن دون غارسيا الذي لم يكن يفقدُ بسهولةٍ رباطةَ جأشه المعتادة، أصغى دون أن يرفّ له جفن، للقصةِ المتقطعة التي رواها له صديقه، ثم ملأ كأسًا، وقدمها له وقال:

«اشرب، إنك بحاجة لهذا»، وأضاف، بعد أن شرب هو نفسه أيضًا:

إنها لمشكلة سيئة، فقتلُ الوالد أمرٌ خطير... ومع ذلك، فهناك أمثلةٌ عديدة، ابتداءً من السِّيْد. والأسوأ من ذلك، أنه ليس لديك خمسمئة رجل يرتدون الملابس البيضاء[1]، وكلُّهم أبناء عمك، كي يدافعوا عنك، ضد رماة السهام السالامنكيين، وضد أقارب المتوفى... فلنهتم أولاً بما هو أكثر إلحاحًا...

(١) - في الأسطورة الإسبانية، كان رفاق السِّيْد بيض الملابس كالثلج.

وقام بدورتين أو ثلاث دورات في الغرفة، وكأنه يجمعُ أفكاره.

واستأنف قائلاً: إن البقاء في سالامانكا، بعد فضيحة كهذه، قد يكون جنونًا. إن دون ألونسو دي أو جيدا ليس نبيلاً ريفيًا، زد على ذلك أن الخدم لابدّ أن يتعرفوك. ولنسلم للحظة ما أنه لم يتمّ تعرفُك، فقد اكتسبت الآن في الجامعة سمعةً حسنة، بحيث أنه لن يفوتهم أن ينسبوا إليكَ إثمًا مرتكبهُ مجهولٌ. هيا، صدّقني، أنه لابدّ لك من الرحيل، والأفضل في أقرب وقتٍ ممكن؟ فقد أصبح لديك من المعرفةِ هنا ما يفوقُ بثلاث مرات ما يجدرُ بنبيلٍ من عائلةٍ مرموقة أن يعرفه. فلتترك هنا مينرفا[1]. ولتجرّب مارس[2] بعض الشيء، فلسوف تنجحُ في ذلك أكثر، لأن لديك استعدادات لهذا الأمر. إن هناك قتالاً في الفلاندر، فلنذهب لقتل الهراطقة، فلا شيء أصلح من ذلك للتكفير عن زلاتنا في هذا العالم. آمين! إني أنهي كلامي كما ينُهون العظة.

فعلت كلمةُ الفلاندر فعلها مثل تعويذة على دون جوان، فقد كانت مغادرةُ إسبانيا، كما كان يظنّ هروبًا من النفس. ولربما لا يكون لديه وقتٌ فارغٌ لتبكيت الضمير في خضمّ متاعب الحرب ومخاطرها!

فهتف قائلاً: في الفلاندر، في الفلاندر! هيا كي نقتل في الفلاندر.

فاستأنف دون غارسيا بجدية - هناك مسافةٌ طويلةٌ من سالامانكا إلى بروكسيل. وفي وضعك، لا يمكنك أن تذهب مبكرًا جداً. وفكر أنه إذا ماقبضَ عليك السيد القاضي، فلسوف يكون من الصعب عليك أن تسافر إلى مكانٍ آخر غير سجون الأشغال الشاقة التابعة لجلالته.

---

(١) - ربة الحكمة والحرف عند اليونان. (م: ز.ع).

(٢) - إله الحرب عند اليونان. (م: ز.ع).

وبعد أن تداول دون جوان لبضع لحظات مع صديقه، تخلص بصورة عاجلة من ملابس الطالب، وأخذ معطفًا من الجلد المطرز مثل ذلك الذي كان يرتديه العسكريون آنذاك، وقبعةً كبيرة مخفضةَ الحواف. ولم ينس أن يعبّيء حزامه بدنانير إسبانية ذهبية تمكن دون غارسيا من أن يحشوه بها. ولم تدم كلّ هذه التحضيراتُ أكثر من بضع دقائق، وانطلق سيراً على قدميه، وخرج من المدينة دون أن يتعرفه أحدٌ، وسار الليل بطوله. وصباح اليوم التالي، حتى أجبرته حرارة الشمس على التوقف. واشترى في أول مدينة وصل إليها حصانًا، وبعد أن انضمَّ إلى قافلة مسافرين، وصل من غير عوائق إلى سرقسطة. وهناك، مكثَ بضعة أيام تحت اسم دون جوان كاراسكو. أما دون غارسيا الذي كان قد غادر سالامنكا في اليوم التالي من رحيل دون جوان، فقد سلك طريقًا أخرى، وانضم إليه في سرقسطة. ولم يقيما فيها مدّة طويلة. وبعد أن قدّما فروضَ الصلاة، والاعترافَ بصورةٍ متعجلة، في كنيسة نوتردام بيلييه، وليس من غير أن يختلسا النظرات الغرامية إلى حسناوات أراغون، ويتخذ كل منهما خادمًا جيدًا، مضيا إلى برشلونة، ومنها أبحرا إلى سيفيتا - فيكشيا. وائتلف التعب، ودوارُ البحر، وجدة المناظر، وخفة دون جوان الطبيعية، ائتلفت كلُّها لتجعله ينسى بسرعة المشاهد الفظيعة التي خلفها وراءه. وخلال بضعة أشهر، جعلت الملذاتُ التي وجدها الصديقان، في إيطاليا، جعلتهما يهملان الهدفَ الرئيسي لسفرتهما. غير أن الموارد أخذت تعوزهما، فانضما إلى عددٍ من مواطنيهم، وهم كرماء مثلهما، ومتخففون من المال، وسلكوا الطريق نحو ألمانيا.

وصلا إلى بروكسيل، وانخرط كلٌّ منهما في جماعة قائدٍ يعجبه. وقد أراد الصديقان أن يخدما بدايةً في صفوف القائد مانويل غومار، لأنه كان أندلسيًا، قبلَ كلّ شيء، ثم لأنه كان معروفًا بأنه لايتطلب من جنوده شيئًا غير الشجاعة، والأسلحة المصقولة جيداً والتي هي في حالةٍ جيدة. زد على ذلك أنه متساهلٌ تمامًا فيما يتعلق بالانضباط.

أما هذا القائد الذي بهرته بشاشتهما، فقد عاملهما معاملةً جيدة، وحسب

ميولهما. أي أنه قد استخدمهما في كافة الظروف المحفوفة بالمخاطر. وكان الحظ إلى جانبهما.. وحيث لاقى العديدُ من رفاقهما الموت، لم يصابا بأي جرح، ولفتا أنظار الضباط القادة. وحصل كلٌّ منهما على شعار في اليوم نفسه. ومنذ تلك اللحظة، ظنا أنهما قد ضمنا تقديرَ رؤسائهما ومحبتهم. فاعترفا باسميهما الحقيقيين، واستأنفا مسار حياتهما الاعتيادي، أي أنهما كانا يمضيان النهار في اللعب، وفي الشرب، وفي تقديم الموسيقى المسائية ليلاً لأجمل نساء المدن التي كانا يتمركزان في موقعها خلال الشتاء. كانا قد حصلا على مغفرة أهلهما لهما، وهذا ما أثر فيهما تأثيراً طفيفًا، كما حصلا منهم على حوالاتٍ ماليةً محولّةً إلى مصارف أنفير، فاستخدماها بصورة حسنة، وبما أنهما كانا شابين وغنيين، ومقدامين، ومبادرين، فقد كانت انتصاراتهما الغرامية عديدةً وسريعة، ولن أتوقف كي أرويها، فيكفي القارئُ أن يعلم أنه حين كانا يريان امرأةً جميلة، فقد كانت كافة الوسائل صالحة للحصول عليها. ولم تكن الوعودُ، وألوان القسم سوى لعبةٍ بالنسبة لهذين الفاسقين الساقطين. وإن كان هناك أشقاءٌ أو أزواجٌ لديهم ما يعيبونه على سلوكهما، فقد كانا يردان عليهم بضرباتِ سيفٍ محكمة، وبقلوبٍ لا ترحم.

واستؤنفت الحربُ مع حلول الربيع.

وفي مناوشةٍ كانت سيئةَ الطالع بالنسبة للإسبان، جرح القائد غومار جرحًا مميتًا، أما دون جوانٌ الذي رآه يسقطُ، فقد أسرع إليه، ونادى بعض الجنود لحمله، غير أن القائد الجسور استجمع كلّ ما تبقى له من قوةٍ وقال له: «دعني أموت هنا، أشعرُ أن أمري قد انتهى، فمن الأفضل لي أن أموت هنا من أن أموت على بعدِ نصف فرسخٍ من هذا المكان. فحافظ على جنودك، فلسوف يكون لديهم ما يكفي من العمل. وأنا أرى هؤلاء الهولنديين الذين يتقدّمون بقوى كبيرة - وأضاف وهو يتوجه إلى الجنود الذين كانوا يتجمعون حوله: أيها الأبناء، رصوا صفوفكم، حول حملةِ أعلامكم[1]، ولا تقلقوا بشأني.

١- أي ضباطكم «Enseignes» وهي كلمةٌ كانت تُستخدمُ فيما مضى، وتعادلُ رتبةَ ملازم أول أو ملازم ثانٍ، في الجيوش البرية والجوية (م. ، ع).

وصل دون غارسيا فجأة، في تلك اللحظة، وسأله إن كانت لديه رغبةٌ أخيرة يمكن أن تنفذ بعد موته.

«وماذا تريدُ أن تكون رغبتي في لحظة كهذه، بحق الشيطان؟ . . . »

ثم بدا أنه يستجمع أفكاره لبضع لحظاتٍ، ويستأنف قائلاً:

لم أفكر قط كثيراً بالموت، لم أكن أظن أنه قريب إلى هذه الدرجة . . . ولعلي لا أكون مستاءً لو كان إلى جانبي كاهنٌ ما . . . غير أن كلّ رهباننا قد مضوا . . . ومن القسوة مع ذلك أن يموتَ المرءُ من غيرِ اعتراف!

فقال دون غارسيا، وهو يقدّم إليه زجاجة من النبيذ: - هذا هو كتابُ صلواتي، فلتتشجع. وأخذت عينا الضابط العجوز تعتكران أكثر فأكثر. ولم يلاحظ المزاحة التي أطلقها أمامه دون غارسيا، غير أن الجنود القدماء الذين كانوا يحيطون به قد استنكروها.

وقال المحتضر: يا دون جوان. اقترب، يا بني، تعال، إني أجعلك وريثي، فخذ هذه الصرةَ فهي تحتوي كل ما أمتلكه. ومن الأفضل أن تكون لك، من أن تكون لهؤلاء الخارجين على الكنيسة. والشيءُ الوحيدُ الذي أطلبه منك، هو أن تقيم بعض القداديس من أجلِ راحة نفسي.

وعده دون جوان بذلك، وهو يشدُّ على يده، فيما كان دون غارسيا يجعله يلاحظ بصوتٍ خفيضٍ الفارقَ بين آراءِ رجلٍ ضعيفٍ حين يموت، وآرائه التي يعظ بها أمام منضدةٍ مغطاةٍ بزجاجات الشراب. وأتت بعضُ الرصاصات التي صفرت في آذانهم كي تعلن لهم اقتراب الهولنديين، فأخذ الجنودُ يعودون إلى صفوفهم. وودع كلٌّ منهم القائد غومار بسرعة، ولم يعد أحدٌ يهتم إلا بالانسحاب المنظم، وكان ذلك على درجةٍ كافيةٍ من الصعوبة أمام عدوٍّ بذلك التعداد، وعبر طريقٍ ملأتها الأمطار بالحفر، ومع جنودٍ متعبين، ومسيرٍ طويل. ومع ذلك، فلم يتمكن الهولنديون من خرق خطوطهم، وتخلوا عن مطاردتهم حتى الليل، من غير أن يستولوا على أي علم، أو أن يأسروا جندياً واحداً، إذا لم يكن جريحاً.

وفي المساء، أخذ الصديقان اللذان جلسا في خيمةٍ مع بعض الضباط يتبادلان الحديث في المعركة التي كانا حاضرين فيها. وقد توجه اللومُ إلى التدابير التي اتخذها قائدُ الجند في ذلك اليوم، وتوصل الجميعُ إلى كل ما كان يجب أن يُتخذ بعد المداولة. وانتقلوا بعد ذلك إلى الحديثِ عن الموتى والجرحى.

وقال دون جوان: بالنسبة للقائد غومار، لسوف أحزنُ عليه طويلاً، فقد كان ضابطًا باسلاً، ورفيقًا طيبًا، وأبا حقيقيًا لجنوده.

فقال دون غارسيا: أجل إني أعترف لكم بأن الدهشةَ لم تعترني يومًا إلى هذه الدرجة الكبيرة إلا عندما رأيته شديد الغمّ، لأنه لايرى امرأة ترتدي الحداد عليه، إلى جانبه.

وهذا ما يثبتُ أمراً وهو أنه من السهل على المرء أن يكون شجاعًا في الأقوال أكثر من أن يكونه في الأفعال، فهناك من يسخرُ من الخطر البعيد، ولكنه يخافه حين يقترب. وبالمناسبة، يا دون جوان، فهل تقول لنا ماذا يوجد في الصرة التي تركها لك، بما أنك وريثه؟

فتحها دون جوان للمرة الأولى حينذاك، ورأى أنها كانت تحتوي تقريبًا ستين قطعةً ذهبية.

فقال دون غارسيا الذي اعتاد أن ينظر إلى مال صاحبه وكأنه ماله الخاص: بما أننا نمتلك الآن رصيداً، لماذا لا نلعبُ شوطًا من الفرعونية[1]، بدلاً من التباكي بهذا الشكل ونحن نفكر بأصدقائنا الموتى؟

لاقى الاقتراح استحسانًا لدى الجميع، فأتوا ببعض الطبول، وغطوها بمعطف، واستخدموها كطاولةٍ للعب. وقد بدأ دون جوان اللعبةَ أولاً، وكان دون غارسيا يقدّم له النصح. ولكنه قبل أن يتحدى صاحبَ الصندوق، سحب عشر قطع ذهبية، ولفها بمنديله، ووضعها في جيبه.

(١) - لعبة من ألعاب الورق. (م: ز.ع).

فصرخ دون غارسيا: وماذا تريدُ أن تفعل بها، وحق الشيطان؟ أجنديٌّ يدّخر المال! عشيةَ معركة!

- أنت تعلم، يا دون غارسيا أن هذا المال ليس كله لي، فقد ترك القائد غومار وصيةً مشروطةً بالتزاماتٍ معينة، كما نقول في سالامانكا.

فصرخ دون غارسيا: فليُصَبْ المغرورُ بالطاعون! أظن، وليأخذني الشيطان، أنه ينوي أن يعطي تلك الليرات العشر لأول كاهنٍ نصادفه.

- ولم لا؟ لقد وعدت بذلك.

- اصمت، وحقي، إنك تخجلني، ولا أتعرّفك.

وبدأت اللعبةُ، وكانت الحظوظُ في البداية متبدلةً، وسرعان ما اندارت بصورةٍ مؤكدة ضد دون جوان، وأمسك دون غارسيا بالورق كي يقطع سير الخطّ، ولكن من غير طائل، فبعد مضي ساعةٍ من الزمن، انتقلت كلُّ النقود التي يمتلكانها، بالإضافة إلى الخمسين ريالاً التي كانت للقائد غومار، انتقلت إلى يدي صاحب الصندوق. وكان دون جوان يريدُ أن يذهب للنوم، غير أن دون غارسيا كان مغضباً، ويطمحُ إلى الثأر، ولاستعادة ما خسره.

فقال: هيا، فلنر تلك الريالات الأخيرة التي خبأتها جيداً. أنا واثق من أنها ستحمل لنا الحظ الحسن.

- فكر يا دون غارسيا أنني وعدت! . . .

- هيا، هيا، يا لك من طفل! إن المسألة تدور الآن فعلاً على القداديس. إن القائد، لو كان هنا، لنهب كنيسةً بدلاً من أن يترك ورقة دون أن يتحدى بها.

فقال دون جوان، هذه خمسة ريالات، فلا تخاطر بها بضربةٍ واحدة.

فقال دون غارسيا: «لا مجال للضعف! ووضع الريالات الخمسة على ورقة الملك. فربح، وضاعف الرهان، ولكنه خسر الضربة الثانية.

فهتف، وقد شحب لونه من الغضب: لنر الخمسة ريالات الأخيرة. فقدّم دون جوان بعضَ الاعتراضات التي ذلّلها دون غارسيا بسهولة. فرضخ دون جوان، وأعطاه أربعة ريالات ما لبثت أن لحقت بالريالات الأولى. أما دون غارسيا، فقد رمى الورق في وجه صاحب الصندوق، ونهض ساخطًا. وقال لدون جوان: «لقد كنتُ دومًا محظوظًا، وقد سمعتُ أن الريال الأخير له قدرةٌ كبيرة على تبديل الحظ.

وكان دون جوان غاضبًا مثله على الأقل، فلم يعد يفكر بالقداديس، وبالعهد الذي قطعه. فوضع على ورقةِ أس الريال الوحيد المتبقي، وخسره في الحال.

وصرخ: فلتذهب إلى الشيطان روحُ القائد غومار! أظن أن ماله كان مسحورًا!... وسألهما صاحبُ الصّندوق إن كانا يرغبان في أن يلعبا أيضًا. ولكن، بما أنه لم يعدْ لديهما نقود، ومن الصعب إقراضُ الناس الذين يتعرضون للإفلاس كل يوم، فقد كان يتعين عليهما أن يتخلّيا عن اللعب، ويسعيا للتسرية عن نفسيهما بين السّكيرين.

وهكذا فقد نُسيت نفسُ القائد المسكين تمامًا.

وبعد بضعة أيام، استأنف الإسبانُ هجومهم، بعد أن تلقوا التعزيزات، وساروا إلى الأمام، فاجتازوا الأماكن التي هزموا فيها، ولم يكن الموتى قد دفنوا بعد. وكان دون غارسيا ودون جوان يحثان جواديهما كي يهربا من تلك الجثث التي كانت تخدشُ العين والأنف في آنٍ واحد، عندما أطلق جنديٌّ كان يسبقهما صرخةً كبيرةً لدى رؤيته لجسم يرقد في حفرة، فاقتربوا وتعرّفوا القائد غومار. مع أنه كان مشوّهًا تقريبًا، وكانت ملامحه المتغيرةُ والمتصلّبة بسبب تشنجاتٍ رهيبة تدل على أن لحظاته الأخيرة كانت مصحوبةً بآلام فظيعة. ومع أن دون جوانٍ كان قد تآلف مع مشاهدَ من ذلك النوع، فلم يستطع أن يمنع نفسه من الارتجاف لدى رؤيته لتلك الجثة التي كانت عيناها الكامدتان، والمليئتان بالدمِ المتخثر تبدوان موجهتين نحوه بصورة متوعدة. وتذكر التوصياتِ الأخيرة لذلك القائد المسكين، وكيف أهمل تنفيذها. ومع ذلك، فالقسوةُ المصطَنعة التي توصّل إلى ملء قلبه بها خلّصته سريعًا من

مشاعر تبكيت الضمير. فعمل بعجلة على حفرِ حفرةٍ لدفن القائد. وكان هناك راهبٌ كبوشي بالمصادفة، فتلا بعضَ الصلوات بسرعة. أما الجثةُ التي رُشّت بالماء المقدس، فقد تمت تغطيتها بالحجارة والتراب، وتابع الجنودُ طريقهم، وهم أكثر صمتًا مما كانوا عليه عادة، ولكن دون جوان يلاحظ أن رامي بندقية عجوزًا، بعد أن يبحث في جيوبه طويلاً، يجد ريالاً أخيراً ويعطيه الراهب الكبوشي وهو يقول له:

«هذا مقابل القداس الذي تلوته من أجل القائد غومار».

في ذلك اليوم، دلّل دون جوان على إقدامٍ فائقٍ، وعرّض نفسه لنار العدو بقليل من الحيطة، وكأنه يريدُ أن يُقْتَل.

كان رفاقه يقولون: «يكون المرءُ جسوراً، حين لايعودُ لديه قرشٌ واحد».

وبعد مدّة قصيرة من موت القائد غومار، قُبِل جندي شابٌ كمتطوعٍ في الجماعة التي كان دون جوان ودون غارسيا يخدمان فيها، وكان يبدو حازمًا وغير هيّاب، ولكنه ذو طبعٍ متكتّمٍ وغامض. ولم يكن يراه أحد وهو يشرب، أو يلعبُ مع رفاقه. وكان يمضي ساعاتٍ كاملة وهو ينظرُ إلى الذباب الذي يطيرُ، أو في تشغيل زنادِ بندقيته. أما الجنودُ الذين كانوا يهزؤون منه بسبب تحفظه، فقد كانوا يطلقون عليه لقب موديستو[1]. وكان يعرفُ بذلك الاسم في الجماعة، وحتى رؤساؤه لم يكونوا يطلقون عليه اسمًا آخر.

انتهت الحملةُ بحصارِ برغ - أوب - زوم والذي كان، كما نعلم، أحد الحصارات الأشدّ فتكًا في تلك الحرب، فقد دافع المحاصرون عن أنفسهم بأكبرِ بسالةٍ ممكنة. وفي إحدى الليالي، كان الصديقان معًا يؤديان خدمتهما في الخندق الذي كان حينذاك شديد القرب من أسوار الساحة بحيث أصبح موقعهما من أكثر المواقع خطورة، وكان خروج المحاصرين يتكرّر كثيراً، ونارهم حامية، وموجهة توجيهًا جيداً.

---

(١) - أي: المتواضع. (م: ز.ع).

انقضى الهزيع الأول من الليل باستنفارات متواصلة، ثم أن المحاصَرين والمحاصِرين بدا أنهم قد استسلموا معًا للتعب، فتوقف إطلاقُ النار من كلا الجانبين، وسيطر سكونٌ عميق على السهل بكامله. ولم تكن تقطعه سوى رشقات متفرقة لم يكن لها من هدف آخر غير إثبات أن أعمالَ الحراسة الجيدة لا تزالُ مستمرةً، مع أن القتالَ قد توقف. وكانت الساعةُ هي الرابعة صباحًا تقريبًا، وهي اللحظة التي يشعر فيها من قام بالحراسة بإحساسٍ بالبرد شاق، يرافقه نوعٌ من الضنى النفسي ناتجٌ عن الإرهاق الجسماني، والرغبة في النوم، فما من عسكريٍّ صادق لا يوافقُ على أنه، في أوضاعٍ كتلك الأوضاع، قد أحس بأنه يمكن أن يُبدي ضعفًا خجل منه بعد شروق الشمس.

«هتف دون غارسيا وهو في مكانه يرواحُ كي يستدفئ، ويشدّ معطفه حول جسمه: تبًّا لهذا، أشعرُ أن نخاعي يتجمَّد في عظامي، وأظنّ أنه يمكن لفتى هولندي أن يتغلب عليّ بجرة بيرةٍ كسلاح وحيد لديه. وفي حقيقةِ الأمر، فأنا لم أعد أتعرف نفسي. وها إن تبادلا لإطلاق النار بالبنادق يجعلني أرتعدُ، والحقّ أنني لو كنتُ تقيًّا لما احتجتُ لأحدٍ غيري كي أعدّ الحالة الغريبة التي أجدُ نفسي فيها هي تحذيرٌ من الأعالي».

إن كلّ أولئك الذين كانوا حاضرين، وخصوصًا دون جوان، كانوا مدهوشين إلى أقصى حدّ لدى سماعهم له وهو يتحدّثُ عن السماء، فقلّما كانت تهمه، أو إذا ما تحدّث عنها، فذلك كي يسخر منها. وما إن لاحظ أن عددًا من الحاضرين كان يبتسمُ لكلامه، حتى هتفَ، مدفوعًا بشعورٍ بالغرور:

على أية حال، لا يخطرن على بال أحد أن يظنّ أني أخاف الهولنديين، أو الله، أو الشيطانَ، لأن لدينا حساباتنا التي سنسويها معًا، عند تبديل الحرس!

وقال قائدٌ عجوزٌ ذو شاربين أبيضين، ويحملُ سبحةً معلقة إلى جانب سيفه: هذا أمرٌ مقبول فيما يخصُّ الهولنديين، أما بالنسبة للربّ، وللآخر، فمن المسموح به حقًّا أن يخافهما المرءُ.

فسأل دون غارسيا: وأيُّ أذًى يمكن أن يلحقاه بي، فالرعدُ لايحسنُ الإصابة مثل البندقية البروتستانتية.

فقال القائد العجوز، وهو يرسم إشارةَ الصليب، لدى سماعه لذلك التجديف الفظيع:

- وروحك؟

- أه! بالنسبة لروحي... لابدّ لي قبل كلّ شيء أن أكون متأكداً من أن لي روحاً، فمن قال يوماً إني أمتلك روحاً؟ إنهم الكهنةُ، وابتكار الروح يجلبُ لهم واردات جيدةً بحيث لايشكّ أحدٌ بأنهم هم مخترعوها، كما اخترع صانعو الحلويات الفطائر كي يبيعوها.

فقال القائد العجوز:

- سوف تنتهي نهايةً سيئة، يا دون غارسيا، فهذه الأقوالُ لاينبغي أن تقال على خطوط القتال.

- إني أقول ما أرى، سواء كان ذلك على خطوط القتال، أم في مكان آخر، ولكني ألتزمُ الصمتَ، فها هو رفيقي دون جوان الذي ستسقطُ قبعتهُ عن رأسه لشدة انتصاب شعر رأسه. فهو لايؤمنُ فقط بالروح، بل يؤمنُ أيضاً بأرواح المطهر.

فقال دون جوان ضاحكاً: أنا لستُ عقلاً لامعاً، وأحسدُ أحياناً لامبالاتك السامية بأمور العالم الآخر. فأنا أعترفُ لك، حتى لو سخرت مني، بأن هناك لحظات يسببُ لي فيها ما يُروى عن الهالكين هواجسَ غير مستحبّة.

- إن أفضلَ دليلٍ على سلطةِ الشيطان القليلة هو أنك واقفٌ في هذا الخندق.

وأضاف دون غارسيا، وهو يربت على كتف دون جوان:

أقسم لكم، أيها السادة، أنه لو كان هناك شيطانٌ، لأخذ هذا الصبي منذ زمن، فمع أنه لايزال فتى، فإني أقدّمه لكم كونه مرتداً حقيقياً عن الكنيسة، فلقد

أفسد عدداً من النساء، ووضع عدداً من الرجال في التوابيت أكثر مما كان يفعله راهبان فرنسيسكانيان، وشابان مقدامان من فالانسيا.

كان لايزال يتكلم، عندما انطلقت طلقةُ بندقيةٍ من جهة الخندق الذي يجاور المعسكر الإسباني، فوضع دون غارسيا يده على صدره، وصرخ:

«لقد جُرحت!».

وترنحّ، ثم سقط تقريباً في الحال. وفي الوقت نفسه، شوهد رجلٌ يهرب، غير أن الظلمة سرعان ما حجبته عن أولئك الذين كانوا يلاحقونه.

بدا جرحُ دون غارسيا مميتاً. فقد أطلقت عليه النارُ من مكان قريبٍ جداً، وكان السلاحُ محشواً ببضعِ رصاصات، ولكن صلابةَ ذلك الفاسقِ الممعن في فسقه لم تناقض نفسها لحظةً واحدة، فصرف بعيداً أولئك الذين كانوا يحدثونه عن الاعتراف، وكان يقول لدون جوان:

– إن أمراً واحداً يزعجني بعد موتي، وهو أن الرهبان الكبوشيين سوف يقنعونكم بأن ماحدثَ لي هو حكمٌ إلهي ضدي. فلتتفقوا معي على أن أكثرَ الأمور طبيعيةً هي أن يقتل إطلاقُ النار بالبندقية جندياً. يقولون إن الطلقة قد أُطلقت من بين صفوفنا، فلا ريب أن حاسداً حاقداً هو الذي عمل على اغتيالي، فاشنقوه عالياً وبسرعة، إذا قبضتم عليه. اصغِ يا دون جوان. إن لديّ عشيقتين في أنفير، وثلاث في بروكسل، وغيرهن في أمكنةٍ أخرى لم أعد أتذكرها جيداً... فذاكرتي تضطربُ... وإني أتركهنّ لك... إذ ليس عندي ما هو أفضل... وخذ أيضاً سيفي... وخصوصاً لا تنسَ ضربة السيف التي علمتك إياها... وداعاً... وبدلاً من القداديس، ليجتمع رفاقي إلى حفلةِ قصفٍ مجيدةٍ بعد دفني.

كانت تلك تقريباً هي كلماته الأخيرة، أما عن الله، والعالم الآخر، فلم يعد يعبأ بهما أكثر مما فعله حين كان منعماً بالحياة والقوة، فمات والابتسامةُ على شفتيه، فقد كان الغرورُ يعطيه القوة للتمسك حتى النهايةِ بالدورِ المقيت الذي كان قد لعبه

زمنًا طويلاً. ولم يعد موديستو للظهور ثانية، وكان الجيشُ بأكمله مقتنعًا بأنه قاتلُ دون غارسيا، ولكن الجميع كانوا غارقين في افتراضاتٍ لاجدوى منها حول الدوافعِ التي دفعته لارتكابِ جريمة القتل تلك. تحسّر دون جوان على دون غارسيا أكثر مما كان يمكنه أن يتحسّر على شقيقٍ له. وكان ذلك الأحمق يقول في نفسه: إنه يدين لدون غارسيا بكلّ شيء، فهو الذي أطلعه على خفايا الحياة، ونزع عن عينيه القشرةَ السميكة التي كانت تغطيهما. وكان يتساءل: «ماذا كنتُ قبل أن أعرفك؟»، ويقول له كبرياؤه إنه قد أصبح كائنًا متفوقًا على الناس الآخرين.

وأخيراً، فإن كلّ الشرّ الذي سببته له معرفةُ ذلك الكافر، كان يحولّهُ إلى خيرٍ، وكان معترفًا بجميله مثلما ينبغي لتلميذٍ أن يكون حيال معلمه.

إن الانطباعاتِ المحزنة التي تركتها لديه تلك الميتةُ المفاجئةُ قد ظلّت زمنًا طويلاً في ذهنه كي تضطره لتغييرِ نمطِ حياته خلال بضعة أشهر. غير أنه رجع شيئًا فشيئًا إلى عاداته القديمة التي غدت في ذلك الوقت متجذرة فيه إلى درجةٍ كبيرة بحيث لا يمكن لحادثٍ أن يغيّرها. فعاد إلى المقامرة، وإلى الشرب، وإلى مغازلةِ النساء، ومقاتلة الأزواج. وكانت لديه، كلّ يوم، مغامراتٌ جديدة، فهذا اليومَ يصعدُ إلى ثغرةٍ جدارية، وفي اليوم التالي، يتسلقُ شرفةً، وفي الصباح، يتسايفُ مع أحد الأزواج، ويشرب في المساء مع بناتِ الهوى.

لقد علم، وهو في خضمّ فجوره، بأن والده قد مات، وأن والدته لم تعش بعده أكثر من بضعة أيام، بحيث تلقى الخبرين في آنٍ واحد. أما رجالُ الأعمال الذين يتوافقون معه في ميوله الخاصة، فقد نصحوه بأن يرجع إلى إسبانيا، وأن يستلم إقطاعيةِ الولد البكر، والأملاك الكبرى التي أصبح وارثًا لها، فمنذ زمنٍ طويل، كان قد حصل على العفوِ عن جريمة قتل دون ألونسو دو أوجيدا، والد دونيا فوستا، وكان ينظرُ إلى تلك المسألة على أنَّها منتهيةٌ تمامًا. زد على ذلك أنه كان يرغبُ في أن يتدرّب على مسرحٍ أكبر، فكان يفكر بملذات إشبيليا، وبالحسناواتِ العديدات اللواتي لم يكنّ ينتظرن إلا قدومه بلا شك كي يستسلمن له حسبَ

رغبته. فترك العمل في الجيش إذن، ومضى إلى إسبانيا، فأقام بعض الوقت في مدريد. وكان محطَّ الأنظار في سباقٍ للثيران، من خلال فخامة بدلته ومهارته في الهمز. وقد بُهر الصغار والكبار بأبهته وبهائه. وفي كلّ يوم، كان يقيمُ حفلاتٍ جديدةً يدعو إليها أجملَ السيدات في الأندلس. وفي كلّ يوم، كانت هناك ملذاتٌ جديدة، وحفلاتُ قصف جديدة في قصره الرائع. وأصبح ملك جمهرةٍ من الفاسقين الذين صاروا يطيعونه بانقيادٍ تكثرُ ملاحظته غالبًا في جماعاتِ الأشرار، بعد أن كانوا خارجين على النظام، وغير قابلين للانضباط مع كلّ الناس. وأخيراً، فلم يكن هناك سلوكٌ فاسقٌ لم ينغمس فيه. ولكونه غنيًا متهتكًا، فهو لم يكن خطراً على نفسه فقط، لأن المثل الذي ضربه كان يفسد الشبيبة الأندلسية التي كانت ترفعه إلى السحب، وتتخذُ منه قدوةً لها. فما من شكٍّ أنه كان لابدّ من مطرٍ ناري لإقامة العدل على أعمال الفساد والجرائم في إشبيليا، لو أن العنايةَ الإلهية احتملت فجوره وقتًا أطول. أما المرضُ الذي احتجز دون جوان في سريره لبضعة أيام، فلم يوحِ له بالرجوع إلى نفسه، بل على العكس من ذلك، فهو لم يكن يطلبُ من طبيبه أن يعيد إليه الصحةَ إلا ليشتط في سلوكه مجدداً.

وخلال مدّة نقاهته، تسلّى بإعداد قائمة بكل النساء اللواتي أغواهن، وبالأزواج الذين خدعهم. وكانت القائمةُ مقسمةً إلى عمودين بصورةٍ منهجية. في أحدهما، كانت أسماء النساء، وأوصافهن المقتضبة، وإلى جانبهن أسماء أزواجهن ومهنتهم. وقد وجد منشقةً كبيرة في أن يعثر في ذاكرته على أسماء كلّ أولئك المنكودات الحظ. ويظن أن ذلك الفهرس كان بعيداً عن أن يكون كاملاً. وذات يوم، عرضه على أحد أصدقائه الذي أتى ليزوره. وبما أنه قد حصل في إيطاليا على حبٍّ امرأة تجرأت على الافتخار بأنها كانت عشيقة أحد البابوات، فقد كانت القائمةُ تبدأُ باسمها. أما اسم البابا فكان وارداً في قائمة الأزواج. ثم أتى اسمُ أميرٍ حاكم، ثم حاملو ألقاب دوق وماركيز، وصولاً إلى الفنانين أخيراً.

وقال لصديقه: انظر، يا عزيزي، انظر، لم يستطع أحدٌ أن يُفلت مني، بدءاً من البابا، حتى الحذّاء، وما من طبقةٍ لم تقدّم لي حصتها.

فعاين دون توريبيو - وهو اسم ذلك الصديق - الفهرسَ، وأعادهُ إلى دون جوان، وهو يقول بلهجة ظافرة: إنه ليس كاملاً!

- كيف! ليس كاملاً، من ينقصُ إذن في قائمة الأزواج التي أعددتها؟

فأجاب دوتوريبيو: الرب.

- الرب؟ هذا صحيح، فليس في الفهرس راهبة. تبًا! أشكرك لأنك أعلمتني بذلك، حسنًا، أقسم لك، بشرفي كنبيل، أنه قبل أن يمرّ شهرٌ، سيكون واردًا في قائمتي، ومثل سيدنا البابا، وأن أجعلك تتناولُ العشاء هنا، مع راهبة، ففي أي ديرٍ من أديرة إشبيليا، نجد راهباتٍ جميلات؟

وبعد بضعة أيام، كان دون جوان في جولةٍ، وأخذ يتردد إلى كنائس أديرة النساء، وركع قريبًا من الشبكات التي تفصل زوجات الرب عن باقي المؤمنين. وهناك، أخذ يُلقي نظراتٍ سفيهةً على تلك العذارى الخجولات، ويبحثُ عن النعجة السمينة أكثر من غيرها كي يذبحها مثل ذئب يدخل إلى حظيرة. ولا بدّ أنه قد لاحظ سريعًا، في كنيسة نوتردام دو روزير راهبةً شابة ذات جمال أخاذٍ يزداد أيضًا بذلك المظهر الذي ينمّ عن كآبة مبهمة، منتشرة على قسمات وجهها كافةً، فلم تكن قط ترفعُ عينيها ولا تديرهما يمينًا أو شمالاً، بل كانت تبدو غارقةً تمامًا في ذلك القداس الإلهي الذي كانوا يقيمونه أمامها، وكانت شفتاها تتحركان تحركًا لطيفًا، وكان من السهل أن يرى المرء أنها تصلي بحرارةٍ ورقة أكثر من كلّ رفيقاتها. وأعادت رؤيتها ذكريات قديمةً إلى ذهنِ دون جوان. وبدا له أنه قد رأى تلك المرأة في مكانٍ آخر. غير أنه كان من غير الممكن بالنسبة إليه أن يتذكر في أيّ زمن، وأيّ مكان قد حدث ذلك. ورجع إلى الكنيسة ليومين متتاليين، وأخذ مكانه دومًا بقرب الحاجز المشبّك دون أن يكون بمقدوره جعلَ الأخت أغاتا ترفعُ عينيها، فقد عرف أن ذلك كان اسمها.

إن صعوبة الظفر بامرأةٍ يحميها موقعها وتواضعها لم يكن له إلا أن يزيدَ شهواتِ دون جوان إثارةً. وكان الأمر الأكثر أهميةً والأكثر صعوبة أيضًا هو أن يجعلها تَلاحظُ وجوده.

كان غروره يقنعه بأنه لو تمكّن من لفت انتباه الأخت أغاتا فحسب، لتحقق له أكثر من نصف النصر. وإليكم الوسيلة التي رأى أن يستخدمها كي يجبر تلك المرأة الجميلة على رفع عينيها، فاتخذ له مكانًا هو أقرب ما يمكن أن يكون إلى جانبها، ومرر يده من بين عوارض الحاجز المشبك، وسكب أمام الأخت أغاتا محتوى قارورة عطرٍ كان قد جلبها معه، مستفيداً من لحظة السموّ التي يركعُ فيها الجميع، فأجبرت الرائحةُ النافذةُ التي انتشرت فجأة الراهبةَ الشابةَ على رفع رأسها، وبما أن دون جوان كان يقفُ بالضبط في مواجهتها، فلم يكن بإمكانها إلا أن تلمحه. فارتسمت في البداية دهشةٌ شديدةٌ على كلّ قسمات وجهها، ثم انتابها شحوبٌ مميتٌ، فأطلقت صرخةً ضعيفةً، وسقطت مغشياً عليها فوق البلاط، فهرعت رفيقاتُها إليها، وحملنها إلى صومعتها. أما دون جوان، فقد كان يقولُ في نفسه وهو ينسحبُ مسروراً من نفسه:

إن هذه الراهبة فاتنةٌ حقًّا، غير أني كلما رأيتها أكثر، كلما بدا لي أنها لا بدّ أن تكون موجودةً في فهرسي.

وفي اليوم التالي، أتى إلى الحاجز المشبك في ساعة القداس بالضبط، بيد أن الأخت أغاتا لم تكن في مكانها المعتاد، على الصف الأول من صفوف الراهبات. ومع ذلك، فقد لاحظ دون جوان أنها كانت غالبًا ما تختلسُ نظرةً سريةً، فاستنتج من ذلك فألاً حسنًا ومؤاتيًا لهواه، وأخذ يفكر قائلاً: إن الصغيرة تخشاني، ولسوف تصبحُ سلسةَ القياد بعد قليل.

وما إن انتهى القداسُ، حتى لاحظ أنها قد دخلت إلى كرسي الاعتراف، ولكنها مرت قريباً من الحاجز المشبك كي تصل إليه. وجعلت سبحتها تسقطُ منها، وكأن ذلك عن غفلةٍ منها، وكان لدون جوان خبرةٌ كبيرةٌ بحيث لم يكن ممكنًا أن يُخدع بذلك الشرود المزعوم. وظنّ في البداية أنه من المهم بالنسبة إليه أن يحصل على تلك السبحة، غير أنه كان موجوداً في الجهة الأخرى من الحاجز المشبك وأحسّ بأنه كان لا بدّ من انتظار خروج الجميع من الكنيسة كي يلتقطها. وبانتظار

تلك اللحظة، أسند ظهره إلى أحد الأعمدة في وقفة تأملية، وقد وضع يده على عينيه. ولكن أصابعه كانت مُبعدةً قليلاً بحيث لم تكن تفوته أيةُ حركةٍ من حركات الأخت أغاتا، وإن أيَّ شخصٍ كان يمكنه أن يراه في تلك الوضعية يظنه مسيحيًا مؤمنًا غارقًا في تأملات ورعة.

وخرجت الراهبةُ من كرسي الاعتراف، وتقدمت بضعَ خطوات كي ترجعَ إلى داخل الدير، ولكنها لاحظت سريعًا، أو تظاهرت بأن سبحتها قد فُقدت منها، فأخذت تنظرُ في كلّ اتجاه، ورأت أن السبحة بجانب الحاجز المشبكَ، فرجعت وانحنت كي تلتقطها. وفي اللحظة نفسها، لاحظ دونَ جوان شيئًا أبيضَ يمرُّ تحت الحاجز، وكان ذلك ورقةً صغيرة جداً مثنيةً لمرّتين، وانسحبت الراهبةُ في الحال.

أما الفاسقُ الذي فوجئ بنجاحه السريع الذي لم يكن يتوقعه، فقد أحسّ بنوعٍ من الأسف لأنه لن يصادف عوائقَ أخرى من بعد، وهو على وجه التقريب مثل ذلك الأسف الذي يشعرُ به صيادٌ يطاردُ أيلاً، ويحسب حسابًا لمطاردة طويلة شاقة، وفجأة، يسقط الحيوانُ، ما إن يُرشقَ بالسهم، فينزع من صياده بهذه الصورة اللذة والجدارة اللتين وعد بهما نفسه من خلال المطاردة، ومع ذلك، فقد التقط دون جوان البطاقة بعجلةٍ، وخرج من الكنيسة. ليقرأها بارتياح، وهاكم ما كانت تحتوي:

«أهذا أنت، يا دون جوان؟ أصحيحٌ أنك لم تنسني إذن؟ لقد كنتُ تعسةً جداً، ولكني بدأت أعتاد على مصيري، ولسوف أصبح الآن أكثر تعاسةً بمئة مرة، ويتوجب علي أن أكرهك... لقد أهرقتَ دمَ والدي... غير أني لا أستطيع أن أكرهك، وأن أنساك، فارأف بي. ولا تعد ثانيةً إلى هذه الكنيسة. إنك تسبب لي ألمًا فائقًا، فوداعًا، وداعًا، فقد رحلتُ عن هذا العالم».

«تيريزا»

فقال دون جوان في نفسه: «إنها تيريزيتا، كنت أعلمُ أنني رأيتها في مكانٍ ما».

ثم أعاد قراءة البطاقة: «يتوجب عليّ أن أكرهك» أي إنني أهيمُ بك حبًا.

لقد أهرقتَ دمَ والدي! . . . كانت شيمين[1] تقول مثل ذلك لرودريغ: «لاتعد بعد الآن إلى هذه الكنيسة». أي: أنتظرك غدًا. حسنًا جدًا! إنها لي.

ومضى لتناول العشاء عند ذاك.

وفي اليوم التالي، وصل إلى الكنيسةِ في الوقت الملائم تمامًا، وهو يحملُ رسالةً مُعدَّةً سلفًا في جيبه، غير أن دهشته كانت كبيرةً عندما لم يرَ الأخت أغاتا تظهر. فلم يبد له قط قداسٌ أطولَ من ذلك القداس. وكان شديدَ الغضب. وبعد أن لعن مئةَ مرةٍ همومَ تيريزا، ذهب ليتنزه على ضفافِ الوادي الكبير، كي يبحثَ عن وسيلةٍ ما، وهذه هي الوسيلةُ التي توقف عندها.

كان دير نوتردام دوروزير مشهوراً بين أديرةِ إشبيليا بالمربَّيات الممتازة التي كانت الأخوات الراهبات يحضرنها، فذهب إلى الردهة، وطلب راهبةَ البوابة، وتوصل إلى الحصول على قائمة تحتوي كلَّ أنواعِ المربيات التي كانت لديها للبيع، وسأل بلهجةٍ لا تفوقها أيةُ لهجةٍ في تلقائيتها «أليس لديكم ليمون على طريقةِ مارانيا؟»

- ليمون على طريقة مارانيا، يا سيدي الفارس؟ هذه هي المرة الأولى التي أسمعُ فيها حديثًا عن مربياتٍ من هذا النوع.

- لاشيء أكثر منه تمشيًا مع الدُّرْجةِ مع ذلك، وإني لمندهشٌ من أنكم لاتصنعون الكثيرَ منه في ديرٍ كديركم.

- ليمون على طريقة مارانيا؟

---

(١) - شيمين ورودريغ شخصيتان من مسرحية «السيِّد» الشهيرة، والتي تناولها مسرحيون عدةّ، منهم كورني الفرنسي، وقبله غيليم دوكاسترو الإسباني، وتتركز على الصراع بين الحب والواجب، خصوصًا عند كورني (م: ز.ع).

فردّد دون جوان وهو يشدّد على كلّ مقطع: على طريقة مارانيا. من غير الممكن ألا تعرف إحدى راهباتكم المقادير لصناعته. فاسألي، أرجوك، تلك السيدات، إن كنّ يعرفن تلك الأنواع من المربيات، وغداً سأمرّ عليكم ثانيةً.

وبعد بضع دقائق، لم يعد يدور الأمر في الدير بكامله إلا على الليمون بطريقة مارانيا. وأفضل صانعات المربى لم يكنّ قد سمعن عنه قطّ شيئًا. أما الأخت أغاتا فقد كانت الوحيدة التي تعرف طريقة صنعه، فكان يلزم أن يضاف ماء الورد، وبعض البنفسجات إلخ... إلى ليمونات عادية. فتكفّلت بصنع كلّ شيء. أما دون جوان، فعندما رجع، وجد إناء الليمون على طريقة مارانيا. وكان، في الحقيقة، مزيجًا، كريه الطعم، وتحت غطاء الإناء، كانت هناك بطاقة مكتوبة بخط تيريزا، وكان فيها ترجيات جديدة لدون جوان كي يتخلى عنها، وينساها فقد كانت الفتاة المسكينة تبحث عما تخدع به نفسها. وكان التدين والبرّ بالوالدين والحبّ تصطرع في قلب تلك التعسة. غير أنه كان من السهل أن يلاحظ أن الحبّ هو الأقوى. ففي اليوم التالي، أرسل دون جوان أحد غلمانه إلى الدير، وهو يحمل صندوقًا يحتوي على حبّات الليمون التي كان يريد أن يصنع منها المربى، وكان يوصي خصوصاً أن تصنعه الراهبة التي حضّرت المربيات التي اشتراها في اليوم السابق، وفي أسفل الصندوق، كان هناك جواب على رسائل تيريزا مخبأ بمهارة. وكان يقول فيه: «لقد كنت شديد التعاسة، والقدر هو الذي ساق ذراعي، فمنذ تلك الليلة المشؤومة، لم أكف عن التفكير بك ولم أكن أجرؤ على الأمل بأنك لن تكرهيني. وأخيراً، عثرت عليك. فكفّي عن الحديث معي على العهود التي قطعتها لك، فقبل أن تنخرطي في خدمة المذابح المقدّسة، كنت مرتبطةً بي... وها أنا آتي لأطالب بثروة أؤثرها على الحياة. فإما أن تُعادي إليّ، أو أهلك، وغداً سآتي كي أطلبك في ردهة الدير. فلم أجرؤ على الحضور إليها قبل أن أُعلمك بذلك. وخشيت أن يفضحنا اضطرابك. فتسلحي بالشجاعة، وقولي لي إن كان يمكن رشوة راهبة البوابة.

وكانت هناك نقطتان من الماء، مسكوبتان بطريقة ماهرة على الورق تمثلان دموعًا مذروفةً أثناءَ الكتابة.

بعد بضع ساعات أتى حدائقيُّ الدَّير بالجواب لدون جوان، وعَرَضَ عليه خدماته، فراهبةُ البوابة لا يمكنُ رشوتُها، فوافقت الأختُ أغاتا على النّزول إلى ردهةِ الدّير، ولكن بشرطِ أن يكون ذلك لقولِ وتلقي وداعٍ أبديّ.

وظهرت التعسةُ تيريزا في ردهة الدَّير، وهي أقربُ إلى الموتِ منها إلى الحياة، وقد تعيّن عليها أن تُمسكَ بالحاجزِ المشبّك بيديها الاثنتين كي تسندَ نفسها. وكان دون جوان، الهادئ، والفاقدُ للإحساس، يتذوّقُ بلذّة الاضطرابَ الذي رماها فيه. وكي يخدعَ راهبةَ البوابة أولاً، تحدث بطلاقة عن الأصدقاء الذين تركتهم تيريزا في سالامانكا والذين كلفوه بأن يحملَ إليها تحياتهم، ثم قال بصوتٍ خفيض جداً وبسرعةٍ كبيرة لتيريزا، منتهزاً اللحظة التي ابتعدت فيها راهبة البوابة.

«لقد عزمتُ على القيامِ بكافة المحاولات لأُخرجك من هنا. وإذا كان لابدَّ من إضرامِ النار بهذا الدّير، فإني سأحرقُهُ. ولا أريد أن أسمع شيئًا. إنك تَخُصِّينني وبعد بضعة أيام، ستكونين لي، أو أهلَكَ دون ذلك. ولكن آخرين كثيرين سيهلكون معي».

اقتربت راهبةُ البوّابة، وكانت دونيا تيريزا تختنق، ولا تتمكن من أن تنطق بكلمة. ومع ذلك، فإن دون جوان كان يتحدّث بلهجةٍ غير مكترثة عن المربَّيات، وأعمال الإبرة التي كانت تشغل الراهبات. ويعدُ راهبةَ البوابة بأن يرسل إليها سبحاتٍ مقدّسة من روما، وأن يمنح الدير رداءً من البروكار لكساء راعية الجماعة القدّيسة في يوم عيدها. وبعد نصفِ ساعة من أحاديث مماثلة، حيا تيريزا بصورة تنمّ عن الاحترام والجديّة، وتركها في حالٍ من الاضطراب واليأس يصعبُ وصفها. وركضت لتغلق على نفسها في صومعتها. أما يدُها التي كانت مطواعةً أكثر من لسانها، فقد رسمت رسالةً طويلةً من العتابات والتوسلات والعويل. غير أنها لم تكن قادرةً على منعِ نفسها من الاعترافِ بحبها. وأخذت تطلبُ الصفّح عن

تلك الخطيئة بالفكر، بحيث شرعت تكفر عنها حقًّا، من خلال رفضها الاستجابة لتوسلات عشيقها.

أما الحدائقيّ الذي أخذ المراسلات الإجرامية على عاتقه، فقد أتى بجوابٍ سريعًا، وكان دون جوان يهدّدُ دومًا بالوصول إلى أقصى عنفٍ ممكن. وقد كان لديه مئة رجلٍ مقدام في خدمته. ولم يكن تدنيسُ الحرمات يُخيفه. فلسوف يكون سعيدًا إذا مات بشرط أن يضمّ حبيبته بين ذراعيه مرةً أخيرة. فماذا كان يمكنُ أن تفعلَ تلك الصبيةُ الضعيفةُ التي اعتادت أن تستسلمَ لذلك الرجل الذي تدلّهت به؟ كانت تمضي الليالي في البكاء. وفي النهار، لم تكن تتمكن من الصلاة، فصورةُ دون جوان كانت تلاحقها في كل مكان. وحتى حينما تكون بصحبةِ رفيقاتها في ممارساتهن للتعبد، فقد كان جسدها يقوم آليًا بحركاتِ شخصٍ يصلي، ولكن قلبه بكامله كان أسيراً لذلك الهوى المشؤوم.

وبعد بضعة أيام، لم تعد لديها القدرةُ على المقاومة، فأعلنت لدون جوان أنها مستعدة لكلّ شيء، فقد كانت ترى نفسها هالكةً على أية حال، وتقولُ في نفسها إنه إذا كان لابدّ من الموت، فمن الأفضل أن تحصل قبله على لحظة من لحظات السعادة. أما دون جوان، الذي استخفّه الفرح، فقد هيأ كلّ شيء لاختطافها، فاختار ليلةً لا قمرَ فيها. وجلبَ الحدائقيّ لتيريزا سلمًا من الحرير يُفترض به أن يُستخدمَ في اجتياز أسوار الدير. كما كانت هناك صرةٌ تحتوي ملابس مدنيةٌ من المفروض أن تُخبأ في مكانٍ متفقٍ عليه في الحديقة، فلا ينبغي التفكيرُ بالخروجِ إلى الشارع بملابس راهبة، فينتظرها دون جوان في أسفلِ السور، وعلى مسافةٍ معينة، يكون هناك مَحملٌ مقطورٌ إلى بغالٍ قوية، ومعدّ لإيصالها سريعًا إلى منزل ريفي. وهناك، تكون قد تملّصت من كلّ الملاحقات، فتعيشُ مطمئنةً وسعيدةً مع عشيقها. كانت تلك هي الخطة التي رسمها دون جوان بنفسه. وقد أوصى بصنع ملابس مناسبة وأجرى تجربةً على سلمِ الحبال، وأرفق ذلك بتعليماتٍ عن طريقةِ ربطه، وأخيراً، فهو لم يهمل شيئًا مما كان يمكن أن يؤمّن نجاحَ مشروعه. لقد كان الحدائقيُّ

موثوقًا، ويستطيع أن يكسب من حسن ائتمانه كثيراً بحيث لا يمكن أن يُشكّ به. بالإضافة إلى ذلك، فقد اتخذت تدابير كي يجري اغتياله في الليلة التي تلي الاختطاف، وأخيراً، كان يبدو أن تلك الحبكة قد دبِّرت بمهارة لا يمكن لأي شيء أن يخربها.

وكي يتحاشى دون جوان الشكوك، فقد مضى إلى قصر مارانيا، قبل يومين من ذلك اليوم الذي حدَّده للاختطاف، ففي ذلك القصر، كان قد أمضى أكبر جزء من طفولته، ولكنه لم يدخل إليه منذ رجوعه إلى إشبيليا. ووصل إليه عند حلول الليل. وكان أول اهتمامه هو تناول العشاء، ثم أمر بنزع ثيابه، ووضع نفسه في السرير. وكان قد أمر بإضاءة مشعلين من الشمع كبيرين في غرفته، وكان ثمة كتاب يحتوي حكايات فاسقة على المنضدة. وبعد أن قرأ بضع صفحات، وأحس أنه يوشك على الإغفاء، أغلق الكتاب، وأطفأ أحد المشعلين. وقبل أن يطفىء المشعل الثاني. جال بنظراته في الغرفة بكاملها وهو ذاهل. فجأةً، لمح من مخدع نومه اللوحة التي تمثل عذابات المطهر، وهي لوحة كان يتأملها في أغلب الأحيان، في طفولته. ورجعت عيناه، عن غير إرادة منه، إلى الرجل الذي كانت تنهش حية أحشاءه. ومع أن تلك الصورة كانت لا تزال توحي له حينذاك بالرعب أكثر مما كانت توحي له فيما مضى، فلم تكن عيناه تقدران على الكف عن النظر إليها. وفي الوقت نفسه، تذكر وجه القائد غومار، والتقلّصات المرعبة التي كان الموت قد حفرها على قسماته، وجعلته تلك الفكرة يرتعش، وأحس أن شعره يقف على رأسه، ومع ذلك، فقد استحضر شجاعته، وأطفأ الشمعة الأخيرة. آملاً أن تخلصه الظلمة من الصور البشعة التي كانت تعذبه. وزادت الظلمة أيضاً من رعبه. وكانت عيناه تتجهان دوماً نحو اللوحة التي لا يطيق رؤيتها، بيد أنها كانت مألوفة لديه إلى درجة كبيرة بحيث ارتسمت في مخيلته بجلاء، كما في وضح النهار. وحتى أنه كان يبدو له أحياناً بأن الوجوه المرسومة فيها تستضيء، وتغدو ساطعة، وكأن نار المطهر التي رسمها الفنان لهب حقيقي. وأخيراً، فإن اضطرابه قد بلغ حداً كبيراً بحيث نادى على خدَمه بصرخات عالية كي يخرجوا اللوحة التي كانت تسبب له

كثيراً من الهلع. وما إن دخلوا إلى غرفته، حتى خجل من ضعفه، وظنَّ أن هؤلاء الناس سوف يسخرون منه، إذا عرفوا أنه قد خافَ من لوحة. واكتفى بأن يطلب بنبرة صوتٍ طبيعي ما أمكنه ذلك، أن يُعادَ إشعالُ الشموع، وأن يُتركَ لوحده. وعاد إلى القراءة حينذاك. بيد أن عينيه وحدهما كانتا تجولان في الكتاب. أما ذهنه فكان مع اللوحة. وهكذا، أمضى ليلةً من غيرِ نوم، لأنه كان فريسةَ اضطرابٍ لايوصفُ.

وما إن طلع النهار، حتى نهض على عجل، وخرج إلى الصيد. وهدّأ من روعه التمرينُ، وهواء الصباح المنعش رويداً رويداً. وكانت قد اختفت الانطباعاتُ التي أثارتها لديه رؤيةُ اللوحة، عندما رجع إلى قصره. وجلس إلى المائدة، وشرب كثيراً. وكان قد ثملَ قليلاً عندما ذهب لينام. وكان هناك سريرٌ قد أُعدَّ في غرفةٍ أخرى بناءً على أمرٍ منه. وأغلبُ الظن أنه لم يكن يقوى على نقلِ اللوحة إليها. ولكن ذكراها ظلّت عالقةً في ذهنه، وكانت من القوةِ بحيث جعلته يظلّ مُستيقظًا أيضًا خلال قسمٍ من الليل.

ومع ذلك، فلم توحِ له تلك الصورةُ المرعبةُ بالتوبة عن حياته السابقة، فقد كان يهتمُّ دومًا بالاختطافِ الذي خطط له، وبعد أن أعطى خدمه كلَّ الأوامر الضرورية، ذهب بمفرده إلى إشبيليا، في قيظِ النهار، كي لايصلَ إليها إلا عند الليل. وبالفعل، كان الليلُ حالكًا حين مرَّ بقربِ برج ديل لورو الذي كان ينتظره فيه أحدُ خدمه، فعهد إليه بجواده، واستعلم عما إذا كان المحملُ والبغالُ جاهزةً. وحسب أوامره، فقد كان من المفروض أن تنتظره أغاتا في شارعٍ قريبٍ من الدير كي يتمكن من الذهاب إليه بسرعةٍ سيراً على قدميه مع تيريزا، وأن يكون ذلك الشارعُ ليس قريبًا بما يكفي لإثارةِ شكوكِ العسس، إذا ما صادفهما. كان كلُّ شيء مُعداً، وقد نُفّذت تعليماته بحرفيتها، ورأى أنه لايزالُ لديه ساعةُ انتظار، قبل أن يتمكن من أن يعطي تيريزا الإشارةَ المتفقَ عليها. وألقى أحدُ خدمه على كتفيه معطفًا كبيراً، بني اللون، ودخل بمفرده إلى إشبيليا عبرَ بابِ تريانا، وخبّأ وجهه بحيث لايتعرَّفه

أحدٌ. وأجبره الحرّ والتعب على الجلوس على مقعدٍ، في أحد الشوارع الخالية. وهناك، أخذ يصفر ويدندن ألحانًا حضرت إلى ذاكرته. ومن وقتٍ لآخر، كان ينظرُ إلى ساعته، ويلاحظ بأسًى أن العقربَ لا يتقدم تمشيًّا مع لهفته. . . وأتت فجأةً موسيقا كئيبة، واحتفالية لتقرعَ أذنيه، فميّز أولاً الأناشيدَ التي كرستها الكنيسةُ لمناسبات الدفن. وبعد قليل، دار موكبٌ طوافيّ حول زاوية الشارع، وتقدم نحوه. وكان صفّان من التائبين الذين يحملون شموعًا مضاءةً يسبقان تابوتًا مغطًى بالمخمل الأسود، وتحمله بضع شخصيات ترتدي ملابس على الطريقة القديمة، لها لحًى بيضاء، وتتقلد سيفًا على جنبها. وكان هناك رتلان من التائبين يُغلقان المسيرة وهم يرتدون ثياب الحداد، ويحملون شموعًا مثل الصفين الأولين. وكان ذلك الموكبُ كلُّه يتقدّم على نحوٍ بطيءٍ ووقور، ولم يكن صوتُ الأقدام مسموعًا على الأرض حتى كأنّ كلّ شخصيةٍ تنزلق انزلاقًا أكثر مما تتقدم سيرًا، وكانت الثنياتُ الطويلة، ثنياتُ الأردية والمعاطفُ تبدو جامدةً، مثل الملابس الرخاميةِ للتماثيل.

عند ذاك المشهد، أحسّ دون جوان أولاً بذلك النوع من التقزز الذي توحي به فكرةُ الموت لإنسان أبيقوري[1] النزعة، فنهض وأراد أن يبتعد، غير أن عددَ التائبين وأبهةَ الموكبِ أدهشاه، وأثار فضوله، وحين توجه الموكبُ نحو كنيسةٍ مجاورة انفتحت أبوابها بضجيج، أوقف دون جوان أحدَ الأشخاص الذين كانوا يحملون الشموعَ من كُمّه وسأل بأدبٍ عن الشخص الذي سيجري دفنه، فرفع التائبُ رأسه، وكان وجهه شاحبًا وعاريًا عن اللحم، مثل وجه إنسانٍ خارجٍ من مرضٍ طويل وأليم، وأجاب بصوتٍ ضريحي:

«إنه الكونت دون جوان دومارانيا».

فجعلت تلك الإجابة شعر دون جوان يقفُ على رأسه، غير أنه استعادَ برودةَ أعصابه، بعد لحظةٍ من الزمن، وأخذ يبتسمُ.

(١) - أبيقوري: من أنصار مذهب أبيقور الفيلسوف الإغريقي المادي الـذي يرفض كلّ ميتافيزيقا (م: ز.ع).

وقال في نفسه: لابدّ أني لم أسمع جيداً، أو أن ذلك الشيخَ قد أخطأ.

ودخل إلى الكنيسة في الوقت نفسه الذي دخل فيه الموكبُ. فتجدّدت الأناشيدُ الجنائزيةُ التي يرافقها صوتُ الأرغن الصارخ. وأخذ كهنةٌ يرتدون غفارات الحداد ينشدون De Pro Fundis[1] أما دون جوان فقد شعر أن دمه قد تجمدً، برغم الجهودِ التي بذلها كي يبدو هادئًا، واقترب من تائبٍ آخر، وقال له:

من هو إذن الميتُ الذي يجري دفنه؟ - فأجاب التائبُ بصوتٍ عميق ومخيف:

«الكونت دون جوان دومارانيا»، فاستند دون جوان إلى أحدِ الأعمدة كي لا يسقط، فقد كان يشعر أن قواه قد خمدت، وأن عزيمته كلها قد خارت. ومع ذلك، فقد استمرت خدمةُ القداس، وأخذت قبابُ الكنيسة تضخّم أيضًا صيحاتِ الأرغن والأصوات التي كانت ترتلُ: DIES IRAE[2] المخيفة. وكان يبدو له أنه يسمعُ جوقات الملائكة في يوم الدينونة. وأخيراً، تحامل على نفسه، وأمسك يدَ كاهنٍ كان يمرّ بقربه، فكانت تلك اليدُ باردةً كالرخام وهتف: «حبًّا بالسماء، ياأبتِ، لمن تُصلّون هنا، ومن أنتم؟».

فأجاب الكاهنُ، وهو يحدّق في عينيه بتعبيرٍ مفعمٍ بالألم:

- نصلي من أجل الكونت دون جوان دومارانيا، نصلي من أجل نفسه التي وقعت في خطيئة مميتة. ونحن أرواح خلصتها قداديسُ وصلواتُ أمهاتها من نيرانِ المطهر. إننا ندفع إلى الابن دينَ الأم، غير أن هذا القداسَ هو الأخير الذي يُسمحُ لنا بإقامته من أجل نفس الكونت دون جوان دومارانيا.

في تلك اللحظة، دقت ساعةُ الكنيسة دقةً واحدة، وصرخ صوتٌ يأتي من زاوية مظلمةٍ من زوايا الكنيسة:

«لقد حان الوقت، الوقت قد حان! فهل هو لنا؟»

---

(١) - باللاتينية في النص: أي من الأعماق. (م: ز.ع).

(٢) - باللاتينية في النص ومعناها: «يومُ الغَضَب». (م: ز.ع).

فـأدار دون جـوان رأسـه، ورأى تجلياً رهيبًا، فـدون غـارسـيـا، الشـاحـبُ والمضرّجُ بدمه كان يتقدمُ مع القائد غومار الذي كانت قسماتُ وجهه لا تزال تختلجُ بتقلصات مرعبة، وتوجه كلاهمـا نحو التابوت، فردّ دون غارسيا وهو يلقي الغطاءَ بعنف على الأرض «هل هو لنا؟»، وفي الوقت ذاته، انتصبت خلفه حيّةٌ عملاقةٌ، فتجاوزته ارتفاعًا بعدّة أقدام، وكانت تبدو مستعدة لتنزو إلى داخل التابوت. . . فصرخ دون جوان: «يا يسوع!»، ووقع مغشيًا عليه على البلاط.

كان الوقتُ قد تأخر ليلاً، عندما لاحظت الدوريةُ التي كانت تمرُّ رجلاً ملقًى بلا حـراك، عند باب الكونت دومـارانيا. فـحـاولوا إنعـاشه برش الماء البـارد على وجهه، غير أنهم، عندما رأوا أنه لايستعيدُ وعيه، حملوه إلى منزله. وكان البعضُ يقـول: إنه ثملٌ، ويقـول آخرون: إنه قد تلقى قرعًا بالعصا، على يد زوجٍ غيور. ولم يكن يحبه أحد، أو أي إنسـانٍ شريف في إشبيليا، على أية حـال، وكان كلٌّ واحد يقولُ فيه كلمته، فهذا يُبارك العصا التي دوّخته جيدًا على ذلك النحو، ويتسـاءل آخر عن عددِ الزُّجاجات التي يمكن لذلك الهيكل العظمي أن يكون قد ابتلعها. واستلم خدمُ دون جوان سيدّهم من أيدي رُماة السهام، وهرعوا للبحث عن جرّاح، فأجرى لدون جوان فصدًا غزيرًا، ولم يلبث أن استعاد وعيه. وفي البداية، لم تُسمع منه غير كلماتٍ لا انسجام فيما بينها، وصرخاتٌ مجمجمةٌ، ونشيجٌ وأنين. وبدا يتأمل شيئًا فشيئًا، وباهتمام، الأشياءَ التي كانت تحيط به. وسأل عن مكانِ وجوده، ثم عمّا آل إليه القائدُ غومار، ودون غارسيا، والموكب. وظنه القائمون على خدمته مجنونًا. ومع ذلك، فبعد أن تناول شرابًا منشطًا، أمر بأن يجلبوا له مصلوبًا[1]، فقبله لبعض الوقت، وهو يسكبُ سيلاً من الدموع، ثم أمر بأن يأتوه بكاهنٍ للاعتراف.

كانت الدهشةُ عامةً لفرطِ ماعرف عنه من كفرٍ. وقد رفض عددٌ من الكهنة الذين استدعاهم خدمه أن يأتوا إليه، لقناعتهم بأنه يحضر لهم مُزاحةً شريرة،

(١) - تمثال من الخشب أو المعدن يمثل المسيح مصلوباً. (م: ز.ع).

وأخيراً، وافق راهب دومينيكي على رؤيته. وتركوهما لوحدهما. وبعد أن ارتمى دون جوان على قدمي الراهب روى له الرؤيا التي تجلّت له، ثم اعترف. وكلّما كان يقدّم قصةَ كلِّ جريمةٍ من جرائمه، كان يقطعُ الحديثَ عنها ليسأل عما إذا كان ممكناً أن يحصلَ خاطئٌ كبيرٌ مثله على المغفرة السماوية. وكان رجلُ الدين يجيبه بأن رحمةَ الرب لانهايةَ لها.

وبعد أن حضّه الدومينيكي على الثبات في توبته. وبعد أن قدّم له المواساةَ التي لا يرفضُ الدينُ إعطاءَها لأكبر المجرمين. خرج من عنده، وهو يعدُه بالرجوع في المساء، فأمضى دون جوان النهار بأكمله في الصلوات. وحين رجع الدومينيكي، أعلن له عن عزمه على الاعتزال من عالمٍ نشر فيه الكثيرَ من الفضائح، وعلى السعي للتكفيرِ عن جرائمه الهائلة التي لطّخ بها نفسه وذلك بممارسة أعمال التوبة. أما الراهبُ، الذي تأثر لدموعه، فقد شجعه أفضل تشجيع، وكي يتحقق مما إذا كانت تتوفرُ لديه الشجاعةُ لمتابعة ما صمم عليه، فقد قدّم له لائحةً مرعبةً بأعمال التقشف في الرهبانية. ولكن دون جوان، عند كلّ إماتة كان يصفها له الراهبُ، كان يهتفُ بأن ذلك شيء لا يذكر، وبأنه يستحقُّ معاملةً أكثرَ تشدُّداً.

وبدءاً من اليوم التالي، قدّم نصفَ ثروته إلى أهله الذين كانوا فقراءَ، وخصص جزءاً آخر منها لتأسيسِ مشفى، وبناءِ كنيسةٍ صغيرة، ووزّع مبالغَ هائلةً على الفقراء، وسعى لإقامة عددٍ كبير من القداديس من أجل أرواحِ المطهر، وخصوصاً من أجل روحِ القائد غومار وأرواحِ منكودي الحظ الذين سقطوا وهم يتقاتلون معه في المبارزات. وأخيراً، جمع كلّ أصدقائه، وأدانَ نفسه للأمثلة السيئة التي كان يقدّمها لهم منذ زمنٍ طويل، ووصفَ لهم بصورةٍ مؤثّرةٍ تبكيتَ الضمير الذي كان سلوكه الماضي يسببه له، وألوانَ الرجاء التي يتجاسرُ على تمنيةِ نفسه بها في المستقبل. وقد تأثّر بعضُ هؤلاء الفاسقين بكلامه، فغيّروا ما بأنفسهم، أما آخرون، من الممتنعين عن الإصلاح، فقد تركوه، وهم يطلقون السخريات الباردة.

وقبل أن يدخل دون جوان إلى الدير الذي اختاره لعزلته، كتب إلى دونيا تيريزا، واعترفَ لها بمشاريعه المخزية، وروى لها حياته، وهوايته، وطلب منها الصفح، وحثها على الإفادة من مثاله، وعلى أن تسعى إلى خلاصها عن طريق التوبة، وعهد بتلك الرسالة إلى الدومينيكي بعد أن عرض عليه مضمونها.

كانت تيريزا المسكينة قد انتظرت طويلاً في حديقة الدير الإشارة المتفق عليها، وبعد أن أمضت بضعَ ساعات في اضطراب لايوصف، ورأت أن الفجر يكاد يبزغ، رجعت إلى صومعتها وهي فريسةٌ لأشدّ الآلام. وكانت تعزو غياب دون جوان لألف سبب، وكلها بعيدة جداً عن الحقيقة. ومضت بضعة أيام على ذلك المنوال، من غير أن تتلقى أخباراً، ومن غير أن يأتي أيٌّ بلاغ ليخفف من يأسها، وأخيراً، حصل الراهب، بعد أن تداول الأمر مع الأم الرئيسة، على إذنٍ برؤية تيريزا، وسلمها رسالةَ مغويها التائب. وفيما كانت تقرأ، كان جبينها يُرى مغطًى بقطرات كبيرة من العرق، فأحيانًا كانت تغدو حمراء كالنار، وأحيانًا شاحبةً كالميتة، ومع ذلك، فقد كانت لديها الشجاعةُ لإنهاء القراءة. حينذاك، حاول الدومينيكي أن يصفَ لها توبةَ دون جوان، وأن يهنئها لأنها قد نجت من خطرٍ مرعب كان ينتظرهما كليهما، لو لم يُحبَط مشروعُهما على يدِ تدخُّل العناية الإلهية الواضح. غير أن دونيا تيريزا كانت تصرخُ إزاء هذه الإرشادات جميعها قائلةً: «إنه لم يحبني قط!» وسيطرت حمى مستعرة على تلك المنكودة. ولم تُغنْها جهودُ الطبّ والدين التي بذلت نحوها: فقد كانت ترفض هؤلاء، وتبدو غير متأثرةٍ بأولئك. وقضت، بعد بضعة أيام، وهي تردّد على الدوام: «إنه لم يحبني قط!».

أما دون جوان، فبعد أن ارتدى ملابسَ المترهب المبتدئ، فقد أظهر أن اهتداءه قد كان صادقًا، فما من إماتةٍ جسدية، وما من عملٍ للتوبة لم يجدهما جدّ عذبين، وغالبًا ما كان رئيس الدير مضطراً ليأمره بوضعِ حدودٍ لأعمال التقشفِ التي كان يعذّب بها جَسَدَه. وكان يبين له أنه يختصر بتلك الطريقة أيامه، وأن هناك، في الواقع، من الشجاعة في أن يعاني المرء زمنًا أطول من أعمال الإماتة المعتدلة، أكثر

مما هناك في أن ينهي دفعةً واحدةً توبته بأن ينتزعَ الحياةَ من نفسه. وانقضت مدّة الترهبن، وتلفظ بنذوره الدينية، واستمرّ، تحت اسم الأخ أمبرواز، يهدي الدير بأكمله بتقشفه. فكان يرتدي مسحًا من وبر الخيل تحت ردائه الخشن. وكان يستخدم بمثابة سرير نوعًا من علبة ضيقة أقل طولاً من جسمه، وتكوّن الخضارُ المطبوخةُ بالماء كلّ غذائه. ولم يكن يوافق على تناول الخبز إلا في أيام الأعياد، وبناءً على أمرٍ صريحٍ من رئيسه. ويمضي أكبر مدّة من لياليه في السهر والصلاة، وذراعاه ممدودتان على شكل صليب. وأخيراً، فقد كان قدوةَ تلك الجماعة التقية، كما كان قديمًا قدوة الفاسقين الذين كانوا في مثل عمره. ولقد قدّم له مرضٌ وبائي، ظهر في إشبيليا، الفرصة لممارسة فضائله الجديدة التي منحه إياها اهتداؤه. وكان المرضى يُستَقْبلون في المشفى الذي أسسه. وكان يُعنى بالفقراء، ويمضي الأيام بقرب أسرتهم، حاثًا إياهم على التوبة، ومشجعًا لهم، ومواسيًا. وكان خطرُ العدوى كبيراً، بحيث لم يكن بالإمكان العثورُ على رجالٍ يقبلون أن يدفنوا الموتى مقابل المال. وكان دون جوان يؤدي تلك الرسالةَ الكهنوتية، فيمضي إلى المنازل المهجورة، ويعطي المدافن للجثث المتفسخة والتي غالبًا ما تكون قد بقيت في تلك البيوت لبضعة أيام. وكان الناسُ يباركونه في كلّ مكان. وبما أنه لم يمرض قط إبان ذلك الوباء الرهيب، فقد أكد بعضُ الناس السريعي التصديق أن الله قد صنع أعجوبة جديدة إكرامًا له.

وقبل ذلك، ومنذ بضع سنوات، كان دون جوان، أو الأخ أمبرواز، يسكن في الدير، ولم تكن حياته أكثر من سلسلةٍ لاتنقطعُ من الشعائر التَّقَويّة، وأعمال الإماتة الجسدية، وكانت حياته الماضية حاضرةً دومًا في ذاكرته، غير أن ندمه قد أصبح أَخف وطأة بسبب إرضائه لضميره والذي منحه إياه تغيُّره.

وذات يوم، بعد الظهيرة، وفي اللحظة التي يشعر المرء فيها بالحرّ في أقصى درجاته، كان جميعُ أخوة الدير يذوقون بعض الراحة، حسب العرف. وكان الأخ أمبرواز يشتغل في الحديقة وحده، حاسر الرأس، في الشمس. فكانت تلك هي إحدى أعماله التكفيرية التي كان يفرضها على نفسه. وقد رأى، وهو منحنٍ على

معـوله، ظلّ رجلٍ قد توقف إلى جانبـه، فظنّ أنه أحد الرهبان، وقـد نزل إلى الحديقة، فحيّاه، وهو يتابع عمله بقوله: Ave Maria[1] ولكنه لم يتلق ردًا، فدهش حين رأى أن ذلك الظلّ لا يتحرك، ورفع عينيه، فرأى شابًا طويلَ القامة، واقفًا أمامه، ومرتديًا معطفًا يصل حتى الأرض، وتغطي وجهه قبعةٌ تظللها ريشةٌ بيضاء وسوداء. وكان ذلك الرجل يتأمله بصمت، ويعبر وجهه عن فرحٍ خبيث، وازدراء عميق. فحدق كلٌّ منهما بالآخر خلال بضع دقائق. وأخيرًا قال له الرجل المجهول، وهو يتقدم خطوة، ويرفع قبعته ليظهر قسمات وجهه:

«هل تتعرفني؟»

فتأمله دون جوان باهتمامٍ أكبر، ولكنه لم يتعرفه.

فسأل الرجل المجهول:

«هل تتذكر حصار برغ - أوب - زوم؟ هل نسيت جنديًا اسمه موديستو؟»...

فارتجف دون جوان، وتابع الرجل المجهول ببرود:

الجندي المسمى موديستو والذي قتل بطلقةٍ من بندقيته صديقك النبيل دون غارسيا بدلاً منك. وأنت من كان يستهدفه؟... موديستو! هو أنا، ولديّ اسمٌ آخر، يادون جوان: إني أدعى دون بيدرو دي أوجيدا، وأنا ابن دون ألونسو دي أوجيدا الذي قتلته، - وأنا شقيق دونيا فوستا دي أوجيدا التي قتلتها - أنا شقيق دونيا تيريزا دي أوجيدا التي قتلتها.

فقال دون جوان وهو يجثو أمامه:

- يا أخي، إني رجلٌ بائس مثقلٌ بالجرائم، وكي أكفر عنها، ألبس هذا الرداء، وقد تخليت عن العالم. فإن كانت هناك وسيلةٌ لأحصل منك على الصفح، فلتدلّني عليها. وأقسى أعمال التكفير لن تخيفني. إذا ما استطعت أن أحصل منك على ألا تلعنني.

(١) - أي: السّلام عليك يا مريم: وهي صلاةٌ موجّهة إلى العذراء والدة يسوع المسيح. واستخدمها الراهب هنا بمثابة تحية. (م: ز.ع).

فابتسم دون بيدرو بمرارة:

فلنترك النفاقَ هنا، أيها السيد دومارانيا، فأنا لا أصفحُ، أما عن لعناتِي، فقد اكتسبتها. ولكن صبري قد فرغ إلى حدٍّ لا يمكنني معه أن انتظر تأثيرها، فأنا أحمل معي شيئًا هو أكثر فعاليةً من اللعنات.

لدى هذه الكلمات، فرّج معطفه، وأظهر أنه كان يمسك سيفين حادّين طويلين للنزال، وسحبهما من غمدهما وغرسهما في الأرض كليهما.

وقال: اختر، يا دون جوان، يُقال إنك مسايفٌ كبير، وأنا أفخر بمهارتي في المبارزة ولنرَ ماذا تحسن عمله.

فرسم دون جوان إشارة الصليب وقال:

«يا أخي، إنك تنسى النذور التي نطقتُ بها. فأنا لم أعد الدون جوان الذي عرفته، أنا الأخ أمبرواز».

- حسنًا، أيها الأخ أمبرواز، إنك عدويّ، وأيًّا كان الاسمُ الذي تحمله، فأنت عدوي، وأنا أكرهك، وأريد الانتقام منك.

فجثا دون جوان على ركبتيه أمامه وقال:

إذا كانت حياتي هي التي تريد أن تأخذها، يا أخي، فهي لك، فعاقبني كما تشاء.

- أيها الجبانُ المنافق! هل تخالني أُخدع بك؟ ولو أردتُ أن أقتلك مثل كلبٍ مسعوَر، فهل كان يمكن أن أتجشّم عناء جلب هذه الأسلحة؟ هيا، اختر بسرعة، ودافع عن حياتك.

- أكرر لك يا أخي أنه لا يمكنني أن أقاتل، بل يمكنني أن أموت.

فصرخ دون بيدرو بحنق:

- أيها الحقير! قيل لي إنك تمتلكُ الشجاعةَ، وأرى أنك لست أكثر من جبانٍ خسيس!

- الشجاعة يا أخي؟ إني أسأل الرب أن يمنحني إياها كي لا أستسلم لليأس الذي يمكن أن تُلقي به فيه ذكرى جرائمي، من غير معونته، فوداعًا، يا أخي، إني أنسحب، فأنا أرى جيداً أن رؤيتي تغيظك. أسألُ أن تبدو لك توبتي ذات يوم صادقةً، كما هي في الواقع!

كان يقوم ببضع خطوات كي يغادر الحديقة، عندما أوقفه دون بيدرو من كمه، وصرخ:

«إمّا أنت أو أنا، لن نخرج حيّين من هنا، فامسك واحداً من هذين السيفين وليأخذني الشيطان إن كنت أصدق كلمةً واحدةً من كل شكاتك!»

نظر إليه دون جوان نظرةً متوسلةً، وخطا أيضًا خطوةً كي يبتعد، غير أن بيدرو قبض عليه بقوة، وأمسكه من قبّته:

أنت تظنّ إذن، أيها القاتل السافل، أنك تستطيعُ الإفلات من بين يدي! كلا! سوف أمزق رداءك المنافق الذي يخفي قدم الشيطان المتشعّبة، فربما حينذاك تحسّ بما يكفي من الشجاعة لمنازلتي.

كان بيدرو، وهو يتكلم على هذا النحو، يدفع دون جوان إزاء السور بخشونة.

فصرخ دون جوان: أيها السيد بيدرو دي أوجيدا. اقتلني إذا أردت، فلن أقاتل! وشبك ذراعيه، وحدّق في عيني دون بيدرو بصورةٍ هادئة مع أنها لاتخلو من الأنفة.

- أجل، سأقتلك، أيها الحقير! غير أني قبل هذا سأعاملك كجبان.

وصفعه صفعة كانت هي الأولى التي تلقاها دون جوان في حياته، فغدا وجهه أحمر أرجوانياً، فرجع اعتدادُ الشباب وغضبه إلى نفسه، ومن غير أن يقول كلمة واحدة، اندفع إلى أحد السيفين وأمسك به، وأخذ دون بيدرو السيفَ الآخر، واحترس، وانقضّ كلٌّ منهما على الآخر بضراوة، وأطلق قدمه في الوقت نفسه، وبالاندفاع ذاته كي يمسّ خصمه، فضاع سيف دون بيدرو في رداء دون جوان الصوفي، وانزلق إلى جانب جسمه من غير أن يجرحه، فيما انغرز سيفُ دون

جوان حتى قبضته في صدر خصمه، فقضى دون بيدرو في الحال. وحين رأى دون جوان عدوه ملقًى تحت قدميه، مكثَ بعضَ الوقت بلا حراك يتأمله على نحوٍ غبي، وشيئًا فشيئًا، ثاب إلى رشده، وتحقق من بشاعة جريمته الجديدة.

هرع إلى الجثة، وحاول أن يعيدها إلى الحياة، غير أنه كان قد رأى الكثير من الجروح التي تجعل من غير الممكن أن يشكّ لحظة واحدة بأن ذلك الجرح مميت. وكان السيف المضرّج بالدم عند قدميه ويبدو كأنه معروضٌ أمامه كي يقتصّ من نفسه، ولكنه أبعد بسرعة تلك التجربة الجديدة، تجربة الشيطان، وأسرع إلى مقرّ رئيس الدير واندفع مذعوراً إلى صومعته، وهناك، جثا عند قدميه، وروى له ذلك المشهد الرهيب وهو يذرف سيولاً من الدموع. ولم يرد الرئيس أن يصدّقه في البداية، وكانت أولُ فكرةٍ خطرت له هي أن ممارسات التقشف الطويلة التي كان يفرضها الأخ أمبرواز على نفسه جعلته يفقدُ رشده، غير أن الدمَ الذي كان يغطي رداءَ دون جوان ويديه لم يتح للرئيس أن يشكّ مدّة أطول بالحقيقة الفظيعة. وكان رجلاً مفعماً بالحضورِ الذهني، فأدرك في الحال حجمَ الفضيحة التي يمكن أن ترتدَّ على الدير، إذا ما انتشرت تلك المغامرةُ بين العامة. ولم يكن أحدٌ قد رأى المبارزة، فاهتم بإخفائها عن ساكني الدير أنفسهم. وأمر دون جوان أن يتبعه، وبمساعدته، نقل الجثة إلى قاعة منخفضة أخذ مفتاحها، ثم أغلق على دون جوان في صومعته، وخرج لإعلام قاضي المدينة.

ربما يُدهش المرءُ من أن يكون دون بيدرو قد استبعد فكرة اغتيال ثان، بعد أن كان قد حاولَ فيما سبق أن يقتلَ دون جوان غدراً، وأن يكون قد سعى إلى التخلص من عدوه، من خلالِ معركةٍ ذات أسلحة متعادلة، إلا أن ذلك لم يكن من جهته إلا حساباً لانتقامٍ جهنمي وكانَ قد سمع الناس يتحدثون عن ممارسات دون جوان التقشفية، وكانت سمعته كقديس قد انتشرت انتشاراً واسعًا بحيث لم يكن دون بيدرو يشك بأنه سيرسله مباشرةً إلى السماء إذا ما اغتاله. فأمل بأن يقتله بخطيئةٍ مميتة، إذا ما تحدّاه، وأجبره على القتال، وهكذا يخسرُ دون جوان جسده وروحه. وقد رأينا كيف انقلبَ ذلك المشروع الشيطاني على مدبِّره.

ولم يكن من الصعب إخمادُ المشكلة، فقد اتفق القاضي مع رئيس الدير لتحويل اتجاه الشكوك فظن الرهبانُ الآخرون أن الميتَ قد سقط في نزالٍ مع فارسٍ مجهول، وأنه قد حُمِل جريحًا إلى الدير حيث لم يلبث أن قضى. أما دون جوان، فلن أحاول وصف تبكيتِ ضميره ولا توبته، فقد أكمل بفرحٍ كلَّ شعائرِ التكفير التي فرضها عليه رئيسه. وخلال حياته كلها، احتفظ بالسيف الذي طعن به دون بيدرو معلقًا في أسفلِ سريره. ولم يكن ينظرُ إليه قطّ من دون أن يصلي من أجل نفسه، ونفوس أسرته. وكي يقمعَ ما تبقى من كبرياء دنيوي لا يزال باقيًا في قلبه، فقد أمره الكاهن بأن يحضر كلَّ صباحٍ إلى طباخ الدير الذي ينبغي أن يوجّه إليه صفعةً. وبعد أن يتلقاها، لم يكن يفوته قطّ أن يُدير له الوجنةَ الأخرى، شاكرًا للطباخ إذلاله له على ذلك الشكل. ولقد عاش أيضًا عشرَ سنوات في ذلك الدير. ولم تنقطع أعمالُ توبته قطّ برجوعٍ إلى أهواء الشباب. فمات مبجلاً مثل قديس، وحتى من أولئك الذين كانوا يعرفون انحرافاته الفاسقة الأولى. وطلب، وهو على فراش الموت، أن يمنّوا عليه بدفنه تحت عتبة الكنيسة، وذلك كي يدوس عليه كلُّ من يدخل إليها. وشاء أيضًا أن تُحفر على قبره العبارةُ التالية: هنا يرقدُ أسوأُ رجلٍ في العالم. غير أنهم لم يروا من المناسب أن ينفذوا كلَّ الترتيبات التي كان يمليها تواضعه المفرط: فدفن بجانب المذبح الرئيسي في المصلى الذي كان قد أنشأه. وقد تمت الموافقةُ فعلاً على أن تحفر على الحجر الذي يغطي جثته الكتابةُ التي ألفّها، ولكن قصة اهتدائه، وتقريظًا لذلك الاهتداء، قد أُضيفت إلى الكتابة. أما مشفاه، وخصوصًا المصلى الذي دُفن فيه، فيزوره كلُّ الأجانب الذين يمرون بإشبيليا، وقد زخرف موريو[1] المصلّى بعددٍ من تحفه الفنية. من مثل: «عودة الابن الضال» و«جرن معمودية أريحا» والتي يبدي الناس إعجابهم بها الآن في قاعةِ عرض السيد المارشال سولت والتي كانت قديمًا تزين جدران مشفى المحبة.

(١) - موريو: رسام إسباني ١٦١٨ - ١٦٨٢ له لوحات دينية صوفية وأخرى شديدة الواقعية. (م: ز.ع).

- ١٠ -

فينوس ديل

«فقلتُ حينذاك: فليكن هذا التمثالُ الذي يشبهُ الإنسان كثيرًا رفيقًا بنا إذن، ومتعطِّفًا علينا!»

(لوسيان، الكاذب، ١٩)

أثناء نزولي من آخر تلةٍ من تلال كانيغو، ومع أن الشمس كانت قد غابت، فقد أخذتُ أميّز في السّهل منازل مدينةِ إيل الصغيرة التي كنت أتوجّه إليها.

وقلت للكاتالاني الذي كان يعمل مُرشدًا لي منذ اليوم السابق: أنت تعلمُ ولاشكّ أين يسكنُ السيد بيرهوراد؟

- فهتف: أجل، أعلم، فأنا أعرفُ بيته مثل بيتي، وإذا لم تصبح ظلمة الليل حالكةً، فإني أريك إيّاه، إنه أجملُ منزلٍ في إيل. إن السّيد دوبير هوراد يمتلكُ المالَ، وهو يزوّجُ ابنه من أسرةٍ أكثر غنى من أسرته أيضًا.

فسألتُ: وهل سيتم الزواجُ قريبًا؟

- قريبًا! من الممكن الآن أن تكون الكمانات قد أُوصي عليها من أجل العرس، ربما هذا المساء، أو غدًا، أو بعد غد، ماذا يدريني! إن العرسَ سيجري في بويغاريغ، فالآنسة بويغاريغ هي التي سيتزوج بها السيدُ الابن. سيكون ذلك جميلاً، أجل!

كان قد أوصى بي صديقي السيد دو ب لدى السيد بيرهوراد، فهذا السّيد، كما قال لي صديقي، هو تاجرُ أثريات، واسعُ الثقافة، وذو كياسة تصمدُ لكلِّ امتحان، ولسوف يسرّه أن يريني كلَّ الخرائبِ الأثريّةِ على مسافةِ عشرة فراسخ من جميع الجهات، وهكذا، فقد كنت أعتمدُ عليه لزيارةِ المناطقِ المجاورة لإيل، والتي كنت أعرفُ أنها غنية بالأوابد القديمة، وأوابدِ العصرِ الوسيط. وكان ذلك الزّواج الذي حدّثوني عنه حينذاك للمرّةِ الأولى يشوشُ كلّ مخطّطاتي.

وقلت في نفسي: سأكون معكراً لصفائكم، ولكنني مدعوٌّ، وقد أعلن عن وصولي السيد بِ، فكان لا بدّ من تقديمي.

وقال لي مرشدي لما أصبحنا في السّهل: لنراهن على أنني أخمّن ما ستفعله في منزل السيد دوبيرهوراد، مقابل سيكار.

- فأجبته وأنا أمدُّ له سيكاراً: ولكن تخمينَ هذا الأمر ليس صعبًا إلى درجةٍ كبيرة. ففي هذا الوقت، وبعد أن سرنا ستةَ فراسخ في تلال كانيغو، المشكلةُ الأولى هي تناولُ العشاء.

- أجل، ولكن غداً؟ . . . هيا إني أراهنُ بأنك قد أتيت إلى إيل لترى الوثنَ. وقد خمنتُ ذلك عندما رأيتك تصور قديسي سيرابوانا.

- الوثن! أي وثن؟

كانت تلك الكلمة قد أثارت فضولي.

- كيف! ألم يرووا لك في بيربينيان كيف عثر السّيد دو بيرهوراد على وثنٍ من الطّين.

- أنت تعني من الطين المشوي، من الفخّار.

- لا، ليس هذا. بلى، إنه من النحاسِ. فهناك تماثيل تدرُّ مالاً كثيراً. إنه بزنةِ جرسِ كنيسة. وقد عثرنا عليه قبل ذلك بكثير داخل الأرض، تحت شجرة زيتون.

- كنتَ حاضراً إذن عند اكتشافه؟

- أجل يا سيدي، فقد قال لنا السيد دو بيرهوراد منذ خمسة عشر يوماً، لجان كول ولي، قال لنا أن نقتلع شجرةَ زيتونٍ عتيقة قد أُصيبت بالتجمُّد في السنة الأخيرة، فقد كانت تلك السنة سيئةً فعلاً، كما تعلم. وها هو جان كول الذي كان يشتغل في الحفر بكل حماسة يضربُ ضربةً من معوله، أثناء عمله، فأسمعُ صوتاً: بيم... كما لو كان يطرقُ على جرس.

فقلت: ما هذا؟ وتابعنا الحفر، تابعنا، فظهرت في الحال يدٌ سوداء كانت تبدو يداً لميت، وهي تخرج من الأرض. أما أنا، فقد اعتراني الخوف، وهرعت إلى السيد وقلت له: هناك موتى، يا معلمنا، موجودون تحت شجرة الزيتون! ويجب أن نستدعي الكاهن. فقال لي: أي موتى؟ وها هو يأتي، وما إن يرى اليد حتى يهتف: «تحفةٌ أثرية! تحفةٌ أثرية! حتى يمكن أن تظن أنه قد عثر على كنز. وها هو يكدُّ بمعوله وبيديه، وينجزُ عملاً يعادلُ ما ننجزه كلانا تقريباً.

- وأخيراً، ماذا وجدتم؟

- امرأةً طويلة القامة، سوداء، وأكثر من نصف عارية، بالاعتذار منك. ياسيدي، وكلها من النحاس. وقد قال لنا السيد دو بيرهوراد إنها قد كانت معبودةً[1] في زمن الوثنيين... أي من زمن شالمان!

- أعرف ما هي... إنها تمثالٌ لعذراء من البرونز، من دير مهدَّم.

- تمثالٌ لعذارء! أهي كذلك حقاً!... لو كانت تمثالاً لعذراء، لكنت تعرفتها حتماً. إنها صنمٌ، كما قلت لك: ونلاحظ ذلك جيداً من خلال هيئتها. إنها تحدّق بك بعينيها الكبيرتين البيضاوين... وكأنها تتفرّسُ فيك، فيخفضُ المرء عينيه، وهو ينظر إليها. أجل.

---

(١) - سنترجم «Idole» بكلمة معبودة، وهي الصنم المعبود، وذلك كي تبقى مؤنثة في العربية. (م: ز.ع).

- عينان بيضاوان؟ لاشكّ أنهما منزلتان في البرونز، ربما هي تمثالٌ روماني.

- روماني! هذا صحيح، فالسيد دوبير هوراد يقول إنه روماني أه! أرى فعلاً أنك عالمٌ مثله.

- هل هو كاملٌ ومحفوظ بحالة جيدة؟

- أوه! يا سيدي، لاينقصه شيء. إنه أجملُ وأكثر إتقانًا من تمثال لويس - فيليب النصفي، والموجودُ في دار الحكومة، والمصنوع من الجص الملون. ولكن وجه تلك المعبودة لا يحضر إلى ذاكرتي مع كلّ هذا، فتبدو شريرةً، وهي شريرةٌ أيضًا.

- شريرة! وأي شرٍّ قد صنعت لك؟

- ليس بالضبط، وكذلك سوف ترى. فقد بذلنا قصارى جهدنا كي نجعلها منتصبةً، وكان معنا السيد دوبيرهوراد الذي كان هو أيضًا يشدُّ الحبل، مع أنه لم يبق لديه من القوة أكثر مما لدجاجة، فيا له من رجلٍ جديرٍ بالتقدير! وها نحن نجعلُ التمثالَ ينتصبُ بكثيرٍ من الجهد. وكنت أجمعُ كسراتِ القرميد كي أسنده، عندما، باتاترا[1]، سقط التمثال على قفاه دفعةً واحدة. فقلت: احترسوا تحت! ومع ذلك، فلم يكن تحذيري سريعًا بما فيه الكفاية، لأن جان كول لم يتوفر له الوقت ليسحب ساقه...

- وقد جُرح؟

- لقد كسرت ساقه المسكينة فوراً مثل وتد العرائش، يا لطيف[2]! عندما رأيتُ ذلك، استبدّ بي السخط، وأردت أن أحطّم المعبودةَ بضرباتٍ من المعول، ولكنّ السيد دوبيرهوراد منعني من ذلك، وأعطى جان كول نقوداً، وهو يلازم السرير منذ وقع له الحادث، أي من خمسة عشر يومًا. ويقول الطبيب إنه لن يسير

---

(١) - كلمة تحاكي صوتَ سقوط شيء مع قرقعة. (م: ز.ع).

(٢) - ترجمة لكلمة Pécaïre التي تدل على هتاف يعبرّ عن الرأفة والعطف. (م: ز.ع).

قطّ بتلك الساق مثلما يسير بالأخرى، وهذا أمرٌ مؤسف، فهو الذي كان أفضل عدّاء لدينا، وأمهر لاعبي تنس راحة اليد[1]، بعد السيد ابن دوبيرهوراد. وهذا ما أحزنَ السيد ألفونس، لأن كول هو الذي كان يشاركه في مباراته وكم كان جميلاً أن تراهما، حين يتقاذفان الكرات. باف! باف! إنها لم تكن تلمسُ الأرضَ قط. وفيما كنا نتحدث على ذلك الشكل، دخلنا إلى إيل، فألفيت نفسي سريعًا في حضرة السيد دو بيرهوراد. لقد كان رجلاً مسنًا، قصير القامة، ولايزال نضراً، ومعافى، ومغطّى بالمساحيق، أحمر الأنف، ويبدو مرحًا وساخراً. وقبل أن يفتح رسالة السيد ب، كان قد أجلسني أمام مائدة جيدة الإعداد، وقدّمني إلى زوجته، وإلى ابنه على أنّي عالم آثار شهير يُعوّل عليه لإخراج روسيّون[2] من النسيان الذي تركها فيه عدمُ اهتمام العلماء.

كنت أتفحصُ مضيفي، وأنا أتناولُ الطعام بشهيةٍ طيبة، فلا شيء يحسّنُ الصحةَ مثل هواء الجبل المنشط، ولقد قلت كلمة عن السيد دوبيرهوراد، ولا بدّ أن أضيف أنه كان الحيويةَ ذاتها. كان يتحدّثُ، ويأكلُ، وينهضُ، ويسرعُ إلى مكتبته، ويأتيني بكتب معينة، ويريني صوراً منقوشةً، ويسكبُ لي شرابًا. ولم يهدأ قط دقيقتين اثنتين. إن امرأته السمينة أكثر من اللازم بقليل، مثل معظم الكاتالانيات، حين يتجاوزن الأربعين، قد بدت لي ريفية راسخة، وهي تهتم فقط بأعمال المنزل. ومع أن العشاء كان كافيًا لستة أشخاص على الأقل، فقد هرعت إلى المطبخ، وأمرت بذبح حمامتين، وقلي فطائر من الذرة، وفتحت عدداً لا أدري ما هو من علب المربّيات. وخلال لحظةٍ من الزمن، كانت المائدةُ مزدحمةً بالأطباق والزجاجات، ولو أني تذوقتُ فقط كلّ ما كان يُقدّم لي، لكنت قد متُّ من سوء الهضم. ومع ذلك، فقد كنت أقدّم اعتذاراتٍ جديدة، عند كلّ طبقٍ أرفضه. لقد

---

(١) - نوع من أنواع لعبة التنس. (م: ز.ع).

(٢) - روسيّون: مقاطعة فرنسية، كانت إسبانية قديمًا. وهي اسم لبلدةٍ فرنسية تقع في إحدى مناطق مقاطعة الإيزير. (م: ز.ع).

كانوا يخشون من أن أكون قد مرضتُ في إيل، ففي الريف، يمتلك الناسُ إمكانات قليلة، ويصعبُ إرضاءُ الباريسيين كثيراً!

وفي وسط هذه الجيئات والروحات التي كان يقوم بها والدا السّيد ألفونس دوبيرهوراد، لم يكن يتحرّكُ أكثر من تيرم[1]. وقد كان شاباً في السادسة والعشرين من عمره، وذا طلعةٍ جميلةٍ ومتناسقة، ولكنها تفتقرُ إلى التعبير. أمّا قامتهُ، وتكويناتُ جسمه الرياضية، فقد كانت تسوّغ حقاً شهرته كلاعبٍ لايكلُّ لتنس راحة اليد التي كانت ذائعةً في المنطقة. كان في ذلك المساء يرتدي ملابسَ أنيقةً، وهي تطابقُ تماماً الصورةَ التي نشرت في آخر عددٍ من أعداد مجلة صحيفة «الدرّجات[2]»، غير أنه كان يبدو لي متضايقاً في ملابسه، فقد كان متصلّباً مثل وتدٍ في قبته المخملية، ولايستديرُ إلا دفعةً واحدة. وكانت يداه الضخمتان والملفوحتان بالشمس، وأظافره القصيرةُ تتباينُ مع بذلته تبايناً فريداً، فيداه هما يدا فلاحٍ خارجان من كمي رجلٍ متأنق، بالإضافة إلى ذلك، فمع أنه كان يتأمّلني من الرأس حتى القدمين بفضولٍ شديد باعتباري باريسيّاً، فهو لم يوجه إليّ الكلام سوى مرةٍ واحدة خلال السهرة، وكان ذلك كي يسألني عن المكانِ الذي اشتريتُ منه سلسلةَ ساعتي.

وقال لي السيد دوبيرهوراد، حين شارفَ العشاءُ على نهايته: وإذن! ياضيفي العزيز، فأنت تخصُّني، وأنت في بيتي. فلن أتركك بعد الآن إلا بعد أن تكون قد رأيت كلّ ما لدينا من الأشياء الطريفة في جبالنا. ويجب أن تتدرب على معرفة بلدتنا روسيّون، وأن تُنصفَها. إنك لن ترتاب بشيءٍ من كلّ ما سنريك إياه. إنك سترى كلّ شيء: الأوابد الفينيقية، والسّلتية، والرومانية، والعربية، والبيزنطية، وبدءاً من أكبر الأشياء حتى أصغرها. ولسوف آخذك إلى كلّ مكان، ولن أعفيك من آجّرةٍ واحدة.

---

(١) - في الميثولوجيا (الأساطير الرومانية، تيرم هو الإله الثابتُ الذي يحمي الحدود. (م: ز.ع).

(٢) - ترجمة لاسم المجلة: «journal des modes»، (م: ز.ع).

وأجبرته نوبة سعال على التوقف، فانتهزتُ الفرصةَ كي أقول له إنه يؤسفني أن أزعجه في ظرف يهمّ أسرته إلى حدٍّ كبير، وإنه، إذ كان قد تفضل بتقديم النصائح الممتازة لي حول الجولات التي عليّ القيام بها. فبمقدوري، من غير أن يكلّف نفسه عبء مرافقتي أن. . .

فهتف مقاطعاً كلامي:

أه! أنت تريد أن تتكلم على زواج ذلك الصبي. هذا أمرٌ تافهٌ. ولسوف يجري بعدَ غد، فتحضرُ العرس معنا، عائلياً، لأن العروسَ المنتظرةَ في حدادٍ على عمةٍ لها سوف ترثها. وهكذا، فليس هناك ابتهاجٌ، ولا حفلٌ راقص. . . وهذا مايؤسفُ له. . . فكان يمكنك أن ترى كيف ترقصُ نساؤنا الكاتالانيات. . . إنهنّ جميلات. . . ولربما تحدوك الرغبة في محاكاة ابني ألفونس. ويقال إن عرساً يستجلبُ أعراساً أخرى. . . وحين يتزوجُ الشابان يوم السبت، أصبحُ متفرّغاً، ونتابع تجوالنا. وإني أعتذرُ منك على الإزعاج الذي سببته لك بحضورِ عرسٍ ريفي. خصوصاً بالنسبة لباريسي قد سئمَ الاحتفالات. . . وهو عرسٌ من غير حفلٍ راقص أيضاً! ومع ذلك، فسترى عروساً. . . عروساً. . . سوف تخبرني رأيك بها. . . ولكنك رجلٌ جديّ، ولم تعد تنظرُ إلى النساء. لدي ما أُريك إياه أفضل من هذا. سأريك شيئاً!. . . ولديّ مفاجأة تدعو إلى الفخر، وإني أحتفظ لك بها من أجل الغد.

فقلت له: - يا إلهي! من الصعب أن يمتلك المرء كنزاً في منزله من غير أن تعلم العامةُ به. فأظن أني قد خمّنتُ المفاجأةَ التي تعدُّها لي. ولكن إذا كان الأمرُ يدورُ على التمثال، فإن الوصفَ الذي قدّمه لي دليلي عنه لم ينفع إلا في إثارةِ فضولي، وجعلني مستعداً للإعجاب به.

- أه! لقد حدّثك عن المعبودة، فهكذا يسمون فينوسي الجميلة المق[1]. . . ولكني لا أريد أن أقول لك شيئاً. وغداً، عند الضّحى، سوف تراها، وستقول لي

(١) - المق. . . . جزءٌ من كلمة المُقلقة التي أقترحها ترجمة لكلمة «turbulente» والتي سترد فيما بعد، أثناء قراءة الكتابة المنقوشة على التمثال. (م: ز.ع).

إن كنتُ مصيباً في عدِّها رائعةً فنية أم لا. تبًّا! لا يمكن أن تكون قد أتيتَ في وقتٍ مناسبٍ أكثر من هذا الوقت! فثمة كتابات أفسّرها أنا، الجاهل المسكين، على طريقتي. . . أما عالمٌ من باريس! . . . ربما تسخرُ من تفسيري. . . فأنا قد أعددتُ بحثًا. . . أنا الذي أكلمك. . . جامع الآثار العجوز الرّيفي. لقد اقتحمتُ الميدان. . . وأريد أن أجعل الصحافة تئنّ وتشكو. . . فإذا قبلتَ أن تقرأ ما كتبتُه، وأن تصحّحَه لي، فيمكنني أن آمل. . . فمثلاً، لديّ فضولٌ كبيرٌ لمعرفة الكيفية التي تُتَرجَمُ بها كتابةٌ على قاعدة العمود: . . . CAVE... إني لا أريد أن أطلب منك شيئًا آخر! فإلى الغد، إلى الغد! ولا نقولنّ كلمة واحدة على فينوس اليوم.

فقالت زوجته: إنك على حق يا بيرهوراد أن تترك الحديثَ الآن عن معبودتك. فلا بدّ أن تلاحظ أنك تمنعُ السيد من الأكل. هيا، إن السيد قد رأى في باريس تماثيل أجملَ بكثيرٍ من تمثالك، ففي التويلري، هناك دزينات منها، ومصنوعةٌ من البرونز أيضًا.

فقاطعها السيد دو بيرهوراد قائلاً:

- هذا هو الجهلُ حقًّا! جهلُ الريفِ المقدس! فهل يمكن مقارنة تحفةٍ قديمةٍ رائعة بوجوه كوستو[١] المسطحة!

وكأن ربة منزلي[٢] تتكلم بلا توقيرٍ

على الآلهة!

هل تعرف أن زوجتي كانت تريدُ أن أُذيبَ تمثالي كي تصنع منه جرسًا لكنيستنا؟ وذلك لأنها كان يمكن أن تكونِ عرابتها. إنه تحفةٌ فنيةٌ من تحفِ ميرون[٣] ياسيدي!

(١) - اسم لثلاثة نحاتين فرنسيين شهيرين: نيكولا، وغليوم وغليوم الثاني. (م: ز.ع).

(٢) - تحريف لجملة تقولها إحدى شخصيات موليير: «وكأن هذا الحقير يتكلم بلا توقير على الآلهة».

(٣) - ميرون: نحات إغريقي ولد في أتيكا في الربع الثاني من القرن الخامس ق.م (م: ز.ع).

- تحفـة فنيـة!! تحفـة فنيـة! أية تحفةٍ فنيـة جميلـة هـو! لقـد كسـر ساق أحد الرجال!

فقال السيد دوبيرهوراد بلهجةٍ حازمة، وهو يمدّ نحوها ساقه المنتصبة في جورب حريري موشّى:

- يا امرأتي، أترين؟ لو أن تمثالي هذا، تمثال فينوس، قد كسر ساقي هذه، لما أسفتُ لذلك.

- يا إلهي! كيف يمكنك يا بيرهوراد أن تقول هذا! لحسن الحظّ أن الرجل يتحسن... كما أني لا أستطيع النظر إلى التمثال الذي يجيء بمصائب كتلك المصيبة. يالجان كول المسكين!

فقال السيد دوبيرهوراد، وهو يضحكُ ضحكةً عريضة:

- إن الحقير يشكو، فقد جرحته فينوس.

لن تعرف أُعطيات فينوس[1]

«فمن لم تجرحه فينوس؟»

وغمز السيد ألفونس الذي كان يفهم الفرنسية أفضل مما يفهم اللاتينية، غمز بعينه وكأنه يفهم. ونظر إليّ وكأنه يسألني: «وأنت، أيها الباريسي، هل تفهم؟».

انتهى العشاء، وكنتُ قبلَ ساعة قد توقفت عن الأكل. وكنت متعبًا، ولا أفلح في إخفاء التثاؤبات المتكررة التي كانت تفلت مني. وقد تبيَّنتْ ذلك أولاً السيدةُ دو بيرهوراد. ولاحظت أنه قد حان وقتُ الذهاب إلى النوم. حينذاك، بدأت اعتذاراتٌ جديدة عن المبيت السيِّئ الذي سأحصلُ عليه: فلن يكون لي مكانُ إقامةٍ كما في باريس، ففي الريف، ظروفُ الإقامة سيئة! ولابدّ من التساهل مع روسيون. وكنت أحتجُّ قائلاً إنه بعد جولةٍ في الجبال، ستكون كومةٌ من القش

(١) - باللاتينية في النص (م: ز.ع).

مرقداً لذيذاً لي، ولكن من غير جدوى، فقد كانوا يرجونني باستمرار أن أعذر الريفيين المساكين، إذا لم يعاملوني مثلما يرغبون. وصعدتُ أخيراً إلى الغرفة التي كانت مخصصةً لي، يرافقني السيد دوبير هوراد. وكان السلّم الذي صنعت درجاته العليا من الخشب يفضي إلى وسط ممرٍّ يطلُّ عليه عددٌ من الغرف.

وقال مضيفي: على اليمين، هناك الشقة التي أخصّصها للسيدة زوجة ألفونس المقبلة. أما غرفتك، ففي آخرِ الممر المقابل.

وأضاف بلهجةٍ أرادها أن تكون حاذقة:

وأنت تدرك جيداً أنه ينبغي عزلُ العروسين الجديدين، فأنتَ في جهةٍ من المنزل، وهما في الجهة الأخرى.

ودخلنا إلى غرفةٍ مؤثثة جيداً، فكان أول شيء استرعى نظري هو سريرٌ طوله سبعةُ أقدام، وعرضه ستة. وهو عالٍ بحيث كان لابدّ من مرقاةٍ للارتقاء إليه. وبعد أن دلّني مضيفي على مكان الجرس، وتأكّد بنفسه من أن السكرية ملأى. وأن زجاجاتِ الماء المعطر موضوعةٌ على المزينة كما ينبغي، وبعد أن سألني عدة مرات عما إذا كان ينقصني شيءٌ، تمنى لي ليلةً طيبةً وتركني وحدي.

كانت النوافذ مغلقةً، ففتحت واحدةً منها لأستنشق هواءَ الليلِ المنعش واللذيذ بعد عشاءٍ دام طويلاً، وذلك قبل أن أخلع ملابسي. كان جبل لوكانيغو قبالتي، ومنظره يثير الإعجاب، كما في كلّ وقت. ولكنه بدا لي في ذلك المساء، أجملَ جبلٍ في العالم، فقد كان ينيره قمرٌ بهي، ومكثتُ بضعَ دقائق وأنا أتأملُ صورته الرائعة، وكنت أهمُّ بإغلاق نافذتي عندما لمحتُ، وأنا أخفض عيني، التمثالَ منصوباً على قاعدة - على بعد عشرين قامةً[1] من المنزل. لقد كان موضوعاً على زاوية سياجٍ شائك الأغصان يفصلُ حديقة صغيرة عن مربع واسع ممهد تماماً. وقد كان، كما عرفتُ فيما بعد، مكاناً للعبة تنس راحةِ اليد في المدينة. وكان السيد

---

(١) - مقياس يساوي ستة أقدام. (م: ز.ع).

دوبيرهوراد قد تنازل عن هذه القطعة من الأرض التي يملكها إلى القرية، نزولاً عند إلحاح ابنه الشديد عليه.

كان من الصعب علي، من المسافة التي كنتُ فيها أن أميز وقفةَ التمثال، ولم يكن باستطاعتي أن أحكم إلا على ارتفاعه الذي بدا لي ما يقربُ من ستةِ أقدام. وفي تلك اللحظة، كان ولدان شقيان من المدينة يمران على ملعبِ تنس راحة اليد، وقريبًا من السياج بصورة كافية، ويصفران لحن روسيّون الجميل: «جبالٌ مضطرمة». وتوقفا لينظرا إلى التمثال، وحتى أن أحدهما قد ناداه بصوتٍ عالٍ، فقد كان يتكلم الكاتالانية، ولكني كنتُ في روسيّون منذ مدّة طويلة، فتمكنتُ من فهمِ ما كان يقوله تقريبًا، كان يقول: - ها أنت إذن، أيتها الخبيثة! (كان التعبير الكاتالاني أكثر قسوة)، هذا أنت إذن من كسر ساق جان كول! لو كنتِ ملكي لكسرت عنقك. فقال الآخر: عجبًا! وبماذا. إنها من النحاس. وهي قاسية إلى درجة أن إيتيين قد كسر مبرده عليها وهو يحاول شقها. إنها مصنوعة من نحاسِ زمن الوثنيين، إنها أقسى من أي شيء آخر، بلا تحديد.

- لو كان لدي إزميلٌ على البارد (يبدو أنه كان صبي حداد أقفال)، لاقتلعتُ عينيها الكبيرتين البيضاوين حالاً، ولجنيت فائدةً من غلافها، ففيه أكثر من عشرين ليرة فضية.

وسارا بضع خطوات وهما يبتعدان.

وقال أطول الصبيين قامة، وهو يتوقف بغتةً: «يجب أن أتمنى للصنم مساءً سعيدًا» وانحنى، وربما التقط حجرًا، ورأيته يبسطُ ذراعه، ويقذف شيئًا ما، وفي الحال، دوت ضربةٌ رنانةٌ على البرونز. وفي اللحظة نفسها، رفع الصبي يده إلى رأسه، وهو يطلقُ صرخةً أليمة ويصيح: «لقد ردّت الحجر لي!».

وهرب الشقيّان اللذان أتحدث عنهما بأقصى سرعتهما، فقد كان من الواضح أن الحجر قد ارتدّ عن المعدن، واقتصّ من الصبي المازح على الإهانة التي وجهها إلى الآلهة.

وأغلقتُ النافذة وأنا أضحكُ من كلِّ قلبي.

«هذا همجيٌّ آخر عاقبته فينوس، فلتشجّ رؤوسُ كلِّ مخربي أوابدنا القديمة على هذا النحو!».

وأغفيت وأنا أردِّدُ تلك الأمنية الخيّرة.

عندما استيقظت، كان الوقت ضحى، وكان إلى جانب سريري السيد دوبيرهوراد من جهة، وهو يلبسُ رداءه المنزلي، وخادمٌ من الجهة الأخرى، أرسلته زوجة السيد دوبيرهوراد، وهو يحملْ في يده فنجانًا من الشوكولا.

وكان مضيفي يقول، فيما كنتُ أرتدي ملابسي على عجل: «هيا، انهض، أيها الباريسي!» فالساعةُ هي الثامنة، ولازلتَ في السرير، أما أنا، فكنتُ مستيقظًا منذ الساعة السادسة وها هي المرّة الثالثة التي أصعد فيها، وقد اقتربت من بابك على رأس أصابع قدمي: ولا أحد، ما من خبرٍ عن أحد. سوف يضرّبك أن تنام أكثر من اللازم في مثل سنك. وتمثالي فينوس الذي لم تره بعد، هيا، فلنتناول بسرعة فنجان الشوكولاته البرشلونية هذا... إنها شوكولاته مهربة فعلاً. شوكولاته غير متوفرة في باريس. استعدْ قواك. فعندما تصبح أمام تمثالي فينوس، لن يكونَ بالإمكان انتزاعك منها.

غدوت جاهزاً في غضونِ خمس دقائق، أي أنني كنت قد حلقت ذقني جزئيًا، وزرّرت ملابسي بشكلٍ سيىء، وكانت تحرقُ جوفي الشوكولاته التي ابتلعتها شديدةَ السخونة، ونزلت إلى الحديقة، فوجدتُ نفسي أمام تمثالٍ يثيرُ الإعجاب.

كانت فعلاً تمثالاً لفينوس رائع الجمال. وكان الجزءُ الأعلى من جسمه عاريًا، كما كان القدماءُ يمثّلون عادة الآلهة الكبرى. كانت يدُ فينوس اليمنى المرفوعة إلى مستوى النّهد ملتويةً، راحتها إلى الداخل. أما الإبهام والإصبعان الأوّلان فكانت ممدودة، والاثنان الآخران مثنيين قليلاً. أما اليدُ الأخرى، القريبةُ من الورك، فقد

كانت تسندُ الرداءَ الذي يغطي الجزءَ الأدنى من الجسم. كانت وقفةُ ذلك التمثال تذكّرُ بوقفةِ لاعب المور[1] الذي يطلقون عليه اسم جرمانيكوس، ولم أعد أدري لماذا. فهل كان يراد من ذلك ربما أن تُصوِّر الآلهة وهي تلعبُ لعبة المور[1].

ومهما يكن من أمر، فمن المستحيل أن نرى شيئًا أكثر كمالاً من جسم ذلك التمثال فينوس؛ فلا شيء أكثرُ عذوبةً، وأكثرَ إثارةً للشهوات من استدارات جسمها، ولا شيء أكثر أناقةً، وأكثر نبلاً مما ترتديه. لقد كنتُ أتوقعُ رؤيةَ عملٍ فني من عهد الأمبراطورية البيزنطية، فرأيتُ رائعةً من روائعِ أفضلِ عهدٍ من عهود صنع التماثيل. وما أدهشني خصوصًا كان واقعيةُ التكوينات الرهيفة بحيث يمكن أن نظنَّها قد صنعت في قوالبَ طبيعية، إذا كانت الطبيعةُ تنتجُ نماذجَ على تلك الدرجة من الإتقان.

أما الشعرُ المرفوعُ على الجبين، فقد كان يبدو أنه قد طلي بالذهب قديمًا. وكان الرأسُ الصغيرُ مثل رأسِ كافة التماثيل الإغريقية تقريبًا، كان منحنيًا انحناءةً خفيفةً إلى الأمام. أما الوجهُ، فلن أُفلح قط في التعبير عن سمته الغريبة، فنموذجه لا يقتربُ من أي نموذجٍ لتمثالٍ قديم يذكرني به. وهو لم يكن إطلاقًا ذلك الجمال الهادئ والصارم والذي يميز النحاتين الإغريق والذين كانوا يضفون، بصورةٍ منهجية، جمودًا جليلاً على كل القسمات. أما هنا، فعلى العكس من ذلك، كنتُ ألاحظُ بدهشة قصدَ الفنان الواضح كي يجعل المكر يصلُ حتى الأذى.

لقد كانت كلُّ سمات التمثال منكمشةً بعضَ الشيء، فالعينان مائلتان قليلاً، والفمُ مرفوعٌ من زاويتيه، والمنخرانِ منتفخان قليلاً. فالاحتقارُ، والسخريةُ والقسوةُ كانت تقرأ على ذلك الوجه الذي كان مع ذلك جميلاً إلى درجةٍ فائقة. وفي حقيقةِ الأمر، فكلما نظرنا إلى ذلك التمثال الرائع أكثر، كلما أحسسنا بشعورٍ مضنٍ مصدره أنه بالإمكان أن يتوافقَ جمالٌ رائع كذلك الجمال مع غيابٍ لكلِّ حساسيةٍ فيه.

(١) - لعبة المور (Mourre) لعبة حظٍ قديمة تتمثل في تخمين الرقم الصحيح المشار إليه بالأصابع. (م: ز.ع).

قلت للسيد دوبيرهوراد: «لئن وُجد هذا النموذج في يومٍ من الأيام، فأنا أشكُّ بأن تكون السماءُ قد خلقت يومًا امرأة كتلك المرأة التي أرثي لعشاقها!».
ولابدّ أنه قد راقَ لها أن تجعلهم يموتون من اليأس، ففي تعابيرها شيءٌ من الشراسة، ومع ذلك، فلم أرَ قطّ شيئًا بمثل جمالها.

وهتف السيد دوبيرهوراد وقد سرته حماستي:

- هذه هي فينوس المتشبثة كليًّا بضحيتها!.

وازداد تأثيرُ هذه العبارة الساحرة الجهنمية ربما بسبب التباين بين عيني التمثال المرصعتين بالفضة والزنجار الأخضر الضارب إلى السواد والذي أضفاه الزمنُ على التمثال بكامله، فقد كانت هاتان العينان اللامعتان تحدثان وهمًا يذكر بالواقع والحياة. إني أتذكر ما قاله لي مرشدي من أنها كانت تجعل أولئك الذين ينظرون إليها يخفضون أبصارهم. وقد كان ذلك صحيحًا تقريبًا، فلم أستطع الامتناعُ عن القيام بحركةٍ غاضبة ضدّ نفسي لأني شعرتُ بقليلٍ من الضيق أمام ذلك الشكل البرونزي.

وقال مضيفي: «الآن وقد تأملت تفاصيل كل شيء بإعجاب، يا زميلي العزيز في الأثريات القديمة، فلنفتح جلسةً علمية، إذا تفضلت. فماذا تقول عن هذه الكتابة التي لم تنتبه إليها بعد؟

وكان يريني قاعدة التمثال، فقرأت عليه هاتين الكلمتين:

CAVE AMANTEM[1]

وسألني وهو يفركُ يديه: ماذا تقولُ، أيها العالم[2]؟، ولنرَ إن كنا سنتفقُ على معنى هذه الـCAVE AMANTEM!

---

(١) - باللاتينية في النص، وستأتي ترجمتها فيما يلي من نص القصة. (م: ز.ع).
(٢) - باللاتينية في النص أيضًا. (م: ز.ع).

فأجبت : - ولكن لها معنيين، فيمكننا أن نترجمها كما يلي : «احترس ممن يحبكَ أو : لا تثق بالعشاق»، غير أنها بهذا المعنى، لا أدري إن كانت CAVE AMANTEM تُعدُّ صياغة لاتينيةً جيدة. وحين أرى تعبيرَ السيدة الشيطاني، أظن بالأحرى أن الفنان قد أراد أن يحذّر المشاهدَ من ذلك الجمال المخيف. فأترجمُ في هذه الحالة : «انتبه لنفسك إذا ما أحبَّتكَ».

فقال السيد دوبيرهوراد - هيم! أجل، إنه معنًى مقبول. ولكن، مهما يكن رأيك، فأنا أفضّلُ الترجمةَ الأولى، والتي سأفضّلُ فيها مع ذلك، فهل تعرفُ عشيقَ فينوس.

- هناك بضعةُ عشاق.

- أجل، ولكن أولهما هو فولكان. ألم يكن هناك قولٌ معناه : إنه «برغم جمالك، وما تُبدينه من ازدراء، فلسوف يكون عشيقك حدّاداً أعرجَ قبيحًا؟» إنه درسٌ عميق، يا سيدي، لذوات الدلال!

ولم أستطع الامتناع عن الابتسام، لفرط ما بدا لي الإيضاحُ واهيًا.

وكي أتحاشى معارضةَ صديقي، جامعِ الآثار معارضةً قطعيةً، فقد أبديتُ الملاحظةَ التالية :

«يالها من لغة رهيبة، هذه اللغة اللاتينية لما فيها من إيجاز»، وتراجعت بضعَ خطواتٍ كي أتأمل التمثال.

فقال السيد بيرهوراد، وهو يوقفني من ذراعي :

«لحظة، أيها الزميل! إنك لم تر كلّ شيء، فهناك كتابةٌ أخرى أيضًا. فاصعد إلى القاعدة، وانظر إلى الذراع اليمنى». وأخذ يساعدني على الصعود، وهو يتكلمُ على هذا النحو.

تشبثت من غير كلفةٍ تُذكر بعنقِ التمثال الذي بدأت أتآلفُ معه، وحتى أنني نظرتُ إليه للحظةٍ من الزمن (بازدراء)، فوجدته عن كثب أكثر خبثًا أيضًا،

وأجمل، ثم تحققت من أن عليه بعض حروفِ كتابة قديمة، محفورة على ذراعه، كما بدا لي. وبمساعدةٍ كبيرة من النظارات، تهجّأت ما سيأتي، في حينِ أن السيد دوبيـرهوراد كـان يكرّرً كلّ كلمـة. كلمـا أتلفظُ بهـا، مـوافقاً عليـهـا بالحـركـة، وبالصوت، وهكذا فقد قرأت:

VENRI TVRBL...

EVTYCHES MYRO

IMPERO FECIT

وبدا لي، بعد كلمة Venri هذه الموجـودة في السطر الأول، أن هـناك بعض الحروف التي مُحيت، إلاّ أن: TVRBVL كانت مقروءةً تماماً.

فسألني مضيفي، مشرقَ الوجه ومبتسماً بمكر، فقد كان يظنُّ أنني لن أتدبَّر أمري بسهولةٍ مع هذه الـ TVRBVL.

فقلت له: - ثمة كلمة لم أتوصل إلى تفسيرها بعد، أما الباقي فسهل: إن أوتيشس ميرون قد وجّه هذه التقدمة إلى فينوس بناءً على أمرٍ منه:

- رائع، أما TVRBVL فماذا تفعلُ بها؟ وهي TVRBVL؟

- إن TVERBVL تحيّرني كثيراً. إني أبحثُ من غير جدوى عن صفةٍ معروفةٍ لفينوس يمكن أن تعنيني، هيا، ماقولك في TVRBVLENTA ؟ أيٍ فينوسٍ التي تقلق والتي تسببُ الاضطراب... أنت تلاحظ أني مهتمٌ دائماً بتعبيرها الشرير، وأضفت بتواضع: إن TVRBVLENTA ليست نعتاً سيئاً جداً بالنسبة لفينوس. فأنا نفسي لم أكن راضياً تماماً عن تفسيري.

- فينوس الضاجة! فينوس الصاخبة! آه! أنت تظنّ إذن أن فينوس هي فينوس الملهى؟ إطلاقاً، يا سيدي، إنها فينوس الصُّحبة الحسنة. غير أني سأشرحُ لك هذه الـ: TVRBVL... وعلى أية حال، فأنت تعدُني بألا تذيعَ شيئاً عن اكتشافي، قبل طبع دراستي عنه. لأني، كما ترى، أفخر بهذه اللقية... فلا بدّ

حقًّا أن تتركوا بعض السنابل كي نلتقطها، نحن مساكين الريف. فأنتم جدُّ أغنياء، أيها السادة العلماء الباريسيون!

فوعدته من أعلى قاعدة التمثال الذي كنت لا أزالُ جاثمًا عليه، وعدته وعدًا احتفاليًّا بأني لن أكون قطّ دنيئًا بحيث أسرقُ اكتشافه.

فقال وهو يقترب، ويخفض صوته خوفًا من أن يتمكن شخصٌ آخر من سماعه:

إن TVRBVL ينبغي قراءتها: TVRBVLNERAE.

- لم أعد أفهم.

اصغِ جيداً. على بعد فرسخٍ من هنا، وفي أسفل الجبل، ثمة قرية اسمها بولتيرنير، وهي تحريفٌ مشوّهٌ للكلمة اللاتينية TVRBVLNERA، فما من شيءٍ أكثر شيوعًا من هذه التأخيرات والتقديمات. إن بولتيرنير، يا سيدي، قد كانت مدينةً رومانيةً، ولطالما خامرني الشكُّ بالأمر غير أني لم أقع على ما يُثبتُ ذلك قطّ. وهذا هو الإثبات، ففينوس هذه قد كانت آلهة مدينة بولتيرنير المحليّة، وكلمة بوليترنير، التي برهنتُ منذ قليلٍ على أصلها القديم، تثبتُ شيئًا أكثرَ إثارةً للاستغراب، وهي أن بولتيرنير قد كانت مدينةً فينيقية، قبل أن تكون مدينةً رومانية!.

وتوقف لحظةً كي يتنفس، ويستمتعَ بدهشتي. وأفلحتُ في كبحِ رغبةٍ شديدة لدي بالضحك.

واستأنف قائلاً: في الواقع إن TVRBVLNERA هي كلمةٌ فينيقية صرفة و TVR ويجب لفظها TOUR (تور)... تور أو سور، وهي الكلمة نفسها أليس كذلك؟ وصور هي الكلمة الفينيقية TYR[1]. ولا أحتاجُ إلى تذكيرك بمعناها. أما BVL فهي بعل، وبال وبيل وبول[2]، وبينها اختلافاتٌ طفيفة في اللفظ. أما نيرا

---

(١) - أي مدينة صور المعروفة. (م: ز.ع).

(٢) - BEL و BVL (م: ز.ع).

NERA فتصعبُ علي قليلاً، وهناك ما يغريني بالاعتقاد بأنها تأتي من اليونانية vnpds، لأني لم أجد كلمةً فينيقية مقابلة، وهي بمعنى: رطب، ومستنقعي. فقد تكون إذن كلمةً هجينة وكي نسوّغ، vnpds، فلسوف أريك في بوليترنير كيف أن سواقي الجبل تشكّل فيها مستنقعات منتنةً. ومن جهةٍ أخرى، فمن الممكن أن تكون نهاية الكلمة NERA قد أُضيفت بعد ذلك بوقتٍ طويل إكراماً لنيرا بيفسوفيا، زوجة تيتريكوس، والتي أسدت معروفًا ما لمدينة توربول، غير أني أفضل الاشتقاق vnpds بسبب وجود المستنقعات.

وأخذَ قبضةَ نشوق، وقد بدا عليه الارتياحُ.

– ولكن لندع الفينيقيين، ولنعد إلى الكتابة المنقوشة، وقد ترجمتُ كما يلي: إلى فينوس التي من بولتيرنير، يُهدي ميرون هذا التمثال الذي صنعه، وذلك بناءً على أمرٍ منه.

حرصتُ جيداً على ألا أنتقد اشتقاقه، ولكني أردتُ بدوري، أن أُدلّلَ على فكرٍ ثاقب، فقلت له:

توقف، أيها السيد، فإن ميرون قد كرّس شيئًا ما، ولكني لا أجدُ إطلاقًا أنه قد كرّس التمثال.

فصرخ: – كيف! ألم يكن ميرون نحاتًا إغريقيًّا شهيراً؟ ولا بدّ أن الموهبةَ قد استمرت في أسرته، وأن أحد أحفاده قد صنع هذا التمثال، وما من شيء أكثر تأكيداً من ذلك.

فردّدت قائلاً: ولكني أرى على الذراع ثقبًا صغيراً. وأظن أنه قد استخدم في تثبيت شيء ما، كأن يكون سواراً أعطاه ميرون لفينوس كتقدمة تكفيرية. فقد كان ميرون عاشقًا منكوداً، وكانت فينوس ساخطةً عليه، فهدأها بتكريس سوارٍ ذهبي لها. لاحظ أن كلمة Fecit غالبًا ما تؤخذ بمعنى Consecravit[1]. إنهما كلمتان مترادفتان.

---

(١) – كلمة لاتينية معناها: كرَّسَ. (م: ز.ع).

ولو كانت بين يديّ مؤلفات غروتر[1] أو أوريلّلي[1]، لقدّمت لك أكثر من مثال، فمن الطبيعي أن يرى العاشقُ فينوس في الحلم، وأن يتصوّر أنها تأمره أن يمنحَ تمثالها سواراً ذهبياً. وقد كرّس ميرون سواراً للتمثال، ثم أن البرابرة أو سارقًا مدنّسًا قد . . .

فهتف مضيفي وهو يعطيني يده، كي أنزل:

– أه! يلاحظ المرء جيدًا أنك قد ألفّتَ روايات! كلا، يا سيدي، إنه تحفةٌ فنيةٌ من مدرسةِ ميرون، فانظر إلى العمل فقط، ولسوف تقتنع بذلك.

وبما أني قد أخذت على نفسي عهداً ألا أعارضَ قطّ المهتمين بالآثار العنيدين، فقد خفضت رأسي، مظهراً الاقتناع، وأنا أقول:

«إنها لقطعةٌ مثيرة للإعجاب».

وهتف السيد دوبيرهوراد:

– أه! يا إلهي! هذا أيضًا عملٌ من أعمالِ التخريب الهمجي! لابدّ أن حجراً قد قُذفَ على تمثالي!.

كان قد لمح علامةً بيضاء فوق صدرِ فينوس، فلاحظتُ علامةً مماثلةً على أصابع اليد اليمنى التي افترضتُ حينذاك أنها قد أُصيبت من خلال مسار الحجر، أو أن قطعة منه قد انفصلت من جراء الصدمة، وخدشت اليد. ورويتُ لمضيفي الإهانةَ التي كنت شاهداً عليها، والقصاصَ العاجل الذي تبعها. فضحكَ من الأمر كثيراً وهو يشبّهُ الصبيّ المتدربَ بديوميد[2]، وتمنى له أن يرى، شأن البطل الإغريقي، كلّ رفاقه يتحولون إلى طيور بيضاء.

---

(١) – مؤلفان اهتمّا بالأدب اللاتيني. (م: ز.ع).

(١) – حسب الأساطير اللاحقة لهوميروس، ثأرت فينوس من ديوميد بأن حولّت رفاقه إلى طيور بيضاء. (م: ز.ع).

وقطع جرسُ الغداء ذلك الحديثَ التقليدي، فاضطررتُ لأن آكلَ بقدرِ أربعةِ أشخاص، كما حدثَ معي في اليوم السابق، ثم أتى عاملون في مزارع السيد دو بيرهوراد وبينما كان يقابلهم، أخذني ابنهُ لرؤيةِ عربةِ خيل كان قد اشتراها من طولوز لخطيبته، فأبديتُ إعجابي بها، وهذا أمرٌ طبيعي. وبعد ذلك، دخلت وإياه إلى الإسطبل حيث احتجزني نصفَ ساعة وهو يتباهى بخيوله، ويقدم لي سلسلة نسبها، ويروي لي عن الجوائز التي فازت بها في سباقاتِ المنطقة، وأخيراً، وصل إلى الحديث معي عن خطيبته، من خلال حديثٍ انتقاليٍ عن مهرة رمادية كان قد خصّها بها.

وقال: سوف تراها اليوم، ولاأدري إن كنت ستجدُها جميلة. فأنتم في باريس يصعبُ إرضاؤكم. غير أن كلَّ الناسِ هنا، وفي بيربينيان، سيجدونها فاتنةً. والجيدُ في الأمر أنها على حظٍّ وافر من الثراء. فقد أورثتها عمتها دوبراديس أملاكها. أوه! سأكون مغموراً بالسعادة.

لقد صُدمتُ بعمق لأني رأيتُ فتى يتأثر بمهرِ خطيبته الموعودة أكثر مما يتأثر بعينيها الجميلتين.

وتابع السيد ألفونس: أنت خبيرٌ بالحليّ، فكيف تجدُ هذه الحلية؟ إنها الخاتمُ الذي سأقدمه لها غداً.

وكان، وهو يتحدثُ على هذا النحو، يسحبُ من السلاميةِ الأولى من خنصره، خاتماً ضخماً مرصعاً بعدد من الماسات، ويتكونُ من يدين متشابكتين، وهذا الماحٌ بدا لي شاعرياً للغاية. كانت صنعته قديمةً، غير أني قدرتُ أنهم قد عدلّوه بحيث رصعوه بالماسات. وفي داخل الخاتم، كانت تقرأ هذه الكلماتُ المكتوبةُ بحروفٍ قوطية:

SEMPER 'AB TI. أي: معك دائماً.

فقلت له: إنه خاتمٌ جميل، بيد أن هذه الماسات التي أضيفت إليه قد جعلته يفقد بعضاً من طابعه.

فأجاب وهو يبتسم: - أوه! إنه هكذا أجمل بكثير، ففيه من الماس مايعادلُ ألف ومئتي فرنكًا. إن والدتي هي التي أعطتني إياه. ولقد كان خاتمًا عائليًا قديمًا جداً. . . منذ عهد الفروسية. وكانت قد استخدمته جدّتي التي أخذته من جدَّتها. والله يعلمُ متى صُنع. فقلت له: إن العرفَ في باريس هو تقديمُ خاتمٍ بسيطٍ تمامًا، ويتكون عادةً من معدنين مختلفين كالذهب والبلاتين. انظر إلى ذلك الخاتم الآخر الذي تضعه في إصبعك هذه. إنه قد يكون مناسبًا جداً. أما ذاك الخاتمُ فهو ضخمٌ جداً بماساته ويديه النافرتين بحيث لا يمكن أن يلبس قفازٌ فوقه.

كان ينبغي لنا أن نتناولَ العشاء في بويغاريغ، في ذلك اليوم، وذلك في منزل أهل الخطيبة، فصعدنا إلى عربة الخيل، وتوجهنا إلى القصر الذي يبعدُ عن إيل مايقارب فرسخًا ونصف، ولقد قدّموني على أني صديقُ الأسرة، فاستقبلتُ على هذا الأساس. ولن أتكلم على العشاء، وعلى الحديث الذي تبعه وساهمتُ فيه مساهمةً قليلة. أما السيد ألفونس الذي جلس إلى جانب خطيبته، فقد كان يقول لها كلمةً في أذنها كلّ ربع ساعة. أما هي، فقلما كانت ترفع عينيها، وفي كلّ مرة، كان خطيبها يكلمها فيها، كانت تحمرُّ خجلاً بتواضع، ولكنها كانت تجيبه من غير إحراج.

كانت الآنسة دوبويغاريغ في الثامنة عشرة من عمرها، وكانت قامتها لينةً وناعمة، تتناقض مع التكوينات العظمية لخطيبها القويّ البنية. وهي لم تكن جميلة فقط، بل كانت جذابة. وكان يعجبني أسلوبها الطبيعي الكامل في أجوبتها. وذكّرني ما يظهر عليها من طيبة بفينوس مضيفي رغمًا عني، مع أن مظهرها لم يكن يخلو مع ذلك من مسحةٍ من المكر طفيفة، وكنت أتساءل من تلك المقارنة التي أجريتها بيني وبين نفسي إن كان لايكمنُ التفوقُ الجماليُّ للتمثال الذي لابدّ من إقراره له، في تعبيره الشرس، إلى حدٍّ كبير، لأن الاقتدار، حتى في الأهواء الشريرة، يثيرُ فينا على الدوام دهشةً، وضربًا من الإعجاب اللاإرادي.

فقلت في نفسي وأنا أغادر بويغاريغ : كم هو مؤسف أن يكون كائنٌ بشريٌّ لطيف كتلك المرأة غنيًّا، وأن يبتغيها رجلٌ ليس أهلاً لها بسبب مهرها!

وحين رجعتُ إلى إيل، ولم أعد أدري ماذا أقول للسيدة بيرهوراد التي كنت أظنّ من المناسب أن أوجه إليها الكلامَ أحيانًا، فهتفتُ:

إنكم ذوو عقولٍ جريئة في روسيّون، فكيف يا سيدتي، تعقدون قرانًا في يوم جمعة! لعلّنا متطيّرون أكثر منكم في باريس، ولا يجرؤ أحدٌ على الزواج في يوم كهذا.

فقالت لي: - ياإلهي! لاتكلّمني عن ذلك، فلو يتعلّق الأمرُ بي، لتمَّ اختيار يومٍ آخر بالتأكيد. ولكن بيرهوراد هذا. وكان لا بدّ أن نرضخ لذلك. وهذا ما يحزنني مع ذلك. فإن حدثَ مكروهٌ، فلا بدّ فعلاً أن يكون هناك سبب، فلماذا يخافُ كلُّ الناس من نهار الجمعة في نهاية الأمر؟

فهتف زوجها: - الجمعة هو يوم فينوس، وهو يومٌ جيدٌ للزواج! أنت ترى، يا زميلي العزيز، أني لا أفكر إلا بفينوس. وشرفي! إني اخترتُ نهار الجمعة بسببها. وغداً، إذا أردت، سنقدم لها، قبل العرس، أضحيةً صغيرة. وهي يمامتان، ولو كنتُ أعرفُ أين نجد البخور. . .

فقاطعته زوجته مستنكرةً إلى أقصى حدّ: تبًّا! يا بيرهوراد! أنبخّر صنمًا! سيكون هذا رجسًا! فماذا سيقولُ الناسُ عني في المنطقة؟

فقال السيد دوبيرهوراد: ستسمحين لي، على الأقل، أن أضعَ على رأسه إكليلاً من الورد والزنبق:

MANIBUS DATE LILIA PLENIS[1]

أنت ترى، يا سيدي، أن الميثاقَ كلمةٌ لاجدوى منها، فلسنا نتمتع بحريةِ العبادة!

---

(١) - قدّموا الزنبق ملء اليدين. (الإنيادة، النشيد٦، ص: ٨٨٣).

وفي اليوم التالي، نظمت الترتيباتُ على النحو الآتي: كان ينبغي أن يكون الجميع مستعدين في تمام الساعة العاشرة بزيهم الكامل. وبعد تناول الشوكولاته، يتجهون إلى بويغاريغ بالعربة، وكان لابدّ أن يجري الزواجُ المدني، في مقرِ عمدةالقرية، أما الاحتفالُ الدينيّ، ففي كنيسةِ القصر، ثم يأتي الغداءُ. وبعد الغداء، يجري قضاءُ الوقتِ حتى الساعة السابعة مثلما يتسنى ذلك. وفي الساعة السابعة، يعودون إلى إيل، إلى منزل السيد دوبيرهوراد حيث ينبغي أن تتناولَ الأسرتان العشاء مجتمعين وما تبقى يتبعُ بصورةٍ طبيعية. وبما أن الرقصَ لم يكن ممكنًا، فقد كانت هناك رغبةٌ في الأكل بأكبر قدرٍ ممكن.

وبدءاً من الساعة الثامنة، كنت جالساً أمام تمثالِ فينوس، وقلمي بيدي، وأنا أُعيدُ رسمَ رأس التمثال للمرّة العشرين، من غير أنَ أتوصل إلى التقاط تعبيره، وكان السيد دوبيرهوراد يذهبُ ويجيء حولي، ويعطيني النصائح، ويكرر على مسمعي اشتقاقاتٍ فينيقية، ثم يرتب ورودًا بنغاليةً على قاعدةِ التمثال، ويوجه إليه بلهجةٍ محزنة - مضحكة أدعياتٍ من أجل الزوجين اللذين سيعيشان تحت سقفِ بيته. وفي الساعة التاسعة، دخل إلى المنزل ليفكر بهندامه. وظهر في الوقت نفسه، السيد ألفونس، المشدود كثيراً في لباسه الجديد، والذي يرتدي قفازين أبيضين، وحذاءً مدهونًا، وأزراراً مرصعةً، ويضع وردةً على عروة أزراره.

وقال لي وهو ينحني على الرسم الذي أرسمه: «هل تعمل صورةً لامرأتي أيضًا. إنها جميلةٌ أيضًا».

وكانت تبدأ في تلك اللحظة مباراةٌ اجتذبت في الحال اهتمامَ السيد ألفونس على ملعب تنس راحة اليد. أما أنا، فقد تركتُ صورتي سريعًا، بسبب تعبي وفقدي للأمل في تأديةِ تعبير ذلك الوجه الشيطاني. وأخذت أخيراً أتفرجُ على اللاعبين. لقد كان بينهم بعضُ البغالين الإسبان الذين وصلوا في اليوم السابق. كانوا أراغونيين ونافاريين، وجميعهم تقريبًا ماهرون. وهكذا، فإن الإيليين قد هزموا بسرعةٍ على يد هؤلاء الأبطال الجدد برغم حضور السيد ألفونس ونصائحه.

وكان المشاهدون الوطنيون واجمين. ونظر ألفونس إلى ساعته، فلم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف. ولم تكن والدته قد رتبت شعرها. فلم يعد متردداً، فنزع ملابسه، وطلب سترةً، وتحدّى الإسبان. وأخذت أنظرُ إليه وهو يفعل ذلك، وكنت أبتسمُ وقد اعترتني الدهشةُ قليلاً.

وقال: «ينبغي الدفاعُ عن شرف البلد».

وجدته حينذاك وسيماً حقًّا، فقد كان متحمساً. أما تسريحته التي كانت تشغله كثيراً قبل قليل فلم تعد تعني شيئًا بالنسبة إليه. وقبل بضعِ دقائق، كان يمكن أن يخشى أن يديرَ رأسه خوفًا من أن يُفسد شكلَ ربطة عنقه. أما الآن، فهو لم يعد يُبالي بشعره المجعد، ولابصدرته المثناة بإتقان. وخطَيبته؟ الحقّ أنه لو كان الأمرُ ضرورياًّ، لعمل على تأجيل الزواج، كما أظنّ. إني أراه ينتعلُ بسرعةٍ خفًّا؟ ويرفع كُمّيه، ويقودُ بثقةٍ الفريقَ المهزوم مثل قيصر الذي جمعَ جنوده في ديـرّاشيوم. وقفزتُ فوق السياج، ووضعتُ نفسي بشكلٍ مريح في ظلّ شجرةِ ميس، بحيث أرى جيداً الفريقين المتباريين.

أخطأ السيد ألفونس الكرُةَ الأولى، خلافًا للتوقعِ العام، فقد أتت فعلاً على مستوى الأرض، فقذفها بقوةٍ مدهشةٍ لاعبٌ أراغوني كان يبدو كأنه رئيسُ فريقِ الإسبان.

كان ذلك الأراغوني رجلاً في الأربعين من عمره، ضامراً، وعصبيَّ المزاج، وطوله ستةُ أقدام، أما بشرته فزيتونية، وذات لون عاتم مثل برونز تمثال فينوس تقريباً.

ورمى السيد ألفونس مضربه على الأرض بسخط.

وصرخ:

هذا الخاتم اللعين هو الذي يضغطُ على إصبعي، ويجعلني أخطئ كرةً مؤكدة!.

ونزع خاتمهَ الماسي، وليس من غيرِ مشقة، وكنت أقترب ُكي أستلمه منه، ولكنه نبهني، وهرع إلى فينوس، ووضعَ الخاتم في بنصرها، ورجع إلى مركزه على رأس اللاعبين الإيليين.

كان شاحبًا، ولكنه هادئٌ وحازمٌ لأمره. ومنذ تلك اللحظة، لم يرتكب خطيئةً واحدة، فهزِم الإسبانُ هزيمةً كاملة. وكانت حماسةُ المتفرّجين مشهدًا جميلاً، فكان بعضهم يطلق صرخاتِ الفرح التي لاتُحصى، وهم يقذفون قبعاتهم في الهواء. وكان آخرون يصافحونه ويسمونه شرف البلد. ولو أنه كان قد صدَّ غزواً، فأنا أشكّ بأنه كان يمكن أن يتلقى تهنئةً أكثر حرارةً وصدقًا، وكانت كآبةُ المهزومين تزيدُ أيضًا من بريقِ النصر.

وقال للأراغوني بلهجةٍ متعالية: «سوف نلعبُ مباراة أخرى، ولكني سأصدّ لكم الضربات».

كنت أتمنى لو أن السيد ألفونس كان أكثرَ تواضعًا، وقد شقَّ علي إلى حدٍّ ما إذلالُ خصمه.

فقد شعر العملاقُ الإسبانيُّ بتلك الإهانة بعمق. ورأيت لونه يشحب من تحت بشرته المسمرّة. وكان ينظر مغمومًا إلى مضربه، وهو يصرُّ على أسنانه، ثم قال بصوتٍ مخنوق، ووقعٍ خفيض: MELO PAGARAS![1].

وكدّر صوتُ السيد دوبيرهوراد انتصار ابنه. ومهما كانت دهشةُ مضيفي كبيرة لأنه لم يرَ ابنه يُشرفُ على تجهيزات العربة الجديدة، فقد أدهشه أكثر أن يراه يقطرُ عرقًا، ومضربه في يده. فقد هرع ألفونس إلى المنزل، وغسل وجهه ويديه، وارتدى مجدّدًا ملابسه الجديدة، وحذاءه المدهون. وما هي إلا خمس دقائق حتى أصبحنا نعدو عدواً سريعًا على طريق بويغاريغ. وكان كلٌّ لاعبي تنس اليد الآتون من المدينة وعددٌ من المتفرجين يتبعوننا بصرخاتِ الفرح. وكانت خيولنا القوية التي تجرنا تتمكن بصعوبةٍ من المحافظة على تقدُّمنا على هؤلاء الكاتالانيين المقدامين.

---

(١) - ستدفع ثمنَ ذلك لي (بالإسبانية في النص).

كنا في بويغاريغ، وكان الموكبُ على وشك الانطلاق باتجاه دار العمدة، عندما قال لي السيد ألفونس بصوت خفيض، وهو يلطم جبهته:

«يا لها من هفوة! لقد نسيتُ الخاتم! إنه في إصبع فينوس، فعسى أن يأخذني الشيطان! لاتقل هذا لوالدتي على أية حال، ولربما لا تلاحظ شيئًا».

وقلت له: ربما يمكنك أن ترسل أحداً.

- باه! لقد بقي خادمي في إيل، أما هؤلاء فقلّما أثق بهم. إن ماساً بقيمة ألف ومئتي فرنكًا يمكن أن يُغري أكثر من شخص. وماذا سيكون رأيُ الناس بشرودي، فضلاً عن ذلك؟ إنهم سيسخرون مني كثيراً، ولسوف يسمونني زوج التمثال... والمهم هو ألا يسرقوه! إن التمثال يخيفُ هؤلاء الأنذال لحسن الحظ. وهم لايجرؤون على الاقتراب منه على مسافة ذراع. باه! لا أهمية لذلك، فلديَّ خاتمٌ آخر.

وتمّ الاحتفالان، المدني والديني، بالأبهة المناسبة، وتلقت الآنسة دو بويغاريغ خاتمًا من مصممة أزياء باريسية. من غير أن تشكّ بأن عريسها قد ضحى لها بعربون عن محبته. ثم جلس الناسُ إلى المائدة حيث شربوا وأكلوا، وحتى غنوا، وجرى كلّ ذلك بصورةٍ مطولة. وكنت أتألم للعروس بسبب الضحك العاصف الذي كان ينفجر حولها. ومع ذلك، فقد كانت تبدي أفضلَ رباطة جأشٍ كان يمكن أن آمل بها، ولم يكن حرجها ارتباكًا ولا تظاهراً، ولربما تأتي الشَجاعةُ في المواقف الصعبة.

ما إن انتهى الغداء بمشيئة الله، حتى كانت الساعةُ تشير إلى الرابعة. فذهب الناسُ كي يتنزهوا في البستان الذي كان رائعًا، أو ليشاهدوا فلاحات بويغاريغ يرقصن على أرض القصر الخضراء، وقد تزيّن بملابسهن الاحتفالية. وهكذا فقد أمضينا على ذلك النحو بضع ساعات. ومع هذا، فقد كانت النساء يتزاحمن حول العروس التي كانت تجعلهن يبدين الإعجابَ بهدايا عريسها لها. ثم بدّلت ملابسها، ولاحظتُ أنها قد غطت شعرها الجميل بقلنسوة، وبقبعةٍ من الريش.

فليس لدى النساء ما هو أكثر إلحاحًا من أن يستخدمن الحلي التي يمنعهن العرفُ من لبسها، حينما يكن لا زلن آنسات، وذلك حالما يستطعن ذلك.

كانت الساعةُ قد قاربت الثامنة عندما تمّ الاستعدادُ للذهاب إلى إيل. ولكن مشهداً مؤثراً قد جرى أولاً، فعمةُ الآنسة دوبويغاريغ، التي كانت بمثابة والدتها، وهي امرأةٌ طاعنة في السن، وشديدة الإيمان، ولم يكن من المقرر أن تذهب معنا إلى المدينة، قالت لابنة أخيها، عند انطلاقنا، عظةً مؤثرةً عن واجباتها كزوجة، ومن تلك العظة تدفق سيل من الدموع، وعناقاتٌ لا تنتهي. أما السيد دوبيرهوراد فقد كان يشبّه ذلك الفراق باختطاف السّابينيّات. ومع ذلك، فقد انطلقنا. وأثناء الطريق، أخذ كلٌّ واحدٍ يبذل جهده لتسليةِ العروس وجعلها تضحك، غير أن ذلك كان بلا طائل.

وفي إيل، كان العشاءُ ينتظرنا، وأي عشاء؟ ولئن كان فرحُ الصباح العاصف قد صدمني، فقد صُدمت أكثر حقًا من الكلام المشبوه والمزاحات التي كان العريس والعروس موضوعها خصوصًا. أما العريسُ الذي اختفى للحظةٍ من الزمن، قبل أن يجلس إلى المائدة، فقد كان شاحبًا، وجديًا كالجليد. وكان يشربُ في كلّ لحظة من نبيذ كوليور العتيق والقوي تقريبًا مثل ماء الحياة[1]. وكنت إلى جانبه، وظننتُ أنه من المفروض أن أحذره:

«احذر! يُقال إن النبيذ. . .»

ولا أدري أية حماقة قلتُ له كي أكون منسجمًا مع ما يقوله المدعوون. فدفع ركبتي، وقال لي بصوتٍ خفيض جداً:

«عندما تقوم عن المائدة. . . فليتسنّ لي أن أقول لك كلمتين».

وأدهشتني لهجته الاحتفالية، ونظرتُ إليه باهتمامٍ أكبر، ولاحظتُ التغيرَ الغريبَ في قسماتِ وجهه، فسألته:

(١) مشروب مركز مسكر. (م: ز.ع).

- هل تحسُّ بانحرافٍ في صحتك؟

- كلا.

ومع ذلك، ففي خضمٍّ الصرخات، وصفقات الأيدي، كان هناك طفلٌ في الحادية عشرة وقد انزلق تحت المائدة، فأخذ يظهر للحاضرين شريطةً جميلة بيضاء ووردية كان قد فصلها عن كعبِ قدم العروس. وهذه الشريطة تسمى ربطةُ الساق. وقد جرى تقطيعها سريعًا إلى قَطع، وتوزيعها على الشباب الذين زينوا بها عرى قمصانهم حسب تقليدٍ قديم لا يزال معمولاً به، عند بعض العائلات الأبوية. وكان ذلك الأمرُ، بالنسبة للعروس، سببًا كي تحمرَّ خجلاً إلى أقصى حدّ. . . غير أن ارتباكها قد بلغ أوجه عندما غنى لها السيد دوبيرهوراد بعض الأبيات الكاتالانية، بعد أن طلب الصمت. وإليكم معناها، إن كنتُ قد فهمته جيداً. لقد كان يقول بصورةٍ مرتجلة:

«ماهذا إذن يا أصدقائي؟ هل يجعلني النبيذُ الذي شربته أرى الأشياء مضاعفةً؟ فثمة فينوسان هنا...»

فأدارت العروس رأسها فجأة بحركة ذعرٍ أضحكت الناس جميعًا.

وتابع السيد دوبيرهوراد: «أجل، ثمة فينوسان، تحت سقف بيتي، إحداهما قد عثرت عليها تحت الأرض مثل الكمأة، والثانية قد نزلت من السموات، وهي تأتي لتقتسمَ معنا حزامها».

وكان يريدُ أن يقول: ربطة ساقها.

اختر يا بني من تفضّل: فينوس الرومانية أم فينوس الكاتالانية. إن الحقير يختار الكاتالانية، وحصته هي الأفضل. إن الرومانية سوداء، والكاتالانية بيضاء. والرومانية باردة، والكاتالانية تحرقُ كلّ ما يقتربُ منها.

وأثارت هذه الخاتمةُ هتافًا وتصفيقًا صاخبًا، وضحكات رنانةً بحيث ظننتُ أن السقف سيسقط على رأسنا. وحول المائدة، لم تكن هناك سوى ثلاثة وجوهٍ رصينة

وهي وجها العروسين. ووجهي. وأصابني صداعٌ شديد. ثم أن الزواج يحزنني دوماً، ولا أدري لماذا. أما ذلك الزواج فقد كان يقززني قليلاً، فضلاً عن الحزن.

وما إن أُنشدت المقاطعُ الأخيرةُ بصوت معاون العمدة، وكانت مقاطع خليعة، ولا بدّ لي من قول ذلك، حتى انتقلنا إلى غرفة الاستقبال لنحظى بحضور ذهاب العروس التي كان يتعين أن يرافقوها في الحال. لأن الوقت كان يُقارب منتصف الليل.

وشدّني السيد ألفونس نحو فتحة إحدى النوافذ، وقال لي وهو يشيحُ بعينيه: «سوف تسخرُ مني... ولكني لا أعرف ما بي... فأنا مسحور! وليأخذني الشيطان!

إن الفكرة الأولى التي خطرت لي كانت أنه يظنّ نفسه مهدّداً بمصيبة من نوع تلك المصائب التي تكلم عليها مونتيني[1] ومدام دو سيفينييه[2].

«كل أمبراطورية الحب ملأى بالقصص المأسوية إلخ...».

كنت أظن أن تلك الضروب من الحوادث لا تحدثُ إلا لأناس الفكر، فقلت له:

«لقد أسرفتَ في شربِ نبيذ كوليور، يا سيدي العزيز ألفونس، ولقد حذّرتك».

- أجل، ربما، ولكن هذا الشيء مرعبٌ أكثر بكثير...

كان صوته متقطعاً، وكنت أحسبه ثملاً تماماً.

وتابع حديثه بعد مدّة صمت:

«أتعلم حقًّا. إن خاتمي...»

- حسنًا، هل أخذوه؟

(١) - مونتيني: كاتب فرنسي شهير (١٥٣٣ - ١٥٩٢).
(٢) - مدام دو سيفينييه: كاتبة فرنسية، شهيرة من خلال رسائلها (١٦٢٦ - ١٦٩٦).

- كلا .

- في هذه الحالة ، إنه معك؟

- كلا ، لم . . . لم أستطع أن أنزعه من إصبع هذه الشيطانة فينوس .

- وإذن! فأنت لم تسحبه بما يكفي من القوة .

- بلى ، فعلت ذلك . . . ولكن فينوس . . . قد شدَّت إصبعها .

كان يحدِّق بي بعينين زائغتين وهو يستندُ إلى علاقة النافذة كي لا يسقط .

وقلت له : أية قصة هذه! لقد بالغت في غرز الخاتم في إصبعها ، وغداً ستحصل عليه باستخدام كماشة . ولكن احترس من إتلاف التمثال .

- كلا ، أقول لك ، إن إصبع فينوس قد سحب وانثنى ، وهي تشدّ يدها . هل تفهمني؟ إنها امرأتي على ما يبدو ، بما أني قد أعطيتها خاتمي ، وهي لا تريدُ بعد أن تعيده .

«فأحسست برعشة مفاجئة ، واقشعرَّ بدني للحظة من الزمن ، ثم أن تنهيدة كبيرة صدرت عنه بعثت إليّ بنفسٍ مفعمٍ بالنبيذ ، فتلاشى كلُّ انفعالٍ لدي» .

وفكرت : إن هذا المسكين ثملٌ تماماً .

وأضاف العريسُ بلهجة تدعو إلى الرثاء :

أنتَ عالمُ آثار ، يا سيدي ، وتعرف هذه التماثيل . . . فلربما تكون هناك وسيلةٌ ما وسحرٌ ما لا أعرفهما . وليتك تذهبُ لترى الأمر . فقلتُ :

بكل طيبة خاطر ، تعال معي .

- كلا ، أفضل أن تذهب إليه بمفردك .

وخرجتُ من قاعة الاستقبال .

وكان الطقسُ قد تبدل أثناء العشاء ، وأخذ المطرُ يسقطُ بشدة ، وكنت أهمُّ بأن أطلبَ مِطرةً ، عندما استوقفتني فكرةٌ معينة ، فقلتُ في نفسي : «إذاً ماذهبتُ لأتحقق

مما قاله لي رجلٌ ثمل، أكون أحمقًا كبيرًا فعلاً». ولربما يكون قد أراد، من جهة أخرى، أن يمزح معي مزاحةً خبيثة، كي يُضحك هؤلاء الريفيين الشرفاء. وأقل ما يمكن أن يحصل لي هو أن أبتلّ حتى العظام، وأن أُصابَ بزكامٍ قوي.

ألقيتُ نظرةً من الباب على التمثال الذي يقطرُ ماءً، وصعدت إلى غرفتي من غير أن أدخل إلى قاعة الاستقبال، وأويت إلى فراشي، غير أن النوم لم يأتني إلا متأخرًا، فقد كانت كلُّ أحداث النهار ماثلةً في ذهني. وكنت أفكّر بتلك الفتاة الجميلة جدًا، والنقيّة جدًا، والتي سلُّمت لذلك السّكير الفظ، وكنت أقولُ في نفسي: «يا لزواجِ المنفعة من أمرٍ كريه! عمدةٌ يرتدي وشاحًا مثلث الألوان، وكاهنٌ يلبس بطرشيلاً، وها هيَ أكثر الفتاة عفّة تُسلّم إلى المينوتور[1]! فماذا يمكن لكائنين لايحب أحدهما الآخر أن يقولا في لحظة مشابهة يدفعُ عاشقان حياتهما ثمنًا لها؟ هل يمكن لامرأة أن تحب يومًا رجلاً قد رأته فظًا ذات مرة؟ إن الانطباعات الأولى لا تمحى، وأنا واثق من ذلك. إن ذلك السيد ألفونس يستحقُّ الكراهيةَ حقًا. . .

أثناء حديثي هذا مع نفسي، والذي أوجزه كثيرًا، كنت قد سمعت صوتَ الروحات والجيئات الكثيرة في المنزل، وسمعت الأبواب تفتح وتغلق، والسيارات التي تمضي. ثم أخذ يبدو لي أني قد سمعتُ الخطوات الخفيفةَ لبضعِ نساءٍ يتوجهن إلى طرفِ الممر المقابل لغرفتي. وربما كان ذلك هو موكبَ العروس التي كانت ترافقُ إلى سريرها. وبعد ذلك، كنّ ينزلن الدرج، وكان بابُ غرفة السيدة دوبيرهوراد ينغلقُ، وقلت في نفسي: لا بدّ أن اضطراب تلك الفتاة المسكينة قد كان كبيرًا، وكم كانت متضايقةً، كنت أتقلب في سريري وأنا سيىءُ المزاج، فالصبي الأعزبُ يلعب دورًا أحمق في منزلٍ يتمّ فيه زواج.

كان الصمتُ مخيمًا منذ بعض الوقت، عندما عكّرته خطواتٌ ثقيلةٌ كانت تصعدُ السلم، فطقطقت الدرجاتُ الخشبية بقوة.

---

(١) - المينوتور: في الأساطير اليونانية: وحشٌ نصفه إنسان ونصفه ثور، كان يقتل يافعاً تقدمه له أثينا وقد قتله تيزيه. (م: ز.ع).

فهتفتُ: أي فظ هذا! أراهن أنه سوف يسقط عن السلم.

وعاد كلُّ شيء هادئًا، فأخذتُ كتابًا كي أغير مجرى أفكاري. وكان كتابًا إحصائيًا عن المنطقة، ويزينه بحثٌ أعدَّه السيد دوبيرهوراد حول الأوابد الدرويدية[1] في دائرة دي براديس - وعند الصفحة الثالثة، غفوت.

كان نومي سيئًا، فاستيقظتُ عدداً من المرات. ومن المحتمل أن تكونَ الساعةُ حينذاك هي الخامسة صباحًا. وكنتُ مستيقظًا منذ أكثر من عشرين دقيقة، عندما صاحَ الديكُ. وكان النهار سيطلع، فسمعت حينذاك بوضوح الخطى الثقيلة نفسها، وطقطقة السلم نفسها والتي كنت قد سمعتها قبل أن أنام. وبدا لي ذلك غريبًا، فحاولتُ، وأنا أتثاءب، أن أخمن لماذا كان السيد ألفونس يستيقظُ صباحًا باكرًا. ولم أكن أتصورُ شيئًا محتملاً كذلك الأمر. وكنتُ على وشك أن أغلق عيني ثانيةً، عندما أثار انتباهي من جديد خبطاتُ أقدامٍ غريبة امتزج بها سريعًا رنينُ أجراسٍ وصوتُ أبواب تنفتح مقرقعة، ثم ميزت صرخاتٍ مشوشة.

وفكرت وأنا أقفز إلى أسفل سريري: «لابدّ أن ذلك السكير قد أضرمَ النار في مكانٍ ما».

ارتديتُ ملابسي سريعًا، ودخلتُ إلى الممر. وكان الصراخُ والعويلُ ينطلقُ من الجهة المقابلة، وصوتٌ ممزقٌ يطغى على كل الأصوات الأخرى. «ابني! ابني!»، وكان واضحًا أنّ مصيبةً قد حدثت للسيد ألفونس، فهرعت إلى غرفة الزفاف، وكانت تغصُّ بالناس. وكان أولُ مشهدٍ جذب انتباهي هو مشهدُ الفتى الذي كان يرتدي جزءًا من ملابسه، وهو ممددٌ على السرير الذي كان خشبه مكسوراً بصورة عرضانية. لقد كان كامد اللون، ولا يبدي حراكًا. وكانت والدته تبكي وتصرخُ إلى جانبه. أما السيد دوبيرهوراد، فقد كان مضطربًا. ويفركُ له صدغيه بماء الكولونيا. وكانوا يضعون له أملاحًا تحت أنفه. ولكن للأسف! فقد كان ابنهُ ميتًا منذ زمن. وعلى إحدى الكنبات، في الطرف الآخر في الغرفة، كانت العروس

(١) - درويدي: ما له علاقة بدين الغاليين القدماء أسلاف الفرنسيين. (م: ز.ع).

نهبًا لتشنجات رهيبة. وكانت تطلقُ صرخات غير واضحة، وخادمتان قويتان تبذلان كلّ ماأوتيتا من عزم لكبح هياجها.

وصرختُ: «يا إلهي، ما الذي حصل إذن؟».

اقتربتُ من السرير، ورفعت جسدَ الشاب المسكين، فكان قد أصبح متصلبًا وباردًا، وكانت أسنانه المشدودةُ، وسحنته المسودة تعبر عن أفظع ضروب الألم المبرح. وكان يبدو بوضوح كاف أن موته قد كان عنيفًا، واحتضاره رهيبًا. ومع ذلك، فلم يكن هناك أيُّ أثرٍ للدم على ملابسه، فأبعدت قميصه، ورأيتُ على صدره أثرًا مزرقًا يمتدُّ نحو الأضلاع والظهر، فيخيلُ للناظر أنه قد وقعَ في قبضة دائرة من الحديد.

وداست قدمي على شيء قاسٍ كان موجودًا على البساط، فانحنيت، ورأيت الخاتم الماسي.

سحبتُ السيد دوبيرهوراد وزوجته إلى غرفتهما، ثم عملتُ على حمل العروس إليها. وقلتُ لهما: لايزال لديكما ابنة. ويتوجبُ عليكما أن تعنيا بها. عند ذاك، تركتهما وحدهما.

لم يكن يبدو لي موضعَ شك أن يكون السيد ألفونس قد وقع ضحيةَ عملية اغتيال. وقد وجد منفذوها وسيلةً للتسلل ليلاً إلى غرفة العروس. ومع ذلك، فتلك الرضوضُ على الصدر، واتجاهها الدائري كانت تحيرني كثيرًا، فلم يكن ممكنًا أن تُحدثَها عصا، أو قضيبٌ حديديّ. وفجأة تذكرتُ بأني سمعتُ أن قتلةً مأجورين كانوا يستخدمون، في فالنسيا، أكياسًا طويلة من الجلد، مملوءةً بالرمل الناعم، كي يصرعوا الناس الذين استؤجروا لقتلهم. وتذكرتُ حالاً البغّال الأراغوني وتهديده. ومع ذلك، فقلّما كنت أجرؤ على التفكير بأنه قد انتقم انتقامًا رهيبًا إلى ذلك الحدّ لمزاحة خفيفة.

كنت أتجولُ في المنزل، باحثًا في كل مكان عن آثار تحطيم وكسر، فلم أعثر على شيء من ذلك، في أي مكان، ونزلت إلى الحديقة كي أرى إن كان القتلة قد

تمكنوا من التسلل من تلك الجهة، ولكني لم أجد أيَّ دليلٍ مؤكد. وكان مطرُ اليوم السابق قد بلل الأرض زيادة على ذلك، بحيث لم يكن ممكنًا أن تحتفظ بأثرٍ واضح حقًا. ومع ذلك، فقد لاحظتُ أثرَ بعضِ الخطى المرتسمة عميقًا في الأرض. وكان بعضها يسيرُ في اتجاهين متعاكسين، وإنما على الخط نفسه، وهي تنطلقُ من زاوية السياج المحاذي لملعب تنس راحة اليد، وتؤدي إلى باب المنزل، وكان يمكن لها أن تكون خطى السيد ألفونس، عندما ذهب ليأتي بخاتمه الموضوعِ في إصبع التمثال، ومن جهةٍ أخرى، فقد كان السياج، في ذلك الموضع، أقلَّ كثافةً منه في أيِّ مكانٍ آخر، ولابدَّ أن القتلة قد اخترقوه من تلك النقطة ولما مررتُ أمام التمثال، ذهابًا وإيابًا، توقفتُ لحظةً كي أتأمله. وفي تلك المرة، ولسوف اعترفُ بذلك، لم أستطع أن أتأمل تعبيره الذي ينمُّ عن خبثٍ متهكمٍ من غير رعب. وإذ كان ذهني مليئًا بالمشاهد الرهيبة التي كنتُ شاهدًا عليها منذ قليل، فقد بدا لي أني أرى إلهةً جهنميةً تهللُ للمصيبة التي وقعت لتلك الأسرة.

رجعتُ إلى غرفتي، ومكثت فيها حتى الظهيرة. حينذاك، خرجتُ واستعلمتُ عن مضيفيَّ، فكانا أكثر هدوءًا بقليل. أما الآنسة دوبويغاريغ، ولابدَّ أن أقول أرملة ألفونس، فقد استعادت وعيها. وحتى أنها تكلمت مع مفوضِ الملك في بيربينيان، والذي كان في ذلك الحين يقومُ بجولةٍ في إيل. وقد استمع هذا المأمور القضائي إلى شهادتها، وطلب مني شهادتي، فقلتُ له ما كنتُ أعرفه، ولم أخفِ عنه اشتباهي بالبغّال الأراغوني، فأمر بتوقيفه في الحال.

سألتُ مفوض الملك، عندما دوّنت شهادتي ووقّعت:

هل عرفت شيئًا من السيدة ألفونس؟

فقال لي وهو يبتسم بحزن: لقد أصبحت هذه المرأة الشابة التعسة مجنونةً، مجنونة تمامًا، وإليك ما روته.

قالت: إنها كانت قد أوت إلى الفراش منذ بضع دقائق، وكانت الستائرُ مسحوبةً عندما انفتح بابُ غرفتها، فدخل شخصٌ ما. وكانت حينذاك في الممر

الذي يفصلُ بين السريرين، ووجهها مستديرٌ نحو الجدار. ولم تقم بأية حركة لاقتناعها بأن ذلك كان زوجها. وبعد مرورِ لحظة من الزمن، صرَّ السريرُ وكأنه محملٌ بثقلٍ هائلٍ. فخافت خوفًا شديدًا، ولكنها لم تجرؤ على إدارة رأسها. ومرت خمسُ دقائق، بل ربما عشر دقائق على ذلك النحو... فهي لم تكن قادرةً على إدراك ذلك. ثم قامت بحركة عن غير إرادةٍ منها. أو أن الشخص الذي كان في السرير هو الذي قام بحركة، فأحست بلمسة شيء بارد كالجليد، تلك هي عبارتها. فدخلت أكثر في الممر، وهي ترتعدُ بكل فرائصها. وبعد ذلك بقليل، انفتح البابُ مرةً ثانية، ودخل أحدهم، وقال: «مساء الخير يا زوجتي الصغيرة». وبعد ذلك سحبت الستائرُ سريعًا، فسمعت صرخةٌ مخنوقة. فقد جلس الشخص الذي كان في السرير إلى جانبها، وبدا أنه يمدُّ ذراعيه إلى الأمام. فأدارت رأسها حينذاك... ورأت، كما تقول، زوجها جاثيًا بقرب السرير، ورأسه على مستوى ارتفاع الوسادة، وهو بين يدي ضربٍ من عملاقٍ لونه مائلٌ إلى الخضرة، ويحتضنه بقوة. وقالت، وردَّدَتْ ذلك عشرين مرة، يا للمرأة المسكينة!... قالت: إنها قد تعرفت... هل يمكنك أن تحزر ماذا؟ تعرفت الفينوس البرونزية. أي تمثال السيد دوبيرهوراد... فمنذ أن أتت إلى المنطقة، وكلّ الناس يحلمون بها. ولكني هنا أعيدُ على مسمعكم قصة المجنونة المنكودة الحظ التي تقول إنها قد فقدت وعيها عند ذلك المشهد، ولربما تكون قد فقدت عقلها قبل ذلك بلحظات، وهي لاتستطيع بأية طريقة أن تقول كم من الوقت قد بقيت مغشيًا عليها. وعندما استعادت وعيها، رأت الشبح مجددًا، أو التمثال، كما تقول دائمًا، وهو جامدٌ، ورجلاه وأسفل جسمه في السرير، وجذعه وذراعاه ممدودة إلى الأمام، وزوجها بين ذراعيه، بلا حراك. وصاح ديكٌ، فخرج التمثالُ حينذاك من السرير، وترك الجثة تسقط، وخرج، فتعلقت السيدة ألفونس بالجرس، وأنتم تعرفون البقية.

وأتوا بالإسباني، وكان هادئًا، فدافع عن نفسه بكثيرٍ من برودة الأعصاب، وحضورِ الذهن. ومع ذلك، فلم ينكر الحديثَ الذي سمعته، ولكنه أخذ يُفسِّره،

زاعمًا أنه لم يكن يقصد أن يقولَ شيئًا آخر غير أنه سوف يفوز بمباراةٍ على من انتصر عليه بتنسِ راحة اليد، عندما يستريحُ في اليوم التالي، وأتذكر أنه قد أضافَ قائلاً:

«إن الأراغوني، عندما يُهان، لاينتظر حتى اليوم التالي كي ينتقم، و لو كنت أعتقد أن السيد ألفونس قد أراد إهانتي، لكنت وجهت إليه في الحال طعنةَ سكين في بطنه».

وجرت مقارنةُ حذائه بآثار الأقدام الموجودة في الحديقة، فكان حذاؤه أكبر حجمًا بكثير، ثم أن صاحب النزل الذي كان ذلك الرجل مقيمًا عنده، قد أكدّ أنه قد أمضى الليل وهو يفركُ ويعالجُ أحدَ بغاله الذي كان مريضاً.

وكان ذلك الأراغوني، فضلاً عن ذلك، رجلاً حسن السمعة، ومعروفًا جيداً في المنطقة التي كان يأتي إليها كلّ عام للاتّجار، فأُخليَ سبيله، بعد أن قُدِّمت إليه الاعتذارات.

كدت أنسى شهادةَ خادمٍ كان آخر من رأى السيد ألفونس حيّاً، وحدث ذلك في اللحظة التي كان يهم فيها الخادمُ بالصعود إلى غرفة زوجته، فنادى ذلك الرجل، وسأله بقلق إن كان يعرفُ مكانَ وجودي، فأجابه الخادم بأنه لم يرني إطلاقًا. فأطلق السيد ألفونس زفرةً، ومكث أكثر من دقيقة من غير كلام، ثم قال: عجبًا! لابدّ أن الشيطان قد أخذه أيضًا!

وسألت ذلك الرجل إن كان السيد ألفونس يلبس خاتمه المرصع بالماس حين كلّمه. فتردد الخادمُ قبل أن يجيب، وأخيراً قال إنه لايظن ذلك، وإنه فوق هذا لم يعر ذلك الأمر أي انتباه.

وأضاف مستدركًا: لو كان يلبس ذلك الخاتم في إصبعه، لكنت لاحظته بلا شك، فقد كنت أظن أنه أعطاه إلى السيدة ألفونس.

أثناء طرحي للأسئلة على ذلك الرجل، كنت أشعرُ ببعضِ الرعب المتطير والذي كانت السيدة ألفونس قد نشرته في المنزل بأكمله. ونظر إليّ مفوض الملك وهو يبتسمُ، فحرصت جيداً على عدم الإلحاح.

بعد بضع ساعات من المراسم الجنائزية للسيد ألفونس هيّأت نفسي لمغادرة إيل، وكان من المقرّر أن توصلني عربةُ السيد دو بيرهوراد إلى بيربينيان. وقد أراد العجوزُ المسكين، برغم حالته الضعيفة أن يرافقني حتى باب الحديقة، فاجتزناها بصمت، وكان يجرُّ نفسه بصعوبة، متكئًا على ذراعي، وفي لحظة افتراقنا، ألقيتُ نظرةً أخيرة على الفينوس، وتوقعت فعلاً أن يرغب مضيفي في التخلص من شيء يذكره باستمرار بمصيبة فظيعة، مع أنه لا يشاركَ أبدًا قسمًا من عائلته المخاوف والكراهية التي كان ذلك الشيءُ يوحي بها. وكنت أنوي أن أحثّه على أن يضعها في متحف. وترددت في الدخول في الموضوع، عندما أدار السيد دو بيرهوراد آليًا رأسه إلى الجهة التي كان يراني فيها وأنا أحدقُ بشيء ما. لمح التمثالَ، فانفجرَ في الحال باكيًا، فعانقته. ومن غير أن أجرؤ على أن أقول له كلمةً واحدة، صعدتُ إلى العربة.

منذ رحيلي، لم أعلم بأن إيضاحًا جديدًا قد أتى كي يلقي الضوء على تلك الكارثة الغامضة، فقد مات السيد دو بيرهوراد، بعد بضعة أشهر على وفاة ابنه. وترك لي في وصيته مخطوطاته التي ربما أنشرها ذات يوم. ولكني لم أجد فيها أبدًا البحثَ الذي يتصل بالكتابات المنقوشة على الفينوس.

حاشية: كتب لي صديقي السيد دو بِ من بيربينيان منذ قليل أن التمثالَ لم يعد موجودًا، فقد كان أول ما عُنِيت به السيدة بيرهوراد، بعد موت زوجها، هو أن تعمل على صهره، وتحويله إلى جرس، وبشكله الجديد هذا، يفيدُ كنيسةَ إيل، ويضيف السيد دو بِ: ولكن يبدو أن القدر السيئ يلاحقُ أولئك الذين يمتلكون هذه المادة البرونزية، فمنذ أن أخذ ذلك الجرس يدق في كنيسة إيل، تجمدت الكرمةُ مرتين.

١٨٣٧

- ١١ -

كولومبا

الفصل الأوّل

«ستكون قادرةً وحدها، على أن تثأر لك، كن على ثقةٍ من ذلك»
غناء مأتمي من نيولو

في الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني لعام [. . . . ١٨١] نزل العقيد السّيد توماس نيفيل الإيرلندي، والضابط المتميز في الجيش الإنكليزي، نزل مع ابنته في فندق بوفو في مرسيليا، لدى عودته من رحلته في إيطاليا.

لقد أحدث إعجابُ المسافرين المتحمسين المستمر بإيطاليا ردَّ فعل. والعديدُ من السُّواح اليوم يتّخذون لهم شعاراً رفعه هوراس[١] هو: عدم الإعجاب بشيء، والآنسة ليديا، الابنة الوحيدة للعقيد إنما كانت تنتمي لتلك الطائفة من المسافرين المستائين، فقد كانت تبدو لها لوحة الظهور[٢] رديئة، وبدا لها بركانُ فيزوف الثائر أعظم بقليل من مداخن مصنع بيرمنغهام، وكان اعتراضُها الكبير على إيطاليا إجمالاً هو أن تلك البلاد تفتقرُ إلى اللّون المحلي، وإلى الطابع الخاص، فليفسّر كلٌّ واحد هذه الكلمات كما يشاء، وهي الكلماتُ التي كنت أفهمها بصورةٍ حسية منذ بضع سنوات، ولم أعدْ أسمعها اليوم.

---

(١) - هوراس: شاعرٌ لاتيني (٦٥ - ٨ ق.م) أغنى الآداب اللاتينية بالعديد من الأعمال الأدبية. (م: ز.ع)
(٢) - الظهور أو التجلي: هما في الأصل يدلان على ظهور السيد المسيح لتلاميذه الثلاثة، وقد استوحيت من ذلك أعمالٌ فنية عديدة. (م: ز.ع).

كانت الآنسة ليديا في البداية تمنّي نفسها بأن تجد فيما وراء جبال الألب أشياء لم يكن قد رآها أحدٌ قبلها، ويمكنُها أن تتحدّث عنها مع الناس الشّرفاء، كما يقولُ السّيد جوردان[1]، غير أنها سرعان ما لاحظت أن مواطنيها قد سبقوها إلى ذلك في كل مكان. وقنطت من أن تصادفَ شيئًا غير معروف، فارتمت في أحضان المعارضة. وبالفعل، فمن غير المستحب إطلاقًا ألا يتمكنَ المرءُ من الكلام على روائع إيطاليا، من غير أن يقول لك أحدهم: «أنت تعرفُ بلا شك ما صنعه رفائيل في قصر . . . في . . . ؟ إنه أجملُ ما في إيطاليا». وهذا بالضبط ما أغفلنا رؤيته. وكم يستغرق وقتًا أن ترى كلّ شيء. وأبسط الأمور هو أن نحكم على كل شيء ونلدينه بصورة مسبقة.

أحسّت الآنسة ليديا في فندق بوفو بخيبةٍ مريرة، فكانت قد جلبت معها رسمًا جميلاً لباب بيلاسجي[2] أو جبّار ليسيغنيٍ، وكانت تظنُّ أن الرسامين قد نسوه، وحين التقتها السيدة فرانس فينويش في مرسيليا، جعلتها ترى مجموعة الصور التي تمتلكها، وكان البابُ المعني موجوداً فيها، بين قصيدةٍ وزهرةٍ مجففة، وهو مزخرفٌ بكميةٍ كبيرة من تراب سبينا. فأعطت الآنسة ليديا باب سيغني إلى وصيفتها، وفقدت كلَّ تقديرٍ نحو المباني البلاسجيّة.

كان العقيد نيفيل يشارك ابنته في تلك الميول، وهو الذي لم يعد يرى الأشياء إلا من خلال عيني الآنسة ليديا، بعد وفاة زوجته، فإيطاليا، في رأيه، ترتكبُ خطأً هائلاً لأنها قد أضجرت ابنته، ونتيجةً لذلك، فقد كانت أكثر بلدان العالم إثارةً للضجر. صحيح أنه لم يكن لديه شيء يقوله ضدَّ اللوحات والتماثيل، ولكن ما كان يستطيع أن يؤكده هو أن الصيد بائسٌ في تلك البلاد، وأنه ينبغي أن يسير المرء عشرةَ فراسخ، في عز شمسِ الريف الروماني كي يقتل بعض طيورِ الحجل الحمراء الرديئة.

---

(١) - الشخصية المسرحية المعروفة في «البورجوازي النبيل» لموليير. (م: ز.ع).

(٢) - نسبة إلى شعب البلاسجيين الذي استوطن اليونان القديمة قبل الهلنستيين. (م: ز.ع).

ودعا في اليوم التالي لوصوله إلى مرسيليا النقيب إيلّيس، مساعده القديم، والذي كان قد أمضى ستة أسابيع في كورسيكا. وقد روى النقيب للآنسة ليديا، وعلى نحوٍ حسن، قصة قطّاع الطرق. وهي قصة تمتازُ بأنها لاتشبهُ إطلاقًا قصص اللصوص التي غالبًا جداً ما كان الناسُ يروونها لها أثناء الطريق من روما إلى نابولي. وبعد رفع المائدة تحدّث الرجلان اللذان بقيا وحدهما أمام زجاجاتٍ من نبيذ بوردو، تحدثا عن الصيد. وعرف العقيدُ أنه ما من بلدٍ يكون الصيد فيها أجملَ مما هو في كورسيكا، وأكثر تنوعًا وأكبر وفرة. وكان النقيب إيليس يقول: «نرى فيها خنازير برية، ويجب أن يتعلم المرءُ كيف يميزها عن الخنازير المدجنة والتي تشبهها بصورة مدهشة. فإذا ما قتل المرءُ خنازير مدجنة، فلسوف يسبب لنفسه مشكلةً سيئة مع حرّاسها. إنهم يخرجون من حرجةٍ يسمونها دغلاً، وهم مسلحون تسليحًا كاملاً، ويجعلونك تدفعُ ثمنَ حيواناتهم، ويسخرون منك. وهناك أيضًا ماعزُ الجبل. وهو حيوانٌ غريبٌ جداً لا نجده في مكان آخر. إنه طريدةٌ شهيرة، ولكنها صعبة، وهناك الأيائلُ، والظباءُ، والتُّدْرُجُ والحجلُ، وليس باستطاعتنا أبدًا أن نعدّ كافة أنواع الطرائد التي تزخرُ بها كورسيكا. فإذا كنتَ تحبُّ الرمايةَ، فاذهب إلى كورسيكا، أيها العقيد، وهناك، تستطيع أن ترمي كافةَ الطرائد الممكنة، كما كان يقول أحد مضيفيَّ، بدءاً من السُّمْنة حتى الإنسان.

عند تناول الشاي، سحر النقيب مجدداً الآنسة ليديا بقصةٍ عن الثأر العرضاني[1]: وهي أكثر غرابة أيضًا من القصة الأولى، وانتهى إلى جعلها تتحمسُ لكورسيكا عندما وصف لها الملامحَ الغريبةَ والوحشيةَ لتلك البلاد، والطباعَ الأصيلةَ لسكانها، وحسنَ ضيافتهم، وعاداتهم البدائية. وأخيراً، وضع تحت قدميها خنجراً صغيراً جميلاً يلفت النظر، بشكله، وقبضته النحاسية أقلّ مما يلفته بأصالته. فكان قاطعُ طريقٍ شهير قد تخلى عنه للنقيب إيلّيس، وهو مضمونٌ لأنه قد اخترق أربعةَ أجسادٍ بشرية، فأدخلته الآنسة ليديا في حزامها، ووضعته على

(١) - هو الثأر الذي يجري تنفيذه ضد أحد الأقارب القريبين أو البعيدين عن مُسبِّب الإهانة.

منضدتها الليلية. وسحبته مرتين من غمده قبل أن تنام. ومن جهته، حلم العقيد بأنه قد قتل جَدْيًا جبليًا، وأن صاحبه قد جعله يدفع ثمنه الذي وافق العقيدُ على دفعه بطيبةِ خاطر، فقد كان حيوانًا مثيراً جداً للغرابة، ويشبه خنزيراً بريًا، وله قرنا أيل، وذيل تُدْرج.

وقال العقيد الذي كان يتناول الغداء بمفرده مع ابنته: يروي إيلّيس أن ثمة صيداً رائعًا في كورسيكا، فإذا لم تكن بعيدةً جداً، فإني أودُّ أن أمضي فيها خمسة عشر يومًا.

وأجابت الآنسة ليديا: وإذًا، ولماذا لا نذهب إلى كورسيكا؟ فأرسمُ في الوقت الذي تذهبان فيه للصيد. ولسوف أكون شديدة السرور إذا ما وضعت في دفتر صوري المغارةَ التي كان النقيب إيلّيس يتحدث عنها، والتي كان بونابرت يذهبُ للدراسة فيها حين كان صبيًا.

ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي تحوز فيها رغبةٌ يبديها العقيدُ على موافقة ابنته. ومع أنه قد ابتهج بهذه المصادفة غير المنتظرة، فقد ارتأى أن يقدّم بعضَ الاعتراضات كي يثير النزوةَ الموافقةَ للآنسة ليديا. ومهما تحدّثَ عن وحشيةِ المنطقة، وعن الصّعاب التي تصادفها امرأةٌ تريدُ السفر فيها، فهي لم تكن تخشى شيئًا. وكانت تحبُّ، فوق كلّ شيء، أن تسافر على الجواد. وتشعر بفرحٍ غامر إذا نامت في مخيم. وكانت تتوعد بالذهاب إلى آسيا الصغرى. وقصارى القول أنها تمتلك جوابًا على كلّ شيء. وبما أنه لم يحدث قطّ أن ذهبت امرأةٌ إنكليزية إلى كورسيكا، فقد كان يتعين عليها أن تذهبَ هي إليها. وأيةُ سعادة تلك التي تغمرها، حين ترجع إلى سانت جيمس بلاس، فتعرضُ مجموعةَ صورها! «ولماذا، ياعزيزتي، تمرّين مرورَ الكرام على هذا الرسم الساحر؟» - أوه! هذا لا قيمةَ له. إنه مخططٌ أعددته بالاعتماد على قاطعِ طريقٍ كورسيكي شهير عمل دليلاً لنا - وكيف! هل كنت في كورسيكا...

وبما أن المراكبَ البخاريةَ لم تكن موجودةً بعد بين فرنسا وكورسيكا، فقد جرى الاستعلام عن باخرةٍ مبحرةٍ إلى الجزيرة التي كانت الآنسة ليديا تنوي اكتشافها. وفي ذلك اليوم بالذات، كتبَ العقيد إلى باريس لإلغاء حجزِ الشقة التي كان مقرراً أن يحصل عليها، واتفق مع صاحب سفينة صيد سريعة كورسيكية كانت مبحرةً إلى أجاكسيو، وكان فيها غرفتان كاملتان. وقد حملوا عليها المؤن. وأقسم صاحبها بأن على السفينةِ بحاراً من أقاربه ويعدُّ طباخاً مرموقاً، وأنه ليس له مثيلٌ في صنعِ حساء السمك. وقد وعد بأن تُعاملَ الآنسةُ على نحوٍ لائق، وأن الريحَ ستكون مواتيةً لها، والبحرَ هادئاً.

فضلاً عن ذلك، وبناءً على رغبةِ ابنة العقيد، فقد اشترط ألا يأخذ القبطان أي مسافر، وأن يرتّب الأمور بحيث يبحرَ بمحاذاةِ ساحل الجزيرة، فيصبح بالإمكان التمتعُ بمنظرِ الجبال.

الفصل الثاني

في اليوم المحدّد للسفر، كان كلُّ شيء قد حزم، وحمّل على المركب منذ الصباح. وكان من المقرّر أن ينطلق المركبُ السريعُ مع هواءِ البحر المسائي. وبانتظار ذلك، كان العقيدُ يتنزه مع ابنته في شارع الكانبيير، عندما دنا منه صاحبُ المركب كي يطلبَ منه الإذنَ في أن يأخذ أحدَ أقاربه على ظهر مركبه. أي ابن ابن عم عرّاب ابنه البكر الذي كان عائداً إلى كورسيكا، مسقط رأسه، من أجل القيام بأعمال عاجلة، ولم يستطع أن يعثر على سفينةٍ ليضعه فيها.

وأضاف النقيبُ ماتيي: «إنه فتًى ظريف، وهو عسكريٌّ، وضابطٌ في صفوفِ القناصة المشاة للحرس، وكان يمكن أن يكون الآن عقيداً، لو أن «الآخر» لازال امبراطوراً».

وقال العقيد: بما أنه عسكري...

وكان يهمّ بأن يضيف: «فأنا أوافقُ بطيبةِ خاطر على أن يأتي معنا...» ولكن الآنسة ليديا هتفت بالإنكليزية:

«ضابط في المشاة!... (كان والدها قد خدم في سلاح الخيّالة، وكانت تحتقرُ أي سلاحٍ آخر). ربما يكونُ رجلاً عديمَ الثقافة، ويصاب بدوارِ البحر، ولسوف يفسدُ علينا بهجةَ الرحلة البحرية بكاملها!».

لم يكن صاحبُ المركب يفهم كلمةً واحدة من اللغة الإنكليزية، ولكنه بدا متفهمًا لما كانت تقوله الآنسة ليديا من خلال برطمة فمها الجميل، فبدأ يمتدحُ قريبه من ثلاثِ نقاط ختمها بالتأكيد بأنه رجلٌ كما ينبغي تمامًا أن يكون الرجل، ومن

عائلة «عرفاء»، وأنه لن يضايق السيد العقيد في شيء، لأنه هو شخصياً، صاحب السفينة، سوف يتكفلُ بإيوائه في زاويةٍ لن يلاحظ فيها أحدٌ وجوده.

وجد العقيدُ والآنسة نيفيل أمراً فريداً أن تتوفر في كورسيكا عائلات يكون فيها الناس على ذلك النحو عرفاء من الأب إلى الابن. ولكنهما، عندما فكرا بروحٍ طيبة بأن الأمر يتعلق بعريف في المشاة، استنتجا بأنه رجلٌ مسكين أراد صاحبُ المركب أن ينقله من باب الإحسان. ولو تعلق الأمر بضابط، لكان لزاماً أن يتحدث المرءُ معه، وأن يعيش. أما عن عريف، فلا مجال للضيق، فهو إنسانٌ بلا أهمية، حين لا تكون زمرته موجودةً، والحرابُ منصوبة في مقدمة بنادقها كي تأخذك إلى حيث لا ترغب.

وسألت الآنسة نيفيل بلهجة جافة: - وهل يصاب قريبك بدوار البحر؟

- أبداً، أيتها الآنسة، إن له قلبًا صلبًا كالصخر، في البحر، كما في الأرض.

فقالت: - حسنًا! يمكنك أن تنقله.

وكرر العقيد: - يمكنك أن تنقله.

وتابعا نزهتهما.

وأتى النقيب ماتيي حوالي الساعة الخامسة مساءً كي يبحث عنهما من أجل الصعود على ظهر القارب السريع. وفي المرفأ، بقرب قارب النقيب الصغير، وجدا شابًا طويل القامة، يرتدي معطفًا أزرق مزرّرًا حتى الذقن، برونزي البشرة، عيناه سوداوان وحادتان، ونجلاوان حقًا، صافي النظرة، وتبدو عليه رهافةُ العقل. ونتعرّفُ بسهولة أنه عسكري من خلال الطريقة التي كان يمسح بها ظهر شاربه الصغير المفتول، لأن الشوارب، في ذلك العهد، لم تكن شائعة، ولم يكن الحرسُ الوطني قد أدخل إلى كلّ العائلات بعد زي جماعة الحرس وعاداتها.

رفع الشاب قبعته عندما رأى العقيد، وشكره من غير ارتباكٍ بعباراتٍ طيبة على الخدمة التي أداها له.

فقال العقيد وهو يومئ له برأسه إيماءة ودّية:

«يسرني أن أكون قد أفدتك، يا بني»

ودخل إلى القارب السريع.

وقال الفتى لصاحب المركب بصوت خفيض جداً بالإيطالية:

«إنه لايهتم بالآخرين، رجلُك الإنكليزي».

فوضع صاحبُ المركب هذا سبابته تحت عينه اليسرى، وخفض زاويتي فمه. وكان ذلك يعني، بالنسبة لمن يفهم لغةَ الإشارات، أن الإنكليزي يفهمُ الإيطالية، وأنه رجلٌ غريب الأطوار، فابتسم الشاب ابتسامةً خفيفة، ولمس جبينه جواباً على إشارة ماتيي، وكأنه يقول له إن جميع الإنكليز لديهم شيء ما منحرفٌ في رؤوسهم، ثم جلس بقربِ صاحب المركب، وأخذ يتأمل، بكثير من الاهتمام الذي لايخلو من الوقاحة، رفيقة سفره الجميلة.

وقال العقيد لابنته بالإنكليزية:

إن لهؤلاء الجنود الفرنسيين هيئة حسنة، وهكذا يمكن بسهولة أن يصنعوا منهم ضباطاً.

ثم توجه بالفرنسية إلى الشاب وقال:

«قل لي، أيها المقدام، في أيةِ وحدةٍ خدمت؟»

فوجه هذا الفتى ضربةً خفيفة بمرفقه لوالد ابن ابن عمه بالمعمودية، وأجاب وهو يخفي ابتسامة ساخرة، أنه كان في صفوفِ قناصة حرس المشاة، وأنه حالياً قد خرج من صفوف الفرقة السابعة الخفيفة.

«هل كنت في واترلو؟ إنك صغير السن».

- عفواً، ياسيادة العقيد، إنها حملتي الوحيدة.

فقال العقيد: «إنها تحسب مضاعفة».

فعض الشاب الكورسيكي شفتيه.

وقالت الآنسة ليديا بالإنكليزية: اسأله يا أبي إذن، إن كان الكورسيكيون يحبون بونابرت مواطنهم.

وقبل أن يتمكن العقيد من ترجمة السؤال إلى الفرنسية، أجاب الشاب بلغةٍ إنكليزيةٍ حسنة، برغم لكنتها الواضحة:

«أنت تعلمين، يا آنستي، أنه ما من نبيّ في وطنه. ونحن أيضًا، مواطني نابوليون، نحبه ربما أقل مما يحبه الفرنسيون. أما أنا، فمع أن عائلتي كانت عدوّةً لعائلته، فأحبه، وأنا معجبٌ به.

فهتف العقيد: - أنت تتكلم الإنكليزية!

- بصورة سيئة، كما يمكنك أن تلاحظ.

ومع أن الآنسة ليديا قد صُدمت قليلاً من لهجته المتطلقة، فلم تستطع الامتناع عن الضحك حين فكرت بتلك العلاقة الحميمة الشخصية بين عريفٍ وامبراطور، وكان ذلك، بالنسبة إليها، مثل تذوّقٍ أولي لغرائبِ كورسيكا، ووعدت نفسها بأن تسجل ذلك التفصيل في يومياتها.

وسأل العقيد:

«لعلك كنتَ سجينًا في إنكلترا».

- كلا، يا سيدي العقيد، فقد تعلمتُ الإنكليزية في فرنسا، وأنا فتى على يد سجين من أُمتكم.

ثم توجه بالكلام إلى الآنسة نيفيل:

- لقد قال لي ماتيي إنك كنتِ عائدة من إيطاليا، وإنك تتكلمين التوسكانية، يا آنستي، وأخشى أن تحاري قليلاً فيَ فهم لهجتنا الإقليمية.

فأجاب العقيد: إن ابنتي تفهم كافة اللهجات الإقليمية الإيطالية، فهي موهوبة في تعلم اللغات، وليست مثلي.

- هل تفهم الآنسة مثلاً هذه الأبيات المأخوذة من أغانينا الكورسيكية؟ إن راعيًا يقول لراعية:

S'ENTRASSI NDRU PARADISU STANTU SANTU

E NUN TRAVASSI A TIA, MI N' EXIRIA[1]

فهمت الآنسة ليديا، ووجدت الشاهدَ الذي قدّمه جريئًا، والنظرة التي رافقته أكثر جرأة أيضًا، فأجابت وهي تحمرّ خجلاً: «CAPISCO»[2].

وسأل العقيد: وأنت تعود إلى بلدك في هذا الفصل.

- كلا، يا سيدي العقيد، فقد وضعوني بنصف مرتب، ربما لأنني كنت في واترلو، ولأني من مواطني نابوليون، وها أنا أعودُ إلى بلادي، متخفّفًا من الأمل، ومن المال. كما تقولُ الأغنية. وتنهد وهو ينظر إلى السماء.

ووضع العقيد يده في جيبه وهو يقلّب بين أصابعه قطعةً ذهبية، فقد كان يبحثُ عن جملةٍ كي يدسها بأدب في يد عدوّه السيِّئ الحظ. وقال بلهجة تنمّ عن مزاجٍ حسن:

«وأنا قد وضعتُ بنصف مرتب، ولكنك... مع نصف مرتبك، ليس لديك ماتشتري به تبغًا. خذ، أيها العريف».

وحاول أن يدخل القطعة الذهبية في يد الشاب المغلقة، والتي كان يستند بها إلى حافة القارب السريع.

---

(١) - إذا ما دخلتُ إلى الفردوس المقدس، ولم أجدك فيه، فسأخرج منه.
(سيريناتا دي زيكافو)
(نشيد زيكافو المسائي)

(٢) - لقد فهمت. (م: ز.ع).

احمرّ وجهُ الفتى الكورسيكي، فاعتدل في وقفته، وعضّ على شفتيه، وبدا كأنه يتأهب ليردّ باحتداد، عندما غير تعبير وجهه فجأة، وانفجر ضاحكًا. أما العقيدُ الذي بقيت القطعة الذهبية في يده، فقد وقف مذهولاً تمامًا.

وقال الشاب وهو يستعيد موقفه الجدّي: «أيها العقيد، اسمح لي أن أعطيك تحذيرين أولهما هو: ألا تقدم لكورسيكي نقودًا، فبين مواطنيّ هناك عددٌ كاف من غير المهذبين الذين سيلقون بها في وجهك، والثاني هو: ألا تعطي أحدًا ألقابًا لايطلبونها، أنت تدعوني عريفًا، وأنا ملازم. لاشك أن الفارق ليس كبيرًا جدًا، ولكن...

فصرخ السيد توماس: ملازم؟ ملازم؟ ولكن صاحبَ المركب قد قال لي إنك عريفٌ مثل والدك وكلّ الرجالِ في عائلتك.

عندما قال السيد توماس هذه الكلمات، انقلب الفتى على قفاه، وأخذ يضحك مُقهقهًا بكلّ ارتياح، بحيث انفجر صاحبُ المركب وبحاراه ضاحكين معه.

وقال الشاب أخيرًا:

«عذرًا، أيها العقيد، ولكن سوءَ التّفاهم كان رائعًا، ولم أفهمْه إلا هذه اللحظة. وفي الواقع، فإن عائلتي تفخر بأن لديها عددًا من العرفاء بين أسلافها، غير أن عرفاءنا الكورسيكيين لم يكونوا قط يضعون شارات الرُّتب على ملابسهم، وأثناء عامِ العفو، عام ١١٠٠، اختارت بعضُ البلدات زعماءَ لها أسمتهم عرفاء، حين ثارت على السّادة الإقطاعيين في الجبال. وفي جزيرتنا، نراه شرفًا لنا أن نكون متحدِّرين من ذلك النوعِ من المدافعين عن حقوق الشعب.

فهتف العقيد: عفوًا يا سيدي! عفوًا ألف مرة، وبما أنك تدرك سبب سوء فهمي للأمور، آمل أن تقبل اعتذاري.

ومدّ له يده.

فقال الشاب وهو يضحك باستمرار، ويشدُّ على يد الإنكليزي بصورة ودّية:

إنه العقابُ العادلُ على شعوري البسيط بالكبرياء. فأنا لا أحملُ لك أيةَ ضغينةٍ مهما كانت صغيرة. وبما أن صديقي ماتيي قد قدمني بتلك الطريقة السيئة، فاسمح لي أن أقدّم نفسي بنفسي: أنا أدعى أورسو ديلا ريبيا، ملازمٌ بنصف مرتب. وبما أني أفترضُ أنك قد أتيت إلى كورسيكا للصيد، لأني أرى هذين الكلبين الجميلين، فلسوف يكون أمراً باعثاً على السرور في نفسي، أن استقبلك في أدغالنا وجبالنا . . .

وأضاف متنهداً: «هذا إذا لم أكن قد نسيتها بالمقابل».

وفي تلك اللحظة، كان القاربُ الصغيرُ يصلُ إلى المركب السريع، فقدّم الملازمُ يده للآنسة ليديا، ثم ساعد العقيد كي يعتلي سطحَ المركب. حينذاك، كان السيد توماس لايزال مرتبكاً جداً من سوء فهمه. ولايدري كيف يجعلُ وقاحته تُنسى نحو رجلٍ يعود تاريخه إلى عام ١١٠٠، ومن غير أن ينتظر موافقةَ ابنته، فقد رجاه أن يقبل أن يتناول العشاء معهما، وهو يجدد اعتذاراته ومصافحاته. وكانت الآنسة ليديا قد قطبت حاجبيها فعلاً، غير أنها لم تكن مستاءةً من أن تعرف ماذا كانت تعني كلمة عريف، على كلّ حال. ولم يكن ضيفها ينفرها، وحتى أنها قد بدأت تجد لديه جانباً ارستقراطياً لا تدري ما هو: إلّا أنه كان على درجةٍ كبيرة من الصراحة والمرح تفوقُ ما نتطلبه عادةً لدى بطلٍ من أبطال الروايات.

وقال العقيد وهو يحييه بالطريقة الإنكليزية، وفي يده قدحٌ من نبيذِ ماديرا:

«أيها الملازم ديلا ريبيا، لقد رأيتُ في إسبانيا العديد من مواطنيكم، وكانوا من تلك المفرزة الشهيرة من المشاة القناصة».

فقال الملازمُ الشاب بلهجةٍ جادّة: نعم إن الكثير منهم قد بقي في إسبانيا.

واستأنف العقيد: «لن أنسى أبداً سلوك كتيبة كورسيكية في معركة فيتوريا».

وأضاف وهو يفركُ صدره: لابدّ أن أتذكر أنهم، طوال يومٍ كامل، كانوا يقومون بالقنص في الحدائق، خلف الأسيجة وقد قتلوا لنا عدداً من الرجال والخيول لا أدري ما هو، وتجمعوا، ثم أخذوا ينسحبون بنشاطٍ كبير، وكنا نثأرُ منهم في

السهل، ولكن أولئك الطرفاء. . . اعذرني أيها الملازم - أولئك الشجعان تشكلوا في مربعات، ولم تكن هناك وسيلة لفكها، وفي وسط كلّ مربع، ويُخيل لي أني لاأزال أرى ذلك، كان هناك ضابطٌ يمتطي حصانًا أسود قصير القامة، وكان يقفُ إلى جانبِ شعار النسر، ويدخن سيكاره وكأنه في مقهى، وأحيانًا، كانت موسيقاهم تدق ألحانًا صاخبة، وكأنهم يتحدوننا. وقد دفعتُ إليهم بأول سريتين تابعتين لي. . . باه! وبدلاً من أن يحطّم خيالتي مقدمةَ المربع، هاهم يمرون بجانبه، ثم يقومون بنصف دورةٍ ويعودون مشتتين، وأكثر من حصان منهم يرجعُ من غير صاحبه. . . وتستمرُ تلك الموسيقا الشيطانية! وعندما تبدّد الدخان الذي كان يلفُّ الكتيبةَ، رأيتُ من جديد الضابط الواقفَ إلى جانبِ شعار النسر وهو لايزال يدخن سيكاره، فاستبدَّ بي الغضبُ، وقدت بنفسي هجمةً أخيرة، لقد كانت بنادقهم المتسخةُ لكثرةِ ما أطلقت النار غيرَ صالحة لأن تطلقها من جديد. غير أن الجنود كانوا مصطفين على ستةَ صفوف، وحرباتهم أمام أنوفِ خيولهم، وكأنهم جدار. وأخذتُ أصرخُ، وأحثُّ خيالتي، وشددتُ جزمتي كي أجعلَ حصاني يتقدمُ، وعندما أشار الضابط الذي كنتُ أحدثك عنه، أشار نحوي بيده لأحد رجاله، وهو ينزع سيكاره أخيراً، وسمعت شيئًا من مثل: AL CAPELLO BIANCO[1] كنت أعتمر قبعةً ذات ريشٍ أبيض، فلم أسمع شيئًا أكثر من تلك الجملة، لأن رصاصةً قد اخترقت صدري - لقد كانت كتيبةً جميلة، أيها السيد ديلا ريبيا. وكانت الكتيبةُ الأولى من الفرقة الثامنة عشرة الخفيفة، وكلُّ عناصرها كانوا كورسيكيين، كما قيل لي بعد ذلك.

وقال أورسو الذي كانت عيناه تلمعان أثناء تلك القصة:

«أجل، لقد صمدوا أثناء الانسحاب، وأعادوا شعارهم، ولكن ثُلثي هؤلاء الرجال البواسل يرقدون الآن في سهل فيتوريا.

- وبالمناسبة، هل تعرفُ اسمَ ذلك الضابط الذي كان يقودهم؟

---

(١) - إلى صاحبِ الشعر الأبيض. (بالإيطالية) (م: ز.ع).

- كان والدي، فقد كان حينئذٍ رائداً في الفرقة الثامنة عشرة، وقد رُقي إلى رتبة عقيد من أجل تصرفه في ذلك النهار.

- والدك، وحقي، لقد كان رجلاً مقداماً! كم يسرني أن أراه ثانية. وأنا متأكدٌ من أني سوف أتعرّفه. هل لايزال حيّاً؟

فقال الشاب، وقد شحب لونه قليلاً:

كلا، أيها العقيد.

- هل كان في معركة واترلو؟

- أجل، أيها العقيد، ولكنه لم يحظ بالسّقوطِ في ساحة المعركة... فقد مات في كورسيكا... منذ عامين... يا إلهي! كم هذا البحرُ جميل! فأنا لم أر البحرَ المتوسط منذ عامين.

- ألا تجدين البحر المتوسط أجمل من المحيط، يا آنستي؟

- أراه شديد الزرقة... وأمواجُه ليست عظيمة.

- أنت تحبين الجمال الوحشيّ، يا آنستي؟ على هذا، أظن أن كورسيكا ستعجبك.

فقال العقيد:

- إن ابنتي تحبُّ كلّ ما هو غير عادي، ولهذا، فإن إيطاليا قلّما أعجبتها.

فقال أورسو:

- أنا لا أعرفُ من إيطاليا إلا بيزا التي أمضيتُ فيها بعضَ الوقت في المدرسةِ الثانوية.

ولكن لايسعني أن أفكر بكامبو - سانتو، وبالقبة، وبالبرجِ المائل، من دون إعجاب بها، وخصوصاً بكامبو - سانتو. أنتم تتذكّرون لوحةَ الموت لأوركاغنا[1]... أعتقد أنه يمكنني أن أرسمها، لشدّة ما بقيت محفورةً في ذاكرتي.

(١) - أوركاغنا: رسام ونحات فلورنسي (١٣٠٨ - ١٣٦٨) (م: ز.ع).

وخشيت الآنسة ليديا أن يندفعَ السيدُ الملازمُ في مقطع حماسي طويل. فقالت وهي تتثاءبُ:

«إنها جميلةٌ جداً، عفواً يا أبي، فأنا أشعر بقليلٍ من الصّداع، وسأنزل إلى غرفتي».

وقبّلت والدها على جبينه، وحيّت أورسو بإيماءةٍ مهيبةٍ من رأسها، وتوارت. حينئذٍ، أخذ الرجلان يتحدّثان عن الصّيد والحربَ.

عرفا أنهما كانا في معركة واترلو متجابهين، وأنّهما قد تبادلا الكثيرَ من العبارات الناريّة. وقد ضاعف ذهنهما عددها. وكانا ينتقدان نابوليون وولنغتون، وبلوخر، بالتناوب ثم أخذا يصطادان معًا الأيّلَ، والخنزير البرّي، وماعزَ الجبل، وأخيراً، وبما أن الوقت قد تأخر ليلاً، وانتهت آخر زجاجةٍ من نبيذ بوردو، فقد شدَّ العقيدُ من جديد على يد الملازم، وتمنّى له مساءً سعيداً، وهو يعبّر عن الأمل بتقويةِ تعارفٍ كان قد بدأ بطريقةٍ تثير الضّحك، فافترقا، ومضى كلٌّ منهما إلى سريره لينام.

الفصل الثالث

كان الليلُ جميلاً، والقمرُ يتراقصُ على الأمواج، والمركبُ يبحرُ على مهلٍ، حسب حركة الرّيح الخفيفة. ولم تكن لدى الآنسة ليديا أيةُ رغبةٍ في النّوم. وكان حضورُ ذلك الغريب هو الّذي منعها وحده من أن تتذوّقَ تلك الانفعالاتِ التي يشعرُ بها في البحر كلُّ كائنٍ بشري، في ضوءِ القمر، وحين تكون في قلبه حبتان من الشّعر. وعندما رأت أن الملازمَ الشّاب قد نام باطمئنانٍ مثل كائن يفتقرُ إلى السّمو في نفسه، نهضت، وأخذت سترةً مبطّنة، وأيقظت خادمتها، وصعدت إلى سطحِ المركب. ولم يكن عليه أحدٌ باستثناء بحارٍ يقفُ على دفة المركب. وكان يغني نوعاً من أغنيةٍ شاكية، باللهجةِ الكورسيكية المحلية، وبنغمةٍ وحشيةٍ رهيبة. وفي هدوء الليل، كان لتلك الموسيقى الغريبة سحرها. ولم تكن الآنسة ليديا لسوء الحظ تفهمُ تماماً ما كان يغنيه البحار، وكان بيتَ شعر قويٍّ يثير فضولها بشدةٍ بين أبيات كثيرةٍ مبتذلة، غير أن بعض الكلماتِ باللغة الإقليمية كان معناها يفلتُ منها، في أجمل اللحظات. ومع ذلك، فقد فهمت أن الأشعارَ تدور على حادثة قتلٍ، فاللعناتُ ضدّ القتلة، والتهديدات بالثأر، ومديحُ الميت، كان كلُّ ذلك يختلطُ بلا نظامٍ، وقد حفظت بعضَ الأبيات، وسأحاول ترجمتها:

«لم تستطع المدافعُ والحرابُ - أن تجعل جبينه يشحب - فقد كان هادئاً في ساحة القتال - مثل شمس الصيف - كان الصقرُ صديقَ النسر - عسلَ الرمال بالنسبة لأصدقائه - وبحراً هائجاً إزاء أعدائه - أعلى من الشمس - وأكثر رقة من القمر - هو الذي لم يصبه قط - أعداءُ فرنسا - قد ضربه من الخلف قتلةٌ من بلاده -

مثل فيتولو الذي قتل سانبييرو وكورسو[1] - ولم يكن بمقدورهم أن ينظروا إليه مواجهةً . . . فلتضعوا على الجدار، أمام سريري - صليب الشرف الذي كسبته عن حق - إن شريطته حمراء - وأكثر حمرةً من ردائي - آه يا بنيّ المقيم في بلاد بعيدة - احتفظ بصليبي وبقميصي الدامي - سوف يرى فيه ثقبين - ومقابل كل ثقب - ثقب في قميص آخر . ولكن هل سيكون الانتقام قد جرى حينذاك؟ - تلزمني اليد التي أطلقت - والعينُ التي صوبت، والقلبُ الذي تصورّ وصمّم. . .

وتوقف البحارُ فجأة .

فسألته الآنسة نيفيل : «لماذا لا تتابعُ يا صديقي؟»

فدلّها البحارُ، بحركةٍ من رأسه، على وجهٍ كان يخرج من كوّة المركب، وكان ذلك هو وجه أورسو الذي أتى ليستمتع بضوءِ القمر .

وقالت الآنسة ليديا : «فلتنه إذن أغنيتك الشاكية، فقد كانت تروقُ لي كثيراً» .

فانحنى البحار نحوها، وقال بصوتٍ خفيضٍ جداً :

«أنا لا أُعيّر أحداً» .

- كيف؟ الـ. . . ؟

وأخذ البحارُ يصفرُ، من غير أن يجيب .

فقال أورسو وهو يتقدمُ نحو ليديا :

«إني أفاجئك وأنت تتأملين بحرنا المتوسط بإعجاب، يا آنسة نيفيل، فلتوافقي معي بأنه لايمكن أن نرى في أيّ مكانٍ آخر ليلةً مقمرةً بهذا الجمال» .

---

(١) - انظر : فيليبيني، الكتاب الحادي عشر - إن اسم فيتولو لايزال بغيضاً لدى الكورسيكيين وهو اليوم مرادف لكلمة خائن .

- لم أكن أنظر إلى القمر، بل كنتُ منشغلةً تماماً بدراسة اللغة الكورسيكية. فقد توقف هذا البحار الذي كان يغني أغنية شاكية، من أكثر الأغاني مأسوية، وفي أجمل لحظةٍ فيها.

فانحنى البحار، وكأنه يريد أن يقرأ البوصلة بصورةٍ أفضل، وشدّ بقسوةٍ معطف الآنسة نيفيل! فقد بات واضحاً أن تلك الأغنيةَ الشاكيةَ لايمكن أن تغنّى أمام الملازم أورسو.

فقال أورسو: وماذا كنت تغني يا باولو فرانسه؟ هل هي موشحٌ غنائيٌّ، أم نواح مغنى؟[1] إن الآنسة تفهمُ ما تقول وتريد أن تسمع الخاتمة.

فقال البحار: - لقد نسيته يا أورس - أنطون.

وفي الحال، أخذ ينشد بأعلى صوته ترتيلاً للعذراء.

استمعت الآنسة ليديا إلى الترتيل وهي شاردةٌ، ولم تضغط أكثر من ذلك على المغني، فقد وعدت نفسها مع ذلك بأن تعرف فيما بعد مفتاحَ اللغز. غير أن خادمتها التي كانت فلورنسية الأصل، ولم تكن تفهم أكثر من سيدتها اللهجة الكورسيكية المحلية، كانت هي أيضاً متلهفةً للمعرفة، وقد توجهت إلى أورسو، قبل أن تحذرها سيدتها بضربةٍ من مرفقها.

وقد قالت:

---

(١) - النواح المغنى: Vocero: حين يموتُ رجل، وخصوصاً عندما يقتل غيلةً، يوضع جثمانه على منضدة، وترتجل نساءُ عائلته، أو صديقات لعائلته، حين لا تكون له نساء، أو حتى نساءُ غريبات معروفات بموهبتهن الشعرية، يرتجلن غناءً نائحًا شعريًا، بلهجة البلد الكورسيكية، أمام جمهورٍ غفير من المستمعين. وتسمى تلك النسوة: نائحات: Voceratrici أو حسب اللفظ الكورسيكي: buceratrici، والنواح المغنى يسمى Vocero أو Buceratu أو Buceru، على الساحل الشرقي، ويسمى Ballata، على الساحل المقابل. إن كلمة VOCERO ومشتقاتها Vocerar (أي غنى نواحًا) و Voceratrice (مغنية نائحة) تأتي من الفعل اللاتيني: Voceferare، وفي بعض الأحيان، ترتجل بعضُ النساء بالتناوب، أو زوجة الميت، أو ابنته نفسها نواحًا مأتميًا.

- يا سيدي النقيب ما معنى: DONNER LE RIMBECCO[1]؟

- الـ Rimbecco هو توجيهُ أكثر الإهانات قتلاً في كورسيكا وتتمثّل في أن يعاب على الإنسان كونه لم يأخذ بالثأر. من حدّثك عن الـ Rimbecco؟

فسارعت الآنسة ليديا إلى الإجابة قائلة:

- إنما استخدم صاحبُ المركب هذه الكلمة بالأمس.

فسأل أورسو بنزق:

- وعمن كان يتحدث؟

- أوه! لقد كان يحكي لنا قصةً قديمة... من عهد الـ... أجل، أظنُّ أنها حول فانينا دورنانو؟

- إن موت فانينا، كما أفترض، يا آنسة، لم يجعلك تحبين كثيراً بطلنا، المقدام سانبييرو؟

- ولكن هل تجد أنه كان بطوليًّا حقًّا؟

- إن جريمته تجد عذراً لها في تقاليد ذلك الزمن الهمجي. ثم أن سانبييرو كان يخوضُ حرباً مستميتةً ضد الجنوبيين، فأيةُ ثقةٍ كان يمكنُ لمواطنيه أن يضعوها فيه، لو لم يقتصّ من ذلك الذي كان يسعى إلى التعامل مع جنوه؟

فقال البحّارُ: - كانت فانينا قد ذهبت من غير موافقةِ زوجها، وقد أحسن سانبييرو في قصفِ رقبتها.

فقالت الآنسة ليديا:

(١) - Rimbeccare: تعني بالإيطالية: أرسل، ردّ، رمى، وفي اللهجة المحلية للكورسيكيين: تعني: «وجّه تعنيفًا مُهينًا وعلنيًا - ويوجّه اللوم والتعنيف» إلى ابن رجل مقتول حين يقال له إن أباه لم يُثأر له. واللوم Rimbecco أو «التعيير» هو ضربٌ من إنذار بالوفاء للرجل الذي لم يغسل الإهانة بالدم - والقانون في جنوه كان يعاقب عقاباً شديداً مؤلّف إنذارٍ كهذا...

- ولكنها ذهبت لتطلب العفو من الجنوبيين كي تنقذ زوجها، وبسبب حبها له.

فهتف أورسو: - إن طلبَ العفو إذلال.

فاستأنفت الآنسة ليديا:

- وكي يقتلها بنفسه، أي وحش كان يمكن أن يكون؟

- أنت تعلمين يا آنسة أنها قد طلبت إليه أن تموتَ على يديه، فهل تنظرين يا آنسة لعطيل على أنه وحشٌ أيضاً؟

- أي فارق بينهما! لقد كان عطيل غيوراً، أما سانبييرو فلم يكن يشعر بغير الغرور.

- والغيرة؟ أليست غروراً أيضاً. إنها غرورُ الحب. ولربما تجدين العذر له بسبب دوافعه؟

فرمقته الآنسة ليديا بنظرة مفعمة بالوقار، وتوجهت إلى البحار، وسألته متى يصل المركب السريع إلى المرفأ، فقال: بعد غدٍ، إذا استمرت الريح.

- صارت لدي رغبة في رؤية أجاكسيو، فهذا المركب يرهقني.

ونهضت، وأمسكت بذراع خادمتها، وخطت بضع خطوات على سطح المركب. وبقي أورسو بلا حراك، قريباً من دفة القيادة. وهو لايعرف إن كان يتعين عليه أن يتجول معها، أو أن يقطع حديثاً يبدو أنه كان يضايقه.

وقال البحار: «إنها لفتاةٌ جميلة، وحقّ السيدة العذراء، فلو كانت كلُّ براغيثِ سريري تشبهها، لما اشتكيتُ من أنها تقرصني!».

وربما تكون الآنسة ليديا قد سمعت هذا المديحَ الساذج لجمالها، فنفرت منه، لأنها نزلت في الحال تقريباً إلى غرفتها. وبعد ذلك بقليل، انسحب أورسو من جهته.

وما إن غادر سطحَ السفينة، حتى عادت الخادمةُ إلى الصعود. وبعد أن جعلت البحار يخضعُ لاستجواب، نقلت المعلومات التالية إلى سيدتها: إن النواح المغنى الذي قطعه حضور أورسو كان قد نُظّم بمناسبة موت العقيد ديلا ريبيا، والد المذكور أعلاه، وكان قد قتل قبل عامين. ولم يكن البحار يُشكّ في أن أورسو قد رجع إلى كورسيكا ليأخذ بالثأر. وكان هذا هو تعبيره. وهو يؤكد أنه قبل مرور وقت قصير يرى الناس لحماً طازجاً في قرية بييترانيرا. وإذا ماترجمنا هذه العبارة الوطنية، ينتج عن ذلك أن السيد أورسو ينوي أن يقتل شخصين أو ثلاثةَ أشخاص تحومُ حولهم الشكوكُ بأنهم قد اغتالوا والده، وهم، في حقيقة الأمر، قد كانوا مطلوبين من العدالة بسبب تلك الفعلة. ولكنهم قد حصلوا على براءة تامة من كلّ اتهام نظراً لأن القضاة والمحامين ورؤساء الشرطة كانوا رهنَ إشارتهم.

وأضاف البحار: «ليس هناك عدالةٌ في كورسيكا، وإني أقيمُ وزناً لبندقية جيدة أكثر مما أقيمه لمستشار في البلاط الملكي. وعندما يكون للمرء عدوٌّ، ينبغي أن يختار بين السّينات الثلاث[1].

بدلّت هذه المعلومات المثيرةُ للاهتمام بصورة ملحوظة أساليب تعامل الآنسة ليديا وتصرفاتها مع الملازم ديلا ريبيا، فمنذ تلك اللحظة، غدا الملازمُ شخصيةً فريدة في نظر الإنكليزية الحالمة، فذلك المظهرُ غير المكترث، ولهجةُ الصراحة لديه، ومزاجه الحسن، وهي الأمور التي كانت في البداية قد هيأتها بصورة غير إيجابية تجاهه، قد أخذت تصبحُ الآن في نظرها مزيةً إضافية له، لأنها كانت تخفي بعمق روحاً حازمةً لاتدع أيّاً من المشاعر التي تحملها تظهر إلى الخارج. لقد بد لها أورسو أشبه مايكون بفييسكه[2] الذي كان يخفي نواياه تحت مظهر الخفة. ومع أنه أمرٌ أقل

---

(١) - تعبير وطني مستمد من الحروف الأولى من الكلمات: Schiopetto(البندقية)، و Stiletto (السيف) و Strada (الهروب).

(٢) - فييسكه: نبيلٌ جنويّ، حاك عام ١٥٤٧ مؤامرةً ضد أندريه دوريا زعيم جنوه الأكبر وضد ابن أخ دوريا هذا. وقد مات مصادفةً خلال المذبحة التي قام بتحريكها. وقد كتب الكاردينال دو ريتز قصة: مؤامرة فييسكه، وحولها شيلر وأنسولو عام ١٨٢٤ إلى مسرحية.

جمالاً أن يقتل المرءُ بعض السفلة من أن يحرّر وطنه، فإن ثأرًا عظيمًا يعدّ أمرًا جميلاً مع ذلك. فضلاً عن أن النساء يحببن جيدًا ألا يكون البطلُ رجلاً سياسيًّا. حينذاك فقط، لاحظت الآنسة نيفيل أن للملازم الشاب عينين واسعتين جدًّا، وأسنانًا بيضاء، وقامةً أنيقة، وأنه قد تلقى تربيةً، وبعضَ عاداتِ المجتمع الراقي. فتحدثت معه في أغلب الأحيان، أثناء النهار التالي، وأثار حديثه اهتمامها، فطرحت عليه أسئلةً عن بلده بصورةٍ مطولة، فتحدث عن ذلك حديثًا جيدًا. لقد ظلت كورسيكا التي غادرها وهو لايزالُ فتًى، كي يذهب إلى المدرسة الثانوية، ثم إلى المدرسة العسكرية، ظلت في ذهنه مزينةً بألوانٍ شاعرية. وكان يتحمسُ حين يتحدثُ عن جبالها، وغاباتها، وعاداتِ سكانها الأصيلة. وكما يمكن للمرء أن يظنّ، فإن كلمةَ الثأر قد ظهرت أكثر من مرةٍ في قصصه، فمن غير الممكن الحديثُ عن الكورسيكيين دون انتقاد هوايتهم للأمثال أو دون تسويغها لهم. وقد فاجأ أورسو الآنسة نيفيل بعضَ الشيء حين دان بصورةٍ عامة الأحقاد التي لا تنتهي عند مواطنيه. ومع ذلك، فقد كان يسعى لإيجاد الأعذار عند الفلاحين. وكان يزعمُ أن الثأر هو نزالُ الفقراء. وكان يقولُ: «وهذا أمرٌ صحيح إلى درجةٍ أنّ الاقتتالَ لايجري إلا بعد تحدٍّ نظامي: «احترس، فأنا احترس، تلك هي الكلماتُ الجوهرية التي يتبادلها المتخاصمون قبل أن ينصب بعضهم للبعض الآخر الكمائنَ. وقد كان يضيفُ: لدينا من حوادث القتل أكثر مما في أيّ مكانٍ آخر، غير أنكِ لن تجدي قط سببًا خسيسًا لذلك. لدينا في الحقيقة الكثير من القَتلة، وليس عندنا سارق واحد».

عندما كان أورسو يلفظ كلمات: ثأر، وقتل، كانت الآنسة ليديا تنظر إليه بانتباه، من غير أن تكتشف على قسمات وجهه أيّ أثرٍ للانفعال. وبما أن رأيها قد استقر على أن أورسو لديه القوةُ النفسية الضرورية كي تكون مقاصده مستغلقةً على كلّ العيون، باستثناء عينيها بطبيعة الحال، فقد استمرت تعتقدُ اعتقادًا جازمًا بأن آلهةَ انتقامِ العقيد ديلا ريبيا لن تنتظر طويلاً الإرضاءَ الذي كانت تطالبُ به.

كان المركبُ قد غدا على مرأى من كورسيكا، فأخذ صاحبه يسمّي النقاطَ الرئيسة على الساحل. ومع أنها جميعًا كانت نقاطًا تجهلها الآنسة ليديا جهلاً تامًا، فقد كانت تجد بعض المتعة في معرفة أسمائها، فلا شيءَ أكثر إثارة للسأم من منظرٍ لاتسميةَ له. وفي بعض الأحيان، كان منظارُ العقيد يري أحدَ سكان الجزيرة وهو يرتدي قماشاً بني اللون، ومتسلّحًا ببندقيةٍ طويلة، وممتطيًا جواداً قصير القامة، ومتقدمًا عدواً على المنعطفات الوعرة. وكان يخيلُ للآنسة ليديا أنها ترى قاطعَ طريقٍ في كلّ منعطف منها، أو ابنًا منطلقًا ليثأر لموتِ والده. غير أن أورسو كان يؤكدُ أنه من المحتملٍ أن يكون ذلك الرجل هو أحدَ سكان القرية المجاورة، وهو يسافر لقضاء حاجاته، وأنه يحملُ بندقيةً بدافعِ التظرف أو جريًا على الدُّرْجة أكثر مما يحملها بسبب ضرورتها، مثل متأنقٍ لايخرجُ إلا وهو يحملُ عصا أنيقة. ومع أن البندقية سلاح أقل نبلاً، وأقل شاعرية من سيف مبارزةٍ، فإن الآنسة ليديا كانت تجد أن البندقية أكثر أناقةً من عصا بالنسبة لرجل. وكانت تتذكر أن كافة أبطال اللورد بيرون يموتون برصاصة وليس بخنجر تقليدي.

بعد ثلاثة أيامٍ من الإبحار، أصبحت المركبُ قبالةَ السّانغينير[1]، واتّسع المنظرُ الشاملُ الرائع لخليج أجاكسيو أمام أعين مسافرينا. وقد أصابَ من شبَّهه بجون نابولي. وفي اللحظة التي كانت تدخلِ فيها المركب إلى المرفأ، كان هناك دغلٌ يحترقُ، ويغطّي بونتا دي جيراتو بالدُّخان، فيذكرنا بيركان فيزوف، ويجعلُ التشابه أكبر. فلكي يغدو تشابها تامًا، يكفي أن ينقضّ جيشُ أتيلا[2] على ضواحي نابولي، لأن كلّ شيء ميتٌ ومقفرٌ من حول أجاكسيو وعوضًا عن تلك المعالم التي نكتشفها في كافة الاتجاهات، بدءًا من كاستيلمار، حتى رأس مسّينا، لا نرى، حول خليج أجاكسيو، سوى أدغال معتمة، وخلفها جبالٌ جرداء. وليس فيها أية

---

(١) - هي جزر كورسيكا عند مدخل أجاكسيو. (م: ز.ع).

(٢) - أتيلا ملك الهون، وقاهر أباطرة الشرق والغرب وقد هُزِم عام ٤٥٤ على يد تحالفٍ أوروبي. (م: ز.ع)

دارةٍ أو أي منزل. بل هناك فقط بعضُ المباني البيضاء التي تبرزُ منعزلةً على أرضية من الخضرة، ومنتشرةً هنا وهناك على المرتفعات، حول المدينة. إنها مصلياتٌ جنائزية، ومقابرُ عائلية. إن كلَّ شيء في ذلك المنظر ذو جمال وقورٍ وحزين.

كان مظهرُ المدينة، خصوصاً في ذلك العهد، يزيد أيضاً من الانطباعِ الذي تسببه وحشة ما يحيط بها، فما من حركةٍ في الشوارع التي لايلتقي المرء فيها إلا عدداً صغيراً من الوجوه المتعطلة عن العمل، والتي تتكرّر ذاتها دوماً. وما من نساء، باستثناء بعض الفلاحات اللواتي يأتين ليبعن مواد غذائية. ولايسمع المرء حديثاً عالياً أو ضحكاً، أو غناء، كما في المدن الإيطالية وفي بعض الأحيان، يلعب اثنا عشر فلاحاً مسلّحاً بالورق، أو يتفرجون على اللعب، في ظل شجرةٍ من أشجار المنتزه. إنهم لايصرخون، ولايختصمون قط، وإذا ما حمي اللعبُ، سمعت آنذاك بعض طلقات المسدس التي تسبق دوماً التهديد. إن الكورسيكي، بطبيعته، رزينٌ وصموت. وفي المساء، تظهرُ بعضُ الوجوه التي تريدُ أن تستمتع ببرودته، غير أن المتنزهين في المنتزه المشجر غرباء جميعهم تقريباً. أما أهلُ الجزيرة فيمكثون أمام أبواب منازلهم، ويبدو كلٌّ منهم في مكمنه مثل صقرٍ فوق عشه.

الفصل الرابع

بعد أن زارت الآنسة ليديا المنزل الذي وُلد فيه نابوليون، وبعد أن حصلت على قليل من ورق الجدران بوسائل كاثوليكية إلى حدّ ما، وبعد يومين من نزولها إلى كورسيكا. أحست بأن حزنًا عميقًا قد استولى عليها، كما ينبغي أن يحدثَ لكل غريب يجدُ نفسه في بلدٍ كأنّ عاداته المنافية للاجتماع تحكمُ عليه بالعزلة التامة. وقد ندمت على قرارها الطائش، ولكن الرّحيل الفوري كان يمكن له أن يؤثر سلبًا على سمعتها كسائحةٍ مقدامة، فقبلت الآنسة ليديا والحالة هذه أن تصبر، وأن تقتل الوقت بأفضلِ وجه. فهيّأت، انطلاقًا من هذا القرار الشجاع أقلامًا وألوانًا، ورسمت مناظرَ من الخليج، وصورت فلاحًا أسمر الوجه كان يبيعُ شمامًا مثل مزارع خضارٍ من مزارعي اليابسة، غير أن له لحيةً بيضاء، وهيئةَ أكثرِ الرجال الأنذال الذين يمكن أن نراهم شراسةً. ولم يكن كلُّ هذا يكفي لتسليتها، وعزمت على أن تلوي رأسَ سليل العرفاء. ولم يكن الأمرُ صعبًا لأن أورسو الذي لم يكن متعجلاً إلى حدّ بعيد لرؤيةِ قريته، كان يبدو أن الإقامة في أجاكسيو تروقُ له كثيرًا، مع أنه لم يرَ فيها أحدًا. وكانت الآنسة ليديا، فضلاً عن ذلك، قد حددت لنفسها مهمةً نبيلة وهي أن تحضر دبّ الجبال هذا، وأن تجعله يتخلى عن نواياه المشؤومة التي جعلته يرجع إلى جزيرته. ومنذ أن كلفت نفسها عناءَ دراسة تلك المهمة، كانت تقول لنفسها إن تركَ ذلك الشاب يسير إلى حتفه سيكون أمرًا مؤسفًا، وسيكون انتصارًا رائعًا بالنسبة إليها إذا ماهدت كورسيكيًا إلى الطريق الصحيح.

كانت أيامُ مسافرينا تمرّ على النحو التالي: كان العقيد وأورسو يذهبان صباحًا إلى الصيد، وكانت الآنسة ليديا ترسم أو تكتب إلى صديقاتها كي تتمكن من تأريخ

رسائلها المبعوثة من أجاكسيو. ونحو الساعة السادسة، كان الرجالُ يعودون محملين بالطرائد، وكانوا يتناولون العشاء، والآنسة ليديا تغني، بينما يستولي النعاسُ على العقيد، فيبقى الشابان يتحدثان إلى وقتٍ متأخر في الليل.

لا أعرف أي إجراء من إجراءات جواز السفر قد أجبر العقيد نيفيل على القيام بزيارةٍ إلى مدير الشرطة الذي كان ضجراً أشدّ الضجر مثل معظم معاونيه، فابتهج عندما علم بوصول رجلٍ إنكليزي غنيّ، من عليةِ القوم. وهو والدٌ لفتاةٍ جميلة، وهكذا، فقد استقبله استقبالاً حافلاً، وغمره بعرضِ خدماته عليه. إضافة إلى ذلك، ردّله زيارته، بعد أيامٍ قليلة. وكان العقيد الذي نهض للتوّ عن المائدة مستلقياً على الأريكة، وعلى وشك أن يغفو. وكانت ابنته تغني أمام آلة بيانو مهدَّمة. وكان أورسو يقلّبُ صفحاتِ دفترها الموسيقي، وينظر إلى كتفي العازفة الموهوبة وإلى شعرها الأشقر. وجرى الإعلانُ عن وصولِ السيد مدير الشرطة، فسكت البيانو، ونهض العقيدُ، وفرك عينيه، وقدّم مدير الشرطة إلى ابنته، وقال:

أنا لاأقدم لك السيد ديلا ريبيا، لأنك تعرفه من غير شك؟

فسأل مدير الشرطة بشيء من الإحراج:

- السيد هو ابن العقيد ديلا ريبيا؟

فأجاب أورسو: - أجل، ياسيدي.

- كان لي الشرف أن أتعرف إلى والدك.

ونضبت سريعاً أطرافُ الحديث المبتذلة، وكان العقيد يتثاءبُ مراراً وتكراراً بالرغم عنه، ولم يكن أورسو يريدُ أن يتحدث أبداً مع أحدِ أتباع السلطة، كونه ذا نزعة تحررية وكانت الآنسة ليديا وحدها تشترك في الحديث. أما مديرُ الشرطة، فلم يكن من جهته يتركها تسأم، وكان من الواضح أن لديه رغبةً شديدة في الحديث عن باريس، وعن المجتمع الراقي، مع امرأة تعرف كلّ مشاهير المجتمع الأوروبي. ومن وقت لآخر، كان أثناء حديثه، يلاحظُ أورسو بفضول خاص.

وسأل الآنسة ليديا: «هل تعرفت إلى السيد ديلا ريبيا على اليابسة؟».

فأجابت الآنسة ليديا بشيء من الحرج: إنها قد تعرّفت إليه على المركب التي أقلتهما إلى كورسيكا.

فقال مدير الشرطة بصوت خفيض: إنه شاب لائقٌ جداً.

وتابع بصوتٍ أخفض أيضًا: وهل قال لك ما غرضه من الرجوع إلى كورسيكا؟

فاتخذت الآنسة ليديا مظهراً مهيبًا، وقالت:

«لم أسأله عن ذلك قط، يمكنك أن تستفسر منه عن الأمر».

فالتزم المدير الصمت - ولكنه بعد لحظةٍ من الزمن، وحين سمع أورسو يوجه إلى العقيد بعض الكلمات بالإنكليزية، قال:

- يبدو أنك قد قمت بأسفارٍ كثيرة، يا سيدي، لا بدّ أنك قد نسيت كورسيكا... وعاداتها.

- هذا صحيح. فقد كنت صغير السن عندما غادرتها.

- ألا زلت منخرطًا في الجيش؟

- إني عسكري بنصف مرتب، يا سيدي.

- لقد بقيت في الجيش الفرنسي مدّة طويلة جداً بحيث لا يمكن إلا أن تكون قد غدوتَ فرنسيًا تمامًا، وأنا لا أشك بذلك، أيها السيد.

وتلفظ بهذه الكلمات الأخيرة بتشدُّقٍ ظاهر.

إن تذكير الكورسيكيين بأنهم ينتمون إلى الأمة الكبيرة ليس إطراءً للكورسيكيين عظيمًا، فهم يريدون أن يكونوا شعبًا مستقلاً. وهم يسوّغون هذا الطموح تسويغًا لا بأس به كي يُمنحَ لهم تحقيقه.

أما أورسو الذي استثير قليلاً، فقد ردّ قائلاً:

«هل تظن، أيها السيد مدير الشرطة، أن كورسيكيًا يحتاجُ لأن يخدم في الجيش الفرنسي كي يكون رجلاً شريفًا؟

فقال مديرُ الشرطة:

- كلا، بالتأكيد، فليست هذه فكرتي على الإطلاق. ولكني أتحدثُ فقط عن بعض عادات هذه البلاد والتي لايشكل بعضها جزءًا من تلك العادات التي يرغبُ حاكمٌ في رؤيتها.

لقد شدّد على هذه الكلمة: عادات. واتخذت ملامحه تعبيراً جديًا هو أقصى ما يمكن لوجهه أن يتضمنه. وبعد ذلك بقليل، نهض، وخرج، حاملاً وعداً من الآنسة ليديا بالذهاب لزيارة زوجته في مديرية الشرطة.

عندما مضى، قالت الآنسة ليديا:

«كان لابدّ لي أن أذهب إلى كورسيكا لأعرف ماذا يعني أن يكون المرءُ مديراً للشرطة، فهذا المدير يبدو لي لطيفًا إلى حدٍّ كاف.

وقال أورسو:

- أما أنا، فلا يمكنني أن أقول مثل ذلك. وإني أجده غريبًا تمامًا، بهيئته المفخمة والغامضة».

كان العقيد أكثر من وسنان، فألقت الآنسة ليديا نظرةً باتجاهه، وخفضت صوتها، وقالت:

«وأنا أجد أنه ليس غامضًا إلى الدرجة التي تزعمُ، فأظن أنني قد فهمته».

- إنك بالتأكيد ثاقبة البصر جداً، أيتها الآنسة نيفيل، ولئن كنت تجدين بعض النباهة في ما قاله منذ قليل، فلا بدّ أن تكوني أنتِ بالتأكيد من وضعتها فيه.

- إنها جملةٌ للمركيز دوما سكاري، يا سيد ديلا ريبيا، كما أظن، ولكن. . . هل تريد أن أعطيك دليلاً على نفاذِ بصيرتي؟ فأنا ساحرةٌ بعض الشيء، وأعرف بماذا يفكر الناسُ الذين ألتقيهم مرتين.

- يا إلهي. إنك تخيفينني. فإذا كنت تعرفين قراءةَ أفكاري، فأنا لا أدري هل يتعينُ علي أن أكون مسروراً لذلك أم مغتمّاً. . .

فتابعت الآنسة ليديا وهي تحمر خجلاً:

- يا سيد ديلا ريبيا، إننا لم نتعارف إلا منذ بضعة أيام، غير أننا في البحر، وفي البلاد الهمجية - وآمل أن تعذرني. . . - في البلدان الهمجية، يصبح الناس أصدقاء بصورة أسرع مما يصبحون في العالم المتمدن. . . وهكذا، فلا تدهش إن كنت أكلمك كصديقة عن أشياء حميمة إلى حدٍّ ما، وربما لا ينبغي للغريب أن يتدخل فيها.

- أوه! لا تقولي لي هذه الكلمة، يا آنسة نيفيل، فالكلمة الأخرى كانت تعجبني أكثر بكثير. .

- حسنًا يا سيدي، لابدّ أن أقول لك إنني ألفيتُ نفسي مطلعةً على قسمٍ من أسرارك من غير أن أسعى إلى معرفتها، ومن هذه الأسرار، ما يكدرني. فأنا أعرف، أيها السيد المصيبةَ التي حلت بأسرتك. وقد قيل لي الكثيرُ عن الطبع الثأري عند مواطنيكم، وعن طريقتهم في الثأر. . . أليس هذا هو الأمر الذي كان مديرُ الشرطة يلمح إليه؟

- أيمكن للآنسة ليديا أن تفكر! . . .

وغدا أورسو شاحبًا شحوب الموت.

فقالت مقاطعةً: «كلا يا سيدي ديلا ريبيا، أعلم أنك رجلٌ مهذب، مفعمٌ بالشرف، ولقد قلت لي بنفسك أنه لم يعد في بلدك من يعرفُ الثأر. . . الذي يروقُ لك أن تسميه شكلاً من أشكال النزال باستثناء عامة الشعب.

- هل تظنينني قادراً على أن أصبح قاتلاً في يوم من الأيام؟

- بما أني أكلمكَ في هذا الأمر، أيها السيد أورسو، فلا بد لك حقًا أن ترى أني لا أشك بك أبداً.

وتابعت وهي تخفض عينيها: ولئن كلَّمتُك في ذلك، فهذا لأني فهمتُ أنك ستكون مرتاحًا حقًا، إذا عرفت أن هناك أحداً يقدّرك لشجاعتك ومقاومتك للأحكام المسبقة التي ربما أحاطت بك، حين ترجعُ إلى بلدك.

وقالت وهي تنهض: هيا، ولنكف عن الكلام على هذه الأشياء الشنيعة، فهي تسببُ لي الصداع. زد على ذلك أن الوقت قد تأخر كثيراً. ألستَ غاضباً مني؟ فعم مساءً، على الطريقة الإنكليزية. ومدّت له يدها.

فضغط أورسو عليها بجديةٍ وثقة، وقال:

«هل تعلمين يا آنسة أن هناك لحظاتٍ تستيقظُ فيها غريزةُ الموطن في نفسي؟ وأحياناً، أفكر بوالدي المسكين... تستحوذ عليّ حينذاك أفكارٌ مرعبة، وبفضلك، قد تخلصت منها إلى الأبد، فشكراً لكِ، شكراً!».

وكان يريدُ أن يتابعَ كلامه، غير أن الآنسة ليديا أسقطت ملعقةً للقهوة على الأرض، فأيقظ صوتها العقيد.

«غداً، يا ديلا ريبيا، إلى الصيد، في الخامسة، فكن دقيقًا».

- أجل، يا سيدي العقيد.

الفصل الخامس

في اليوم التالي، وقبل عودة الصّيادين بقليل، كانت الآنسة نيفيل ذاهبةً إلى النّزل مع خادمتها، بعد رجوعها من نزهةٍ على شاطئ البحر، عندما لاحظت أن امرأةً شابة كانت تدخل إلى المدينة وهي ترتدي الأسود، وتمتطي جواداً قصير القامة، ولكنه قوي، وكان يتبعها رجلٌ أشبه ما يكون بفلاح. وهو يركب جواداً أيضًا، ويرتدي سترةً من الجوخ البني مثقوبةً على المرفقين، ويتقلد مطرةً للماء، ويحمل مسدسًا معلقًا بحزامه، وبيده بندقيةٌ يرتكز أخمصها إلى جيبٍ جلدي معلّق في قربوس السرج، أي باختصار، يرتدي طقمًا كاملاً لقاطع طريقٍ في تمثيليةٍ عاطفية (ميلودراما)، أو لبورجوازي كورسيكي مسافر. وقد شدّ انتباه الآنسة نيفيل أولاً الجمالُ اللافتُ للمرأة، فقد كانت تبدو في العشرين من عمرها، طويلةَ القامة، بيضاء البشرة، وعيناها زرقاوان غامقتان، وفمها ورديّ اللون، وأسنانها كطلاء الخزف. وكان المرء يقرأ في تعبير وجهها الكبرياء، والقلق والحزن في آنٍ واحد. وكانت تلبسُ على رأسها ذلك الخمار الحريري الأسود الذي يسمونه MEZZARO، والذي كان الجنويّون قد أدخلوه إلى كورسيكا، وهو يناسبُ النساء بصورةٍ حسنة. وكانت جديلتان طويلتان من الشعر الكستنائي تشكّلان ما يشبه العمامةَ حول رأسها، وكانت بدلتها نظيفةً، ولكنها على قدرٍ كبير من البساطة.

لقد أُتيح للآنسة نيفيل الوقتُ الكافي لتتأملها، فالسيدةُ ذات الخمار قد توقفت في الشارع، وأخذت تسأل أحد الأشخاص باهتمامٍ كبير، كما كان يبدو من تعبير عينيها. وبناءً على الرد الذي أُعطيَ لها، ضربت مطيتها بعصا لينة، فأخذت تخبُّ خببًا سريعًا. ولم تتوقف إلا عند باب الفندق الذي كان يقيمُ فيه السير توماس نيفيل وأورسو. وهناك قفزت المرأةُ الشابة بخفةٍ عن ظهر حصانها، بعد أن

تبادلت بضع كلماتٍ مع صاحب الفندق، وجلست على مقعد حجري بجانب باب المدخل، فيما كان حاملُ أسلحتها يقودُ الخيول إلى الإسطبل، ومرت الآنسة ليديا ببدلتها الباريسية من أمام المرأة الغريبة من غير أن ترفعَ عينيها، وبعد ربعٍ ساعة فتحت نافذتها، فرأت السيدةَ ذات الخمار وهي لا تزالُ جالسةً في المكان نفسه، وفي الوضع نفسه. وبعد قليل، ظهر العقيدُ وأورسو، وهما عائدان من الصيد. حينذاك، قال صاحبُ الفندق بعضَ الكلمات للآنسة التي ترتدي ملابسَ الحداد، ودلها بإصبعه على الشاب ديلا ريبيا، فاحمرَّ وجه هذه الآنسة، ونهضت بحيوية، وتقدمت بضعَ خطوات إلى الأمام، ثم توقفت، لاتبدي حراكًا، وكأنها مذهولةٌ، فقد كان أورسو قريبًا جداً منها، ويتأملها بفضول.

فقالت بصوتٍ منفعل: «أنت أورسو أنطونيو ديلا ريبيا؟ أنا كولومبا».

فصرخ أورسو: كولومبا!

وأخذها بين ذراعيه، وقبلها بحنان، وهذا ما أدهشَ العقيد وابنته قليلاً، ففي إنكلترا لايتعانقُ الناسُ في الشارع.

وقالت كولومبا: «اعذرني يا أخي إن كنت قد أتيت من غير أمرٍ منك، ولكني عرفتُ من أصدقائنا أنك قد وصلت، وكان هذا بالنسبة لي عزاءً كبيراً أن أراك...».

وقبّلها أورسو أيضًا، ثم استدار نحو العقيد وقال:

«هذه هي أختي التي لم يكن ممكنًا أن أتعرفها لو لم تسمِّ نفسها - كولومبا. العقيد السيد توماس نيفيل - أيها العقيد، هل تتفضل بأن تعذرني، ولكن لن يكون لي الشرف أن أتناول العشاء معك اليوم... إن شقيقتي...

فصرخ العقيد قائلاً: عجبًا! وأين تريدُ أن تتعشى يا عزيزي، بحق الشيطان! أنت تعلم جيداً أنه ليس هناك إلا عشاء واحد في هذا النزل اللعين. وهو لنا، ولسوف تسرُّ الآنسة ابنتي سروراً كبيراً إذا انضمت إلينا.

نظرت كولومبا إلى أخيها الذي قبل الدعوة بسرعة، ودخل الجميع إلى أكبر غرفة من غرف النزل، وكان العقيدُ يستخدمها كقاعة استقبال وغرفة طعام، أما الآنسة ديلا ريبيا التي قُدِّمت إلى الآنسة نيفيل، فقد حيتها بانحناءةٍ عميقة، ولكنها لم تقل أية كلمة.

وكان يلاحظ أنها شديدةُ الفرح، وأنها قد وجدت نفسها للمرة الأولى ربما في حياتها في حضرةِ أناسٍ غرباء من الطبقة العليا. ومع ذلك، فلم يكن في تصرفاتها شيء تشتمُّ منه رائحةُ الريف، فقد كان شعورُ الاستغرابِ ينقذها من التصرفات الخرقاء. لقد راقت للآنسة نيفيل من هذه الناحية بالذات، وبما أنه لم تكن هناك غرفةٌ خاليةٌ في الفندق الذي احتله العقيد وأتباعه، فقد أوصلت الآنسة ليديا التسامح أو الفضول إلى درجةٍ عرضت معها على الآنسة ديلا ريبيا أن يجري وضعُ سريرٍ لها في غرفتها الخاصة وتمتمت كولومبا ببعضِ كلمات الشكر، وأسرعت إلى اللحاق بخادمة الآنسة نيفيل كي تجري على زينتها لمساتٍ صغيرة جعلتها ضروريةً سفرةٌ على الجياد في الغبار والشمس. وحين دخلت إلى قاعةِ الاستقبال، توقفت أمام بنادقِ العقيد التي كان الصيادون قد وضعوها للتو في إحدى الزوايا.

فقالت: «يا لها من أسلحةٍ جميلة! هل هي لك يا أخي؟

- كلا، إنها بنادقُ العقيد الإنكليزية، وهي بنادقُ جيدة بقدر ما هي جميلة.

- أودّ لو أن عندك مثلها.

فهتف العقيد:

هناك، بالتأكيد، واحدةٌ من هذه البنادق الثلاث، تخصُّ ديلا ريبيا، إنه يستخدمها استخدامًا على نحوٍ فائق، فهذا اليوم، أطلق أربعةَ عشر عياراً من البندقية، فأسقط أربعَ عشرة طريدة!

«وهكذا قامت معركة في الجود، هزمَ فيها أورسو، فاغتبطت شقيقته أكبرَ اغتباط، وكان من السهل ملاحظته، من خلال الفرح الطفولي الذي التمع فجأة في وجهها الذي كان كثيرَ الجدية منذ قليل».

وكان العقيد يقول: «اختر يا عزيزي».

وكان أورسو يرفض.

«حسنًا، فالآنسة شقيقتك ستختار لك».

ولم تنتظر كولومبا أن يقال لها ذلك مرتين: فأخذت البندقية الأقل زخرفةً، ولكنها كانت بندقية مانتون ممتازة، من عيار كبير.

وقالت: لا بدّ أن هذه البندقية ترمي الرصاصة جيداً.

وكان شقيقها محرجًا في تقديم عبارات الشكر للعقيد عندما أتى العشاء في الوقت المناسب تمامًا كي يخلصه من الحرج. وكانت الآنسة ليديا مبتهجةً لرؤية كولومبا التي أبدت بعض المقاومة، قبل أن تجلس إلى المائدة. ولم تقبل ذلك، إلا بعد نظرةٍ وجّهها إليها أخوها. ورسمت، ككاثوليكية مؤمنة، إشارة الصليب قبل أن تأكل.

«وقالت في نفسها: حسنًا هذا هو الأمرُ الأوليّ».

وقطعت عهداً على نفسها أن توجه أكثرَ من ملاحظة مفيدة لذلك الممثل الشاب لعادات كورسيكا القديمة. أما أورسو فقد كان واضحًا أنه متضايقٌ بعضَ الشيء لخشيته بالتأكيد من أن تقول أخته أو تفعل شيئًا يظهر فيه طابعُ قريته بشكل مفرط.

ولكن كولومبا كانت تراقبه باستمرار، وتضبط كلّ حركاتها على حركات أخيها، وكانت أحيانًا تحدّق به بنظرةٍ تحمل تعبيراً غريباً مفعمًا بالحزن، حينذاك، وعندما كانت عينا أورسو تلتقيان عينيها، كان هو أولَ من يشيح بنظرته عنها، وكأنه يريدُ أن يتهرب من سؤالٍ توجهه إليه شقيقته ذهنيًا، وهو يفهمه جيداً إلى درجةٍ

فائقة. كان الحديثُ يجري باللغة الفرنسية، لأن العقيد كان يعبرُ بالإيطالية على نحوٍ سيئ. وكانت كولومبا تفهمُ الفرنسية، وحتى أنها تلفظُ بشكلٍ حسن الكلماتِ القليلة التي كانت مجبرةً على أن تتبادلها مع مضيفيها.

بعد العشاء، سأل العقيد، الذي كان قد لاحظ ذلك النوع من الضيق المسيطر بين الأخ وأخته، سأل أورسو بصراحته المعتادة عما إذا كان يرغبُ في التحدثِ بمفرده مع الآنسة كولومبا، وقد عرض عليهما في تلك الحالة أن ينتقل مع ابنته إلى الغرفة المجاورة. غير أن أورسو سارع إلى شكره وإلى القول إنه سيكون لديهما الوقت الكافي للحديث في بييترانيرا، وهذا هو اسم القرية التي كان من المقرر أن يقيم فيها.

أخذ العقيد مكانه المعتاد على الأريكة، أما الآنسة نيفيل، فبعد أن جربت عدةَ موضوعات للحديث، وفقدت الأمل من أن تجعل كولومبا تتكلم، رجت أورسو أن يقرأ لها نشيداً من أناشيد دانتي، فقد كان دانتي شاعرها المفضل، فاختار أورسو نشيدَ الجحيم الذي تقعُ فيه حادثةُ فرنسيسكادا ريميني، وأخذ يقرأ، وهو يشدّد بأفضل مايستطيع على تلك المقاطع الثلاثية التي تعبّر جيداً عن خطرِ أن يقرأ اثنان كتاباً في الحب. وكانت كولومبا تقترب من المنضدة، كلما كان يقرأ، وترفعُ رأسها الذي كانت تتركه مخفضاً. وأخذت حدقتاها المتوسعتان تلتمعان ببريقٍ غير عادي، فلقد كانت تحمرّ خجلاً، وتشحبُ بالتناوب، وكانت تتحرك على كرسيها مرتعشةً، فيا لذلك البناء الإيطالي الرائع الذي لايحتاج، من أجلِ فهمِ الشعر، إلى أن يدلّ على نقاطِ الجمالِ فيه مدعٍ للمعرفة!

وعندما انتهت القراءةُ، هتفت:

«كم هذا جميل! من الذي صنعَ هذا يا أخي؟»

فاضطرب أورسو قليلاً، وأجابت الآنسة ليديا مبتسمةً إنه شاعرٌ فلورنسي، توفي منذ بضعة قرون.

وقال أورسو: سأجعلك تقرأين دانتي، عندما نصبح في بييترانيرا.

وكانت كولومبا تردّد: - يا إلهي، كم هذا جميل! وتلت ثلاثة أو أربعة مقاطع قد حفظتها، بصوتٍ خفيض في البداية، ثم أخذها الحماسُ، فأنشدتها بصوتٍ عال، وبتعبيرٍ أقوى من التعبيرِ الذي تلاها به أخوها عند قراءته لها.

فقالت الآنسة ليديا بدهشةٍ كبيرة:

«يبدو أنك تحبين الشعر كثيراً، كم أحسدكِ على السعادة التي تشعرين بها في قراءة دانتي وكأنه كتابٌ جديد.

وقال أورسو: - أترين، يا آنسة نيفيل، أيّ تأثيرٍ لأشعارِ دانتي على شعورِ فتاة غير متمدنةٍ لاتعرفُ إلا صلاةَ «أبانا». . . ولكنني مخطئ، فأنا أتذكر أن كولومبا خبيرةٌ بالشعر وحين كانت لا تزالُ طفلةً، كانت تدخل في مباريات لقرضِ الشعر، وكان والدي يكتب لي إنها أكبرُ مغنية مأتميةٍ في بييترانيرا، وعلى دائرةٍ قطرها فرسخان».

وجهت كولومبا إلى أخيها نظرةً متوسلةً، وكانت الآنسة نيفيل قد سمعت كلاماً على مرتجلات الغناء، في كورسيكا، وتتحرقُ شوقاً لسماعِ واحدةٍ منهن، وهكذا، فقد سارعت إلى ترجي كولومبا كي تقدم لها نموذجاً من موهبتها. فاعترض أورسو حينذاك، وقد ضايقه كثيراً أن يكون قد أثنى كثيراً على استعداداتِ شقيقته الشعرية. وعبثًا أخذ يقسم بأنه لاشيء أكثر تسطحاً من مغناةٍ كورسيكيةٍ نائحةٍ، ويحتج بأن تلاوةَ الأشعار الكورسيكية إلى جانب أشعار دانتي هو خيانةٌ لبلده، فكلّ ما فعله هو أنه أثارَ نزوةَ الآنسة نيفيل، وألفى نفسه في النهاية يقول لشقيقته:

«حسنًا، ارتجلي شيئًا، على أن يكون ذلك قصيراً!».

فأطلقت كولومبا تنهيدةً، ونظرت بانتباهٍ خلال دقيقة، إلى بساطِ المنضدة، ثم إلى أخشابِ السقف، وأخيراً، وضعت يديها على عينيها مثل تلك العصافير التي تشعرُ نفسها بالأمان، وتظن أنها لا تُرى حين لا تَرى، وغنت، أو بالأحرى، أنشدت بصوتٍ قليل الثبات الأغنيةَ الليليةَ التي سنقرؤها هنا:

الفتاة واليمامة

في الوادي، وبعيداً جداً، خلف الجبال - حيث لا تصلُ الشمسُ إلا ساعةً واحدةً كل يوم - ثمة منزل معتم في الوادي - وينمو العشبُ فيه على العتبة - أبوابه ونوافذه مغلقةٌ دائمًا - ولا يتصاعدُ أيُّ دخان من سطحه - إلا أنه عندما تأتي الشمسُ، عند الظهيرة - تنفتحُ نافذةٌ حينذاك - وتجلسُ اليتيمةُ، وهي تغزلُ أمام دولابها: إنها تغزلُ وتغني أثناء عملها - نشيدَ حزن - غير أنه لا يردُّ عليها أيُّ غناءٍ آخر - فتحطُّ يمامةٌ على شجرةٍ مجاورة - وتسمع غناء الفتاة - فتقول لها: أيتها الفتاةُ، أنت لا تبكين وحدك - فقد اختطف صقرٌ قاسٍ رفيقي - أيتها اليمامةُ، أرني الصقر المختطفَ - فحتى لو كان عاليًا كالغيوم - فلسوف أُسقطه على الأرض - أما أنا، الفتاة المسكينة، فمن يعيد إلي أخي - أليس أخي في بلادٍ بعيدة الآن؟ - أيتها الفتاةُ قولي لي أين أخوك - ولسوف تحملني جناحاي بقربه.

فهتف أورسو وهو يقبّل أخته بتأثُّرٍ يتعارضُ مع اللهجةِ المازحة التي كان يتظاهرُ بها:

«يا لها من يمامةٍ حسنةِ التربية!»

وقالت الآنسة نيفيل:

- إن أغنيتك رائعةٌ، وأريد أن تكتبيها لي في سجلي، ولسوف أترجمها إلى الإنكليزية، وسأعمل على تلحينها.

أما العقيد المقدام الذي لم يفهم كلمة واحدة من الأغنية، فقد ضمّ مجاملاته إلى مجاملات ابنته، ثم أضاف:

«هذه اليمامة التي تتحدثين عنها، ياآنستي، هل هي ذلك الطير الذي أكلناه اليوم على طريقة الكرابودين».

أحضرت الآنسة نيفيل سجلَّها، ولم تكن مدهوشةً حين لاحظت أن مرتجلة الشعر تكتب أُغنيتها وهي تقتصدُ في استخدام الورق بطريقة فريدة، فبدلاً من أن تكتب كلَّ بيتٍ شعري على حدة، كانت الأبيات تتتابعُ على السطر نفسه، طالما كان يسمحُ بذلك عرضُ الورقة، بحيث لم تعد مناسبةً للتحديد المتعارف عليه لأشكال التأليف الشعرية: «على أسطر صغيرة، ذات طول غير متساوٍ، ومع هامشٍ من كلِّ جهة». وكان هناك أيضًا العديد من الملاحظات التي يمكن إبداؤها على الإملاء الكيفي إلى حدّ ما للآنسة كولومبا، وهو الإملاء الذي جعل الآنسة نيفيل تبتسمُ، فيما كان كبرياءُ أورسو الأخويُّ في امتحانٍ عسير.

حانت ساعةُ النوم، فانسحبت الفتاتان إلى غرفتهما. وهناك، وفيما كانت الآنسة ليديا تنزعُ عقدها، وأقراطها، وأساورها، لاحظت أن رفيقتها تنزعُ من فستانها شيئًا طويلاً مثل شفرة تصليب، ولكن لها شكلاً مختلفًا مع ذلك. ووضعت كولومبا بعناية، وخلسةً تقريبًا، وضعت ذلك الشيءَ تحت خمارها الموجود على المنضدة، ثم جثت، وتلت صلواتها بورع. وبعد دقيقتين، كانت في سريرها، فاقتربت الآنسة ليديا من المنضدة، لأنها فضوليةٌ بطبعها، وبطيئة في نزعِ ملابسها مثل أية إنكليزية. وتظاهرت بأنها تبحث عن دبوس، ورفعت الخمار، فلاحظت خنجرًا جيد الطول، ومؤطرًا بعرق اللؤلؤ والفضة، وكانت صنعته مثيرةً للإعجاب، فقد كان سلاحًا قديمًا ذا قيمة كبيرة بالنسبة لهاوٍ.

قالت الآنسة نيفيل وهي تبتسم: هل تجري العادةُ هنا أن تحمل الفتياتُ هذه الآلةَ الصغيرة في مشدّهن؟

فقالت كولومبا وهي تتنهد: لابدَّ منه فعلاً، فهناك الكثير من الأشرار!

- وهل يمكن أن تكون لديك الشجاعةُ حقًا لتطعني به بهذا الشكل؟

وكانت الآنسة نيفيل التي أمسكت الخنجر بيدها تمثل حركةَ الطعن، مثلما يطعنون في المسرح من الأعلى إلى الأسفل.

فقالت كولومبا بصوتها الرقيق والموسيقي: «نعم، إذا كان ذلك ضرورياً للدفاع عن نفسي أو عن أصدقائي. . . ولكن لاينبغي أن يُمسَك بالخنجر مثلما تفعلين، فقد تجرحين نفسك، إذا ما تراجع الشخصُ الذي تريدين طعنه»، ونهضت لتجلس: «لاحظي، بهذا الشكل، وأنت ترفعين الطعنة رفعاً، فعلى هذا النحو، تكون قاتلةً، كما يقال، ومحظوظون هم الناس الذين ليسوا بحاجةٍ لمثلِ هذه الأسلحة!».

وتنهّدت، وأسلمت رأسها للوسادة، وأغلقت عينيها. لم يكن بالإمكان رؤيةُ رأسٍ أجمل وأنبل، وأكثر بتولية. وما كان لفيدياس أن يرغبَ في نموذجٍ آخر غيرها، عندما نحت تمثاله: مينرفا.

الفصل السّادس

لقد دخلتُ منذ البداية في صلب الموضوع، التزامًا مني بتوصيةِ هوراس. والآن، والجميعُ نيام، كولومبا الجميلة، والعقيد وابنته، سأنتهز هذه اللحظة كي أُطلع قارئي على بعض الخصوصيات التي لاينبغي له أن يجهلها، إذا ما أراد أن يتوغل أكثر في هذه القصة الحقيقية.

إن القارئ يعلمُ الآن أن العقيد ديلا ريبيا، والد أورسو، قد مات غيلةً، فالمرء لايتعرض للاغتيال في كورسيكا، كما يتعرضُ له في فرنسا على يدِ أول هاربٍ من سجنِ الأشغال الشاقة لايجدُ طريقةً أفضل كي يسلبك نقودك. فالمرءُ يقتلُ هنا على يد أعدائه. أما السببُ الذي يجعل للمرء أعداء، فمن الصعب جدًا، في معظم الأحيان، أن يُعرَف. إن العديدَ من العائلات تتباغضُ بسبب اعتياد قديم على ذلك. أما التقليدُ الذي كان السبب الأصلي لتلك الكراهية فيكون قد ضاع تمامًا.

إن العائلة التي كان ينتمي إليها العقيد ديلا ريبيا كانت تكرهُ عدةَ عائلاتٍ أخرى، وبصورةٍ خاصة عائلة باريّسيني. وكان البعضُ يقول إن أحد رجال عائلة ديلا ريبيا قد أغوى فتاةً من عائلة باريّسيني، فقُتل مطعونًا بعد ذلك، على يد أحد أقارب الآنسة المهانة. وفي الحقيقة، فإن آخرين كانوا يروون المسألةَ على نحوٍ مختلف، زاعمين أن فتاةً من عائلة ديلا ريبيا هي التي تعرضت للإغواء، وأن أحد الرجال من عائلة باريّسيني هو الذي طُعِن. وإذا ما استخدمتُ تعبيراً مكرسًا، أقول إنه كان هناك باستمرار دمٌ بين البيتين. ومع ذلك، وخلافًا للعادة، لم تنتج تلك الجرائم جرائم قتلٍ أخرى، وذلك لأن آل ديلا ريبيا وآل باريسيني قد اضطهدتهما الحكومة الجنوية على حدٍّ سواء، وبما أن الشبان قد اغتربوا عن موطنهم، فقد

حرُمت العائلتان، طيلة بضعة أجيال من ممثليهما النشيطين. وفي نهاية القرن الماضي، كان ضابطٌ من عائلة ديلا ريبيا من الذين يخدمون في مملكة نابولي، كان موجوداً في مقمرة، فتشاجرَ مع عسكريين. وقد وجّهوا له الشتّائم، ومن بينها أنه راعي ماعزٍ كورسيكي، فاستلّ سيفه، ولكنه كان بمفرده ضدَّ ثلاثة. وكان يمكنُ له أن يمرَّ بوقتٍ عصيب، لو لم يصرخ رجلٌ غريب كان يلعب في المكان نفسه: «وأنا كورسيكيٌّ أيضاً». ويقومُ بالدفاع عن الضابط. وكان ذلك الغريبُ من آل باريّسيني، ولكنه، من جهةٍ أخرى، لم يكن يعرف مواطنه. وعندما استفسرَ كلٌّ منهما عن الآخر، أخذا يتجاملان بصورةٍ مستفيضة، ويقسمان على الصداقة الأبدية، فالكورسيكيون يأتلفون بسهولةٍ على القارة الأوروبية، على عكس مايفعلونه في جزيرتهم، ولقد رأينا ذلك فعلاً في تلك المناسبة، فقد صار ديلا ريبيا وباريسيني صديقين حميمين، طيلة مكوثهما في إيطاليا، أما عند عودتهما إلى كورسيكا، فلم يعد أحدٌ منهما يرى الآخر إلا نادراً، مع أنهما يقطنان كلاهما في القرية نفسها. وعندما ماتا، كان يقال إنه لم يكلم أحدهما الآخر منذ خمسة أو ستة أعوام. وقد عاش أبناؤهما كذلك بصورةٍ رسمية، كما يقال في الجزيرة. وكان الأول منهما غيلغوكسيو والد أورسو رجلاً عسكرياً، والآخر جيوديس باريّسيني، كان محامياً، وقد أصبح كلٌّ منهما زعيمَ عائلة. وفرّقت بينهما مهنتهما، فلم تسنح لأيّ منهما تقريباً أيةُ مناسبة ليلتقيا، أو ليسمع كلّ منهما كلاماً على الآخر.

ومع ذلك، فذات يومٍ، ونحو عام ١٨٠٩، وفيما كان جيوديس يقرأ باستياء، في إحدى الصحف، أن النقيب غيلغوكسيو قد مُنحَ وساماً، قال أمام شهود إن ذلك لا يفاجئه طالما أن العميد### يحمي عائلة ديلا ريبيا. فنقلت هذه الكلمة إلى غيلغوكسيو في فيينا، فقال لأحد مواطنيه إنه عندما يعودُ إلى كورسيكا، سوف يجد جيوديس غنياً جداً لأنه يكسب من دعاواه الخاسرة أكثر مما يكسب من دعاواه الرابحة. ولم يعرف أحد قط أنه كان يلمح بذلك إلى أن المحامي يخونُ موكليه، أو إن كان تصريحه هذا يقتصرُ على تلك الحقيقة المبتذلة التي مفادها أن

قضيةً خاسرة تجلب لرجل القانون من الربح أكثر مما تجلبه دعوى ناجحة. ومهما يكن من أمر، فقد أحيط المحامي باريّسيني بالقدح الذي وُجِّه إليه ولم ينسه. وفي عام ١٨١٢، كان يطلب أن يُعيّن عمدةً لقريته، وكان لديه أملٌ كبير في أن يصبح كذلك، عندما كتب العميد ### إلى مدير الشرطة ليوصيه بقريب لزوجة غيلغوكسيو فسارع المديرُ إلى التقيد برغبات العميد. ولم يشك باريّسيني بأن سبب خيبة أمله هو دسائس غيلغوكسيو. وبعد سقوط الامبراطور، عام ١٨١٤، وشي به على أنه بونابرتي، وحلّ أحدُ رجال باريّسيني محله. وعزُلَ هذا الأخيرُ من منصبه بدوره، خلال مدّة حكم المئة يوم. ولكنه استعاد، بعد هذه العاصفة، حيازةَ ختم العمودية، وسجلات الحالة المدنية باحتفال باذخٍ عظيم.

منذ تلك اللحظة، أصبح نجمه أكثر التماعًا منه في أي وقت مضى، أما العقيد ديلا ريبيا الذي وضع بنصف مرتب، واعتزل في بييترانيرا، فقد كان عليه أن يصمدَ في حرب خفية قد شنّت عليه وقوامها نزاعاتٌ تتجدّدُ باستمرار، فتارةً يعلمُ قضائيًا بإصلاح أضرارٍ سبّبها حصانه في سياجات السيد العمدة، وتارةً يأمر هذا الأخير بقلع بلاطةٍ محطّمة كانت تحمل أسلحة ديلا ريبيا، وتغطي قبرَ أحد أفراد هذه العائلة، بذريعة إصلاح أرضية الكنيسة. وإذا ما أكلت العنزاتُ غراسَ العقيد الفتية، كان أصحابُ تلك الحيوانات يجدون الحمايةَ لدى العمدة. وقد عزُلَ بالتعاقب البقّالُ الذي كان يديرُ مكتبَ البريد في بييترانيرا، وحارسُ الحيول الذي كان جنديًا عجوزًا مشوّهًا. وكان كلاهما تابعين لعائلة ديلا ريبيا، واستبدل بهما مخلوقان من آل باريّسيني.

وماتت زوجةُ العقيد وهي تبدي رغبتها في أن تُدفَنَ في وسط حرشٍ صغير كانت تحب أن تتنزه فيه، فأعلن العمدة حالاً بأنها ستدفن في مقبرة القرية، نظرًا لأنه لم يتلقّ تفويضًا بالسماح بإعداد مقبرةٍ منفردة، فأعلن العقيدُ بسخط أنه بانتظار وصول ذلك التفويض، سوف تُدفَن امرأته في المكان الذي اختارته، وأمر بحفرِ حفرةٍ فيه. أما العمدة، فقد أمر من جهته، بحفرِ حفرةٍ أخرى في المقبرة، واستدعى

رجال الشرطة كي تبقى القوة للقانون، كما كان يقول. وفي يوم الدفن، كان الجانبان حاضرين، وللحظة من الزمن، كان من الممكن التخوف من نشوب معركة من أجل حيازة رفات السيده ديلا ريبيا وقد أجبر أربعون فلاحًا جيدو التسليح، وقد أحضرهم أقارب المرحومة، أجبروا الخوري، عند خروجه من الكنيسة، أن يأخذ طريق الحرش. ومن الجهة الأخرى، حضر العمدة وولداه، وأتباعه، ورجال الشرطة ليعترضوا طريقهم، وعندما ظهر، وأنذر الموكب بالتراجع، استقبل بصرخات الاستنكار والتهديدات، وكان امتياز العدد لصالح خصومه، وكان يبدو أنهم حازمون في أمرهم. فتهيأت بعض البنادق لدى رؤيته. ويقال إن راعيًا كان يصوب بندقيته عليه، غير أن العقيد رفع البندقية وهو يقول: «لا أحد يطلق النار بدون أمر مني»! كان العمدة يخشى طلقات الرصاص بالطبع»، ومثلما فعل بانورج[1]، انسحب مع أتباعه، رافضًا خوض المعركة، حينذاك، بدأ الموكب المأتمي يسير، وحرص على أن يأخذ أطول الطرق كي يمر من أمام دار العمودية. وأثناء المسير، ارتأى أبله أن يهتف: عاش الأمبراطور! فرد عليه صوتان أو ثلاثة، وتزايدت حماسة أنصار ديلا ريبيا، فاقترحوا قتل ثور للعمدة كان يسد عليهم الطريق مصادفةً. فمنع العقيد ذلك العمل العنيف لحسن الحظ.

ويعتقد أن محضراً قد نُظِّم، وأن العمدة قد قدم إلى مدير الشرطة تقريراً بأرفع أسلوب لديه يصوّر فيه الشرائع الإلهية والبشرية وقد ديست بالأقدام - ويصف هيبته، هو العمدة، وهيبة الكاهن وكأنهما قد أُنكرتا، وأُهينتا - كما يصور العقيد وهو يقود مؤامرةً بونابرتية كي يغير نظام التعاقب على العرش، ويثير المواطنين كي يتسلّح بعضهم ضد البعض الآخر، وهذه جرائم منصوص عنها في المواد ٨٦ و ٩٧ من قانون العقوبات.

لقد أضرت المبالغة في تلك الشكوى بتأثيرها، وقد كتب العقيد إلى مدير الشرطة، وإلى وكيل الملك: وكان أحد أقارب زوجته متحالفًا مع أحد نواب الجزيرة، وهو ابن عم آخر لرئيس البلاط الملكي. وبفضل هذه الحمايات، تلاشت

(١) - إحدى شخصيات رابليه، في روايته بانتا غرويل. (م: ز.ع).

المؤامرةُ، وبقيت السيدة ديلا ريبيا في الحرش، وحكم على الأبله وحده بالسجن لمدة خمسة عشر يومًا.

أما المحامي باريّسيني الذي كان غير راضٍ عن نتيجة تلك القضية، فقد وجه نيرانَه في اتجاه آخر، ونبش صكًا قديمًا، وشرع بموجبه ينازعُ العقيدَ ملكيةَ مجرى ماء يُدير مُطحنة. وفتحت دعوى دامت زمنًا طويلاً. وبعد مرور سنة، كانت المحكمةُ بصدد إصدار قرارٍ لصالح العقيد، حسب كلّ الظواهر، عندما وضع باريّسيني بين يدي وكيلِ الملك رسالةً وقعها شخص اسمه أغوستيني، وهو قاطعُ طريقٍ شهير كان يهدّد العمدة بالحريق وبالموت، إذا لم يتنازل عن إدعاءاته. ونعلم أن حمايةَ اللصوص في كورسيكا أمرٌ مطلوب كثيراً، وأن هؤلاء اللصوص غالبًا ما يتدخلون في الخلافات الفردية كي يخدموا أصدقاءهم. وقد أفاد العمدة من تلك الرسالة حين أتى حادثٌ جديد ليعقّد المشكلة، فقد كتب اللصُّ أغوستيني إلى وكيل الملك كي يشكو إليه بأنه جرى تزويرُ كتابته، وكي تحومَ الشكوكُ حول شخصيته وذلك بإظهاره رجلاً يستغل تأثيره، وكان يقولُ في نهايةِ رسالته: «سأقتصّ من المزور قصاصًا رادعًا إذا ما اكتشفته».

كان من الواضح أن أغوستيني لم يكتب رسالة تهديد إلى العمدة. وكان آل ديلا ريبيا يتّهمون آل باريّسيني بها، والعكس بالعكس. وكانت التهديدات تنطلقُ من هذا الجانب أو ذاك، وأصبح القضاءُ لا يعرفُ في أية جهةٍ يجدُ المذنبين.

وفي تلك الأثناء، قتل العقيدُ غيلفوكسيو، وهذه هي الوقائع كما جرى إثباتها في القضاء، ففي الثاني من آب ١٨٠٠ كان النهار قد مال إلى الغروب، فسمعت المرأة المدعوة مادلين بيتري، التي كانت تحملُ الخبزَ إلى بييترانيرا، سمعت عيارين نارين متقاربين. وقد أُطلقا، كما كان يبدو لها، في طريقٍ ضيقةٍ ومتعرجة تؤدي إلى القرية، على بعد مئةٍ وخمسين قدمًا تقريبًا من المكان الذي كانت موجودةً فيه، فرأت في الحال رجلاً يركضُ وهو يخفضُ رأسه في ممرٍ من ممراتِ الكروم، وكان يتجه إلى القرية، فتوقّفَ لحظة، واستدار، غير أن المسافةَ منعت المرأة المدعوة بييتري من تمييزِ ملامحه، زد على ذلك أنه كان يحملُ في فمه ورقة كرمةٍ

تُغطّي كاملَ وجهه تقريبًا، فأشار إلى أحد رفاقه إشارةً لم يرها الشاهدُ، ثم اختفى بين الكروم.

وبعد أن أنزلت المرأةُ بييتري حملها، صعدت الممرّ راكضةً، فوجدت العقيدَ ديلا ريبيا غارقًا في دمه، وقد اخترق جسمه عياران ناريان، ولكنه لايزال يتنفسَ. وكانت إلى جانبه بندقيته المحشوة والمهيأة، وكأنه كان في حالة دفاعٍ عن النفس ضدّ شخصٍ كان يهاجمه مواجهةً، فيما ضربه شخصٌ آخر من الخلف. كان يحشرجُ ويتخبطُ ضدّ الموت، ولكنه لم يكن يقدرُ أن يلفظ كلمةً واحدة. وقد فسّر الأطباء هذا الأمر على أنه يرجع إلى طبيعةِ جرحه الذي اخترق الرئة، فقد كان الدمُ يخنقه، وكان يسيلُ ببطء مثل رغوةٍ حمراء، وقد رفعته المرأةُ بييتري، ووجهت إليه بعض الأسئلة من غير طائل فقد كانت ترى جيداً أنه يريدُ أن يتكلم، غير أنه لم يتمكن من إفهامِ شيء، وحين لاحظت أنه كان يحاولُ أن يصلَ بيده إلى جيبه، سارعت إلى أن تسحبَ منها محفظة صغيرة قدمتها إليه مفتوحةً. فأخذ الجريحُ القلمَ من المحفظة، وحاول أن يكتب، وقد رأته الشاهدةُ فعلاً يشكل بصعوبة بضعةَ أحرف، ولكنها لم تستطع فهم معناها، لأنها لاتعرفُ القراءةَ. وترك العقيدُ المحفظةَ في يدِ المرأة بييتري، وقد أرهقه ذلك الجهدُ الذي بذله، وضغط على يدها بقوة، وهو ينظر إليها نظرةً غريبة، وكأنه يريدُ أن يقول لها: وهذه كلمات الشاهدة، «هذا هام، إنه اسمُ قاتلي!».

كانت السيدة بييتري تصعدُ إلى القرية، عندما التقت السيد العمدة باريّسيني، وابنه فنسنتلّو. وكان الوقتُ ليلاً تقريبًا، فروت لهما ما رأته، وأخذ العمدة المحفظةَ وأسرع إلى دار العمودية ليتقلد وشاحه، ويستدعي أمين سره، ورجال الشرطة. وعندما بقيت مادلين بييتري وحدها مع الشاب فنسنتلّو، اقترحت عليه أن يذهب لنجدة العقيد إن كان لايزال حيًّا، ولكن فنسنتلو أجابها بأنه إذا ما اقتربَ من رجلٍ كان العدو اللدود لعائلته، فلا بد أن يتّهم بقتله. وبعد قليلٍ، وصل العمدة، فوجد العقيد ميتًا، فأمر برفعِ الجثة، ونظم محضراً.

برغم الاضطراب الطبيعي الذي شعر به باريّسيني في تلك المناسبة، فقد سارعَ إلى وضع محفظةِ العقيد في مغلفٍ مختومٍ بالشمع الأحمر، وإلى القيامِ بكل التحريات التي تقعُ ضمن صلاحياته، ولكن لم تؤدِّ أيٌّ منها إلى كشفٍ هام.

عندما أتى قاضي التحقيق، فتحت المحفظة، فلوحظت على صفحةٍ ملوثة بالدم بعضُ الحروف التي خطتها يد خائرة القوى، ومع ذلك، فهي حروفٌ مقروءةٌ، وقد كتب عليها... Agosti (أي أغوستيني)، ولم يشك القاضي بأن العقيد قد كان يشيرإلى أن أغوستيني هو قاتله. ومع ذلك، فإن كولومبا ديلا ريبيا التي استدعاها القاضي، طلبت معاينة المحفظة، وبعد أن تفحصتها طويلاً، مدّت يدها نحو العمدة، وصرخت: «هذا هو القاتل!»، حينذاك روت بدقةٍ ووضوحٍ مدهشين، وباندفاعِ الألم الذي كانت غارقةً فيه، روت أن والدها كان قد استلم رسالةً من ابنه، قبل أيامٍ قليلة، قد أحرقها، ولكنه، قبل أن يفعل ذلك، كتب في محفظته بقلم الرصاص، عنوان أورسو الذي كان قد غير موقعه العسكري. وهكذا، فإن ذلك العنوان لم يعد موجوداً في المحفظة، واستنتجت كولومبا من ذلك أن العمدةَ قد انتزعَ الورقة التي كان العنوان مكتوباً عليها، وربما كانت تلك الورقة هي التي خطّ عليها والدها اسم القاتل. ولابدّ أن العمدة، حسب أقوال كولومبا، قد استبدلَ باسم القاتل اسم أغوستيني. ولاحظ القاضي في الحقيقة أن ورقةً كانت ناقصةً من دفتر الأوراق الذي كان الاسم مكتوباً عليه. ولكنه سرعان مالاحظ أن أوراقًا كانت ناقصة أيضًا في الدفاترِ الأخرى الموجودة في المحفظة نفسها. وقد صرّح الشهودُ بأن العقيدَ قد اعتاد أن يمزّق أوراقًا على ذلك النحو، حين كان يريد أن يُشعلَ سيكاراً، فما من شيءٍ محتملٍ إذن أكثر من أن يكونَ قد أشعل سهواً العنوانَ الذي نسخه. فضلاً عن ذلك، فقد تبّين أن العمدة لم يكن بمقدوره أن يقرأ بسبب العتمة، بعد أن استلم المحفظة من المرأة بييتري. وثبت أنه لم يتوقف لحظةً واحدة، قبل أن يدخل إلى دار العمودية، وأن عريفَ الشرطة قد رافقه إليها، ورآه يُشعلُ المصباح، ويضعُ المحفظة في مغلف ويختمه أمام عينيه.

عندما انتهى العريف من شهاداته، ارتمت كولومبيا، التي أخرجها الغضبُ عن طورها، على ركبتيه، وتوسلت إليه أن يقول إن كان قد تركَ العمدةَ للحظة واحدة، واستحلفته بكلّ ما هو مقدّسٌ لديه، فأقرّ العريف، بعد بضع لحظات من التردد، وقد انفعلَ بصورةٍ جليةٍ من جزاء تحميس الفتاة له، أقرّ بأنه قد مضى ليأتي بورقةٍ من القياسِ الكبير من الغرفةِ المجاورة، غير أنه لم يبقَ فيها دقيقةً واحدة، وأن العمدةَ كان يكلمه باستمرار فيما كان هو يبحثُ عن تلك الورقة تلمُّسًا في أحد الجوارير. وقد كان يؤكدُ، فوق ذلك، أن المحفظةَ الملطخة بالدم كانت عند عودته، في المكان ذاته، أي على المنضدة التي رماها عليها العمدة أثناء دخوله.

وقدّم السيد باريّسيني شهادته بأكبر هدوءٍ ممكن، وكان يقول إنه يعذر الآنسة ديلا ريبيا على اندفاعها الغاضب، وإنه يقبل أن يتنازل ويبرر موقفه. وقد أثبت أنه قد بقي في القرية طيلة مدّة المساء، وأن ابنه فنستنلّو كان معه أمام دار العمدة في لحظة الجريمة، وأخيراً، أن ابنه أورلاندوكسيو الذي كان في ذلك اليوم بالذات تحت وطأة الحمى لم يتحرك من سريره، وأخرج كلّ بنادق منزله والتي لم تطلق أيةُ واحدة منها النار حديثًا. وفيما يتعلقُ بالمحفظة التي أدرك حالاً أهميتها، فقد أضاف أنه قد وضعها في مغلفٍ مختوم بالشمع الأحمر، ووضعها بين يدي معاونه تحسبًا من أنه قد يصبحُ موضع شبهة، بسبب عداوته للعقيد، ثم ذكّر بأن أغوستيني كان قد هدّد بالموت ذلك الذي كتب رسالةً باسمه، وألمح إلى أن ذلك الوغد قد اغتال العقيد، لأنه ربما يكون قد اشتبه به في تلك القضية، فانتقامٌ من هذا النوع، ومن أجل دافعٍ مماثلٍ ليس أمراً فريداً في تقاليد اللصوص.

بعد خمسة أيام من موت العقيد ديلا ريبيا، قُتِل أغوستيني عندما باغتته مفرزةٌ من الجنود الجوالين، بعد أن قاتل بشراسة حتى النهاية. وقد وجدوا معه رسالةً من كولومبا التي كانت تناشده أن يعلن إن كان مذنبًا أم لا بجريمةِ القتل التي ينسبونها إليه.

وبما أن اللصَ لم يقدّم جوابًا، فقد استنتجوا من ذلك عمومًا أنه لا يجرؤ أن يقول للابنة إنه قد قتل أباها. ومع ذلك، فإن الأشخاصَ الذين كانوا يزعمون أنهم

يعرفون جيداً طباع أغوستيني كانوا يهمسون بأنه لو كان قد قتل العقيد لتفاخر بذلك. وهناك لصٌ آخر معروف باسم براندو لاكسيو قد أرسل إلى كولومبا تصريحاً يؤكدُ فيه «بشرفه» على براءة رفيقه غير أن الدليل الوحيد الذي كان يسوقه هو أن أغوستيني لم يقل له قط إنه يرتاب بالعقيد.

النتيجة هي أنه لم يجر التعرضُ لآل باريّسيني. وقد غمر قاضي التحقيق العمدةَ بالمديح، وتوّج هذا الأخير سلوكه الحسن بالتنازل عن ادعاءاته فيما يخصُّ الساقية التي أقيمت بشأنها دعوى بينه وبين العقيد ديلا ريبيا.

ارتجلت كولومبا، حسب العرف السائد في البلد، أغنيةً مأتميةً أمام جثمان والدها، وبحضور أصدقائها المجتمعين. وقد أطلقت العنان فيها لكل غضبها على آل باريّسيني، واتهمتهم صراحةً بالقتل، وتوعّدتهم بانتقام أخيها، وتلك الأغنيةُ المأتميةُ التي غدت شعبية جداً هي التي كان ينشدها البّحار أمام الآنسة ليديا. وحين علم أورسو بموت والده، وكان حينذاك في شمال فرنسا، طلب إجازةً، ولكنه لم يستطع الحصول عليها. وبناءً على رسالة تلقاها من أخته، كان يظن في البداية أن آل باريّسيني هم الجناةُ، ولكنه سرعان ما استلم نسخةً من كلٍّ وثائق التحقيق. وهناك رسالةٌ خاصة تلقاها من قاضي التحقيق شكلت لديه القناعةَ بأن اللصَّ أغوستيني هو الجاني الوحيد، وكانت كولومبا تكتبُ إليه مرةً كلَّ ثلاثة أشهر لترددَ شكوكها التي كانت تدعوها أدلةً. وكانت اتهاماتها تلك تجعلُ دمه الكورسيكي يغلي رغماً عنه، ولم يكن في بعض الأحيان بعيداً عن أن يشاطر شقيقته أحكامها المسبقة. ومع ذلك، ففي كل مرة كان يكتبُ فيها إليها، كان يكرّر لها أن حججها لاتستندُ على أيّ أساسٍ متينٍ، ولا تستحقُّ أن تُعتمدَ إطلاقاً. وحتى أنه كان يحظرُ عليها أن تكلمه عن ذلك الأمر أكثر مما فعلت، ولكن منعه لها كان من غير طائلٍ دائماً. ومرت سنتان على ذلك النحو، فوُضعَ أورسو بنصف مرتب في نهايتهما، حينذاك، فكر برؤية بلده، وليس ليثأر من أناسٍ كان يظنُّ أنَهم بريئون، بل كي يزوجَ شقيقته، ويبيع ملكياته الصغيرة، إن كانت لها قيمةٌ كافية تتيحُ له أن يعيش على اليابسة.

الفصل السّابع

سواء كان وصول شقيقة أورسو قد استدعى إلى ذاكرته المنزلَ الأبوي بقوة أكبر، أو كان يتعذب قليلاً أمام أصدقائه المتمدنين من ملابس كولومبا وتصرفاتها المتوحشة، فقد أعلن منذ اليوم التالي مشروعَ مغادرة أجاكسيو، والرجوع إلى بييترانيرا، ولكنه مع ذلك جعل العقيد يَعِدُ بأن يأتي ليبيت في قُصَيره الريفي المتواضع، عندما يذهب إلى باستيا، وبالمقابل، فقد تعهد بأن يجعله يقنص أيائل وتُدرجات، وخنازير برية وما عداها.

اقترح أورسو، عشية الرحيل، نزهةً على شاطىء الخليج، بدلاً من الذهاب إلى الصيد، وأصبح بإمكانه، حين قدّم ذراعه للآنسة ليديا لتمسك بها، أن يتحدث معها بكلّ حرية، فقد بقيت كولومبا في المدينة كي تُنجز مشترياتها، وكان العقيدُ يتركها في كلّ لحظةٍ ليطلق النار على طيور الزمّج، والأَطْيش المائية، أمام دهشةِ المارة الكبيرة والذين لم يكونوا يفهمون كيف يخسر المرءُ البارودَ على طرائد من ذلك النوع.

كانا يتبعان الطريق التي تؤدي إلى مُصلّى الإغريق، والذي يطلّ على أجملِ منظر للجون غير أنهما لم يكونا يعيرانه أيّ انتباه.

وقال أورسو بعد صمتٍ طويل إلى حدّ يكفي لأن يغدو محرجًا:

يا آنسة ليديا... بصراحة، ما هو رأيك بأختي؟

فأجابت الآنسة نيفيل:

- إنها تعجبني كثيراً... وأضافت مبتسمة:

- أكثر منك، فهي كورسيكية حقًا، وأنت متوحشٌ متمدن أكثر مما ينبغي.

- متمدّن أكثر مما ينبغي! . . . حسنًا، فأنا أشعر بالرغم عني، أني أصبح متوحشًا من جديد منذ أن وطئت قدماي هذه الجزيرة. إن ألفَ فكرةٍ فظيعة تحركني وتعذبني . . . وكنتُ بحاجة إلى الحديث معك قليلاً قبل أن أتوغل في صحرائي.

- لابد من التحلّي بالشجاعة، يا سيدي، انظر إلى تسليم شقيقتك. إنها لم تقل لي كلمةً واحدة حتى الآن، ولكنني قرأت في كل نظرةٍ من نظراتها ما تنتظره مني.

- وماذا تريدُ منك في النهاية؟

- أوه! لا شيء . . . فقط أن أجرّب إن كانت بندقيةُ السيد والدك صالحةً لصيدِ الإنسان كما هي صالحةٌ لصيدِ الحجل.

- أية فكرة هذه! ويمكنك أن تفترض ذلك! عندما أقرّت قبل قليلٍ أنها لم تقل لك حتى الساعة شيئًا. إن هذا أمرٌ فظيع من ناحيتك.

- لو لم تكن تفكر بالثأر، لكانت حدثّتني عن والدنا قبل كل شيء. إنها لم تفعل شيئًا. ولكانت تلفظت باسم أولئك الذين تعدُّهم قتلته، وأنا أعلم أنها مخطئةٌ في هذا.

وإذن، فهي لم تقل أيةَ كلمة. وذلك، كما ترين، لأننا، نحن الكورسيكيين، جماعةٌ ماكرةٌ أيضًا. إن شقيقتي تدرك أنها لا تمسك بي تحت تأثيرها بصورة كاملة. وهي لا تريدُ أن تُفزِعَني. في الوقت الذي لايزالُ يمكنني فيه الإفلاتُ، وعندما تكون قد أوصلتني إلى حافة الهاوية. وعندما تكون رأسي قد دارت، تدفعني إلى الهوة.

حينذاك، أعطى أورسو الآنسة نيفيل بعضَ التفاصيل حول موتِ والده، وعرض أمامها الأدلةَ الرئيسةَ التي اجتمعت لتجعله ينظرُ إلى أغوستيني على أنه القاتل.

وأضاف: لم يكن ممكنًا لأيّ شيء أن يُقنع كولومبا، وقد رأيت ذلك من خلال رسالتها الأخيرة، فقد أقسمت على موت آل باريّسيني و . . . لاحظي، ياآنسة نيفيل، أية ثقة لي بك . . . ولو أن كولومبا لم تكن مقتنعةً بأن تنفيذ الثأر يخصني كَوْني رئيساً للأسرة، وبأن شرفي مرهونٌ به، من خلال أحد آرائها المسبقة التي تجد لها عذراً في تربيتها المتوحشة، لما كان آل باريّسيني ربما على قيد الحياة.

فقالت الآنسة نيفيل:

– إنك يا سيد ديلا ريبيا تفتري على شقيقتك في الحقيقة.

– كلا، فقد قلتِ ذلك بنفسك . . . إنها كورسيكية . . . وهي تفكر مثلما يفكرون جميعًا.

هل تعلمين لماذا كنتُ حزينًا بالأمس؟

– كلا، ولكنك منذ بعض الوقت عرضةٌ لتلك النوبات، نوبات المزاج الأسود . . . ولقد كنت وديًّا أكثر في الأيام الأولى لتعارفنا.

– على العكس من ذلك، فقد كنتُ بالأمس أكثر مرحًا وأكثر سعادةً من المعتاد. وكنت أراك طيّبةً جداً، ومتسامحةً جداً مع أختي! . . . وعندما كنا عائدين على المركب، العقيد وأنا، هل تعلمين ماذا قال لي أحدُ أصحابُ المراكبِ بلغته المحلية الجهنمية: «لقد قتلتَ الكثير من الطرائد. يا أورس – أنطون، ولكنك ستلقى أورلاندو كسيو باريّسيني صياداً أكثر مهارةً منك.

– حسنًا، وأيُّ شيءٍ رهيب في هذه الكلمات! هل لديك الكثير من الطموح لتغدو صياداً ماهراً؟

– ولكنك لا ترين أن ذلك الحقير كان يعني أني لن أجرؤ على قتل أورلاندوكسيو؟

- هل تعلم، أيها السيد ديلا ريبيا، أنك تخيفني. ويبدو أن هواء جزيرتكم لا يصيبُ الناس بالحمى فقط، بل يجعلهم مجانين، ولحسن الحظ أننا سوف نغادرها قريباً.

- ليس قبل أن تذهبوا إلى بيترانيرا، فقد وعدتُ شقيقتي بذلك.

- إذا لم نستطع أن نفي بهذا الوعد، فلا بدّ أن نتوقع حدوثَ انتقامٍ ما بلا شك.

- هل تتذكرين ماذا كان يروي لنا السيد والدك في ذلك اليوم عن أولئك الهنود الذين يهددون مديرَ الشركة بأنهم سيتركون أنفسهم يموتون جوعاً، إذا لم يعترف هؤلاء المدراء بمطالبهم؟

- أي أنك ستترك نفسك تموت جوعاً. أشك في ذلك، فقد تبقى يوماً بلاطعام، فتأتيك، كولومبا ببروكسيو Bruccio[1] شهي جداً، بحيث تتخلى عن مشروعك.

- إنك قاسية في سخرياتك، أيتها الآنسة نيفيل، ويجدرُ بك مراعاتي. لاحظي أني وحيدٌ هنا. وليس لي سواك ليمنعني من أن أغدو مجنوناً، كما تقولين، فلقد كنتِ ملاكي الحارس، والآن...

فقال الآنسة ليديا بلهجةٍ جادّة:

- لديك الآن كي تسندَ هذا العقل الذي تسهلُ زعزعتُه، لديك شرفُك كرجلٍ وكعسكري و... استأنفت كلامها، وهي تدير وجهها كي تقطف زهرة: ولديك ذكرى ملاكك الحارس.

- آه! يا آنسة نيفيل، لو كان يمكنني التفكيرُ بأنك تهتمين بعضَ الشيء حقيقة...

فقالت الآنسة نيفيل بقليلٍ من التأثُّر:

---

(١) - البروكسيو: نوعٌ من الجبنة مطبوخة بالقشدة، وهو طبقٌ وطني في كورسيكا.

- اسمع، يا سيد ديلا ريبيا، بما أنك طفل، فلسوف أعاملك كطفل. عندما كنت بنتًا صغيرة، أعطتني أمي قلادةً جميلة كنت أرغب فيها رغبةً حارّة. غير أنها قالت لي: «تذكري في كل مرة تلبسين فيها هذه القلادةَ بأنك لاتعرفين اللغةَ الفرنسيةَ بعد». ففقدت القلادةُ في عيني قليلاً من قيمتها، وغدت بالنسبة لي مثل تبكيت الضمير. غير أني تقلدتها، وتعلمتُ الفرنسيةَ. هل ترى هذا الخاتم؟ إنه خنفساءُ مصريةٌ عثر عليها في أحد الإهرامات، إذا أردت. وذلك الرمزُ الغريبُ الذي تظنُّ ربما أنه زجاجةٌ معناه: «الحياة البشرية».

وثمة أناسٌ في بلادي يجدون الهيروغليفية لغةً ملائمةً جداً. أما هذا الوجه الذي يأتي وراءه، فهو مدافعٌ يمسك رمحًا بإحدى يديه، وهذا معناه: «قتال، معركة»، واجتماعُ هذين الحرفين إذن يشكلُ هذا الشعار الذي أجده جميلاً تمامًا وهو: «الحياة معركة». ولايخطرن على بالك أنني أترجمُ الكتابات الهيروغليفية بسهولة، فهناك عالمٌ في العادات والتقاليد هو الذي فسّر لي ما سبق أن قلته لك. فخذ، إني أعطيك هذه الحلية (الخنفساء)، وعندما تخطر في ذهنك فكرةٌ كورسيكيةٌ سيئةٌ، انظر إلى تعويذتي، وقل لنفسك إنه لابدّ لك أن تخرجَ منتصراً من المعركة التي تشنها علينا الأهواءُ السيئةُ - ولكني، في الحقيقة، أُحسنُ الوعظَ والنصح.

- سوف أفكر بكِ، أيتها الآنسة نيفيل، وسأقول لنفسي...

- قل لنفسك إن هناك صديقةً ستكون شديدة الأسف... إذا ما... علمت أنك قد شُنقت، فضلاً عن أن هذا سيسبّبُ كثيراً من الغمّ للسادة العرفاء أسلافك.

عندما قالت هذه الكلمات، تركت، وهي تضحكُ، ذراعَ أورسو، وهرعت راكضةً نحو والدها.

وقالت: «يا أبي، دع هذه الطيور المسكينة، وتعال معنا لتنظم الشعر في مغارة نابوليون».

الفصل الثامن

ثمّة شيء احتفاليّ دومًا عند الرحيل، حتى عندما يفترقُ الناسُ لوقتٍ قصير. لقد كان من المفروض أن يرحل أورسو وشقيقته باكرًا جدًا في الصباح. وفي مساء اليوم السابق، كان قد استأذن الآنسة ليديا بالرحيل، فهو لم يكن يأمل في أن تتخلى استثنائيًا عن عاداتها بالكسل من أجله. وكان وداعهم باردًا ووقورًا، فقد كانت الآنسةُ ليديا تخشى أن تكون قد أظهرت لأورسو اهتمامًا مفرطًا به، بدءًا من الحديثِ الذي دار بينهما على شاطئ البحر. أما أورسو، فقد كانت تثقلُ قلبه سخرياتها، وخصوصًا لهجتها غير المكترثة. وقد كان يظنّ في إحدى اللحظات أنه قد كشف في تصرفات الشابة الإنكليزية مشاعر تعاطفٍ وليدة. أما الآن، فقد خيبت ظنونه مزاحاتُها، فقد كان يقول في نفسه إنه لم يكن في نظرها أكثر من مجردِ واحدٍ من معارفها، والذي سرعان ما تنساه، فكانت إذن دهشته كبيرةً عندما رأى الآنسة ليديا تدخلُ عند الصباح، وشقيقته تتبعها، في الوقت الذي كان جالسًا فيه مع العقيد يتناولُ القهوة. كانت ليديا قد نهضت في الساعة الخامسة، ويعدُّ هذا المجهود بالنسبة لفتاة إنكليزية، وللآنسة نيفيل خصوصًا، يُعد كبيرًا لدرجة كافيةٍ تجعل أورسو مزهوًا بعضَ الشيء.

قال أورسو: يؤسفني أن تكوني قد أزعجت نفسك مبكرًا في الصباح. لاشك أن شقيقتي هي التي أيقظتك برغم توصياتي، ولا بدّ فعلاً أنك تلعنيننا، ولربما تمنيتِ لو أنني قد «شنقت» قبل ذلك.

فقالت الآنسة ليديا بصوتٍ خفيض جدًا، وبالإيطالية طبعًا لئلا يسمعها والدها:

- لا، ولكنك استأت مني بالأمس بسبب مزاحاتي البريئة، ولم أكن أريد أن أدعك تحمل ذكرى سيئة عن خادمتك. فيا لكم من أناسٍ مخيفين، أنتم الكورسيكيين! فوداعًا إذن، وإلى وقتٍ قريب، كما آمل.

ومدّت له يدها:

ولم يجد أورسو سوى تنهيدة كردّ، فاقتربت منه كولومبا، واقتادته إلى فتحة إحدى النوافذ، وجعلته يرى شيئًا كانت تضعه تحت خمارها، وتحدثت معه للحظةٍ من الزمن بصوت خفيض.

فقال أورسو: «تريد أختي أن تقدّم لك هديةً فريدةً، يا آنسة، ولكننا نحن الكورسيكيين، ليس لدينا أشياء كثيرة نعطيها... ما عدا مودتنا... التي لا يمحوها الزمن. فأختي تقول لي إنك قد نظرت إلى هذا الخنجر باهتمام. وهو أحد المقتنيات القديمة في عائلتنا. ولربما كان يعلّق قديمًا في حزام أحد أولئك العرفاء الذي أدين له بشرف معرفتكم. وتظن كولومبا أنه ثمينٌ جداً بحيث طلبت مني الإذن لإعطائك إياه. وأنا لا أدري إن كان يجب علي الموافقة على ذلك، فأنا أخشى أن تسخري منا.

فقالت الآنسة ليديا:

- هذا الخنجرُ رائع. ولكنه من أسلحة العائلة، ولا يمكنني قبوله.

فهتفت كولومبا باندفاع:

- هذا ليس خنجر أبي. وكان الملك تيودور قد أعطاه لأحد أسلاف والدتي، فإن تقبله الآنسة، يكن ذلك مسراً لنا حقًا.

فقال أورسو: أترين يا آنسة ليديا، لا تحتقري خنجر ملك.

تعدُّ متروكاتُ الملك تيودور بالنسبة لهاوٍ، أثمن بما لا يقاس من أية متروكات أعظم الملوك اقتداراً، فكان الإغراء كبيراً، وكانت الآنسة ليديا قد رأت قبلاً الأثر الذي يمكن أن يحدثه سلاحٌ موضوعٌ على منضدة مبرنقة في شقتها، في ساحة

سان- جيمس. فقالت وهي تمسك الخنجر بتردّدِ من يريد أن يقبل، وهي توجه أكثر ابتساماتها لطفًا لكولومبا:

«ولكن يا عزيزتي الآنسة كولومبا. . . لا يمكنني. . . لا أجرؤ على أن أتركك تذهبين هكذا عزلاء.

فقالت كولومبا باعتداد:

- إن أخي معي، ولدينا البندقية الجيدة التي أعطانا إياها والدك، فهل حشوتها بالرصاص يا أورسو؟

احتفظت الآنسة نيفيل بالخنجر. وكي تدرأ كولومبا الخطر الذي يتعرض له المرءُ حين «يعطي» أصدقاءه أسلحةً ماضيةً وقاطعة، طلبت ثمنه قرشًا.

وأخيراً، كان لابدّ من الرحيل، فصافح أورسو الآنسة نيفيل مرةً أخرى، وعانقتها كولومبا، ثم أتت لتقدّم شفتيها الورديتين للعقيد الذي سحره التأدُّبُ الكورسيكي. ورأت الآنسة ليديا، من نافذةِ غرفة الاستقبال، الأخ والأخت يمتطيان الجياد. وكانت عينا كولومبا تلتمعان بفرحٍ ماكر لم تكن ليديا قد لاحظته فيهما من قبل. إن هذه المرأة الطويلةَ القامة، والقوية، والمتعصّبة لأفكارها، أفكارِ الشرف القاسية، والتي يرتسمُ شعورُ الكرامة على جبينها، وتلتوي شفتاها بابتسامةٍ هازئة، وتقود ذلك الفتى المسلح في مهمةٍ مشؤومة، قد ذكرتها بمخاوفِ أورسو، وخيّل إليها أنها ترى إلهامه السيِّئ يقوده إلى هلاكه. أما أورسو، الذي كان قد امتطى جواده، فقد رفع رأسه ولمحها. وسواء كان قد خمّن أفكارها، أو كان ذلك ليقول لها وداعًا أخيراً، فقد أمسك بالخاتم المصري الذي كان يعلقه بشريط، وحمله إلى شفتيه. فتركت الآنسة ليديا النافذة، وقد احمرّ وجهها خجلاً، ثم رأت، بعد أن عادت في الحال تقريبًا إلى النافذة، رأت الكورسيكيين يبتعدان حسب سرعة عدو جواديهما القصيرين، ويتوجّهان نحو الجبال. وبعد نصفِ ساعة، جعل العقيدُ ليديا تراهما، بواسطة منظاره، وهما يسيران بمحاذاة أبعد نقطة في الخليج، فرأت

أن أورسو كان يدير رأسه بصورة متكررة نحو المدينة، واختفى أخيراً خلف المستنقعات التي يحلّ محلها اليوم مشتلٌ جميل.

وحين نظرت الآنسة ليديا إلى نفسها في المرآة، وجدت وجهها شاحبًا. فقالت:

«ما هو الرأي الذي كونه عني ذلك الفتى؟ وأنا، ما هو رأيي به، ولماذا أفكر به؟... إنه من معارف السفر!... ماذا أتيتُ لأصنع في كورسيكا؟ أوه! إني لاأحبه... كلا، كلا. إن ذلك غير ممكن، من جهة أخرى... وكولومبا... هل أصبح أنا زوجة أخٍ مغنيةٍ مأتمية! وتحمل خنجراً كبيراً!» ولاحظت أنها كانت تحمل بيدها خنجر الملك تيودور، فرمت به على منضدة زينتها. أتأتي كولومبا إلى لندن وترقص في الماكس!... أيّ سبعٍ[1] سوف يقدّم، يا إلهي!... وربما يذيع صيتها بشكلٍ كبير... أما هو فيحبني، أنا متأكدة من ذلك... إنه بطلٌ من أبطال الروايات، وقد قطعتُ عليه مسيرته المغامرة... ولكن هل كان يرغب فعلاً في أن يثأر لوالده، على الطريقة الكورسيكية؟... لقد كان شخصيةً هي بين الكونراد والمتأنق... وقد جعلتُ منه متأنقًا صافيًا، وهو متأنق ذو خياط كورسيكي!...

ارتمت على سريرها، وأرادت أن تنام، ولكن ذلك كان غير ممكن، ولن أشرع في متابعة مناجاتها لنفسها والتي قالت فيها أكثر من مئة مرة إن السيد ديلا ريبيا لم يكن يعني ولا يعني ولن يعني قطّ شيئًا بالنسبة إليها.

---

(١) - كان يطلق هذا الاسم في انكلترا، خلال ذلك العهد، على الأشخاص الذين يتميزون، حسب الدرجة السائدة، بشيء خارق للعادة.

الفصل التّاسع

كان أورسو في تلك الأثناء يتابعُ طريقه مع شقيقته، وكانت الحركة السّريعةُ لجواديهما تمنعهما في البداية من الحديث، غير أنه عندما كانت تجبرها الطّلعاتُ القاسية على السّير بالخطوة، كانا يتبادلان بعضَ الكلمات عن الأصدقاء الذين تركاهما منذ قليل. وكانت كولومبا تتحدّثُ بحماسة عن جمال الآنسة نيفيل، وعن شعرها الأشقر، وتصرفاتها الظريفة. ثم سألت إن كان العقيدُ غنياً مثلما يظهرُ عليه. وإن كانت الآنسة ليديا هي ابنتُه الوحيدة.

وكانت تقول: «لا بدّ أن ذلك سيكون أمراً موفقاً، فوالدها يحملُ لك الكثير من المودّة كما يبدو لي...».

وبما أن أورسو لم يجب بشيء، فقد تابعت قائلةً:

كانت أسرتُنا غنيةً فيما مضى، وهي لا تزال من أكثر العائلات حظوةً بالاحترام. إن كلّ هؤلاء السادة الإقطاعيين[1] أدعياء، ولم تعد هناك نبالة إلا في عائلات عرفاء الجزيرة. أنت تعرف أن عائلتنا ترجعُ في أصلها إلى وراء الجبال[2]. والحروبُ الأهليةُ هي التي أجبرتنا على الانتقال إلى هذه الجهة، ولو كنتُ مكانك، يا أورسو، لما ترددتُ وطلبتُ يد الآنسة نيفيل من والدها. فرفع أورسو كتفيه،

---

(١) - تُطلق تسمية signori على المتحدّرين من سلالة السادة الإقطاعيين في كورسيكا، وبين عائلات الـ signori وعائلات الـ caporali (العرفاء أو العسكريين) كان هناك تنافسٌ على النبالة.

(٢) -أي الساحل الشرقي، وهذا التعبير الكثير الاستخدام di la dei monti(ماوراء الجبال) يتغير في معناه، حسب موقع الشخص الذي يستخدمه، إن كورسيكا مفصولةٌ من الشمال إلى الجنوب بسلسلةٍ من الجبال.

ولاشتريتُ بمهرها أحراش فالسيتا، والكروم الممتدة تحت مناطقنا، ولبنيتُ منزلاً جميلاً من الحجارة المنحوتة، ورفعتُ البرج القديم طابقًا إضافيًا، ذلك البرج الذي قتل منه سامبوكوكسيو العديدَ من البربر في زمن الكونت هنري لوبيل ميّسيري[1].

وكان أورسو يجيبها، وهو يعدو على جواده:

«يا كولومبا، إنك مجنونة».

- أنت رجل، يا أورس - أنطون، وتعلمُ بلا شكّ أفضل من أية امرأةٍ مايتوجبُ عليكِ فعله غير أني أودّ أن أعرف بماذا يمكن لذلك الإنكليزي أن يعترضَ على مصاهرتنا. هل لديهم عرفاء في انكلترا؟...

وبعد أن سار الأخُ والأختُ مسافةً طويلة، وهما يتمازحان على ذلك النحو، وصلا إلى قريةٍ صغيرة ليست بعيدةً عن بوكوغنانو حيث توقفا للعشاء وللمبيت، في منزل أحدِ أصدقاء عائلتهما. وقد استقبلا فيه استقبالاً كورسيكيًا حسنًا لا يمكن للمرء أن يقدّره حقّ قدره إلا إذا خَبره. وفي اليوم التالي، رافقهما مضيفهما الذي كان عرّاب السيدة ديلا ريبيا إلى مسافةِ فرسخٍ من منزله.

وقال لأورسو في لحظةِ الافتراق: «هل ترى هذه الأحراش وهذه الأدغال. إن رجلاً يهرب من مصيبة نزلتَ به، يمكنه أن يعيش فيها عشرةَ أعوامٍ باطمئنان، من غير أن يأتي رجالُ الشرطة، والحراسُ المتجولون للبحث عنه، وهذه الأحراشُ تصل حتى غابة فيزانوفا، ومتى يكون لديك أصدقاء في بوكوغنانو، أو في مناطقها المجاورة، لا ينقصُك شيء، فلديك بندقيةٌ جيدة، ولا بدّ أنها ذات مدى بعيد. ودم العذراء! أي عيارٍ لها! يمكن أن نقتل بها ما هو أعظم من الخنازير البرية.

---

(١) - انظر: فيليبيني: الكتاب: (٢)، مات الكونت أغريغو بيل ميسّيري نحو عام ١٠٠٠، ويقال إن صوتًا قد سمع في الفضاء، عند موته، وكان ينشد كلمات نبوية:

لقد مات الكونت هنري لوبيل ميسّيري
وستسير كورسيكا من سيئ إلى أسوأ.

وأجاب أورسو ببرود أن بندقيته إنكليزية، وأنها ترمي الرصاص إلى مسافةٍ بعيدةٍ جداً. وتعانق الجميعُ، وتابع كل واحد طريقه.

في ذلك الوقت، لم يكن مسافرانا إلا على مسافةٍ قريبة جداً من بييترانيرا، عندما اكتشفا عند مضيقٍ صخري كان لابدّ من عبوره، سبعة أو ثمانية رجال مسلحين بالبنادق، بعضهم جالس على الصخور، وآخرون منهم مستلقون على العشب، وبعضهم الآخر واقف، ويبدو أنه يقوم بالرصد. وكانت جيادهم ترعى على مقربةٍ منهم، فعاينتهم كولومبا للحظةٍ من الزمن بمنظارٍ مقرِّبٍ سحبته من إحدى الجيوب الكثيرةِ الجلدية التي يحملها الكورسيكيون معهم أثناء السفر، وهتفت بصوتٍ مرح: إنهم رجالنا، فقد قام بييروكسيو بمهمته خير قيام.

وسأل أورسو: وأيّ رجال؟

فأجابت: رعاتنا. فأول أمس، أرسلت بييروكسيو كي يجمع هؤلاء الرجال البواسل. كي يرافقوك حتى منزلنا، فمن غير المناسب أن تدخل إلى بييترانيرا من غير مرافقة. ولابدّ لك أن تعرف، فضلاً عن ذلك، أن آل باريّسيني قادرون على فعل أي شيء.

فقال أورسو بلهجةٍ صارمة:

لقد رجوتك، يا كولومبا، مراتٍ كثيرة ألا تحدثيني بعد عن آل باريّسيني، وعن الشكوك التي لا أساس لها. لن أجعل نفسي بالتأكيد موضع سخرية، بأن أرجع إلى بيتي مع هذه الجماعة من الخاملين، وأنا مستاءٌ جداً من أن تكوني قد جمعتهم من غيرِ أن تخبريني بذلك.

- لقد نسيت بلادك، يا أخي، وإنما يرتبطُ بي أمرُ حراستك، عندما يعرضك عدمُ حرصك للخطر، لقد كان علي أن أفعل ما فعلت.

في تلك اللحظة، أسرع الرعاةُ إلى خيولهم، عندما لمحوهما، ونزلوا عدواً إلى لقائهما.

وهتف عجوزٌ قويُّ البنية، ذو لحية بيضاء، ويرتدي برغم الحرّ سترةَ فارس ولها غطاء للرأس ومصنوعة من جوخ كورسيكي أكثر ثخانةً من جزّة عنزاته، هتف: عاش أورس أنطون! إنه الصورة الحقيقية عن والده، إلا أنه أطول قامةً، وأقوى بنية، يا لها من بندقية جميلة، سوف نتحدث عن هذه البندقية يا أورس أنطون.

وردّد كل الرعاة معًا:

ليعش أورس أنطون! كنا نعلم جيدًا أنه سيعود في النهاية.

وكان رجلٌ جسورٌ طويل القامة، ذو بشرة حمراء كالآجر، يقول:

آه! يا أورس أنطون! ما كان أشدّ فرح والدك لو كان موجودًا هنا لاستقبالك! الرجل العزيز! ربما ترى ذلك. لو أنه قَبِل أن يصدقني، ولو تركني أسوي قضية جيوديس. . . يا للرجل الطيب! إنه لم يصدقني، وهو يعلمُ جيدًا أنني كنت على حقّ.

واستأنف العجوز:

- حسنًا! إن جيوديس لن يخسر شيئًا إذا انتظر.

- ليعش أورس أنطون!

أما أورسو الذي كان ذا مزاج سيّئ جدًّا في وسطِ تلك المجموعة من الرجال الذين يمتطون جيادهم، ويتكلمون دفعةً واحدة، ويتزاحمون ليمدوا له أيديهم، فقد بقي لبعض الوقت من غير أن يتمكّن من إسماع صوته. وأخيرًا، اتخذ الموقفَ الذي كان يقفه وهو يقودُ مفرزته، عندما كان يوزّع عليهم العقوبات، وأيام السجن العسكري.

وقال: يا أصدقائي، أشكركم على المحبة التي تبدونها لي، وعلى تلك التي كنتم تحملونها لوالدي. ولكني أريدُ وأرغبُ ألا يعطيني أحدٌ النصائح، فأنا أعلم ماذا عليّ أنِ أفعل.

فهتف الرعاةُ: إنه على حق، أنت تعلم جيداً أنك تستطيعُ الاعتمادَ علينا.

– أجل، إني أعتمد على ذلك، غير أني لست بحاجةٍ لأحد الآن، وما من خطر يهدّد بيتي.

فابدأوا بالرجوع من حيثُ أتيتم، وامضوا إلى عنزاتكم، فأنا أعرفُ الطريق إلى بييترانيرا ولستُ بحاجةٍ إلى مرشدين.

فقال العجوز: لا تخشَ شيئًا، يا أورس أنطون، فلن يجرؤوا على الظهور اليوم، والفأرة تختبئ في جحرها حين يعودُ القطّ.

فقال أورسو: أنت قط، يا صاحب اللحية البيضاء الهرمة، ماذا تُدعى؟

– ماذا! ألا تعرفني يا أورس – أنطون، فأنا الذي كنتُ أردفك غالبًا على ظهر بغلي الذي يعضّ؟ ألا تعرف بولوغريفو؟ ألا ترى، أنا الرجلُ الطيب الذي نذر نفسه جسداً وروحًا لآل ديلا ريبيا. فقل كلمةً، حينما تتكلمُ بندقيتك الضخمة، وسترى أن هذه البندقية القديمة ذات الفتيل، والقديمة مثل صاحبها، لن تسكت، فاعتمد عليها، يا أورس – أنطون.

– حسنًا، حسنًا، ولكن بحقّ كلّ الشياطين، اذهبوا، ودعونا نكمل طريقنا.

ابتعد الرعاةُ أخيراً، وتوجهوا نحو القرية بالعدو السريع، ولكنهم كانوا يتوقفون من وقتٍ لوقت في كلّ النقاط المرتفعة من الطريق، كما ليعاينوا إن لم يكن هناك كمينٌ ما مختبئ. وكانوا يمكثون دومًا على قربٍ كافٍ من أورسو، ومن شقيقته كي يكونوا قادرين على نجدتهما عند الحاجة. وكان العجوزُ باولو غريفو يقول لرفاقه: إني أفهمُ الأمر، إني أفهمه. إنه لا يقول عما ينوي فعله. ولكنه سيقومُ به. إنه الصورة الحقيقية لوالده. حسنًا! فلتقل إنك لست غاضبًا من أحد! فقد قدمت نذراً للقديسة نيغا[1]، مرحى! إني لا أعطي تينةً مقابل جلد العمدة، فقبل مرور شهر، لن يكون بالإمكان أن نصنع منه قربةً.

---

(١) – ليست هذه القديسة واردة في تقويم القديسين: «نذر نفسه للقديسة نيغا، معناه إنكار كلّ شيء مسبقًا».

وهكذا، دخل سليلُ ديلا ريبيا إلى قريته، تسبقه تلك الجماعة الكشافةُ، وولج إلى داخل القصير الريفي القديم، قصير العرفاء، أسلافه، أما أنصارُ ديلا ريبيا، الذين كانوا لزمنٍ طويل بلا زعيم، فقد تجمهروا للقائه، ولكن سكان القرية الذين كانوا يحافظون على الحياد، فقد كانوا جميعًا على عتبةِ أبوابهم كي يروه وهو يمرُّ. أما أنصارُ باريّسيني فقد مكثوا في منازلهم، وأخذوا ينظرون من فتحاتِ المصاريع.

إن دسكرة بييترانيرا مبنيةٌ بناءً غير منتظم إلى حدٍّ كبير، شأن كافة قرى كورسيكا، فلكي يرى المرءُ شارعًا، لا بدّ أن يذهبَ إلى كارجيز التي بناها السّيد ماربوف(1).

أما المنازلُ، المبعثرةُ بصورة كيفية، ومن غير أدنى اتّساق، فتشملُ قمةَ هضبةٍ صغيرة، أو على الأصح، درجةً من درجات الجبل. وفي وسط الدسكرة، ترتفعُ سنديانةٌ كبيرةٌ خضراء، ونرى قريبًا منها جرنًا من الغرانيت يحملُ الماءَ إليه من نبعٍ مجاور قسطلٌ خشبيّ. ولقد بنى هذا الأثر التاريخي ذا الفائدة العامة آلُ ديلا ريبيا وآل باريّسيني مع الاشتراك في النفقات. إلا أننا قد نخطئُ أشدَّ الخطأ إذا ما بحثنا عن دليلٍ على الوفاق الذي كان سائدًا بين العائلتين، بل على العكس من ذلك، فهو نتاجُ تحاسُدِهما. وعندما أرسل العقيد ديلا ريبيا فيما مَضى مبلغًا صغيرًا إلى المجلس البلدي لقريته ليساهم في بناء منهل، أسرع المحامي باريّسيني إلى تقديم هبةٍ مماثلة، وإنما تدينُ بييترانيرا بمائها إلى تلك المعركة، معركة التسابقُ على الكرم. أمّا حول السّنديانة الخضراء، والمنهل، فثمة مساحة خالية تسمى السّاحة، ويجتمعُ المتعطلون فيها مساءً، وأحيانًا، يلعبُ الناس فيها بالورق، ويرقصون فيها مرةً في العام، أثناء المهرجان التنكري، وعلى جانبيّ الساحة، تقومُ أبنيةٌ تعلو أكثر مما تمتدّ

(1) - كان المركيز دو ماربوف (1712 - 1786) هو أولَ حاكمٍ فرنسي لكورسيكا. وبعد أن تخلّى عنها الجنويّون عام (1768)، وقد تمَّ بناءُ حيّ ماربوف في باريس على أراضٍ كانت تخصُّ المركيز.

اتساعًا، وهي مبنيةٌ من الغرانيت والنّضيد. إنها «الأبراج» المتعادية، أبراج ديلا ريبيا، والباريّسيني. إن بناءها موحّد، ولها الارتفاعُ نفسه، ونرى أن تنافس العائلتين قد ظلّ قائمًا على الدوام من غير أن يقرّر القدر الفصل بينهما.

ولربما يكون من المناسب أن نشرحَ ما ينبغي أن نفهمه من كلمة «برج»: إنها بناءٌ مربعٌ يصلُ ارتفاعه إلى أربعين قدمًا والذي قد يسمونه في بلدٍ آخر برج اليمام بكلّ سذاجةٍ. أما البابُ الضيق فينفتحُ على ارتفاع ثمانية أقدام من الأرض، ونصل إليه عن طريقِ درج شديد الانحدار، وفوق الباب، هناك نافذة لها ضربٌ من شرفةٍ محفورةٍ في أسفل النافذة مثل مقذفِ الحصن الذي يتيح من غير مخاطرةٍ تحطيمَ رأس زائرٍ متطفّل. وبين النافذة والبابِ، نرى ترسين منحوتين نحتًا غير متقن. وكان أحدهما قديمًا صليب جنوه، ولكنه لم يعد واضحًا إلا بالنسبة لخبراء الأثريات، لشدة تعرضه اليوم للطرق. وعلى الترسِ الآخر، نحتت شعاراتُ نبالة العائلة التي تمتلك البرج. ومن أجلِ تكملة التزيين، أضيفوا بعض آثار طلقاتِ الرصاص على التروس، وعلى إطارات النافذة، ويمكنكم أن تكوّنوا فكرة عن قصيرٍ ريفي من العصر الوسيط في كورسيكا. ولقد نسيت أن أذكر أن المباني السكنية تجاور البرج، وغالبًا ما ترتبطُ به، بطريق اتصال داخلية.

يشغل برجُ ديلا ريبيا ومنزلهم الجهة الشمالية من بييترانيرا، ويشغلُ الجهة الجنوبية برجُ باريّسيني ومنزلهم، ويمتدُّ منتزه ديلا ريبيا من البرج الشمالي حتى المنهل، ويمتد منتزهُ الباريّسيني إلى الجهة المقابلة. ومنذ زمن دفن زوجة العقيد، لم يعد يرى قطّ أيٌّ فرد من أفراد العائلتين يظهر في الجهة الأخرى من الساحة غير الجهة التي حدّدها له نوعٌ من الاتفاق الضمني: وكي يتجنب أورسو التفافًا معينًا، فقد كان يذهبُ ليمرَّ من أمامِ منزل العمدة، عندما حذّرته شقيقته، ودفعته ليسلك شارعًا صغيرًا يوصله إلى منزلهما من غير أن يجتاز الساحة.

وقال أورسو: ولماذا الإزعاج؟ أليست الساحةُ لكلّ الناس؟ ودفع جواده.

فقالت كولومبا بصوتٍ خفيضٍ جداً:

- يا للقلبِ الجسور! . . . يا والدي، سوف يثأر لك!

وحين وصلا إلى الساحة، وضعت كولومبا نفسها بين منزل آل باريّسيني وبين أخيها، وكانت عينها تحدّق دوماً بنوافذ أعدائها، فلاحظت أنها كانت مرتجّة منذ قليل، وأنهم قد أحدثوا فيها ARCHERE[1] ويطلقون تسمية ARCHERE، على تلك الفتحات الضيقة التي هي على شكلِ كوى للرمي. وقد تمّ إعدادها فيما بين الأخشاب الضخمة التي يسدّون بها القسم الأدنى من النافذة. وحين يكون هناك خوفٌ من هجوم معين، يتمترسون بتلك الصورة، فيصبحُ بالإمكان إطلاقُ النار بأمانٍ على المهاجمين، بفضل حماية الأخشاب.

وقالت كولومبا: «الجبناء! انظر ياأخي، لقد بدأوا يحتمون: إنهم يتمترسون! ولكن لابدّ لهم من الخروج ذات يوم!

أحدث حضورُ أورسو إلى الجهة الجنوبية من الساحة إثارةٍ كبيرةً في بييترانيرا، عدَّ دليلاً على جرأة تقاربُ التهور، وكان بالنسبة للحيّاديين الذين يتجمعون مساءً حول السنديانة الخضراء نصّاً لتعليق لا نهاية له.

كان يقال إنه من حسن الحظّ ألا يكون أبناءُ باريّسيني قد رجعوا بعد، لأنهم أقلّ تحملاً من المحامي، ولربما ما كان لهم أن يدعوا عدوهم يمرّ على أرضهم من غير أن يدفع ثمن تحدّيه.

وأضاف عجوز كان يُعَدُّ عرافَ القرية: لقد لاحظت وجه كولومبا اليوم. إن في رأسها شيئًا ما، وأنا أشمّ في الهواء رائحة البارود، وسيكون هناك بعد قليلٍ لحمٌ يجزرُ بسعرٍ رخيص في بييترانيرا.

(١) - فتحات للرماية، كما يتضح من النص (م: ز.ع).

الفصل العاشر

قلّما توفر لأورسو الوقت ليعرفَ والده لأنه قد افترق عنه وهو فتى يافع. وكان قد غادر بييترانيرا في الخامسة عشرة من عمره ليدرسَ في بيزا، ومنها دخل إلى المدرسة العسكرية، فيما كان غيلفوكسيو يطوفُ برايات النسور الامبراطورية في أنحاء أوروبا. وقد رآه أورسو على اليابسة، في أوقاتٍ متباعدة. وفي عام ١٨١٥ فقط، وجد نفسه في الفوج الذي كان والده يقوده. غير أن العقيدَ، الذي كان صلبًا في موضوع الانضباط، كان يعاملُ ابنه مثلما يعامل كافة الملازمين الشبان الآخرين، أي بكثير من الشدة، والذكرياتُ التي احتفظ أورسو بها من ذلك كانت على نوعين، فقد كان يتذكر والدهْ في بييترانيرا، وهو يعهدُ إليه بسيفه، ويدعه يفرغُ بندقيته حين يعود من الصيد، أو يجعله يجلس للمرة الأولى على مائدة الأسرة، وهو لايزالُ ولداً صغيراً. ثم أخذ يتخيلُ العقيد ديلا ريبيا وهو يرسله إلى التوقيف بسبب عملٍ طائشٍ قام به، ولا يناديه قط إلا بالملازم ديلا ريبيا:

«أيها الملازم ديلا ريبيا، أنت لستَ في مكانك القتالي، توقيف ثلاثة أيام - إن رُماتَك بعيدون خمسة أمتار عن الاحتياط، خمسة أيام توقيف - أنت تعتمرُ السدارة في الثانية عشرة وخمس دقائق، ثمانية أيام توقيف».

وقد قال له مرّة واحدة في معركة كاتر - برا[1]: جيد جداً، يا أورسو، ولكن كن حذراً.

ومع ذلك، فتلك الذكريات الأخيرة لم تكن هي التي تذكره ببييترانيرا، فرؤيةُ الأماكن التي ألفها في طفولته، والأثاث الذي كانت تستخدمه والدته التي

---

(١) - معركة: كاتر - برا: quatre - Bras شنّها الفرنسيون ضد الانكليز في بلجيكا بقيادة المارشال ني. (م: ز.ع).

أحبها حبًّا رقيقًا، كانت تثير في نفسه انفعالات حلوةً، وباعثةً على الغمّ، ثم أن المستقبل المظلم الذي كان يعدُّ له، والقلقَ المبهمَ الذي كانت توحي له به شقيقته، وفوق كلّ شيء، فكرةُ مجيء الآنسة نيفيل إلى منزله الذي يبدو له في ذلك اليوم صغيراً جداً، وفقيراً جداً، وقليل الملاءمة، بالنسبة لشخصٍ اعتاد الترف، والازدراء الذي يمكن أن تحمله تجاهه ربّما، كلُّ هذه الأفكار كانت تشكّل تشوّشًا في رأسه، وتوحي له بشعورٍ عميق بالوهن.

جلس ليتناول العشاء، في كرسيٍ كبيرة من السّنديان الذي أخذ يسود، وهو الكرسي الذي كان والده يترأس فيه وجبات طعامِ الأسرة. وابتسمَ إذ رأى كولومبا تتردّدُ في الجلوس معه إلى المائدة. وكان ممتنًا لها من ناحيةٍ أخرى لمحافظتها على الصمت أثناء العشاء وعلى الانسحابِ المفاجئ الذي قامت به بعد ذلك، فقد كان يشعرُ بأنه على درجةٍ كبيرة من الانفعالِ بحيث لم يكن بإمكانه أن يصمدَ للهجمات التي كانت تحضّرها له بلا شك. بيد أن كولومبا قد أعفته منها، وأرادت أن تتركَ له الوقتَ كي يجمعَ شتاتَ نفسه، فمكث مدّة طويلةً من غير حراك، ورأسه مستندةٌ إلى يده، وهو يستعيد مشاهدَ الأيام الخمسة عشر الأخيرة التي عاشها، وكان يرى بذعرٍ مايبدو أن كلّ واحدٍ ينتظره من تصرّفه تجاه آل باريّسيني. وكان يلاحظُ مسبقًا أن رأي بييترانيرا قد بدأ يصبحُ بالنسبة إليه رأي الجميع، فقد كان يتعين عليه أن يثأر وإلا عُدَّ جبانًا. ولكن ممن يثأر؟ لم يكن بوسعه أن يصدّق أن آل باريّسيني هم مرتكبو جريمة القتل. لقد كانوا، في حقيقة الأمر، أعداءَ الأسرة، غير أنه كان لابدَّ من أحكام مواطنيه المسبقة الفظة كي ينسب إليهم اغتيالٌ ما. وفي بعض الأحيان، كان يتأملُ تعويذةَ الآنسة نيفيل، ويردّد شعارها بصوت خفيض: «الحياةُ معركة!» وأخيراً، قال في نفسه بحزم: «سوف أخرج منتصراً!» ونهض عند هذه الفكرة الطيبة، وأخذَ المصباحَ، وهمَّ بالصعود إلى غرفته، عندما سُمِعَ طرقٌ على باب المنزل.

كانت الساعة غير مناسبة لاستقبال زيارة، وظهرت كولومبا في الحال تتبعها المرأة التي تخدمها. وقالت وهي تسرعُ إلى الباب: «ليس هناك شيء».

ومع ذلك، فقبل أن تفتح الباب، سألت عمن يطرقُ، فأجابها صوتٌ رقيق: «هذا أنا».

وفي الحال، رفعت العارضةَ الخشبية الموضوعةَ على عرض الباب، وعادت كولومبا إلى الظهور في غرفة الطعام تتبعها فتاة صغيرة في العاشرةِ من عمرها تقريبًا، حافيةَ القدمين، ترتدي الأسمال، ورأسها مغطى بمنديل غيرِ مناسب، تفلتُ من تحته خصلاتٌ طويلةٌ من الشعر الأسود سواداً فاحمًا مثل جنحِ الغراب. وكانت الطفلةُ هزيلةً، شاحبةً، وبشرتها قد أحرقتها الشمس، ولكن نارَ الذكاء كانت تلتمعُ في عينيها. وعندما رأت أورسو، توقفت بخجلٍ، وحيتهُ بانحناءةٍ على طريقة الفلاحات، ثم تحدثت بصوتٍ خفيض مع كولومبا، ووضعت بين يديها تدرجًا تمّ قتله حديثًا.

فقالت كولومبا: «شكرًا يا شيلي، اشكري عمك، كيف حاله؟

– في حالٍ جيدةٍ، يا آنستي، إنه في خدمتك. لم أستطع المجيء في وقتٍ أبكر لأن عمي قد تأخر كثيراً، وقد مكثتُ في الدغلِ ثلاثَ ساعاتٍ، وأنا انتظره.

– ألم تتناولي العشاء؟

– أيتها العذراء، كلا، يا آنستي، لم يتوفر لي الوقتُ لذلك.

– سوف نقدّم لك ما تتعشين به، هل لدى عمك خبزٌ أيضًا؟

– قليلاً، يا آنسة، ولكن البارود هو الذي ينقصه خصوصًا. لقد أتى فصلُ الكستناء، ولم يعد بحاجةٍ إلا إلى البارود.

– سوف أعطيك له رغيفًا، وبارودًا، وقولي له أن يوفره، فهو غالٍ.

فقال أورسو بالفرنسية:

– ولمن تقدمين الحسنة إذن، يا كولومبا؟

فأجابت كولومبا باللغة نفسها:

– لخارجٍ على القانون مسكينٍ في هذه القرية، وهذه الصغيرة هي ابنةُ أخيه.

– يبدو لي أنه يمكنك أن تضعي هباتك في مواضعَ أفضل، فلماذا تبعثين البارودَ لنذلٍ سوف يستخدمه لارتكابِ جرائم؟ لولا هذا الإفراطُ في التسامح

المؤسف الذي يبدو أن كلَّ الناس يظهرونه تجاه الخارجين على القانون، لاختفوا من كورسيكا منذ زمنٍ طويل.

- ليس الأكثرَ شراً فيما بينهم عندنا هم الموجودون في الريف[1].

- اعطهم خبزاً إذا شئت، فلا ينبغي أن نمنعه عن أحد، بيد أني لا أوافق على أن تُقدَّم لهم الذخيرة.

فقالت كولومبا بلهجةٍ جادة:

- يا أخي، أنت السيد هنا، وكلُّ شيء يخصُّك في هذا المنزل، ولكني أُعلمك بأني سأعطي خماري لهذه الفتاة الصغيرة كي تبيعه قبل أن أرفضَ تقديم البارود لخارجٍ على القانون. إن تسليمه إلى الشرطة يعادل منع البارود عنه، فأيّةُ حمايةٍ لديه ضدّهم، إن لم تكن هذه الخرطوشات.

كانت الفتاةُ الصغيرةُ مع ذلك تلتهمُ بنهمٍ قطعةً من الخبز، وتنظرُ بانتباهٍ إلى كولومبا وإلى أخيها حيناً آخر، ساعيةً إلى أن تفهم في عيونهما معنى ما كانا يقولانه.

- وماذا فعل لصُّك هذا أخيراً، وبسبب أية جريمة رمى نفسه في الدغل؟

فصرخت كولومبا:

- لم يرتكبْ براندولاكسيو أيةَ جريمة، فقد قتل جيوفان أوبيزا الذي كان قد اغتال والده فيما كان هو في الجيش.

فأدار أورسو رأسه، وأخذ المصباح، ومن غير أن يجيبَ، صعد إلى غرفته، حينذاك، أعطت كولومبا الطّفلةَ باروداً ومؤونةً، ورافقتها حتى الباب، وهي تردّد لها:

«ليسهر عمُّك على أورسو خصوصاً!».

---

(١) - ETRE ALLA CAMPAGNA: أي كان BANDIT(منفي)، وليست هذه الكلمة تحملُ معنى بغيضاً، فهي تؤخذ بمعنى مُبْعَد، مطارَد وهو ما يسمى في الموشّحات الانكليزية OUT LAW (الخارج على القانون).

الفصل الحادي عشر

نام أورسو طويلاً، ونتيجةً لذلك، فقد استيقظ متأخراً جداً بالقياسِ لكورسيكي على الأقل. وما إن نهض، حتى كان الشيءُ الذي استرعى انتباهه هو منزلُ أعدائه، وفتحاتُ الرّماية التي فرغوا من إحداثها فيه، فنزل وسألَ شقيقته:

فأجابته الخادمةُ سافيرينا:

إنها في المطبخ، تصهرُ الرصاص.

وهكذا لم يعدْ بمقدوره أن يخطو خطوةً واحدة من غير أن تلاحقه صورةُ الحرب.

وجد كولومبا جالسةً على كرسيٍّ مطبخ، وهي محاطةٌ بالرصاص الذي صهرتْه منذ حين، وتقومُ بقطعِ سكب الرصاص.

فسألها أخوها: «وما الذي تصنعينه بحق الشيطان؟»

فأجابت بصوتها الناعم:

ليس لديك رصاصٌ من أجل بندقيةِ العقيد. وقد وجدت قالبًا من العيار نفسه، ولسوف تحصل اليوم على أربعة وعشرين خرطوشة يا أخي.

- لست بحاجة إليها، شكراً لله!

- لاينبغي أن يؤخذَ المرءُ على حين غرّة، يا أورس أنطون، فلقد نسيتَ بلدك والناس الذين يحيطون بك.

- كان يمكن أن أنساها، لو لم تذكريني بها سريعًا، قولي لي، ألم يصلُ صندوقٌ ضخمٌ منذ بضعة أيام؟

- بلى يا أخي! أتريد أن أصعد به إلى غرفتك؟

- أنت تصعدين به! ولكن لن تقوي على رفعه أبدًا. . . أما من بعضُ الرجالِ هنا ليقوموا بذلك؟

فقالت كولومبا وهي تشمّر عن ذراع بيضاءَ ومستديرة، وذات تكوينٍ لاعيب فيه، ولكنها تنبئ عن قوةٍ نادرةٍ، وقالت للخادمة:

هيا، يا سافيريا، ساعديني.

كانت قد رفعت الصندوق الثقيل بمفردها، عندما هرع أورسو إلى مساعدتها.

وقال: في هذا الصندوق شيء لك، يا عزيزتي كولومبا، سوف تعذرينني، إذا كنت أقدّم إليك هدايا رخيصةً، لأن كيسَ النقود الذي يحمله ملازمٌ بنصفِ مرتب ليس مملوءاً بصورة جيدة. وكان يفتحُ الصندوق وهو يتكلم، ويخرج منه بعضَ الفساتين، وشالاً، وأشياءَ أخرى تستخدمها فتاة شابة.

فهتفت كولومبا: «يا لها من أشياء جميلة، لسوف أُخبئها لئلا تتلف، وسأحتفظُ بها من أجلِ عرسي. وأضافت بابتسامةٍ حزينة: لأني الآن في حداد».
وقبلت يدَ أخيها.

- هناك شيء من التظاهرُ في إبقاءِ الحدادِ لمدّةٍ طويلة، يا أختي.

فقالت كولومبا بلهجةٍ حازمةٍ:

لقد أقسمت بأني لن أترك الحداد. . .

وأخذت تنظرُ من النافذة إلى منزلِ آل باريّسيني.

فقال أورسو وهو يسعى إلى تحاشي نهاية الجملة:

«إلا يومَ تتزوجين».

فقالت كولومبا: «لن أتزوج إلا من رجلٍ يقومُ بثلاثة أشياء...»

وكانت تتأمل دومًا المنزلَ المعادي بهيئة عابسة.

- أنا مندهشٌ يا كولومبا من أنك لم تتزوجي بعد، برغم جمالك، هيا، قولي لي، من يغازلك.

ومن جهة أخرى، فلسوف أسمعُ الكثيرَ من الأغاني المسائية، ولا بدَّ أن تكونَ أغاني جميلة كي تروقَ لمغنيةٍ مأتمية مثلك.

- من يرغبُ في يتيمةٍ مسكينة... ثم أن الرجلَ الذي سيجعلني أتركُ ثيابي الحدادية، سيجعلُ نساءَ البيتِ الآخر يلبسن الحداد.

فقال أورسو في نفسه: «سيصير ذلك جنونًا».

غير أنه لم يجب بشيء ليتحاشى كلَّ جدل.

وقالت كولومبا بلهجةٍ فيها دلالٌ:

لدي أنا أيضًا يا أخي شيءٌ أقدمه إليك. إن الملابسَ التي لديك هنا أكثر جمالاً من أن تستطيع ارتداءها في هذا البلد، ولسوف يتمزق معطفك بعد يومين، إذا ما ارتديته في الدغل، ويجب أن تحتفظَ به إلى الوقت الذي تعوذ فيه الآنسة نيفيل.

ثم فتحت خزانةً، وأخرجت منها طقم صيد كامل.

لقد صنعتُ لك سترة من المخمل، وهذه قبعةٌ مثل تلك التي يعتمرها الأنيقون عندنا ولقد طرّزتها لك منذ زمنٍ طويل، فهل تريدُ أن تقيسهما؟.

وجعلته يرتدي سترةً عريضة من المخمل الأخضر، وهي سترةٌ لها في ظهرها جيبٌ ضخمٌ. ووضعت على رأسه القبعةَ المخمليةَ المدببةَ السوداء، والمطرزةَ بالأسود وبالحرير من اللون نفسه، وتنتهي بنوعٍ من الشرابة.

وقالت: وهذا هو حزامُ خرطوش[1] والدنا، أما خنجره ففي جيبِ سترتك، ولسوف أجلبُ لك المسدس.

فقال أورسو وهو ينظرُ إلى نفسه في المرآة الصغيرة التي كانت تقدمها إليه سافيريا:

أبدو وكأني قاطع طريق حقيقي، في المسرح المأسوي - الهزلي.

وقالت الخادمة العجوز:

- ذلك لأنك تبدو فيها حسن المظهر تمامًا. ولا يبدو أجملُ معتمر للطاقية المدببة[2] في بوكوغنانو و باستيليكا أكثر بسالة منك فيها.

وتناول أورسو غداءه، وهو يرتدي طقمه الجديد، وقد قال لشقيقته أثناءَ الطعام أن صندوقه يحتوي عدداً من الكتب، وأنه قد قصد إلى إستقدامِ عددٍ منها من فرنسا، وإيطاليا كي يجعل كولومبا تشتغلُ كثيراً عليها.

وأضاف: «فمن المعيب ألا تعرفَ فتاةٌ ناضجةٌ مثلك أشياءَ يتعلمها الأطفالُ على اليابسة، حين ينتهون من الرضاعة».

وكانت كولومبا تقول: أنت على حقّ يا أخي، فأنا أعلمُ ماذا ينقصني، ولأرغبُ في شيء أكثر مما أرغبُ في الدراسة، وخصوصًا إذا وافقت على إعطائي دروسًا.

ومرت بضعةُ أيام من غير أن تلفظ كولومبا اسمَ باريّسيني، فقد كانت على الدوام تهتمُّ بحاجاتِ أخيها الصغيرة، وغالبًا ما تحدثه عن الآنسة نيفيل. وقد جعلها أورسو تقرأُ كتبًا فرنسيَة وإيطالية، وكانت تفاجئه صحةُ ملاحظاتها وحسُّها السليم حينًا، وجهلها العميق بأشياء مبتذلة إلى حدٍّ كبير، حينًا آخر.

---

(١) - CARCHERA: وهو حزام يوضع فيه الخرطوش، ويربط به المسدس على يساره.

(٢) - ترجمة لكلمة (Pointu) أو (Pinsuta) الإيطالية وهي الكلمة التي يطلقونها على من يعتمرون الطاقية المدبّبة: BARRETA PINSUTA.

وذات صباح، بعد الغداء، خرجت كولومبا للحظةٍ من الزمن، وبدلاً من أن ترجع حاملةً كتاباً وورقاً، ظهرت وهي تلبسُ خمارها على رأسها، وكانت هيئتها أكثر جديةً أيضاً مما هي عليه في العادة.

فقال أورسو وهو يقدِّم ذراعه:

- إلى أين تريدين أن أرافقك؟

- لستُ بحاجة لذراعك يا أخي، ولكن خذ بندقيتك، وعلبةَ الخرطوش التي لديك، فالرجل لا ينبغي أن يخرجَ من غير أسلحته.

- على بركةِ الله، لابدّ من الالتزامِ بما هو دارجٌ، إلى أين نذهب؟.

وشدّت كولومبا الخمار حول رأسها، من دون أن تجيبَ، ونادت كلبَ الحراسة الذي لديها، وخرجت يتبعها شقيقها. وحين ابتعدا بخطًى واسعةٍ عن القرية، سلكت طريقاً ضيقةً ومتعرّجة كانت تتلوى بين الكروم، بعد أن أرسلت الكلبَ أمامها، ولقد أشارت له إشارةً يبدو أنه كان يعرفها، لأنه أخذ حالاً يعدو بشكلٍ متعرج، ماراً عبر الكروم من هذه الناحية حيناً، ومن الناحية الثانية حيناً آخر، وهو على بعد خمسين خطوة من صاحبته دائماً، ويتوقف في بعض الأحيان، في وسطِ الطريق كي ينظر إليها، وهو يحرك ذيله. وكان يبدو أنه يؤدي بإتقان وظائفه ككشاف.

وقالت كولومبا: «إذا نبح موشيتو، فهيئ بندقيتك يا أخي، وابق في مكانك بلا حراك». وتوقفت كولومبا على مسافة نصف ميلٍ من القرية، بعد المرور بالعديد من التعرّجات، توقفت فجأة، في مكانٍ تصنعُ منه الطريق زاويةً، فهناك، كان يرتفع هرمٌ صغير من الأغصان، بعضها أخضر، وبعضها يابس، وهي تتراكم على ارتفاع ثلاثةِ أقدامٍ تقريباً. وكان يرى طرفُ صليبٍ من الخشب المدهون بالأسود، وهو يبرزُ من أعلاها. ففي بعض مناطق كورسيكا، وخصوصاً في الجبال، ثمةَ عرفٌ قديم للغاية، ربما يرتبطُ بالاعتقاداتِ الوثنية الخرافية، وهذا العرف يجبر

العابرين على إلقاء حجر، أو غصن شجرة على المكان الذي قضى فيه رجلٌ ما بطريقة عنيفة، وهكذا، فخلال سنوات طويلة، وبقدر ما تظلُّ ذكرى نهاية ذلك الرجل المأسوية في ذاكرة الناس، يتراكمُ ذلك التقريبُ الفريدُ يوماً بعد يوم، فيسمى ذلك: «الكومة» أو الـ Muccio التي تخصُّ فلاناً من الناس.

وتوقفت كولومبا عند تلك الكومة من الأوراق، وانتزعت غصناً من شجرة القطلب، وأضافتها إلى الهرم، وقالت:

«يا أورسو، هنا مات والدنا، فلنصلِّ من أجل روحه، يا أخي!».

وجثت على ركبتيها، وحاكاها في ذلك شقيقها حالاً، وفي تلك اللحظة، دقّ جرسُ القرية ببطء لأن رجلاً قد مات في الليل، فانفجر أورسو باكياً.

وبعد بضع دقائق، نهضت كولومبا، بلا دموع، ولكن وجهها قد استعاد حيويته، فرسمت بإبهامها على عجلٍ إشارة الصليب المألوفة عند مواطنيها والتي ترافق عادةً القسم الذي يحلفون به أمام الرب، ثم اقتادت شقيقها، وسلكت طريق القرية. ودخلا إلى المنزل بصمت.

صعد أورسو إلى غرفته، وبعد لحظةٍ من الزمن، لحقت به كولومبا إليها، وهي تحمل علبةً وضعتها على المنضدة، وفتحتها وأخرجت منها قميصاً مغطى ببقعٍ واسعة من الدم.

- «هذا هو قميصُ والدك يا أورسو».

وألقت به على ركبتيه.

- «هذا هو الرصاصُ الذي أصابه».

ووضعت على القميص رصاصتين صدئتين.

وصرخت وهي ترمي بنفسها بين ذراعيه، وتحتضنه بقوة:

«أورسو، يا أخي، سوف تثأرُ له!».

وعانقته بنوعٍ من الـ (الاندفاع). . . ، وقبّلت الرصاصتين والقميص، وخرجت من الغرفة، تاركةً أخاها وكأنه مصعوقٌ على كرسيه.

بقي أورسو بعضَ الوقت بلا حراك، ولا يجرؤ على أن يبعد عنه تلك البقايا المرعبة، وأخيراً بذل جهداً كبيراً كي يعيدها إلى العلبة، وأسرع إلى الطرف الآخر من الغرفة، ليرتمي على سريره، وقد أدار رأسه نحو الجدار، وأغرقه في الوسادة، وكأنه يريدُ أن يهرب من رؤيةِ شبح. وكانت الكلماتُ الأخيرةُ، كلماتُ شقيقته ترنُّ في أذنيه باستمرار. وكان يبدو أنه يسمعُ نبوءةَ وحيٍ مشؤومةً ومحتومةً، وهي تطالبه بالدم، وبالدمِ البريء. ولن أحاول التعبير عن إحساساتِ الفتى التعس والتي اختلطت مثل تلك الإحساسات التي تهيج رأس شخصٍ مجنونٍ، فقد مكث طويلاً في الوضع نفسه، من غير أن يجرؤ على أن يدير رأسه، وأخيراً، نهض، وأغلق العلبة، وخرج على عجل من منزله، وأخذ يطوف في الريف، ويسيرُ على غير هدى، من دون أن يعلم إلى أين يذهب.

بدأ الهواءُ اللطيفُ يسرّي عنه رويداً رويداً، فغدا أكثر هدوءاً، وعاين بشيء من برودِ الأعصاب وضعه، ووسائل الخروج منه. إنه لم يشتبه بأن آل باريّسيني هم الجناة، ونحن نعلم هذا مسبقًا، ولكنه يتهمهم بتزوير رسالةِ قاطع الطريق أغوستيني، وقد سببت تلك الرسالة، كما كان يظن على الأقل، موتَ والده، وكان يحسّ أن ملاحقتهم بعدِّهم مزورين هو أمرٌ متعذر، ولئن كانت أحكامُ بلده المسبقةُ وغرائزها تعود أحياناً لتلاحقه وتظهر له أن الثأر سهل عند عطفةِ ممرّ صغير، فقد كان يستبعدها برعبٍ حين يفكر برفاقه في الفوج، وبالصالونات الباريسية، وخصوصاً بالآنسة نيفيل، ثم أخذ يفكر بعتابات شقيقته؛ فقد كان ما تبقى من كورسيكي في طباعه يسوغُ تلك العتابات، ويجعلها أكثر إيلاماً. وبقي لديه أملٌ واحد، في تلك المعركة بين ضميره وآرائه المسبقة، وهو أن يدخلَ في خصامٍ ما مع أحدِ أبناء المحامي، تحت ذريعة ما، وأن يتقاتلَ في مبارزةٍ معه. فقتله برصاصة أو بطعنةِ سيف يمكن أن تقيمَ مصالحةً بين أفكاره الكورسيكية وأفكاره الفرنسية. وأحسّ أورسو،

بعد أن لاقت تلك الحيلةُ قبولاً لديه، بأنه قد تخفف من حمل ثقيل، وأخذ يتفكرُ في وسائل تنفيذها، عندما أسهمت أفكارٌ أخرى أكثر رقة أيضاً في تهدئة اضطرابه المحموم. إن شيشرون، الذي أصابه اليأس من جراء موت ابنته توليا، قد نسي ألمه عندما استعرض في ذهنه كلَّ الأشياءَ الجميلة التي يمكن أن يقولها في هذا الموضوع. وقد تعزّى م. شاندي عن فقده لابنه، من خلال الإفاضة في الحديث عن الحياة والموت، على غرار شيشرون. وتبرّدَ دمُ أورسو، حين فكّر بأنه يمكنه أن يقدمَ للآنسة نيفيل لوحةً عن حالته النفسية، وهي لوحةٌ لايمكن إلا أن تثير اهتمامَ تلك المرأة الجَميلة إثارةً قوية.

كان يقتربُ من القرية التي كان قد ابتعد عنها ابتعاداً كبيراً من غير أن يلاحظَ ذلك، عندما سمع صوتَ فتاة صغيرة كانت تغني معتقدةً، بلا شك، أنها وحدها في معبر، على تخوم الدغل. وكان غناءها هو ذلك اللحن البطيء والرتيب المخصص للنواح الجنائزي. وكانت الطفلة تغني:

من أجل ابني، ابني الموجود في بلاد بعيدة - احتفظوا بصليبي، وبقميصي الملطخ بالدم...».

فقال أورسو بلهجةٍ غاضبة، وهو يظهر فجأة:

«ما هذا الذي تغنيه، يا صغيرة؟»

فصرخت الطفلةُ وقد ذعرت قليلاً:

- هذا أنت، يا أورس - أنطون... إنها أغنيةٌ للآنسة كولومبا...

فقال أورسو بصوتٍ مخيف:

- إني أمنعك من غنائها.

وأخذت الطفلة تديرُ رأسها يميناً وشمالاً، وكأنها تبحثُ عن الجهةِ التي يمكنها أن تهرب منها وكان يمكن أن تهرب بلا شك، لو لم يستبقها الاهتمام بالمحافظة على علبةٍ ضخمة كانت ترى على العشب، عند قدميها.

وأحسّ أورسو بالخجل من عنفه. فسألها بأكثر ما استطاع أن يبديه من رقة:

- ما الذي تحملينه هناك، أيتها الصغيرة؟

وبما أن شيلينا قد تردّدت في الإجابة، فقد رفع أورسو القماشَ القطني الذي كان يغطي العلبة، ورأى رغيفًا من الخبز ومؤن أخرى.

وسألها: «لمن تحملين هذا الرغيف، أيتها الظريفة؟»

- أنت تعلم ذلك جيداً، يا سيدي، لعمي.

- وعمك، أليس قاطع طريق؟

- في خدمتك، يا أورس - أنطون.

- إذا ما صادفك رجالُ الشرطة، فلسوف يسألونك إلى أين تذهبين...

فأجابت الطفلة من غير تردّد:

- سأقول لهم إني أحملُ الطعام إلى آل ليكوا الذين يقطعون الدغل.

- وإذا ما وجدت صياداً جائعًا، ويريد أن يتعشى على حسابك، ويأخذ منك مؤونتك؟

- لايجرؤ، فسأقول له إن المؤونة لعمي.

- في الواقع، ما من رجلٍ يدعُ الآخرين يستولون على عشائه... هل يحبّك كثيراً عمك؟

- أوه! نعم، يا أورس - أنطون، فمنذ أن مات والدي، اعتنى بأسرتنا، بأمي، وبي، وبأختي الصغيرة، وقبل أن تمرض والدتي، كان يوصي بها لدى الأغنياء كي يعطوها عملاً، والعمدةُ يعطيني فستانًا كل عام، ويعلمني الخوري مبادئ الدين والقراءة، منذ أن كلّمهما عمي عني. ولكن شقيقتك خصوصاً هي الطيبةُ معنا.

في تلك اللحظة، ظهر كلبٌ في المعبر، فرفعت الفتاة الصغيرة إصبعين إلى

فمها، وأطلقت صفرةً حادةً، وفي الحال، أتى الكلب إليها، وأخذ يداعبها، ثم توغل فجأة في الدغل. وفي الحال، نهض رجلان يلبسان ثياباً رديئة، ولكنهما مسلحان جيداً، من خلف نوامٍ شجرية على بعد بضع خطواتٍ من أورسو. وكأنهما قد تقدّما زحفاً كالثعابين الهائلة في وسط الغيل المتلبد من القستوس[1] والآس، والذي كان يغطي الأرض.

وقال أكبر هذين الرجلين سنّاً: أوه! يا أورس - أنطون. أهلاً وسهلاً بك. ماذا؟ ألا تتعرّفُني؟

فقال أورسو وهو يحدقُ به بثبات:

- كم هو غريبٌ أن تغير لحيةٌ وقبعةٌ مدببةٌ رجلاً ما!

- هيا، يا سيدي الملازم، انظر جيداً. هل نسيت إذن رفاق واترلو القدامى؟ لم تعدتذكر براندو سافيلي الذي مزّق أكثر من خرطوشة بجانبك في ذلك اليوم المنكود؟

فقال أورسو: ماذا أهذا أنت! لقد فررت عام ١٨١٦.

- كما تقول تماماً، يا سيدي الملازم، ياسيدتنا! إن الخدمة مضجرةٌ، ثم أنه كان لدي حسابٌ أسويّه في هذا البلد. ها! ها! ياشيلي، إنك فتاةٌ مقدامة، فقدمي لنا الطعام بسرعة، لأننا جائعان. ليس لديك فكرة، يا سيدي الملازم، كم يجوع المرءُ في الدغل، فمن الذي أرسل إلينا هذا، الآنسة كولومبا أم العمدة؟

- كلا، يا عمي، إن الطحانة هي التي أعطتنا هذا لك، وغطاءً لوالدتي.

- ماذا تريدُ مني؟

- تقول إن عمالها آل ليلوا الذين استأجرتهم لاستصلاح الأرض يطلبون منها الآن خمسة وثلاثين فلساً إضافةً إلى الكستناء، بسبب الحمى الموجودة في المنطقة المنخفضة في بييترانيرا.

---

(١) - نوع من الأشجار التزيينية. (م: ز.ع).

- يا لهم من خاملين! . . . سوف أرى - وياسيدي الملازم. هل تريدُ، من غير تكليف، أن تشاركنا عشاءنا. ولقد تناولنا معًا وجبةً أردأ، في زمنِ مواطننا المسكين الذي صرف من الخدمة.

- أشكركم كثيراً - وقد صرفوني أنا أيضًا.

- أجل، سمعت ذلك القول، ولكنك لم تستأ لذلك فعلاً. أراهنُ على هذا. وذلك بهدف تسوية حسابٍ يخصك.

وقال قاطعُ الطريق لرفيقه: هيا، أيها الخوري، إلى المائدة - يا سيّد أورسو، أقدم لك الخوري، أي أني لم أعد أعرف إن كان خوريًا، ولكنه يمتلك علمه.

فقال قاطعُ الطريق الثاني:

- أنا طالبٌ مسكينٌ في اللاهوت، يا سيدي، وقد منعوه من متابعةِ مسيرته، فمن يدري؟ كان يمكن أن أصبح بابا، يابراندولاكسيو.

فسأله أورسو:

أيُّ سببٍ قد حرم الكنيسة إذن من أنوارك؟

- لاشيء، تسوية حساب، كما يقول صديقي براندولاكسيو إن شقيقةً لي كانت تقوم بأشياء مجنونة فيما كنتُ ألتهم الكتب في جامعة بيزا. وقد تعين عليّ أن أرجع إلى بلدي كي أزوجها. ولكن الخطيبَ كان متعجلاً جداً. فمات من الحمى، قبل ثلاثةِ أيام من وصولي. فتوجهت حينذاك، كما يمكن أن تفعل لو كنت مكاني، إلى شقيقِ المرحوم، فقيل لي إنه متزوجٌ، فما العمل؟

- لقد كان ذلك محرجًا فعلاً، فماذا فعلت؟

- إنها من تلك الحالات التي ينبغي الوصولُ فيها إلى قدّاحةِ البندقية[1].

- أي أن . . .

---

(١) - لاسكاغليا: تعبير شائع الاستخدام كثيراً.

- وضعت له رصاصةً في رأسه.

فصدرت عن أورسو حركةٌ تنمُّ عن الرعبِ، ومع ذلك، فقد جعله الفضولُ وربما كـذلك الرغبة في تأخير اللحظة التي ينبغي أن يرجع فيها إلى بيته، يظلُّ مكانه، ويتابع الحديث مع هذين الرجلين، اللذين تثقلُ ذمةَ كلٍّ واحدٍ منهما جريمةُ قتل شخص على الأقل.

وفيما كان رفيقُ براندولاكسيو يتكلم، كان يضع هو الخبز واللحم أمامه، ويخدم نفسه بنفسه، ثم أعطى كلبه حصته، وقدمه لأورسو تحت اسم بروسكو[1]، بما أنه يتمتع بغريزةٍ رائعة هي تعرُّف الجندي الجوال، مهما كان متخفياً. وأخيراً قطع قطعةً من الخبز، وشريحةً من لحم الخنزير النيئ، وأعطاها لابنة أخيه.

وهتف طالبُ اللاهوت، بعد أن تناولَ بعض اللقم:

«يالها من حياة جميلة، حياة قاطع الطريق! ربما تتحسسها يومًا ياسيد ديلا ريبيا، ولسوف ترى كم هو لذيذٌ ألا يعرف المرء سيداً آخر غير هواه».

كان قاطع الطريق، حتى ذلك الوقت يعبّر بالإيطالية، فتابع بالفرنسية قائلاً:

ليست كورسيكا بلداً مسلياً جداً بالنسبة لفتى. أما بالنسبة لقاطع طريق، فهناك فرقٌ كبيرٌ! إن النساء مجنونات بنا، وكما تراني، لدي ثلاثُ عشيقاتٍ في ثلاث مناطق مختلفة، وأنا في بيتي، أينما حللت، وهناك واحدةٌ منهن هي زوجةُ شَرطي.

وقال أورسو بلهجة جادّة: أنت تعرفُ غذيذاً من اللغات يا سيد.

- إذا كنتُ أتكلمُ الفرنسية، فهذا، كما ترى لأن [2] MAXIMA DEBETUR PUERIS REVERENTIA - ونحن متفقان، براندولاكسيو وأنا، أن الصغيرة تتصرف جيداً، وهي مطيعة.

---

(١) - أي: المباغت. (م: ز.ع)

(٢) - إن أكبر واجب هو احترام الأطفال، باللاتينية في النص (م: ز.ع)

فقال عمّ شيلينا :

عندما تبلغُ الخامسة عشرة، سأزوجها زواجًا جيدًا، وقد وضعتُ في ذهني شخصًا معينًا.

فقال أورسو : - أنتَ الذي ستطلبه؟

- بلا شك، هل تظن أنني إذا قلتُ لأحد أغنياء البلد : «أنا براندو سافيلي، أرى بسرور أن يتزوج ابنك من ميشلينا سافيلي، هل تظنّ أنه لن يستجيبَ بسهولة؟

فقال قاطعُ الطريقِ الآخر :

- لا أنصحه بذلك، فالرفيق يضربُ بقسوةٍ بعضَ الشيء.

واستأنف براندو لاكسيو قائلاً :

- لو كنتُ نذلاً، وسوقيًا، وزائفًا، لما كان علي سوى أن أفتح خُرْجي، فتنهمرُ فيه قطعُ النقود ذات المئة فلس.

فقال أورسو : - هناك إذن في خرجك ما يجتذبها؟

- لاشيء، غير أني لو كتبتُ إلى أحد الأغنياء، كما يفعلُ البعض : «احتاجُ إلى مئةِ فرنك». لسارعَ إلى إرسالها إلي، ولكني إنسانٌ شريف، يا سيدي الملازم.

وقال قاطعُ الطريق الذي كان رفيقه يسميه الخوري :

- هل تعلم يا سيّد ديلا ريبيا، أنّ في هذا البلد ذي الطباع البسيطة بعضَ الحقيرين مع ذلك والذين يفيدون من التقدير الذي نوحي به للناس بواسطةِ جوازات سفرنا (وكان يشير إلى بندقيته) كي يسحبوا كمبياليات عن طريق تقليد كتابتنا.

فقال أورسو بلهجة مفاجئة :

- أعلم ذلك، ولكن أية كمبيالات؟

فتابع قاطعُ الطريق.. منذ ستة أشهر، كنت أتنزّه بجانب أوريزا، حين أتى إلي قرويٌّ فظٌّ. رفع قبّعته من بعيدٍ وقال لي : «أه! ياسيدي الخوري (إنهم

يسمّونني هكذا دائمًا)، اعذرني أعطني بعض الوقت، فلم أتمكّن من الحصول إلا على خمسة وخمسين فرنكًا. حقًّا، إن هذا هو كل ما استطعتُ جمعه». أما أنا فقد فوجئتُ تمامًا، وقلت له: ما معنى هذا، أيها الحقير، خمسة وخمسون فرنكًا، فأجابني: - أقصدُ خمسة وستين. أما المئة التي تطلبها مني، فهذا مستحيل.

- وكيف أيها المازح! أنا أطلبُ منك مئةَ فرنك! أنا لاأعرفك - حينذاك، سلمني رسالةً أوعلى الأصح، ورقةً شديدةَ القذارة، ويدعونه فيها إلى وضع مئةِ فرنك في مكانٍ حدَّدوه له، تحت طائلةِ أن يرى منزله محروقًا، وبقراته مقتولةً على يد جيوكانتو كاستريكوني، وهذا هو اسمي. وقد بلغت بهم السفالةُ أن زوروا توقيعي! والأمرُ الذي أغضبني أكثر من غيره، هو أن تلك الرسالة مكتوبةٌ باللغة المحلية، وهي مليئةٌ بالأخطاء الإملائية. . . فأنا أرتكبُ أخطاءَ إملائية! أنا الذي حصلتُ على كلِّ جوائز الجامعة! فبدأت بتوجيه صفعةٍ للخسيس فدار مرتين حول نفسه على إثرها.

وقلت له: - أها أتظنني لصًّا، أيها النّذل!. ووجهت إليه ركلةً قوية من قدمي في المكان الذي تعرفه. وبعد أن هدأتُ قليلاً، قلتُ له: متى ينبغي لك أن تحمل النقودَ إلى المكان المحدد؟ - اليوم بالذات - حسنًا! امض لإيصاله، وكان ذلك المكان في أسفلِ شجرةِ صنوبر، كان المكانُ محددًا تحديدًا كاملاً. فحمل النقود، ودفنها في أسفل الشجرة، وعاد ليراني. وكنت قد كمنت في المنطقة المجاورة، وبقيت هناك مع الرجل المعنيّ ستّ ساعات قاتلة. وكان يمكن أن أبقى ثلاثةَ أيام لو لزم الأمرُ، يا سيد ديلا ريبيا، وبعد ستٍ ساعات، ظهرَ أولُ سكان باستيا[1]، وهو مرابٍ دنيء، فانحنى ليأخذَ المال، وأطلقتُ النار، فكان تصويبي عليه دقيقًا جداً، بحيث أن رأسه قد اصطدم بالنقود التي كان ينبشها وهو يسقط.

---

(١) - في النص BASTIACCIO، والكورسيكيون الجبليون يمقتون سكان باستيا الذين لاينظرون إليهم على أنهّم مواطنون، وهم لايقولون قط BASTIESE بل BASTIACCIO، والمعروف أن الكلمات التي تنتهي = ACCIO تؤخذ عادة بمعنى ينمّ عَن الازدراء.

وقلتُ للفلاح : والآن استعد نقودك، ولايخطرن بذهنك بعد الآن أن تشك بخساسةٍ يقومُ بها جيوكانتو كاستريكوني . فالتقط الرجلُ المسكينُ فرنكاته الخمسةَ والستين، من غير أن يعبأ بمسحها، وقال لي شكراً، فوجهتُ له ركلةً قويةً من قدمي كوداع، وهو لايزالُ يركضُ. فقال براندولاكسيو : آه! أيها الخوري. إني أحسدك على طلقةِ البندقية تلك! ولابد أنك قد ضحكت منها جيداً.

فتابع قاطع الطريق : لقد أصبت الباستي الحقير في صدغه، وذكرني ذلك بهذه الأبيات لفيرجيل :

LIQUE - FACTO TEMPORA PLUMbO

DIFFIDIT, AC MULT´A PORRECTUM EXTENDIT ARENA [١]

انصهرت : LIQUIFACTO! هل تظنّ ياسيد أورسو أن قذيفةً من الرّصاص تنصهرُ تحت تأثير سرعة مسارها في الفضاء؟ أنت يا من درستَ علم الرمي، لا بدّ أن تقول لي إن كان هذا خطأً أم حقيقة؟ .

كان أورسو يفضّل أن يناقشَ هذه المسألة الفيزيائية أكثر مما يحبّ أن يدخلَ في محاجّةٍ مع المجاز حول الطبيعة الأخلاقية لفعلته. أما براندولاكسيو الذي قلما كان هذا البحثُ العلمي يسلّيه، فقد قاطعه ليلاحظ أن الشمس كانت تميلُ إلى الغروب، فقال له :

بما أنك لم ترد أن تتعشّى معنا، يا أورس أنطون، فأنا أنصحك بألا تجعل الآنسة كولومبا تنتظر طويلاً. ثم أنه ليس من الجيد دائماً أن يطوف المرءُ في الطرقات حين تغيبُ الشمسُ، فلماذا إذن تخرج من غير بندقية؟ فهناك أناسٌ شريرون في هذه النواحي، فاحترس منهم. اليوم ليس هناك ما تخشاه، فآل باريّسيني يصطحبون مدير الشرطة إلى منزلهم، وقد صادفوه على الطريق. وهو يتوقفُ

(١) - وبرصاصةٍ انصهرت وهي تخترق الفضاء، يَشُقُّ منتصف جبين الفتى ويطرحه ميتاً، على الرمل، الذي يغطي به مكاناً فسيحاً (ترجمة أندريه بيلسور)

ليوم واحد في بييترانيرا قبل أن يذهب ليضع في كورتي الحجر الأول، كما يقال. . . يا لها من حماقة! إنه ينامُ هذا المساء في منزل آل باريّسيني. أما غداً، فسيكونون متفرّغين، فهناك فنستلّو الولدُ الفاسدُ، وأورلاندو كسيو الذي ليس أفضل منه كثيراً. . . حاول أن تلتقيهما منفصلين، اليوم أحدهما، وغداً الآخر، ولكن احذر، أنا لا أقول لك إلا هذا.

فقال أورسو:

– شكراً على النصيحة، ولكن ليس بيننا شيءٌ نختصم بشأنه، وإلى أن يأتوا للبحث عني، ليس لديّ شيء أقوله لهم.

فمدّ قاطع الطريق لسانه جانبياً، وجعله يطقطقُ على خده بهيئةٍ متهكمة، ولكنه لم يرد بشيء. ونهض أورسو كي يذهب، فقال براندولاكسيو:

«بالمناسبة، أنا لم أشكرك على البارود الذي أرسلته، فقد وصلني في الوقتِ المناسب. والآن، لا ينقصني شيء. . . أعني ينقصني حذاء أيضاً. . . ولكني سأصنع لنفسي حذاءً من جلدِ ماعز الجبل، في أحد هذه الأيام».

فدس أورسو قطعتين من النقود من ذات الخمسة فرنكات في يدِ قاطع الطريق.

«إن كولومبا هي التي أرسلت إليك البارودَ». وهذا كي تشتري لنفسك حذاءً. فصرخ براندو لاكسيو وهو يعيدُ إليه القطعتين النقديتين:

– لا حماقات، يا سيدي الملازم. هل تظنني متسولاً؟ إني أقبلُ الخبزَ والبارودَ، ولكني لا أُريدَ شيئًا آخر.

– كنت أظن أنه يمكن للجنود القدماء أن يساعدَ بعضهم بعضًا، هيا، وداعًا!

ولكنه كان قد وضع النقودَ في خرجِ قاطع الطريق، قبل أن يذهب، ومن غير أن يلحظ قاطعُ الطريق ذلك.

وقال اللاهوتي: وداعًا، يا أورس - أنطون، ربما نلتقي يومًا في الدغل، في يوم من الأيام، وسوف نتابعُ دراساتنا عن فيرجيل.

كان أورسو قد ترك رفاقه الشرفاء منذ ربع ساعة، عندما سمع رجلاً يركضُ خلفه بكلّ قواه، وهو براندولاكسيو.

وصرخ وقد تبدّد نَفَسُهُ: هذا صعبٌ قليلاً، يا سيدي الملازم، هاك فرنكاتك العشرة، ولو أن ذلك قد صدر عن شخصٍ آخر، لما كنت مرَّرت له تخابثه، فهناك أشياء كثيرة أدينُ بها للآنسة كولومبا. لقد قطعْتَ نفسي تمامًا! فعم مساءً.

الفصل الثاني عشر

وجد أورسو كولومبا قلقةً بعضَ الشيء بسبب طول غيابه، ولكنها استعادت مظهرَ الصفاء الحزين الذي يعبِّر وجهُها عنه عادةً، عندما رأته، ولم يتحدثا، أثناء وجبة المساء إلا عن أشياءَ غير مهمّة. أما أورسو الذي شجّعه مظهرُ شقيقته الهادئ، فقد روى لها لقاءه بقطاع الطرق، وحتى أنه قد خاطر ببعض المزاحات عن التربية الخلقية والدينية التي كانت تتلقاها شيلينا الصغيرة على يد عمها، وزميله المبجل السيد كاستريكوني.

وقالت كولومبا: «إن براندولاكسيو رجلٌ شريف، أما كاستر يكوني، فقد سمعتُ أنه كان رجلاً لا أخلاقَ له.

وقال أورسو: أظن أنه ليس أقلّ قدراً من براندولاكسيو، وبراندولاكسيو يعادله، فأحدهما كالآخر يخوض حرباً مفتوحةً على المجتمع. إن أولَ جريمةٍ تجرُّهما كلَّ يوم إلى جرائم أخرى، ومع ذلك، فربما لا يكونان مذنبين، مثل كثير من الناس الذين لايقيمون في الدغل.

واستأنف أورسو يقول: «أجل، إن لهؤلاء البؤساء موقفًا شريفًا على طريقتهم، إن حكمًا مسبقًا قاسيًا هو الذي رمى بهم في الحياة التي يعيشونها. وليس جشعهم الخسيس».

وخيمت لحظةٌ من الصمت.

وقالت كولومبا وهي تسكبُ القهوة:

يا أخي، أنت تعلم ربما أن جان - باتيست بييتري قد ماتَ الليلةَ الماضية، أجل لقد مات بسبب حمى المستنقعات.

- ومن هو بييتري هذا؟

- إنه رجلٌ من البلدة، وهو زوج مادلين التي التقطت محفظةَ والدنا المحتضر، وقد أتت ترجوني أن أظهر في سهرة الميت، وأن أُنشدَ شيئًا، ومن المناسب أن تأتي إليها أنت أيضاً، فهم جيراننا. وهذه مجاملةٌ لا يمكن أن يعفي المرءُ نفسه منها في منطقةٍ صغيرة كمنطقتنا.

- فلتذهب سهرتك إلى الشيطان، يا كولومبا! فأنا لا أحب أن أرى أختي تظهر في استعراضٍ أمام الجمهور على هذا النحو.

فأجابت كولومبا: يا أورسو، كلُّ إنسان يكرم موتاه على طريقته، والغناءُ المأتمي يأتي إلينا من عند أسلافنا، وعلينا أن نحترمه كتقليد، وليست مادلين موهوبةً في الغناء، والعجوز فيورديسبينا، أفضلُ مغنيةٍ مأتميةٍ في البلد، مريضةٌ، ولابدّ فعلاً من إيجادِ أحدٍ لينشدَ هذا الغناء.

- هل تظنين أن شارل - باتيست لن يجد طريقه في العالم الآخر، إذا لم نُنشد له أبياتًا رديئةً على تابوته؟ اذهبي إلى سهرتك، إذا شئت، يا كولومبا، وسأذهبُ معك، إذا كنت تظنين أنه يتوجب ذلك عليّ، ولكن لاترتجلي الغناء، فهذا غير مناسبٍ لعمركِ وأنا... أرجوك، يا أختي.

- لقد أعطيتُ وعداً بذلك يا أخي، وهذه هي العادةُ هنا، وأنتَ تعلمُ ذلك، وإني أكرر لك أنه ليس هناك غيري من يرتجلُ الغناء هنا.

- عادة حمقاء!

- أنا أتألم كثيراً من الغناء على هذه الطريقة، فهذا يذكرني بكلّ مآسينا، وغداً، سأكون مريضةً من جراء ذلك، ولكن لا بدّ منه، فلتسمح لي بذلك يا أخي، وتذكّر أنك قلتَ لي في أجاكسيو أن أرتجلَ الغناء لتسلية تلك الآنسة الإنكليزية التي تسخر من عاداتنا القديمة، أفلا يمكنني والحالة هذه، أن أرتجلَ اليوم، من أجل أناسٍ فقراء سيكونون ممتنّين لي، وسوف يساعدهم ذلك على احتمالِ حزنهم؟

- هيا، اصنعي مثلما تريدين، فأنا أراهنُ أنك قد نظمتِ أغنيتك المأتمية، ولا تريدين أن تخسريها.

- كلا، لا يمكنني أن أنظم الغناءَ سلفًا، يا أخي. فأنا أضعُ نفسي أمام الميت، وأفكر بأولئك الذين ظلوا أحياء، فتأتي الدموعُ إلى عيني، فأغني حينذاك ما يخطرُ بذهني.

كان كلٌّ ذلك قد قيل بقدرٍ كبير من البساطة بحيث يستحيلُ على المرءِ أن يفترضَ وجودَ أقلّ حدٍّ من الاعتداد بالقدرة الشعرية لدى الآنسة كولومبا. ولقد امتثل أورسو لإقناعِ شقيقته له، ومضى إلى منزلِ بييتري. كان الميتُ ممدّدًا على منضدة، ووجهه مكشوفًا في أكبر غرفةٍ من غرف المنزل. وكانت الأبوابُ والنوافذ مفتوحةً. وبضعُ شموعٍ تحترقُ حول المنضدة. وكانت أرملةُ الميت تجلسُ عند رأسه، وكان عددٌ كبير من النساء خلفها يشغلن زاويةً كاملةً من زوايا الغرفة. وفي الزاوية الأخرى، كان يصطفُّ الرجالُ، واقفين، وحاسري الرؤوس، وهم يحدقون بالجثة، ويلتزمون الصمت التام. وكان كلُّ زائرٍ جديد يقتربُ من المنضدة، ويقبل الميت، ويحيّي أرملته وابنه بإيماءةٍ من رأسه، ثم يتخذُ مكانًا في الحلقة، من غير أن يتلفظ بأيةِ كلمة. ومن وقتٍ لوقتٍ مع ذلك، كان أحدُ الحاضرين يقطعُ الصمت المهيب ليوجه بعضَ الكلماتِ إلى المرحومِ. وكانت إحدى الثرثارات تقول: لماذا تركتَ زوجتك الطيبة؟ ألم تعنى بك عنايةً جيدة؟ ما الذي كان ينقصك؟ ولماذا لم تنتظر شهرًا آخر، فقد كانت زوجةُ ابنك ستعطيكَ ابنًا؟

وهتف شابٌّ طويلُ القامة، هو ابن بييتري، وهو يشدُّ على يدِ والده الباردة: «أوه! لماذا لم تمت موتًا عنيفًا، إذن لثأرنا لك!».

كانت تلك هي أول الكلمات التي سمعها أورسو، أثناء دخوله، وانفتحت الحلقةُ عند رؤيته، وبيّن همس خفيفٌ أن الناس المجتمعين كانوا بانتظاره، وقد أثارهم حضورُ المنشدة المأتمية، فعانقت كولومبا الأرملةَ، وأمسكت بإحدى يديها، ومكثت بضعَ دقائق في حالةِ تأمل، وعيناها مخفضتان، ثم رمت بخمارها إلى

الوراء، وحدّقت بالميت، وانحنت فوق جثمانه، وهي شاحبةُ الوجه مثله تقريبًا، وبدأت على النحو التالي:

«ياشارل - باتيست! فليتلق المسيحُ روحك! - إن الحياةَ عذاب. وأنت تمضي إلى مكانٍ لا شمسَ فيه ولا برد - ولن تحتاج فيه إلى محطبك - ولا إلى معولك الثقيل - فلم يعد هناك عملٌ بالنسبة لك - ومنذ الآن أصبحت كلُّ أيامك آحادًا - يا شارل - باتيست، فليتلقّ المسيحُ روحك! - إن ابنك يدير المنزل - وقد رأيتُ السنديانةَ تسقط - لقد أيبستها الريح - وظننتُ أنها قد ماتت - ومررتُ من جديد - فكان جذرها قد أنبتَ خلفًا، والخلفُ غدا سنديانةً - ذات ظلالٍ وارفة - وتحت أغصانها القوية - استريحي يا مادوليه، وفكري بالسنديانة التي لم تعد موجودةً».

وهنا بدأت مادلين تنتحبُ بصوتٍ عال، وثمة رجلان أوثلاثة ممن يمكنهم أن يطلقوا النار على المسيحيين بدمٍ بارد مثلما يطلقونها على طيور الحجل، إن عرضت مناسبةٌ لذلك، أخذوا يمسحون دمعاتٍ كبيرةً تسحُّ على وجناتهم المسمرة.

وتابعت كولومبا على ذلك النحوِ لبعضِ الوقت، متوجهةً إلى المرحوم حينًا، وإلى أسرته حينًا آخر. وفي بعض الأحيان، عن طريق تشخيصٍ متكررٍ في النشيد المأتمي تجعلُ الميتَ نفسه يتكلمُ كي يعزي أصدقاءه، أو يقدّم لهم النصائح. وكلما كانت ترتجلُ، كلما كان وجهها يتخذُ تعبيراً سامياً. وكان لونه يصطبغُ بالوردي الشفاف الذي يبرزُ أكثر أيضًا لمعان أسنانها، ونار حدقتيها المتوسعتين، وكأنها عرافة تقف على قدمها الثلاثية. وباستثناء بعضِ الآهات، وبعضِ الانتحابات المخنوقة، لم يكن ممكنًا أن يسمعَ المرءُ أقلَّ همسة في وسط الجمهور الذي كان متراصًّا حولها. ومع أن أورسو كان الرّجلَ الأقل تأثراً بذلك الشعر الوحشي بين الجميع، فقد شعر سريعًا بأن الانفعال العام قد أصابه، وانعزل في زاويةٍ مظلمةٍ من زوايا القاعة، وبكى مثلما يبكي ابنُ بييتري.

فجأةً، سُمعت حركةٌ خفيفة بين المستمعين، وانفتحت الحلقةُ، فدخل بعضُ الرجال الغرباء، وكان من الجليّ، انطلاقًا من الاحترام الذي أبدي لهم، ومن

التعجُّل الذي أظهر في تأمينِ مكانٍ لهم، كان من الجلي أنهم أناسٌ مهمّون، وأن زيارتهم تشرّفُ المنزل على نحوٍ خاص. ومع ذلك، فاحتراماً للغناء المأتمي، لم يوجّه لهم أحدٌ الكلام. وكان يبدو أن أولَ الذين دخلوا هو رجلٌ في الأربعين من عمره. وفي البداية، كان لباسه الأسود، وشريطته الحمراء التي تحمل وردةَ الرتبة، ومظهر السلطة، والثقة اللذان كان وجهه يبرزهما، تجعل المرءَ يخمّن أنه مديرُ الشرطة. وكان يسير خلفه شيخٌ محنيُّ الظهر، ذو لونٍ مصفرّ، ويخفي على نحوٍ سيئ نظرةً خجولةً وقلقة خلف نظارةٍ خضراء. كان يلبسُ رداءً واسعاً أكثر من اللازم على جسمه، ومع أنه لا يزال جديداً، فقد خدَم بضعَ سنواتٍ في الماضي، كما يبدو واضحاً. لقد كان دائماً إلى جانبِ مدير الشرطة، وكأنه يريدُ أن يختبئ في ظله، وأخيراً، دخل بعده، شابان طويلا القامة، أحرقت الشمس بشرتهما، وخدودهما غارقةٌ في لحيةٍ صغيرةٍ كثّة، ويظهر الاعتداد والتعاظمُ في نظرتهما التي كانت تبدي فضولاً وقحاً. وكان أورسو قد اعتاد على نسيانِ ملامح الناسِ في قريته، غير أن رؤيةَ الشيخ ذي النظارة الخضراء قد أيقظت في ذهنه حالاً ذكرياتٍ قديمة. وكان حضوره إلى جانبِ مدير الشرطة كافياً كي يتعرّفه. لقد كان هو المحامي باريّسيني، عمدة بييترانيرا الذي يأتي مع ولديه ليقدّم إلى مديرِ الشرطة عرضاً لنشيد مأتمي. وقد يكونُ من الصعب تحديدُ ما اعتمل في تلك اللحظة، في نفس أورسو، غير أن حضورَ عدوٍّ والده قد سبّب له نوعاً من الشعور بالكراهية. وأكثر من أي وقتٍ مضى، أحس بأنه عرضة للشكوك التي حاربها طويلاً في نفسه.

أما كولومبا، فقد اتخذت ملامحُ وجهها المتبدلة تعبيراً مخيفاً في الحال، لمرأى الرجُل الذي كانت تضمرُ له كراهيةً قاتلةً، فشحب لونها، وغدا صوتها مبحوحاً، وتلاشى البيتُ الشعريُّ الذي بدأته على شفتيها، ولكنها استأنفت نشيدها المأتمي حالاً، وتابعت بحمياً جديدة:

«عندما ينوحُ الصقز-أمام عشه الخالي -تدور الزرازير حوله - محتقرةً ألمه».

وهنا، سمع ضحكٌ مكتوم، وكان صادراً عن الشخصين اللذين وصلا حديثًا بلا شك، لأن الاستعارة كانت شديدةَ الجرأة.

«سوف يستيقظ الصقرُ، وينشر جناحيه - وسوف يغسلُ منقاره بالدم - وأنت، يا شارل - باتيست الذي يوجهُ إليك أصدقاؤك وداعهم الأخير - فقد ذرفوا مايكفي من الدموع. إن اليتيمة المسكينةَ وحدها التي لن تبكيك - ولماذا يمكنُ أن تبكيك - فقد رقدتَ مثقلاً بالأيام - في وسط أسرتك - وهيّئ نفسك للمثول - أمام الكُليّ القدرة - إن اليتيمةَ تبكي والدها الذي باغته قتلةٌ جبناء - وقد ضربوه من الخلف - ضربوا والدها المضرج بدمائه الحمراء، تحت كومة الأوراق الخضراء - غير أنها التقطت دماءه - دماءه النبيلة والبريئة - ونثرته فوق بييترانيرا - كي يغدو سمّاً قاتلاً - ولسوف تبقى بييترانيرا موسومةً - إلى أن يمحو الدمُ الجاني آثار الدم البريء».

حين أنهت كولومبا هذه الكلمات، تركت نفسها تهوي على كرسي، وأسدلت مجدداً خمارها على وجهها، وسمعت وهي تنتحبُ - وهرعت النساءُ الباكيات إلى المنشدة المرتجلة، وأخذ بعضُ الرجال يوجهون نظراتٍ مخيفةً إلى العمدة وولديه، وكان بعضُ الشيوخ يهمسون متذمرين من الفضيحةِ التي أثارها العمدةُ وولداه بحضورهما، وشق ابنُ المتوفي الحشد، وأخذ يتهيأ ليرجو العمدة لإخلاء المكان بأسرعِ ما يمكن. غير أن هذا الأخيرَ لم ينتظر تلك الدعوة، فقد كان متجهاً نحو الباب، وكان ابناه قد وصلا إلى الشارع، فوجه مدير الشرطة بعضَ عباراتِ التعزية للفتى بييتري، ولحق بهم في الحال تقريبًا. أما أورسو، فقد اقترب من شقيقته، وأمسك بذراعها، وسحبها إلى خارج القاعة.

وقال بييتري الفتى إلى بعض أصدقائه:

«رافقوهما، واهتموا بألا يحدث لهما شيء!».

فوضع شابان أو ثلاثة خناجرهم بسرعة في الكمّ الأيسر من سترهم، ورافقوا أورسو وشقيقته حتى باب منزلهما.

الفصل الثالث عشر

كانت كولومبا، المتقطعةُ الأنفاس والمرهقة، غير قادرة على أن تتلفظَ بأية كلمة. وكان رأسها مستنداً إلى كتف أخيها، وتمسك إحدى يديه مشدودةً بين يديها. ومع أنه كان ضمنياً منزعجاً كفاية من خاتمة نشيدها، فقد كان شديد التخوف بحيث لم يكن ممكناً أن يوجه إليها أقلّ لوم. وكان ينتظر بصمت نهايةَ الأزمة العصبية التي كان يبدو أنها قد وقعت فريستها، عندما سُمع قرعٌ على الباب. ودخلت سافيريا مذعورة جداً، وهي تعلن: «السيد مدير الشرطة!» وعندما سمعت كولومبا هذا الاسم، نهضت وكأنها خجلةٌ من ضعفها، ووقفت مستندةً إلى كرسي كانت تهتزّ تحت يدها اهتزازاً واضحاً.

بدأ مديرُ الشرطة يقدّم بعضَ الاعتذارات العادية عن الساعة غير المناسبة لزيارته، ورثى لحال الآنسة كولومبا، وتحدث عن خطر الانفعالات القوية، وأدان عادةَ النواح المأتمي الذي كانت موهبة النواحة نفسها تجعله أشدَّ وطأةً على الحاضرين. ودس بمهارةٍ لوماً خفيفاً على مايهدف إليه الارتجالُ الأخير، ثم غيَّر نبرةَ الحديث، وقال:

«يا سيد ديلا ريبيا، إني مكلفٌ بأن أنقل إليكم الكثير من تحيات أصدقائكم الإنكليز. إن الآنسة نيفيل ترسلُ تحياتها الودية الجزيلة إلى الآنسة شقيقتك، إني أحملُ لكم رسالةً منها، وسأسلمكم إياها.

فهتف أورسو: رسالة من الآنسة نيفيل؟

- إني لا أحملها الآن للأسف، ولسوف تحصلون عليها بعد خمس دقائق، فقد كان والدها مريضاً. وخشينا في وقتٍ ما أن يكون قد أُصيبَ بأحد أنواع الحمى

الرهيبة المنتشرة عندنا. ولحسن الحظ، فها هو قد نجا منها، ولسوف تحكمون على ذلك بأنفسكم، فسترونه بعد قليل، كما أتصور.

- لابدّ أن الآنسة نيفيل قد كانت شديدة القلق؟

- لحسن الحظ أنها لم تعرف بالخطر، إلا عندما ابتعد. إن الآنسة نيفيل، ياسيد ديلا ريبيا قد حدثتني عنك، وعن الآنسة شقيقتك كثيراً.

فانحنى أورسو.

- إنها تحمل الكثير من المودة لكليكما، وهي تخفي تحت مظهرٍ مفعمٍ بالغنج، وظاهرٍ من الخفة تعقلاً كاملاً.

فقال أورسو: إنها امرأةٌ ساحرة.

- لقد أتيت إلى هنا، بناءً على رجاء منها تقريباً، يا سيدي، فلا أحد يعرفُ أفضل مني قصةً مشؤومةً أودُّ ألا أكون مضطراً لتذكيركم بها. وبما أن السيد باريّسيني لايزالُ عمدةَ بييترانيرا، وأنا مديرُ شرطة هذه الدائرة، فلستُ بحاجة إلى تذكيركم بالوزن الذي أقيمه لبعض الشكوك التي اطلعت عليها إطّلاعاً جيداً. وقد أبلغكم بها بعضُ الأشخاص المتهوّرين. وأنا أعلم أنكم قد صددتموهم بالغضب الذي كان لابدّ أن نتوقعه من مركزكم ومن أخلاقكم.

فقال أورسو وهو يتحرّك على كرسيه:

- إنك متعبةٌ جداً ياكولومبا، وينبغي أن تذهبي للنوم.

فأشارت كولومبا إشارة نفيٍ من رأسها، فكانت قد استعادت هدوءَها المعتاد، وهي تحدّق بمدير الشرطة بعينين تقدحان شرراً.

وتابع مديرُ الشرطة قائلاً: «إن السيد باريّسيني يرغبُ رغبةً شديدةً في أن يرى هذا النوعَ من البغضاء قد توقف... أعني هذه الحالة من الارتياب الّتي يجدُ كلٌّ منكم نفسه فيها بمواجهةِ الآخر... وبالنسبة لي، فإني سأكون مبتهجاً إذا

مارأيت أنكم تقيمون فيما بينكم العلاقاتِ التي ينبغي أن تتحقق بين أناسٍ جديرين بأن يقدّر بعضهم البعضَ الآخر . . .

وقاطعه أورسو بصوتٍ منفعل :

- يا سيدي، أنا لم أتّهم قطّ المحامي باريّسيني بأنه قد اغتال والدي، ولكنه قام بعملٍ سيحول دومًا دون إقامة أيةِ علاقةٍ معه، فقد زوَّر رسالةَ تهديدٍ باسم رجلٍ خارج على القانون. . . وعلى أيةِ حال، فقد عزا تلك الرسالة لوالدي خفيةً، ومن المحتمل، يا سيدي، أن تكون تلك الرسالةُ أخيراً هي السببَ المباشر لموته.

فاستغرق مدير الشرطة في التفكير لحظة، وقال :

«أن يكون السيد والدك قد ظنّ ذلك، عندما كان يقدِّم حججه ضد السيد باريّسيني، منساقًا وراءَ حدةٍّ طبعه، فهذا أمرٌ يُعذَرُ عليه. أما من ناحيتك، فإن ضلالاً من هذا النوع ليس مسموحًا. فلتفكّر إذن بأن باريّسيني لم يكن لديه أيةُ مصلحةٍ في تزويرِ تلك الرسالة. . . أنا لا أحدّثُك عن طباعه. . . فأنت لا تعرفها، لأنك متحاملٌ عليه. . . ولكنك لا تفترضُ أن إنسانًا يعرفُ القوانين. . . ».

فقال أورسو وهو ينهضُ :

«ولكن، أرجو يا سيدي أن تفكر بأن قولك لي إن تلك الرسالة ليست من صنع السيد باريّسيني معناه نسبتها إلى والدي، وشرفه، يا سيدي، هو شرفي».

فاستأنف مدير الشرطة قائلاً :

ما من أحد، يا سيدي، مقتنعٌ أكثر مني بنزاهة العقيد ديلا ريبيا. . . ولكن. . . كاتب هذه الرسالة معروفٌ الآن.

فهتفت كولومبا وهي تتقدّم نحو مدير الشرطة : - من هو؟

- رجلٌ حقير، ومدانٌ بعدد من الجرائم. . . وهي من تلك الجرائم التي لاتغفرونها، أنتم الكورسيكيين أيضاً. إنه لصٌّ، ويدعى توماسو بيانشي، وهو معتقلٌ حاليًا في سجون باستيا، وقد كشف أنه كان كاتب تلك الرسالة المشؤومة.

فقال أورسو:

- أنا لا أعرفُ هذا الرجل، فماذا كان يمكن أن يكون هدفه؟

وقالت كولومبا:

- إنه رجلٌ من هذه المنطقة، وشقيقٌ لطحانٍ قديم كان عندنا. إنه رجلٌ شريرٌ وكاذبٌ، وغير جديرٍ بأن يصدَّق.

فتابع مدير الشرطة:

- سوف ترون المصلحة التي كانت له في تلك القضية. إن الطحان الذي تتحدثُ عنه الآنسة شقيقتك - وكان اسمه تيودور، كما أظنّ - كان يستأجرُ من العقيد طاحونةً على المجرى المائي الذي كان السيد باريّسيني ينازع السيد والدكم ملكيّتها. أما العقيدُ الذي كان أريحيّاً كعادته، فلم يكن تقريباً يجني أيَّ ربحٍ تقريباً من طاحونته، وهكذا، فقد ظنّ توماسّو أنه إذا حصل السيد باريّسيني على المجرى المائي، سوف يتعينُ عليه أن يدفع له إيجاراً كبيراً، لأنه من المعروف أن السيد باريّسيني يحبُّ المال كثيراً. وهكذا، فإن توماسو قد زوّر رسالةَ الخارج على القانون كي يصبح شقيقه مديناً له. هذه هي القصة كلها. وأنتم تعلمون أن الروابط الأسرية متينة جداً في كورسيكا بحيث تؤدي إلى الجريمة أحياناً... وتفضلوا بأن تطلّعوا على هذه الرسالة التي يكتبها لي المدعي العام، فهي تؤكد ما قلته لكم منذ قليل.

قرأ أورسو بسرعة الرسالة التي كانت تروي بالتفصيل اعترافاتِ توماسو، وكانت كولومبا تقرأ في الوقت نفسه من فوق كتف شقيقها.

وعندما انتهت من القراءة هتفت:

- لقد ذهب أورلاندوكسيو باريسيني إلى باستيا، منذ شهر، عندما عرف أن أخي سيعود ولا بدّ أنه قد رأى توماسو، واشترى منه هذه الأكذوبة.

فقال مدير الشرطة بنفاذ صبر:

- إنك تفسّرين كلَّ شيء من خلال افتراضات مقيتة، فهل هذه هي وسيلةُ اكتشاف الحقيقة؟ أما أنت، يا سيد، فرابطُ الجأش. وقل لي ما هو رأيك الآن؟ وهل تظنُّ مثلَ الآنسة أن رجلاً لايخشى إلا إدانةً خفيفة، يحمّلُ نفسه جريمةَ تزويرٍ بطيبةِ خاطر كي يخدمَ شخصاً لايعرفه؟

وأعاد أورسو قراءةَ رسالة المدعي العام، وهو يزن كلَّ كلمة فيها باهتمام فائق، فمنذ أن رأى المحامي باريّسيني، أخذ يشعرُ أنه قد أصبح عصيّاً على الاقتناع أكثر مما كان عليه قبل بضعة أيام. وأخيراً، فقد ألفى نفسه مجبراً على الإقرار بأن التفسيرَ قد بدا له مُرضياً، غير أن كولومبا صرخت بقوة:

«إن توماسو بيانشي مخادعٌ، ولن يدان، أو أنه سيهربُ من السجن، أنا متأكدةٌ من ذلك».

فهز مدير الشرطة كتفيه وقال:

«لقد أطلعتك، يا سيدي، على المعلومات التي تلقيتها. وها أنا أنسحبُ وأدعك كي تتفكر في الأمر، وأنتظر أن يكون عقلك قد هداك، وآمل أن يكون أقوى من . . . افتراضات شقيقتك».

وبعد أن قال أورسو بعضَ الكلمات التي يلتمسُ فيها العذرَ لكولومبا، كرّر أنه يظنُّ في ذلك الحين أن توماسو هو المذنبُ الوحيد.

وكان مدير الشرطة قد نهض ليخرجَ، فقال:

«إن لم يكن الوقتَ قد تأخر، فأنا أقترحُ عليك أن تأتي معي لتأخذ رسالة الآنسة نيفيل. . . وفي المناسبة نفسها، يمكنك أن تقول للسيد باريّسيني ماقلته لي منذ قليل، فينتهي كلُّ شيء».

فصرخت كولومبا باندفاع:

- لن يدخل أورسو ديلا ريبيا إلى منزل باريّسيني أبداً!

فقال مدير الشرطة بلهجةٍ ساخرة:

- إن الآنسة هي حاملة جرس[1] العائلة، كما يبدو.

فقالت كولومبا بصوتٍ حازم:

- لقد خدعوك يا سيدي، فأنت لا تعرفُ المحامي. إنه الأكثر مكراً ومخاتلةً بين الرجال، وإني أرجوك ألا تجعل أورسو يقوم بعملٍ يلطخه بالعار.

فصرخ أورسو:

- يا كولومبا، إن العاطفة تضللُكِ عن الصواب.

- يا أورسو! يا أورسو! بحقّ العلبة التي سلمتك إياها، أتوسل إليك أن تصغي إلي. فبينك وبين آل باريسيني دم، ولن تذهبَ إلى منزلهم!

- يا أختي!

- كلا، يا أخي، أنت لن تذهبَ، أو أغادر هذا المنزل، ولن تراني بعد ذلك... ياأورسو، فارأف بي.

وسقطت على ركبتيها.

فقال مديرُ الشرطة:

يؤسفني أن أرى الآنسة ديلا ريبيا قليلة التعقل إلى هذه الدرجة. ولسوف تقنعها، أنا متأكد من هذا. وفتح الباب جزئياً وتوقف، وبدا وكأنه ينتظر أن يتبعه أورسو.

فقال أورسو:

لا يمكنني أن أتركها الآن... وغداً، إذا...

فقال مدير الشرطة:

- سأسافر مبكراً.

---

(١) - يطلقون هذه التسمية على الكبش الذي يحملُ جرساً ويقودُ القطيع. ويعطى هذا الاسم نفسه بصورةٍ مجازية لعضوٍ في العائلة يقودها في كافة القضايا الهامة.

فصرخت كولومبا ويداها مضمومتان :

- على الأقل انتظر يا أخي حتى الصباح الباكر . ودعني أرى أوراق والدي مجدداً . . . لا يمكنك أن ترفض ذلك لي !

- حسنًا ، سترينها هذا المساء ، ولكنك على أية حال لن تعذبيني بعد ذلك بكراهيتك المفرطة . . . فألف عذرٍ ، يا سيدي مدير الشرطة . . . إنني أشعر شخصياً أني متضايق جداً . . . ومن الأفضلُ أن يكون ذلك غداً .

فقال مدير الشرطة ، وهو ينسحب :

- الليلُ يحمل النصح ، وآمل أن تكون كافةُ تردداتك قد انتهت غداً .

فهتفت كولومبا :

- سافيريا ، خذي المصباح ، ورافقي السيد مدير الشرطة ، فلسوف يسلمك رسالة موجهةً إلى أخي .

وأضافت بعضَ الكلمات التي سمعتها سافيريا وحدها .

فقال أورسو ، عندما ذهب مدير الشرطة :

يا كولومبا ، لقد سببتِ لي كثيراً من الضيق ، فهل ستكابرين دائمًا في ماهو بديهي؟

فأجابت :

- لقد أعطيتني مهلةً حتى الغد ، ولدي القليل جداً من الوقت ، غير أنه لايزال لدي أمل .

ثم أخذت مجموعةَ المفاتيح ، وهرعت إلى غرفةٍ في الطابق العلوي ، وهناك سُمعَت وهي تفتح الجوارير بتعجل ، وتفتشُ في مكتبٍ كان العقيد ديلاريبيا يغلق على الأوراق الهامة فيه ، قديمًا .

الفصل الرابع عشر

تغيبت سافيريا مدّة طويلة، وكانت لهفةُ أورسو في أعلى درجاتها حينما ظهرت أخيراً، وهي تمسك برسالةٍ وتتبعها الصغيرةُ شيلينا التي كانت تفركُ عينيها، لأنهم قد أيقظوها عند بداية غفوتها.

وقال أورسو:

أيتها الطفلة، ماذا أتيت تفعلين هنا، في مثل هذه الساعة؟

فأجابت شيلينا: - إن الآنسة تطلبني.

ففكر أورسو: وماذا تريد منها بحق الشيطان؟ ولكنه سارع إلى فضّ رسالة الآنسة ليديا، وفيما كان يقرأ، كانت شيلينا تصعدُ إلى عند شقيقته.

كانت الآنسة نيفيل تقول: كان والدي مريضاً، يا سيدي، وهو فضلاً عن ذلك كسولٌ جداً في الكتابة بحيث صرتُ مضطرة أن أعمل أمينةَ سرٍّ لديه. وفي يومٍ سابق، أنت تعلم أنه قد بلل قدميه على شاطئ البحر، بدلاً من أن يستمتع معنا بالمشهد، ولم يكن يلزم أكثر من ذلك كي يصابَ بالحمى في جزيرتكم الساحرة. أرى الآن تعابير وجهك، إنك تبحثُ بلا شك عن خنجرك. ولكنني آمل أنك لم تعد تحمله. وإذن، فقد أصيب والدي بقليلٍ من الحمى، وأصبت أنا بالكثير من الذعر. أما مديرُ الشرطة الذي لا أزال أجده لطيفًا جداً، فقد أمّن لنا طبيبًا لطيفًا جداً أيضًا وقد أخرجنا، خلال يومين من كربنا. ولم تعد النوبات إلى الظهور، ويريد والدي أن يرجع إلى الصيد، غير أني لا أزال أمنعه منه - كيف وجدتَ قصرك الجبلي؟ وبرج الشمال، هل لايزال في مكانه؟ هل فيه الكثيرُ من الأشباح؟ إني أسألك كلّ هذه الأمور، لأن والدي يتذكّر أنك قد وعدته بصيد الأيائل، والخنازير

البرية، وتيوس الجبل . . . أليسَ هذا هو اسم ذلك الحيوان الغريب؟ وحين نبحر باتجاه باستيا، ننوي أن نطلب منكم الضيافة . وآمل ألا ينهار فوق رؤوسنا قصرُ ديلا ريبيا الذي تقولُ عنه إنه قديمٌ جداً ومتداع . ومع أن مدير الشرطة لطيفٌ جداً إلى درجةٍ لاينقصنا معها أبداً موضوعٌ للحديث[1] By the bye فأنا مزهوةٌ بأني قد فتنته - ولقد تحدثنا عن إقطاعتكم . وقد أرسل إليه رجال القانون في باستيا بعض الاعترافات التي كشفها نذلٌ يحتجزونه في المعقل . وهي اعترافاتٌ من شأنها أن تقضي على آخر شكوك لديك . إن عداوتكم التي كانت تقلقني فيما سبق، ينبغي أن تتوقف منذ الآن . ليست لديك فكرة عن السرور الذي جعلني ذلك الأمر أشعرُ به، فعندما ذهبتَ مع المنشدة الجميلة، وبندقيتك بيدك، ونظرتك قاتمة، بدوت لي كورسيكيًا أكثر من المعتاد . . . وحتى مفرطًا في كورسيكيتك . وأخيراً يكفي! إني أكتب إليك عن الأمر بإسهاب لأني ضجرة . إن مدير الشرطة سيذهب، للأسف! ولسوف نرسل إليكم رسالة حين نسلكُ الطريق باتجاه جبالكم، ولسوف أسمح لنفسي بالكتابة إلى الآنسة كولومبا كي أطلب منها طبخةً ولكنها احتفالية[2]، وبانتظار ذلك، بلّغها الكثير من المودة من جهتي . إني استخدم خنجرها استخداماً عظيمًا، فأنا أقطعُ به أوراقَ روايةٍ جلبتها معي، غير أن ذلك الحديد المخيف ساخطٌ من هذا الاستعمال، وهو يمزق كتابي بصورة تدعو إلى الرثاء، وداعًا، ياسيدي . ووالدي يرسلُ إليك أفضل محبته[3] . ولتُصغِ إلى مدير الشرطة، فهو رجلٌ حسن النّصح، ولسوف يغيّر خط سيره من أجلكم، ويدشن مشروعًا في كورتي . وأتصور أنه سيكون احتفالاً مهيبًا حقًا، وأنا جدّ آسفة على عدم حضوره . سيكون هناك رجلٌ يرتدي لباسًا مطرزًا، وجوارب حريرية، ووشاحًا أبيض، ويمسك بيده مسْحجًا للطين! وسيكون هناك خطاب، ولسوف ينتهي الاحتفال بالهتافات التي ستردّدُ ألف مرة: عاش الملك! - سوف تغترّ حقًا بأنك قد جعلتني أملأ أربع

---

(١) - بالإنكليزية في النص: ومعناها: بالمناسبة أو: الشيء بالشيء يذكر (المورد).

(٢) - بالإيطالية: في النص. (م: ز.ع).

(٣) - بالإنكليزية: في النص . (م: ز.ع).

صفحات، ولكني ضجرةٌ ياسيدي، إني أكرّر لك ذلك، وانطلاقاً من هذا السبب، أسمح لك بأن تكتب لي مطولاً جداً. وبالمناسبة، أجد أمراً غريباً ألا تكون قد أعلمتني بعد بوصولك السعيد إلى بييترانيرا - كاسيل[1].

ليديا

«تذييل: أطلب منك أن تصغي إلى مدير الشرطة، وأن تصنع ما يقوله لك، فقد قررنا معاً أنه يتعين عليك أن تتصرّف على هذا النحو، فذلك سوف يسرّني».

قرأ أورسو ثلاث أو أربع مرات تلك الرسالة، مرفقاً كل قراءة لها بتفسيرات لا حصر لها، ثم أعدّ رداً طويلاً كلّف سافيريا بحمله إلى رجلٍ من القرية كان مسافراً في الليلة نفسها إلى أجاكسيو. ولم يعد يفكر إلا قليلاً بأن يناقشَ مع شقيقته الاتّهامات الموجهة إلى آل باريّسيني. صحيحة كانت أم خاطئة، فقد كانت رسالةُ الآنسة ليديا تجعله يرى كلَّ شيء بلونٍ ورديّ ولم يعد لديه شكوك ولاكراهية حيالهم. وبعد أن انتظر بعضَ الوقت كي تنزل شقيقته ثانية، فلم يرها تعود إلى الظهور، مضى إلى النوم، وقد تخفف من الهمّ الذي كان يحسُّ به منذ زمن طويل.

وبعد أن صرفت كولومبا شيلينا، وقد حمّلتها تعليمات سريةً، أمضت الهزيعَ الأكبر من الليل في قراءةِ أوراقٍ قديمة. وقبل بزوغِ النهارِ بقليل، أُلقيت بعضُ الحصى الصغيرة على نافذتها. وعند تلك الإشارة، نزلت إلى الحديقة، وفتحت باباً سرياً، وأدخلت إلى المنزل رجلين يبدوان بصحةٍ سيئة جداً. فكان أول ما اهتمت به هو أن تقودهما إلى المطبخ، وأن تقدّم لهما الطعام. أما من كان هذان الرجلان، فأمرٌ سنعرفه في الحال.

---

(١) - كاسيل Castel بالإنكليزية معناها: قلعة أي إلى منزل أورسو الذي هو قلعته، كما يقول الإنكليز. (م: ز.ع).

الفصل الخامس عشر

حوالي الساعة السادسة صباحًا، كان أحدُ خدم مدير الشرطة يدقُّ على باب منزل أورسو، فاستقبلته كولومبا. وقد قال لها إن مدير الشرطة يتهيأ للسفر، وإنه ينتظر شقيقها، فأجابت كولومبا من غير تردّد أن أخاها قد وقع عن الدرج، ولوى قدمه، وبما أنه لايستطيعُ أن يسير خطوةً واحدة، فهو يرجو السيد مدير الشرطة أن يعذره، ولسوف يكون ممتنًّا له جداً إذا ما تنازل، وتجشم عناء المرور إلى منزله. وبعد قليلٍ من هذا البلاغ، نزل أورسو وسأل شقيقته إن كان مديرُ الشرطة قد أرسل من يطلبه.

فقالت كولومبا بكلّ رباطة جأش: إنه يرجوك أن تنتظره هنا.

انقضت نصفُ ساعة دون أن تلحظ أيةَ حركةٍ من ناحية منزل آل باريّسيني، ومع ذلك، فقد كان أورسو يسأل كولومبا إن كانت قد اكتشفت شيئًا، فأجابت بأنها سوف توضح رأيها أمام مدير الشرطة، وكانت تتظاهرُ بهدوءٍ كبير، غير أن لون وجهها وعينيها كانت تنبئ باضطرابٍ محموم.

وأخيراً، شوهد باب منزل باريّسيني ينفتحُ، وخرج مدير الشرطة أولاً، وهو يرتدي ملابس السفر، يتبعه العمدةُ وابناه. وكم كان ذهولُ سكان بييترانيرا كبيراً، فقد كانوا منذ شروق الشمس في حالةِ ترقبٍ ليحضروا سفر أول حاكمٍ للدائرة، عندما رأوه يجتازُ الساحة على خطٍ مستقيم، يرافقه آل باريّسيني الثلاثة، ويدخلُ إلى منزل ديلا ريبيا.

فهتف سياسيّو القرية: «إنهم يقومون بالمصالحة!».

وأضاف أحدُ الشيوخ قائلاً: «لقد كنتُ أقول لكم تماماً إن أورس - أنطون قد عاش على اليابسة كثيراً بحيث لا يمكنه أن يُسوي الأمور كما يفعلُ صاحبُ المروءة.

وأجاب أحدُ أنصار ديلاريبيا:

- ومع ذلك، لاحظ أن آل باريّسيني هم الذين يأتون للقائه. إنهم يطلبون العفو.

وردّ الشيخ: - إن مدير الشرطة هو الذي خدعهم جميعًا بكلامه، ولم تعد هناك شجاعة اليوم، ويهتم الشبان بدماء والدهم، وكأنهم هجناء جميعًا.

ولم يفاجأ مدير الشرطة مفاجأة بسيطة عندما وجد أن أورسو واقفٌ، ويسير من غير مشقة فاتهمت كولومبا نفسها بتلك الكذبة بكلمتين، واعتذرت منه عليها، فقالت:

«لو كنتَ ساكنًا في مكانٍ آخر، يا سيدي مدير الشرطة، لكان أخي قد ذهب بالأمس ليقدّم إليك تحياته».

أما أورسو فقد غالى في الاعتذار، متذرّعًا بأنه لا شأن له في تلك الحيلة المضحكة والتي أشعرته بالخزي العميق. وبدا أن مدير الشرطة والعجوز باريّسيني قد صدقا إخلاص تأسفه الذي سوّغه من جهة أخرى، اضطرابه، واللوم الذي كان يوجهه إلى شقيقته، غير أن ابني العمدة قد بَدَوا غير راضيين، فقال أورلاندوكسيو بصوتٍ عالٍ يكفي لأن يُسمع:

إنهم يسخرون منا.

وقال فنسنتلّو:

- لو كانت أختي تتلاعبُ بي بحيل كهذه، لنزعت منها الرغبةَ في أن تكررها سريعًا!

ولم ترق هذه الكلماتُ، واللهجة التي لُفظت بها لأورسو، وجعلته يفقد قليلاً من نواياه الحسنة، فتبادل مع الشابين بارّيسيني نظراتٍ لا يرتسمُ فيها أيُّ حُسن التفات.

ومع ذلك، فقد كان الجميع جالسين، باستثناء كولومبا التي مكثت واقفةً قرب باب المطبخ، فبدأ مدير الشرطة الكلام. وبعد أن أورد بعض الأفكار العامة المتعلقة بما يتعصبُ له مسبقًا في المنطقة، ذكّر بأن معظم العداوات الأكثر تأصلاً لم يكن سببها إلا حالاتُ سوءِ الفهم. ثم توجه إلى العمدة، وقال له إن السيد ديلا ريبيا لم يصدق قط أن أسرة بارّيسيني قد أسهمت مباشرةً، أو بصورةٍ غير مباشرة في الحادثة المؤسفةِ التي حرمته من والده. وأنه في حقيقة الأمر قد احتفظ ببعض الشكوكَ المتصلة بإحدى خصوصيات الدعوى التي كانت موجودة بين العائلتين، وأن ذلك الشكّ يجدُ مسوغاته في غياب السيد أورسو الطويل، وفي طبيعة المعلومات التي تلقاها، وأنه يعدُّ نفسه راضيًا تمام الرضى، بعد أن اتضحت له الأمورُ الآن، عن طريقِ ما كشف التحقيقُ النِّقاب عنه مؤخراً، وهو يرغب في إقامة علاقات صداقة، وحُسنِ جوارٍ مع السيد بارّيسيني وولديه.

انحنى أورسو انحناءةً يبدو عليها الإكراه، وتمتم السيد بارّيسيني ببضعِ كلماتٍ لم يسمعها أحد، ونظر ولداه إلى أخشابِ السقف. تابع مديرُ الشرطة حديثه، وكان يهمُّ بأن يوجه لأورسو الاتفاق المعاكس الذي كان قد طرحه على السيد بارّيسيني، عندما تقدّمت كولومبا برصانةٍ بين الأطراف المتعاقدة، وهي تسحبُ من تحت خمارها بعضَ الأوراق.

وقالت:

«إنه ليسرُّني أكبر السرور حقًّا أن أرى الحرب قد انتهت بين عائلتينا، غير أنه كي تكون المصالحةُ صادقةً، لابدّ من إيضاح كل شيء، وألا يترك أيُّ شيء عرضةً للشك، يا سيدي مدير الشرطة. إن تصريح توماسو بيانشي قد كان مُريبًا بالنسبة لي

عن حق، لأنه صادرٌ عن رجلٍ سيئ السمعة إلى درجةٍ كبيرة، وقد قلتُ إنّ ولديك ربما يكونان قد رأيا ذلك الرجل في سجنِ باستيا.

فقاطعها أورلاندوكسيو:

- هذا خطأ. فأنا لم أره.

فرمقته كولومبا بنظرةِ ازدراء. وتابعت بكثيرٍ من الهدوء الظاهري:

«لقد أوضحتم أن الفائدة التي كان يمكن أن يجنيها توماسّو من تهديدِ السيد باريّسيني باسم خارجٍ على القانون مرهوب الجانب، هي في وجود رغبةٍ لديه في الاحتفاظ بالطاحونة لشقيقه وهي الطاحونة التي كان والدي يؤجّره إياها بأجرةٍ منخفضة؟...

فقال مديرُ الشرطة:

- هذا بديهي.

وقال أورسو وقد خدعته لهجةُ الاعتدال عند شقيقته:

- إن كلّ شيء يتضحُ طالما يتعلقُ الأمرُ بشخصٍ حقيرٍ من مثل بيانشي الذي يبدو أنه كذلك.

وتابعت كولومبا التي أخذت عيناها تلتمعان ببريقٍ أشدّ:

- إن الرسالة المزوّرة مؤرّخة في ١١ تموز، وكان توماسو آنذاك في منزل أخيه في الطاحونة.

فقال العمدةُ بشيءٍ من القلق:

- نعم.

وهتفت كولومبا بلهجةٍ منتصرةٍ:

- وأيةُ مصلحة كانت لبيانشي إذن في ذلك؟ فقد انقضت مدةُ استئجارِ أخيه للطاحونة، وكان والدي قد صرفه من الخدمة في الأول من تموز. هذا هو سجلٌّ

والدي، والنسخة الأصلية من وثيقة الصرف، ورسالةُ رجلِ أعمالٍ من أجاكسيو يقترح علينا طحانًا جديدًا.

وسلّمت مدير الشرطة الأوراق التي كانت تحملها في يدها، أثناء حديثها.

لقد أصيب الجميعُ بالدهشة للحظةٍ من الزمن، وشحب لونُ العمدة بشكلٍ ملحوظ.

أما أورسو الذي قطّب حاجبه، فقد تقدّم كي يطلع على الأوراق التي كان مدير الشرطة يقرؤها بكثيرٍ من الاهتمام.

وهتف أورلاندوكسيو مجدداً وهو ينهض غاضبًا:

«إنهم يسخرون منا فلنذهب من هنا، يا أبي، فلم يكن ينبغي لنا أن نأتي إلى هنا قط! . . .».

وكانت لحظةٌ من الزمن كافيةً كي يستعيد باريّسيني برودةَ أعصابه، فطلب أن يعاين الأوراق، فسلّمه إياها مديرُ الشرطة من غير أن يقول أية كلمة. حينئذٍ، رفع نظارته الخضراء على جبينه واستعرضها بهيئة تنمُّ عن عدمِ الاهتمام، فيما كانت كولومبا تلاحظه بعيني نمرةٍ ترى أيّلاً يقترب من عرين صغارها.

وقال السيد باريّسيني، وهو يخفض مجدداً نظارته، ويعيدُ الأوراق إلى مدير الشرطة:

– ولكن توماسو . . . الذي كان يعرفُ طيبةَ المرحوم السيد العقيد . . . قد فكر . . . لابدّ أنه قد فكر أن العقيدَ سيرجعُ عن قراره في صرفه من خدمته . . . وفي واقع الأمر، فقد بقيت الطاحونةُ بحوزته، وإذن . . .

فقالت كولومبا بلهجةٍ مزدرية:

– أنا التي حافظتُ له عليها، فكان والدي قد مات، وكان عليَّ، في وضعي، أن أتدبر أمورَ زبائن عائلتي.

فقال مديرُ الشرطة:

- ومع ذلك، فتوماسو يعترفُ بأنه هو الذي كتبَ الرسالة... هذا واضح.

فقاطعه أورسو قائلاً:

- ماهو واضحٌ بالنسبة لي، هو أن هناك أعمالاً شائنةً خفيةً في كلّ هذه المسألة.

وقالت كولومبا:

- لديّ أيضًا ما أعارضُ به زعمَ هؤلاء السادة.

وفتحت بابَ المطبخ، فدخل في الحال إلى القاعة براندولاكسيو، والمجازُ في اللاهوت والكلبُ بروسكو. وكان الخارجان على القانون أعزلين من السلاحِ الظاهرِ على الأقل. وكانا يضعان نطاقَ الرصاص على وسطهما، ولكنهما لايحملان الخنجر الذي هو مكملٌ ضروري، عندما دخلا إلى القاعة، نزعا قبعتيهما باحترام.

يمكننا أن نتصورَ التأثيرَ الذي أحدثه ظهورهم المفاجئ. وكاد العمدةُ يسقطُ على قفاه، فاندفع ابناه بجسارةٍ أمامه، وهما يضعان يديهما في ردائهما، ليمسكا بخنجريهما، وقام مديرُ الشرطةِ بحركةٍ باتجاه الباب، فيما صرخ أورسو في وجه براندولاكسيو، وهو يمسكُ به من قبته:

- ماذا أتيتَ تفعل هنا، أيها الحقير؟

فصرخ العمدة، وهو يحاولُ فتحَ الباب:

- هذا كمين!

ولكن سافيريا كانت قد أغلقت البابَ من الخارج بدورتين، بناءً على أمرِ قاطعي الطريق، كما عُرِفَ ذلك فيما بعد.

وقال براندو لاكسيو: أيها الناسُ الطيبون! لاتخافوا مني، فأنت لستُ شريراً، بقدر ما أنا أسود اللون. ليس لدينا أيةُ نيةٍ سيئة. إني خادمك، حقًّا، ياسيدي مدير الشرطة، وتلطَّفْ بي يا سيدي الملازم، فأنت تخنقني - فقد أتينا إلى هنا كشهود. هيا، تكلّم، أنت، أيها الخوري، فأنت طلقُ اللسان جداًّ.

فقال المُجاز:

- ياسيدي مدير الشرطة، لم أتشرّف بأن أكون معروفًا لديكم، فأنا أدعى جيوكانتو كاستريكوني، ومعروفٌ أكثر باسم الخوري... آه! أتتذكرني! إن الآنسة التي لم يكن لي حظ معرفتها أيضًا قد أرسلت ترجوني أن أقدّم إليها معلومات عن المدعو توماسو بيانشي، والذي كنت معتقلاً معه، منذ ثلاثة أسابيع، في سجون باستيا، وإليكم ما الذيّ من أمورٍ أقولها لكم...

فقال مديرُ الشرطة:

- لا تكلف نفسك هذا العناء، فليس يلزمني شيء أسمعه من رجلٍ مثلك... ياسيد ديلا ريبيا، أتمنى أن يكون ظني في محلّه، وألا يكون لك ضلع في هذه المؤامرة البغيضة. ولكن، هل أنت سيّدٌ في بيتك؟ فلتأمر بفتح هذا الباب، ولربما يكون على شقيقتك أن تقدم الحسابَ عن علاقاتها الغريبة مع الخارجين على القانون.

فهتفت كولومبا:

- يا سيدي مدير الشرطة، تنازل واسمع ما سيقوله هذا الرجل. فأنت هنا كي تقيمَ العدلَ بين الجميع، وواجبك هو البحثُ عن الحقيقة، فتكلَّم ياجيوكانتو كاستريكوني.

فصرخ آل باريّسيني الثلاثة معًا:

- لاتصغ إليه!

فقال الخارجُ على القانون وهو يبتسم:

- لن نصل إلى التفاهم، إذا تكلم الجميع في الوقت نفسه. ففي السجن إذن، كان رفيقي، وليس صديقي، هو ذلك الشخص المدعو توماسو، وكان يستقبل زيارات متكرّرة من السيد أورلاندوكسيو. . .

فصرخ الأخوان معًا:

- هذا غير صحيح.

فبيّن كاستريكوني ببرود:

- إن نفيين يعادلان إثباتًا. كان توماسو يمتلك المال! كان يأكلُ ويشرب من أجود الأصناف. ولطالما أحببتُ الطعام الجيد (وهذه هي أصغرُ نقائصي)، وبرغم نفوري من مخادنة ذلك الرجل الغريب الأطوار، فقد كنتُ استسلمُ لرغبة القبول بتناول العشاء معه عدداً من المرات، وكنت أعرضُ عليه، إقراراً مني بالجميل، أن يهرب معي. . . فهناك فتاةٌ صغيرة. . . كنتُ طيباً معها فيما سبق، قد زوّدتني بالوسائل. . . أنا لا أريد أن أعرض أحداً للخطر. لقد رفض توماسو، وقال لي إنه متأكدٌ من قضيته، وإن المحامي باريّسيني قد أوصى كلّ القضاة بها، وإنه سيخرج من هناك، أبيض كالثلج، والنقود تملأ جيوبه. أما أنا فظننتُ أنه ينبغي لي الخروجُ إلى الهواء الطلق. DiXi[1].

فردّد أورلاندوكسيو بحزم:

- إن كلّ ما قاله هذا الرجل هو كومةٌ من الأكاذيب، ولو كنا في أرضٍ مكشوفة، وكلٌ منا يحمل بندقية، لما تكلّم على هذا النحو.

فصرخ براندولاكسيو:

- هذه حماقة من الحماقات! يا أورلاندوكسيو، لاتختلف مع الخوري.

وقال مدير الشرطة وهو يخبط بقدمه الأرض، بسبب نفاذ صبره: ألن تتركني أخرج أخيراً يا سيد ديلا ريبيا؟

(١) - باللاتينية معناها: قلتُ، أي أن المتكلم قد قدّم كل مالديه من حجج في مرافعته. (م: ز.ع).

فصرخ أورسو :

- سافيريا! يا سافيريا، افتحي الباب، وإلى الشيطان!

فقال براندولاكسيو :

- انتظر لحظة، علينا أن نذهب نحن أولاً من ناحيتنا، فمن المعمول به ياسيدي مدير الشرطة، عندما يجري اللقاءُ بين أصدقاء مشتركين أن يعطي الناس بعضهم بعضاً نصف ساعةٍ كهدنة، عندما يفترقون.

فرمقه مديرُ الشرطة بنظرةِ ازدراء.

وقال براندولاكسيو :

«أنا خادمٌ للجماعة كلها».

ثم مدّ ذراعه أفقيًّا، وقال لكلبه :

- هيا، يا بروسكو، اقفز من أجل السيد مدير الشرطة!

فقفز الكلب، واستعاد الخارجون على القانون أسلحتهم من المطبخ، وهربوا عبر الحديقة، وعندما انطلقت صفرة حادة، انفتح بابُ القاعة، وكأن ذلك بفعل السحر.

وقال أورسو بغضبٍ كامن :

«يا سيد باريّسيني، أعدكَ مزوّراً، ومنذ الآن، سأرسل شكواي ضدكَ إلى مدّعي الملك بموضوع تزويرٍ وتواطؤ مع بيانشي. وقد يكون لدي أيضاً شكوى أقدّمها ضدك أشدّ فظاظة».

فقال العمدة :

- وأنا يا سيد ديلا ريبيا، سأقدمُ شكواي ضدك بموضوعِ نصبِ كمين، وتواطؤ مع خارجين على القانون، وبانتظار ذلك، سوف يوصي بك السيد مديرُ الشرطة إلى رجال الشرطة.

فقال هذا الأخير بلهجةٍ شديدة :

- إن مدير الشرطة سيقوم بواجبه ، وسوف يحرصُ على ألا يتعكر الأمنُ في بييترانيرا ، وسيهتم بإقامةِ العدل ، وإني أتكلم إليكم جميعًا ، أيها السادة .

كان العمدة وفنستلّو قد أصبحا خارج القاعة . أما أورلاندوكسيو فقد كان يتبعهما وهو يسير القهقرى ، عندما قال له أورسو بصوتٍ خفيض :

«إن والدك عجوزٌ سوف أسحقه بصفعةٍ ، أما أنت فسأتولى أمرك ، أنت وشقيقك ، وكردٍّ على هذا ، سحب أورلاندوكسيو خنجره ، وانقض على أورسو كالمسعور ، ولكن كولومبا ، قبل أن يتمكن من استخدام سلاحه ، أمسكت بذراعه التي لوتها بقوة ، فيما كان أورسو يضربه بقبضته في وجهه ، ويجعله يتراجعُ بضعَ خطوات ، ويصطدم اصطداماً شديداً بإطار الباب . وأفلت الخنجر من يد أورلاندوكسيو ، أما فنستلّو ، فقد كان يحمل خنجره بيده ، ودخل إلى الغرفة ، عندما قفزت كولومبا إلى البندقية وأثبتت له أن المعركة ليست متعادلةً . وفي الوقت نفسه ، ألقى مديرُ الشرطة بنفسه بين المتقاتلين .

وصرخ أورلاندوكسيو ، وهو يسحبُ بابَ القاعةِ بعنف ويغلقه بالمفتاح كي يمنح نفسه وقتاً للانسحاب :

«إلى اللقاء قريبًا ، يا أورس - أنطون ! » .

مكث أورسو ومديرُ الشرطة ربع ساعة من غير كلام ، وكلٌّ منهما في أحدِ جانبي القاعة . أما كولومبا التي كان اعتدادُ النصر مرسومًا على جبينها ، فكانت تتأملهما بالتناوب ، وهي تستند إلى بندقيتها التي كانت قد حسمت النصر .

وهتف مدير الشرطة أخيراً وهو ينهضُ باندفاع :

«أيُّ بلد هذا ! أيّ بلد ! لقد أخطأت يا سيد ديلا ريبيا ، وإني أسألك كلمة شرف أن تمتنع عن كلّ عنف ، وأن تنتظرَ أن تحسم العدالة هذه القضيةَ اللعينة .

- نعم، يا سيدي مدير الشرطة. لقد أخطأتُ في ضربِ هذا الحقير، ولكني ضربته أخيراً، ولا يمكنني أن أمنع عنه ذلك الرضى الذي طلبه مني.

- إيه، كلا. إنه لا يريدُ أن يتقاتل معك. غير أنه إذا ما اغتالك... فقد فعلتَ كلَّ مايلزم من أجل ذلك.

فقالت كولومبا: سوف نحترس.

وقال أورسو إن أورلاندوكسيو يبدو لي فتى شجاعًا، وإني أتفاءلُ به خيراً، يا سيدي مدير الشرطة، فلقد كان سريعًا في سحب خنجره. ولكني لو كنت مكانه، لتصرفتُ ربما بالطريقة نفسها. وإني سعيدٌ ألا يكون لشقيقتي قبضةُ فتاةٍ متأنقة.

فصرخ مدير الشرطة: لن تتقاتلوا! إني أمنعكم من ذلك.

- اسمح لي أن أقول يا سيدي إني في موضوع الشرف لا أعترفُ إلا بسلطةٍ واحدة هي سلطةُ ضميري.

- أقول لك إنكم لن تتقاتلوا!

- يمكنك أن تأمر بتوقيفي ياسيدي... أعني إذا ما سمحت لكم بالقبضِ عليّ، ولكن إذا حدث هذا، فلن تفعلوا أكثر من تأجيلِ مشكلةٍ أصبحت الآن محتمة الوقوع. إنك رجلٌ شريف، يا سيدي، مدير الشرطة، وتعلمُ جيداً أنه لايمكن أن يكون الأمر خلافَ ذلك.

وأضافت كولومبا:

- إذا ما أمرت بتوقيف أخي، فإن نصفَ القرية سوف ينحاز إليه، وقد نرى تراشقًا بالرصاص شديداً.

وقال أورسو:

- إني أعلمك مسبقًا يا سيدي، وأتوسل إليك بألا تظن بأني أتحدّى، وأحيطك مسبقًا علمًا بأنه إذا ما أساء السيد باريّسيني استخدامَ سلطته كعمدة كي يأمر بتوقيفي، فلسوف أدافعُ عن نفسي.

فقال مدير الشرطة:

- منذ اليوم، يعدُّ السيد باريّسيني موقوفًا عن أداء مهامه... ولسوف يبرِّرُ مسلكه، كما آمل... ولكن أمرك يا سيّدي يهمني. وما أطلبه منك هو أمرٌ بسيط حقًّا. امكثْ في منزلك هادئًا إلى حين عودتي من كورتي، فلن أتغيبَ إلا ثلاثة أيام. وسوف أعودُ برفقة مفوض الملك، وسنحلُّ حينذاك هذه المشكلة المحزنة حلاً كاملاً، فهل تعدني بأن تمتنعَ حتى ذلك الوقت عن القيام بأيّ عمل عدائي؟

- لا يمكنني أن أعدك بذلك يا سيدي، إذا ما طلب أورلاندوكسيو ملاقاتي، كما أظن.

- كيف! ياسيد ديلا ريبيا، أنت العسكري الفرنسي، تريد أن تتقاتل مع رجلٍ تشك بأنه مزوِّر.

- لقد ضربته، يا سيدي.

- ولكن، إذا ما ضربت محكومًا بالأشغال الشاقة، وطلب منك تعويضًا عن إهانته، فهل تتقاتل معه؟ هيا، يا سيد أورسو! حسنًا، إني أطلبُ إليك أقل من ذلك أيضًا. لا تبحث عن أورلاندوكسيو... وإني أسمح لك بأن تتقاتل معه إذا طلب ملاقاتك.

- سوف يطلبُ مني ذلك، وأنا لا أشك بهذا. غير أني أعدك بألا أوجه إليه صفعاتٍ أخرى كي أدفعه إلى القتال.

وكان مدير الشرطة يردّد، وهو يتمشى بخطواتٍ كبيرة:

- أي بلد هذا! ومتى أرجع إلى فرنسا إذن؟

وقالت كولومبا بصوتها الشديد النعومة :

– يا سيدي مدير الشرطة، لقد تأخر الوقت، فهل تشرِّفُنا بتناولِ الغداء معنا؟

ولم يستطع مديرُ الشرطة أن يمنع نفسه من الضحك :

– لقد مكثتُ وقتًا أكثر من اللازم هنا، حتى الآن . . . وهذا يشبه الانحياز . . . يالهذه الصخرة اللعينة[1]! . . . يجب أن أذهب . . . يا آنسة ديلا ريبيا . . . فأية مصائب قد هيأتم اليوم ربما؟

– يا سيدي مدير الشرطة، ستعترفُ على الأقل لأختي بحقها في أن تصدقَ بأن قناعاتها عميقة، وأنا متأكد الآن من أنك شخصيًا تراها راسخةً حقًا .

فقال مديرُ الشرطة وهو يلوح لأورسو :

– وداعًا، يا سيدي، أعلمك بأني سأعطي الأمر إلى عريف الشرطة ليلاحق كافة تصرفاتك .

وعندما خرج مديرُ الشرطة، قالت كولومبا :

«أنت يا أورسو، لستَ على اليابسة هنا، وأورلاندوكسيو لا تهمه مبارزتك في شيء . زد على ذلك أن ذلك الحقير لاينبغي أن يموت ميتةَ الشجعان .

– يا كولومبا، ياعزيزتي الطيبة، إنك المرأة القوية، وأنا مدينٌ لك بالكثير لأنك أنقذتني من طعنة خنجرٍ قوية . أعطني يدك الصغيرة كي أقبلها، فهيا، دعيني أفعل، فثمة بعض الأشياء التي لا تدركينها . قدّمي لي الغداء، وحالما ينطلقُ مدير الشرطة، أحضري الصغيرة شيلينا التي يبدو أنها تنفذ المهمات التي توكل إليها بشكلٍ رائع، فلسوف أحتاج إليها لتحمل لي رسالة .

وفيما كانت كولومبا تراقبُ تحضيراتِ الغداء، صعد أورسو إلى غرفته، وكتب البطاقة التالية :

---

(١) – يقصد كورسيكا، كما أظن (م: ز.ع).

«لا بدّ أنك متعجلٌ للاقاتي، ولست أقل تعجلاً منك، فغداً صباحاً، يمكننا أن نلتقي في الساعة السادسة، في وادي أكوافيفا. إني ماهرٌ جداً بالمسدس، ولا أقترح عليك هذا السلاح. ويُقال إنك ترمي جيداً بالبندقية، فليأخذ كلٌّ منا بندقيةً وطلقتين. ولسوف آتي برفقة رجلٍ من هذه القرية. وإذا كان شقيقك يريدُ مرافقتك، فخذ شاهداً ثانياً، وأخبرني بذلك، ففي تلك الحالة فقط يكون لي شاهدان».

«أورسو أنطونيو ديلا ريبيا»

بعد أن مكثَ مدير الشرطة ساعةً عند معاون العمدة، وبعد أن دخل لبضعِ دقائق إلى منزل آل باريّسيني، ذهب إلى كورتي، يرافقه شرطي واحد. وبعد ربعِ ساعة، حملت شيلينا الرسالة التي قرأناها منذ قليل، وسلمتها إلى أورلاندوكسيو يداً بيد.

تأخر الردُّ عن الوصول، ولم يأتِ إلا في السهرة، وكان موقّعاً من السيد باريّسيني الأب، وكان يعلنُ فيه لأورسو أنه سيُحيل إلى مفوض الملك رسالةَ التهديد الموجهة لابنه «وأضاف في نهايةِ الردّ قائلاً: إرضاءً لضميري، انتظر أن تصدر العدالةُ حكمها بافتراءاتك».

ومع ذلك، فقد وصل خمسةٌ أو ستةُ رعاة استدعتهم كولومبا كي يقوموا بتجهيز برج آل ديلا - ريبيا وبرغم احتجاجات أورسو، فقد تمّ إحداثُ فتحاتٍ لإطلاق النّار في النوافذ التي تطلُّ على الساحة، وتلقى أورسو، طيلة السّهرةِ عروض خدمةٍ من شخصيّاتٍ مختلفة في القرية، وحتى أن رسالة قد وصلت من اللاهوتي الخارج على القانون، والذي كان يعد باسمه وباسم براندولاكسيو بالتدخل إذا ما لجأ العمدةُ إلى الاستعانة بالشرطة، وأنهى رسالته بالتذييل التالي: «هل أجرؤ على أن أسألك عن رأي السيّد مدير الشرطة بالتدريب الممتاز الذي يدرّب به صديقي الكلب بروسكو؟ فبعد شيلينا، لا أعرفُ تلميذاً أكثر منه طاعةً، وأكثر إبداءً لاستعدادات ناجحة».

الفصل السَّادس عشر

انقضى اليوم التالي من غير أعمال عدائية. وكان الجانبان، من هنا ومن هناك، يقفان موقفاً دفاعياً. ولم يخرج أورسو من منزله. وبقي بابُ منزل آل باريّسيني موصداً على الدوام. وكان الناسُ يرون رجال الشرطة الخمسة الذين تُركوا لحراسة موقع بييترانيرا وهم يتجولّون في الساحة، أو على مشارف القرية، يساندهم ناطورُ الحقول الذي يمثل وحده الحرس المدني. ولم يكن معاونُ العمدة يتركُ وشاحه، بيد أنه لم يكن هناك ما يدلُّ على الحرب، باستثناء فتحات الإطلاق على نوافذِ المنزلين المتعاديين. كان يمكن لكورسيكيّ فقط أن يلاحظ أنه لم تكن تُرى إلا النساءَ، في السّاحة، وحول السنديانة الخضراء.

وفي ساعةِ العشاء، أرت كولومبا أخاها بفرحٍ رسالةً كانت قد تلقّتها منذ قليل من الآنسة نيفيل:

«عزيزتي الآنسة كولومبا، أعلم بكثيرٍ من السرور، من خلال رسالةٍ بعث بها أخوك أن عداوتكم قد انتهت. فتقبّلوا تهنئتي على ذلك. إن والدي لم يعدْ يحتمل أجاكسيو منذ أن غادرها أخوك، ولم يعد يتحدث معه عن الحرب والصّيد. نحن مسافران اليوم، ولسوف نذهب لننام في منزل قريبتكم التي نحملُ إليها رسالة. وبعد غدٍ، حوالي السّاعة الحادية عشرة، سآتي لأسأل عنك، من أجل تذوُّقِ طبخ الجبال الذي يفوقُ بكثير طبخ المدينة، كما تقولون.

وداعًا، يا عزيزتي الآنسة كولومبا.

صديقتك

ليديـا نيفيل

فصرخ أورسو :

«إنها لم تتلقّ إذن رسالتي الثانية» .

– أنت ترى، بناءً على تاريخ رسالة الآنسة ليديا، أنها من المفروض أن تكون في طريقها إلينا، عند وصول رسالتك إلى أجاكسيو . هل كنت تقول لهما إذن ألا يأتيا؟

– كنت أقول لها إننا في حالة حصار، وليس هذا الموقف مناسبًا لاستقبال الناس، كما يبدو لي .

– عجبًا، إن هؤلاء الإنكليز قومٌ غريبون، فقد كانت تقول لي، أثناء الليلة الأخيرة التي أمضيناها في غرفتها أنها ستكونُ مستاءة إذا ما غادرت كورسيكا من غير أن ترى عملية ثأر جميلة . فإذا أردت، يا أورسو، يمكننا أن نقدّمَ إليها مشهد هجومٍ على منزلِ أعدائنا؟

– هل تعلمين، يا كولومبا أن الطبيعة قد أخطأت حين صنعت منك امرأةً، فقد كان يمكن أن تكوني عسكريًا ممتازًا .

– ربما، وعلى أيةِ حال، سوف أعدُّ طبخي .

– لا فائدة من ذلك، يجب أن نرسل أحدًا ليخبرهم بالأمر، ويوقفهم قبل أن ينطلقوا .

– نعم؟ ماذا تقول؟ أتريد أن تبعث رسولاً في مثل هذا الطقس كي يحمله السيل هو ورسالتك . . . كم أرثي لحال هؤلاء الخارجين المساكين على القانون، في مثل هذه العاصفة!

لحسن الحظ أن لديهم بيلوني Piloni[1] جيد، وهل تعلم ماذا ينبغي أن نفعل يا أورسو؟إذا توقفت العاصفة . اذهب غداً مبكرًا جداً . ولتصل إلى منزل قريبتنا قبل أن يكون أصدقاؤنا قد انطلقوا على الطريق . سوف يكونِ هذا سهلاً عليك،

(١) – هو معطفٌ من الجوخ سميك جدًا، ومجهز بغطاء للرأس .

فالآنسة ليديا تستيقظ متأخرة دومًا. ولسوف تحكي لهم عما حدث عندنا. وإذا ما أصرّوا على المجيء، فلسوف يسرُّنا كثيرًا أن نستقبلهم.

وسارع أورسو لإعطاء موافقته على هذا المشروع، فاستأنفت كولومبا بعد بضع لحظاتٍ من الصمت:

«ربما تظنَ، يا أورسو، أني كنت أمزح، حين كنت أحدثك عن هجومٍ على منزل باريّسيني؟ هل تعلم أننا نحن الأقوى. اثنان ضدّ واحد على الأقل؟ فمنذ أن أوقف مديرُ الشرطة العمدةَ عن مهامه، أصبح كلُّ الرجالِ هنا إلى جانبنا. ويمكننا أن نمزقهم. وسيكون من السهل البدءُ بالعملية. فإذا مارغبت، أذهب إلى المنهل، وأسخرُ من نسائهم، فيخرجون... ربما... فهم جبناء إلى حدٍّ كبير! ولربما يطلقون النار عليّ من خلال فتحات نوافذهم، وقد يخطئونني، فيكون كلُّ شيء قد اتُّفق عليه حينذاك، فهم الذين يهاجمون. وبئس المصير للمهزومين: فأين يمكن العثورُ على من ضربوا ضربتهم الموفقة في شجارٍ ما؟ صدّق أختَك يا أورسو؟ إن ذوي الأردية السوداء الذين سيأتون سيملأون الورق كتابة، ويقولون الكثير من الكلمات التي لاطائل منها. ولن ينتج منها شيءٌ، فالثعلب العجوز يجدُ وسيلةً تجعلُهم يرون النجوم في عزّ الظهر. آه! لو أن مدير الشرطة لم يضع نفسه أمام فنستتلّو لنقص عددهم واحداً».

لقد قيل كلُّ هذا ببرودة الأعصاب نفسها التي كانت كولومبا تسوقُ بها الحديثَ قبل لحظة، حين تكلمت عن تحضيرات الطبخ.

أما أورسو الذي أخذته الدهشةُ فقد كان ينظرُ إلى شقيقته بإعجابٍ ممزوجٍ بالخشية.

فقال وهو ينهضُ عن المائدة:

يا عزيزتي الرقيقة كولومبا. أخشى أن تكوني الشيطان بذاته، ولكن اطمئني. إذا لم أتوصل إلى جعلِ آل باريّسيني يشنقون، فسأجد وسيلةً لأصل إلى

إتمام ذلك بصورة أخرى، سواء بالرّصاصة السّاخنة، أو بالحديد البارد. أترين إني لم أنسَ اللغة الكورسيكية.

فقالت كولومبا وهي تبتسم:

- كلما كان الأمر أبكر، كلما كان أفضل. أيّ جوادٍ ستمتطي غداً، ياأورس - أنطون؟

- الأسود. لماذا تسألينني عن ذلك؟

- كي نقدّم له الشعير.

بعد أن اختلى أورسو في غرفته، أرسلت كولومبا سافيريا والرعاة ليناموا، وبقيت وحدها في المطبخ الذي كان يحضّر الطبخ فيه. ومن وقتٍ لوقت، كانت تصيخُ السمع ويبدو وكأنها تنتظر بنفاذ صبر أن يغفو أخوها. وعندما ظنّت أخيراً أنه قد نام، أخذت سكيناً، وتأكدت من أنه قاطعٌ، ووضعت قدميها الصغيرتين داخل حذاءٍ ضخم، ومن غير أن تحدثَ أدنى ضجة، دخلت إلى الحديقة.

كانت الحديقة المسورةُ بالجدران تحاذي أرضاً واسعةً إلى حدٍّ كاف، ومحاطةً بالأسيجة التي توضعُ فيها الجيادُ، لأن الجياد الكورسيكية قلما تعرفُ الإسطبلات، وبصورةٍ عامة، يجري إفلاتها في حقل، ويُترك الأمرُ لفطنتها في العثورِ على ماتغتذي به، وفي الاحتماء من البرد والمطر.

فتحت كولومبا باب الحديقة بالحذر ذاته، ودخلت إلى الأرض المسيّجة، وصفرت صفرةً ناعمةً فاجتذبت إليها الجياد التي كانت تحمل إليها غالباً الخبز والملح. وما إن أصبح الحصانُ الأسودُ في متناول يدها، حتى أمسكته بقوةٍ من عرفه، وشقّت أُذنه بسكينها، فقفز الحصانُ قفزةً رهيبة مطلقاً للأسماع تلك الصرخة الحادة التي ينتزعها الألمُ الحادّ أحياناً من الحيوانات التي هي من جنسه. فشعرت كولومبا حينها بالارتياح، ودخلت إلى الحديقة، عندما فتح أورسو النافذة وصرخ: من هناك» وفي الوقت نفسه، سمعت أنه يلقمُ بندقيته، ولحسن حظها، فقد كان

بابُ الحديقة في عتمة تامة، وكانت شجرةُ تينٍ كبيرة تغطيه جزئيًا. واستنتجت في الحال أنه كان يسعى إلى إعادة إشعال المصباح، بناءً على الأضواء المتقطعة التي رأتها تلمعُ في غرفة أخيها، فسارعت حينذاك إلى إغلاق باب الحديقة، وانزلقت على طول الجدران بحيث اختلطت بدلتها السوداء مع أوراق التعريشة العاتمة. وتوصلت إلى الدخولِ إلى المطبخ قبل أن يظهر أورسو ببضع لحظات.

وسألته:

«ماذا هناك؟»

فقال أورسو: «بدا لي أن أحدًا قد فتح الباب».

– غير ممكن. كان الكلبُ سينبحُ. وعلى أية حال، فلنذهب لنرى.

قام أورسو بدورته في الحديقة، وبعد أن تبين له أن البابَ الخارجي كان مغلقًا بشكل جيد، شعر ببعضِ الخجل من ذلك الاستنفار الكاذب، وتهيّأ للعودة إلى غرفته.

وقالت كولومبا:

أحبّ أن أرى أنك قد أصبحتَ حذرًا، كما ينبغي أن يكون المرءُ في مثل وضعك.

فأجاب أورسو:

«أنت تدربينني، مساءً سعيدًا».

وفي الصباح، كان أورسو قد نهض عند الفجر، وهو مستعدٌ للذهاب، وكانت بدلته تظهر في آنٍ واحد نُشدانَ الأناقةِ عند رجلٍ سوف يمثُلُ أمام امرأةٍ يرغبُ في أن يروق لها، وحذر كورسيكي في حالةِ ثأر. ففوق معطفٍ أزرق، مشدودٍ إلى القامة بشكل جيد، كان يتوشح بعلبةٍ صغيرة من الحديد الأبيض تحتوي خرطوشًا، وهي معلقةٌ بشريطٍ من الحرير الأخضر. وكان خنجره موضوعًا في

جيب جانبي، ويحمل في يده بندقية المانتون الجميلة المعبأة بالرصاص. وفيما كان يتناولُ على عجلٍ فنجاناً من القهوة صبته له كولومبا، كان أحدُ الرعاة قد خرج ليسرجَ الجواد، ويرسنه، وتبعه أورسو وشقيقته عن كثبٍ، ودخلوا إلى الأرض المسيجة. كان الراعي قد قبض على الجواد، ولكنه ترك السرج والمقود يسقطان. ويبدو أن الذعر قد استولى عليه، فيما كان الجوادُ الذي يتذكر جرحَ الليلة السابقة ويخشى على أذنه الأخرى يشبُّ ويرفسُ ويصهلُ ويضجّ.

فهتف به أورسو:

هيا، أسرع.

وأخذ الراعي يصرخ:

– ها! أورس انطون! ها أورس أنطون! يا دم العذراء! إلخ...

وكانت تلك لعنات لاحصر لها ولا نهاية، ومعظمها لا يمكن ترجمته.

فسألت كولومبا:

«وماذا حدث إذن؟»

اقترب الجميع من الجواد، وحين رأوه نازفاً وأذنه مشقوقة، ندت عنهم صرخةٌ مفاجئة عامة، وغضبٌ، فينبغي أن نعلم أن تشويه جواد العدو يعدّ بالنسبة للكورسيكيين ثأراً وتحدياً، وتهديداً بالموت. «فلا شيء يمكنه أن يكفر عن هذا العمل المنكر، غير طلقة بندقية». ومع أن أورسو الذي عاش زمناً طويلاً على اليابسة قد شعر أقلّ من أي شخصٍ آخر بجسامة الإهانة. مع كلّ ذلك، فلو أن أحد أنصار باريّسيني قد حضر إليه في تلك اللحظة، لكان من المحتمل أن يجعله يكفّر فوراً عن تلك الإهانة التي كان يعزوها إلى أعدائه.

وهتف: «الأنذالُ الجبناء، إنهم ينتقمون من حيوانٍ مسكين، عندما لايجرؤون على ملاقاتي مواجهة!».

فصرخت كولومبا باندفاع:

- وماذا تنتظر؟ إنهم يأتون لاستفزازنا، وتشويه خيولنا، ولا نردّ عليهم! هل أنتم رجال؟

فأجاب الرعاة:

- الثأر! لنطفْ بالجواد في القرية، ولنهاجم منزلهم.

وقال العجوز باولو غريغو:

- ثمة مستودع للحصيد مغطّى بالقش، وهو يجاور برجهم، ولسوف أجعله يحترقُ في لحظة.

واقترح راعٍ آخر أن يذهب ليأتي بسلالم قبّة جرس الكنيسة، واقترح ثالث أن تكسر أبواب منزل باريّسيني بواسطة جسرٍ خشبي مودعٍ في الساحة ومخصصٍ لبناية قيد الإنشاء. وفي وسط تلك الأجواء الغاضبة، كان يسمع صوتُ كولومبا التي تعلن لأتباعها أن كلَّ واحدٍ سيتلقى كأسًا كبيرة من شرابِ الأنيسون قبل أن يبدأ بالعمل.

ولسوء الحظ، أو لحسن الحظ بالأحرى، فإن التأثير الذي كانت تتوخاه من قسوتها تجاه الحيوان المسكين قد اضمحل إلى حدٍّ كبيرٍ بالنسبة لأورسو، فلم يكن يشك بأن ذلك التشوية الوحشي ليس من صنعِ أحد أعدائه، وأورلاندوكسيو هو الذي كان يرتابُ به بصورةٍ خاصة. ولكنه لم يفكّر أن ذلك الفتى الذي تعرض للاستفزاز والضرب على يده يمكن أن يكون قد محا عاره بأن يشقَّ أذن حصان. وعلى العكس من هذا، فإن ذلك الانتقام الخسيس والمضحك كان يزيدُ من ازدرائه لخصومه، وهو يفكّر الآن مع مدير الشرطة أن أناسًا كهؤلاء لايستحقون أن يقارنوا أنفسهم به. وما إن أصبح بإمكانه أن يجعل صوته مسموعًا، حتى أعلن لأنصاره المرتبكين بأنه يتوجبُ عليهم التخلي عن نواياهم القتالية، وأن العدالةَ التي ستُحقَّق، ستنتقم انتقامًا حسنًا لأذن حصانه. وأضاف بلهجة متشدّدة: «أنا السّيد

هنا، وما أقتضيه هو الطّاعة، وأول من يخطرُ له أن يتكلّم أيضًا عن القتل والحرق يمكنني فعلاً أن أحرقه بدوره. هيا! فليسرج جوادي الرمادي فقالت كولومبا وهي تسحبه جانبًا: كيف يا أورسو، هل تتحمل أن نتعرضَ للإهانة، حين كان والدنا حيًّا. لم يكن بإمكان آل باريّسيني قطّ أن يشوهوا لنا حيوانًا.

- أعدك بأنه سيفسح لهم المجال ليندموا على ذلك، ورجالُ الشرطة والسجانون هم الذين سيكونُ عليهم معاقبةُ الحقيرين الذين لايتجرؤون إلا على الحيوانات. وقد قلت لك إن العدالة ستنتقم لي منهم... وإلا ... فلن تكوني بحاجة لتذكيري بأني ابن من ...

فقالت كولومبا وهي تتنهدُ:

- صبرًا!

فتابع أورسو:

- تذكري جيدًا، يا شقيقتي، أنه إذا ما وجدتُ، عند عودتي، أن تظاهرةً إرهابيّةً قد جرت ضدّ آل باريّسيني، فلن أغفر لك ذلك قط.

ثم أضاف بصوتٍ أكثر رقةً: «من الممكن جدًّا، بل ومن المحتمل حتى أنْ أرجع إلى هنا برفقة العقيدِ وابنته. فاعملي على ترتيبِ غرفهما، وأن يكون الغداء جيدًا، وأن يكون وضع ضيوفنا أقل ما يمكن من السوء. إنه لأمرٌ جيد جدًّا، ياكولومبا، أن يكون المرء متحليًا بالشجاعة. غير أنه ينبغي أيضًا أن تعرفَ المرأةُ كيف تدير منزلاً. هيا، عانقيني، وكوني هادئة. ها هو الحصان الرمادي مسرجًا.

فقالت كولومبا: لن تذهب بمفردك، يا أورسو.

فقال أورسو: لست بحاجة لأحد، وأجيبك بأني لن أدع أحدًا يقطعُ أذني.

- أوه! لن أدعك تذهب وحدك، في وقت الحرب. هو! يا بولو غريفو! يا جيان! يا فرانسيه! يا ميمو! خذوا بنادقكم، سترافقون أخي.

بعد جدال حاد، كان على أورسو أن يوافق على أن تتبعه جماعةُ مرافقة. وأخذ من بين رعاته الأكثر حماسة أولئك الذين رفعوا صوتهم أكثر من غيرهم، ناصحين بالبدء بالقتال. ثم انطلق، بعد أن جدّد أوامره لشقيقته وللرعاة الباقين، واتخذ تلك المرّة انعطافًا كي يتجنب منزل باريّسيني.

كانوا قد أصبحوا بعيدين عن بيترانيرا، ويسيرون بسرعة كبيرة، عندما لمح العجوزُ باولو غريفو بضعة خنازير راقدة بارتياح في الوحل، وهي تتمتع بالشّمس وببرودة الماء في آن، وذلك عند عبور ساقيةٍ صغيرة كانت تضيعُ في أحد المستنقعات. وفي الحال، صوّب بندقيته على أضخمها حجماً، وأطلق عليه عياراً في رأسه، فقتله في مكانه، فنهض رفاقُ الخنزير الميت وهربوا بخفّة مذهلة، ومع أن الراعي الآخر قد أطلق النار بدوره، إلا أن الخنازير وصلت سالمة، وتوارت.

فصرخ أورسو: «أيها الحمقى، أتظنون الخنازير خنازير بريّة؟»

فأجابه باولو غريفو:

- كلا، يا أورس أنطون، إلا أن هذا القطيعَ يخصُّ المحامي، وهذا كي نعلمه كيف يشوه خيولنا.

فصرخ أورسو وقد استبدّ به الغضب:

- كيف، أيها السّفلة! أتقلّدون أعمال أعدائنا المخزية! اتركوني، أيها الحقيرون! لستُ بحاجة إليكم. أنتم لا تصلحون إلا لقتال الخنازير. وأقسم بالله أنكم إذا ما تجرأتم على اللّحاق بي، فإني سأحطمّ رؤوسكم.

نظر الراعيان كلٌّ منهما إلى الآخر بذهول، وهمز أورسو حصانه، وتوارى عدواً.

فقال باولو غريفو:

«حسنًا، يا له من خبرٍ طيب! فلتحبّ الناس إذن كي يعاملوك بهذه الطريقة! لقد غضب منك العقيد، والده، لأنك قد صوّبت بندقيتك إلى المحامي في إحدى

المرات . . . يا له من غباء كبير . . . ألا أطلق النار . . . والابن . . . أترى ماذا فعلتُ لأجله . . . إنه يتكلّم عن كسر رأسي، كما نفعل بمطرةٍ لم تعدْ تحفظُ النبيذ. هذا مايتعلّمونه على اليابسة، يا ميمو!

- أجل، وإذا علموا بأنك قد قتلت خنزيراً، يقيمون دعوى بحقّك، ولايقبل أورس أنطون أن يكلّم القضاة بشأنك، أو أن يدفع أجور المحامي، ولحسن الحظ أنه لم يرك أحد، وأن القدّيسة نيغا موجودة كي تخلّصك من المشكلة».

وبعد مشاورةٍ قصيرةٍ، توصَّل الراعيان إلى استنتاج أن الحصافةَ تقضي بإلقاء الخنزير في المستنقع الموحلِ، وهذا مشروعٌ قاموا بتنفيذه، بعد أن أخذ كلٌّ منهما طبعًا بعضَ قطع الشّواء من الضحيّة البريئة، ضحيةِ كراهية ديلا ريبيا وباريّسيني.

الفصل السابع عشر

بعد أن تخلّص أورسو من مرافَقته غير المنضبطة، تابع طريقه، وبهجةُ رؤيةِ الآنسة نيفيل تشغلُ ذهنه أكثر مما تشغله خشيته من ملاقاة أعدائه. «وكانَ يقولُ في نفسه إن الدعوى التي ستقام بيني وبين هؤلاء الباريسيني الحقيرين سوف تجبرني على الذهاب إلى باستيا، فلماذا لا أرافق الآنسة نيفيل؟ ولماذا لا نذهبُ معًا إلى مياهِ أوريزا، من باستيا؟» وفجأة، أعادت ذكرياتُ الطفولة إلى خاطره ذلك المشهد الزائع بصورةٍ واضحة. وظنّ أنه محمولٌ على مرجةٍ خضراء تمتد تحت أشجار الكستناء المعمّرة. وكان يرى الآنسة ليديا جالسةً بجانبه، على بساطٍ من الأعشاب اللماعة، موشى بزهورٍ زرقاء تشبه عيونًا تبتسم له. كانت قد نزعت قبعتها، وشعرها الأشقر الأكثر نعومة من ورق الحرير، يلتمعُ كالذهب في الشمس التي كانت تتخلل أوراق الأشجار. أما عيناها، بزرقتهما الشديدة الصفّاء، فكانتا تبدوان له أكثر زرقةً من قبة السماء. وكانت تصغي إلى كلماتِ الحب التي كان يوجهها إليها، وهو يرتجف، وخدُّها مسندٌ إلى يدها. وكانت ترتدي فستان الموصلي الذي كانت تلبسه في آخر يومٍ رآها فيه، في أجاكسيو. ومن تحت ثنيات ذلك الفستان، كانت تطلُّ قدمٌ صغيرةٌ في حذاء من الساتان الأسود. وكان أورسو يقول إنه سيكون سعيدًا إذا ما قبّل تلك القدم. غير أن إحدى يدي الآنسة ليديا لم تكن تضع قفازها، وكانت تحملُ بها زهرةَ الربيع. ويأخذ أورسو تلك الزهرة، فتشدُّ يدُ ليديا على يده، فيقبّل زهرة الربيع ثم اليد، فلا تنزعج ليديا... وكانت تلك الأفكارُ تمنعه من أن ينتبه للطريق التي كان يسلكها، ومع ذلك، فقد كان يخبُّ دائمًا. وكان يهمّ للمرة الثانية بتقبيلِ يدِ الآنسة نيفيل البيضاء في خياله، عندما كاد أن يقبّل في الواقع رأسَ

حصـانه الذي توقف فجأة، وذلك لأن شيلينا الصغيرة تسدُّ له طريقه، وتمسكُ بزمام جواده.

وكانت تقول: «إلى أين تذهبُ بهذا الاتجاه، يا أورس أنطون، ألا تعلم أن عدوكَ قريبٌ من هنا؟».

فهتف أورسو غاضبًا لأنه ألفى نفسه وقد قوطع في لحظةٍ على تلك الدرجة من الإثارة:

- عدوّي! أين هو؟

- إن أورلاندوكسيو قريبٌ من هنا، وهو ينتظرك، ارجع! ارجع!

- أوه! ينتظرني! لقد رأيته؟

- أجل، يا أورس أنطون، كنت مستلقيةً في السّرخس، عندما مرَّ، وكان ينظرُ بناظوره في كلّ الاتجاهات.

- من أيةِ جهةٍ كان يذهب.

- كان ينزل من هناك، من الجهة التي تذهب إليها.

- شكراً.

- يا أورس أنطون، أليس من الأفضل لك أن تنتظر عمي؟ فلا يمكن أن يتأخّر، ولسوف تكون معه بأمان.

- لا تخافي، يا شيلي، لستُ بحاجةٍ لعمك.

- إذا شئت، فإني أسيرُ أمامك.

- شكراً، شكراً.

ودفع أورسو جواده، متّجها بسرعة إلى الجهة التي دلته عليها الفتاة الصّغيرة.

كانت أولّ حركة قام بها هي اندفاعٌ أعمى للغضب، وكان يقول في نفسه إن القدر قد قدّم له فرصةً ممتازة لتأديب ذلك الجبان الذي يشوهُ حصانًا كي يثأرلنفسه

من صفعة، وبعد ذلك، وأثناء تقدُّمه، أخذ ذلك الوعدُ الذي قطعه لمدير الشرطة، والخوف من أن تفوته زيارةُ الآنسة نيفيل، أخذت تغيّر استعداداته، وتجعله يرغب في ألا يلتقي أورلاندوكسيو، وسرعان ما أضرمت غضبه ذكرى والده، وإهانة جواده، وتهديداتُ آل باريّسيني، وحثّته على البحث عن عدوّه لاستفزازه، وإجباره على القتال وهكذا، فقد كان يتابعُ سيره إلى الأمام، تتقاذفه القرارات المتضاربة. أما الآن، فهو يسير بحذر، متفحصاً غيضات الشجيرات والأسيجة، وحتى أنه كان يتوقّف في بعض الأحيان ليصغي إلى الهمهمات المبهمة التي نسمعها في الريّف. وألفى نفسه، بعد عشر دقائق من تركه للصغيرة شيلينا (وكانت الساعةُ حينذاك التاسعة صباحًا تقريبًا)، وجد نفسه على تخوم هضبة بالغة الوعورة. أما الطّريق، أو على الأصح، المعبر الذي لا يكاد يكون مرسومَ المعالم الذي كان يسلكه أورسو، فقد كان يجتازُ دغلاً محترقًا منذ وقت قريب. وفي ذلك المكان، كانت الأرضُ محمّلةً بالرّماد المائل إلى البياض، وشجيراتٌ هنا وهناك، وبعضُ الأشجار الضخمة المسودّة من جراء النار، ومعرّاة من أوراقها بصورة تامة، كانت تنتصبُ مع أنها لم تعد حيّة. وحينما يرى المرء دغلاً محترقًا، يظنُّ نفسه منقولاً إلى مشهدٍ من مشاهد الشّمال، وسط الشتاء. والتباينُ بين يباس الأماكن التي طاف بها اللّهب والغطاء النباتي الوافر في المنطقة المحيطة يجعلهما يظهران أكثر حزنًا وإثارةً للأسى، غير أن أورسو لم يكن يرى في تلك اللحظة إلا شيئًا واحداً في ذلك المنظر، وهو شيء هام، والحقّ يُقال، في مثل وضعه، فبما أن الأرضَ كانت جرداء، فلم يكن بإمكانها أن تخفي كمينًا، وذلك الذي يمكن أن يخشى في كلّ لحظة أن يرى سبطانة بندقية تطلّ من أجمة كثيفة وهي مصوبة إلى صدره، ينظر إلى تلك الأرض المتماثلة التي لايوقف شيء النظر فيها، ينظر إليها وكأنها أقرب ما تكون إلى واحة. وكانت تتلو الدغلَ المحترق بضعةُ حقولٍ مزروعة، وهي أراضٍ مسيّجة، حسب عادة البلد، بجدران أحجار بلا طين، ذات ارتفاع للحماية. وكان المعبر يمرّ بين تلك الأراضي المسيّجة التي كانت فيها أشجارُ كستناء ضخمة، ومغروسة بلا ترتيب، تجعلها من بعيد تتّخذُ مظهر حرشٍ كثيف.

أما أورسو الذي أجبرته وعورةُ المنحدرِ على الترجُّل، وكان قد ترك المقود على عنق جواده، فقد أخذ ينزل بسرعةٍ منزلقاً على الرّماد، ولم يكن إلا على بعد خمسٍ وعشرين خطوة من تلك الأراضي المسيجة بالحجارة، على يمين الطريق، عندما لمح، بمواجهته تماماً سبطانةَ بندقية أولاً، ثم رأساً يتجاوز أعلى الجدار. وانخفضت البندقية، فتعرّف أورسو أورلاندوكسيو الذي كان متهيئاً لإطلاق النار. فأسرع أورسو لاتخاذ موقفٍ دفاعي. وكلاهما كانا يصوّبان بندقيتيهما، وينظر كلٌّ منهما إلى الآخر بضع لحظاتٍ، وهما تحت تأثيرِ ذلك الانفعال الممضّ الذي يشعر به أكثرُ الرّجال بسالة في اللحظة التي يجرّع فيها الموت لغيره أو يتجرعه منه.

وهتف أورسو: «أيها الجبانُ الحقير!».

كان لايزال يتكلم عندما رأى نار بندقية أورلاندوكسيو، وفي الوقت نفسه تقريباً، انطلقت طلقةٌ ثانية على يساره، من الجهة الأخرى من المعبر، وقد أطلقها رجلٌ لم يكن قد لمحه، ولكنه كان يصوب إليه بندقيته، وهو متمركزٌ خلف جدارٍ آخر. وأصابته الرصاصتان: إحداهما، وهي رصاصةُ أورلاوكسيو، اخترقت ذراعه اليمنى التي كان يعرّضها له أثناء تصويبه عليه، وأصابته الأخرى في صدره، ومزقت ثيابه، غير أنها، لحسن الحظ، اصطدمت بشفرة خنجره، فتسطحت فوقه، ولم تحدث له إلا رضةً خفيفة. وسقطت ذراعُ أورسو اليمنى بلا حراك، على امتداد فخذه، فانخفضت سبطانةُ بندقيته للحظةٍ من الزمن، غير أنه سرعان مارفعها من جديد، ووجه سلاحه بيده اليمنى وحدها، وأطلق النار على أورلاندوكسيو، فاختفى رأس عدوٍّ الذي لم يكن يُكْشَفُ منه إلا الجزءُ الذي يصلُ حتى عينيه، اختفى خلف الجدار. واستدار أورسو إلى يساره، وأطلق طلقةً ثانيةً على رجلٍ يحيط به الدخان، ولايكاد يلمحه، فاختفى ذلك الشكل بدوره، وكانت طلقاتُ البندقية الأربع قد تتابعت بسرعةٍ لا تصدّق. ولم يضع جنودٌ متمرنون فواصل زمنية بين طلقاتهم المتعاقبة أكثر تقارباً. وبعد طلقة أورسو الأخيرة، سيطر السكونُ على كلّ شيء. وكان الدُّخان الخارجُ من سلاحه يتصاعدُ ببطء نحو السماء. ولم تحدث أيةُ حركة خلف الجدار، ولم يصدر أيُّ صوت مهما كان خفيفاً. وكان يمكن

لأورسو أن يظنّ أن هؤلاء الرجال الذين كان يطلقُ عليهم أشباحٌ من خياله، لولا الألمُ الذي كان يحسُّ به في ذراعه.

وإذ كان أورسو يتوقعُ تراشقًا ثانيًا بالرصاص، فقد خطا بضعَ خطواتٍ ليتمركز خلف إحدى تلك الأشجار المحترقة، والتي بقيت واقفةً في الدغل. ووراء ذلك المأمن، وضع بندقيته بين ركبتيه، وأعاد تلقيمها على عجل. ومع ذلك، فقد كانت ذراعه اليسرى تؤلمه وكان يبدو له أنه يحمل ثقلاً هائلاً. فماذا حدث لخصميه؟ لم يكن باستطاعته أن يدرك ذلك. لو أنهما قد هربا، ولو أنهما قد جُرحا، لكان سمع بالتأكيد صوتًا ما، وحركةً ما بين الأوراق. هل ماتا إذن؟ أو أنهما، على الأصحّ، كانا ينتظران الفرصةَ ليطلقا النار عليه مجدّدًا؟ وإذ شعرَ أورسو، وهو في تلك الحالة من انعدام اليقين، بأن قواه تتناقصُ، فوضَعَ ركبته على الأرض، وأسند إلى الأخرى ذراعه الجريحة، واستعان بغصنٍ كان متصلاً بجذع الشجرة المحروقة كي يسند بندقيته. ومكث من غير حراك خلال بضع دقائق بدت له قرنًا، وإصبعه على الزناد، وعيناه تحدّقان بالجدار، وأذناه تصغيان لأدنى صوت. وأخيراً، سُمِعَت صرخةٌ بعيدة جداً خلفه. وتوقف كلبٌ بجانبه في الحال، وأخذ يحرّك ذيله، وهو ينزل الهضبة بسرعة سهم. وكان الكلبُ هو بروسكو، تلميذ الخارجين على القانون ومرافقهم، والذي يعلنُ عن وصول صاحبه بلا شك. ولم ينتظر قط رجلٌ شريف بذلك القدر من اللهفة. أما الكلبُ الذي كان خطمه في الهواء ويستديرُ إلى ناحيةِ الأرض المسيجة الأقرب، فقد كان يشتمّ الروائح بقلق. وبغتةً أصدر همهمةً مكتومة، واجتاز الجدار بقفزة، وصعد إلى أعلاه في الحال تقريبًا. وأخذ يحدّق بأورسو من هناك، معبراً بعينيه عن المفاجأة التي يمكن لكلبٍ أن يعبرّ عنها بوضوح إلى حدّ معين، ثم عاد ليضع أنفه في الهواء باتجاه الأرض المسيّجة الأخرى في تلك المرة، فقفز من فوق سورها أيضًا. وبعد مرورِ ثانية واحدة، عاد إلى الظهور على أعلى السور، مظهراً هيئةَ الدهشةِ والقلق ذاتها، ثم قفز إلى الدغل، وذيله بين رجليه، وهو ينظر إلى أورسو باستمرار، ومبتعداً عنه بخطًى بطيئة، وبمشيةٍ منحرفة، إلى أن أصبح على مسافة معينة منه. حينذاك، عاد إلى

الجري، وصعد ثانية إلى الهضبة بالسرعة نفسها تقريبًا التي نزلها بها، للقاء رجلٍ كان يتقدّم بسرعة، برغم وعورةِ المنحدر. فصرخ أورسو حالما ظنّ أنه على مرمى صوته:

إليّ يا براندو.

فسأله براندولاكسيو، وهو يهرع إليه متقطع الأنفاس:

- هو! أورس أنطون، أنت جريح، في الجسم، أم في الأطراف؟...

- في ذراعي.

- في الذراع، لا أهمية لذلك، والرجل الآخر؟

- أظن أني قد أصبته.

وهرع براندولاكسيو إلى أقربِ أرضٍ مسيجة، خلف كلبه، وانحنى لينظر من الجهة الأخرى من السور، وهناك نزع قبعته، وقال:

«تحيةً للسيد أورلاندوكسيو».

ثم استدار إلى ناحية أورسو، وحياه بدوره بلهجةٍ حادة، وقال:

- هذا ما أسميه رجلاً قد سوّى أموره بصورة خاصة.

فسأله أورسو، وهو يتنفس بصعوبة:

- ألا يزال حيّاً؟

- أوه! إنه سيتحاشى ذلك، فقد اغتمّ كثيراً من الرصاصة التي وضعتها له في عينه، يا دم العذراء، ياله من ثقب! إنها بندقيةٌ جيّدة، وحقي! يا له من عيار! إنه يهشّم دماغك! قل لي إذن، يا أورس أنطون، عندما سمعتُ أولاً بيف! بيف! قلت لنفسي:

«يا للشيطان! إنهم يصرعون سيدي الملازم» ثم سمعت بوم! بوم! فقلت: «أه! ها هي البندقية الإنكليزية تتكلّم: إنّها ترد...»، ولكن يا بروسكو، ماذا تريدُ مني إذن؟

فاقتاده الكلبُ إلى الأرض المسيّجة الأخرى:

فهتف براندولاكسيو مذهولاً :

«اعذرني! إنها طلقةٌ مزدوجة! لاشيء أكثر من ذلك. يا للطاعون! يلاحظُ المرءُ جيداً أن البارود غالي الثمن، لأنك تقتصدُ فيه.

فسأل أورسو :

– ماذا هناك، وحقّ الله؟

– هيا! لا تلعبْ دور المهرّج، يا سيدي الملازم! إنك ترمي الطريدة أرضاً، وتريدُ أن يلتقطوها لك. . . هذا رجلٌ سيحصل اليوم على تحليةٍ غريبة، إنه المحامي باريّسيني. هل تريدُ لحماً من الملحمة، ها هو! والآن من سيرثُ؟

– ماذا! هل مات فنستتلّو أيضاً.

– مات تماماً. فالصّحة لنا، نحن الآخرين[1]. إن الأمر الحسن عندك هو أنك لم تجعلهما يتعذّبان. تعال إذن لترى فنستتلّو، إنه لايزال جاثياً، ورأسه إلى السّور وكأنّه نائم. هذه هي الحالة التي يُقال فيها: نوم ثقيل كالرصاص. يا للرجل المسكين!

فأدار أورسو وجهه باستفظاع :

– هل أنت متأكد من أنه قد مات؟

– أنت مثل سامبييرو كورسو الذي لم يكن يطلق إلا طلقة واحدة. انظر هناك. . . في الصّدر، على اليسار؟ انظر، إنها مثل إصابة فنسيليوني في واترلو؟ أراهن فعلاً أن الرصاصة ليست بعيدة عن القلب. إنها طلقةٌ مزدوجة! لن أتعاطى إطلاق النار بعد الآن. رجلان بطلقتين! أيُّ نزال! . . . الشقيقان! . . . لو كانت لديه طلقةٌ ثالثة، لقتل الأب. . . سيصنعُ أفضل من هذا، مرةً ثانية. . . يا لها من ضربة، يا أورس أنطون. . . ولماذا أقول إنه لن يحدث قط لفتى جسورٍ مثلي أن يُطلقَ طلقةً مزدوجة على رجال الشرطة!

---

(١) – ترجمة لتعبير: SALUTE A NOI ، وهو هتاف يرافق عادة كلمة: ميت، ويستخدم كتعبيرٍ ملطفٍ لها.

كـان الخـارجُ علـى القانـون يعايـن ذراع أورسـو، ويشـقُّ كـمه بخنجره أثناء كلامه.

فقال:

«لاشيء يذكـر، هذا معطفٌ سيعطي الآنسة كولومبا عـملاً تقـوم به... عجبًا! مـاذا أرى؟ هذا الشق على الصدر؟ ألم يـدخل شيء من هنا؟ كلا، قـد لا تصبح على الدرجة نفسها من القوة التي أنت عليها. لننظر، حاول أن تحرّك أصابعك... هل تحسّ بأسناني عندما أعضّ خنصرك... ليس كثيرًا؟ هذا سيّان، ولن تكون له قـيـمـةٌ تذكر، دعني آخذ منديلك، وربطة عنقك... ها قـد تلف معطفك... ولماذا بحقّ الشيطان تتأنق إلى هذا الحدّ. هل كنت ذاهبًا إلى العرس؟ هيـا، اشـرب قطرةً من النبيـذ... ولماذا لا تحـمل مطرةً مـعك إذن؟ هل يخـرجُ كورسيكيٌّ قط بلا مطرة؟

ثم توقف وهو في وسط الضماد كي يهتف:

«ضربة مزدوجة! لقد سقط كلاهما صريعين بلا حراك! إن الكاهن هو الذي سيضحك... ضربة مزدوجة! آه! ها هي أخيرًا تلك السلحفاة الصغيرة شيلينا».

ولم يكن أورسو يرد، بل كان شاحبًا مثل ميت، وكافة أطرافه ترتجف.

وصرخ براندولاكسيو: «ياشيلي، اذهبي وانظري خلف هذا السور، هيه؟»

فتسلقت الطفلة السور، مستعينةً بقدميها ويديها، وما إن لمحت جثة أورلاندوكسيو حتى رسمت إشارة الصليب.

وتابع الخارج على القانون: «هذا لا شيء، اذهبي وانظري أبعد، هناك».

فرسمت الطفلة من جديد إشارة الصليب.

وسألت بخجل: «هل أنت من فعل هذا، يا عمي؟»

- أنا، ألم أصبح عجوزًا لايصلحُ لشيء، يا شيلي، هذا من صنع السيد، فقدمي له التحية.

فقالت شيلينا :

- إن آنستي ستفرح كثيراً، غير أنها سوف تنزعج كثيراً حين تعلم أنك جريحٌ يا أورس أنطون.

فقال الخارج على القانون بعد أن انتهى من الضماد :

- هيا، يا أورس أنطون. هذه هي شيلينا التي أعادت حصانك. فاركبه، وتعال معي، إلى دغل ستازونا، فمن اليقظة حقًّا أن تكون فيه، ولسوف نعالجك هناك بأفضل مانستطيع وعندما نصل إلى صليب سانت - كريستين، لابد أن تترجل، ولسوف تعطي جوادك لشيلينا التي تذهب لإخطار الآنسة، وأثناء الطريق، تكلفها بطلبياتك، يمكنك أن تقول للصغيرة كلّ شيء يا أورس آنطون، فهي قد تتعرضُ للذبح ولاتخون أصدقاءها، وكان يقول لها بلهجةٍ مفعمةٍ بالحنان : «اذهبي، أيتها الغنجة، فليصبك الحرْم، وتكوني ملعونة، أيتها المحتالة». فقد كان براندولاكسيو، المتطير، شأن العديد من الخارجين على القانون، يخشى أن يصيب الأطفال بالسحر، إذا ما وجه إليهم تبركاتٍ ومدائح، فالمعروف أن القوى الخفية التي تهيمن باستمرار على سحر الـ ANNOCCHIATURA[1] تتبع عادة سيئة معناها نقيض أمنياتنا.

وقال أورسو بصوتٍ مخنوق :

- وأين تريدُ أن أذهب يابراندو؟

- تبًّا! يمكنك الاختيار : إلى السجن أو إلى الدغل، غير أن رجلاً من عائلة ديلا ريبيا لا يعرفُ طريقَ السجن، فإلى الدغل، يا أورس أنطون!

فصرخ الجريح بألم : فوداعًا إذن يا آمالي جميعًا!

- آمالك؟ يا للشيطان! أكنتَ تأمل في أن تصنع أفضل مما صنعت ببندقيةٍ ذات طلقتين؟ ولكن كيف أصابوك بحقّ الشيطان؟ لابدّ أن هؤلاء الفتيان قد كانت حياتهم أشقّ من حياة القطط.

(١) - سحر غير إرادي تجري ممارسته بالعينين أو بالكلام.

فقال أورسو: - هما اللذان أطلقا النار أولاً.

- هذا صحيح، لقد نسيت... بيف! بيف! بوم! بوم!... طلقة مزدوجة بيد واحدة[1]... سأذهب لأشنق نفسي، عندما يحقق أحدهم أفضلَ من ذلك. هيا، ها أنت قد ركبت... وقبل أن تذهب، انظر إلى ما أنجزته قليلاً. فليس من التهذيبِ في شيء أن يترك المرءُ هكذا أصحابه من غير أن يقول لهم وداعًا.

وهمز أورسو جواده، فلم يكن يود أن يرى سيئيْ الحظ اللذين قتلهما مقابل أي شيء. وقال الخارج على القانون وهو يقبض على مقود الجواد:

- خذ يا أورس - أنطون، أتريد أن أكلمك صراحة؟ حسنًا، من غير أن أهتك، إن هذين الشابين المسكينين يسببان لي الغم، أرجوك أن تعذرني... إنهما وسيمان جداً... وقويان... وشابان... إن أورلاندو الذي ذهبت وإياه إلى الصيد مرات عديدة... قد أعطاني، منذ أربعة أيام، علبةَ سيكار... أما فنسنتلو الذي كان دوماً ذا مزاج حسن! صحيح أنك قد فعلت ما ينبغي لك أن تفعله... زد على ذلك أن الطلقة قد كانت جميلة إلى درجة لا يمكن معها أن نأسف على الأمر... أما أنا، فلم أكن معنياً بثأرك... أعلمُ أنك على حق، فعندما يكون للمرء عدو، فلا بدّ أن يتخلص منه، غير أن آل باريّسيني عائلة قديمة، وهاهي عائلة قد غادرت أيضاً بلا استئذان! وبطلقةٍ مزدوجة! إن هذا جارح.

كان براندولاكسيو وهو يقوم برثاء آل باريّسيني، يقود أورسو بسرعة وشيلينا والكلب بوسكو باتجاه دغل ستازّونا.

---

(١) - لو أن صياداً قليل التصديق قد جادلني في طلقة السّيد ديلا ريبيا المزدوجة، لحثثتُه على الذهاب إلى سارتينا، كي يسأل أن يرووا له كيف أن أحد السّكان الأكثر تميزاً، والأكثر لطفاً في تلك المدينة قد نجا من وضعٍ خطر، على نفس الدرجةِ من الخطورة (التي بيّنتها)، وذراعه اليسرى مكسورة.

الفصل الثّامن عشر

ومع ذلك، فإن كولومبا قد علمت عن طريق جواسيسها، بعد قليلٍ من ذهاب أورسو، أن آل باريّسيني يتابعون حربهم. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت فريسةَ قلقٍ شديد. وكانت تُرى وهي تطوفُ في المنزل، في كلِّ اتجاه، وتذهبُ من المطبخ إلى الغرف التي هيأتها لضيوفها، ولا تفعلُ شيئًا مع أنها مشغولة دومًا، وتتوقّفُ باستمرار لتنظر إن كانت تلمحُ في القرية حركةً غير معتادة. وحوالي السّاعة الحادية عشرة، دخل إلى بييترانيرا ركبٌ عديدُ الأفراد. وكان فيه العقيد، وابنته، وخدمُهما، ودليلُهما. وكانت أولُ كلمةٍ قالتها لهم كولومبا عند استقبالها لهم: «هل رأيتم أخي؟»، ثم سألت الدّليل عن الطريق التي سلكوها، وفي أية ساعةٍ انطلقوا، وبناءً على إجابته لم تفهم إلا أنهم لم يصادفوه.

وقال الدّليل: «لعلّ أخاك قد سلك الطريق العليا، أمّا نحن، فقد أتينا من الطريق المنخفضة. ولكن كولومبا هزّت رأسها، وجدّدت أسئلتها، وبرغم صلابتها الطبيعيّة، والتي زاد منها أيضًا كبرياؤها في إخفاء كلّ ضعفٍ لديها عن أناسٍ غرباء، فقد كان من المستحيل عليها أن تخفي مخاوفها، وقد جعلت العقيد في الحال يشاركها فيها، وخصوصًا الآنسة ليديا، عندما أطلعتهما على محاولة المصالحة التي انتهت إلى نتيجةٍ فاشلة. كانت الآنسة نيفيل تُبدي اضطرابًا، وتريد أن يجريَ إرسالُ مبعوثين في كلّ الاتجاهات. وقد عرض والدها أن يمتطي الجواد من جديد، وأن يذهب مع الدّليل للبحث عن أورسو. وقد ذكّرت مخاوف الزوّار كولومبا بواجباتها كسيّدة للمنزل، فأخذت تبذل جهدها كي تبتسم، وحثّت العقيد على الجلوس إلى المائدة، ووجدت عشرين سببًا معقولاً لتأخر شقيقها، ولكنها

كانت، بعد لحظةٍ من الزّمن تقوّضُها بنفسها. ولما ظنّ العقيد أن من واجبه كرجل أن يسعى لطمأنة النساء، فقد عَرَض تفسيره على النّحو التّالي:

فقال: أراهن أن ديلا ريبيا قد التقى طريدة صيد، ولم يستطع أن يقاوم الإغراء، ولسوف تراه راجعًا وكيس ُصيده مَلآن تمامًا. وأضاف: تبًّا! لقد سمعنا أربعَ طلقات بندقية ونحن في الطريق، وكانت اثنتان منهما أقوى من الأخريين، فقلت لابنتي: «أراهن أن ديلا ريبيا هو الذي يصطاد، فلا يمكن أن يُحدِثَ مثل هذا الصّوت العالي غير بندقيتي».

شحب لونُ كولومبا، وخمّنت ليديا التي كانت تلاحظُها بانتباه أيةَ شكوكٍ قد أوحى لكولومبا بها حدسُ العقيد. وبعد صمتٍ دام بضعَ دقائق، سألت كولومبا بتأثر إن كانت الطلقتان القويتان قد سبقتا الطلقتين الأخريين، أم تبعتهما. غير أنّه لم يُعر العقيدُ، ولا ابنتُه، ولا الدليلُ اهتمامًا كبيرًا لتلك النقطة الرئيسة.

وحوالي السّاعة الواحدة، ولما لم يرجع بعد أيُّ مبعوثٍ أرسلته كولومبا، استجمعت كلّ شجاعتها، وأجبرت ضيوفها على الجلوس إلى المائدة. بيد أن أحدًا لم يستطع أن يأكل، باستثناء العقيد. وكانت كولومبا، لدى أدنى صوتٍ في السّاحة، تهرع إلى النافذة، ثم تعود لتجلس باكتئاب، وتجهدُ، بحزنٍ أكبر أيضًا، لتتابع مع أصدقائها حديثًا لا معنى له. ولم يكن أحدٌ يعيره أدنى اهتمام، وتقطعه أوقاتُ صمتٍ طويلة.

وفجأة سُمع خببُ حصان.

فقالت كولومبا وهي تنهض: أه! هذه المرّة، هذا هو أخي.

ولكنها صرخت بصوت ممزّق، عندما رأت شيلينا ممتطية حصان أورسو مفرشخةً:

«لقد مات أخي!»

وترك العقيد كأسه تسقط من يده، وأطلقت الآنسة نيفيل صرخةً، وركض الجميعُ إلى باب المنزل.

وقبل أن تتمكن شيلينا من أن تقفز إلى أسفل مطيّتها، حملتها كولومبا مثل ريشة، وضمتها حتى كادت تخنقها، ففهمت الطفلة نظرة كولومبا الرهيبة، وكانت أول كلمة هي كلمةَ جوقة عطيل «إنه حيّ!» فكفّت كولومبا عن معانقتها، وسقطت شيلينا على الأرض بخفةِ قطةٍ صغيرة، وسألت كولومبا بصوت مبحوح: والآخرون؟

فرسمت شيلينا إشارة الصليب بالسبابة والإصبع الوسطى. فحلّ الاحمرارُ الشديد محلّ شحوب الموت في وجه كولومبا، ورمت آل باريّسيني بنظرةٍ لاهبة، وقالت وهي تبتسم لضيوفها:

«لندخل ونتناول القهوة».

وأسهبت إيريسُ[1] الخارجين على القانون في حكايتها. أما لغتُها المحلية التي ترجمتها كولومبا إلى الإيطالية كما هي، ثم ترجمتها الآنسة نيفيل إلى الإنكليزية، فقد انتزعت من العقيد أكثرَ من لعنة، ومن الآنسة نيفيل أكثر من تنهيدة. أما كولومبا فقد كانت تستمعُ من غير تأثّر، وكانت تلفُّ فقط فوطةَ الطعام الموشاة بحيث تكاد تمزقها، وقد قاطعت الطفلة خمسَ مرات أوست كي تجعلها تردّد أن براندولاكسيو كان يقول إن الجرح ليس خطيراً، وإنه رأى غيره الكثير. وروت شيلينا أن أورسو كان يطلبُ ورقًا للكتابة بإلحاح، وأنه يكلّف شقيقته بأن ترجو سيدةً ربما تكون موجودة في منزله ألا تذهب قبل أن تتلقى رسالة منه «وأضافت الطفلةُ، هذا ما كان يعذّبه أكثر من سواه. وكنت قد انطلقتُ على الطريق، عندما ناداني ثانية كي يوصيني بتلك المهمة. وكانت تلك هي المرة الثالثة التي يكرّرها لي».

---

(١) - إيريس: أي شيلينا التي أتت لتروي المعركة التي دارت بين أورسو والباريّسيني، مثل إيريس مبعوثة الآلهة المجنّحة، في الأساطير اليونانية (م: ز.ع).

فابتسمت كولومبا ابتسامةً خفيفةً عندما سمعت بذلك الإيعاز الموجه إليها من أخيها، وضغطت بقوةٍ على يد الإنكليزية التي انفجرت بالبكاء، ولم تجد من الملائم أن تترجم لوالدها ذلك الجزء من الحكاية.

وهتفت كولومبا وهي تعانق الآنسة نيفيل: «أجل، سوف تبقين معي، ياصديقتي العزيزة ولسوف تساعديننا».

ثم سحبت من إحدى الخزائن كميةً من القماش العتيق، وأخذت تقطعها كي تصنع منها أربطة ونسالةً للتضميد. وحين يرى المرء عينيها الملتمعتين، ولونَ وجهها المتوهّج، والمبادرة التي تبديها في الانشغال بهدوء أعصاب، يصبح من الصعب عليه أن يقول إن كانت متأثرةً من جراح أخيها أكثر مما هي مبتهجةٌ بموت أعدائها. فكانت حينًا تصبُّ القهوة للعقيد، وتفاخر أمامه بموهبتها في إعدادها، وحينًا تحثّ الآنسة نيفيل وشيلينا على خياطةِ الأربطة، وعلى لفّها، وهي توزع عليهما الشغل، وتسأل للمرة العشرين إن كان جرحُ أورسو يسبب له الكثير من الألم، وكانت باستمرار تقطعُ عملها في منتصفه كي تقول للعقيد:

«رجلان شديدا المهارة! ومخيفان إلى درجة كبيرة... وهو بمفرده، جريح، وليس له إلا ساعد واحد... قد صرعهما الاثنين. أية شجاعة هذه، أيها العقيد! أليس بطلاً؟

أه! يا آنسة نيفيل، كم يكون المرءُ سعيداً أن يعيش في بلدٍ هادئ كبلدكم! أنا متأكدة من أنكم لم تكونوا تعرفون أخي جيداً... لقد قلت ذلكٌ: إن الصقر سينشرُ جناحيه!... لقد كنتم مخدوعين بمظهره الرقيق... هذا لأنه حيالكم... ياآنسة نيفيل... آه! لو كان يراك تشتغلين من أجله... يا لأورسو المسكين!

قلّما كانت الآنسة نيفيل تشتغل، فلم تجد أية كلمةٍ تقولها. وكان والدها يسأل لماذا لا يجري الإسراعُ إلى تقديم شكوى أمام القاضيٍ. كان يتحدث عن تحقيقِ طبيب الوفيات[1]، وعن أشياء أخرى كثيرة غير معروفة هي الأخرى، في

(١) - ترجمة للكلمة الإنكليزية «CORONER» التي تعني المحقق الجنائي في الوفيات. (م: ز.ع).

كورسيكا. وكان يريدُ أخيراً أن يعلم إن كان المنزل الريفي لذلك الطبيب السيد براندولاكسيو الذي قدم النجدة للجريح، إن كان بعيداً عن بييترانيرا، وإن كان يستطيع شخصياً أن يذهب لزيارة صديقه.

كانت كولومبا تردّ بهدوئها المعتاد أن أورسو في الدّغل، وأن لديه خارجاً على القانون يعنى به، وأنّه يواجه خطراً كبيراً، إذا ما ظهر قبل التأكد من تدابير مدير الشرطة، والقضاة، وأنها ستعملُ على أن يذهب جرّاحٌ ماهرٌ إليه سراً.

وكانت تقول: وخصوصاً، يا سيدي العقيد، تذكروا جيداً، أنكم قد سمعتم الطّلقات الأربع، وأن أورسو هو الذي أطلق في المرّة الثانية.

ولم يكن العقيد يدرك شيئاً من المشكلة، وكلّ ما كانت ابنته تفعله هو التنهُّد، ومسحُ العينين.

كان النهار قد تقدّم عندما دخل موكبٌ إلى القرية، وقد أتوا إلى المحامي باريّسيني بجثتي ولديه، وكلٌّ منهما ممدّدٌ بالعرض على ظهرِ بغلة يقودها فلاح. وكان ثمة جمهور من الزبائن والمتعطلين يتبعُ الموكبَ المفجع. ومعهم كان يُرى رجالُ الشرطة الذين يصلون دوماً متأخرين جداً، ومعاونُ العمدة الذي كان يرفعُ ذراعيه إلى السماء، ويردِّدُ بدون توقف: «ماذا سيقول السيد مدير الشرطة»؟ وكانت بعضُ النساء، ومن بينهن، مربية لأورلاندوكسيو، يقتلعن شعورهن، ويطلقن العويل الوحشي، بيد أن ألمهنّ الصارخ كان يحدث أثراً أقلّ مما يحدثه اليأس الصامت لشخصيةٍ كانت تجذبُ إليها كلّ الأنظار، وكانت تلك هي شخصية الوالدِ المنكود الذي، بانتقاله من إحدى الجثتين إلى الأخرى، كان يرفع رأسيهما الممرغَين بالتراب، ويلثمُ شفاههما البنفسجية، ويسند أطرافهما التي تصلبت، وكأنها تجنّبهما بذلك رجّات الطريق. وكان يُرى أحياناً وهو يفتحُ فمه كي يتكلم، ولكن لم يكن يخرجُ منه أيُّ صَوت، وأية كلمة. كانت عيناه تحدّقان دوماً بالجثتين، فيصطدمُ بالحجارة، وبالأشجار، وبكلّ العوائق التي تصادفه.

وتضاعفت انتحاباتُ النساء، ولعناتُ الرجال، عندما أصبح الموكبُ على مرأى من منزل أورسو. وما إن تعالى هتافُ الظَّفر من بعض الرعاة الريبيانيين[1]، حتى لم يعد بالإمكان احتواءُ غضب خصومهم. فصرخت بعضُ الأصوات: «الثأر! الثأر!» ورموا بعضَ الحجارة، واخترقت طلقتا بندقية موجّهتان إلى نوافذ القاعة التي يمكثُ فيها كلٌّ من كولومبا وضيوفها، اخترقت المصاريعَ الخارجية، وجعلت شظايا الخشب تتناثرُ لتصل إلى المنضدة التي كانت المرأتان جالستين عليها، فأطلقت ليديا صرخاتٍ مريعة، وأمسك العقيد ببندقية، واندفعت كولومبا إلى باب المنزل، قبل أن يستطيعَ منعها من ذلك، وفتحت الباب باندفاع، وهناك صرخت وهي واقفة، ويداها ممدودتان كي تلعن أعداءها:

«أيها الجبناء، إنكم تطلقون النار على النساء، وعلى أناسٍ غرباء! هل أنتم كورسيكيون؟ هل أنتم رجالٌ؟ أيها الحقيرون الذين لا تُحسنون إلا الاغتيال من الخلف، تقدّموا، إني أتحداكم! أنا بمفردي، وأخي بعيد، اقتلوني، اقتلوا ضيوفي. إن هذا جديرٌ بكم... إنكم لا تجرؤون، فأنتم جبناء! وأنتم تعلمون أننا نثأرُ لأنفسنا. اذهبوا، اذهبوا وابكوا مثل النساء، واشكرونا لأننا لا نطالبكم بمزيدٍ من الدم!».

كان في صوت كولومبا ووقفتها شيء مهيب ومخيف، وقد تراجعَ الجمهورُ لدى رؤيته لها مذعوراً، مثلما يكون الأمر حين تظهر تلك الجنيّات السيئةُ التأثير والتي يروون عنها في كورسيكا أكثر من قصة مرعبةٍ في سهرات الشتاء. وأفاد معاونُ مدير الشرطة، ورجالُ الشرطة، وعددٌ من النساء من هذه الحركة ليرموا بأنفسهم بين الطرفين، فقد كان الرعاةُ الريبيانيون قد هيّؤوا أسلحتهم، وكان يمكن أن تأتي لحظةٌ فيخشى أن يدور قتالٌ جماعي في الساحة، غير أن العصبتين كانتا مجرّدتين من قادتهما. ونادراً ما يصل الكورسيكيون إلى الاشتباك في غيابِ صانعي صراعاتهم الداخلية، فهم منضبطون في اندفاعاتهم الغاضبة، زدْ على ذلك أن كولومبا التي غدت حذرةً بفضل النجاح قد كبحت حاميتَها الصَّغيرة.

---

(١) - أي من أنصار عائلة ديلا ريبيا. (م: ز.ع)

وكانت تقول: دعوا هؤلاء الناسَ المساكين يبكون، دعوا هذا العجوز يحملُ لحمه، فماذا يفيدُ قتلُ هذا الثعلب العجوز الذي لم تعدْ له أسنانٌ ليعضّ بها؟ فتذكر، يا جيوديس باريّسيني الثّاني من آب! تذكّر المحفظةَ المخضّبةَ بالدّم، والتي كتبتَ فيها أشياءَ بيدك، يد المزوِّر! كان والدي قد سجّل فيها دينك. وقد دفعه ابناك، إني أُحلُّك من ديْنك، أيّها العجوزُ باريّسيني!

ورأت كولومبا، وهي مكتوفة اليدين، وابتسامةُ احتقارٍ على شفتيها، رأت الجثّتين تُحملان إلى منزل أعدائها، ثم تفرّق الجمهورُ ببطء، فأغلقت بابها، وقالت للعقيد وهي تدخل إلى غرفة الطعام:

«أسألكم أن تعذروا مواطنيّ، يا سيدي، فلم أكنْ أظن قط أن كورسيكيين يطلقون النار على منزلٍ فيه أناسٌ غرباء. وأنا أشعر بالخجل من بلدي».

وفي المساء، ما إن اعتزلت الآنسةُ ليديا في غرفتها حتى تبعها العقيدُ إليها، وسألها عما إذا كان من الأفضل لهما أن يغادرا، منذ اليوم التالي، قريةً يتعرّضان فيها كلّ لحظة للإصابة برصاصةٍ في الرأس، وبلداً لا يرى المرءُ فيه إلا أعمالَ القتل والغدْر، وذلك في أقرب وقتٍ ممكن.

ومكثت الآنسةُ نيفيل بعضَ الوقت من دون أن تردّ، وكان من الواضح أن عرضَ والدها لم يسبب لها إحراجًا بسيطًا، فقالت أخيراً:

«كيف يمكننا أن نترك هذه الشابة التعسة الحظ في لحظةٍ تحتاج فيها إلى الكثير من المواساة؟ ألا ترى، يا والدي، أن ذلك سيكون قسوةً منّا؟

فقال العقيد:

- إني أتكلمُ من أجلك، يا ابنتي، وأؤكّد لكِ أنني لو كنتُ أعلم أنّك بأمانٍ في فندق أجاكسيو، لشقّ عليّ أن أغادرَ هذه الجزيرةَ اللّعينة، من غير أن أشدَّ على يدِ هذا الرجل الباسل ديلا ريبيا.

- حسنًا، يا والدي، فلننتظر أيضًا، وقبل أن نذهبَ لنتأكّد جيداً من أننا لانستطيعُ أن نؤدي لهم أيةَ خدمة!

فقال العقيد وهو يقبّل ابنته على جبينها:

- يا لقلبك الطيّب! أُحبُّ أن أراك على هذه الصّورة، وأنت تضحين من أجل تخفيفِ شقاء الآخرين. فلنبقَ، فلا يندمُ المرءُ قطّ إذا ما قامَ بعملٍ جيّد».

كانت الآنسة ليديا تتقلّب في سريرها، من غير أن تستطيع النوم، فحينًا، كانت الضجّةُ المبهمةُ التي تسمعُها تبدو لها، وكأنّها تحضيراتٌ لهجومٍ على المنزل، وحينًا، تُطَمئنُ نَفْسَها، وتفكرُ بالجريحِ المسكين، الذي ربما يكون ممدّداً في هذه اللحظة على الأرض الباردة، ولا يتلقى أية مساعدة غير تلك المعونات التي يمكنُ أن ينتظرها من رأفةِ خارجٍ على القانون. وكانت تتصوّره مضرّجًا بالدّم، ومتخبّطًا في آلام فظيعة. والأمرُ الفريدُ هو أنه، في كلِّ مرة تتبدى صورةُ أورسو في ذهنها، كان يبدو لها دومًا مثلما رأته في لحظةِ رحيله، وهو يضمُّ إلى شفتيه التميمةَ التي كانت قد أعطته إياها... ثم أخذت تفكر بشجاعته، وكانت تقولُ لنفسها إن الخطر الذي تعرَّض له، ونجا منه لِلتوّ، إنما كان بسببها، وكي يراها في وقتٍ أبكر بقليل. ولم تكن تحتاجُ إلا القليلَ كي تُقنع نفسها بأنه قد كسر ذراعه في سبيل الدفاع عنها. وكانت تلومُ نفسها على جراحه، غير أنها كانت تزدادُ إعجابًا به من أجلِ ذلك. ولئن لم يكن للطلقةِ المزدوجة في نظرها التقديرُ الذي يحمله لها كلٌّ من براندولاكسيو وكولومبا، فقد كانت تجد، مع ذلك أن عدداً قليلاً من أبطالِ الروايات قد أظهروا ذلك القدر من البسالة، ومن برودةِ الأعصاب، في ظرفٍ شديدِ الخطورة كذلك الظرف.

كانت الغرفة التي تشغلها هي غرفة كولومبا. وكانت صورةُ أورسو المصغرة وهو يرتدي زيّه كملازم ثانٍ معلقةً على الجدار، فوق شيء هو أشبه مايكون بمركعٍ للصّلاة من السّنديان إلى جانب سُعفة مباركة، فنزعت الآنسة نيفيل تلكَ الصّورة، وتأمّلتها طويلاً، ووضعتها أخيراً بقربِ سريرها، بدلاً من أن تعيدها إلى

مكانها، ولم تنم إلا عند طلوع النهار، وكانت الشمس قد ارتفعت بشكلٍ كبير فوق الأفق، عندما استيقظت، فلمحت، أمام سريرها، كولومبا التي كانت تنتظر بلا حراك اللحظة التي تفتح فيها عينيها. فقالت لها كولومبا: حسنًا يا آنسة! ألست متضايقةً في منزلنا الفقير؟ أخشى ألا تكوني قد نمتِ إلا قليلاً.

فقالت الآنسة نيفيل وهي تنهضُ جالسة:

- هل وصلتكم أخبارٌ منه، يا صديقتي العزيزة؟

ولمحت صورةَ أورسو، فسارعت إلى إلقاءِ منديلٍ عليها لإخفائها.

فقالت كولومبا وهي تبتسم:

«أجل، لدي أخبار».

وأمسكت الصورة:

«هل تجدين أنها تشبهه، إنه أفضلُ منها».

فقالت آنسة نيفيل، وقد اعتراها الخجل:

- يا إلهي! لقد نزعتُ... من غير انتباه... هذه الصورةَ... فعندي نقطةَ ضعفٍ هي لمسُ كلّ شيء... وعدم تركِ أيّ شيء في مكانه... فكيف هو أخوك؟

- حسن، فلقد أتى جيوكانتو إلى هنا، هذا الصّباح، قبل السّاعة الرابعة... وقد جلبَ إليّ رسالةً... موجهةً إليكِ، يا آنسة ليديا، فأورسو لم يكتب الرسالة لي، وقد وضعَ على العنوان فعلاً: إلى كولومبا، ولكن في الأسفل، من أجل الآنسة ن... إن الشقيقات لاتغارُ إحداهن من الأخرى. وقد قال جيوكانتو إنه قد تألم كثيراً وهو يكتب. أما جيوكانتو الذي يكتب خطًا رائعًا، فقد عرض عليه أن يكتب له ما يمليه عليه، ولكن لم يقبل. لقد كان يكتبُ بقلمِ رصاص، وهو ممدّدٌ على ظهره، وكان براندولاكسيو يمسكُ له الورقَ. وكان أخي

في كلّ لحظةٍ يريدُ أن ينهض، ولكنه عند أقلّ حركةٍ، حينذاك، كان يحسُّ بآلامٍ فظيعة، وكانَ جيوكانتو يقولُ إن ذلك مثيرٌ للشفقة، وهذه هي رسالته.

وقرأت الآنسة نيفيل الرسالةَ التي كتبت بالإنكليزية، زيادةً في الحذرِ بلا شك، وهاكم ما كانت تحتويه تلك الرسالةُ:

أيتها الآنسة:

إن قدراً تعساً قد ساقني إلى ما أنا فيه، وأنا أجهلُ ما سيقوله أعدائي، وأيةَ افتراءاتٍ سيخترعون، ولكن قلّما يهمني ذلك. إذا كنتِ أنت، يا آنستي، لاتصدقينه. فمنذ أن رأيتك هدهدتُ في نفسي أحلاماً حمقاء. وكانَ لابدّ من هذه الكارثة لأُظهر لنفسي جنوني. أما الآن، فقد غدوتُ عاقلاً، وأعرفُ ماهو المستقبلُ الذي ينتظرني، ولسوف يجدني ممتثلاً. إن هذا الخاتم الذي أعطيتني إيّاه، والذي أظنّ أنه تميمةُ سعادة، لا أجرؤ على الاحتفاظ به. وأخشى، أيتها الآنسة نيفيل، ألا تندمي على أنك قد وضعت عطاياكِ في مكانٍ سيّئ إلى درجةٍ كبيرة، أو أخشى على الأصح أن يذكّرني الخاتمُ بالزّمن الذي كنتُ فيه مجنوناً. إنّ كولومبا سوف تعيدُهُ إليك... فوداعاً، يا آنستي. سوف تغادرين كورسيكا. ولن أراكِ بعد ذلك. ولكن قولي لشقيقتي إني لا أزالُ أحظى بتقديرك، وإني أقول بثقةٍ إني استحقّه دائماً.

«أو. د. ر»

كانت الآنسة ليديا قد أدارت رأسها كي تقرأ تلك الرسالة، فسلّمتها كولومبا، التي كانت تراقبها باهتمام، الخاتمَ المصري وهي تسألها بالنّظر عما يعنيه هذا. غير أن الآنسة نيفيل لم تكن تجرؤ على رفع رأسها. وكانت تتأمّلُ بحزنٍ الخاتم الذي كانت تضعه في إصبعها، وتنزعُه منها بالتناوب.

فقالت كولومبا:

يا عزيزتي الآنسة نيفيل، ألا يمكنني أن أعلم ماذا يقول لك أخي، هل يحدثك عن حالته؟

فقالت الآنسة ليديا وهي تحمرُّ خجلاً:

ولكنه لايتكلّم عنها... إن رسالته بالإنكليزية... ويأملُ في أن يتمكّن مديرُ الشرطة من أن يرتّب...

فجلست كولومبا على السّرير، وهي تبتسمُ بمكرٍ، وأمسكت بيدي الآنسة نيفيل، ونظرت إليها بعينيها النافذتين:

وقالت لها: «هل ستكونين طيبة؟ وهل تردّين على أخي، فلسوف تفيدينه كثيراً! وقد خطرت لي فكرةُ إيقاظك للحظةٍ من الزمن، عندما وصلت رسالتُه. ثم أني لم أجرؤ على ذلك، فقالت الآنسة نيفيل:

- لقد أخطأتِ في ذلك حقّاً، فإذا كان بوسعِ كلمةٍ مني أن...

- لا يمكنني الآن أن أرسل إليه رسائلَ، فقد وصل مديرُ الشرطة، وبييترانيرا تعجُّ بخدمة المسلّحين، وسوف نرى فيما بعد. آه! لو كنتِ تعرفين أخي، أيتها الآنسة نيفيل لَأحببته كما أحبّه... إنه كثير الطيبة! والإقدام! وفكّري بما فعله وحده ضدَّ رجلين وهو جريح!

كان مدير الشرطة راجعاً، وقد أتى برفقة رجال شرطته وجنوده المتجولين، بعد أن أُحيط علماً بالأمورِ عن طريق مُرسَلِ معاونه السريع. وقد اصطحب معه أيضاً مفوضَ الملك. وكاتب المحكمة والباقين، كي يجري التحقيقُ في الكارثةِ الجديدة والمرعبة والتي تُعقِّد، وإذا شئنا، تُنهي الأعمال العدوانية في بييترانيرا... وبعد وصوله بقليل، رأى العقيدَ نيفيل وابنته، ولم يخفِ عليهم أنه يخشى أن تأخذَ القضيةُ منحىً سيئاً.

وقال: أنتم تعلمون أن المعركة لم يكن فيها شهود، وسمعةُ ومهارةُ هذين الشابين المنكوبين قد كانت مثبتةً بصورةٍ جيدة، بحيث أن الناسَ جميعاً يأبون

تصديقَ أن السيد ديلا ريبيا قد تمكن من قتلهما من غيرِ معونةِ رجالٍ خارجين على القانون يقال إنه قد لجأ إليهم.

وصرخ العقيد: هذا غير ُممكن، فأورسو ديلا ريبيا شابٌ مفعمٌ بالشرف، وإني أضمنه.

فقال مدير الشرطة: أنا أصدقُ ذلك، غير أن مفوض الملك (وهؤلاء السادة متشككون دومًا) لا يبدو لي أن له موقفًا جدّ إيجابي لصالح أورسو. وبين يديه مستندٌ مزعجٌ لصديقك. وهو رسالةُ تهديد موجهةٌ إلى أورلاندوكسيو، وفيها يحدّدُ موعداً لملاقاته... ويبدو له هذا الموعدُ فخًّا.

فقال العقيدُ: وهذا الأورلاندوكسيو قد رفضَ أن يقاتل مثل رجلٍ ظريف.

- ليست هذه هي العادة هنا، فالناس ينصبون فخًّا، ويقتلون من الخلف، هذه هي طريقةُ البلد. وهناك فعلاً شهادةٌ لصالح أورسو، وهي شهادةُ طفلةٍ تؤكدُ أنها قد سمعت أربعةَ عيارات نارية. وكان العياران الأخيران منها وهما أقوى من الأولين، يصدران عن سلاحٍ ذي عيارٍ ضخم مثل بندقية السيد ديلا ريبيا. ولسوء الحظ، فإن هذه الطفلةَ هي ابنةُ أخ أحد الخارجين على القانون، والذي يشتبه به بالتواطؤ، فقد حفظت درسها الذي تلقته.

فقاطعته الآنسة ليديا، وقد احمرَّ وجهها إلى أقصى حدّ:

- لقد كنا يا سيدي على الطريق، عندما أطلقت العيارات النارية، وقد سمعنا الشيء نفسه.

- في الحقيقة، هذا هو المهم، وأنت، أيها العقيد، قد لاحظت الملاحظة نفسها من غير شك؟

فاستأنفت الآنسة نيفيل بحمية: أجل إن والدي المعتاد على الأسلحة هو الذي قال:

«هذا هو السيد ديلا ريبيا الذي يطلقُ النار من بندقيتي».

- وطلقات البندقية التي تعرفتموها تلك كانت هي الطلقات الأخيرة؟

- الطلقتان الأخيرتان، أليس كذلك، يا أبي؟

لم تكن ذاكرةُ العقيد جيدةً جداً، غير أنه لم يكن يقوى في كلّ مناسبة على معارضة ابنته. «ينبغي فوراً الحديث عن ذلك مع مفوضِ الملك، أيها العقيد، وعلى أية حال، فنحن ننتظر هذا المساء جرّاحًا يعاين الجثتين، ويتحقق من أن الجروح أحدثها السلاح المعنيّ نفسه.

فقال العقيد: أنا الذي أعطيتُ أورسو هذا السلاح، وأود أن أعلم أنه في يدٍ أمينة... أعني... هذا الفتى المقدام. فأنا مرتاحُ حقًّا من أن السلاح قد كان بين يديه، فمن دون بندقيتي المانتون، لا أدري كيف كان سينجو من المشكلة.

الفصل التاسع عشر

وصل الطبيبُ الجراحُ متأخراً بعضَ الشيء. وكانت قد حدثت له مغامرةٌ على الطريق، فقد صادفه جيوكانتو كاستريكوني، وجرى إبلاغه بأكثرِ ما يمكن من اللباقة بأن يأتي ليقدّم عنايته لرجلٍ جريح. وقد اقتيد إلى جانب أورسو، فوضع على جرحه أولَ ضمادة. ثم رافقه الخارج على القانون إلى مكانٍ بعيدٍ كفاية، ولقنه أموراً كثيرة حين حدثه عن أشهرِ أساتذة بيزا الذين كانوا، كما يقول، أصدقاءه الحميمين.

وقد قال له اللاهوتي أثناء وداعه له: «لقد أوحيت لي، أيها الطبيب، بتقديرٍ فائق بحيث لا يمكنني الظنّ بأنه من الضروري تذكيرك بأن الطبيب ينبغي أن يكون متكتماً مثل كاهن الاعتراف». وكان يقومُ بتهيئةِ آلية بندقيته. «لقد نسيتَ المكان الذي تشرفنا فيه بلقائك، وداعًا، لقد سُررنا بمعرفتك».

أما كولومبا فقد رجت العقيد أن يحضر تشريحَ الجثتين.

وقالت: «أنت تعرف أفضل من أيّ شخصٍ بندقية أخي، وسوف يكونُ حضورك مفيداً، زد على ذلك أن هناك الكثيرمن الناس الأشرار هنا بحيث أننا قد نتعرضُ لأخطارٍ كبيرة، إذا لم يكن لدينا أحدٌ يدافع عن مصالحنا».

وما إن بقيت وحدها مع الآنسة ليديا، حتى أخذت تشكو من صداعٍ شديد، فاقترحت عليها نزهةً على بعدِ بضع خطواتٍ من القرية.

وكانت تقول: إن الهواءَ الطلق سيكون مفيداً لي. فلم استنشقه منذ زمنٍ طويل.

وكانت تتكلّم عن أخيها أثناء سيرها. ولم تكن الآنسة ليديا، والتي كان ذلك الموضوع يستحوذُ استحواذًا كبيرًا على اهتمامها، لم تكن تلاحظُ أنها تبتعدُ كثيراً عن بييترانيرا. وكانت الشمسُ قد أخذت تغربُ، عندما لاحظت ذلك، فحثت كولومبا على العودة إلى المنزل. وكانت كولومبا تعرف طريقًا مختصرةً تُقصّر مسافةَ الرجوع كثيراً، كما كانت تقول، فتركت المعبرَ الذي كانت تتبعه، وسارت في معبرٍ آخر يبدو أنه مطروقٌ على نحوٍ أقلّ بكثير. وبدأت في الحال تتسلقُ هضبةً شديدةً الوعورة بحيث أصبحت مجبرة باستمرار على التمسك بإحدى يديها بأغصان الأشجار كي تسند نفسها، فيما كانت تشدُّ رفيقتها إليها باليد الأخرى، وبعد مرور ربعِ ساعةٍ على ذلك الصعودِ المجهد، وجدتا نفسيهما فوق سهلٍ مغطى بالآس والقطلب، في وسط كتلٍ كبيرة من الغرانيت الذي ينبثقُ من الأرض، من كلِّ الجهات. وكانت الآنسة ليديا متعبةً جداً، ولم تكن القريةُ تظهرُ، فقد كان الظلامُ مخيمًا تقريبًا، وقالت: «أتعلمين ياعزيزتي كولومبا أني أخشى أن نكون قد تُهنا؟»

فأجابت كولومبا: لا تخافي، ولنتابع المسير دائمًا، فاتبعيني.

– ولكني أؤكدُ لك أنك مخطئة، فلا يمكن للقرية أن تكون من هذه الجهة، وأراهنك بأننا ندير لها ظهرنا. انظري، تلك الأنوار التي نراها بعيدةً، إن بييترانيرا هناك بالتأكيد.

فقالت كولومبا باضطراب: يا صديقتي العزيزة، أنتِ على حق، ولكن على بعد مئتي متر من هنا... في هذا الدغل...

– وإذن؟

– إن أخي موجودٌ فيه، ويمكنني أن أراه وأعانقه إذا أردتِ.

فصدرت عن الآنسة نيفيل حركةٌ تنمُ عن المفاجأة.

وتابعت كولومبا: لقد خرجت من بييترانيرا، دون أن يلاحظني أحد، لأني كنتُ معك... وإلا لكانوا تبعوني... فهل يمكن أن نكون قريبتين منه إلى هذه الدرجة، ولا نراه!

لماذا لا تأتين معي لرؤيةِ أخي المسكين؟ فتجلبين له الكثيرَ من السرور.

- ولكن يا كولومبا . . . لن يكون ذلك مناسبًا من جهتي.

- أفهم ذلك، فأنتن نساءَ المدنِ أيضًا، يقلقكنّ دومًا ماهو مناسبٌ، أما نحن، نساء القرى، فلا نفكر إلا بما هو حسن.

- ولكن الوقت قد تأخر! وماذا سيظنّ بي أخوك؟

- سيرى أن أصدقاءه لم يتركوه، وهذا ما سيمنحهُ الشجاعةَ للتحمل.

- ووالدي سيكون قلقًا . . .

- إنه يعلمُ أنك معي . . . حسنًا، هل قررتِ . . .

وأضافت بابتسامةٍ ماكرة:

- لقد كنت تنظرين إلى صورته، هذا الصباح.

- كلا . . . فعلاً، يا كولومبا، أنا لا أجرؤ . . . فهؤلاء الخارجون على القانون الموجودون هناك . . .

- حسنًا، هؤلاء الخارجون على القانون لايعرفونك، ما أهمية ذلك، لقد كنت ترغبين في رؤية بعضهم!

- يا إلهيْ!

- حسنًا! يا آنستي، اتخذي قرارًا، فأنا لا أستطيعُ أن أتركِك وحدكِ، فلا يعلمُ المرء ماذا يمكن أن يحدث، فلنذهب لرؤية أورسو. أو لنعدْ معًا إلى القرية . . . فأرى أخي . . . اللهُ يعلم متى، وربما لن أراه أبدًا . . .

- ماذا تقولين، يا كولومبا؟ حسنًا، فلنذهب! ولكن لنبق دقيقةً واحدةً فقط، وبعدها نرجعُ في الحال.

ضغطت كولومبا على يدها، من غير أن تجيب، وأخذت تمشي بسرعة كبيرة بحيث أن الآنسة ليديا كانت تلاقي المشقة في اللحاق بها. وتوقفت كولومبا لحسن الحظ بسرعة وهي تقول لرفيقتها:

«علينا ألا نتقدم أكثر قبل أن نخطرهم بذلك، فمن الممكن أن نتلقى طلقةَ بندقيةٍ ربما». وشرعت تصفر من بين أصابعها، وبعد ذلك بقليل، سمع كلبٌ ينبحُ، فلم يلبث حارسُ الخارجين على القانون المتقدم أن ظهر، وهو أحدُ معارفنا القدامى، الكلب بروسكو الذي تعرّف كولومبا في الحال. وأخذ على عاتقه إرشادَ كولومبا. وبعد الكثيرِ من الانعطافات في شعاب الدّغل الضيقة، تقدم للقائهما رجلان مدججان بالسلاح:

فسألت كولومبا هل أنت براندولاكسيو؟ أين أخي؟

فأجاب الخارجُ على القانون: هناك، ولكن، تقدّمي برفق، فهو نائم، وهذه هي المرة الأولى التي يحدثُ له هذا، منذ الحادث الذي تعرّض له. تبارك الله! من الواضح أنه حيث يمرّ الشيطان تمرُّ المرأةُ أيضًا.

اقتربت المرأتان بحذر، فلمحتا أورسو راقدًا على كومةٍ من السرخس، ومغطى بمعطفٍ سميكٍ، بقرب نارٍ قد موّهوا بحذرٍ توهجها، من خلال بناء جدارٍ صغيرٍ من حجارةٍ بلا طين. وكان أورسو شاحبًا تمامًا. وكان تنفُّسه المتعبُ مسموعًا، فجلست كولومبا إلى جانبه، وأخذت تتأمله بصمت، وقد ضمّت يديها، وكأنها تصلّي له في نفسها. أما الآنسة ليديا التي غطّت وجهها بمنديل، فقد التصقت بها، غير أنها من وقتٍ لوقت، كانت ترفع رأسها لترى الجريح من فوق كتف كولومبا. ومضت ربع ساعة من غير أن يفتح أحدٌ فمه. وكان براندولاكسيو قد توغل في الدغل، عند الإشارة التي صدرت عن اللاهوتي، وأمام سرور الآنسة ليديا التي وجدت للمرّة الأولى أن لحى الخارجين على القانون الطويلة ومعدّاتهم مفرطةٌ في طابعها المحلي.

وأخيراً، قام أورسو بحركة، فانحنت كولومبا عليه، وقبّلته عدة مرات، وأرهقته بالأسئلة عن جرحه، وآلامه، واحتياجاته. وبعد أن أجاب بأنه في حال حسنة بقدر الإمكان، سألها أورسو بدوره إن كانت الآنسة نيفيل لا تزال في بييترانيرا، وإن كانت قد كتبت لها. فكولومبا، بانحنائها فوق أخيها، كانت تحجبُ عنه حجبًا كاملاً رفيقتها التي كانت الظلمةُ فضلاً عن ذلك يمكن أن تتيحَ له بصعوبةٍ تعرُّفها. كانت تمسك بإحدى يدي الآنسة نيفيل، وتسندُ، باليد الأخرى، رأسَ الجريح إسناداً خفيفًا.

كلا، يا أخي، إنها لم تعطني رسالةً لأجلك. . . ولكنك تفكر دومًا بالآنسة نيفيل، فأنت إذن تحبها فعلاً؟

- أجل، أحبها، يا كولومبا! أما هي، فربما تحتقرني الآن!

وفي تلك اللحظة، قامت الآنسة نيفيل بجهدٍ كي تسحب يدها، غير أنه لم يكن من السهل أن تجعل كولومبا تفلتها، فقد كانت يدها تمتلك قوةً رأينا بعضَ الأدلة عليها، مع أنها يدٌ صغيرة، وحسنةُ التكوين.

فهتفت كولومبا: «أتحتقركَ بعد الذي فعلته. . . على العكس، إنها تمتدحك. . . أه! يا أورسو، لعل لديّ الكثير من الأشياء التي أحكيها لك عنها.

وكانت اليد تريدُ دومًا الإفلات، غير أن كولومبا كانت تشدُّها باستمرار فتقرّبها من أورسو أكثر فأكثر.

فقال الجريحُ: وأخيراً، لماذا لم تجبني. . . سطرٌ واحد، وكان يمكن أن أكون مسروراً.

انتهت كولومبا، لشدة ما جذبت يدَ الآنسة نيفيل، إلى وضعها في يد شقيقتها حينذاك، تنحّت جانبًا بصورة مفاجئة، وهي تنفجر ضاحكة، وهتفت:

«احترس يا أورسو من أن تتكلّم بالسوء على الآنسة ليديا، فهي تفهم الكورسيكية، بصورةٍ جيدةٍ جداً».

سحبت الآنسة ليديا يدها حالاً، وغمغمت ببضعِ كلمات غير مفهومةٍ، فظن أورسو أنه يحلم.

«أنت هنا، يا آنسة نيفيل! يا إلهي! كيف تجرأت على ذلك؟ أه! إنك تجعلينني سعيداً».

وحاول، وهو ينهض بجهدٍ أن يقترب منها.

فقالت الآنسة ليديا:

«لقد رافقتُ شقيقتك... كي لا يمكنهم أن يخمّنوا المكان الذي تذهب إليه... ثم أني كنتُ أريد أيضاً... أن أتأكّد... ويا للأسف، من أن وضعك سيّئ هنا!».

كانت كولومبا قد جلست خلف أورسو، فرفعته بحذر، وبحيث تسندُ رأسه على ركبتيها، وأحاطت عنقه بذراعيها، وأشارت إلى الآنسة ليديا لتقترب.

وكانت تقول: «أقربْ! أقرب! لا ينبغي أن يرفعَ المريضُ رأسه أكثر من اللازم». ولما كانت الآنسة ليديا مترددةً، فقد أمسكت كولومبا يدها، وأجبرتها على الجلوس في مكان أقرب، بحيث أصبح فستانها يلامس أورسو، ويدها التي كانت كولومبا تمسكها، تستقر على كتف الجريح.

وقالت كولومبا بمرح: إنه هكذا في حالٍ جيدةٍ جداً، أليس كذلك يا أورسو، فالوضعُ جيدٌ هنا، في الدغل، وفي المخيم، في ليلةٍ جميلة كهذه؟

فقال أورسو:

- أوه! نعم! يا لها من ليلةٍ جميلة لن أنساها أبداً!

وقالت الآنسة نيفيل: لا بدّ أنك تتألم كثيراً!

وقال أورسو: لم أعد أتألم، وأودُّ أن أموتَ هنا.

كانت يده اليمنى تقتربُ من يدِ الآنسة نيفيل التي كانت تحتفظ كولومبا بها دوماً حبيسة يدها.

وقالت الآنسة نيفيل:

«يجب أن يتمّ نقلك حتماً إلى مكانٍ آخر يمكن فيه العناية بك، يا سيد ديلا ريبيا، فلن أتمكن من النوم بعد هذا اليوم الذي رأيتك فيه راقداً، في هذا الوضعِ السيئ... وفي العراء...

- لو لم أخشَ أن ألتقيك يا آنسة نيفيل، لكنت حاولت الرجوع إلى بييترانيرا، وأصبحت سجيناً.

وسألت كولومبا:

- ولماذا كنت تخشى لقاءها يا أورسو؟

- كنت قد خالفتكِ، يا آنسة نيفيل... ولم أكن أجرؤ على رؤيتك في تلك اللحظة.

فقالت كولومبا ضاحكة:

- هل تعلمين، يا آنسة ليديا، أنك تجعلين أخي يفعل كُلَّ ما تشائين؟ سأمنعكِ من رؤيته.

فقالت الآنسة نيفيل:

- آمل أن تنجلي هذه القضية، ولايعودُ لديكم شيء تخشونه... ولسوف أكون مسرورةً حقًّا إذا ما عرفت، حين نسافر، أنهم قد أنصفوك، وأقرّوا باستقامتك كما يقرّون بإقدامك.

- أتسافرون يا آنسة نيفيل! لاتقولي هذه الكلمة بعد الآن.

- ماذا تنتظرون... إن والدي لايمكنه أن يصطاد باستمرار... ويريدُ أن يسافر.

فترك أورسو يده التي كانت تلامسُ يدَ الآنسة ليديا، تركها تسقط، وهيمنت لحظةٌ من الصمت.

واستعادت كولومبا الكلامَ قائلة :

«عجبًا! لن ندعكم تسافرون بهذه السرعة، فلدينا الكثير من الأشياء التي نريدُ أن نريكم إياها في بييترانيرا. . . ومن ناحيةٍ أخرى، فقد وعدتني بأن ترسمي صورةً لي، ولم تبدئي بها بعد. . . ثم أني وعدتك بأن أنظم لكِ مغناة ليليةً من خمسةٍ وسبعين مقطعًا. . . ثم أن. . . ولكن ما الذي دهى بروسكو ليدمدم؟ هذا هو براندو لاكسيو يركض خلفه. . . لنرَ ماذا هناك».

ونهضت في الحال، ووضعت رأسَ أورسو على ركبتي الآنسة نيفيل بلا تكلُّف، وركضت باتجاه الخارجين على القانون.

لم تعد الآنسة نيفيل تدري ماذا تصنع، فقد اعترتها الدهشةُ قليلاً لأنها ألفت نفسها تسندُ شابًا جميلاً على ذلك النحو، وهي بمفردها معه، وسط الدغل. وكانت تخشى أن تؤذي الجريحَ، إذا ما انسحبت فجأة. غير أن أورسو ترك من تلقاء نفسه المسندَ الرقيقَ الذي كانت شقيقته قد أعطته إياه للتوّ، ونهضَ على ذراعه اليمنى، وقال:

«وهكذا، سوف تذهبون قريبًا، يا آنسة ليديا؟ لم يخطر ببالي قط أنه لا بدّ لكم أن تطيلوا إقامتكم في هذا البلد التعس. . . ومع ذلك. . . فمنذ أن أتيتِ إلى هنا، أصبحت أتألم أكثر بمئة مرة، وأنا أفكر بأنه ينبغي أن أودعك. . . فأنا ملازمٌ مسكين. . . بلا مستقبل. . . وملاحقٌ الآن. . . فأية لحظة هذه، يا آنسة ليديا، لأقول لكِ إني أحبك. . . ولكن لا شك أن هذه هي المرة الوحيدة التي أستطيع فيها أن أقولها لكِ. ويبدو لي أنني أقل تعاسةً الآن وقد خففت العناء عن قلبي».

فأدارت الآنسة ليديا رأسها، وكأن الظلام لم يكن كافيًا لإخفاء احمرار وجهها، وقالت بصوتٍ مرتعش:

«هل كنتُ يا سيد ديلا ريبيا أتيتُ إلى هذا المكان لو. . .»

وكانت، أثناء كلامها، تضع في يدِ أورسو التميمة المصرية، ثم قالت، وهي تبذلُ جهدًا شديدًا كي تستعيدَ اللهجة المازحة المعهودةَ لديها:

إنه لأمرٌ سيئ من جانبك، يا سيد أورسو أن تتكلّم على هذا النحو. . .

وأنت في وسط الدّغل، ومحاطٌ بتمرّديك[1]. أنت تعلم أني لا أجرؤ قط على أن أغضب منك.

وقام أورسو بحركة كي يقبّل اليد التي كانت تعيدُ التميمةَ إليه، ولما سحبتها الآنسة ليديا، بشيءٍ من السرعة، فقد توازنه، وسقط على ذراعه الجريحة، ولم يستطع أن يحبسَ توجعاً أليماً، وهتفت وهي ترفعه: «هل آذيتَ نفسك، يا صديقي؟ إنها غلطتي! فاعذرني. . .» وتحادثا أيضاً بعضَ الوقت بصوتٍ خفيض، وهما قريبان جداً، كلٌّ منهما من الآخر، أما كولومبا، التي هرعت إليهما بسرعة، فقد وجدتهما بالضبط في الوضع الذي تركتهما فيه.

وصرخت: «الجنود المتجولون! حاول يا أورسو أن تنهض، وأن تسير، ولسوف أساعدك. فقال أورسو:

- اتركوني. وقولي للمتمردين أن يهربوا. . . فليقبضوا علي. فقليلاً مايهمني هذا، ولكن رافقي الآنسة ليديا، بحق الله، عليهم ألا يروها هنا.

فقال براندولاكسيو الذي كان يتبع كولومبا:

- لن أتركك، فرقيبُ الجنود المتجولين هو ابن المحامي بالمعمودية، وبدلاً من أن يعتقلك سوف يقتلك، ثم يقول إنه لم يفعل ذلك عمداً.

وحاول أورسو النهوضَ، وحتى أنه خطا بضعَ خطوات، ولكنه توقف في الحال، وقال:

«لا يمكنني السير، اهربوا أنتم، وداعاً يا آنسة نيفيل، أعطني يدك، ووداعاً!»

فصرخت المرأتان: لن نتركك!

وقال براندو لاكسيو:

---

(١) - استخدمنا كلمة «متمرد» أو عبارة «خارج على القانون» حسب ضرورة السياق، في اعتقادنا(م: ز.ع).

- إذا كنتَ غير قادر على السير فيجب أن أحملك. هيا، يا سيدي الملازم، قليل من الشجاعة، سوف يتوفر لنا الوقت للرحيل عن طريق المنحدر، هناك، في الخلف. والسيد الخوري سوف يشغلهم.

فقال أورسو، وهو يتمدّد على الأرض:

لا، اتركوني، وحق الله، ويا كولومبا رافقي الآنسة نيفيل!

فقال براندولاكسيو:

- أنت قوية يا آنسة كولومبا، فامسكي به من كتفيه، وأنا أمسكه من قدميه، حسنًا! إلى الأمام سر!

وبدأوا يحملونه بسرعة، برغم احتجاجاته. وكانت الآنسة ليديا تتبعهم، وقد تملكها رعبٌ فظيع، عندما دوى صوتُ طلقة بندقية، ردّت عليها في الحال، خمسةُ أو ستةُ عيارات نارية. فأطلقت الآنسة ليديا صرخةً، وأطلق براندولاكسيو لعنةً، غير أنه ضاعف من سرعته، وكانت كولومبا، على غراره، تركض عبر الدغل، من غير أن تعير اهتمامًا للأغصان التي كانت تسوط وجهها، وتمزق فستانها، كانت تقول لرفيقتها: اخفضي رأسك، اخفضي رأسك، يا عزيزتي فيمكن للرصاصة أن تصيبك.

وساروا، أو على الأصح، ركضوا ما يقاربُ من خمسمئة خطوةٍ على هذا النحو، عندما أعلن براندولاكسيو أنه لم يعد يستطيع الاستمرار. وترك نفسه يسقطُ على الأرض، برغم حضّ كولومبا وتقريعها له.

وكان أورسو يسأل: «أين الآنسة نيفيل؟»

أما الآنسة نيفيل التي أفزعتها طلقاتُ البندقية، وكانت توقفها في كلِّ لحظة كثافةُ الدغل فقد أضاعت أثر الهاربين قبل قليل، وبقيت وحدها نهبًا لأكثر ضروبٍ القلق شدّة.

وقـال براندو لاكسيو : «لقد بقيت في الخلف، ولكنها لـم تَضعْ، فالنسـاءُ يهتـدين دائماً . فلتـصغ إذن، يا أورس أنطون إلى الضـجـة التي يحـدثهـا الخوري ببندقيتك . ولسوء الحظ، فالمرءُ لا يبصرُ شيئًا، ولا يؤذي الناسُ بعضهم بعضًا أذىً عظيمًا إذا ما تناوشوا ليلاً .

وهتفت كولومبا :

- صه! إني أسمعُ صوتَ حصان، لقد أُنقذنا .

وفي الواقع، فإن حصانًا كان يرعى في الدغل، وقد أجفله صوتُ إطلاق النار، أخذ يقترب من ناحيتهم .

فردّد براندو لاكسيو : «لقد أنقذنا!»

لقد كان الركضُ إلى الحصان، وإمساكه من شعر رقبته، وتمريرُ عقدة حبلٍ في فمه بمثابة مقود هي مسألةُ لحظاتٍ بالنسبة للمتمرّد الذي أعانته كولومبا .

وقال : فلنخطر الخوري الآن .

وصفر مرتين، فردّت صفرةٌ بعيدة على تلك الإشارة، وكفّت بندقيةُ المانتون عن إصدارِ صوتها الضخم . حينذاك وثب براندو لاكسيو إلى الحصان، ووضعت كولومبا أخاها أمام المتمرّد الذي شدّه إليه بقوة، فيما كان يقودُ مطيته باليد الأخرى، وبرغم حمولته المضاعفة فقد انطلق الحصانُ بخفة، بعد أن حفزته ضربتان جيدتان من القدم في بطنه . ونزل عدواً هضبةً وعرةً يمكن لأيّ حصانٍ غير كورسيكي أن يقتل نفسه مئةَ مرةٍ فيها .

وعادت كولومبا على أعقابها، وهي تنادي الآنسة نيفيل بكلّ قواها . ولكن أيّ صوتٍ لم يردّ على صوتها . . . وبعد أن سارت بعضَ الوقت على غيرِ هدىً، وهي تسعى لتعثر على الطريق التي تبعتها، صادفت في أحدِ الشعابِ جنديين متجولين، صرخا بها :

«من هناك؟»

فقالت كولومبا بصوتٍ ساخر :

«حسنًا، أيها السادة، يا لها من ضجة كبيرة، كم هو عددُ القتلى؟»

فقال أحد الجنود :

- لقد كنتِ مع المتمردين، ولسوف تأتين معنا .

فأجابت :

- بكلِّ طيبةِ خاطر، غير أن لي صديقةً هنا، وينبغي أن نعثر عليها أولاً .

- لقد قبضنا على صديقتك، ولسوف تذهبين معها لترقدي في السجن .

- في السجن، هذا ما ينبغي أن نراه، ولكن بانتظار ذلك الوقت، خذوني إليها .

فاقتادها الجنودُ المتجولون آنذاك إلى معسكر المتمردين الذي كانوا يجمعون فيه غنائم حملتهم : المعطفَ السميك الذي كان يغطي أورسو، ومقلاةً قديمة، وجرةً ملأى بالماء . وكانت في المكان نفسه الآنسة نيفيل التي التقاها الجنودُ وهي نصفُ ميتة من الخوف، وكانت تردُّ بالدموع على أسئلتهم جميعها، والمتعلقة بعددِ المتمردين، وبالوجهةِ التي اتخذوها .

وارتمت كولومبا بين ذراعيها، وقالت لها في أذنها : «لقد نجوا» .

ثم توجهت إلى رقيبِ الجنود المتجولين، وقالت له :

يا سيدي، أنت ترى جيداً أن الآنسة لاتعرفُ شيئًا عما تسألها عنه، فاتركونا نرجع إلى قريتنا التي ينتظروننا فيها بفارغ الصبر .

فقال الرقيبُ : سوف نأخذكم إليها . وأبكر مما ترغبون فيه، يا ظريفتي، ولسوف يتعينُ عليكما أن توضحا ما كنتما تفعلانه في الدغل، في هذه الساعة، مع المتمردين الذين هربوا منذ قليل . أنا لا أعرف أيَّ سحرٍ مؤذٍ يستخدمه هؤلاء

السفلة، غير أنهم يسحرون الفتيات بالتأكيد، ففي كلّ مكانٍ يقبعُ فيه المتمردون، من المؤكد أن المرء سيجدُ الحسناوات.

فقالت كولومبا: أنت ملاطفٌ للنساء، يا سيدي الرقيب، ولكنك لن تسيءَ التصرفَ إذا ما انتبهتَ لكلماتك. فهذه الآنسةُ هي قريبةُ مدير الشرطة، ولاينبغي الهزلُ معها.

فهمس الجندي المتجول لرئيسه:

– قريبة مدير الشرطة! إنها تعتمرُ قبعةً بالفعل.

فقال الرقيب: إن القبعةَ لاتعني شيئًا، فقد كانتا هما مع الخوري والذي هو أكبر فاتنٍ للنساء في البلد، وواجبي يقضي بأن أوصلهما، كما أنه لم يعد لدينا شيءٌ نصنعه هنا. ولولا ذلك العريفُ اللعين توبان. . . لكان السكّير فرانسو قد ظهر قبل أن أُحاصرَ الدغل. . . لولاه، لقبضنا عليهم، وكأنهم في شبكةِ صيد.

فسألت كولومبا: هل أنتم سبعة؟ وهل تعلمون، أيها السادة أنه إذا ماحضر بالصدفة الإخوةُ الثلاثة غامبيني وساركوشي وتيودور إلى تقاطعُ سانت – كريستين مع براندولاكسيو والخوري، فلسوف يكون بوسعهم أن يقدّموا لكم شغلاً كثيراً. وإذا كان يتعين عليكم أن تتحادثوا مع «قائد الحملة»[1]، فلن يكون هاجسًا لي أن أحضر، فالرصاصُ لايعرف في الليل أحداً.

إن إمكانية ملاقاة المتمردين الرهيبين الذين ذكرت كولومبا أسماءهم قبل قليل، بدت وكأنها قد أَحدثت تأثيرها على الجنود الجوالين. فأعطى الرقيبُ الأمرَ بالانسحاب وهو يرغي ويزبدُ ضد العريف توبان، ذلك الفرنسي القذر، وسلكت جماعته طريقَ بييترانيرا، حاملةً المعطف السميك والمقلاة. أما الجرّة، فقد سوّت حسابها ضربةٌ من القدم. وأراد أحدُ الجنود المتجولين أن يمسك ذراع ليديا، غير أن كولومبا دفعته في الحال، وقالت:

(١) – قائد الحملة (قالته كولومبا بالفرنسية)، هذا هو اللقب الذي يتخذه تيودور بولي.

- لا أحد يلمسها! هل تظنون أنها ترغب في الهرب! هيا، يا عزيزتي ليديا، استندي علي، ولاتبكي مثل طفل. هذه مغامرة، ولكنها لن تنتهي نهايةً سيئة، فبعد نصفِ ساعة، سنكون جالسين إلى العشاء. ومن ناحيتي، فلديّ رغبةٌ كبيرة فيه.

- وماذا سيقولون عني؟

- سيقولون إنك قد تهتِ في الدغل، هذا كلُّ شيء.

- وماذا يقولُ مديرُ الشرطة؟ وماذا سيقولُ والدي خصوصًا؟

- مدير الشرطة؟ تردين عليه بأن يهتمّ بشؤون مديرية شرطته. أما والدك؟ فبالطريقة التي كنت تتحدثين بها مع أورسو، كنتُ أظن أن لديك شيئًا تقولينه لوالدك.

فشدّت الآنسة نيفيل على ذراع كولومبا، من غير أن تجيب.

وهمست كولومبا في أذنها: «ألا يستحق أخي أن يُحَبّ، ألا تحبينه قليلاً؟»

فأجابت الآنسة نيفيل وهي تبتسمُ برغم اضطرابها:

- آه! لقد غدرت بي، أنت، التي كنت أثقُ بكِ كثيراً!

فأحاطت كولومبا قامتها بذراعها، وقبّلتها في جبينها، وقالت لها بصوتٍ خفيض:

«يا شقيقتي الصغيرة، هل تسامحينني؟»

فأجابت ليديا، وهي تعيدُ لها قبلتها:

«لابدّ من ذلك، يا شقيقتي الرهيبة».

كان مديرُ الشرطة ومفوّض الملك يقيمان في منزلِ معاونِ مدير الشرطة في بييترانيرا، أمّا العقيدُ الذي كان شديدَ القلق على ابنته، فقد أتى للمرّة العشرين ليسألهم عن الأخبار، عندما روى أحدُ الجنود الجوالين، والذي فرزه الرقيب

لأعمال البريد، روى لهم قصةَ المعركة المخيفة التي شُنت ضدّ المتمردين، وهي معركةٌ، والحقُّ يقال، لم يسقط فيها قتلى وجرحى. ولكن تمَّ الاستيلاء فيها على مقلاة، ومعطفٍ سميك وفتاتين كانتا، كما كان يقول، عشيقتي المتمردين، أو جاسوستين لهم.

وما إن أُعلن عنهما بهذه الصورة، حتى ظهرت الأسيرتان في وسط مرافقيهما المسلحين ويمكننا أن نخمن رباطةَ جأشِ كولومبا المتألقة، وخجلَ مرافقتها، ومفاجأةَ مدير الشرطة، وفرحَ العقيد ودهشته. أما مفوضُ الملك، فقد سمح لنفسه بأن يستمتع استمتاعًا ماكرًا بإخضاع المسكينة ليديا لنوع من استجواب لم ينته إلا عندما جعلها تفقدُ كلَّ رباطة جأش.

فقال مدير الشرطة: «يبدو لي أنه يمكننا حقًّا أن نخلي سبيلَ الجميع، فقد كانت هاتان الآنستان تتنزهان، فلا شيء يبدو طبيعيًّا أكثر من هذا، حين يكون الطقسُ جميلاً، وقد التقتا مصادفةً شابًا لطيفًا جريحًا، فلا شيءَ أكثرُ طبيعيةً من هذا أيضًا».

ثم انتحى بكولومبا جانبًا وقال لها:

يمكنك أيتها الآنسة أن تعلمي شقيقك بأن قضيته تسيرُ بصورةٍ أفضل مما كنتُ أرجو، فمعاينةُ الجثتين وشهادةُ العقيد تثبتان أنّ كلّ مافعله هو الردُّ على النار، وأنه كان بمفرده لحظة المعركة، فكلُّ الأمورِ سوف تُسّوى، ولكن ينبغي أن يغادر الدغل بأسرعِ وقتٍ ممكن، وأن يسلّم نفسه كسجين.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة، عندما جلس العقيدُ وابنته وكولومبا إلى المائدة، أمام عشاء متبردٍّ وكانت كولومبا تأكلُ بشهيةٍ جيدة، وهي تسخرُ من مدير الشرطة، ومفوّض الملك، والجنود الجوّالين، وكان العقيد يأكلُ، ولكنه لايقولُ أيةَ كلمة، وينظرُ باستمرارٍ لابنته التي لم تكن ترفعُ عينيها من فوق صحنها. وأخيرًا، قال لها بصوتٍ رقيق، ولكنه جدّي، وباللغة الإنكليزية:

- لقد ارتبطت يا ليديا بديلا ريبيا إذن؟

فأجابت وهي تحمرّ خجلاً، ولكن بصوتٍ حازم:

- أجل يا والدي، منذ اليوم.

ثم رفعت عينيها، وحين لم تُلاحظْ على محيّا والدها أية أمارةٍ من أمارات الغضب، ارتمت بين ذراعيه، وقبّلته، كما تفعلُ الآنساتُ الحسناتُ التربية في مثل تلك المناسبات.

فقال العقيد: «حبّذا هذا الأمر. . فأورسو شابٌّ مقدامٌ، ولكن، وحقّ اللّه، لن نبقى في بلدِ الشّيطان هذا، أو أرفضُ الموافقة.

فقالت كولومبا التي تنظرُ إليهما بفضولٍ شديد:

- أنا لا أعرفُ الانكليزية، ولكنني أراهنُ أني أخمّن ماتقولونه.

فأجاب العقيد:

نحن نقول إننا سنأخذكم لتقوموا برحلةٍ في إيرلنده.

- أجل، بكلِّ طيبةِ خاطر، وسأكون الأخت كولومبا[1]، هل اتفقنا، أيها العقيد؟ هل نَصفقُ يداً بيدَ؟

قال العقيد:

- إنهم يتعانقون في مثل هذه الحالة.

---

(١) - في النص، بالكورسيكية: La surella Colomba (م: ز.ع).

الفصل العشرون

بعد مرورِ بضعة أشهر على العيار الناري المزدوج الذي أغرق قريةَ بييترايزا في حالةٍ من الذّهول (كما قالت الصّحف)، خرج شابٌ مضمّد الذراع بشكلٍ مائل من باستيا، وهو يمتطي جواده، بعد الظّهر، وتوجَّه نحو قرية كاردو الشهيرة بمنهلها الذي يزوّد الناس الضّعيفي الصّحة، بالماء العذب صيفًا. وكانت امرأةً شابّة، ذات قامة ممشوقة، وجمالٍ لافت، ترافقه، وهي تمتطي حصانًا قصيرَ القامة، أسود يمكن لخبيرٍ في الخيول أن يُبْدي إعجابه بقوّته ورشاقته. إنما كانت إحدى أذنيه لسوء الحظ مشرومةً من جراءِ حادثٍ غير مألوف. وقفزت المرأةُ إلى الأرض بخفّة، داخل القرية. وبعدها ساعدت رفيقها على النزول عن مطيّته، وفكّت عدولاً ثقيلةً كانت مربوطةً «بقربوسِ»سرجِ حصانها. ووضعت الخيولَ تحت حراسة أحد الفلاحين. أما المرأةُ المحمّلة بالعدول التي كانت تُخفيها تحت خمارها، والشابُ الّذي يحملُ بندقيةً مزدوجةً، فقد سلكا طريقَ الجبل. وهما يتبعان معبراً شديدَ الوّعورة، والذي يبدو أنه لايؤدّي إلى أيّ مكانٍ مأهول. وبعد أن وصلا إلى أحد التدرجات المرتفعة لجبل كيرسيو، توقّفا، وجلسا كلاهما على العشب. كان يبدو أنهما ينتظرانَ أحداً، فقد كانا يديران عيونهما باستمرار نحو الجبل. وكانت المرأةُ الشابةُ تستشير غالبًا ساعةً ذهبيةً جميلة. وذلك ربما كي تتأملَ حليةً يبدو أنها تمتلكُها منذ بعض الوقت، بالقدر نفسه الذي تستعلمُ به إن كانت ساعةُ اللقاء قد حانت. ولم يطلْ انتظارُهما، فقد خرج كلبٌ من الدَّغل، وعندما تلفّظت المرأة الشابة باسم: بروسكو، أسرع بالمجيء إليهما لمداعبتهما. وبعد قليل، ظهر رجلان ملتحيان، يتأبّطان بندقيتهما، ويتزنّران بحزامِ الطلقات النارية. ومسدسهما على جنبهما. وكانت ملابسهما الممزقة والمغطاة بالرقع تتباينُ مع أسلحتهما اللامعة التي خرجت من مصنعٍ مشهورٍ

على اليابسة. وبرغم التفاوت الظاهريّ في وضعهم، فقد كان الرجالُ الأربعةُ في ذلك المشهد يدنو بعضُهم من البعضِ الآخر بلا تكلُّف، وكأنهم أصدقاءٌ قدامى.

وقال أكبرُ المتمردين سنًا للشاب:

حسنًا، ياأورس أنطون، ها قد انتهت مشكلتُك، وحصلتَ على قرارٍ بانتفاءِ الدّعوى. فتهانيّ. وأنا مستاءٌ من أن المحامي لم يعدْ موجوداً في الجزيرة كي نراهَ ساخطًا. وذراعك؟

فأجاب الشاب:

– بعد خمسة عشر يومًا، يقولون لي إني أستطيعُ نزعَ الرباط المائل – ياصديقي براندو الطيب، سأذهب غداً إلى إيطاليا، وأردتُ أن أودعك، وأودع السيد الخوري أيضًا، ولهذا السبب، فقد رجوتكما أن تأتيا.

فقال براندو لاكسيو: إنك متعجلٌ حقًا، فقد حصلتَ البارحة على البراءة، وسوف ترحلُ غدًا؟

فقالت المرأة الشابة بمرح:

– لدينا أعمال، أيها السادة، ولقد جلبت لكم معي عشاءً. فكلوا، ولاتنسوا صديقي بروسكو.

– إنك تدللين بروسكو، أيتها الآنسة كولومبا. ولكنه يعترفُ بالجميل، سوف ترين. وقال له، وهو يمدُّ بندقيته أفقيًا:

– هيا، يابروسكو، اقفز من أجل الباريسيني.

فبقي الكلبُ واقفًا بلا حراك، يلعقُ خطمه، وينظر إلى صاحبه.

– اقفز من أجل ديلا ريبيا.

فقفز إلى أعلى بما يزيدُ بقدمين عما كان ضروريًا.

وقال أورسو:

اسمعوا ياأصدقائي، إنكم تحترفون مهنةً قبيحةً، وإذا لم يحدث لكم أن تنهوا مسيرتكم على تلك الساحة التي نراها هناك[1]، فإن أفضلَ مايمكن أن يحدث لكم هو أن تسقطوا في الدغل برصاصةِ أحد رجال الشرطة.

فقال كاستريكوني:

- حسنًا، إنها ميتةٌ مثل غيرها. وهي أفضل من الحمى التي تقتلك في سريرك، في وسط دموعٍ ورثتك الصادقة تقريبًا. وحين يكونُ المرءُ قد اعتاد مثلنا على الهواء الطلق، فلا شيء أجمل من أن يموتَ، وهو ينتعلُ حذاءه، كما يقولُ أناسُنا في القرية.

وتابع أورسو: أودّ أن أراكم تغادرون هذا البلد... وأن تعيشوا حياةً أكثر هدوءاً، فلماذا لاتذهبون مثلاً للإقامة في سردينيا، كما فعل عددٌ من رفاقكم. يمكنني أن أسهل لكم الوسائل كذلك.

فصرخ براندو لاكسيو:

- في سردينيا. هؤلاء الساردينون[2]! فليأخذهم الشيطان مع لهجتهم المحلية، إنهم صحبةٌ سيئة جداً بالنسبة إلينا.

وأضاف اللاهوتي:

- مامن موردٍ في سردينيا. أما أنا، فأحتقرُ الساردينين. فمن أجلِ مطاردة المتمردين، لديهم حرسٌ مدني (ميليشيا) خيّال! وهذا مايثيرُ انتقادَ المتمردين كما يثيرُ انتقاد أناس البلد في آن[3] فتبًّا لسردينيا! وإنه لأمرٌ مثيرٌ للدهشة، ياسيد ديلا ريبيا، أن تكونَ أنت، رجلُ الذوقِ والمعرفة، قد تبنيت حياتنا في الدغل، بعد أن تذوقتها، كما فعلت.

---

(١) - الساحة التي تنفذ فيها الإعدامات في باستيا.

(٢) - istos sardos!: بالإسبانية المحرفة في النص.

(٣) - أدين بهذه الملاحظة الانتقادية حول سردينيا لمتمردٍ سابق من أصدقائي، وعليه وحده تقع مسؤولية هذه الملاحظة، وهو يريد أن يقول إن المتمردين الذين يتركون الخيالة يقبضون عليهم هم مغفلون، وإن الحرس المدني الذي يلاحق المتمردين على جواده قلّما يتوفّر له حظّ الالتقاء بهم.

وقال أورسو مبتسمًا :

– ولكن عندما توفر لي أن أكون مرافقك، لم أكن في حالة يمكنني معها إلى حدٍّ كبيرٍ أن أثمن مفاتن وضعك، فلا تزال أضلاعي تؤلمني، عندما أتذكر المسافة التي قطعتها ركضًا ذات ليلة، في العراء، وأنا محمولٌ بالعرض مثل كيسٍ، على جوادٍ من غير سرج، ويقوده صديقي براندو لاكسيو.

وتابع كاستريكوني :

– ومتعةُ الهرب من الملاحقة، هل تحسبُ أنها لاتساوي شيئًا؟ كيف يمكنك ألا تتأثر بسحر حرية مطلقة تحت مناخٍ جميل مثل مناخنا؟ ومع حاملة الاحترام هذه (وكان يشيرُ إلى بندقيته) يكون المرءُ ملكًا في أيّ مكان، وبقدرِ المسافة التي يستطيعُ أن يبعثَ برصاصته إليها. إنه يأمرُ ويصحّحُ الأخطاء . . . إنها تسليةٌ جدُّ أخلاقية، ياسيدي، ومستحبة جدًا لانمنعها عن أنفسنا. فأيةُ حياةٍ جميلة هي حياةُ الفارس المتجول، حين يكون المرءُ أفضل تسليحًا، وأكثر تعقلاً من دون كيشوت؟ فخذ مثلاً أني عرفتُ في أحدِ الأيام أن عمّ الصغيرة ليلى لويجي، والذي هو عجوزٌ بخيل، لايريدُ أن يعطيها مهرًا، فكتبتُ إليه، من غير تهديد، وهذه ليست طريقتي. وهكذا، فقد بدا الرجلُ مقتنعًا في تلك اللحظة، فزوّجها. فصنعت السعادة لشخصين، صدقني، ياسيد أورسو، فلا شيء يماثلُ حياة المتمرد.

باه! كان من الممكن أن تصبحَ واحدًا منا، لولا تلك الانكليزية التي لمحتها لمحًا، غير أن الجميعَ يتحدثُ عنها بإعجابٍ في باستيا.

وقالت كولومبا، وهي تضحك :

– إن زوجة أخي المقبلة لاتحبّ الدغل، فقد خافت فيه أكثر من اللازم.

وقال أورسو :

– وأخيرًا، أتريدون أن تظلوا هنا؟ فليكن، وقولوا لي إن كان يمكنني أن أصنع لكم شيئًا.

فقال براندو لاكسيو :

- لاشيء، اللّهم إلا أن تحتفظَ بذكرى صغيرة عنا . وقد غمرتمونا . فها قد حصلت شيلينا على مهرِ لها . ولكي تستقرَّ بصورةٍ جيدة، لن تكون بحاجة كي يكتبَ صديقي الخوري رسائلَ تهديد . نحن نعلمُ أنَّ مزارعكم سيعطينا الخبز والبارود في أوقاتِ الحاجة : هكذا، وداعًا .

آمل أن أراكم ثانية في كورسيكا، في أوقاتٍ أخرى .

فقال أورسو :

- في وقت الحاجة الملحة، تفُيد بعضُ القطعِ الذهبية فائدةً كبيرة، وبما أننا الآن قد أصبحنا أصدقاء قدامى، فلن ترفضوا أن تأخذوا مني هذه الخرطوشةَ الصغيرة التي يمكن أن تفيدكم في الحصول على غيرها .

فقال براندو بلهجة حازمةٍ :

- لانقودَ بيننا، أيها الملازم .

وقال كاستريكوني :

- المالُ يصنعُ كلَّ شيء في العالم . أما في الدغل، فلا يقام وزنٌ إلا للقلبِ الجسور، والبندقية التي لا تخطئ .

واستأنف أورسو :

- لاأريد أن أترككم من غيرِ أن أتركَ لكم ذكرى معينة، هيا لنرَ ماذا يمكنني أن أترك لكم يابراندو؟

فحك المتمرد رأسه، ونظر إلى بندقية أورسو نظرةً جانبية :

«ياسيدتنا![1]، ياسيدي الملازم الأول . . . إذا تجرأت . . . ولكن لا، إنك حريصٌ عليها كثيراً .

(١) - ترجمة لكلمة «!DAME» التي تدل على هتافٍ لبدء الكلام يتوجَّهُ إلى السيدة العذراء (م: ز.ع).

- ماذا تريد؟

- لاشيء . . . الأمرُ لاقيمةَ له . . . فلا بدَّ أيضًا من طريقةِ استخدامها . إني أفكر دومًا بتلك الطلقة المزدوجة ، طلقةِ الشيطان بيدٍ واحدة أوه! إن هذا لايحدثُ مرتين .

- هذه البندقية هي ماتريد؟ كنت أهمّ بأن أجلبها لك . ولكن استخدمها بأقل ماتستطيع .

- أوه! لاأعدك باستخدامها كما فعلت . ولكن كن مطمئنًا ، فعندما يحصلُ عليها شخصٌ آخر ، يمكنك حقًّا أن تقول إن براندو سافيلي قد مات .

- وأنت ، ياكاستريكوني ، ماذا سأعطيك؟

- بما أنك تريد أن تترك لي ذكرى ماديةً منك ، فإني أطلبُ إليك من غير تكليف أن ترسل لي كتابًا لهوراس ، من أصغر قطعٍ ممكن ، فهذا سوف يسليني ، ويحولُ دون أن أنسى لغتي اللاتينية . وهناك فتاةٌ صغيرة تبيعُ البيسكاز في باستيا ، على المرفأ ، أعطها إياه . ولسوف توصله إليّ .

- سوف تحصل على كتاب من الزفير[1] ، ياسيدي العالم ، وبين الكتبِ التي كنت أريد جلبها . كان ثمة واحدٌ منها بالضبط من الزفير - حسنًا ، ياأصدقائي . ينبغي أن نفترق . فلنتصافح ، وإذا ما فكرتم يومًا بسردينيا ، فاكتبوا لي ، ولسوف يعطيكمُ المحامي ن . عنواني في القارة الأوروبية .

وقال براندو :

ياسيدي الملازم الأول ، غدًا ، عندما تصبحُ خارجَ الميناء ، انظر إلى الجبل ، إلى هذا المكان ، ولسوف نكون فيه ، ونبعثُ لك بإشارةٍ من مناديلنا .

حينذاك ، افترقوا ، وسلك أورسو وشقيقته طريقَ كاردو ، أما المتمردون ، فطريقَ الجبل .

---

(١) - الزفير : حرفٌ طباعيٌ صغير ، باسم مخترعه (م : ز.ع) .

الفصل الحادي والعشرون

في صبيحةِ يومٍ من أيامِ نيسان الجميلة، خرج العقيد السيد توماس نيفيل وابنته التي تزوجت منذ أيام معدودات، وأورسو وكولومبا. خرجوا من بيزا في عربةٍ كي يذهبوا ويزوروا ناووساً إتروريّاً قد اكتشفَ حديثاً. وكان كافةُ الأجانب يذهبون لرؤيته. وما إن نزلوا إلى داخل الآبدة، حتى سحب أورسو وزوجته أقلامهما، وأخذا يتهيئان لرسمِ الصور. أما العقيدُ وكولومبا، فقد كان كلاهما غير مهتمٍ بعلم الآثار. وقد تركاهما وحدهما، وتجولا في المناطق المحيطة.

وقال العقيد:

ياعزيزتي كولومبا، لن نرجعَ قطّ إلى بيزا في الوقتِ المناسب كي نتناول غداءنا. أفلست، جائعة؟ وهاهو أورسو وزوجته في محلاتِ التحف القديمة، وعندما يشرعان في الرسم معاً، يطولُ بهما الأمرُ كثيراً. فقالت كولومبا:

- أجل، ومع ذلك، فهما لاينقلان أيَّ جزءٍ من الرسوم.

فتابع العقيد:

- قد يكونُ رأيي أن نذهبَ إلى تلك المزرعة الصّغيرة، هناك، فلسوفَ نجدُ فيها خبزاً وربما شيئاً من نبيذِ روما. من يدري؟ وحتى قشدةً وفريزاً (فراولة)، فننتظر بصبرٍ رسّامينا.

- أنت على حق، أيها العقيد، فنحن، أنت وأنا، أناسُ المنزلِ العاقلين، سنكون مخطئين إذا ما جعلنا من أنفسنا شهيدين لهذين المغرميين اللذين لايعيشان إلا على الشعر. فأعطني ذراعك. ألستُ أهذّبُ نفسي؟ فأمسك بذراعِ رجل،

وأعتمرُ القبعات، وأرتدي فساتينَ حسب الدُّرْجة، ولديّ حليّ، وأتعلم أشياءَ جميلةً لاأعرفُ عددها. ولم أعد على الإطلاق تلك المرأة غير المتمدّنة. فانظر قليلاً كم هو ظريفٌ أن أرتدي هذا الوشاح... وذلك الفتى الأشقر، ذلك الضّابط الذي يعملُ في فيلقك، وكان في حفلةِ الزّواج... ياإلهي! لا يُمكنني أن أحفظ اسمه، إنه شابٌ طويلٌ، أجعد الشّعر، وبوسعي أن أطرحه أرضًا بلكمةٍ واحدة...

فقال العقيد: شاتوورث؟

- الحمد للّه! ولكني لن ألفظ اسمه أبداً. حسنًا، إنه مغرمٌ متيَّمٌ بي.

- آه! ياكولومبا، إنك تصبحين ذات غنجٍ حقًا، ولسوف يكونُ لدينا زواجٌ آخر في وقتٍ قريب.

- أنا! أتزوّجُ؟ ومن الذي يربّي ابن أخي... عندما يعطيني أورسو ابن أخٍ لأربّيه؟ من الذي سيعلّمه أن يتكلّم الكورسيكية؟ نعم، سوف يتكلم الكورسيكية، ولسوف أصنعُ له قبعةً مدببة كي يثيرَ سخطكم.

- انتظري أولاً حتى يكون لك ابن أخ، ثم تعلّمينه كيف يلعبُ بالخنجر، إن كان هذا يبدو لك جيداً.

فقالت كولومبا بمرحٍ: وداعًا للخناجر، فلديّ الآن مروحةٌ كي أضربكم على أصابعكم، حين تتكلمون بالسوء على بلدي.

ودخلا، وهما يتحدّثان بهذه الصورة، إلى المزرعة التي وجدا فيها النبيذَ، والفريز، والقشدةَ. فساعدت كولومبا المزارعةَ على قطف حبّات الفريز (الفراولة)، فيما كان العقيد يشربُ نبيذ روما. وفي منعطفِ إحدى الممرّات، لمحت كولومبا عجوزاً جالسًا في الشّمس، على كرسي من القش. وكان يبدو مريضًا، فقد كانت وجنتاه هزيلتين، وعيناه غائرتين، وكان في أقصى درجاتِ الهزال. أما جمودُ حركته، وشحوبه، ونظرته المحدقة فكانت تجعله يشبه جثةً أكثر مما يشبه كائنًا حيًا. فتأملته كولومبا بكثيرٍ من الفضولِ لبضع دقائق بحيث لفتت اهتمامَ المزارعة.

قالت: هذا العجوزُ المسكينُ هو أحدُ مواطنينا. فأنا أعرفُ حقَّ المعرفة أنكِ من كورسيكا ياآنستي، من خلال لهجتك. فلقد حلّت به مصائبُ في بلده. ومات أبناؤه بطريقةٍ رهيبة. يقال، وأسألك أن تعذريني، إن مواطنيكم ليسوا ليِّنين في عداواتهم. وبناءً على ذلك، فهذا السّيدُ المسكينُ، الذي بقي وحيداً قد آل به الأمرُ للوصول إلى بيزا، إلى منزلٍ قريبة له من بعيد، وهي صاحبةُ هذه المزرعة. . . وهذا أمرٌ محرجٌ للسيدة التي تستقبلُ العديدَ من الناس، وقد أرسلته إلى هنا إذن. إنه رقيقٌ فعلاً، وليس مزعجاً. ولايقولُ ثلاثَ كلمات في اليوم مثلاً. وقد فقد رشده. والطبيبُ يأتي كلّ أسبوع، ويقول إنه لن يطولَ به الأمرُ كثيراً.

فقالت كولومبا:

- آه! لا أمل في شفائه؟ في مثل وضعه، من حسن الحظّ أن ينتهي أمره.

- ربما يتعينُ عليك ياآنستي أن تكلميّه قليلاً بالكورسيكيّة، فقد يشدُّ عزيمته أن يسمعَ لغةَ بلاده.

فقالت كولومبا بابتسامةٍ ساخرة:

- لابدّ أن نرى ذلك.

واقتربت من العجوز إلى أن حجب ظلّها عنه الشمسَ، فرفع المعتوه المسكين حينذاك رأسه، وحدّقَ بكولومبا التي كانت تنظرُ إليه كذلك، وهي تبتسمُ باستمرار. وما هي إلا لحظة حتى وضع العجوزُ يده على جبينه، وأغلق عينيه، وكأنه يهربُ من نظرة كولومبا، ثم فتحهما ثانية، وإنما بإفراط. وكانت شفتاه ترتعشان، ويريدُ أن يمدَّ يديه، ولكن كولومبا قد سحرتَه، فظلّ مسمَّراً إلى كرسيه، لايقوى على الكلام، وخرجت من صدره بضعُ شهقات.

فقالت البستانيةُ: «هذه هي المرّةُ الأولى التي أراه فيها على هذه الصّورة» ثم قالت للعجوز: هذه الآنسة هي آنسةٌ من بلدك، وقد أتت لتراك.

فصرخ هذا الأخيرُ بصوتٍ مبحوح:

- الرّحـمـةُ! الرحـمـة! ألم تكتـفي؟ تلك الورقـة. . . التي كنت قـد أحرقتُها. . . ماذا فعلتِ كي تقرئيها؟ . . . ولكن لماذا الاثنان؟ . . . لم يكن ممكنًا أن تقرئي شيئًا ضـد أورلاندوكسيو. . . كـان يجب أن تتركوا لي واحداً منهـما. . . واحداً فقط. . . أورلاندوكسيو. . . أنت لم تقرئي اسمه. . . فقـالت له كولـومبا بصوتٍ خفيض، وباللهجة الكورسيكية:

«كـان يلزمني كـلاهـمـا، فـقـد قُطعت الأغـصـانُ، ولـو لـم تكن الأرومـةُ متعفنةً، لاقتلعتُها، هيا، لاتتشكَّ، فلن تتألم طويلاً، أما أنا فقد عـانيتُ من الألمِ طوالَ عـامين!» فـأطلق العـجـوزُ صـرخـةً، وسـقـط رأسُه على صـدره، فـأدارت له كولومبا ظهرها، ورجعت بخطىً بطيئة إلى المنزل، وهي تغنّي بعضَ الكلمات غير المفهومة من مغناةٍ مأتمية: «تلزمُني اليدُ التي أطلقت، والعينُ التي صوَّبت، والقلبُ الذي فكَّر. . .».

وفيما كانت البستانيةُ تهرعُ لنجدة العجوز، كانت كولومبا تجلسُ إلى المائدة، بمواجهة العقيد، وقد انتعش لونُ وجهها، وأبرقت عيناها، فقال العقيد:

ومـاذا بكِ إذن، ألاحظُ أن مـلامحَ وجـهك قـد غـدت مـثلمـا كـانت في بييترانيرا، في ذلك اليوم الذي أطلقوا فيه النار علينا، أثناء الغداء.

- إنهـا ذكرياتٌ من كـورسيكا قد جالت بخاطري. غير أن الأمرَ قد انتهى، فلسـوف أصـبحُ إشـبـينةً، أليس كـذلك؟ أوه! أيةُ أسـمـاء جـميلة أعطيـه إياها - غيلفوكسيو - توماسو - أورسو - ليوني!

وفي تلك اللحظة كانت البستانيةُ تدخلُ.

فسألتها كولومبا بأعصابٍ باردة إلى أقصى حدّ:

حسنًا، هل مات؟ أم أُغمي عليه فقط؟

- لـم يكـن ذلـك شيـئًا ذا بال، ياآنسـة، ولكـن ماأغـرب مـاأثَّرتْ رؤيتُه لكِ عليه.

- والطبيبُ يقول إنه لن يطولَ به الأمرُ كثيراً؟

- ربما أقل من شهرين.

فقالت كولومبا ملاحظةً:

- لن يكون ذلك خسارةً كبيرة.

فسأل العقيد:

- عمن تتحدثان بحقّ الشيطان؟

فقالت كولومبا بلهجةٍ تنمّ عن عدمِ الاهتمام:

- عن معتوهٍ من بلدنا يقيمُ هنا بالأجرة. ولسوف أستعلمُ من وقتٍ لآخر عن أخباره. ولكن أيها العقيد نيفيل، اترك بعض الفراولة لأخي ولليديا».

وعندما خرجت كولومبا من المزرعة لتركب في العربة، لاحقتها المزارعةُ بعينيها لبعض الوقت، وقالت لابنتها:

«أترين هذه الآنسةَ الجميلة جداً! حسنًا! أنا متأكدةٌ من أنها ذاتُ عينٍ شريرة».

١٨٤٠

ملحق

سيرة ميريميه

١٨٠٣ ، ٢٨ أيلول : ولُد بروسبير ميريميه، في باريس، من زواج بين ليونور ميريميه، المولود عام ١٧٥٧ ، وآنّا لويز مورو المولودة في عام ١٧٧٥ ، وذلك بتاريخ ٧ ميسّيدور، السنة العاشرة (٢٢ حزيران ١٨٠٢).

١٨٢٢ ، في الصيف : ميريميه يلتقي ستندال للمرة الأولى.

١٨٢٥ ، ٢٧ أيّار : ينشر : «مسرح كلارا غازول».

١٨٢٦ : ينشر : «دون كيشوت» من تأليف فيّو دوسان- مارتان، مع عرض موجز لميريميه.

١٨٢٧ ، نهاية تموز : نشر : «لاغوزلا».

١٨٢٨ : بداية كانون الثاني : ميريميه يُصاب بجرح على إثر مبارزة مع زوج السيّدة «لاكوست».

قبل السابع من حزيران : نشر : «العاميّة» التي تتلوها : «أسرة كارجافال».

١٨٢٩ : - ٥ آذار : نشر : وقائع عهد ملكية شارل التاسع.

- ٣ أيّار : لاروفو دوباري[1] تنشر : «ماتيو فالكون».

- ١٤ حزيران : لاروفو دو باري تنشر : «عربة القربان المقدس»، كوميديا إسبانية.

- ٢٦ تموز : لاروفو دوباري تنشر : رؤيا شارل الحادي عشر.

---

(١) أي : مجلة باريس - (م.ز.ع).

- أيلول: لاروفو فرانسيز[1] تنشر: احتلال المعقل.

- ٤ تشرين الأول: لاروفو دو باري تنشر: تامانغو.

- ٢٥ تشرين الأول: لاروفو دو باري تنشر: البندقية المسحورة.

- ١٥ تشرين الثاني: لاروفو دو باري تنشر: فيديريغو.

- ٢٩ تشرين الثاني: لاروفو دو باري تنشر: الفرصة، ملهاة.

- ٢٧ كانون الأول: لاروفو دو باري تنشر: بان كرواتيا، والهايدوك المحتضر (وهي قصائد إسبانية تحاكي البلقانية) ولؤلؤة طليطلة (وهي قصيدة تحاكي الإسبانية).

- ١٨٣٠، ١٤ شباط: لاروفو دو باري تنشر: المستاؤون، وهي ملهاة تفسِّر مثلاً.

- ١٣ حزيران: لاروفو دو باري تنشر: مباراة النّرد.

- ٢٧ حزيران: ميريميه يغادر باريس ليقوم برحلته إلى إسبانيا (اشبيليا، غرناطة، قرطبة، مدريد، فالنسيا) حيث يرتبطُ بصداقةٍ مع الكونتيسّة دومونيتجو)، ويرجع إلى باريس في بداية كانون الأول.

- ١٨٣١، الثاني من كانون الثاني: لاروفو دو باري تنشر: «جولات مصارعة الثيران» (رسالة إسبانيا الأولى).

- ٥ شباط: ميريميه يُعيَّن رئيس مكتب أمانة السرّ العامة في وزارة الحربية وفي المستعمرات.

- ١٣ آذار: يُلحَقُ كرئيس مكتبٍ بالكونت دارغو الذي أصبح وزيراً للتجارة، والأشغال العامّة.

- آذار: مجلة «الأرتيست» تنشر: متحف مدريد.

---

(١) أي: المجلة الفرنسية - (م. ز. ع).

- ١٣ آذار: لاروفو دو باري تنشر: «حكم الإعدام» «وهي رسالة إسبانيا الثانية».

- أيّار: يسمى ميريميه: فارس جوقة الشرف.

- ١٨٣٢: نيسان: يسمى ميريميه مفوّضًا خاصًا لتنفيذ الإجراءات الصحيّة ضد الكوليرا.

- ٢٦ آب: لاروفو دو باري تنشر: اللّصوص: وهو رسالة إسبانيا الثالثة.

- تشرين الثاني: ميريميه يُعيّن مقدِّمًا للعرائض.

- كانون الأول: يسافر ميريميه إلى انكلترا، وعند عودته، يلتقي للمرّة الأولى بجيني داكان، في بولونيا - سير - مير.

- ٣١ كانون الأول: يُلحق لكونه رئيس مكتب، بالكونت دارغو الذي أصبح وزيراً للداخلية والعبادات.

- ١٨٣٢ - ١٨٣٥: علاقة بين ميريميه وسيلين كيّو.

- ١٨٣٣ - ٢٦ أيّار: لاروفو دو باري تنشر: فيكتور جاكمون.

- ٤ حزيران: نشر: فسيفساء.

- ٢٥ آب: لاروفو دو باري تنشر: بضعة فصول من «الغلطة المضاعفة» التي تصدر في المكتبات بعد بضعة أيّام.

- ٢٩ كانون الأول: لاروفو دو باري تنشر: السّاحرات الإسبانيات وهي (رسالة إسبانيا الرابعة).

- ١٨٣٤ - ٢٧ أيّار: يُعيَّن ميريميه مفتّشًا للأوابد التاريخية.

- ١٥ آب: لاروفو دي دو موند[1] تنشر: «أرواح المطهر».

(١) أي: مجلة العالمين - (م.ز.ع).

- ١٨٣٥ قبل ٢٤ تموز: نشر: «ملاحظات عن رحلة في جنوب فرنسا».

- ١٨٣٦: ميريميه يُصبحُ عشيق السيّدة ديليّسير التي ولدت عام ١٨٠٦ وتزوجت عام ١٨٢٤.

- ٢٧ أيلول: موت ليونور ميريميه.

- قبل ٢٢ تشرين الأول: نشر: ملاحظات عن رحلة في غرب فرنسا.

- ١٨٣٧ - ١٥ أيار: لاروفو دي دوموند تنشر: «فينوس ديل».

- ١٨٣٨ - قبل ٢٧ تشرين الأول: نشر ملاحظات عن رحلة في أوفيرنيا.

- ١٨٣٩، في الأول والخامس عشر من نيسان: لارفو دي دو موند تنشر: معرض ١٨٣٩، من غير توقيع.

- ١٥ آب - ١٥ تشرين الثاني: ميريميه يسافر إلى كورسيكا وإيطاليا، حيث يزور روما (٩ - ٢١ تشرين الأول) ونابولي (٢٢ تشرين الأول - ١٠ تشرين الثاني) برفقة ستندال.

- ١٨٤٠ - ٥ نيسان: نشر: ملاحظات عن رحلة في كورسيكا.

- الأول من تموز لاروفو دي دوموند تنشر: كولومبا.

- ١٨ آب - ٢٠ تشرين الأول: ميريميه يسافر إلى إسبانيا (مدريد، كارابوشيل، بورغوس، فيتوريا، تولوسًا).

- ١٨٤١ - قبل ١٨ أيّار: توزيع: بحث في الحرب الاجتماعية.

- ٢٥ آب: ميريميه يبحر إلى مرسيليا باتجاه المشرق (أثينا، إيفيزيا، القسطنطينية، مغنزيا التي في مياندر[1]).

- ٢١ - ١٦ كانون الأول: حجر صحي في مالطا.

---

(١) مياندر: مستعمرة تيساليّة (في آسيا الصغرى قديمًا) كانت شهيرة في العصر الهلنستي، وفيها اليوم آثار بقرب قرية تيك. (م: ز.ع).

- نهاية كانون الأول: ميريميه يرجع إلى باريس.

- ١٨٤٣ - ١٧ تشرين الثاني: ميريميه يُنتخبُ عضواً غير ملتزم في أكاديمية الكتابات وعلوم الأدب.

- ١٨٤٤ - ١٤ آذار: ميريميه ينتخب في الأكاديمية الفرنسية.

- ١٥ آذار: لاروفو دي دوموند تنشرُ: «أرسين غيّو».

- قبل ٢٣ آذار، نشر: دراسات في التاريخ الروماني (الحرب الاجتماعية، مؤامرة كاتيلينا).

- ١٨٤٥ - الأول من تشرين الأول - لاروفو دي دوموند تنشر: «كارمن».

- قبل العشرين من كانون الأول، نشر: عرضٌ موجز حول الرّسوم في كنيسة سان سافان.

- ١٨٤٦ - ٢٤ شباط: مجلة الكونستيتو سيونيل[1] تنشر: «رئيس الدّير أوبان»

- ١٨٤٧ قبل ١٤ شباط: «كارمن» تصدر في المكتبات مع دراسة أدبية في نهايتها حول: المرأة الشرسة المتمرّدة».

- الأول من كانون الأول: لاروفو دي دوموند تبدأ بنشر: «دون بيدر» والذي ستنتهي نشره في الأول من شباط ١٨٤٨.

- ١٨٤٨ - ٢٣ - ٢٦ حزيران: ميريميه لكونه محافظًا وطنيًا، يشارك في «أيام حزيران».

- ١٨٤٩ - ١٥ تموز: لاروفو دي دوموند تنشر: «بنت البستوني» وهي قصة مستوحاة من بوشكين.

١٨٥٠ - ٢٦ أيار - ٢١ حزيران: ميريميه يسافر إلى انكلترا (لندن - سالسبُري).

---

(١) الدستوري. (م: ز.ع).

في الأول من تموز: لاروفو دي دوموند تنشر: «الميراثان».

١٩ تشرين الأول: فهرس فرنسا العام (بيبليوغرافيا فرنسا) يسجّلُ الكراسة: هـ. ب[١].

١٨٥١ - ١٥ تشرين الثاني: لاروفو دي دوموند تنشر: الأدب في روسيا: نقولا غوغول.

١٨٥٢ - ٢١ كانون الثاني: ميريميه يرفّع إلى رتبةِ ضابط في جوقة الشرف.

٣٠ نيسان: موت والدة ميريميه.

٢٦ أيّار: يحكم على ميريميه بالسّجن خمسة عشر يومًا، وبدفع غرامة قدرُها ١٠٠٠ فرنكٍ، بسبب مقالته: «دعوى السيّد ليبري» التي نشرت في ريفو دي دوموند في ١٥ نيسان.

أيّار: نشر: مجموعة «قصص».

٦ - ٢٠ تموز: ميريميه يقضي مدّة سجنه في الكونسييرجوري[٢].

نهاية كانون الأول: نشر: «واقعة من تاريخ روسيا»: المزيّفون ديميتريوس.

١٨٥٣ - الأول من كانون الثاني: المونيتور أونيفرسيل[٣] تنشر: «المورمونيون»[٤].

١٦ أيار - ٨ تموز: المونيتور أونيفرسيل تنشر: معرض ١٨٥٣ في ثلاث مقالات.

٢٣ حزيران: ميريميه يسافر إلى إسبانيا، والسيدة ديليسّير تقطع علاقتها بميريميه.

---

(١) ٢- هـ. ب: الحرفان الأولان من اسم «هنري بيل». أي الروائي ستندال. (م: ز.ع).
(٢) قسم من قصر العَدْل بُني في العصر الوسيط في باريس، وقد أصبح سجنًا منذ عام ١٣٩٢. (م: ز.ع).
(٣) المرشد الشامل. (م: ز.ع).
(٤) طائفة أمريكية أباحت تعدد الزوجات في البداية. (م: ز.ع).

١٨٥٤ - ٢١ - ٢٣ حزيران: المونيتور أونيفرسل تنشر: قوزاق أوكرانيا وآخر هتماناتهم[1].

١٦ - ٢٥ - تموز: إقامة في لندن.

٢٥ آب - ١٥ تشرين الأول: ميريميه يسافر إلى سويسرا، إلى التيرول وبافيير، وبوهيميا، والنمسا، والساكس، وبروسيا.

١٨٥٥ - كانون الثاني: نشر «كتابات تاريخية وأدبية مختلطة».

آذار: نشر «مراسلات ستندال غير المنشورة، مع مقدمة لميريميه».

تموز: نشر: «مغامرات البارون فينيست» لأغريبّا دوبينييه، وهي طبعة جديدة مع تعليقات لميريميه.

١٨٥٦ - ٢١ آذار: لومونيتور أونيفرسيل تنشر: «طلقة المسدّس» المترجمة عن بوشكين.

١٦ تموز - ٣١ آب: ميريميه يسافر إلى إيقوسيا، ويقيم في لندن.

كانون الأول: ميريميه يقيم في كان، حيث يمضي كل فصول الشتاء منذ ذلك التاريخ.

١٨٥٧ - ٩ حزيران - ٨ تموز: ميريميه يسافر إلى انكلترا (مانشستر ولندن) ويكتب مقالات عن معرض مانشستر في المونيتور بتاريخ ٩ تموز، وحول قاعة المطالعة الجديدة، في مكتبة المتحف البريطاني، في المونيتور أيضاً في ٢٥ آب، وحول الفنون الجميلة في انكلترا، في لاروفودي دوموند، في ١٥ تشرين الأول.

١٨٥٨ - ٢٠ نيسان - ١١ أيار: ميريميه يدرس في لندن تنظيم المتحف البريطاني.

أيّار: ينشر تقريراً (مؤرخاً في ٢٥ آذار) حول التعديلات التي يجب إدخالها في تنظيم المكتبة الامبراطورية.

---

(١) زعماء القوزاق. (م: ز.ع).

- ١٩ حزيران - ١٤ تشرين الأول: ميريميه يسافر إلى سويسرا، وألمانيا والنّمسا، والبييمونت، وإلى وسط إيطاليا.

- أيلول: نشر المجلد الأول (والمجلد الثاني في كانون الأول، والثالث في كانون الأول ١٨٥٩) للمؤلفات الكاملة لبرانتوم، مع مقدّمة وتعليقات لميريميه.

- ١٨٥٩ - ٣ تشرين الأول - ١٨ تشرين الثاني: ميريميه يسافر إلى إسبانيا.

- ١٨٦٠ - ١٨ تموز - ٣٠ آب: ميريميه يسافر إلى انكلترا وإيقوسيا.

- ١١ آب: ميريميه يُرفّع إلى رتبة آمر (كوماندور) في جوقة الشرف.

- ١٨٦١ - تموز: صحيفة العلماء تنشر: «تمرّد ستينكا رازين».

- ١١ تموز - ١٨ آب: ميريميه يسافر إلى انكلترا (لندن).

- ١٨٦٢ - ٥ أيّار: الأول من تموز، ميريميه يسافر إلى انكلترا، وبما أنه عضو في لجنة التحكيم العالمية في لندن، عن القسم الفرنسي، فهو يكتب تقريرين في: «تطبيقات الفن على الصّناعة»، و«صناعة الأثاث والزخرفة».

- ١٨٦٣ - كانون الثاني - تموز: صحيفة «العلماء» تنشر: «بوغدام شميلينيسكي».

- أيّار: نشر «الآباء والبنون» لإيفان تورغينيف. مع رسالة تقديم لميريميه.

- ١٨٦٤: ميريميه يمضي إقامة في لندن.

- من أيلول حتى شباط ١٨٦٥: صحيفة العلماء تنشر: «دعوى ابن القيصر ألكسي». وعرض للمجلّد السادس من " تاريخ عهد ملكية بطرس الأكبر لـ: ن. أوستريالوف".

- تشرين الأول - تشرين الثاني: ميريميه يسافر إلى إسبانيا.

- ١٨٦٥ - أيلول: صحيفة العلماء تنشر: عرض المجلّد الأول من «تاريخ يوليوس قيصر» لنابوليون الثالث.

- ١٨٦٦ : السّيدة ديليسّير تُبادل ميريميه الحبّ.

- ١٥ حزيران : لاروفو دي دوموند تنشر : «تجليات إيفان تورغينيف» التي ترجمها ميريميه عن الروسية.

- تموز : صحيفة العلماء : عرض المجلد الثاني من «تاريخ يوليوس قيصر» لنابوليون الثالث.

- ١٤ آب : ميريميه يرفّع إلى مرتبة ضابط كبير في جوقة الشّرف.

- ١٨٦٧ : حزيران - شباط ١٨٦٨ : مجلّة العلماء تنشر : «مرحلة شباب بطرس الأكبر» وهي عرض للمجلد الثاني «لتاريخ عهد ملكية بطرس الأكبر» ل. ن. أوستريالوف.

- تشرين الثاني : نشر المراسلات التي لم تنشر لفيكتور جاكمون، مع مقدّمة لميريميه.

- ١٨٦٨ : ٢٠ - ٢٧ كانون الثاني : «المونيتور اونيفرسيل» تنشر : الكسندر بوشكين.

- ٢٢ أيار : المونيتور أونيفرسيل تنشر : إيفان تورغينيف.

- حزيران : ميريميه يقيم في لندن.

- ١٨٦٩ : كانون الثاني : المونيتور أو نيفرسيل تنشر تحيليلاً ليوميات ساموئيل بيبيس.

- أيار : نشر «قصص موسكوفية» لايفان تورغينيف التي ترجم منها ميريميه : «اليهودي بيتوشكوف». و«الكلب» و«تجليات»، وربما «العريف».

- حزيران - تموز : صحيفة العلماء تنشر : تاريخ اليزابيت الثانية المزيّفة.

- ١٥ أيلول : لاروفو دي دوموند تنشر : «لوكي»، تحت عنوان : مخطوطة الأستاذ فيتمباخ.

- ١٨٧٠، الأول من آذار: لاروفو دي دوموند تنشر: «قصة غريبة لايفان تورغينيف» وقد ترجمها ميريميه.

- ١٨ - ٢٠ آب: ميريميه يبذل لدى تيير جهداً ضائعاً كي يجعله يتحالف مع الامبراطورية.

- ٨ أيلول: ميريميه يغادر باريس إلى كان.

- ٢٣ أيلول: وفاة «ميريميه» في كان.

- ١٨٧١ - ٢٣ أيار: حريق لمنزل ميريميه (٥٢ شارع ليل) الذي كان قد أقام فيه في ٢٤ آب ١٨٥٢. وقد قضى الحريقُ على كتبه وأوراقه كافة.

إن قصة «زقاق السيّدة لوكريزيا» التي نعرفُ عنها نسخةً مخطوطة بقلم المؤلّف بتاريخ ٢٧ نيسان ١٨٤٦، و«الغرفة الزرقاء» التي كتبت في بياريتز في أيلول ١٨٦١، و«دجومانا» التي كتبت في فونتينبلو في آب ١٨٦٨، ترد في المجلّد الصّادر بعد وفاة المؤلّف، في مجموعة «القصص الأخيرة» (١٨٧٣)، أما الدّراسة التي تدورُ على «حياة سيرفانتس ومؤلّفاته» والتي كُتبت في تشرين الثاني ١٨٦٩، فقد نُشرت عام ١٨٧٧.

وهناك مجموعتان أخريان (نشرتا بعد وفاة المؤلف) هما: «صور تاريخية وأدبية» (١٨٧٤)، و«دراسات حول فنون العصر الوسيط» (١٨٧٥) ولا تحتويان شيئًا هامًا لم يُنشرْ، في حياة ميريميه، ولم يُشر إليهما أعلاه.

أما رسائل ميريمية التي تُعدُّ بالآلاف والمبعثرة في كتب وملازم مجلاَّت لاتحصى، فنجدُها في المجلّدات الستة عشر لمجموعة: المراسلات العامة التي نشرها موريس بارتوريه، وذلك إضافة لمئات الرسائل التي لم تُنشر.

ملاحظات نقدية موجزة

فسيفساء

ماتيو فالكون

نُشرت «ماتيو فالكون» في لاروفو دو باري» في ٣ أيار ١٨٢٩ .

إن أولَ حكايةٍ نُشرت لميريميه، والتي قُيِّض له أن يضمّها إلى مجموعة «فسيفساء»، وهي «ماتيو فالكون» تُعدُّ أيضًا أكثر حكاياته شعبيةً، وقد نأسفُ لذلك؛ فـ«احتلال المعقل» و«الإناء الإتروري» هما أعلى مستوىً منها، لأسباب كثيرة؛ غير أن «ماتيو فالكون» قد سبق لها أن حازت على تثمينٍ عالٍ جداً، وكان النقدُ محقّاً في أن يُعلن، منذ صدورها، أنها تتّصفُ باقتضابٍ نادرٍ، ومتانةٍ في البناء، وصدقٍ في التعبير. والطّريفُ في الأمر -والمثيرُ للإعجاب- هو أن ميريميه، بعد مرورِ عشر سنوات على كتابته لتلك الصّفحات ذات الحضور الموغل في التخيُّل أحيانًا حولَ «طبائع كورسيكا» لم يسعْه إلا أن يتثبَّتَ من صحّة تخميناته، عندما زار الجزيرةَ أخيراً- ومن الاختيارِ الموفّق للمطالعات التي قلّما جعلته يرتكبُ أكثر من أخطاء صغيرة، إرثيةٍ أو فولكلورية، يمكن تصويبُها بسهولة.

لقد أصبحت هذه القصّة الفظيعةُ سريعًا تقليدية، وقلّما نجدُ، منتقياتٍ أدبيةً مدرسيةً لاتوردُ مقتطفاتٍ منها.

فممن استوحاها ميريميه الذي كان الابتكارُ لديه قليلاً؟ أمن رحلةٍ في كورسيكا لرئيس الدّير غودان (١٧٨٧) حيث نعثر على المشاهد الفظيعة، مشاهد الصبّي الذي يدلُّ بإصبعه على مخبأ الهارب، والذي يُعدِمهُ والدهُ بعد ذلك؟ أم من

«مشاهد مسرحيّة قصيرة من كورسيكا»، لروبير بنسون ١٨٢٥؟ أم من «قصص كورسيكا الجديدة» لرنوكسي (١٨٢٧)، أم من عادات وتقاليد الكورسيكيين لفيديل؟ لقد كان بمقدور ميريميه أن يعرفَ هذه الكتب كافّة. وهل أفاد بكلّ بساطة من قراءةٍ له حديثة العهد لـ: روفو تريمستريبل[1] التي كانت كرّاسةُ تموز ١٨٢٨ منها تحتوي في الواقع مقالةً نجد فيها راعيًا يعدمهُ ذووه لأنه قد خان قوانينَ الضيّافة؟ وهذا، إجمالاً موضوعٌ له علاقة بخصائص شعبٍ معين. إلا أنه إذا كان ميريميه قد قرأ ماكتبه رئيسُ الدير غودان أم لا، فقد أحسّ بأنّ الكمال في تلك المأساة، مأساة الشرف، كان يقتضي أن يكون المجرمُ ابنًا، ومقيمُ العدلِ أباه.

(١) المجلّة الربّعيّة: أي التي تصدرُ مرة كل ثلاثة أشهر. (م: ز.ع).

رؤيا شارل الحادي عشر

إن الشيطان، وألغازَ ماوراء الطبيعة تشغل في مؤلّفات ميريميه مكانًا رفيعًا في قيـمته، . فـقـصّة «رؤيا شـارل الحـادي عشر» تحـدّدُ بدقة، ذلكَ الميلَ إلى الخارق، والذي كـان قد أظهره من قبل مشهدُ السّحر في «وقائع عـهد ملكية شارل التـاسع» وشعـوذات السّحر التي سنجدها في «السّاحرات الإسبـانيات» و«أرواح المطهر» و«فينوس ديل»، و«كارمن» ولوكيس، ودجومانا . .

صدرت هذه الحكاية الخياليّة في «لارفو دو باري» في ٢٦ تموز ١٨٢٩ . ومن الطبيعي أن يتظاهر ميريميه بأنه يضـمن صحّة ذلك التجلّي الدّامي، فكيف يشكك المرءُ «بمحضرٍ ذي شكل جيّد، وتغطيه تواقيعُ خمسة شهود جديرين بالثقة؟». ومع ذلك فإن وزير ملك السّويد في باريس، الكونت دولو فينهلم، ومن غير أن يعطي نفسه الوقتَ للتفكير – ظنّ أنه يتعيّن عليه أن يكتب إلى المجلة التي نشرت احتجاجه في حزيران ١٨٣٣ تحت عنوان: «تكذيب موجّه إلى شبح» ويذهب البعضُ إلى أن ميريميه ربما يكون قد أسهم في ذلك الاحتجاج .

لقد قلّد ميريميه بما يكفي من المهارة وثيقةً مزيّفة طبعًا، ومُختلَقَة في السّويد في القرن الثامن عشر؛ فنشرتها صحيفة ألمانية نحو عام ١٨١٠ . ومع ذلك، كي يعطيها صدقيّة خاصّة .

احتلالُ المعقل

صدرت هذه الحكاية في «لاروفو فرانسيز» في أيلول ١٨٢٩ .

وربما لم تصل قصةّ ميريميةّ قط. ولا حتى «ماتيو فالكون» إلى تلك الدرجة المدهشة من الكثافة التي وصلت إليها «احتلالُ المعقل». فاحتلالُ المعقل، في اقتضابها الشّديد، لاتتّصفُ بجفافِ «تقريرِ إخباري»، وتُبعث فيها الأعمالُ البطوليةُ في بضعِ صفحات مصاغة بلغةٍ شفّافة تزيدُ برودةُ القصّاص فيها من انفعال القارئ. وهذه هي إحدى وسائل ميريميه الفنية والتي يرفعُها إلى درجةٍ راقية. ولا شكّ أن استدعاء إحدى حكايات موباسان حول حوادث حرب عام ١٨٧٠ قد يكون تحاملاً عليه، بيد أن «احتلال المعقل» توحي بالمقارنة. فليس فيها شيء لايسبقُ عصره أدبيًا، وصولاً إلى الكلمة النهائية العسكرية جداً والفظّة.

لقد تم احتلال معقل شفاردينو (وميريميه يكتب شفيرينو) في ٥ أيلول ١٨١٢، ويروي العميد الكونت فيليب دوسيفور ذلك الحدث في كتابه: «تاريخ نابوليون والجيش العظيم» والذي صدر عام ١٨٢٤، ومع ذلك، فإن قراءةً متأنيةً لـ«احتلال المعقل» قد أوحت «بمصدرٍ» آخر. ولعلّ ميريميه، بناءً على روايةٍ شفوية، قد شهد معركة شفاردينو. أما الملازم الأول ب «P» فربما يكون أحدَ أقارب المستشار[1] باسكييه. أما قاعة استقبال السيّدة دو. ب. فيمكن أن تكون قاعةُ استقبالِ السيّدة دو بوانيه التي عُرفت عنها علاقتُها الحميمة بالمستشار. أما

---

(١) أو ربما: رئيس الوزراء- فاستخدام هـذه الكلمة CHANCELIER متنوعٌ في بلدان مختلفة. (م: ز.ع).

ميريميه فيمكنُ أن يكون قد سمع في قاعةِ استقبال السَّيدة دو . بِ . قصةَ الملازم الأول بِ .

إنه تقريبٌ ماهر ، غير أن هناك مايبرهن على هشاشته ، ثم أنه ماأهميةُ الأمر حقًا؟ أليس إساءةً لاستخدام تلك الافتراضات التي لاتقدمُ للتاريخ الأدبي خدماتٍ لايمكنُ إنكارُها إلا بشرط ألا تغدو ألعابًا ذهنية بحتة؟

تامانغــو

إن «تامانغو» التي نشرت في «لاروفو دو باري» بتاريخ ٤ تشرين الأول ١٨٢٩، وهي حكايةٌ قاسية مثل «ماتيو فالكون»، لايبدو أنّها لاقت الحماس نفسه لدى الجمهور، وذلك ربّما لأن الطّابع الإغرابي في «ماتيو» كان أقلّ تقريبيّةً، وإذا تجرأنا على القول، أقلّ زركشةً، والإلهُ الذي توجّه إليه الصّغيرُ فورتوناتو بصلواته الأخيرة «يمسُّ القلب» أكثر ممّا يمسّه ماما- جومبو الإله الزنجي، وأخيراً، فإن لاإنسانيةَ الوالد الذي يثأرُ لشرفه تؤثّر فينا، وتُغضبُنا في آن أكثر من الفظاعة التي يسبّبها خبرٌ بعيد. إن التناوب المستمرّ تقريبًا لسهامِ الهجاء التي تسندها إيحاءاتٌ ذات عظمةٍ ملحمية قد تمكّن أيضًا من إثارة الاضطراب (فلم تكن سخريةُ ميريميه قطّ أشد لذعًا ممّا كانت عليه هنا). غير أن الاتّفاقات الدّولية التي كانت تأملُ بإنهاء تجارة العبيد، لم يكن قد مرّ عليها خمسة عشر عامًا. ولئن خُرقت هذه الاتفاقاتُ بكثرة، برغم المخاطر التي كانت مراكبُ نقلِ العبيد تتحمّلها فذلك لأن الأرباحَ الأساسيّة التي يجنيها أصحابُ السّفن لم يكن يُنظر إليها عمومًا على أنها أرباحٌ قد اكتُسبت بصورةٍ غير مشروعة.

لم تكن تجارةُ السّود مستقبحةً إلا في أوساطِ نخبة معينة. ولقد خدَم ميريميه الدعاية المطالبة بإلغاء الرقيق، من غير أن يشاء ذلك عمداً بالتأكيد. وكان يَحسِبُ من بين خلصائه ابن القس ستابغير الذي أسس عام ١٨٢١، مع البارون ووستال، جمعية الأخلاق المسيحية التي كانت قد حدّدت هدفًا لها النضال ضدّ تجارة «خشب الأبنوس»[١]. أما عن الطّابع المحلي، فقد اقتبس الماما -جومبو خصوصًا، من

(١) أي: الزنوج. (م: ز.ع).

موتغوبارك، وهو مستقصٍ انكليزي حديث عن «الزنوجية». أما الوثائقُ الفنية التي كانت متاحةً له فغزيرة، بدءاً من «صرخة الأفارقة ضد الأوروبيين، مضطهديهم (١٨٢١)، وصولاً إلى أخبار المحاكمات، من مثل محاكمة: «لافيجيلانت» وهي سفينة نقلِ عبيد آتية من نانت».

لؤلؤة طُليطلة

نُشرت «لؤلؤة طُليطلة» في: لاروفو دو باري بتاريخ ٢٧ كانون الأول ١٨٢٩، ومع أن نهر لوتاج لايصبُّ في الأدرياتيكي؛ فهذه القصيدة التي تحاكي الطريقةَ الإسبانية، لاتُعدُّ شيئًا آخر غير «قصيدةٍ شرقية نثرية»؛ فالخيالُ المبدعُ، والتلوين، ووحشيةُ خاتمتها التي يشقُّ فيها الأسودُ توزاني «الوجه الجميل جداً» لأورورا دو فيرغاس: لؤلؤة طليطلة، هي أشبه ماتكون بالسيِّد: النثر الأول (وهذا الجناسُ التصحيفي المادح هو بالضبّط من ابتكار هيغو). وصولاً إلى «الشّرقيات[1]» التي نُشرت في كانون الثاني لعام ١٨٢٩.

(١) مجموعة شعرية لفيكتور هيغو. (م: ز.ع).

الإناء الإترروري

نُشر «الإناء الإترروري» في «لاروفو دو باري» في ١٤ شباط من عام ١٨٣٠. وقد اتُّفق، منذ زمنٍ بعيد أن سان كلير هو مؤلِّف القصة، وأن ماتيلدا هي السّيدة لاكوست، وأن تحليلَ الغيرة، في هذه القصةِ القصيرة التي تتّجه فيها موهبةُ ميريميه إلى التحليل النفسي، يدينُ بالكثيرِ لتجربةٍ عاطفيةٍ كان لابدّ لها أن تنتهي نهايةً متواضعة. وعندما تقول: «إن ميريميه هو سان- كلير، وإيميلي لاكوست هي السّيدة دوكورسي»؛ فمن الطبيعي ألا نقصد مع ذلك إلى عدِّ «الإناء الإترروري» شبيهاً بسيرةٍ ذاتية. غير أنه لاجدال في أن ميريميه قد تذكَّر هنا المبارزة التي لعب فيها الدّور السّلبي عن قصدٍ منه. وهو دورُ الدريئة، بالإضافة إلى فيلكس لاكوست، ذلك الزّوج المثير للاحتقار، كما تذكّر عواصفَ عاطفته الكبيرة نحو تلك التي ستكون، بعد ثلاث سنوات ونصف من «الإناء الإترروري»، والدة دورانتي- من غير أن يشترك ميريميه أو الزّوج في الحادثة.

هل من الممكن أن نتعرّف أصدقاءَ ميريميه، من بين المدعووين إلى غداء الشبّان الذي دُعي إليه سان- كلير؟ فقد يكون من المفاجئ بلا شك، أن يكون الراوي قد استمدّ من خياله وحدة السّمات التي يرسم بها طباعَ ألفونس دوتيمين، وجول لامبير، وهكتور روكانتان وتيودور نيفيل... ولكن إذا كان من أراد ميريميه أن يصورّهم هم أصدقاءه، ألم يكن يجدرُ به أن يمتنع عن وعيٍ منه عن تقديم أشباهٍ للصوّر الأصلية يمكن أن يجري تعرُّفُ نماذجها من غير سرور؟ إن كلَّ ضروبِ الحصانة الممنوحة شرحاً «لبذاءة» الأصدقاء، من مثل روكانتان، حتى وإن كتبت

بحرف «a»[1]، ألم يكن من الممكن أن تجعلنا نفكّر بأن ميريميه «كان يبالغ» عندما ألقى نفسه متلفعًا باسم فظّ وسخيف بعض الشّيء.

هل لدى تيمين «شيء» من ماريست؟ ربّما. أما نيفيل؟ إن نيفيل يمكن أن يكون شارل لونورمان، لأنه يخلطُ ثرثرته الإغرابية ببعضِ الكلمات المستمدّة أدبيًّا من «رسائل مصر» والتي كان لونورمان يقوم بنشرها. ولم يكن هناك سوى محذور واحد، وهو أن نيفيل مثيرٌ للضّحك، وأن حماقته الباطلة يجري التشديدُ عليها من خلال ردٍّ ساذج («كم من الوقت قد مكثت في مصر؟- ستة أسابيع»). وأن لونورمان قد كان قليل الامتنانِ لصديقه ميريميه، لأنه قد صنع منه متشدّقًا. أما حول لامبير، فقد يكون فيكتور جاكمون، لأنه، مثل جاكمون، «مناهض لليسوعية»، ولكن هل اقترضَ جاكمون من ميريميه نقودًا، وقد نسي دومًا أن يعيدها إليه»؟ وكي ينتقم (من أفضلِ صديقٍ له) على عدم أمانته، فقد أبدى ميريميه رهافةً في الذوق بحيث نشر ذلك، فيما كان جاكمون يقوم، في الهند، وببساطة بطولية «بمهنة المستكشف» التي قُدِّر لها أن تكلّفه حياته، وذلك بعيدًا، وبعيدًا جدًّا عن «وجبات الغداء- والعشاء، وعن المتأنّقين الباريسيّين؟ كلاّ، مهما تكن حاذقة تقريباتُ النصّ من الواقع. فهي لاترجح قط على النصّ.

فالنصُّ هنا يرفض التماهياتِ الخادعةَ، ولعلّه يجدر بجاكمون أن يتقاسم مع ميريميه شرف المقارنة بسان كلير، وليس بلامبيرَ التافه.

(١) أي روكانتان Roquantin بدلاً من Roquentin. (م: ز.ع).

مباراة النَّرد

صدرت «مباراة النّرد» في ١٣ حزيران لعام ١٨٣٠، في لاروفو دو باري.

إن البحث عن مصادرها مخيّب جداً للأمل؛ فهو يصطدمُ هنا، «باحتمالات» مجانية إلى درجة كبيرة برغم براعتها، بحيث نسمحُ لأنفسنا ألا نقول عنها شيئًا.

إن سمات الأخلاق البحرية، ومشاهدَ حياة الموقع العسكري، والمعركة البحرية لاتكرّسَ أبدًا اللون المحلي بلمسات صارخة، والطابع الإغرابيّ لايقدّم سوى إطار الخاتمة، خاتمة الأزمة الأخلاقيةً. «كنا نبحر ُبطء نحو بحار الهند»، وكذلك «في الشرق المقفر». . . إننا لانقارنُ أصداءَ الموسيقى الراسينية اللاّنهائية، بموجات ميريميه القصيرة. وكلّ مايخطرُ في ذهننا هو أن جفافَ القصّاص قريبٌ إلى حدٍّ كافَ هنا من رصانة الشاعر، فميريميه، ومن غير أن يتخلّى عن الطابع الوصفي، يخضعه بالتأكيد لدراسة دوافع النفس، وهو يشرّح بلا رحمة وعيها لانهيارها من خلال منكودٍ لم يعدْ يتمكن من الاستمرار في العيش بعد ذلك.

إن الموضوع مبتذل؛ وهو حادثة تثير التقزّز، فتضيفُ الحصانةُ القانونية -وربما يستحق هذا الأمر أن نشدّد عليه- تضيف قباحةَ الجريمة إلى خسّتها. وبرغم المقطع النهائي الميريمي إلى حدّ كاف (فالقصةُ تبقى معلقةً بحيث لايمكننا أن نَعرفَ أبدًا على وجه التّحديد «كيف مات الملازم الأول المسكين روجيه»). إنها ليست أفضل قصة في «فُسيفساء»؛ فبدايتُها بطيئةٌ، ودخولُها إلى الموضوع اصطلاحيّ. ومع ذلك، فإن تين على حق حين قال: «من المحتمل أن تُقرأ» مباراةُ النّرد في العام ٢٠٠٠. من جديد كي يعلمَ الناسُ ماذا يكلّفهم التخلي عن الشرف لمرةٍ واحدة.

الغلطة المضاعفة

صدرت «الغلطة المضاعفة» في المكتبات، خلال الأيام الأخيرة من شهر آب، أو الأيام الأولى من شهر أيلول ١٨٣٣، ولسوف يكتب ميريميه، بعد مرور ربع قرن: «إنها إحدى خطاياي وقد ارتكبتُها كي أكسبَ المال. وقد قُدِّمت لشخصٍ لم يكن ذا قيمة.»، غير أن كلمة «خطيئة» ليست، بطبيعة الحال، مثقلةً بالمعنى أكثر من عبارة: «طرفة صغيرة» والتي طبّقها ميريميه مرات عدّة على قصصه الطويلة، وعلى مقالاته. أما «كسبُ المال» فلا تعني بالضّرورة: كسب المال بطريقة سيئة لقاء عمل مُسَفْسَف. ولئن أجرى ميريميه هذا الحساب، فلابدّ أنه كان واقعاً في مأزق (أما المستفيدُ المفترضُ، فهل كان سيلين كاتو أم السيدة لاكوست؟ سيلين على الأرجح. و«الغلطة المضاعفة» قلما أصابت النجاح.

أهي روايةٌ، أم قصة؟ وإذن، فهل هي قصة طويلة أم روايةٌ قصيرة؟ إن الحجوم، «حسب رأي بول بورجيه لاأهميةَ لها في المسألة «فمادّةُ القصّة حادثةٌ واحدة. أما مادّةُ الرواية فهي تتابعٌ من الحوادث، والرّوايةُ تُبنى على التوسُّع، أمّا القصّة فعلى التكثيف»، ومن هنا، فهو يستنتجُ أن ميريميه لم يكتب إلا القّصص باستثناء «وقائع عهد ملكية شارل التاسع».

ولقد أُخذَ على تأليف «الغلطة المضاعفة» وجودُ تنافرات نُقرُّ بأننا لم نلحظها فيها؛ فهي قصةٌ مبنيّة بناءً متيناً جداً، ومتناغماً جداً. والفصول المقتضبة في بدايتها، والفصولُ الشّديدة الاقتضاب في نهايتها تحيطُ بفصولٍ طويلة ثلاثة أساسية (الثامن والتاسع والعاشر)؛ فبعد أن تموتَ جوليا المسكينة، وقد أصابها اليأسُ من جرّاء غلطتها، ماالذي يهمُّنا من الشخصيّات الثانوية؟ ولا نقولنّ إن الفصلين الأخيرين مفرطان في اقتضابهما: ولسوف نعدُّهما أيضاً أطول مما ينبغي إذا ما حكمنا عليهما بمقياسِ الدّقة الصّارمة. هذا إذا لم نجدْ فيهما ضرورياً غير ابتسامةِ دارسي السّاحرة.

إن «الغلطة المضاعفة» مستمدّة من «الإناء الإتروري»، غير أن الأدوار مقلوبة: فالاهتمام إنما يتركّز على جوليا، وليس على دارسي، فيما كان سان- كلير، وليس ماتيلدا، هو الشخصية الرئيسة. أما التناوبُ بين أخبارِ المجتمع الباريسيّ الراقي، والأشياء المجلوبة من الخارج، فهو التناوبُ نفسه. ويتوافقُ مع غداء المتأنّقين الذي أمكن لدارسي أن يشترك فيه، الاستقبال الذي يجري في منزل السّيدة لامبير، ويتوافقُ مع أحاديثِ نيفيل عن الأهرامات وباشوات القاهرة، إنقاذٌ أمينة على يدِ دارسي. ولكن الصّور التركية في «الغلطة المضاعفة» تفوقُ إلى حدٍّ كبيرٍ في قيمتها الفنيّة و. . . التقنية. (لأنها تجعل السّيدة دوشافيرني تضطرب)، تفوقُ الخليطَ المصريَّ المتنافر في «الإناء الإتروري»، والذي هو مجرّدُ طُنُفٍ لا يسخر إلا من الصّورة الصامتة.

أينبغي أن نتابعَ هذه الموازاة؟ إن لدى سان- كلير بعضاً من سماتِ ميريميه. وهناك بعضٌ من سمات ميريميه أقلّ مما لدى سان- كلير، ولكنها موجودة، وسان- كلير ضحيةٌ في «الإناء الإتروري» وهو على الأقل، ضحيّةٌ من ناحية الشّرف، ولا تختلطُ دوماً بالشّرف. ومن هنا ربما يأتي أن موتَه اليوم يبدو مجانيّاً إلى حدٍّ كافٍ، وتافهاً، إذا تجرأنا على القول. أما في «الغلطة المضاعفة» فضحيّة دارسي، ذلك المغوي المتطلّق، والجلاّد من غيرِ أن يدري إنّما هي جوليا. ولنلاحظْ، زيادة على ذلك، أن الضحيّةَ الحقيقية في «الإناء الإتروري» هي المرأة؛ فماتيلدا، شأنها شأن جوليا، تموتُ من الحزن.

لا يبدو أننا قد غامرنا «بتحديدِ هوية» جوليا. أما ميريميه؛ فلئن كانت نزعةُ التأنُّق والذاتيةُ الحازمة لديه موجودةً عند دارسي، فربّما ينبغي أن نرى أيضاً، وفي موضعين اثنين من «الغلطة المضاعفة» (في منتصف الفصل السابع، وفي نهاية الفصل الأخير) إلماحًا إلى زواجٍ كان يمكنُ «الفقر» أن يحول دونه. وهذه إشارةٌ مغريةٌ لهنري مارتينو، تستندُ إلى رسالة لستندال.

قدّم ميريميه كتابه إلى بعض الأصدقاء، حسب العادة المتّبعة. ونحن نخمّن الأمر الذي صدم صديقته ماري كلارك، في «الغلطة المضاعفة»، عندما قرأت الردّ

الهازل للمؤلّف، حين قال: «إنك تخطئين خطأ كبيراً حين لاتجدين قصتّي الصّغيرةَ طبيعيةً، ولأنهم «لايرتّبون الأمورَ هكذا في انكلترا»، فليس هذا مبرّرًا كي لاتنتقلَ العاطفةُ سريعًا، عبر القارّة الأوروبية، وفي الأجزاءِ المتحضّرة من العالم المسيحيّ.
فاسألي السيدة دوقة دابرانتيس كيف كان مرافقو زوجها العظيم يباشرون بوحهم الغراميّ لها، حين كانوا يرافقونها. . . »، ولا تمنعُ هذه المحاجّة الجسورة أن يكون اختيارُ عربة كإطار للحادثة الرئيسة اختياراً جريئًا جداً. أما تحليلُ السّبب فقد يكون أمرًا عسيراً. أما هيئةُ قضاء لويس- فيليب، التي كانت متساهلةً، فلم تجدْ ما تقوله فيها. بيد أنه عندما انقضّ الاحتشامُ الهجوميّ المتطرّف لهيئةِ القضاء الإمبراطورية على فلوبير عام ١٨٥٧ سعى محاميه إلى تبرئةِ عربة جياد «مدام بوفاري» التي لانعلم ماجرى فيها، على كلّ حال، وذلك بمقارنتها بالتصوير السّابق الارستقراطي الأكثر براءةً منها بكثير، وهو تصويرُ مقعدِ البريد (كذا!) الموجود في «الغلطة المضاعفة» والذي هو موئلُ أفعالٍ دنسةٍ علنيّة.
أما السّطر الأخير، من خلال صفته الملغزة بالتأكيد، («إن هذين القلبين اللذين لم يعرف كلٌّ منهما الآخر، ربما كانا قد خلقا، كلٌّ منهما للآخر.» فقد أضافه ميريميه عام ١٨٤٢، وقد يؤسفنُا ذلك؛ فهذا يُعَدُّ تفسيراً. والمؤلّف، بما أنه محبٌّ للخير، يعطي حلّاً اللغز. وحتى أن الأمر ليس كذلك؛ فهو يعرضُ حلاً للّغز. وهو ليس الحلّ الوحيد بالضّرورة. إن ثمة تحفُّظًا في كلمة «ربّما». وهي تنازلٌ يقدّم لقارئ حائر- أو لقارئة معينة بالأحرى. إنّه موقفُ ضعفٍ. فكم كان أفضل وأكثر انسجامًا مع أسلوبه الحقيقي أن يستخدم النّهاية الأولى:
«وابتسم دارسي ابتسامته السّاخرة التي كانت معهودةً لديه، ولكنه لم يجب بشيء».
ما من مؤلِّفٍ لميريميه أكثر مخادعةً من هذا المؤلَّف الذي تصعبُ الإحاطةُ بمقاصده أكثر من غيره. وما من مؤلَّف آخر كذلك يُفسحُ في المجال لضروبِ الأفكارِ المتعارضة؛ فهل يُعَدُّ النظر إلى «الغلطة المضاعفة» على أنها رائعةُ ميريميه، هل يُعَدُّ حبّاً للمفارقة والشّطط؟ إنها على أية حال مؤلّفه الأكثر إثارةً للاهتمام.

أرواح المطهر

نُشرت «أرواح المطهر» في لاروفو دي دومونـد، في ١٥ آب ١٨٣٤، والعنوان الذي لايناسب، من ناحية أخرى، إلا فصلاً من فصول القصّة، يبعثُ على الدّهشة، من خلال تلك المفردات الورعة التي قلما يستخدمها ميريميه إلا بصورة تهكّمية.

إن بعض الاحترام والرغبة النزيهة في الفهم لن يعقبا ذلك السّرور الوضيع، سرور الهزء، وذلك الإفراط في ضروبِ الإنكار المقتضبة إلا بعد مرور اثنين وعشرين عاماً، في رسائل السيدة روشجاكلان. وإذا ما نظرنا إلى مايكتبهُ ميريميه في بانيزّي، في المدّة نفسها، يمكننا أن نحكم بأنه كان يُعنى عنايةً كبيرة جداً بالتأدّب، في رسائله الموجّهة إلى السيّدة الكبيرة التي كانت تفخر بأنها قد هدتَه. إلا أن الأمرَ المؤكّد هو أن الدّين المرتبطَ بفكرة الموتِ لم يوحِ لميريميه إلا بالأقوال. وهي أقوالٌ ليس فيها وضوحٌ كبير ربّما، ولكنها مفعمةٌ بالاحترام. (الناسك في «كارمن»، ورئيسُ الدير روبينيون في «أرسين غيّو»، ومُعرِّف المحكوم في «رسالة إسبانيا الثالثة»، ومقاطع عدّة في «أرواح المطهر»). أيجدرُ بنا أن نذهبَ إلى أبعدِ من ذلك؟ وهل نجد في «أرواح المطهر» الدّليل على أن «فكرةَ التّوبةِ المسيحيّة» كانت تشغلُ ذهنَ ميريميه آنذاك، وأنّها تأكيدٌ على الدّليل في بعضِ الخيبات العاطفيّة التي أسرَّ بها مؤلّفُ «الغلطة المضاعفة» إلى أصدقائه في تلك المدّة؟ غير أن شكاياته المبتذلة بما يكفي والتي يضمّنها رسالتَه إلى إدوار غراسيّه بتاريخ ٢٣ حزيران ١٨٣٣، أو رسالتَه المؤرّخة في ٢٦ تموز إلى سوتون شارب، ذات وزنٍ قليل بالمقارنة مع الاعتراف الذي نعثرُ عليه في رسالته إلى إيبّوليت روايه- كولدر، بتاريخ ١٣

أيلول ١٨٣٤ . لقد صدرت «أرواح المطهر» منذ ثلاثة أسابيع، وكان ميريميه في ليون، فكتب: «إن حياة الرّيف فظيعةٌ، وسهراته طويلةٌ إلى حدٍّ مرعب، والنساء يلثغن بالراء وهنّ وسخات. وأنا أتناولُ العشاءَ اليوم مع العميد دولاتراب. وليس من المستحيل، في الوضع الذّهنيّ الذي أجد نفسي فيه، أن أرجوه أن يقبلني بين الأغرار. وهناك، مع ذلك، شيطانُ الإيمان بالله الذي طالما نفرتُ منه. فإذا كان ذلك الرجلُ مسكونًا بفكرةِ التّوبة المسيحية، فإن تأنيبَ الضّمير لديه غير كامل على أيّةَ حال».

من الأصوب أكثر أن نرى في مساراتِ ميريميه، ليس مساراتٍ زائفة بالتأكيد، بل اعترافاتٍ ساخرة، مفعمةً باستخفافٍ متنوّع ولا يتيحُ أيّ اعترافٍ منها التشكيك بنزعته الارتيابية التي لاتُقهر. وحين كتَب ميريميه «أرواح المطهر»، لم يخضعْ في ذلك لقلقٍ ميتافيزيقي أو أخلاقيّ، بل وجَدَ متعةً، هي متعةُ الفنان، في أن يروي قصةً تُعدُّ، في آخرِ تحليل، ومرّة أخرى، قصةً فظيعة.

إنها قصةُ دون جوان: فقد كان لابدّ لتلك الشخصية نصف الخرافية، ولابدّ لأسطورتها المشوّشة أن تغري ميريميه، وتشغل باله. وقد كان يعرفُ نصوصَ دون جوان التي كتبها موليير، وتيرسو دومولينا[1]، وبيرون، وهوفمان، وستندال (في الحب)، وأوبرا موزار. أما التحويرُ الذي أدخله على شخصية مانيارا فيحملُنا على أن نرى أنه قد استخدمَ تقاليدَ شفوية جمعها في إشبيليا التي يلفظون اسم مارانيا. هذا إذا لم يكن قد اطّلع على «القصة المقتضبة لجوان» والتي ألّفها كارديناس (١٦٧٩)، والتي أتاحت له تصحيحَ الكتابة الصّوتية لاسمِ بطله. إنه لم يقتبسْ شخصيةَ «مغُوي إشبيليا»، من تيرسودي مولينا بالضّبط. وقد جمع بين دون جوان تينوريو الأسطوريّ، والفارس المعروف جداً تاريخياً دون ميغيل دومانيارا الذي ولد في إشبيليا عام ١٦٢٧ ومات عام ١٦٧٩، ودمجَ بين الصّفات التقليدية لشخصيّتي

١- هو مؤلّف أول نصٍّ معروف لدينا عن أسطورة دون جوان: «مغوي إشبيليا والزائر الحجري». حوالي عام ١٦٣٠. (م: ز.ع).

دون جوان. وقد أبدع الشّخصيةَ الجهنميّة حقًّا، شخصية دون غارسيا. إن «أرواح المطهر» مؤلَّفٌ أصيلٌ وفريد، (وكتابٌ قويّ وقاتم) كما يقول بيتٌ شعريٌّ للكونتيسة دونوايْ.

إن القصةَ القاتمةَ باستمرار فعلاً والقويّة تغرقُ عند النهاية، أثناء المبارزة مع بيدرو دي أوجيدا، في «هالة» من القلق، ثم تتنزّلُ، قصةُ أيام دون جوان الأخيرة فتصبحُ مصطبغةً بانفعالٍ مكبوتٍ بصورة واضحة- وفجأة ينفعلُ المؤلِّفُ قبل بضعة أسطر من الخاتمة عن «أسوأ رجلٍ وُجد في العالم» ويتّخذُ لهجةَ شيشرون مُثقَّف، وقد ذكرنا سابقًا تلك السّمة من سمات فنّ ميرييه، ولسوف نعثرُ عليها أيضاً.

فينوس ديل

نُشرت «فينوس ديل» في «لاروفو دي دوموند» بتاريخ ١٥ أيّار، ١٨٢٧، فلقد حظي ميريميه في بيربينيان أثناء جولته الأولى في «الأوابد التاريخية» عام (١٨٣٤) بضيافة فرانسوا جوبير دوباساّ اللطيفة (١٧٨٥ - ١٨٥٦)، وهو هاوٍ مثقف، وعالم آثار، ومهندس زراعي، وفي الصفّحة الأولى من «فينوس ديل»، فإن السيّد دوب (السيّد ج. دو. بِ في المخطوطة) هو جوبير دوباساّ الذي زوّد السيّد دوبير هوراد بالصفّات المحبّبة للشخصية التي اقتُبست سماتها الهزلية والمضحكة عن تاجرِ أثريّاتٍ في المنطقة هو: بيير بويغارّي (١٧٦٨ - ١٨٥٤) الذي اختلف ميريميه معه لسببٍ طفيف؛ فحرّف اسمه حين أطلق اسم بويغاريغ على البطلة المأسوية لقصتّه. أماّ بيرهوراد فهو اسمُ مركزِ قضاء، في إحدى أقضية ليلاند، وهو اسمٌ بيارنيّ أكثر منه كاتالانيّ.

زار ميريميه دير دبلن، وبوليترنير، وكنيسة دير سيرآبونا، وقرية ديل - سير - لاتيت، وليس من التهوّر أن نفكرّ بأنه قد تحدّث مع جوبير دوباساّ عن عبادة فينوس البيرينيّة التي كان لايزال يؤكّد على وجودها بورفاندريس[1] القديم، والقريب جداً من تلك المنطقة. وقد كان علماءُ آثار روسيّون يكرسّون لتلك العبادة اهتماماً وطنياً لمعرفتها.

ورأى ميريميه، على طريق العودة، وفي متحف الأغسطينيين في طولوز، رأساً من الرّخام الأسود، وقد صنُع بياضُ العين فيه من قطعٍ من العقيق الذي فُتح فيه تجويفان. كان من المفروض أن يوضع فيهما بؤبؤين من المعدن، أو من الحجارة اللامعة. وفي نظرِ عالم التّحف القديمة الطولوزي دوميج، فإن هذا الرأسَ الذي

(١) ميناء فرنسي، في البيرينيه الشرقية، فيه صيدُ أسماك، وتجارةٌ، وصيدٌ للحيتان. (م: ز.ع).

عثُر عليه في حفريّات كالاغوري كان تمثالاً لفينوس. ولا ينبغي أن نصدّق شيئًا من ذلك، كما يبدو، فسواء كان التمثالُ لإلهةٍ أو لبشريةٍ، فمن الصّعب ألا نتعرّف فيه على النّموذج الأصليّ لفينوس ديل.

وحين رجع ميريميه إلى باريس، كتب إلى جوبير دوباسًا في ٩ آذار ١٨٣٦: «سأذهبُ لأرى مجدّدًا (ولم يرها ثانية قط) بلدتك الجميلة كانيغو التي آمل أن تكون مغطّاة بالضباب أقل مما كانت عليه في المرّة الأخيرة التي زرناها فيها؛ فهل تتذكّر النّدى الرقيق الذي كان يرافقنا من بول (Boule) إلى ذلك النّزل، نزل إيل الذي كان فيه العديدُ من الكاتالانيّات الجميلات؟»، وهكذا، فإن «فينوس ديل» تتسجّلُ شيئًا فشيئًا في ذكرياته، إطاراً، وشخصيّات.

ولكن من أين أتى بفكرة القصّة بحدّ ذاتها، وبأساس الحكاية؟ لقد دلّنا بنفسه على مصدرين لها، من حيث الشكل، وربما يكونان متناقضين، وربما متكاملين، وقد أخمدا حماسةَ الباحثين حتى الآن، على كلّ حال. فقد كتب لإلوا جوهانّو، في ١١ تشرين الثاني ١٧٤٧: «إن فينوس ديل ماوُجدت قط. . وقد أتتني فكرةُ هذه الحكاية، من خلال قراءتي لإحدى خرافات العصر الوسيط، والتي رواها فريهر. وقد اقتبست أيضًا بعضَ السّمات عن لوسيان الذي يتحدّث في كتابه[1] Philopseudés عن تمثال كان يضربُ الناس». وفي ١٠ آب ١٨٥١، كتب لفرانسيسك ميشيل: «قرأتُ لدى بونتانوس[2]، واعذرْني لكتابة أسماء غير متمدنّة إلى هذا الحدّ، قصة رجلٍ كان قد قدّم خاتَمهُ لتمثال فينوس المصنوع من الرخّام أو البرونز، ولكن زمنًا طويلاً قد مضى منذ ذلك الحين بحيث لم أعدْ أعرفُ ما هو ذلك البونتانوس».

لندع لوسيان. ففينوس ديل قلّما تدينُ له إلا بالكتابة المنقوشة على التمثال حيث تزيدُ مأسويةُ الموضوع الميريميّ من سخرية الأصل، «فقد قلتُ حينذاك: ليكن

(١) محبّو الأكاذيب. (م: ز.ع).
(٢) رجل دولة وعالم إنسانيات إيطالي. (١٤٢٦ - ١٥٠٣).

هذا التمثالُ الذي يشبهُ الإنسان كثيراً، ليكن مرحبًّا بنا، ومتعطفًا علينا». غير أنه لايمكن أن نظنّ ظنّاً صائبًا بأن ميريميه قد حاول تضليلِ عالمٍ جليلٍ من مثل «ايلو جوهانّو، أو صديق ليس أقلّ علمًا واطّلاعًا منه كفرانسيسك ميشيل. إذن، لكان عدمُ اللياقة قد تضاعفَ بعدم التبصُّر. فلنعدَّ من المؤكّد، والحالة هذه، أن ميريميه قد أصبح عام ١٨٤٧، يوردُ بثقة فريهير كما يورد بونتانوس عام ١٨٥١.

أما لدى ماركار فريهير، فليس هناك أثرٌ لتمثال يتكلّم، ولإصبعٍ تنثني على خاتم... لدى بونتانوس؟ ولكن عن أيّ بونتانوس يريد ميريميه أن يتكلم؟ إن هذا الاسمَ الأكثر ابتذالاً أيضًا مما هو غير متحضّر قد حمله مايصلُ إلى عشرين مصنفًا للنُّخَب، ومدونًا للأخبار، وشارحًا، فيما بين القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر. ولكن الأبحاثَ لم تؤدّ بعد إلى نتيجة، حسب التعبير الذي يتردّد بسهولة. ولكن ذاكرةَ ميريميه قد خانته، بعد مرورِ أربعة عشر عامًا، أو حتى بعد عشرة أعوام فقط. ثم أنّه ماأهمية الموضع الذي وجد فيه ثروتَه، وهو القارئُ الكبير، وإن كان قد وجدها عند فنسان دوبوفيه، أو عند غوتييه دوكوانسي، وعند هنري كنايتون، أو في الهيكل الوثائقي لإيكهارت الذي يأتي على ذكرِ هيرمان كورنر، ولدى رالف دو ديستّو، أو عند سانت أنطوان دوفلورانس الذي يذكره مارتان ديلريو، وفي «تتمة الأرجينيس ومتابعته»، ذلك الكتاب المليء بالمبالغات والمضجر. للسيّد موشمبرغ (١٦٣٣)، وفي «هجائيات» اليسوعي جاك بيدرمان (١٦٦٦)، وفي المقتطفات المكرّسة للخواتم (مجموعات الخواتم لفرانسيسكو دي كورتي ١٧٠٦، وكتاب الخواتم الفريدة، لجان كيرشمان، ١٦٥٦. وفي: الخواتم المثلّثة الطّبقات لهنري كورنمان، ١٦٧٢، أو أن تكون قد وُجدت في التماثيل التي تتكلّم (المجادلات الأكاديمية، في التماثيل النّاطقة لكريستيان أوغست لايرمان، ١٧٠١) أو في الحكايات الشّعبية المنظومة لباربازان أو لمينون؟ إن كلّ مايوحي، في هذه الكتب (وفي غيرها كثيراً)، قليلاً أو كثيراً، بتقريبات من «فينوس ديل»، يصدرُ عن قصّة غيّوم دومالمسبري الذي كان يكتبُ في بداية القرن الثاني عشر، وميريميه، في آخر تحليلٍ، ومن دون علمٍ منه، إنّما يَدينُ لمدوّن الأخبار الإنكليزي هذا بموضوع

«فينوس ديل»، أيًّا كانت الطريقُ التي وصل بها إليه. وهذا موضوعٌ قد استُثمر بوفرةٍ ولابدّ أن أصداءَ منه، أو انعكاسات حديثة العهد قد وصلت إليه بفضل مجلة: ميروار[1] بتاريخ ١٤ نيسان ١٨٢١، ولامود[1] (بتاريخ ٢٨ شباط، ١٨٣٠، وأوبرّا زامبا الهزلية (١٨٣١)..

لقد عرف ميريميه كيف يستمدُّ من موضوعٍ شديدِ الشّيوع مؤلّفًا يبلغ نوعًا من الإتقان الذي لافائدةَ من أن نتساءل عن طبيعته، طالما أن المؤلّف قد فكّك آليات ترابطِ القصّة لمرّتين، ناسيًا، والحقّ يُقال، القسْطَ الذي يُعزى إلى الموهبة: فقد كتب يقولُ في عام ١٨٤٨: عندما نروي شيئًا خارقًا للطبيعة، لايسعُنا أن نُكثرَ من تفاصيلِ الواقع المادي. وذلك هو الفنّ العظيم الذي يَبرعُ فيه هوفمان، في «حكاياته الخارقة»، وفي دراسته عن غوغول (١٨٥١) يقول: «إننا نعرفُ طريقةَ صناعة حكايةٍ خارقة جيدة، فبدأوا بصورٍ محدّدة جيداً لشخصيات غيرِ مألوفة، ولكنها ممكنة، وأضفوا على قسماتها الواقعَ الأكثرَ دقّة. إن مرحلةَ الانتقالِ من غيرِ المألوف إلى الخارق تصبحُ غيرَ ملحوظة، ويجد القارئُ نفسه في قلبِ الخارق، قبل أن يلاحِظَ أن العالم الواقعي قد أصبح بعيداً خلفه».

إن النصّ الأخير لميريميه، وهو نصٌّ جدٌّ معروف، ونجده في رسالته إلى السيّدة روشجا كلان بتاريخ ٢٨ شباط ١٨٥٧: «هل قرأت قصّة الأشباح التي كتبتُها والتي عنوانها: فينوس ديل؟ إنها رائعتي، حسب رأيي». علينا ألا نكون مخدوعين من جرّاء الخوف من أن نكون كذلك. وعلينا ألا نشكّ هنا بصدقِ ميريميه. فلاريب أنه يتكلّم هنا عن «عقاقيره» بصورةٍ أسهل مما يتكلّم عن روائعه. وفي مقطعٍ آخر من رسالته إلى إيلوا جوهانّو المذكورة أعلاه حول فينوس ديل نفسها، يقول: «إنها طرافتي الصّغيرة» ولكن لماذا يتهكّم عندما يتحدّثُ مع السّيدة روشجا كلان؟ فهل أخطأ ربما في ذلك؟ ولربما تكون فينوس ديل التي هي إحدى الرّوائع، ليست رائعته. إن عدداً آخر من مؤلّفات ميريميه يُبيح التّرددُ نفسه.

---

(١) بالتّالي: المرآة، والدُّرْجة. (م: ز.ع).

كولومبا

صدرت «كولومبا» في «لارفو دي دوموند»، في الأول من تموز، ١٨٤٠ وحتى قبل أن تُنشرَ الطبعة الأصلية في حزيران، ١٨٤١، كانت هناك أربعُ نسخ مقلّدة تؤكّد على النجاح الفوري لتلك القصّة التي هي، مع «كارمن» أكثر قصص ميريميه تقليديةً، وأكثرها شعبيةً، ولكن ماهو نصيبُ الأوبرا- الهزلية في شعبيةِ كارمن؟ إنها، شأن فينوس- ديل قد وُلدت من سفَرِ ميريميه إلى جنوب فرنسا. وإننا ندين «بكولومبا» للمهمّةِ التي قام بها ميريميه إلى كورسيكا، في مجال الآثار.

إن مفتش الأوابد التاريخية يجوبُ الجزيرة في كلّ اتجاه من ١٦ آب حتى ٧ تشرين الأول. ولقد قيّض له أن يكتبَ أنه «قد عاش في كورسيكا حياةً حقيرةً»، وهو يمتطي جواده باستمرار، وعبرَ مسالكَ وعرة. غير أن تلك الحياة لابدّ أن تجلبَ له التسليةَ مع ذلك. ولقد تركت له على كلّ حال مايكفي من الراحة ليكون لديه متّسعٌ من الوقت كي يتألّم من «النزعةِ الأخلاقيةِ المفرطة عند النساء الكورسيكيات، والتي تُكدّر المسافرين.» وقد أتاحت له تلك الحَياةُ أن يتذوّقَ حُسْنَ ضيافةِ «سكّان الجزيرة المتميّزين، من غير نفاق، والذين تعاطفَ معهم فوراً. إن رسائله إلى كونتي، وفوجين، وموراتي ذات نبرة، لامجال للشكّ فيها.

وفي ١٥ تشرين الثاني، كان ميريميه عائداً إلى مرسيليا التي تزعمْ أسطورة غير معقولة فيها بأنه قد كتب «كولومبا» في غضونِ ثمانية أيام، وذلك في غرفة نزل.». إلا أن ميريميه يغادرُ مرسيليا في ١٧ تشرين الثاني- كما أن فندق بوفو لم يكن نزلاً!

وهناك حماقةٌ أخرى تقول: إن ميريميه قد كتب كولومبا ست عشرة مرة (ولايقولون إن كان ذلك قد جرى في مرسيليا) وفي كل ّنسخةٍ جديدة، كان «يقلّص» النص ّ.

لقد كان بإمكان مؤلّف «ماتيو فالكون» أن يُشبع في كورسيكا فضولَه الذي يسيطر عليه تجاه النفوس المشبوبة العاطفة، والطّباع العنيفة. ولكنه قد وجد على أرضِ الواقع، في كورسيكا هذه المرّة، أشياءَ هي أفضل من الخرائب الأثرية. «وقد كتب يقول في ٣٠ أيلول ١٨٣٩، إلى روكيان: إن هذا البلدَ فقيرٌ بالأوابد، غير أن الطبيعةَ الصافية هي التي أعجبتني خصوصاً. وأنا لاأتحدث عن الأدغال التي تتمتّع بميزةٍ وحيدة، هي أن رائحتها طيبة جداً في حين أن عيبها هو أنها تحيلُ المعاطفَ إلى قطعٍ ممزّقة. ولا أتحدّثُ عن الوديان، ولا عن الجبال، ولا عن المناظر الطبيعية المتماثلة جميعًا، والفظيعة في رتابتها نتيجة لذلك، ولا عن الغابات التافهة، مهما قيل عنها. وإنما أتكلّم على طبيعة «الإنسان» الصّرفة. إن هذا الثّديي بالفعل محبٌ للمعرفة كثيراً هنا. وأنا لاأتعبُ من أن أطلب بلا كللٍ أن تُروى لي حكايات عن الثأر.». وفي اليوم السابق، كان يكتب لإيتيين كونتي: «إني أنتظر انتهاء المطر كي أذهب إلى موراتو، وإلى الغاجولا، وبانتظار ذلك الوقت، أنقّب في ملفّات البلاط الملكي، واغتذي بحوادث الاغتيال...».

كان ميريميه قد التقى، قبل أسبوعين من ذلك الوقت، في فوزانو، «بطلةً هي السّيدة كولومبا، وهي بارعةٌ في صناعة طلقات الرّصاص. وحتى أنها كانت شديدة المهارة في إرسالها إلى الأشخاص الذين لايعجبونها لسوء حظّهم. وقد استطعت (كما يتابع ميريميه) أن أستميلَ تلك السّيدة الشهيرة التي لايتعدّى عمرُها خمسةً وستين عامًا. وعندما افترقنا، تبادلنا القبل على الفمّ، على الطريقة الكورسيكية. وقد واتاني الحظ ّنفسه مع ابنتها، وهي بطلةٌ أيضًا. ولكنها في العشرين من عمرها، وجميلةٌ مثل ملاك، ولها شعرٌ ينسدلُ حتى الأرض، واثنتان وثلاثون لؤلؤة في ثغرها، وشفتاها صاعقتان. وطولها خمسةُ أقدام وثلاث بوصات. وقد وجّهت،

وهي لاتزال في سنّ السادسة عشرة، ضربات متّصلة من أكثر الضّربات إتقاناً لعامل من الحزب المضاد. وهم يدعونها لامورغانا، وهي فعلاً جنّية، وقد سُحِرتُ بها. . .».

وهكذا فميريميه نفسهُ يُفضي إلينا «بمصدر» قصتّه في رسالته إلى روكيان غير أنه لم يكتشف كولومبا. وحتى لو أن مضيفيه الكورسيكيين لم يقدِّموه إلى تلك السّيدة الشهيرة، لما كان ممكنًا أن يجهلها، بعد أن كان قد قرأ، حسب كل احتمال، وقبل أن يسافر بحراً، «رحلات إلى كورسيكا»، وإلى جزيرة إلبا، وإلى سردينيا للسّيد فاليري. وقد نشرت عام ١٨٣٧، وكانت في ذلك الحين أفضل الأدلّة وأحدثها، وإليكم ما قاله فاليري:

«إن النساء لايندفعن إلى الثأر بحماسة أقلّ من الرجال. وقد زرتُ السّيدة كولومبا بارتولي التي كانت قديمًا فارسةً حقيقية كالرّجال، برغم رقّة اسمها، وكانت تحسن كثيراً جداً إطلاقَ العيارات النارية من البندقية. إنّ السيدة بارتولي، التي تبلغ ستين عامًا، والتي لاتزال نضرةً، قد فقدت ابنَها الوحيد في مواجهة حدثت في ٣٠ كانون الأول ١٨٣٣، وقد قضى فيها أربعةُ رجال، وجُرح رجلٌ واحد. ويبدو أن الفتى قد كان أحد المهاجمين. لأنّ ساحة خصومة قد بُرِّئت، وهذا قرارٌ كان ألمُ الوالدة الطّافح بالانفعال يتّهمه خطأً بأنه نتاجُ الرشوة.

كانت السّيدة بارتولي تقول لي: «إن العدالةَ تُباع في باستيا مثل كل ماعداها.» وقد كرّست لابنها المأسوف عليه مصلّى صغيراً، وقبلت أن تبعث بي إليه برفقة ابنتها كاترين. وهي فتاةٌ جميلةٌ، وبيضاء البشرة، وقويّة البنية، وتُطلقُ النار مثل السّيدة والدتها. وكانت ملابسُها الحدادية تذكّر بالمواجهة المشؤومة التي قضى شقيقُها فيها».

أما كولومبا فكانت في ذلك الحين شخصيةً محليةً مشهورةً، ولقاء بعض التحريفات للحقيقة. وهذا أمرٌ مسموحٌ به للقاصّ، صنَع ميريميه منها نموذجاً شاملاً وأسطوريًّا، صنع منها إلكترا ريفية، وذلك بأن نَسَب إلى الابنة التي كانت في

الواحـدة والثلاثين من عمرها، عام ١٨٣٩ (وليس في العشرين) المآثر الدامية، مآثر والدتها.

كـانت كـولومبا كـارابيلّي قـد وُلدت في فوزآنو، بتاريخ ٧ أيار لعام ١٧٧٥، وتزوّجت رجـلاً من آل بيرتولي، وماتت في أولميتو، في منزل صـهرها بتـاريخ ٦ كانون الأول لعام ١٨٦١. أما ابنتُها كاترين التي ولدت عـام ١٨٠٨، فقد تزوّجت عـام ١٨٤٣ من جوزيف إيستريا، والذي كـان عشيقـهـا منذ سنوات طويلة. وهذا تفصيلٌ لابدّ أن ميريميه كـان يجهله- وإلا لكان زخرفَ الصّورة المثيرةَ للانفعـالات لبطلته، وهذا تفصيلٌ قد يكون ذكرُه فظًّا، برغم مرور قرن من الزّمان عليه، ولو أن معـاصرين لميريميه، سليمي النيّة، أو خبثاء قد أخذوا على محمل الجدّ أكثر من اللازم «افتتانَه» بكولومبا، فظنّوا أن مؤلّف «المرأة شيطان» قد فكّر جديًّا بأن يتزوّجَ من تلك المتوحشة، فلابدّ إذن أن يكون قد خلص من خطرٍ داهم..

لقد كـتب ميريميه إلى فـوجان، في ٢٢ تشرين الأول ١٨٣٩ يقـول: «غـالبًا مانجدُ هنا الطّابع المحلّي، وهو متوافرٌ كالبقّ». وقد اعترَضَ على الطّابعِ المحلّي في «كـولـومبـا» القـليلُ من النّقـاد. أمـا «الطّبـائع»، فـهـل راعـاهـا مـيريميـه، على الأقل؟ وبكلمةٍ واحدة، هل تُعدُّ «كولومبا» كورسيكية؟

ينبغي أن نضيفَ إلى النصوص الحقيقيّة التي ورد ذكرُها نصًّا آخر؛ فأهميّتُه نادرةٌ من حيث أنّه يكشف عن مـخطّط القـصّة الأوّلي، وهو يكتب في طولون، في ١٢ تشـرين الثـاني ١٨٤٠ إلى ايتيين كـونتي: «يجب أن أعترفَ لك بأمرٍ، فـأنا لـم أتبعْ، في نـهـاية القـصـة، المخطّط الذي رسـمتُه لنفـسي في البداية. وكنت أنوي أن أصورّ في «كولومبا» الحبَّ الأسريَّ القويّ جداً في جزيرتكم: فبعد أن تثأر كولومبا لوالدها، كنت أريدُ أن أظهرها مشغولةً بتأمينِ ثروة شقيقها. وكنت سأجعلُها تُدبِّر نوعًا من مكيدة، تجبر فيها الوريثةَ الإنكليزية على الزّواج من أخيها. وربما كان الأمرُ أكثر واقعية بتلك الصّورة. وقد قالت لي سيدةٌ أريتُها تلك النهاية: لقد فهمت

بطلتك حتى هنا . أما الآن ، فأنا لم أعدْ أفهمها . إن التأليف بين مشاعرٍ على تلك الدّرجة من السّمو ، والنّظرات المغرضة يبدو لي غيرَ ممكن .

«إني أحترمُ كثيراً ذوق تلك السيدة ، وقد أجريتُ التغيير الذي رأيتموه فتركت مقاصدَ الآنسة كولومبا غامضةً ، ومع ذلك ، فقد أقلقني هذا المأخذُ على البطلة ، مأخذَ الخسّة ، والنظرات المغرضة ، ولذلك ، فقد أفرطتُ في المشهد الأخير ، في تصويرِ عاطفة الثأر . » .

فبين «كولومبا التي تخيّلها ميريميه في البداية و«كولومبا» التي صحّحتها السّيدة ديلسيّر ، أيّهما الأكثر أمانةً للواقع ؟

ب.ج

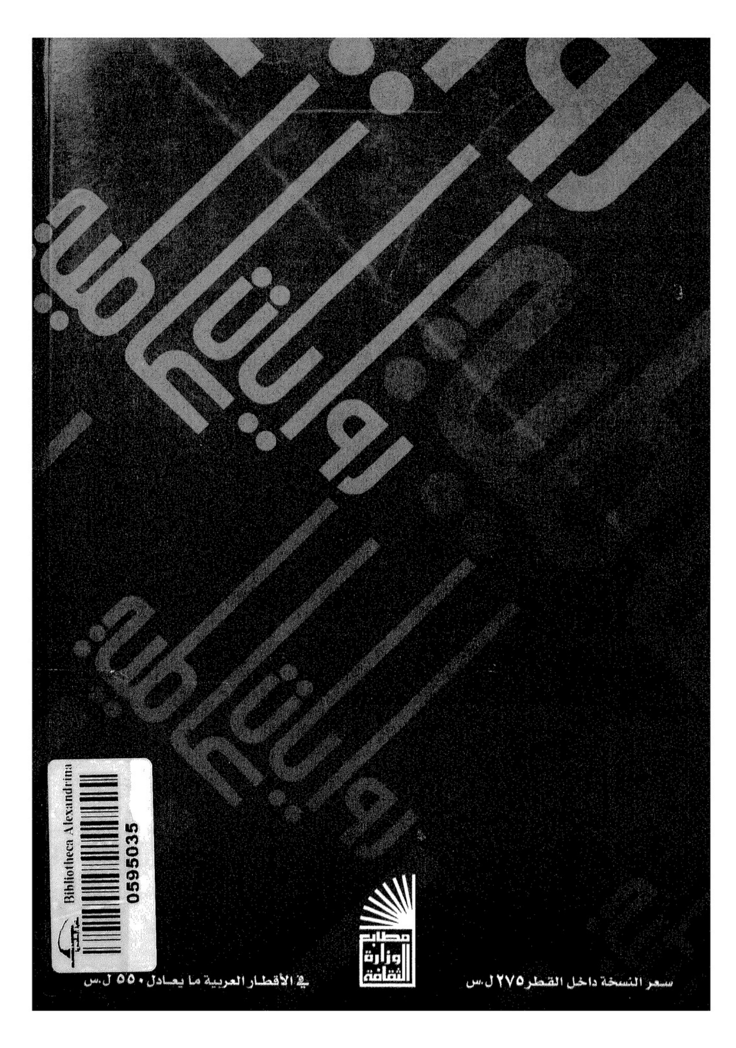
بيير جوسّان

الفهـرس

الصفحـة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٢
عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة


روايات عالمية
روايات عالمية
مطابع وزارة الثقافة
سعر النسخة داخل القطر ٢٧٥ ل.س
في الأقطار العربية ما يعادل ٥٥٠ ل.س